قدري قلعجي

صلاح الدين الأيوبي

قصة الصراع بين الشرق والغرب

خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد

صلاح الدين الأيوبي

قصة الصراع بين الشرق والغرب
خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

بيروت . لبنان

ص . ب. ٨٣٧٥

هاتف: ٣٥٣٠٠٠ ـ ٣٥٠٧٢١ـ ٣٥٠٧٢٢ـ ٣٤٤٢٣٦ـ ٣٤٥٤٦٠

تلكس ـ ٢٢٦٦١

فاكس ـ ٠٠٣٥٧٩٥٢٢١٠٧

بناية الوهاد . شارع جان دارك . بيروت

الطبعة الأولى

١٩٩٢ م

قدري قلعجي

صلاح الدين الأيوبي

قصة الصراع بين الشرق والغرب
خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد

الجزء الأول

قبل صلاح الدّين

● ثمة شواهد عديدة على ان امراء الحملة الصليبية ، حين اندفعوا بسياستهم التوسعية ، انما كانوا يستهدفون غايات دنيوية محضة .

جون لامونت

● كانت الحروب الصليبية أول تجربة في الاستعمار الغربي قامت بها الأمم الاوروبية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق .

ج . و . تومبسون

● وبدلاً من أن يتحد الأمراء المسلمون ضد الصليبية ، واجهوها فرادى ، وفرادى سحقوا ، الواحد تلو الآخر ، وتغلغلت الصليبية بينهم .

رينه غروسه

الفصل الأول

الشرق والغرب

في ذلك الزمان ، كانت الامبراطورية العربية قد اجتازت عصرها الذهبي ، وبدأت تسير في طريق الانهيار ، تدفعها اليه عوامل شتى اهمها تغلغل الموالي الفرس ثم المماليك الأتراك في جهاز الحكم وقيادة الجيوش ، وتمرّد الأمراء والقادة العسكريين في الجهات التي يحكمونها ، وتنازعهم على كل بقعة من الأرض ، وظهور الدول المستقلة وشبه المستقلة في انحاء الدولة العربية القديمة ، كالصفارية والسامانية والغزنوية والعلوية والأغلبية والفاطمية والطولونية والأخشيدية والزيدية وغيرها ، فضلاً عن الامارات أو الدويلات التي كانت رقعتها تقتصر أحياناً على مدينة أو بلدة واحدة وما جاورها من القرى !

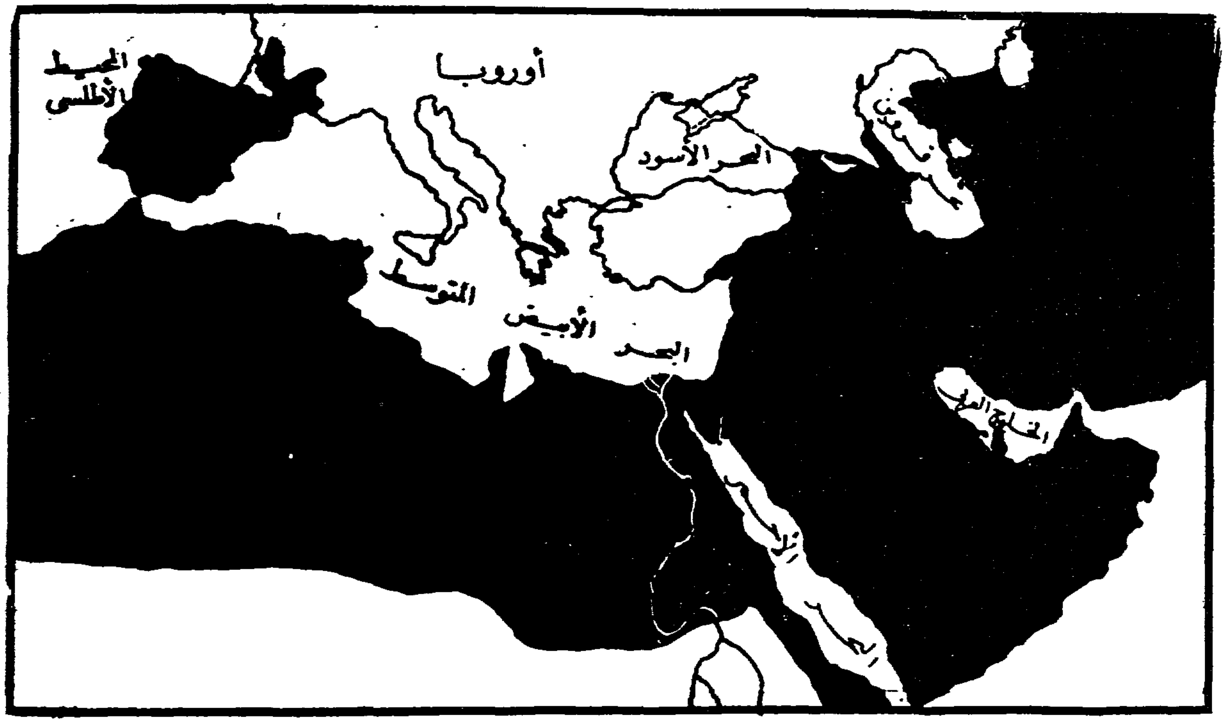
ولكن عواصم تلك الامبراطورية العربية ظلت مع ذلك مشرق الحضارة السائدة يومذاك في العالم ، وظلت اللغة العربية الرباط الوثيق الذي يصل بين بغداد والقاهرة في الشرق ، وقرطبة وأشبيلية في الغرب ، وظل الفكر العربي ، الذي جنى ثماراً يانعة من الحضارة الفارسية والتراث اليوناني ، يواصل سيره الظافر حيث وقفت جيوش العرب عاجزة او ارتدّت مدحورة .

وقد أدى تضعضع العرب السياسي ، الى ازدهار الدولة البيزنطية من جديد ، فظهرت على مسرح التاريخ كدولة عالمية محـــل الامبراطورية العربية ، وألف الحكم البيزنطي والمذهب الارثوذكسي واللغة اليونانية وحدة كبيرة من شعوب غربية وشرقية متعدّدة ، وأصبحت القسطنطينية السوق التجارية الرئيسية بين أسواق العالم .

اما في اوروبة التي كانت تتقدّم ببطء شديد ، فقد بدأت الشعوب تلتف حول قصور الاسياد وحصونهم ، لتحتمي بها من غزوات القبائل الشمالية ، فتوطّدت بذلك دعائم النظـام الاقطاعي الذي يصون السيد في ظله حياة الفلاح مقابل استثماره لعمله ، وحل الاسياد محل الملوك في حكم البلاد حكماً فعلياً وان بقي لهؤلاء الحكم الاسمي .

وقد نما هذا النظام في فرنسة بنوع خاص . ولم ينقض وقت وجيز حتى اصبحت للسيد حقوق متوارثة ، وفُرضت على الفـــلاح واجبات متوارثة ايضاً . وسرعان ما انتظم رجال الاكليروس في عداد الطبقة الاقطاعية ، وتقاسمت الكنيسة ملكية الارض مع النبلاء . وكانت هذه الاقطاعات منعزلة بعضها عن بعض ، ولكل منهـــا اسواقه وتقاليده الخاصة ، وكثيراً مـــا تتحارب فيما بينهـــا في البـــلد الواحد ، او تتفق احياناً لمحاربة قطر آخر ، لان الغزو والنهب يعودان عليها باضعاف ما يعود به العمل الشريف ، حتى غدت الفروسية في ذلك المجتمع الفضيلة الاولى .

وكانت رومة والقسطنطينية تهيمنان على اوروبة كلها ، الاولى بوصفها مقر البابا ومركز المذهب الكاثوليكي وهي تطمح الى توحيد اوروبة تحت نفوذها بهذه الصفة ، والثانية ببضاعتها وفنهـــا ونقدهـــا الذهبي وسيطرة مراكبها التجارية على حوض البحر الابيض المتوسط . وقد حرصت بيزنطية



الامبراطورية العربية في أوج مجدها ، وقد امتدت من المحيط الاطلسي غرباً الى حدود الصين شرقاً
فلم تفقها امبراطورية أخرى في العالم حتى الامبراطورية الرومانية

حرصاً شديداً على ان تظل مقاليد التجارة في يدها ، لانها مبعث عظمتها وتفوقها ، وكان اتساع هذه التجارة يحرّر قسماً من سكان اوروبة من سيطرة الاقطاعية ، فينشئون على شواطىء البحر ، ولا سيما الشواطىء الايطالية ، مدناً تجارية تنقل بضائع الشرق الى الغرب .

وساد السلام حيناً أقطار اوروبة المتفككة المتعادية ، فأتيح للاقطاعية ان تنتقل الى عهد من الازدهار انصرف فيه اصحاب القصور والأديرة الى العناية باستثمار أراضيهم وزيادة خيراتها ، مجندين جماهير الفلاحين لقطع الغابات وتجفيف المستنقعات وحرث الارضين وتعبيد الطرق ، حتى تغير وجه اوروبة وامتدت فيها السهول المترامية والحدائق الغناء . وبدأ الفلاحون يستخدمون الحجارة في بناء منازلهم ، فنشأت القرى الى جانب القصور والاديرة ، وعمّرت الكنائس من الحجر بدلاً من الخشب، على طراز اسلامي انتقل الى فرنسة عن طريق الاندلس بوساطة البنائين العرب . وعن هذه الطريق نفسها انتقلت الى فرنسة والى اوروبة كلها ، اسس التفكير العلمي والفلسفي ، وفتوحات الأغريق والفرس والعرب في هذا الميدان ، كما انتقلت اليها عن طريق بيزنطية : الفنون والآداب [1] .

واجتازت اوروبة الالف الاول للميلاد ، واتصالها بالشرق يزداد ، واتجارها واياه يتعاظم ، ونهوضها وتكتلها يكادان يرافقان انهياره وتمزق اوصاله . وقد اشتد في الاقطار الاوروبية المختلفة النزوع الى الحضارة وبنائها على الاسس الكاثوليكية . اذ ان اوروبة لم تكن تفرق في القرن الحادي عشر ، بين الثقافة والمسيحية . وكانت المسيحية تواصل سيرها الظافر ، حتى لم يبق في اوروبة من البلدان الوثنية الا بلد واحد هو

---

١ — La Prodigieuse Histoire de l'humanité, p. 236

السويد . فان حرث الأرضين كان يرافقه حرث الضمائر .

وقد انتشرت الاديرة على الدروب المتشعبة التي كانت في وقت واحد : طرق الحج الى بيت المقدس ، والطرق الاقتصادية الرئيسية . لقد انشئت هناك الوف الاديرة ، واخذ الرهبان يمتزجون بالحياة الاجتماعية فيُدخلون عليها فنونهم ومعارفهم ، ويبنون ، ويفتنون ، ويضمنون في الوقت نفسه ملكية المنطقة التي يستثمرونها .

وهكذا اضحت المسيحية في اوروبة ، كما كانت البوذية في آسية ، والاسلام بين الشرق والغرب ، الرواق الذي تعبر منه الحضارة . بيد ان نفوذ البابوية كان في ذلك الحين اضعف منه في اي وقت آخر ، إذ كان البابا الذي انتُخب في سنة ٤٢٥ هـ ١٠٣٣ م لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، مما جعل الجميع يدركون ضرورة اصلاح الكنيسة ويتحدثون به . الا ان الاديرة كانت ما تزال تنشر في اوروبة شبكة واسعة من المبادلات التجارية ، تنمّي القوى الاجتماعية الناشئة فيها ، وتجعل الاتجار مع بيزنطية امراً محدوداً لا يكفي حاجات المجتمع المتزايدة .

كانت البضائع التي يحملها التجار كثيرة متنوعة ، وكان الصناع اليدويون الذين ينتجون النسيج في الفلندر وشمبانية في حاجة متعاظمة الى الصباغ والحرير والقطن التي تصلهم عن طريق البندقية ، الجسر الذي يصل بين الغرب والمجد البيزنطي .

وقد استطاعت الغزوات العربية ان تُنزل اضراراً كبيرة بالمراكب البيزنطية ، فأفادت البندقية من ذلك فائدة كبرى ، اذ نشط تجارها الى العمل المستقل ، ولم ينقض امد يسير حتى تحولت هذه المدينة الى مركز تجاري عظيم في حوض البحر المتوسط ، تنافسه بيزة وجنوة ، وتناصره مرسيليا ومونبلييه ، ولم تعد هذه المجموعة من المدن التجارية

أسواقاً بيزنطية وانما غدت مزاحماً قوياً لها في الاسواق العالمية .

وكان مجد بيزنطية قد اشرق من جديد في عهد باسيليوس الثاني امبراطور القسطنطينية المعروف باسم « قاتل البلغار » والذي تنصّر الروس في عهده إثر طلب الامير فلاديمير حنة شقيقة باسيليوس زوجة له ، فقبل العاهل البيزنطي ذلك شرط ان يتقبل فلاديمير النصرانية ، فتقبلها وأمر شعبه باعتناقها [1] . وقد أدرك هذا الامبراطور الخطر الذي يحدق ببلاده من جراء مزاحمة المدن الايطالية ، ولكن كان عليه في ذلك الوقت أن يردّ عن بلاده أخطاراً أخرى ، فالتحم مع البلغار في معارك ظافرة أمر في نهايتها بأن تُسمل عيون ١٥ ألفاً من أسرى البلغار إلا مائة وخمسين منهم أبقى لكل واحد منهم عيناً واحدة ليقودوا اخوانهم في عودتهم الى بلادهم [2] ، كما اشتبك مع العرب في قتال طويل كان النصر فيه سجالاً بين الفريقين ، ثم قنع من المجد الحربي بالدفاع [3] . وفي أواخر سنة ٣٧٧ هـ ٩٨٧ م اضطر باسيليوس الثاني الى مصالحة الخليفة الفاطمي العزيز بمعاهدة كان من شروطها ان يُذكر اسم العزيز في خطبة الجامع في القسطنطينية ، وكان قد قام في القسطنطينية مسجد منذ القرن الثامن الميلادي [4] (القرن الثاني الهجري) . الا انه ما لبث أن هزم الجيش الفاطمي حين زحف هذا الجيش الى حلب بعد وفاة سعد الدولة الحمداني طمعاً باحتلالها ، واستنجد لؤلؤ الكبير الوصي على ابن سعد الدولة بامبراطور الروم الذي طالما اشتبك الحمدانيون معهم في ضاري المعارك ،

---

١ — الروم وصلاتهم بالعرب للدكتور أسد رستم ، ج ٢ ص ٥٣ .
٢ — تاريخ العالم لجون هامرتن ، المجلد الرابع ص ٥٨٢ .
٣ — الحروب الصليبية الاولى للدكتور حسن حبشي ، ص ١٤ .
٤ — الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ٥٤ — ٥٥ .

فأنجده ، فظفر الفاطميون بجيشه في موقعة العاصي سنة ٣٨٤ هـ ٩٩٤ م ، فنهد اليهم بنفسه ، وفاجأهم عند حلب ، فتراجعوا عنها وفروا أمامه حتى أبواب دمشق .

وحين قضى باسيليوس الثـاني نحبه سنة ٤١٦ هـ ١٠٢٥ م ، تداعت الامبراطورية البيزنطية في جميع تخومها ، وأضحت القسطنطينية ، مثل بغداد ، رمزاً لحضارة عظيمة ، أكثر منها مركزاً لدولة قوية . ثم ما لبثت أن تعرضت لخطرين جديدين مفاجئين : غزوات الشعوب الشمالية أو النورماندية في اوروبة ، وهجمات القبائل التركية في آسية .

ذلك ان قبائل الأتراك السلاجقة التي استوطنت أواخر القرن العاشر على ضفـاف اموداريا [1] ، مـا لبثت ان تقدمت شطر فارس واعتنقت الاسلام ، وثارت على الدولة الغزنوية فقهرتها ، ثم زحفت غرباً فدانت لها البلاد من تخوم فارس الى شواطىء البحر الابيض المتوسط ، وطفقت تناوىء العلويين في الشام حتى امتلكت الجزء الاكبر من سورية ، وكادت تضع يدها على البلاد المصرية . كل ذلك والخلافة باقية لاحفاد العباسيين ، ولكن كان للخلفاء منها الاسم ، وللسلاجقة كما كان للديلم من قبلهم ، مُسمَّاها .

وقد بدا حينذاك ان هذه القبائل الزاحفة في عنفوان وقوة ، انما تهدد الشرق والغرب بموجة بربرية جديدة تطغى على مراكز الحضارة في العالم . بيد ان البرابرة المقتحمين كانوا يحملون هذه المرة جوازاً هو الاسلام ، يدخلون باسمه الى تلك البقاع ويحتمون بنفوذه فيها .

---

١ - نهر جيحون أو الاوكسوس كما كان يعرف في الزمن القديم .

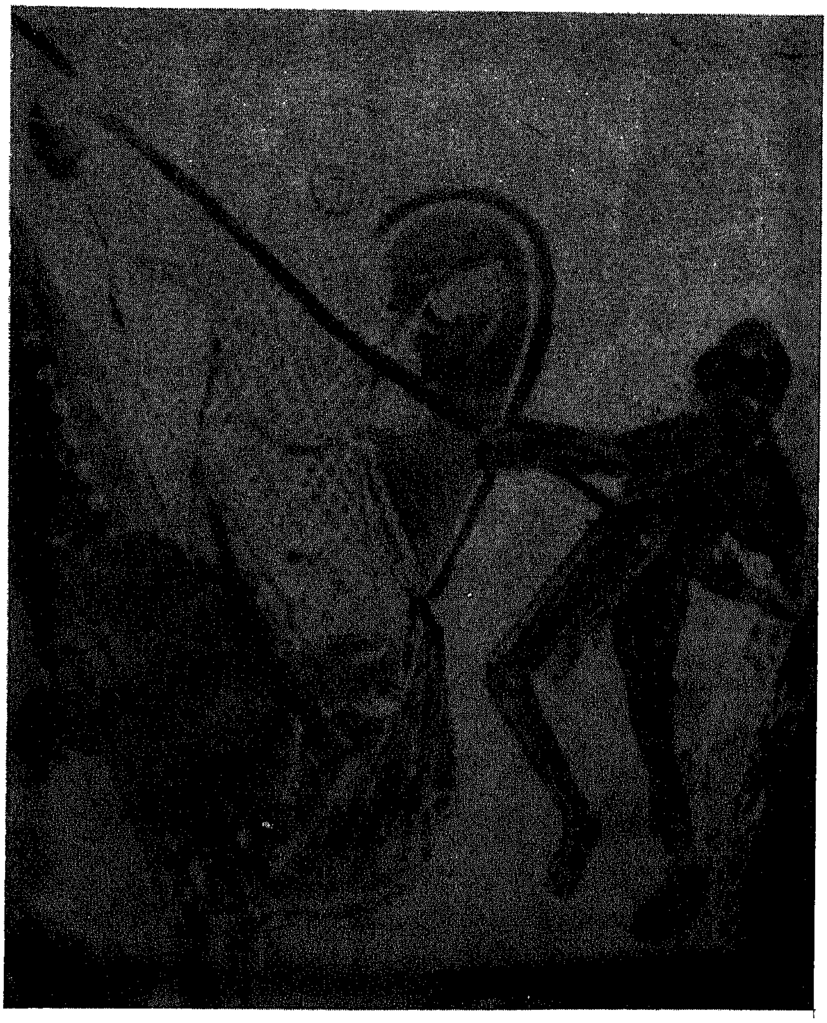
ولكن هل كان في وسع الانظمة الاسلامية أن تتغلغل في حياة هذه القبائل الرحالة وتطبعها بطابعها وتحررها من همجيتها ، بمثل تلك السرعة ، دون ان تلابس الحضارات السائدة وتتفاعل معها ؟

يقول سيد أمير علي : « مع ان الاتراك والمغول ينتميان الى أصل واحد ، فقد كان بينهما فرق كبير ، إذ بينما كان المغول يعيشون وما يزالون في أقصى حدود آسية الشرقية في حالة شبه بربرية تقارب حياة التوحش ، كانت القبائل المغربية قد تأثرت تأثراً كبيراً باحتكاكها بمدنية العرب . وكان السلاجقة الذين كانوا أعظم هذه القبائل تقدماً ، قد اعتنقوا الاسلام بحرارة واندفاع ، وأصبحوا حماته الغيورين . وفيما كان العرب منصرفين الى تشجيع فنون السلم ، كان السلاجقة منصرفين بكل قواهم الى نشر سلطان الاسلام وبسط نفوذه ، والنصف الاخير من القرن الحادي عشر انما يشكل أزهى حقبة في تاريخهم ، ففيها اعترف السلاجقة بسلطان أعلى واحد ، واتحد امراؤهم الاقطاعيون فيما بينهم وأعلنوا له اخلاصهم وولاءهم [1] . »

أما القبائل النورماندية فكانت الشعوب الاوروبية تعرف بأسها وتخشى خطرها . وكانت تراها في كل مكان يتسع فيه المجال للمغامرة . وقد انتظم فريق منها في صفوف الفرسان الفرنسيين الذين وضعوا أنفسهم تحت إمرة ملك قشتالة في حروبه مع ملك قرطبة ، كما انتظم فريق آخر في صفوف الاجناد العرب الذين بلغ من تضعضعهم في الاندلس والمغرب ، انهم استنجدوا بالقبائل الشمالية لمساعدتهم في صقلية ، فما كادت هذه القبائل تستقر في جنوب ايطالية حتى أنشأت دولة اقطاعية نورمندية

---

١ — مختصر تاريخ العالم ترجمة عفيف البعلبكي ص ٢٧٤ .



فارس أوروبي في أواخر القرن الحادي عشر ، عن لوحة قديمة.

برئاسة روبير غيسكار وبسطت سيطرتها على صقلية بعد أن ظل العرب قابضين فيها على زمام الامر قرابة قرن كامل ، متحدين سائر المحاولات التي جرت لاجلائهم عن البلاد [١] . الا ان الحكام النورمانديين قد افسحوا للعلماء والصناع العرب مجال العمل والابداع في الجزيرة . « وهكذا فاق ازدهار العلم في صقلية في ظل النورمنديين أيما ازدهار مماثل في اوربة الوسيطة . واحتفظ روجر الاول بالنظام الاداري الذي أقامه المسلمون ، وراح البارونات النورمنديون والامراء المسلمون يضطلعون بشؤون الحكم اليومية في تناغم كامل . والواقع ان أقدم وثيقة ورقية اوربية معروفة انما دونت في صقلية ، وان أول قطعة نقد اوربية انما ضربت في الجزيرة وهي تحمل تاريخ سكبها بالارقام العربية . وقد وضع الجغرافي العربي العظيم أبو عبدالله الادريسي ، خرائطه المشهورة للعالم المعروف آنذاك برعاية روجر الثاني . أما عناية فردريك الثاني بالعلم الطبيعي فقادته إلى الاخذ بناصر العلماء المسلمين في حقول متفاوتة جداً – حقول الرياضيات ، وعلم الاحياء ، وعلم الحيوان ، وعلم التنجيم ، والبزدرة ، وعلم حفظ الصحة . ولم يطبع المسلمون بطابعهم حركة صقلية العلمية فحسب ، بل طبعوا حياتها اليومية أيضاً بذلك الطابع . فخلال عهدي روجر الثاني وفردريك الثاني أمست العربية لغة رسمية في صقلية الى جانب اللاتينية ، وغدا من العسير على الزائر ، بسبب من اصطناع الازياء العربية والمآكل العربية والعمارة العربية ، أن يميّز هذه المملكة النصرانية من جاراتها الاسلامية المعاصرة في الشرق الادنى أو اسبانية [٢] . »

ولقد كان ذلك الهجوم المزدوج - من قبل السلاجقة والنورمانديين –

---

١ – تاريخ العالم لهامرتن المجلد الرابع ص ٥٧٥ .

٢ – الاسلام والعرب لروم لاندو ، ترجمة منير بعلبكي ص ٩٢ – ٩٣ .

حرياً بأن يخدم بيزنطية ، فان السلاجقة بتغلبهم على خليفة بغــداد قد أنقذوها نهائياً من مطامح الخلفاء والعباسيين ، كما أن النورمنديين بانتزاعهم الحكم من أيدي العرب في صقلية ، قد أنقذوا المراكب البيزنطية من الغزوات العربية التي كانت تتعرض لهــا منذ أن سيطرت القوة البحرية الاسلامية في مناطق صولتها الثلاث الكبرى : اسبانية وشمــال افريقية وصقلية ، أو في مراكزها الأخرى في كريت وسورية ومصر ، على البحر الأبيض المتوسط [1] . ولم تكن ذكــرى غزوات الفاطميــين البحرية على سواحل بلاد الروم واستيلائهم على سردينية وقرسقة وجنوة ببعيدة عن الأذهان ، وان كان اتجاههم في عهد المعز الى الشرق واتخاذهم الأهبــة لفتــح مصر قد صرفــاهم عن الاهتمام بأمر الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط [2] ، ولكن من يدري متى يعيدون الكرة ويتجهون بمطامحهم الى الغرب .

ولكن الواقع كان على نقيض ذلك ، فان ذينك الحدثين الخطيرين قد وجها الى الامبراطورية البيزنطية ضربة كبرى لا تقل اهميتهــا عن الخسارة التي تكبدتهــا من جراء النشاط التجــاري الذي ابدته المدن الايطالية . وكانت الضرائب الفادحــة ، وثورات الامراء الاقطاعيين ، والفوضى التي سادت في صفوف الجيش ، قد زلزلت صرح الامبراطورية البيزنطية . ثم اصبح الانشقاق بينها وبين البابوية أمراً واقعــاً صريحاً ، بعد ان استعادت هذه مركزها في اوروبة بمــا أدخلت من إصلاح على الكنيسة ، وأضحت الدولة البابوية في عداد الدول القوية الفعالة ، فقضت

---

١ – تاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن ابراهيم حسن ص ١١١ .

٢ – انظر فصل « السيادة الاسلامية » لارشيبالد لويس فى كتاب « دراسات اسلامية » ص ٢٥ – ٨٤ .

القطيعة بين الكنيستين الشرقية والغربية [1] على ما كان لبيزنطية من نفوذ في ايطالية ، وبات واضحاً ان امبراطورية الشرق لن تصمد امام اي هجوم جديد تقوم به على بلادها قبائل الأتراك من الشرق او النورمانديون من الغرب .

غير ان العرب والبيزنطيين ظلوا مع ذلك اسياد الفكر ، وظلت الحركة الفكرية تتابع ازدهارها وتطورها في عواصم الشرق ؛ بيد أنه مهما كان من قوة هذه الحركة ، فانه لم يبق في وسعها ان تطغى على القوى الفكرية الخاصة التي بدأت تنمو في الغرب مع نمو دوله واتقاد الحياة الاجتماعية والدينية فيه .

وبينما كان روبير غيسكار يحطم مقاومة بيزنطية ، ويهدد الشاطىء الدلماسي ، كان الاتراك يزحفون على الاناضول ، فيستولون على ارمينية ، ويأسرون في سنة ٥٤٦ هـ ١٠٧١ م الامبراطور البيزنطي نفسه .

وامام هذه الخسائر التي منيت بها بيزنطية ، قوي نفوذ البابوية في اوروبة ، وظهر البابا غريغوريوس السابع الذي عرف باسم « البابا القديس » وهو في رأي بعض المؤرخين اعظم ابناء القرون الوسطى بعد شارلمان ، وكان يعتقد بأن مهمة نائب الله هي قيادة المجتمعات البشرية ، فأنشأ يسعى لدى ملوك اوربة لفرض إصلاحاته على الأساقفة اينما كانوا ، وتحرير الاقطاعية الاكليريكية من تدخّل السلطات المدنية ، فاستطاع ان يربط الاوساط الاكليريكية بالمقر البابوي ، وان يقيم فوق النظام الاقطاعي ثيوقراطية تحقق السيادة البابوية .

---

١ – انظر تفصيل ذلك في كتاب « الروم وصلاتهم بالعرب » ج ٢ ص ٧١ – ٧٧ .

لقـد كان أنصار غريغوريوس السابع يقولون : مثلما جعـل الله في السماء نيّرين هما الشمس والقمر ، كذلك خلق في الأرض سلطتـين : روحية وزمنية ، لكن القمر منحط عن الشمس ويستمد نوره منهـا ، ومثله الامبراطور فهو منحط عن البابا ويستمد منـه كل قوة . وكانوا يشبهون السلطتين بالنفس والجسد ، فالأولى متسلطة على الثاني ، وكذلك فان السلطة الروحية متسلطة على السلطة الزمنية [١] .

وكان ذلك يعني انكار كل سيادة اخرى ، ومنها سيادة الامبراطورية الجرمانية المقدّسة التي كان رئيسها الامبراطور هنري الرابع لا يقلّ عن غريغوريوس السابع قوة وذكاء ، فوقف في وجه الاصـلاح البابوي ، وجاهر بمعارضته إياه إلا اذا بقي للامبراطور حق تعيين الاساقفة ورؤساء الاديرة ، واستحرّ النزاع بينهما في ٤٦٩ هـ ١٠٧٦ م ، فأعلن البابا ان سلطته تشمل التيجان والعروش نفسها ، وسارع الى خلع هنري الرابـع وحرمانه ، فانقسمت المانية على نفسها ، ونشبت فيها حرب اهلية كادت تطوّح بعرش الامبراطور لولا انه بادر الى اظهار خضوعه حين رأى ان مملكته تكاد تتمزق وتخرج من سلطانـه ، ولكنـه لم يكد يحرز رضى البابا عليه ، ويستعيد قوّته ونفوذه ، حتى بطش بخصومه في المانية ، وحرّض رجال الدين الساخطين على كبـار الأساقفـة ورؤساء الأديرة ، فأعلنوا تمرّدهم على البابا ورفعوا الى مقام البابوية كليمنت الثالث .

ولم تُقبل سنة ٤٨٦ هـ ١٠٨٣ م حتى انعكست الآية تماماً ، إذ استولى هنري الرابع على رومة وتوّجه فيها البابا الموالي له ، بينما مضى غريغوريوس السابع يستنجد بالنورمنديين . وكانت مراكب غيسكار قد انهزمت في

---

١ – التاريخ العام لفليب فان نس مير ، الترجمة العربية ص ٢٤٢ .

بحر الأدرياتيك امـــام مراكب البندقية المحالفة لبيزنطية ، فتخلى عن معاركه هذه واتجه الى محاربة هنري الرابع ، واستطاعت جيوشه ان تُخرج جيوش الامبراطورية الجرمانية من رومة ، ولكنها ما كادت تؤدي هذه المهمة حتى انقضّت على المدينة فنهبت ارزاقها وسبت نساءها ، بحيث لم يبق في وسع « البابا القديس » الظهور امام مواطنيه ، فرجـع الى صقلية واعتزل فيها[1].

وفي سنة ٤٧٨ هـ ١٠٨٥ م توفي غيسكار بعد ان أخرج البيزنطيين من ايطالية الجنوبية بعد حكم دام ثلاثـــة قرون متتالية وأوصل الخطر النورماندي الذي يهدّد الامبراطورية البيزنطية الى تيسالية . وفي تلـك السنة نفسها توفي غريغوريوس السابع ايضاً . فأوقف موت هذين الرجلين نمو المشاريع الخطيرة التي نذرا نفسيهما لها ، لكنه لم يوقفه الا الى امد يسير . فان هنري الرابع ، قاهر البابا ، كان يعاني ازمة شديدة امام تمرّد الاشراف السكسونيين . وعقوق ابنه كونراد الذي نصّبه البابا ملكاً على ايطاليـة والمدن الرئيسية في وادي بو . كما ان هزيمة النورمانديين امام اسطول البندقية ، قد منحت جمهورية سان مارك امتيازات جمة في الشرق اقرّت بها بيزنطية اعترافاً بالجميل . فجعل منها استيلاؤهـا على هذه المراكز الهامة ، منافساً قوياً لبيزنطية يهددها بخطر لا يقـل عن خطر الغزوات النورماندية . وقد وضعت هذه الدولة المتداعية آمالهـا حينذاك في اليكسيوس كومنينوس اعظم قائد أنجبته ، ورفعته الى سدّة الحكم ، ولكن هذا القائد تولى رئاسة الدولة ، وخزينتها خالية ، وجيشها مضطرب ضعيف لا يُعتمد عليه ، فلم يستطع ، رغم حنكته ومهارته ، ان ينتشل بلاده من الهوة التي تنحدر اليها ، وان كان قد بذل مساعي

---

١ – تاريخ العالم لجون هامرتن ، المجلد الرابع ص ٧٤٢ .

جليلة للتحالف مع هنري الرابع والمدن الايطالية البحرية ضد مطامع النورمانديين [1] .

وكان مصير العرب لا يختلف كثيراً عن مصير البيزنطيين ، وكأنه يسير معه نحو انهيار محتوم ، فان الاسبانيين قد استردوا طُليطلة ، واستنجد المغاربة بالبربر والمرابطين فأسس هؤلاء مدينة مراكش وأنشأوا من المحيط الى الجزائر والسودان مملكة ألحقوا بها القسم العربي من اسبانية ، غير ان هذه المملكة نفسها كانت تتراجع شيئاً فشيئاً امام فتوحات الاسبان .

اما في الشرق فقد وقفت قبائل الأتراك السلاجقة على رأس الشعوب العربية والاسلامية ، وكانت تلك القبائل ، كما قلنا ، تستر مطامعها التوسعية بستار الرغبة في نشر الاسلام أو المحافظة عليه ، لتظهر أمام هذه الشعوب بمظهر الوريث الشرعي لامبراطورية العرب .

لقد بدأت دولة الأتراك السلاجقة حوالي سنة ٣٦٠ هـ ٩٧٠ م حين خرج سلجوق مع عشيرته الغز من بادية القيرغيز الى جند حيث يصب نهر سيحون في بحيرة خوارزم (أرال) ، ثم انتقلت الى بخارى ، وما فتئت تنتقل نحو الغرب ، وتشارك في الأحداث والحروب ، حتى انتزع طغرل بك محمد وجغري بك داود ، حفيدا سلجوق ، ولاية خراسان ، ثم احتلوا خوارزم وطبرستان على حساب الدولة الغزنوية ، واستطاعوا القضاء على الدولة البويهية ، وكانوا كلما تقدموا غرباً اتخذوا حاضرة جديدة أقرب الى العراق . وقد أثار طغرل بك اهتمام الخليفة العباسي القائم (٤٢٣ — ٤٦٨ هـ ١٠٣١ — ١٠٧٥ م) فاستعان به على البساسيري

---

١ — الروم وصلاتهم بالعرب ، ج ٢ ص ١١٩ — ١٢٢ .

القائد التركي الذي كان يعمل في خدمة الملك الرحيم آخر ملوك بني بويه وكاد يجرد الخليفة من جميع سلطاته ، فانقلب البساسيري بولائــه الى الفاطميين الذين كانوا يحكمون في مصر ، وغدا يخطب للمستنصر الفاطمي على منابر المدن التي آلت اليــه ، بينما كان سلاطنة السلاجقة يخطبون للخليفة العباسي في بغداد ويعتنقون المذهب السني مثله ، في حين كان البويهيون شيعة كالفاطميين . ولما توفي طغرل بك خلفه ابن اخيه الب ارسلان الذي خاض عدداً من المعارك الظافرة مع البيزنطيين ، وأسر امبراطورهم رومانوس ديوجين سنــة ٤٦٤ هـ ١٠٧١ م في موقعــة مانزكرت (ملاذ كرد) الشهيرة على الفرات الأعلى [١] ، وهي الموقعة التي فتحت أبواب آسية الصغرى الشرقيــة أمــام هجمات الأتراك السلاجقــة فأنشأوا فيها سنة ٤٧٠ هـ ١٠٧٧ م مملكة خاصة بهم عرفت باسم « مملكة الروم السلجوقية [٢] » كانت نيقية (ازنيق في التركية) عاصمة لها ثم غدت عاصمتها قونية لما احتل الصليبيون نيقية سنة ٤٧٧ هـ ١٠٤٨ م ، ثم انتزع الب ارسلان من الفاطميين ما في أيديهم من البلاد حتى دمشق . وزاد ابنه ملكشاه على ذلك فانتزع من الفاطميين سورية كلهــا ، وأنشأ

---

١ – بعد مفاوضات طويلة بين الب ارسلان ورومانوس ، تعهد هذا بتزويج بناته من اولاد الب ارسلان وبأن يفتدي نفسه مع جميع الأسرى بمليون دينار ، وبأن يدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثمائة وستون الف قطعة ذهبيــة ، وبتسليم جميع اسرى الحرب ، ولكنه ما كاد يشخص ورجاله عائداً الى عاصمته حتى علم بان رعاياه قــد خلعوه من الملك ، وما إن بلغها حتى سملوا عينيه وفتكوا به قبل ان يتمكن الب ارسلان من نجدته (مختصر تاريخ العرب ص ٢٧٣ – ٢٧٤ ، الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١١٠ – ١١١) .

٢ – حل الأتراك العثمانيون محل الأتراك السلاجقة في آسية الصغرى أو الاناضول منذ سنة ٧٠٠ هـ ١٣٠٠ م وانشأوا فيها امبراطوريتهم التي حلت نهائيا محل الامبراطورية العربية وبسطت نفوذها على كثير من البلدان المجاورة لها خلال عدة قرون .

في دمشق وبيت المقدس إمارتين تابعتين له ، بالاضافة الى استيلائه على كاشغر وسمرقند [1] . الا ان الامبراطورية السلجوقية سرعان ما تمزقت بعد وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ ١٠٩٢ م إثر تنازع امراء السلاجقة فيما بينهم ، واستبداد « الأتابكة » بهم ، إذ كان من عادتهم أن يعهدوا بتربية أولادهم الى قوادهم الذين يسمونهم بالأتابكة [2] ؛ وقد انقسم السلاجقة خلال ذلـــك الى فروع ثلاثة : واحد في بلاد العجم حيث تبلد أفراده واستعجموا ، وثان في الأناضول حيث رسخت قدمهم وثبتت لغتهم ، وآخر في سورية حيث استعربوا وتوطنوا [3] .

ولم يكن هذا كله ليعني الغرب في شيء ، ولكن الذي كان يعنيه ويخيفه ان جيوش الاتراك السلاجقة كانت ما تفتأ تتوغل في الأناضول ، وقد نفذت منه سنة ٤٧٧ هـ ١٠٨٤ م الى انطاكية فاحتلتها ، وانشأت في إزمير اسطولاً كبيراً ، بحيث لم يعد خطرها مقتصراً على بيزنطيـة وحدها ، وانما اخذ يقلق البندقية التي كانت تهمها التجارة الشرقية بقدر ما تهم بيزنطية إن لم يكن اكثر منها ، والتي كانت قد انشأت المخازن والمستودعات في كل مكان ، حتى في شبه جزيرة القرم ، وعقـــدت معاهدة تجارية مع بغداد ، وارسلت عملاءها الى انحـــاء الشرق العربي

١ – تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ، تعريب فارس وبعلبكي ، ج ٢ ص ١٢٤ – ١٤٠ .

٢ – لفظة تركية مفردها أتابك مركبة من كلمة « أطاء » بمعنى أب وكلمـة « بك » بمعنى الأمير او السيد (انظر : الألقاب الاسلامية تأليف حسن الباشا ص ١٢٢) .

٣ – العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية ، تأليف الدكتور زكي النقاش ص ١٦ .

والشرق الأوسط كله ، ولم تكن تتردد في تموين هذه البلاد حتى بالعتاد الحربي . فان الطبقة الارستقراطية في هذه الجمهورية التي لم تكن تعاني مـا تتخبط فيه بقية البلدان الأوربية من نزاع بين الملاكين العقاريين والتجار ، قد انصرفت الى التجارة وحدها وجنت منها ارباحاً طائلة ، فأثرت بذلك تأثيراً كبيراً في شؤون بيزنطية المالية ، ووجهت الى هذه الامبراطورية ضربة قاضية ، وبات التجار البيزنطيون مهما تكبدوا من مشاق ، وعادوا من بلاد الصين بالأمتعة والبضائع والأفاويه ، فان القسط الأوفر من ارباحهم انما يعود الى تجار البندقية وبيزة وجنوة ، لأنهـا الأبواب الرئيسية لأسواق الغرب . ففي ايطالية وليس في غيرها ، كانت تنتهي في تلك الأيام طريق الصين ، او طريق الحرير والتوابل ، التي كانت اكثر الدروب المطروقة في ذلك العهد [1] .

كانت اوربة تخطو نحو المدنية خطوات واسعة في ظل الاقطاعيـة المزدهرة . فبفضـل قصر السيّد ودير الراهب ، نمت الزراعة وأدخلت عليها اساليب جديدة لزيادة الانتاج ، وبفضل التبادل التجاري تحسنت وسائل النقـل وطرق المواصلات فتطورت العلاقات الاقتصادية تطوراً كبيراً ، ونشأت الأسواق والمدن في البقاع الخصبة ، وتأسست معامل حرفية صغيرة كان الصناع اليدويون يستخدمون فيها اساليب جديدة ، فنمت بذلك المقدرة الشرائية ، وتكاثرت حاجات الاهلين ، واتسع في كل مكان نطاق البضائع المتداولة . ووقفت ايطاليـة وفرنسة والفلندر

---

١ – للتوسع في معرفة دوافع الجمهوريات الايطالية البحرية في عهد الحروب الصليبية وسعيها وراء مصالحها الاقتصادية على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين جميعاً ، انظر :

Heyd ; Histore du Commerce, t I , pp. 131 - 133 .



حاج أوربي في نهاية القرن الحادي عشر ، عن لوحة قديمة

وربنانية على رأس هذه الوثبة المدنية والصناعية الكبيرة . وسادت في القصور الاقطاعية الحياة الباذخة وألوان الترف . وأدى هذا الازدهار الذي شمل الظروف المادية الى ازدهار فكري بدا في فرنسة بنوع خاص .

لقد كان التجار يحملون من الشرق العطور والتوابل والصموغ والأصباغ والسكر والعاج والحرير والبخور والاحجار الكريمة ، وينقلون اليه مقابل ذلك منتوجات الغرب وفي مقدّمتها الأنسجة والأجواخ . وواضحٌ ان ارباح هؤلاء التجار كانت تبلغ اضعاف ما يربحه منتجو البضائع التي يتاجرون بها ، فمن البديهي إذن ان يشتدّ النضال بينهم وبين الاقطاعيين في سبيل سلامة المواصلات وحرية الاسواق والتخلص من الضرائب والمكوس ، وان يقف الى جانبهم في هذا النضال ابناء المدن الناشئة من الصناع اليدويين والحرفيين ، وان تتطلّع هذه القوة الاجتماعية الجديدة الى الاتجاه بنشاطها الاقتصادي الى جميع أنحاء العالم ، يشجعها على ذلك ويغريها به ، تَمثّلُ البندقية التي سادها الترف الباذخ لما يتوافر لها من ثراء متعاظم .

وأخذ ينشأ بين هذه المدن التجارية في ايطالية وفرنسة ، التي قامت على طريق المتاجرة مع الشرق ، رابطة اقتصادية قوية ، وتضامن وثيق في المطامح والآراء . ولم يكن وصول الأتراك السلاجقة بالتالي ، الى الشواطىء ، ليؤلف خطراً على مصالح بيزنطية وحسب ، وانما كان قبل ذلك وأكثر منه ، خطراً على هذه المدن التجارية في ايطالية وفرنسة وغيرهما من بلدان الغرب .

واذا كان قيام الحكم التركي في هذه الربوع ، قد استلب الحجاج المسيحيين الذين يؤمون بيت المقدس ، بعض ما كانوا يتمتعون به في ظل الحكم العربي من حرية وتسامح عظيمين ولا سيما بعد الاتفاق المشهور بين

شارلمان وهرون الرشيد[1] ، حتى بدأوا يحجون اليه متجمعين ومتسلحين[2] ، فان المدن الأوربية التجارية القائمة على شواطىء البحر الابيض المتوسط قد شعرت أيضاً بأن هذا الحكم نفسه انما يهدد اوربة بالتخلي عن مراقبة تجارة الشرق للأتراك أنفسهم ، بينا هي تتطلع الى تقوية هذه التجـارة وقد غدت عصب الحياة الاقتصادية فيها .

وهكذا نمت تلك الفكرة الرهيبة ، فكرة الحروب الصليبية ، وهبت تلك العاصفة الجنونية التي تركت جرحاً عميقاً في حياة البشرية . وقـد جددت هذه الحروب المروعة ما دار من نضال عنيف بين الشرق والغرب

---

(١) يجمع المؤرخون الغربيون فضلاً عن الشرقيين ، على ان المسيحيين في بيت المقدس وغيرها انما كانوا يعاملون خلال الحكم العربي بالاحترام والرفق والتسامح ، وأقوالهم في ذلك كثيرة لا يمكن حصرها (انظر : تاريخ العالم لهامرتن المجلد الرابع ص ٧٣٦ والتاريخ العام لفان نس مير ص ٢٤٥ ومختصر تاريخ العرب ص ٢٨٥ و Runciman ; Byzantine Civilisation, p. 26 و Iorga : Byzantine Empire, p. 49) ولا بدع في ذلك فان العرب قد اقتدوا بخليفتهم عمر بن الخطاب الذي دخل القدس مسالماً بعد ان تسلم مفاتيحها من بطريركها اليوناني صفرنيوس ، ومنح أهلها الامان على دمائهم وأموالهم وكنائسهم ، وامتنع عن الصلاة في كنيسة القيامة لئلا يحولها المسلمون الى مسجد (انظر : تاريخ اليعقوبي ص ١٦٧ — ٢٦٨) وعملوا بوصية الرسول العربي : « من ظلم معاهداً ، او كلفه فوق طاقته ، فأنا خصمه يوم القيامة » واهتدوا بهـدي القرآن الكريم : « ان الذين آمنوا والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون » . الا ان الطوائف غير الاسلامية قـد تعرضت لاجراءات قاسية لا مبرر لها في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي اقدم على كثير من التدابير الشاذة الاخرى التي لا تفسير لها .

(٢) لم تكتم بيزنطية تخوفها من بعثات الحج المسلحة ورأت فيها خطراً يهدد سلامتها (انظر : Berhier : L'Eglise et l'orient, p. 46)

في حروب طروادة ورومة ، وحروب فارس ويونان ، ودشنت الكفاح الذي نشب بينهما بعد انطفاء جذوة الحروب الصليبية بأجيال : كفـاح الغرب لاستعمار الشرق واستثماره ، وكفاح الشرق في سبيـــل تحرره واستقلاله ، وهو كفاح مؤثر بلغ أوجه في عصرنا الحاضر .

الفصل الثاني

الحروب الصليبية

بدأت المدن الأوربية تلهج بضرورة اقصاء الأتراك السلاجقة عن حوض البحر الأبيض المتوسط ، وكان الأتراك مسلمين فانتشرت فكرة الحرب على الاسلام ، وأذكى ضرام هذه الفكرة ما تعرض له بعض الحجاج الأوربيين من اعتداء عليهم وهم في طريقهم الى بيت المقدس ، وكان دعاة الحرب يصورون المسلمين لابناء اوربة على انهم أكلة لحم البشر وذئاب الإنسانية واعداء المسيح وغير ذلك من الصور التي يقول المؤرخ الانكليزي جيبون عنها : « ولم تكن هذه التهم سوى نتيجة الجهل والتعصب ، وهي صور ينفيها القرآن ويكذبها تاريخ الفاتحين العرب وتسامحهم مع المسيحية في الحياة العامة وفي الشرائع والقوانين[1] . »

واذا كانت شهادة الأهل ذات دلالة خاصة واهمية كبرى ، فان المؤرخ رنسيان يصرح « بأن المسيحيين كانوا اسعد حظاً في الغالب تحت حكم جاعات المسلمين منهم تحت حكم ملوك الرومان ، حيث تمتعوا بحرية التجارة ، والعيش في ظلال الأمن ، ولم يرهقهم المسلمون بالضرائب كما

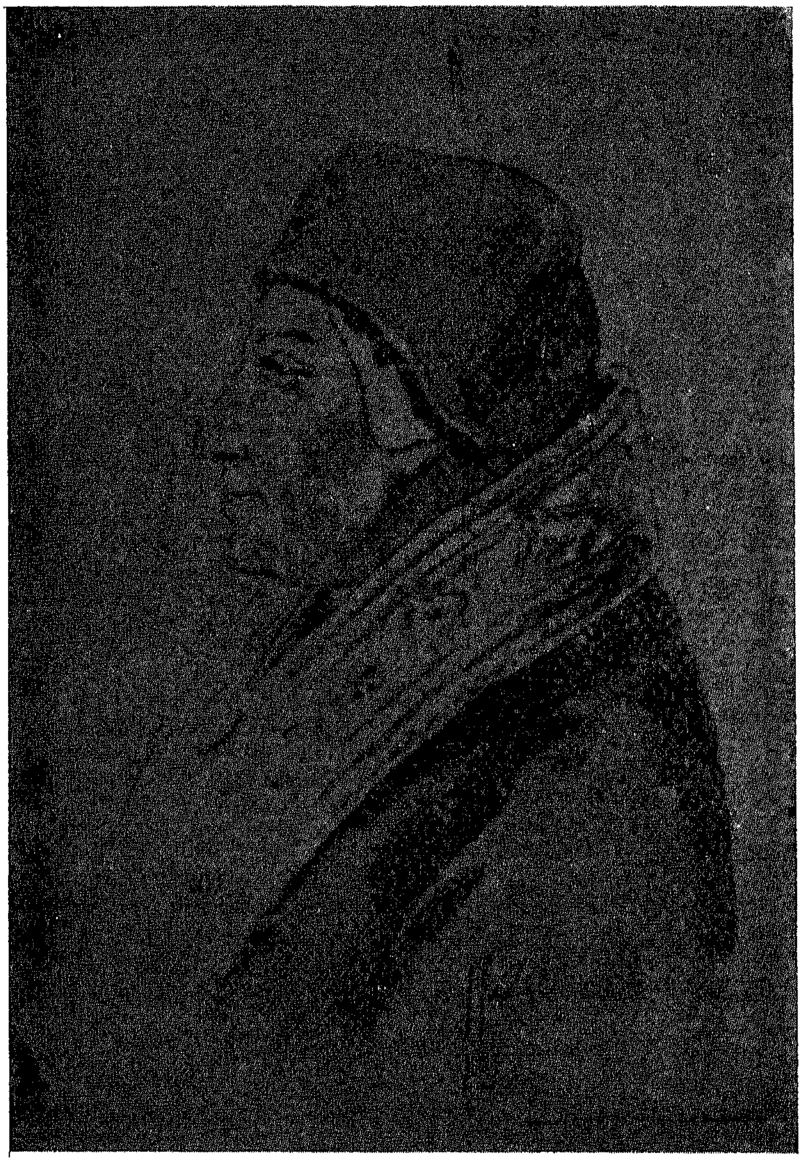
---

١ – امتنا العربية لمحمد فريد أبو حديد ص ١٦٠ .

كانوا يعانونه قبلاً [1] ، على انه اذا كانت هناك حوادث وقعت على الحجاج ، فانها لا تعدو ان تكون حوادث فردية لا يخلو منها بلد وعصر ، بـل كان يلقاها المسيحيون انفسهم على ارض اوربة ، ومن الظلم الواضح ان تتخذ الأحداث الفردية قاعدة عامة للحكم وترتيب النتائج . فالغرض من قيام تلك الحروب بأية وسيلة ، كان واضحاً ، بتجسيم الحوادث الفردية القليلة وتهويلها ، استثارة للنفوس [2] . ويكفي ان نستشهد ايضاً بما قاله منرو في هذا الشأن : « كانت الفظائع المنسوبة الى المسلمين ممزوجة بكثير من التوابـــل .. لتوافق روح ذلك العصر الذي كان اشد توحشاً من عصرنا هذا .. » اما ما قاله برنار دي فيس في مذكراته فهو كاف لابطال افتراءات المبالغين : « ان السلام سائد فوق تلك الربوع بـين النصارى والمسلمين ، حتى انني لو كنت مسافراً ونفق بعيري او حماري الذي ينقل امتعتي على الطريق ، وتركتها كلها دون حارس او رقيب ، وسرت الى اقرب مدينة لأجلب لي بعيراً او حماراً آخر ، لوجدت عند عودتي انها باقية على حالها لم يمسسها احد [3] » .

وقد سميت تلك الحروب « صليبية » لأن محاربي الفرنجة كانوا يرسمون علامة الصليب على ثيابهم واسلحتهم ، واستطاع البابا اوربانوس الثاني ان يسبغ على تلك المغامرة الكبرى التي اشتركت فيها اشتات العوامل والأهواء والمطامع ، طابعاً دينياً محضاً ، لتوطيد سلطة البابوية . وكان اوربانوس الثاني يعتقد ، شأن غريغوريوس السابع ، بضرورة خضوع الممالك الكاثوليكية لسلطة البابا ، ويطمع بأن تشمل هذه السلطة الامبراطورية البيزنطية الارثوذكسية ايضاً ، كما انه رأى في الحروب الصليبية وسيلة

١ – صراع العرب خلال العصور لمحمد عبد الغني حسن ص ٤٦ .
٢ و ٣ – المرجع السابق ص ٤٧ .



البابا اوربانوس الثاني

يحوّل بها شطر الشرق وجوه اولئـــك البارونات والفرسان الذين كانوا يعكرون أمن القارة الأوربية بالحروب الداخلية والمغامرات المستمرة واعمال القرصنة واللصوصية ، ويسيئون الى رجال الاكليروس منكرين عليهم ما ينبغي لهم من اكرام واحترام ، « وكان اشد ما يقلقه جماعات النورمنديين التي عاثت في البر والبحر ، والتي رأى ان من الحكمة ابعادها عن مسرح السياسة الاوربية بتوجيه نشاطها الحربي الى الشرق [١] »

وادرك البابا انه إذ يحشد تحت راية المسيح ذلك الجيش الأممي الذي يضم جموع الفرسان والاقطاعيين من اشتات البلدان والأجناس ، ويُرسله الى الأراضي المقدسة كي يحارب لخدمة الدين المسيحي ، فانه إنما يرفع البابوية الى المقام السامي الذي يريده لها ، ويُخضع لسلطتها المعنوية او الفعلية جميع الملوك والاقطاعيين الذين ينتظمون في تلك الحرب ويسهمون فيها ، وتكون له يد كبرى على بيزنطية لانقاذه اياها من الخطر التركي الذي احدق بهـــا ، فيسعى لضم كنيستها الشرقية الى كنيسة رومة الغربية ، وتصبح اقطار اوربة ، وربما اقطار العالم كله ، خاضعة لكنيسة واحدة هي كنيسة روما ، ولسلطة دينية واحدة هي سلطة البابوية .

وهكذا يمكن القول مع المؤرخ الفرنسي روسّه ، ان الرغبة في بسط سلطان الكنيسة الغربية على الكنائس الشرقية كانت احـــد الدوافع الرئيسيـــة للحروب الصليبيـــة [٢] ، بالاضافـــة الى دوافعهـــا السياسيـــة والاقتصادية .

وقال اندره ريبار : « ولقد جندت البابوية اوربة لتنفيـــذ خطتها

---

١ — Delarc ; Les normands en Itali, pp. 143 - 144, 192 - 194

٢ — Rousset ; Lrs origines et les Caractères de la première Csoisade, p . 56

الواسعة ، وأرغمت الأمراء على الخضوع لهـا عن طريق متعرّجة ، فانقضّت جيوشهم بشغف لانقاذ القدس ، وهي تجهل الدوافع الخفية لتلك الحرب الضروس . ووطد هـذا الانتصار الذي أحرزته الديانة المسيحية ، مشاريع تجـارية لم تكن البابوية نفسها تجهلها أو هي غريبة عنها [١] . » أو كما يقول رينه غروسّه : « ان تبشير سنة ١٠٩٥ حـلّ سلاسل النزوع الى السيطرة على الأراضي لدى الاقطاعيين الكبـاسيين واللوتارنجيين ، والسيطرة الاقتصادية لدى الجمهوريات البحرية الايطـالية : فالحاجّ أصبح رجـل فتح يذهب لانشاء ممالك تحت شمس الشرق . وأخيراً عندمـا تحقق الفتح ، فرضت الضرورات المحلية على بارونات « الأرض المقدسة » سياسة استعمارية [٢] »

وقد شخَص اوربانوس الثاني في سنة ٤٨٨ هـ ١٠٩٥ م الى مجمـع كليرمون فيران كي يرسل الصرخة الرسمية الى الحروب الصليبية ، وكان قد اختار هذا المكان عامداً ليكون الاجتماع بين الفرنسيين أهل الحدة والميل الى الحرب . ولم يستطع هـذا الرجل المخلص لتقاليد الكنيسة ، إلا أن يُعرب لذلك المجمع عن فوائد هذا المشروع من جوانبه المتعددة ، فـكان ممـا قاله في خطابه التاريخي ان هذه الحرب « ليست تُشن لاكتساب مدينة واحدة ، بل لامتلاك أقاليم آسية بأجمعها مـع غناهـا وخزائنها التي لا تُحصى ، فانتهزوا هذه الفرصة وخلصوا الأراضي المقدسة كلها من أيدي مختلسيها ، وامتلكوها أنتم خالصةً لـكم من دون اولئك الكفار ، فهذه الارض كما قالت التوراة : تفيض لبناً وعسلاً . »

وقال مخاطباً جنود اوربة : « لقد كنتم تحاولون من غير جدوى ،

---

١ — La Prodigieuse Histoire de l'Humanité , P. 249

٢ — رصيد التاريخ ، ترجمة خليل الباشا ج ٢ ص ١١٤

إثارة نيران الحروب والفتن فيما بينكم ، فاستيقظوا الآن لأنكم وجدتم داعياً حقيقياً اليها . لقد كنتم سبب إزعاج مواطنيكم وقتاً ما ، فاذهبوا الآن وازعجوا البرابرة . اذهبوا وخلصوا البلاد المقدسة من ايدي الكفار . أيها الجند ، أنتم الذين كنتم سلع الشرور والفتن ، هموا اليوم وقدموا قواكم وسواعدكم ثمناً لايمانكم ، وتسلحوا بسلاح الدين والتقوى ، فانكم بذلك تنالون الجزاء الاوفى والنعيم الدائم [١] . »

وقد دعا البابا في ختام خطابه الى الاسراع بتقديم المساعدات وحشد المتطوعين ، بحيث يكون الجميع على أهبة لزحف على الشرق مع بداية الفصل [٢]

ويقول هالام : « انه لم تترك وسيلة إلا اتبعت لاذكاء هذا الجنون الوبائي ، فكان الجندي عندما يلبس الصليب معفياً من الديون والضرائب ، وكان شخصه محمياً من قبل الكنيسة التي كانت تغفر له ذنوبه وآثامه وتضمن له الخلود الأبدي [٣] » ومن هنا نشأت فكرة الغفران وغدت من طقوس الكنيسة الكاثوليكية .

وما لبثت المدن التجارية في فرنسة وايطالية أن تبنت المشروع بحماسة شديدة ، لأنه سيبعد عنها الأسياد الاقطاعيين الذين تضيق بهم ، ويؤمن لها أسواق الشرق ووجدت هذه الدعوة تجاوباً مؤيداً لدى الروح الفروسية التي كانت تسود ذلك العالم الاقطاعي . « واذا كان العامل المادي قد اغرى الجمهوريات الايطالية التجارية على المساهمة في حملة الحجاج المسلحين للشرق ، فقد وُجدت الى جانب هذا روحٌ من التصوف الديني

---

١ – حياة صلاح الدين الأيوبي للدكتور احمد بيلي ص ٣٩ – ٤١

٢ – Chalandon : Hist. de la Première Croisade , PP. 37 - 41

٣ – مختصر تاريخ العرب ص ٢٨٣



الدعوة الى الحرب الصليبية

ترجمت عن نفسها في شخصية بطرس النـــاسك الذي اختلطت الحقيقة بالخرافة في تاريخه [١] ، والذي كان تأثيره الشديد على سامعيه – لا سيما من الطبقات الدنيا والجاهلة – أكبر معوان على تحقيق الفكرة العـــامة التي اختمرت ولم يبق الا تنفيذها [٢] . »

وقـــد انتبه المؤرخون القدماء والمحدثون الى العوامـــل السياسية والاقتصادية الكامنة وراء الحروب الصليبية [٢] ، والتي كثيراً مـــا ذاب العامل الديني وسط تياراتها العنيفة الصاخبة [٣] ، وأجمل محمد كرد علي تلك العوامـــل جميعاً بقوله : « اتفق أن بعض زوار الاوربيين في الارض المقدسة شاهدوا شيئـــاً من العنف في بيت المقدس لم يكن لهم عهد به

---

١ – كان بطرس الناسك يطوف أرجاء اوربة فوق حمار ، وهو حافي القدمين ، يرتدي ثياباً خشنة ، ويحمل صليباً كبيراً ، ويخطب في الدهمـاء والعـامة فيبكيهم ويثير حماستهم ويذكي ظمأهم الى الانتقام واسترداد القبر المقدس (مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام لعنان ص ٩٤) وكان يتحدث باكياً نادباً ناتفاً لحيته ، منذراً بفنـاء النصرانية وضيـاع الدين ، فيذهب الهياج بالعقول ويطير بالافئدة ، وتلغي الحمـاسة المنطق ، وينسى الناس كل شيء الا هذه النار التي سرت في العروق ، ومشت في الدماغ فألهبته ، فنهضوا يتبعون النـاسك الى حيث لا يعلمون (قصص من التاريخ لعلي الطنطاوي ص ٢١) ويجمع المؤرخون على ان حماسة بطرس الناسك وفصاحته وهيئته الغريبة – بثيابه المهلهلة وقدميه الحافيتين وحماره الأعرج – قد جعلت منه شخصية ذات تأثير خطير على جماهير العـــامة والدهماء (Grousset ; Hist. des Croisades . T I, p. 5) وثمة شخصية مماثلة لبطرس النـاسك ، هـي شخصية والتر الملقب بالمفلس وقد قاد اتباعه عبر المجر ثم اراضي الدولة البيزنطية ، ونسيت تلك الجموع اثناء الطريق انهـا تخترق بلاداً مسيحية فأخذت تسلبَ وتنهب وتعتـدي على الاهـــالي الآمنين (الحركة الصليبية ج٢ ص ١٣٧ نقلاً عـن Vasiliev ; Byzantine Empire t2 p. 404)

٢ – انظر ابن الاثير ج١٠ ص١١٢

٣ – Iorga : Breve Hist. des Croisades , pp. 1—2

في ادوار الحكومات العَربية القوية ، وانقلبت سماحة العرب بجفاء مـن خلفوهم من التركمان ، فعاد الزوار الى بلادهم يقصون مـا لقوا من الشدة في الشام ويعظمون الامر . وكان التعصب الديني يومئذ على أشد حالاته في الغرب ، ومعظم حكوماته تدين بدين البابا وتخضع لسلطانه القاهر ؛ ولم يكن ظهر إذ ذاك المذهب الانجيلي ، وكان مذهب الروم الارثوذكس آخذاً بالضعف ليس له روابط الكنيسة البابوية ولا سلطتها على الأرواح والأشباح . فأوعز البـابا الى أمم النصرانية في الغرب ليهبوا كلهم الى انقاذ القبر المقدس من ايدي المسلمين . وقد ذكر اهـل الأخبار من الأوربيين في تعليـل الحروب الصليبية ان المسيحيين والمسلمين كانوا حتى القرن الحادي عشر للميلاد على صلات سلمية الا قليلاً ، يحمل العرب الى مصر والقسطنطينية حـاملات مختلفة من بلاد الهند والشرق الاقصى ، فتستبضعها من المدن الايطالية : باري وبيزة وجنوة ولا سيما أمالفي والبندقية فيبيعونها في اوربا . وكان العرب يسمحون للزوار ان يأتوا زرافات الى فلسطين ، فيشخص اليها جماعات عظيمة من عـامة نصارى بلاد الغرب يسجدون أمام القبر المقدس . وتضاعفت الحماسة الدينية في ذلك الزمن ، وتداعى الحـكم العربي القائم على التسامح في قارة آسيا ، وقـام مقامه المحـاربون من الترك المعروفين بتعصبهم وبسالتهم . فاستولى السُلجوقيون على ارمينية والشام ونيقيـة ودانت لهم في سنة (٤٦٩ هـ ١٠٧٦ م) فاختلت العلائق الاقتصادية بين آسيا واوربا ، وخافت المدن التجارية في البحر المتوسط أن يغلق الاتراك أمامها اسواق الشرق [١] »

اما الدكاترة حتي وجرجي وجبور فقد اجملوا ما فصلناه آنفاً بقولهم :

---

١ – خطط الشام ج١ص ٢٧٦ – ٢٧٧

« ليس كل الذين حملوا اشارة الصليب فعلوا ذلك عن دوافع روحية ، فقد كان عدد من زعمائهم ومنهم بوهمند ، قد قصدوا بحركتهم هذه ان يفتتحوا أراضي جديدة لهم يرفعون رايتهم عليها . امـــا تجار بيزا والبندقية وجنوى فقد كان رائدهم خدمة مصالحهم التجارية . ومن هنـا فقد كانت عوامل هذه الحروب الصليبية تشمل مطامح المغامرين وأهل الخيال فضلاً عن آمال الأتقياء المخلصين . زد على هـــذا ان كثيراً من المجرمين رأوا ان ينخرطوا في سلك هذه الحملات تكفيراً عن معاصيهم ، والواقع ان حمل شعار الصليب عند جمهور النـــاس في فرنسا واللورين وايطاليا وصقلية في ذلك الزمن ، بالنسبة لحالة البؤس التي كانوا فيهـا وللأزمة الاقتصادية وانحطاط الحـــالة الاجتماعية ، لم يكن تضحية من قبلهم بل تفريجاً لكربتهم . »

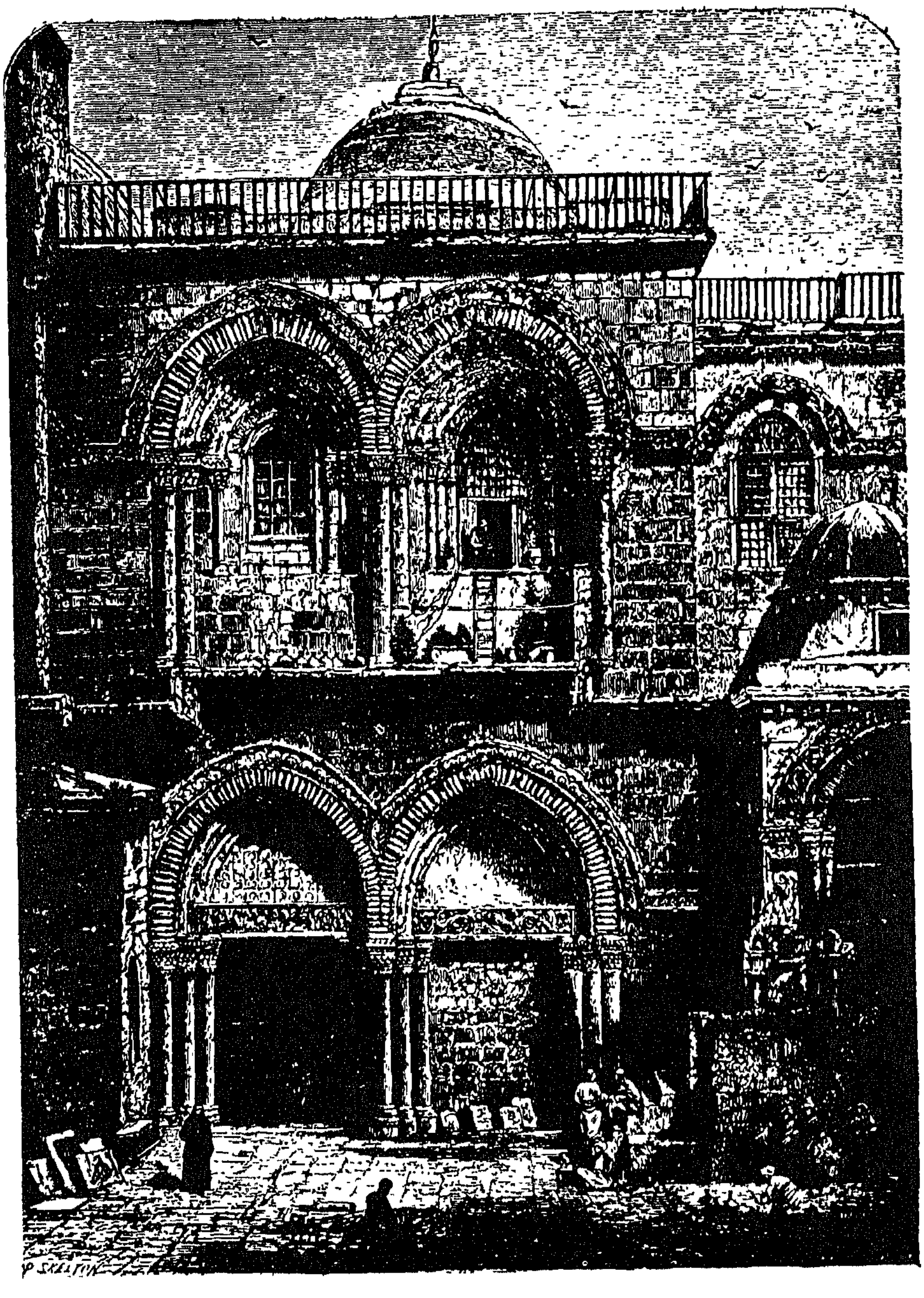
ويتفق مـــع هذا رأي ادوار عطية الذي يقول : « دفعت نوازع اخرى ، بالاضافة الى الحماس الديني ، هؤلاء المسيحيين الى المغامرة ، وخاصة منها ما يتصل بالغايات التجارية وحركة اعمال المدن الايطالية ، والحاجة الى ايجاد عمـل لأولاد النبلاء الاقطاعيين . والحقيقة بأن جهداً مشتركاً ضد عدو اجنبي كان أحد الوسائل الفعـــالة للقضاء على الحروب المحلية بين بارونات اوربا [٢] . »

ولعـل افضل من عدد الدوافع المختلفة للحروب الصليبيه سواء لدى الزعماء الداعين لها أو لدى المتطوعين الذين اندفعوا في غمارها ، هـــو المستشرق جون لامونت ، فقد أشار الى خطـــاب البابا اوربانوس في

---

١ – تاريخ العرب ، الجزء الثاني ص ٧٥٣

٢ – العرب ، ترجمة بقلي ونجا ص ٥٤



كنيسة القيامة (كنيسة القبر المقدس)

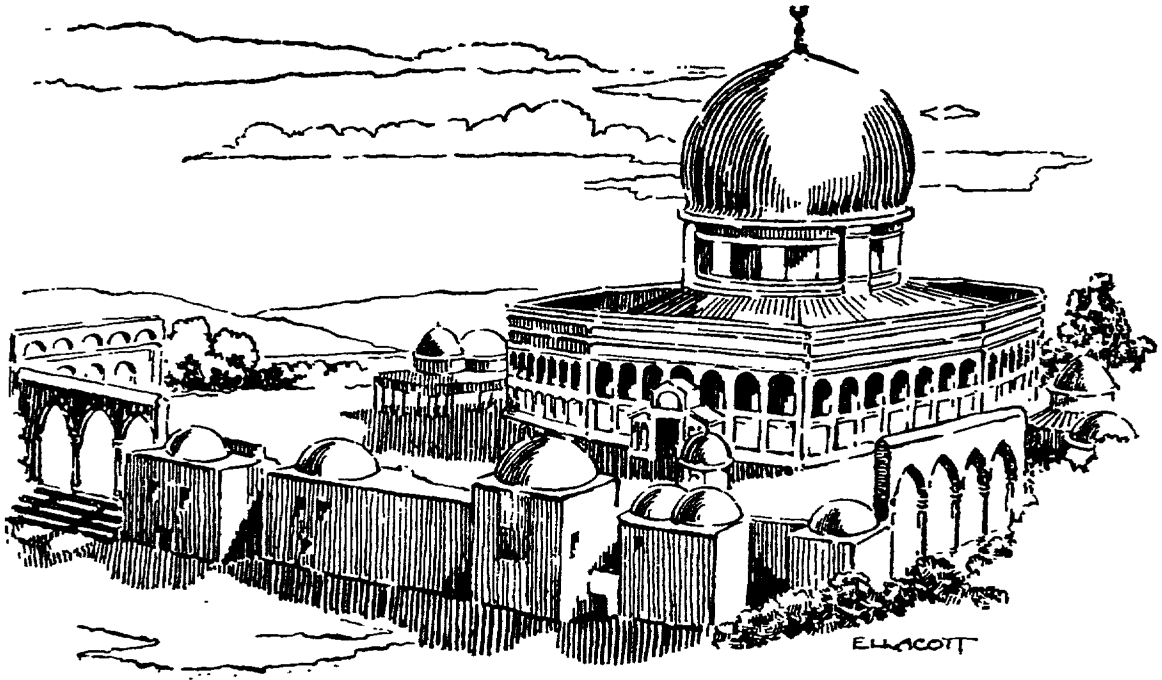
كليرمون فيران بقوله : « ولم ينس اوربانوس ان يذكر مستمعيه بالأرباح المادية والروحية التي سيجنيها الصليبيون . ان من يموتون في سبيل القضية سينالون المغفرة والخلاص . اما مدن « ارض الميعاد » الغنية فستكون جزاء من يحتلها من الأحياء . ولم يشر البابا الى الفائدة العظيمة التي ستجنيها السدة البابوية من قيادة جيش فخم يسير تحت راية البابا ، كما لم يشر الى الأثر العظيم الذي سيتركه مثل هذا الجيش البابوي في نفوس الاباطرة والملوك . ولم يشر البابا الى النكسات التي نزلت بالكنيسة على ايدي السلطات الزمنية ، والى ان الحملة الصليبية ستذكر عاهل الامبراطورية الرومانية المقدسة بأن خادم خدام الرب [١] ما زال قادراً على القيادة واصدار الأوامر [٢] . »

وأشار لامونت الى المتطوعة أجناداً وقادة فقال : « وبينما تطوع عدد كبير من القادة في « صليبية الامراء » مدفوعين بدوافع دينية في جوهرها ، فقد شارك آخرون في الحملة لكسب مغانم الدنيا اكثر مما فعلوا في سبيل اعلاء مجد الرب . لا شك في صدق الدوافع التي حملت غودفري على الاشتراك في الحملة للتكفير عن ذنوبه السابقة ، ونيل الخلاص لنفسه . ويحتمل ان يكون روبرت اوف نورمندي وروبرت اوف فلاندرس مدفوعين الى حد كبير ، بدوافع دينية ، وإن كنت أرى انهما كانا مدفوعين بدافع آخر ، الى جانب الدوافع الدينية ، ألا وهو ان الحملة الصليبية أتاحت لهما الفرصة ليصبحا بطلين . ولكن لا يستطيع احد ان يزعم بأن بوهيمند اوف تورنتو قد ذهب لسبب غير رغبته في تأسيس امارة في الشرق . كما كان ريموند اوف سنت جيلز ، بطل الحروب

---

١ – البابا

٢ – دراسات اسلامية باشراف الدكتور نقولا زيادة ص ١٠٢



قبة الصخرة في المسجد الاقصى

الاسبانية ، يطمع في الاستيلاء على قطعة من أرض سورية الجميلة . واغلب الظن ان اتباع هؤلاء القادة قد اشتركوا في الحملة لأسباب عديدة . فقد ذهب بعضهم مدفوعين بحماستهم الدينية المحضة ، وذهب بعضهم فراراً من رقابة جيرانهم المملة ، او تخلصاً من ألسنة زوجاتهم السليطة . وحمل بعضهم الصليب حباً بالمغامرة والمخاطرة . وذهب بعضهم لمجرد ان الآخرين قد فعلوا ذلك [١] . »

وينفذ لامونت الى أعماق الواقع الانساني عندما يقول : « انني لست واثقاً من ان الحماسة الدينية التي رافقت الحملة الصليبية الأولى قد استمرت طوال حياة الرجال الذين قادوها . لقد ادرك ابناء الجيل الأول ان « بينهم وبين جيرانهم كثيراً من الأمور المشتركة » على الرغم من انهم « كانوا يعتبرون كل سورية الاسلامية ارضاً للميعاد لا اصحاب لها » هذا من حيث المحاولات التي كانت تجري للاستيلاء عليها ، ولست اعتقد ان الصليبيين حاولوا الاستيلاء على البلاد الاسلامية لكونها بلاداً اسلامية . فالحقيقة ان الجيل الاول من الصليبيين حملوا الصليب وخرجوا ليستولوا على البلاد ويؤسسوا فيها امارات لهم . وكانت البلاد ، بصورة عامة ، بأيدي المسلمين ، وعلى هذا فقد تعين عليهم ان يحاربوا المسلمين للاستيلاء على ما ملكت ايديهم . ان سيرة تنكريد وهو احد عظماء الصليبية الأولى ، الذي أثلج قلب اغوبير بذبحه المسلمين بشكل وحشي عندما احتل القدس وانتهبها) تعطينا شواهد عديدة على ان امراء الحملة الصليبية ، عندما اندفعوا بسياستهم التوسعية ، كانوا يستهدفون غايات دنيوية محضة ، وانهم كانوا على استعداد ، حين تدعو الضرورة ، للتفاهم مع اعدائهم المسلمين . فكان تنكريد مصمماً على انشاء اكبر دولة ممكنة . وفي سبيل

---

١ – المرجع السابق ص ١٠٣

تحقيق هذه الغاية لم يجد اي بأس في اخذ البلاد من ايدي المسلمين او اليونان او الأرمن او من ايدي ابناء جنسه الافرنج .. ان الزمن والنشاط اللذين انفقهما تنكريد في محاولة الاستيلاء على اللاذقية وغيرهـا من المدن النصرانية من ايدي حكامها اليونان والأرمن يعدلان الزمن والنشاط اللذين انفقهما في محاربة الأتراك . اما سيرة بلدوين دي بورغ وخاصة في ايامه بالرهاء ، فلا تنقض هذه القاعدة العامة [١] »

اما محمد عبدالله عنان فهو يرى ان الحروب الصليبية لم تكن فورة فجائية اثارتها قصص الحجاج الناقمين او دعوة بطرس الناسك ، ولكنها كانت تتمة او ذروة للمعركة الكبرى التي كانت تضطرم منذ اربعة قرون بين الشرق والغرب ، وكان مسرح هذه المعركة حتى القرن الحادي عشر في اوربة وفي اسبانية بنوع خاص ، فنقلته الحروب الصليبية الى آسية ، ثم يقول في وصف الدوافع المباشرة والخفية لهذه الحروب :

« ولئن جاشت أنفس الزعماء والفرسان بنوع من الحماسة الدينية ، فقد كانت الأطماع الدنيوية أقوى البواعث التي زجت بهم في غمار تلك المخاطرات النائية ، بـــل لقد شق التنافس على الملك والرياسة بينهم طريقه منذ البداية . ولنا ما يوضح ذلك في معظم الحملات الصليبية ، فقد سار جودفروا دي بويون وزملاؤه الأمراء على رأس الحمـلة الاولى بعد ان تعهدوا بأن يحكموا البلاد المفتوحة باسم البابوية ، فلمـا وصلوا الى قسطنطينية تعهدوا بأن يحكموها باسم الامبراطور مقابـــل اختراق الجيوش الصليبية أراضي الدولة ، غير انهم ما كادوا يصلون الى طرسوس وانطاكية حتى ثارت بينهم عاصفة شديدة من الخلاف والتنازع ، فافترق

---

١ – المرجع السابق ص ١٠٩ - ١١٠ .

بلدوين عن زملائــــه واستقر في إمارة حمص[1] ، واستقر بوهموند في انطاكية وأبى السير الى الجنوب ، واشتغل ريمون دي تولوز بغزو طرابلس ، واستقل جودفروا بامارة بيت المقدس . وحكم الجميع الامارات الجديدة باسمهم ولحسابهم ، وانشأوا القصور ، وأقطعوا القطائع . وقــد رأينا ان الحمـــلة الخامسة[2] لم تصل الى الارض المقدسة بـــل استقرت في قسطنطينية ، وخاض امراؤها غمار الدسائس التي كانت تعصف حينئذ بعرش القياصرة ، وآثروا في النهاية ان يلتهموا أشلاء الدولة الشرقية على أن يحجوا الى قبر المسيح[3] » .

ان تفرق قوات الفرنجة في كل اتجاه : وانطلاق كل امير من امرائها للبحث عن امارة يحقق فيها طموحه ويبني مجده ، وانصراف الكثيرين منهم عن الهدف الرئيسي للحملة والتطلع الى بقاع من الشرق لا علاقة لها بانقاذ بيت المقدس وحماية القبر المقدس ، كانت اكبر دليل على ان هذه الحملة أبعد ما تكون عن الاغراض الدينية التي تذرعت بها ، وانها حرب استعمارية توسعية في رقعة من الأرض كان الذين يحكمونهــا يعتنقون الاسلام ولو كانوا يعتنقون اى مذهب آخر لما اختلف الأمر ولما توقف العدوان ، وقد « اراد اموري في عهد نور الدين ان يستولي على مصر ، ووصلت جنوده فعلاً الى ارض الكنانة ، وكاد يستولي عليها لولا اتحاد العرب ضده . ولا يخفى على الباحث الفطن ان الاحتجاج بحمايــة بيت

---

١ – المعروف ان بلدوين قد افتتح مدينة الرها واستقر فيها لا مدينة حمص كما سيرد في الفصل التالي .

٢ – لا ريب في ان الاستاذ عنان يريد الحملة الرابعة ، وسترد الاشارة اليها في فصل مقبل .

٣ – مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ص ٩٦ .

المقدس لا يستوجب غزو مصر ، فيمكن درء الهجوم على بيت المقدس باقامة الاستحكامات وانشاء الحصون ، لو كان هناك خطر حقيقي يهددها ، لا بحشد الحشود وجمع الكتائب وارسالها الى وادي النيل وتوغلهـا في الصعيد ابتغاء حماية بيت المقدس ! فالشقة بعيدة والمسافـة شاسعة بين بلدة أطفيح في جنوبي القاهرة وبيت المقدس في فلسطين [1] . »

وصفوة القول اننـا نخرج من اقوال المؤرخين الغربيين والشرقيين ، قدماء ومحدثين ، بان الحركة الصليبية قد اصطبغت من اول امرها بصبغة اقتصادية استغلالية واضحة « فكثير من المدن والجماعات والأفراد الذين ايدوا تلك الحركة وشاركوا فيها ونزحوا الى الشرق ، لم يفعلوا ذلـك لخدمة الصليب وحرب المسلمين ، وانما جرياً وراء المـال وجمع الثروات واقامة مستعمرات ومراكز ثابتة لهم في قلب الوطن العربي بغية استغلال موارده والمتاجرة فيها والحصول على اكبر قدر ممكن من الثروة ، حقيقة ان الاستعمار بمعناه الحديث لم تتضح معالمه الا بعد الانقلاب الصناعي في القرن الثامن عشر ، ولكن ليس معنى ذلك ان العالم لم يعرف الاستعمار منـــذ ايام الفينيقيين واليونانيين القدامى . وفي العصور الوسطى كانت الحروب الصليبية اول تجربة في الاستعمار الغربي قامت بها الأمم الاوربية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق [2] » .

وهكذا لم تقبل السنة التالية (٤٩٠ هـ ١٠٩٦ م) حتى كان يزحف على

---

١ – صلاح الدين الأيوبي للدكتور جمال الدين الرمادي ص ٢٩ .

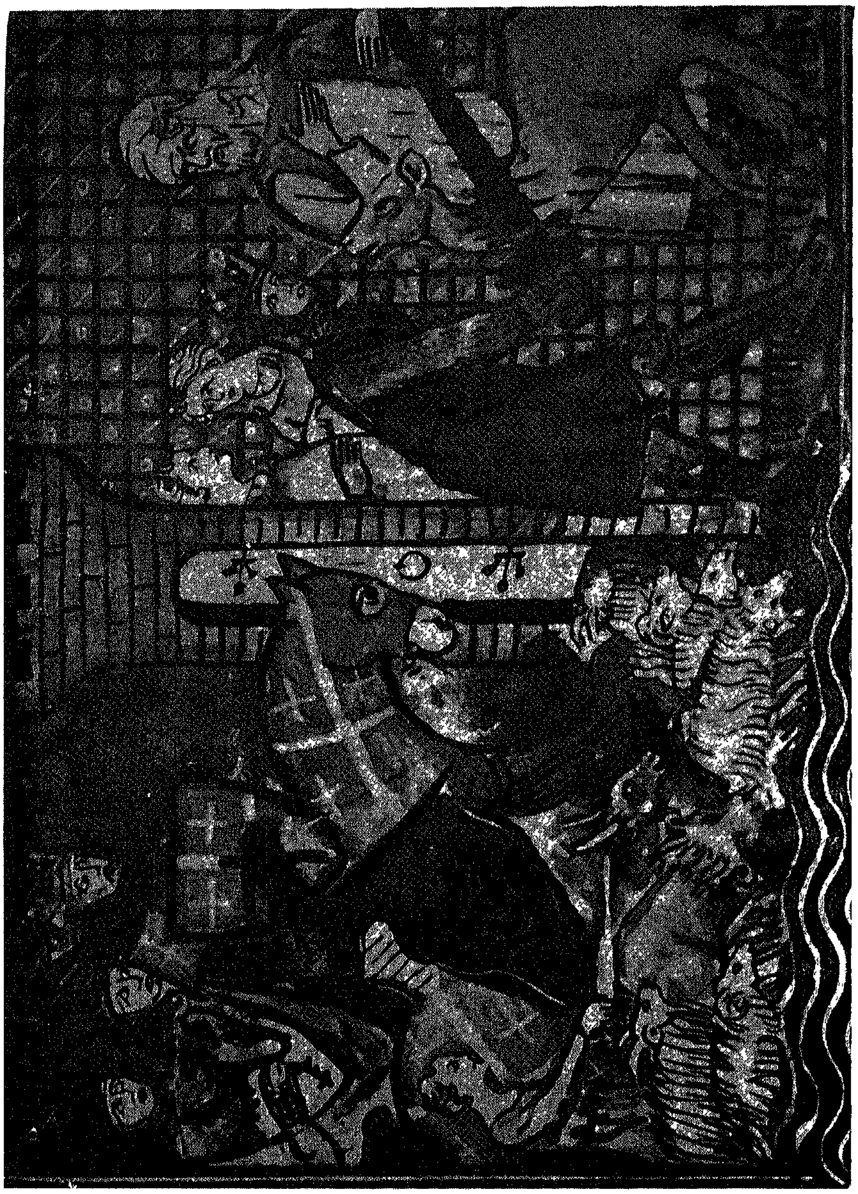
٢ – الحركة الصليبية للدكتور سعيد عاشور ج ١ ص ٣٦ – ٣٧ استناداً الى :
Thompson ; Economic and Socail Hist . I, p. 397

طرق الشرق بقيادة غودفروا دي بويون [1] مائة وخمسون الف رجل انثالت من جميع الأقطار والأجناس ، ولكن كثرتهم الغالبة كانت من الفرنسيين الذين كانوا يدعون فرنك اي فرنجة ، وهو الاسم الذي اطلقه العرب يومذاك على جميع الغربيين .

لقد كانت تلك الحملة تتألف كما يقول الدكتور حسن حبشي من جماعتين : « احداهما فئة العامة التي استجابت دون تقدير الظروف لدعوة بطرس الناسك ، ولم تتسم هذه الفئة بالنظام ولا الإدراك الحقيقي لما هي قادمة عليه ، ومن ثم فشلت ريحها وانتهت الى ما يشبه الانتحار الذي ساقه اليها عدم نظامها ؛ أما الجماعة الأخرى فكان قوامها الأمراء الاقطاعيون سواء أكانوا فرنسيين ام ايطاليين ام نرمنديين ، وطبيعي ان تكون هذه الجماعة اكثر تقديراً لخطة سيرها وإن اختلف هذا التقدير عند امير عنه عند آخر ، لكنها على وجه العموم استعدت بالسلاح والأموال والرجال والعتاد والاتصال مقدماً بأمراء وولاة النواحي التي ستمر بها بل وبالامبراطور الكسيوس كومنين ايضاً حتى يمدّ لها من المساعدة والعون

---

١ – لم يكن غودفروا دوق اللورين الأدنى القائد الوحيد للحملة ولكنه كان أول الناهضين للحرب ، وأبرز القادة الآخرين ، وخير ممثل للفروسية المسيحية في القرون الوسطى . وكانت « حملة الدهماء » بقيادة بطرس الناسك ، في حين انقسمت « حملة الأمراء » الى أربع فرق احداها بقيادة غودفروا ، والثانية بزعامة بوهيمند النورمندي ، والثالثة من أهالي وسط فرنسة بقيادة ريمون دوسانجيل كونت تولوز ، والرابعة مؤلفة من فرنسيي الشمال بقيادة روبرت هيوز كونت نورمنديا (انظر : الحرب الصليبية الاولى ٦٨ –٦٩) فضلاً عن عدد آخر من الأمراء النورمنديين المغامرين والكونتات الطامعين باقامة ممالك وامارات في الشرق . وكان كل كونت أو أمير يعول الجماعة التي تقاتل تحت لوائه .



غودفروا دي بويون يجتاز نهر الأردن ، لوحة من القرن الرابع عشر

ما قد تحتاجه في طريقها الى بيت المقدس [1] . »

ولم تكن تلك القوات « قاصرة على المشاة والفرسان ورماة النبال والسهام والعمال الذين تحتاجهم الحملة في القتال والاستعداد له ، بل تعدتهم الى طائفة غير قليلة من النساء والأطفال والشيوخ والقسس والأساقفة بل والنساء اللاتي جيء بهن لدوافع لا تمت الى القتال بسبب ما ، فكانت اشبه ما تكون بهجرات شعوبية وطنت نفسها على الاستقرار كجاليات مستعمرة في بلاد الشرق الادنى [2] » .

ويقول الدكتور نقولا زيادة اعتماداً على كثير من المصادر الغربية والشرقية : « كان في الجيوش الصليبية ومع التجار الصليبيين ، الفرنسيون من مختلف المدن ، واللومبارديون ، من مدن ايطاليا التجارية الشمالية ، والمالطيون ، والاسبان ، والاسكندينافيون ، والانكليز ، والهنغاريون ، والبلغار ، والجرمان من القبائل المتفرقة في اواسط اوربا وكان عددهم كبيراً جداً حتى تألفت منهم فرقة الفرسان التوتون . وكانت قلاعهم الخاصة حصينة . وكان بين هؤلاء القادمين على رواية المؤرخين المعاصرين من الغربيين : القاتل واللص وقاطع الطريق والمجرم والقرصان والسكير واللاعب والراهب والراهبة والرجل والمرأة والطفل والعاهرة والمحكوم عليه بالاعدام والملك والامير والفلاح والتاجر والنبيل والغني والفقير . وباختلافهم اختلفت الغايات والاطماع ، من دينية خالصة الى مادية بحتة ، والاخيرة هي التي غلبت متسترة بالاولى . وقد كان هناك من جاء يفتش عن اميرة شرقية غنية يتزوجها [3] » .

---

١ - الحروب الصليبية الأولى ص ٦٤ .
٢ - المرجع السابق ص ٨٥ .
١ - مجلة المقتطف عدد يوليو ١٩٣٥ ص ٩٩٦ .

وكان تقدير البابا صحيحاً ، فان الحروب الصليبية قد اضعفت سلطة الامبراطور هنري الرابع واحرجت موقفه ، ووضعت اصلاح الكنيسة بالشكل الذي تريده البابوية موضع التنفيذ في كل مكان . ولم تحل مسألة تعيين الاساقفة ورؤساء الاديرة حلاً نهائياً ، ولكن المقر البابوي بدا بكل ابهته وجلاله ، فوق المجتمعات وفوق الملوك أنفسهم ، وأصبح صوته مستجاب النداء مسموع الكلمة .

الفصل الثالث

تارة تغزو تارة

كانت الحروب الصليبية أول حرب عالمية عرفها التاريخ ، ولم يسبق للقارة الاوربية قبل هذه العاصفة الجنوبية أن اهتزت بأسرها لعاطفة واحدة وعملت لقضية واحدة ، وزحفت في جيش موحد او شبه موحد نحو هدف واحد .

وكان اوربانوس الثاني قد اتفق مع الامبراطور البيزنطي على أن تمر جيوش الفرنجة من بلاده ، وكان هذا الامبراطور يطمع في أن تدين له القوات الصليبية بالولاء ، وتعيد اليه ما انتزعه السلاجقة من الأراضي البيزنطية ، وقد جرت من أجل ذلك وقائع واحداث ومناقشات لا نرى حاجة الى التوسع فيها [1] ، وهي تدل جميعاً على ما كان يسود علاقات الفريقين : البيزنطيين والصليبيين ، من حيطة وحذر وكراهية وتربص كل فريق منهما بالآخر ، كما كان كل من القادة الصليبيين يعمل في الوقت نفسه

---

١ — انظر تفصيل ذلك في : الحرب الصليبية الاولى ص ٧٠ — ٨٣

و Grousset ; Histoire des Croisades, t I, pp. 15 — 80

و Chnlandon : Hist. de la Première Croisade, pp. 135 — 140

لحسابه الخـاص . وكان فوج بطرس الناسك اول الأفواج التي بلغت القسطنطينية .

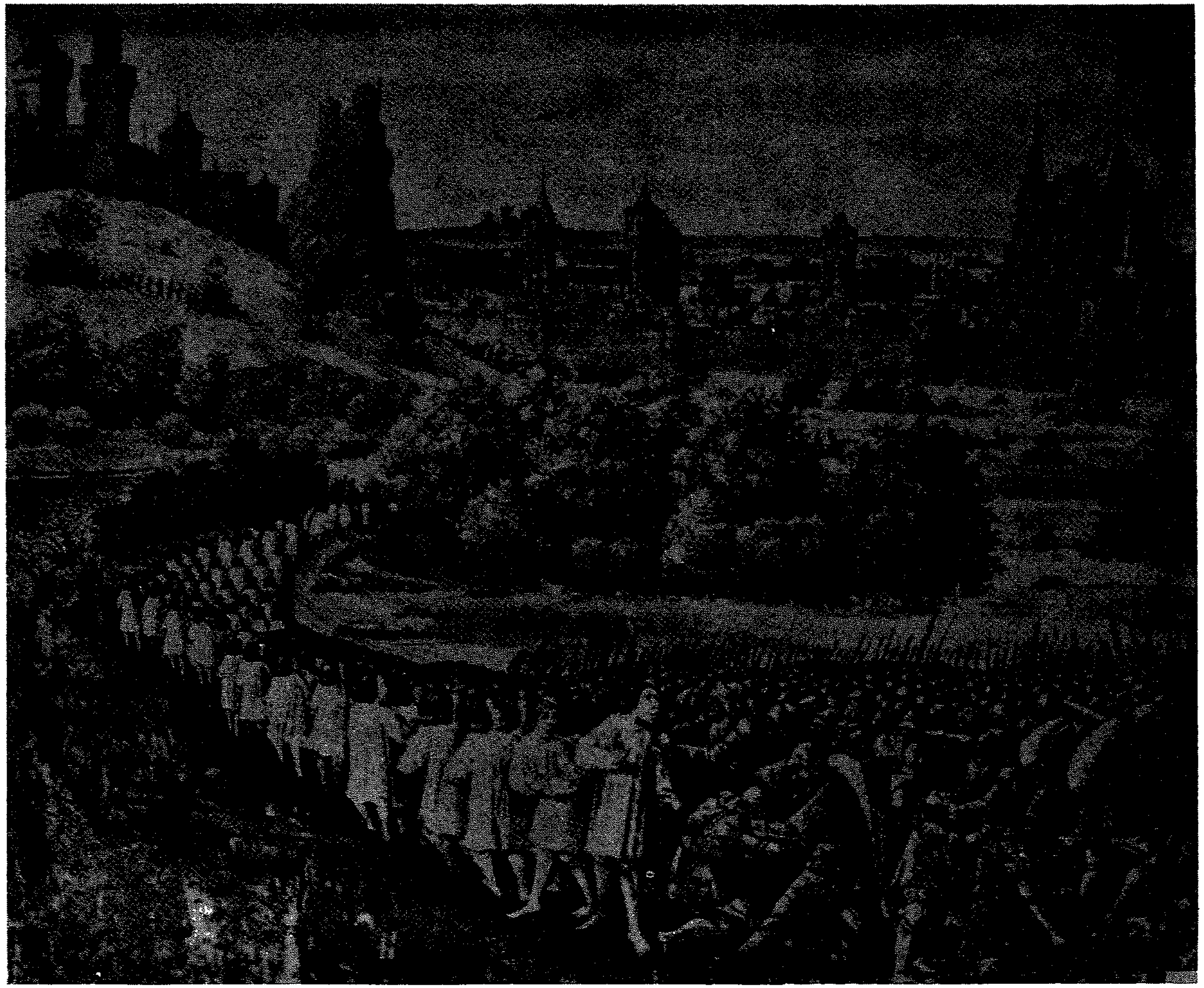
ويقول الدكتور اسد رستم : « في اوائل تموز من السنة ١٩٠٦ وصلت الى البلقان جموع بطرس الناسك ناهبـة مُقَتِّلة مُخَرِّبة [٢] . وتقدمت هذه الجموع نحو القسطنطينية ، فرحب بها الفسيلفس [٣] وأكرمها ، واستقبل بطرس الناسك وأوضح له وجوب الانضباط واحترام حقوق السكان . وكان اتباع بطرس قد اقاموا خارج اسوار المدينة ، فعاثوا في الضواحي فساداً ، وخرقوا حرمة الكنائس . فرأى اليكسيوس ان يجابهم بجيرانه الأتراك السلاجقة عبر البوسفور لعلهم يفقهون . وما إن حطت رحالهم

---

١ – نفد صبر الذين تجمعوا حول بطرس الناسك قبل أن تتهيأ الجيوش النظامية للزحف الكبير ، وطلبوا منه أن يرأسهم ويقودهم الى الأرض المقدسة في الحال ، فاقتسم القيادة مع والتر المفلس ، وتبعهما جمع كبير بلغ على قول بعض المؤرخين ثمانين ألفا فيهم كثير من النساء والأولاد (انظر التاريخ العام لمبر ص ٢٤٧) .

٢ – لم تكن الفظائع التي ارتكبها الافرنج في انطاكية وبيت المقدس فيما بعد بأكثر هولاً من الأعمال الجنونية التي أقدموا عليها في بلغارية والمجر وجميع الأراضي التي مروا بها ضد السكان المسيحيين واليهود (انظر : Michaud: Hist. des Croisades, T. I. pp. 230 , 239) فقد نهبوا بلغراد وتيش وقتلوا في مدينة سملين المجرية وحدها أربعة آلاف من المسيحيين (Albert d'Aix, Hist. Occid, IV, p. 296) ويروي المؤرخ المجهول الذي رافق الحملة الصليبية الأولى ودوّن وقائعها أمثلة كثيرة عما قاموا به في القسطنطينية حيث خربوا القصور والكنائس وأضرموا النار فيها وخلعوا الرصاص الذى كانت تغطى به الكنائس وباعوه للأغريق (انظر كتاب الجستا الذي عربه الدكتور حبشي بعنوان « اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس » ص ١٩ – ٢٠ و Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 310) ويقول غروسه ان حملات العامة الأخرى التي قادها فولكمار وغوتشالك وراميخ لم تكن احسن حالاً من حملة بطرس الناسك وولتر المفلس ، بل « كانت كلها وصمة سوداء في تاريخ الحركة الصليبية » (Hist. des Croisades, T. I. pp. 9 . 10)

٣ – الامبراطور البيزنطي .



معركة على أبواب القسطنطينية بين الجنود البيزنطيين وجماعة بطرس الناسك ، لوحة من القرن الخامس عشر

في آسية حتى هاجموا الأتراك ، فبدد هؤلاء شملهم . فارعووا وكفوا عن القبيح ، ورضوا أن يعودوا الى ضواحي القسطنطينية عُزّلاً [1] » .

وتتابعت من بعد ذلك افواج الصليبيين ، فجاء غودفروا دي بويّون بجموعه ، وكان اليكسيوس قد سمع بشجاعته وثرائه وسخائه فأكرمه ، ولكن غودفروا رفض مبايعة الامبراطور ، فتوترت العلاقات بين الاثنين ، وقلّت المؤونة لدى اتباع غودفروا خارج اسوار العاصمة ، فلجأوا الى العنف ونهبوا بلدة سيلمبر واحرقوا بلدة بيرا [2] وارادوا اقتحام احد مداخل القسطنطينية ، فصدهم البيزنطيون بالقوة وتغلبوا عليهم ، فأخلدوا الى السكينة . ودعا الامبراطور الزعيم الصليبي الى مأدبة اقيمت في القصر المقدس على شرفه ، فبايع غودفروا الامبراطور على الطاعة والولاء ، ومضى بجموعه الى آسية .

وأطلّ من بعده بوهيمند النورمندي الايطالي ابن غيسكار ، وكان قد حارب اليكسيوس في ألبانية واليونان ، فاعتور علاقاته مع البيزنطيين في بادىء الأمر شيء من الفتور والحذر ، ولكن شخصيته الجذابة ومواهبه الكبيرة ، ونجاحه في التظاهر بالصدق والاخلاص ، عملت على ازالة الحذر والفتور بينهما . وقد اغدق عليه الامبراطور فيضاً من الهدايا والأموال ، فسرّ بوهيمند وطلب إلى الامبراطور ان يدخل في خدمته ويتولى قيادة جيشه ، فوعده بالنظر في ذلك فيما بعد ، ووعد باقطاعه اراضي فسيحة في منطقة انطاكية ، فبادر بوهيمند حينئذ الى الدخول في طاعة الامبراطور وأقسم يمين الولاء له .

---

١ – الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٢٦ .
٢ – Albert d'Aix ,M, pp. 299 , 308

ثم جاء روبير دى فلاندر فدخل لفوره في طاعة الامبراطور . اما ريموند دى سان جيل فانه رفض الدخول في الطاعة ، ثم أقنعه بوهيمند بذلك ففعل . الا ان تنكريد الصقلي نسيب بوهيمند الذي كانوا يسمونه « مرآة الفروسية » لم يرض ان يمر بالقسطنطينية او ان يقسم يمين الولاء والطاعة لعاهل الروم .

يقول الدكتور رستم : « وكان ينقص هؤلاء جميعاً فيما يظهر الشيء الكثير من آداب السلوك وحسن المعاشرة ، فكانوا يدخلون على الامبراطور في الصباح الباكر ولا يفارقونه الا في نهاية المساء ، متطلبين متطاولين ، او مسترشدين ، او متحدثين مسامرين . وكانوا في كثير من الاحيان متهتكين سفهاء ، خالعين بُرقع الحياء ، ضعفاء الارادة لا يمتنعون عن شيء مما يرغبون فيه ، متكلمين بما لا ينبغي ، متشدقين [1] » .

وقد ايقن العاهل البيزنطي بأن هؤلاء المغامرين لا يعنيهم شيء من شؤون امبراطوريته ، وانه ليس من المستبعد ان يعملوا على تقويض البقية الباقية منها ، ولكن براعته الديبلوماسية كانت متكافئة مع المأزق الذي تورط فيه ، وقد استطاع ان يسيّرهم جميعاً بسلام ، عبر مضيق البوسفور ، « دون ان تكون لديه اية نية في تسهيل عودتهم [2] » .

وعانت تلك الجيوش ، بل تلك الموجة البشرية ، وهي في طريقها الى الاراضي المقدسة الواناً شتى من الشدائد والأهوال والأمراض والثورات والغزوات والمذابح ، وانشقاق بعضها على بعض ، والاشتباك في معارك جانبية مع جيوش المسلمين ، بحيث لم يصل منها الى بيت المقدس في

---

١ – الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٢٨ .
٢ – تاريخ العالم لهامرتن ج ٤ ص ٤٧٥ .

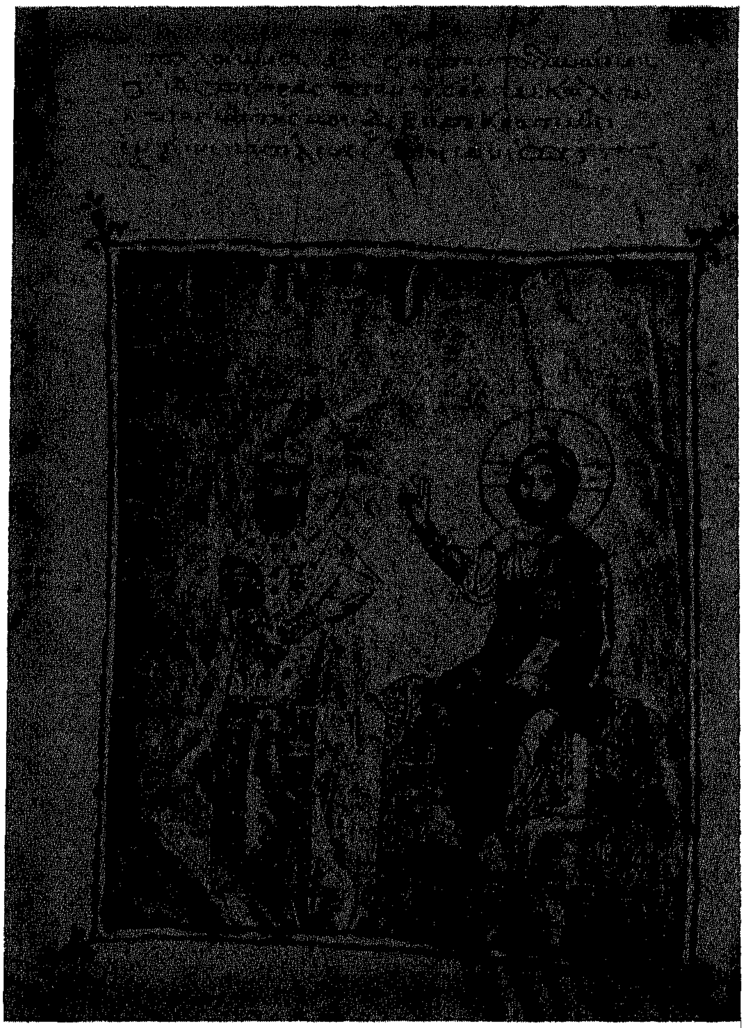
سنة ٤٩٣ هـ ١٠٩٩ م، بعد تلك المآزق التي دارت عليها اسوأ مدار، الا خمسة عشر الف مقاتل او اكثر قليلا .

وكان تمرد الجنود او هربهم من الجندية في احيان كثيرة، حرياً بأن يحول دون بلوغ الفرنجة هدفهم، لولا ان القوى التركية كانت قد هزلت بعد موت السلطان ملكشاه، لما قام بين اعضاء الاسرة السلجوقية من نزاع، ولولا ان الفوضى في صفوف العرب لم تكن تقل عن الفوضى السائدة في جيوش الافرنج، ولولا ان هؤلاء كانوا يتلقون من الغرب نجدات مستمرة، ومن الاساطيل الايطالية مساعدات فعالة، فسقطت في ايديهم انطاكية وكانت في ايدي السلاجقة، والقدس وكانت في ايدي الفاطميين [1]، وبعض القرى والقلاع، كما استعاد الامبراطور البيزنطي بمساعدتهم مدينة نيقية التي كانت كفيلة بأن تهدد مواصلاتهم وامداداتهم اذا ظلت في ايدي السلاجقة . وانتصار الصليبيين في نيقية كان اول انتصار احرزوه في حملتهم فشحذ عزائمهم وبعث فيهم حماسة جديدة [2] . وكان العاهل البيزنطي قد خشي ان يستأثر الصليبيون بالمدينة او ان يعمدوا الى نهبها وتدميرها، فأخذ يفاوض حاميتها على الاستسلام متعهداً بالحفاظ على حياة السكان، فما كادت تسقط حتى رفع رجال الحامية

---

١ -- كان الفاطميون قد استعادوا بيت المقدس من السلاجقة في سنة ٤٩١ هـ ١٠٩٧ م بعد سقوط انطاكية في أيدي الافرنج بشهر واحد، وعرضوا على هؤلاء ان يعقدوا حلفاً معهم، ويقول جون هامرتن انهم « بذلوا لهم من الوعود لاعادة نظام الحكم القديم المنطوي على التسامح، والذي ظل وقتاً طويلا كافياً لارضاء شعور الغربيين في العهود الماضية، ولكن بيت المقدس كانت قد أصبحت هدف الصليبيين، وتحتم في نظرهم انقاذهـا من المسلمين، سواء أكانوا من المتسامحين أو من المتعصبين، من الفاطميين او من الأتراك »، انظر : تاريخ العالم، ج ٤ ص ٦ ٤ ٧ و Michyud ; Hist. des Croisades, T. I. pp 362 . 363

٢ -- Albert d'Aix. pp. 320 . 321



الامبراطور اليكسيوس كومنينوس في لوحة قديمة تمثله في حضرة السيد المسيح

المسلمون الأعلام البيزنطية على الأسوار [١] . ولم يكتم الصليبيون استياءهم من حسن معاملة امبراطور الروم لأسرى المسلمين واطلاقه سراح زوجة قلج ارسلان واولاده دون فدية .

وكانت قد انشعبت عن قوافل الحملة في آسية الوسطى جماعتان احداهما بقيادة تنكريد والثانية بقيادة بلدوين ابن كونت بولونية ، سعياً وراء امجاد شخصية لم يظفر بها الأميران في بلادهما ، فاحتل الأول طرسوس بالتعاون مع سكانها الأرمن ثم تخلى عنها لبلدوين ، ومضى الى المصيصة سنة ٤٩١ هـ ١٠٩٧ م فرحب به سكانها الأرمن ثم غادرها عائداً الى صفوف الفرنجة ، وانطلق بلدوين الى الرُّهـا (اورفا) بعد أن اشتبك جنوده بجنود تنكريد وكاد يفني بعضهم بعضاً ، فاستقبله اميرها الأرمني طوروس وأعلن تبنيه له وجعله وريثاً لعرشه ، فما لبث ان تآمر عليه مع خصومه الذين ثاروا على طوروس ونفوه ثم قضوا عليه لاعتناقه المذهب الارثوذكسي واعترافه بنوع من التبعية للامبراطور البيزنطي [٢] .

واستقل بلدوين بحكم الرها ، وتحلل من كل ارتباط بالعرش البيزنطي ، وأخذ يستولي على القرى والبقاع القريبة من ملكه ، واستقدم الأفرنج لتوطينهم في الرها وتسليمهم مقاليد الادارة ، مخافة ان تستيقظ الوطنية الأرمنية ، الا ان ايثاره الفرنجة على اهل البلاد هو الذي اثار كراهية المواطنين له « وترجموا عن كراهيتهم لسياسته بتدبير مؤامرة لاغتياله [٣]،

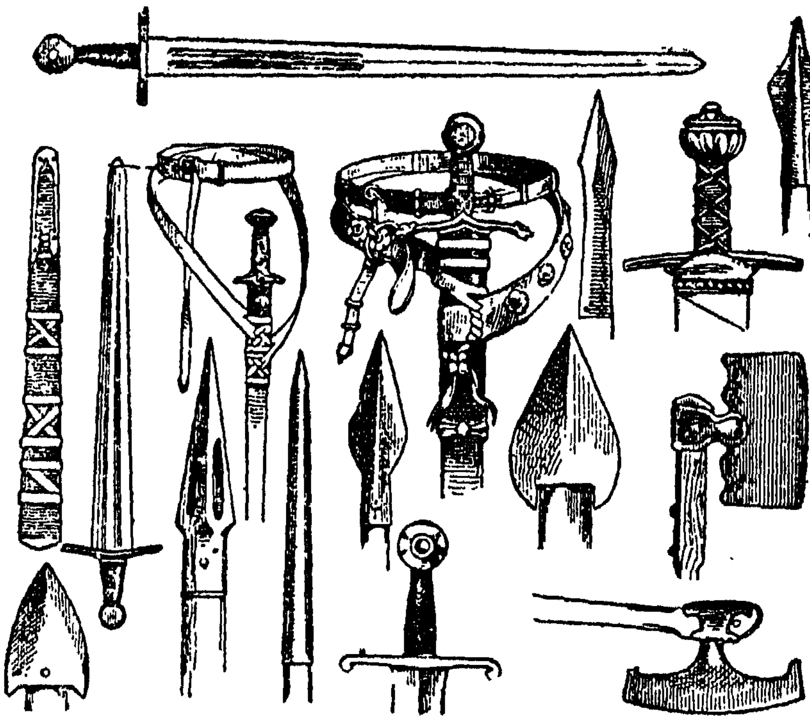
---

١ — Brehier Vie et Mort de Byzance. p. 312

٢ — Michaud; Hist. des Croisades T. I. p. 233

٣ يروي البير ديكس ان الأرمن قد اتصلوا بالاراتقة سراً وطلبوا مساعدتهم في تلك المؤامرة : Hist Occident, p 443

وليس ادل على هذه الكراهية من ان ثاتول .ابا زوجته التي كان قد اقترن بها منذ بضعة اشهر – كان ضالعاً مع المتآمرين – ونمي خبر هذه المؤامرة الى بلدوين فأخذهم اخذ جبار منتقم ، فألقى القبض على المتآمرين ومثل بهم غداة عيد ميلاد سنة ١٠٩٨ وسمل اعين البعض وجدع انوف آخرين ، وصادر كثيراً من املاكهم واموالهم ، وفرض على بعضهم غرامات كبيرة ، فهدأت الأحوال واستقرت الأمور ، اما ثاتول فقد ادرك ان خيره في البعد عن الرها . وهكذا اسدل الستار على اول فصل من فصول الحملة الصليبية التي كشفت القنـــاع عن ان الفكرة الدينية لم تكن هي التي



طائفة من الأسلحة التي استخدمت في الحروب الصليبية ، وتشاهد بينها السيوف والسواطير والسهام والرماح والقضبان

تحرك هذه الجماعات الاوربية التي زعمت ان تخليص بيت المقدس هو هدفها . وان تاريخ الرها ليدل على ان اهلها المسيحيين والأرمن لم يصادفوا من الاضطهاد والقتل مثل ما صادفوه خلال العام الذي تولى شؤونهم فيه بلدوين الفارس الصليبي والمسيحي الأوربي [1] . »

اما انطاكية درة الشرق يومذاك فكان يحكمها الأمير السلجوقي ياغي سيان ، وهي من اقوى مدن ذلك العصر تحصيناً ، فلما شارفتها قوات الافرنج امتنع ياغي داخل اسوار المدينة الحصينة ودعا كل قادر على القتال الى المساهمة في اعمال الدفاع . يقول الاستاذ حبيب جاماتي : « وكان فريق من النصارى السوريين والأرمن ـ بخلاف ما قد يتبادر الى الذهن ـ عوناً للحاكم السلجوقي على الجيش الصليبي . فحملوا الى ياغي سيان كميات كبيرة من الحنطة والشعير والعلف والزيتون ، واشتبك بعضهم في قتال الافرنج الذين كانوا يعتمدون على اولئك النصارى ، ويعتقدون انهم سيكونون حلفاء لهم في تلك الحرب الدينية [2] » .

وكان في وسع القوات العربية والاسلامية لو زحفت لنجدة انطاكية من حلب ودمشق والموصل وبغداد ، ان تحاصر القوات المغيرة وتقضي عليها ، بعد ان طال وقوفها امام اسوار انطاكية وفتك الجوع بكثير من افرادها ، حتى ان بطرس الناسك ووليم النجار حاولا الهرب هما وجماعة من اتباعها فتعقبهم تنكريد واعادهم الى المعسكر الصليبي عنوة .

---

١ - الحروب الصليبية الاولى ص ١٠٨ - ١٠٩ .

٢ - غبار المعارك ص ٥٨ .

ويروي المؤرخ المجهول صاحب الجستا قصة ذلك بقوله : « ادت هذه النكبة الجسيمة والضيق البالغ الى تسلل وليم النجـار وبطرس الناسك سراً ، فمضى تنكريد في آثارهما وامسكهما ورجع بهما وهمـا في غاية الخزي ، فقطعا على نفسيهما العهد بالطاعة ، واقسما له الإيمان المغلظة بأنهما سوف يرجعان طواعية الى المعسكر ، وانهما سيعتذران للسادة . واقام وليم طول الليل في فسطاط بوهيمند مقيد الطرف الى الأرض وهو اذلّ من المهانة ، فلما تنفس صباح اليوم التالي مَثَل امام بوهيمند وقد احمر خجلاً ، فخاطبه بوهيمند بقوله : « ايهـا الشقي ، يا خزي فرنسا ويا عار جميع الغاليين واشدهم إثماً ، ويا اشقى من حملته الأرض ، لمـاذا هربت على هذه الصورة المخزية ؟ اتراك كنت تريد خيانة هؤلاء الفرسان وتسليم جيش المسيح للكفرة كما صنعت بغيرهم من قبل في اسبانية ؟ » فلزم وليم الصمت المطبق ولم تنفرج شفتاه قط عن اية كلمة ، فاجتمع الفرنسيون جلهم تقريباً متوسلين الى السيد بوهيمند ألا يشتد اكثر من هذا في ايلامه ، فأجاب سؤالهم وقـال : « ان حبي اياكم يحملني على تلبية طلبكم عن طيب خاطر إذا اقسم لي قسماً خالصاً من قلبه وروحه ألا يحيد عن طريق بيت المقدس سواء في الفرج او الضيق ، وكذلك اذا قبل تنكريد ورجاله العفو عنه » فلما سمع تنكريد هذه العبارة رضي ، وسرعان ما ردّه بوهيمند ، على انه حدث فيما بعد ان افترس الخزي وليم النجار فما لبث ان هرب واختفى [١] » .

وقد وصلت النجدات الاسلاميـة متأخرة ومتفرقة ، فالتقى جيش دقاق امير دمشق وأتابكه طغتكين بقوات بوهيمند وروبرت كونت فلاندر على مقربة من شيزر فعـانى جسيم الخسائر وارتد مذعوراً الى

١ – أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ٥٥ .

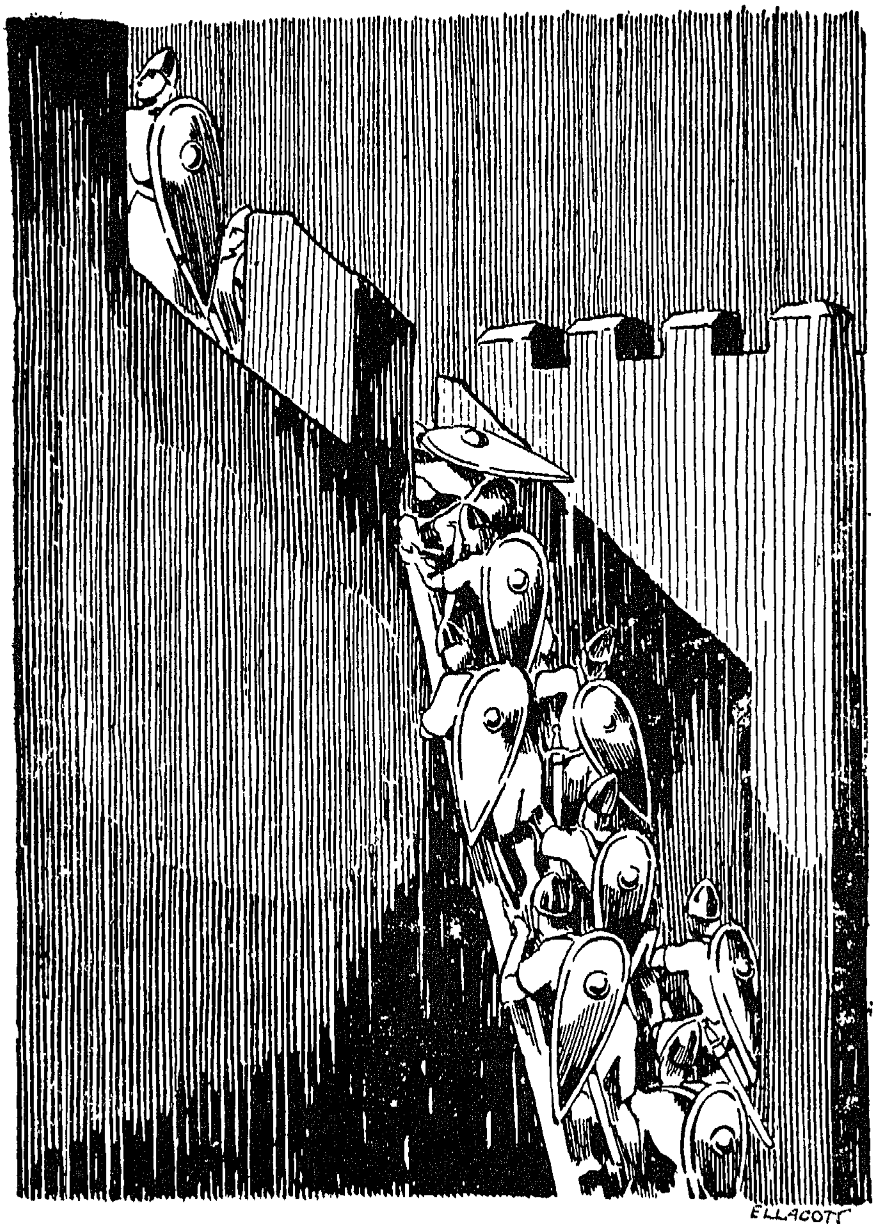
حماه . وجاء رضوان امير حلب بجيشه ومن انضم اليه من سنجار وشيزر وحماة وحمص ، وعسكر في مرج دابق شرقي انطاكية ، وقام بمحاولة جريئة لشق طريق له الى قلب المدينة ، وكان الفرنجة قد علموا بمقدمه وكمنوا له ، فأنزلوا به خسائر فادحة وتعقبوه حتى حارم . ثم تحركت الخلافة العباسية فأنفذت جيشاً كبيراً بقيادة قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل ، ولكن كربوقا لم يشخص الى انطاكية مباشرة بل اراد ان يمرّ بالرها فيفتتحها ثم يمضي منها الى انطاكية ، وامتنعت الرها عليه ، فغادرها واتجه الى هدفه الأول ، وبينما هو في الطريق سقطت انطاكية في ٣ حزيران (يونيه) ١٠٩٨ (٤٩٢ هـ) إثر خيانـة ارمني يدعى فيروز كان ياغي قد وثق به وعهد اليه بحراسة حصن رئيسي من حصون المدينة يسمى « حصن الأختين » فسلـّم الحصن الى الافرنج ونفذوا اليها منه بعد ان صعدوا اليه على سلم مثبت الى اسوار المدينة تثبيتاً قوياً . وقد اختلفت الروايات في الأسباب التي حملت فيروز على ذلك ، فقالت المصادر العربية [١] انه كان غاضباً على ياغي لمصادرته بعض امواله ، وقالت المصادر الافرنجية [٢] انه اكتشف خيانة زوجته له مع احد امراء الاتراك فعمل على الانتقام منهم . اما صاحب الجستا فقال ان حارس الحصن تركي يدعى بيروش وانه كان يشرف على حراسة ثلاثة حصون لا حصن واحد [٣]

---

١ – ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ – ١٣٦ انظر ايضاً : الكامل ج ١٠ صفحة ١٨٧ والمختصر في تاريخ البشر ج ٢ صفحة ٢٢٠ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ صفحة ٢٠ .

٢ – Guillaume de Tyr (historiens des Croisades, T. I. p. 221)

٣ – انظر : اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ٦٦ – ٧٠ وفيه تفصيل احتلال الفرنجة لانطاكية .



الفرنجة يتسلقون أسوار انطاكية

وقد غادر ياغي المدينة هارباً بعد المذبحة التي وقعت فيها فقتل في الطريق ، بينما تحصن ابنه شمس الدولة في القلعة .

ومن اطرف ما يصوّر الأحداث التي رافقت احتلال انطاكية اللوحة البارعة التي رسمها الاستاذ جاماتي بقوله : « احاطت تلك المرحلة من مراحل الحرب الصليبية الاولى سلسلة من الخيانات ، لولاها لتغير مجرى الحوادث ووجه التاريخ .. فقد احتال بوهيمون على قومه للفوز بامارة انطاكية وخان الصليبيون امبراطور بيزنطة الذي تعهدوا له بتسليمه المدينة بعد اخذها فأعطوها لرفيقهم بوهيمون . وخانت زوجة فيروز زوجها فأثارت حفيظته على ياغي سيان . وغدر ياغي سيان بصديقه فيروز فحمله على خيانته وفتح المدينة للصليبيين . وخان فيروز سيده وقومه وحالف الأعداء ومكنهم من الاستيلاء على انطاكية . وتخلى غلمان ياغي سيان عن سيدهم فاغتاله الارمن وارسلوا رأسه الى اعدائه . واخيراً حنث بوهيمون بالعهد مع فيروز فلم يعينه في المنصب الذي وعده به ثمناً لخيانته . واما الزوجة الخائنة فقد قتلها زوجها الخائن بيده . واختفى فيروز وانقطعت اخباره عن الناس ، ولم يبق على قيد الحياة من ابطال هذا الحصار ، الذي كانت الخيانة محور حوادثه ، غير بوهيمون امير انطاكية [1] ! »

ولما وصلت قوات كربوقا بعد ثلاثة ايام حاول شمس الدولة منعه من الدخول اليها ، واخذ يفاوضه في ذلك ، فلم يصغ كربوقا اليه ، وبادر الى احتلال القلعة ومحاصرة المدينة ، وشدد عليها الحصار حتى اكل الناس الميتات والكلاب [2] وتولى الافرنج اليأس ، وعمّت الفوضى

---

١ – غبار المعارك صفحة ٦٠ .

٢ – منتخبات من تاريخ حلب صفحة ٥٨٢ .

صفوفهم ، وبدأ الكثيرون منهم يتسللون هرباً من المصير المظلم ، وكان بين هؤلاء الهاربين عدد من الأمراء والقادة ، وتحرك الامبراطور البيزنطي لنجدتهم ، الا انه ما لبث ان عاد بجيشه الى القسطنطينية دون أن يلتحم مع المسلمين في قتال حين التقى بأحد الهاربين من انطاكية فزعم له ان المسلمين قد استعادوا انطاكية وأبيد الصليبيون جميعاً .

والواقع انه لم ينقذ الصليبيين من الابادة الا الفرقة التي دبت في صفوف المسلمين والتنافر الذي وقع بين الاتراك والعرب [1] ، وإلا رؤيا الحربة المقدسة التي طُعن بها السيد المسيح ، إذ ادّعى أحد افراد الحملة ويدعى بطرس بارتلميو ان القديس اندراوس تجلى له في المنام مرات متعددة قائلاً له ان الحربة التي طُعن بها السيد المسيح مدفونة في كنيسة القديس بطرس بانطاكية ، وأمره بأن يمضي الى المعسكر لينبىء الصليبيين بأن جميع القديسين سيحاربون الى جانبهم ، ولن يُغلب قوم قط يحملون هذه الحربة معهم .

وعلى الرغم من اعتقاد المسيحيين بأن في القسطنطينية حربة يذهبون الى انها الحربة المقدسة ، فأن مؤرخي الفرنجة يؤكدون رؤيا بارتلميو ، ويقولون ان عدداً من قادة الصليبيين رافقوه بعد تردد كبير وجدل عنيف ، الى كنيسة القديس بطرس ، وحفروا حيث أشار عليهم ، فوجدوا الحربة امام جمهور غفير [2] ففرح الجميع وعمت البهجة المدينة .

أما مؤرخو المسلمين فيذهبون الى ان دهاء ريموند الصنجيلي هو الذي

---

١ — العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج ص ٢١

٢ — Chalandon : Hist . de la première Croisade , pp , 216 - 218 واعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ٨٢ — ٨٣

تفتق عن اسطورة الحربة لينهض بها من عزائم الصليبيين « فرتب مع راهب حيلة ، وقال له : اذهب فادفن هذه الحربة في مكان كذا ، ثم قل للفرنج بعد ذلك : رأيت المسيح في منامي وهو يقول : في المكان الفلاني حربة فاطلبوها ، فان وجدتموها فالظفر لكم فهي حربتي[١] .. »

ومها يكن من أمر ، فان ظهور الحربة قد جدد حماسة الصليبيين وألهب خيالهم ، فكثرت الرؤى بينهم وتعددت الاساطير ، فرأى احدهم السيد المسيح يقول له : « اذهب الى شعبي وقل له ان يعود لي وسأرجع انا اليه ، ودونه خمسة ايام سأبعث اليه بعدها بنجدة عظمى » وشاهد بعضهم ناراً سماوية تقبل من الغرب وتدنو حتى تسقط بين جيوش المسلمين . فأعاد ذلك الاطمئنان الى نفوسهم ، وتنادوا الى القتال من جديد ، وانتهزوا ما ذكرناه آنفاً من خلاف امراء المسلمين وقادتهم ، وخرجوا لقتالهم تتقدمهم الحربة المقدسة .

ويروي ابن العديم وابن الأثير ان بعض القادة اشاروا على كربوقا بألا يمكّن الافرنج من الخروج بأجمعهم ، وإن يقتلهم متفرقين كلما غادر المدينة نفر منهم ، فان امرهم وهم متفرقون سهل ، إلا انه لم يلق اليهم سمعاً ، وقال : امهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم[٢] . !

ويقول الدكتور حبشي ان كربوقا « حال بين عسكره وبين الوثوب على الصليبيين حين خروجهم فرادى ، مؤثراً ان يلقاهم جمعاً رتيباً

---

١ – النجوم الزاهرة لابي المحاسن ، ج ٥ ص ١٤٧ – ١٤٨

٢ – منتخبات من تاريخ حلب ص ٥٨٣ ، الكامل ج ١٠ ص ١٨٨

كأنه في حفل فروسية [1] ، فكان ذلك سبباً في انكساره وهزيمة جيوشه[2] أما صاحب الجستا فأنه يؤكد ان سبب النصر الذي احرزه الإفرنج في ذلك اليوم المشهود هو ان السيد المسيح قـــد انجدهم بقوات لا تحصى انطلقت من ناحية الجبل بقيادة القديسين جرجس ومرغوريوس وديمتري وهي تمتطي صهوات جياد بيضاء وفي ايديها رايات بيض[3] .

واختلف قادة الحملة في مصير انطاكية ، فقد اراد الاستئثار بها كل من بوهيمند وريموند دي صنجيل ، ودعا غيرهمـا الى تسليمها لامبراطور بيزنطية وفاءً بالعهد الذي قُطع له ، واشتد النزاع بين الامراء والكونتات ، وأدى ذلك الى تأخر مسيرة الحملة الى بيت المقدس تسعة اشهر كان الافرنج خلالها يكنون لأنفسهم في أنحـــاء سورية ، ويحتلون القرى والمواقع القريبة منهم ، ويغيرون على المناطق الشمالية .

وقد استطاع بوهيمند ان يفرض سلطانه على معظم انحاء انطاكية وحصونها ، واستقدم اليها لهذا الغرض جالية كبيرة من جنوة ، وكان قد استعد لهذا الأمر واحتاط له منذ بدء المعركة ، وعمـــل على استفزاز تاتكيوس القائد البيزنطي وحمـــله على مغادرة تلك المنطقة متهماً اياه بالتآمر مع الاتراك وخيانة القضية الصليبية في الخفاء[4] بقصد التحرر من

---

١ – الحرب الصليبية الأولى ص ١٤٤ انظر ايضاً : الكامل ج ١٠ ص ١٨٨ والمختصر في تاريخ البشر ج ٢ ص ٢٢١

٢ – لم تكن هذه هي الهفوة الاولى التي يقع كربوقا فيها امام اسوار انطاكية ، فقد روى ابن القلانسي وابن العبري انه لما اشتد الحصار على الصليبيين داخـل المدينة اخذوا يفكرون في الاستسلام ، ولكن كربوقا رفض ان يعطيهم الامان ليخرجوا مـن انطاكية ، وقـال لهم : لا تخرجون الا بالسيف . (ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ ، تاريخ مختصر الدول ص ١٩٦)

٣ – اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ٩٣ – ٩٤

٤ – الحركة الصليبية ج ١ ص ١٩٦

العهود التي قطعت للعـــامل البيزنطي باعادة انطاكية له بعد الاستيلاء عليها .

وتولى غودفروا باسم اخيه بلدوين أمير الرهـــا بعض المدن التي تمّ لبلدوين فتحها مثل تل باشر وراوندان ، وقد استعان به عمر امير عزاز ضد مولاه رضوان صاحب حلب ، ويقول ابن العديم ان السبب في ذلك هو ان احد قواد عمر احب أرملة من اللورين فلما نشب الخلاف بين عمر ورضوان طلبت منه ان يحمل عمر على نشدان المعونه من أميرها غودفروا ، ففعل ذلك [١] ، وانجده غودفروا وريموند الصنجيلي لما في ذلك من توطيد لدعائم الحكم الصليبي في الأرض السورية و« الاعتراف الصريح بخطورة شأن الصليبيين في بلاد الشام وتفكك القوى الاسلامية ، وهو ما يهدف اليه الصليبيون [٢] »

واحتل ريموند خلال ذلك مدينة البارة واسكن فيها جماعة مـــن الاوربيين ، ثم هـاجم معرة النعمان وناصره في ذلك بوهيمند وروبرت كونت فلاندر ، وبعد حصار دام عدة اسابيع « عمد بوهيمند الى انفراده بالعمل في دخول المدينة المغلوبة كما فعل من قبل في انطاكية [٣] ، فبعث من ينادي بين أهل معرة النعمان بالامان إن هم استسلموا اليه دون غيره من القادة ، وقطع على نفسه العهد ببسط حمايته عليهم وأمّنهم عـــلى أرواحهم واموالهم ، ودلهم على مكان يلوذون به فـــلا ينالهم ضر ولا يمسهم اذى ، فصدق البعض قوله ، وذهبوا الى حيث اشار ، الا ان

---

١ – منتخبات من تاريخ حلب ص ٥٨٦

٢ -- الحرب الصليبية الاولى ص ١٥٤

٣ – كان بوهيمند هو الذي اتصل به فيروز لتسليمه حصن الأختين .

بوهيمند ما لبث ان نكث بعهده وقتلهم ، غير مستثن سوى النساء والاطفال حيث بيعوا أسرى [٢] »

ويقول الدكتور سعيد عاشور : « ان الشيء الذى يسترعي العجب حقاً ، هو ان المسلمين ظلوا حتى ذلك الوقت لا يدركون طبيعة الحركة الصليبية وهدفها ، بدليل ان الفاطميين في مصر فكروا في مشروع للتحالف مع تلك القوة الجديدة التي ظهرت في بلاد الشام ، ضد خصومهم من اهل السنة ، اعني الخلافة العباسية في بغداد والأتراك السلاجقة في الشام وكان صاحب السلطة الفعلية في مصر عندئذ هو الوزير الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالي الذي ظل يحكم البلاد طوال عهد الخليفة الفاطمي المستعلي (١٠٩٤ — ١١٠١) والعشرين سنة الأولى من حكم الخليفة الآمر ، أي حتى سنة ١١٢١ . ويبدو عدم ادراك الأفضل لحقيقة الحركة الصليبية من انه عندما رأى الصليبيين يهاجمون الاتراك السلاجقة ـ اعداء الدولة الفاطمية الألداء ـ فكر في ان يقيم تحالفاً بينه وبين الصليبيين ، بحيث تكون انطاكية للصليبيين وتكون بيت المقدس للفاطميين . ولم يشأ الأفضل أن يضيع الوقت ، وانما انتهز فرصة الفوضى التي أصابت العالم الاسلامى في الشرق الأدنى في اواخر القرن الحادي عشر نتيجة لوصول الصليبيين ، وأرسل جيشاً تمكن من فتح بيت المقدس . وفي تلك الاثناء كانت سفارة فاطمية من قبل الأفضل قد وصلت الى معسكر الصليبيين أمام انطاكية . ولعل هذه الأحداث كلها تعطينا فكرة واضحة عن مدى انقسام العالم الاسلامي على نفسه في ذلك الحين بين سنة وشيعة ، وترك وعرب ، وما سببه هذا الانقسام من خسارة للمسلمين جميعاً ، الأمر الذي

---

١ — الحرب الصليبية الاولى ص ١٥٩ ـ ١٦٠ . انظر ايضاً : الكامل ج١٠ ص ١٩٠

مكن الدخلاء من تحقيق مكاسب كبيرة على حساب الجميع . وتصور لنا المراجع اللاتينية المعاصرة هذا الانقسام بوضوح ، ومدى غبطة الفاطميين لما حل بالسلاجقة من كوارث على ايدي الصليبيين . ومهما يكن من أمر فقد صح حساب الأفضل في أول الأمر ، لأن الاتراك كانوا مشغولين بالغزو الصليبي واقامة جبهة في الشمال ضد الفرنجة الغزاة ، فلم يتمكنوا من ارسال نجدة لأقربائهم في بيت المقدس ترد عادية الفاطميين . وفي الوقت نفسه استفاد الصليبيون فائدة كبرى من تلك الخطوة التي اتخذها الفاطميون ، لأن تهديد الافضل لفلسطين وبيت المقدس سبب ارتباكاً للاتراك السلاجقة في اشد الاوقات حرجاً . هذا فضلاً عن ان السفارة التي ارسلها الفاطميون الى الصليبيين عند انطاكية اكسبت اولئك الأخيرين وضعاً سياسياً معترفاً به في ركن هام من اركان العالم الاسلامي [1] . »

وكان الحجاج المسلحون قد بدأوا يتذمرون من طول لبثهم في انطاكية وضواحيها ، ويستحثون قادتهم على معاودة المسيرة الى بيت المقدس ، والقادة غارقون في الخلافات الشخصية يحاول كل منهم الاستئثار بما وضع يده عليه ، وقد تجلت حقيقة بوهيمند بنوع خاص لجميع افراد الحملة فأدركوا انهم انما يبذلون دماءهم في سبيل تحقيق اطماعه ، وتحولوا عنه الى ريموند دي صنجيل كونت تولوز وولوه قيادتهم في الزحف على بيت المقدس . ولما خرج ريموند من معرة النعمان يوم ١٧ صفر ٤٩٢ هـ ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٠٩٩ حافي القدمين ، تمثلاً بالسيد المسيح ، في طريقه الى القبر المقدس ، تخلف عنه جميع امراء الحملة ، مؤثراً كل منهم ان يتولى الحكم في احدى المناطق التي دانت لهم ، مما

---

١ - الحركة الصليبية ج ١ ص ١٩٧ - ١٩٩

عزز مكانته لدى الصليبيين وزاد من التفافهم حوله ، وحين بدأ بعض الامراء يلحقون به وهو على ابواب فلسطين ، كان قد انتزع حقه في زعامة الحملة .

ولم تتعرض الحملة في طريقها لمقاومة تذكر ، وقد استولت على جميع المدن والقرى الساحلية ، وكان الامراء والولاة المسلمون يتجنبون الاصطدام بها ويلجأون معها الى المداورة والمصانعة ، حتى ان ابا علي فخر الملوك ابن عمار صاحب طرابلس لم يتردد في اهداء ريموند دى صنجيل عشرة جياد واربعة بغال وبعض الذهب ، ودعوته الى الموادعة والاتفاق والارتباط برباط المودة إذا احب [1] ولكن هذا الموقف لم ينقذ طرابلس حين علم الافرنج ما هي عليه من ازدهار وثراء ، فاحتلوها بعد حصار طويل ، ويقول محمد كرد علي ان السبب الذى دعا اهل طرابلس الى التسليم انهم بينما كانوا ينتظرون وصول النجدة بحراً من مصر جاءهم رسول منها على مركب يطلب منهم باسم الخليفة الفاطمى جارية جميلة كانت في طرابلس وخشب مشمش يصلح لصنع آلات الطرب [2] . ثم احتل الفرنجة بيروت ، ولم يلقوا مقاومة الا من اهل صيدا [3] ، الا انهم سرعان ما

---

١ – اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ١٠٧ ، ونحن لا نعتقد بان موقف ابن عمار هذا يمكن ان يوصف بالتخاذل كما رأى الدكتور حبشي (الحرب الصليبية الأولى ص ١٧٠) ولكننا نرى رأي محمد كرد علي الذي قال : « كان لابن عمار البلاء الحسن بل الأحسن في دفع عادية الصليبيين عن بلده ، لم يترك باباً من ابواب الخلاص ليصدهم عن طرابلس إلا طرقه حتى دفعهم بعقله وحسن ادارته عن تملكها عشر سنين . وكان في طريق رجعتهم كالحسكة في الحلق ، وفي معاملة ملوك الأطراف نموذج الدهاء السياسي ، وهو على صغر جرم مملكته يطاول ويحاول وينازل ويصاول ويلين ويقسو » ـ خطط الشام ج١ ص ٢٩٣ – ٢٩٤

٢ – خطط الشام ج١ ص ٢٩٢

٣ – Guillaume de Tyr , pp . 311 - 312

قضوا على هذه المقاومة وتابعوا مسيرتهم الى بيت المقدس مروراً بصور وعكا واللد والرملة .

وقد كان غودفروا دي بوّيون اسبق زملائه الى بلوغ المحجة التي اليها يهدفون ، فشارفها يوم الثلاثاء في ٢ رجب ٤٩٣ ﻫ ٧ ايار (مايو) ١٠٩٩ م وضرب الحصار عليها ، ولحق به الامراء الآخرون فأحاطوا بالمدينة من كل جانب ، واخذوا يضيّقون الخناق على حاميتها ويرمونها بالمنجنيق .

وعهد افتخار الدولة الحاكم الفاطمي في القدس ، بحراستها الى جماعة من العرب والسودان [١] ، فتفانى الفريقان في القتال ، ثم وافى الى يافا اسطول جنوي لنجدة الافرنج ، حاملاً معه ما هم في حاجة اليه من الذخائر والاقوات والعمال ، فأنشأوا المزيد من آلات الحصار والأبراج المتحركة ، وجددوا الهجوم على المدينة الصامدة .

ويروي ابو المحاسن ان الافرنج صنعوا برجين متحركين للوصول بهما الى اسوار المدينة ، وقد زحفوا بالأول الى باب صهيون فأحرقه المسلمون ، ثم انطلقوا بالثاني نحو باب العمود فألصقوه بالسور وحكموا به البلد وكشفوا من كان على السور من المسلمين ، ثم رموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد ، فانهزم المسلمون [٢] .

وقد اقتحم الفرنجة القدس في ١١ رمضان ٤٩٣ ﻫ ١٤ تموز (يوليه) ١٠٩٩ ، وأعملوا في اهلها السيف ، في وقائع لا نحب ان نروي تفاصيلها

---

١ - الكامل ج ١٠ ص ١٩٤
٢ - النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٨



احتلال بيت المقدس

وقد استنكرها مؤرخو الفرنجة انفسهم [١] .

ويقول الاستاذ نقولا زيادة : « والحملة الصليبية الأولى ، والفظائع التي ارتكبتها في طريقها وفي احتلال القدس ليس مما يُشرّف . وقد تظهر لنا رغبات الصليبيين من خلال تصرفهم السيء مع مسيحيي فلسطين انفسهم ، فقد استولوا على أديرتهم وطردوهم من الكنائس والبيوت ، فتبعثر المسيحيون في جهات فلسطين وشرق الأردن ، وكان بطريركهم يقيم في القسطنطينية او في القاهرة تحت حماية الخلفاء الفاطميين [٢] » .

وكان يتنازع على حكم القدس : البابوية التي تأمل بالسيطرة على الكنيسة الشرقية بالاضافة الى سيطرتها على الكنيسة الغربية ، والمدن الايطالية التي قامت بنقل الجنود والأمداد على سفنها ، وبيزنطية التي كانت تريد استعادة مستعمراتها في الشرق [٣] ، وهكذا اختلف الصليبيون اولاً على شكل الحكم هل يكون دينياً او مدنياً ؟ ثم اتفقوا على انها وان كانت « مدينة الرب » فلا بدّ لها من رئيس يدير شؤونها . واختلفوا ثانياً عمن يكون ذلك الرئيس الذي تُسلّم اليه مقاليد الحكم ، وكان التنافس على أشده بين غودفروا وريموند الصنجيلي ، وقد فضل الأمراء غودفروا على منافسه ، لأنهم كانوا يريدون ملكاً لا يطغى عليهم ويستأثر بالسلطان من دونهم . وتولى غودفروا دي بويّون عرش بيت المقدس ، ولكنه رفض ان يعتمر بتاج من الذهب حيث اعتمر السيد المسيح بتاج

---

١ - انظر Matthew : Chronique , ، Gronsset; Hist: des Croisades. T. I, p 165 p 226 و 357 — Lavriss et Rambaud: Hist, Général II,p359 Guillaune de tyr, pp 334 ، اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ١١٨ - ١١٩ ، تاريخ الحروب المقدسة في المشرق ج ١ ص ٢١٤ ، تاريخ سورية للمطران يوسف الدبس ص ٣٣ والانسكلوبيديا البريطانية مادة الحروب الصليبية بقلم باركر .

٢ - مجلة المقتطف ، عدد تموز (يوليو) ١٩٣٥ ص ١٩٥ .

٣ - الناصر صلاح الدين الايوبي للدكتور عبد المنعم ماجد صفحة ٢٨ .

من الشوك [1] ، وأصرّ على أن يكون لقبه « حامي بيت المقدس » . ثم اجتمع رجال الكنيسة واختاروا ارنولف مالكورن بطريركاً ، فوجه اهتمامه الى اضفاء صبغة كاثوليكية لاتينية على كرسي بيت المقدس ، واستبعد القساوسة الارثوذكس من كنيسة القيامة مما اثار استياء المسيحيين المحليين [2] .

وتحركت الخلافة الفاطمية بعد هزيمة عاملها في القدس ، وشعورها بخطورة المركز الذي اسسه الافرنج لانفسهم في الشرق ، واحتمال تحوله في المستقبل الى قاعدة عسكرية للزحف على مصر وغيرها من البلدان المجاورة . ولكن تحركها جاء متأخراً ، وقد تسربت الى الفرنجة انباء تجمع قواتها في عسقلان بقيادة سعد الدولة النواسي [3] ، فتنادى امراؤهم لدرء الخطر ، وباغتوا تلك القوات في معسكراتها قبل ان تستعد للقتال وتأخذ أهبتها له ، فتمزقت وتشتتت وهرب قادتها الى مصر [4] ولاذ من بقي باحدى الغابات فأضرم الافرنج النار فيها فأتت عليهم [5] .

وفي عسقلان سقطت الأقنعة عن الخصومة الدفينة بين ريموند الصنجيلي وغودفروا ، فقد أراد ريموند الاستيلاء على المدينة لينشىء فيها امارة خاصة به ، فصارحه غودفروا بأن هذه المدينة لن تكون الا تابعة لبيت المقدس ، وقد ساعد هذا الخلاف على نجاة عسقلان من الاحتلال الصليبي ، لأن غودفروا فضل التخلي عن المعركة على أن يستولي ريموند على المدينة ،

---

١ — Michaud: Hist. des Croisades T. I. p 436

٢ — الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٥٢ نقلا عن Runciman, T. I. p. 294

٣ — النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٦ — ١٤٨ .

٤ — ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .

٥ — أخبار مصر لابن ميسر ص ٦٤ .

كما ان ريموند أثر بقاءهـا في أيدي المسلمين على ان تدخـل في ممتلكات غودفروا .

ولم تنقض فترة قصيرة بعد عودة غودفروا الى القدس ، حتى ساءت صحته ولفظ أنفاسه الأخيرة متأثراً بجرح كان قد أصابه امام مدينـة عكا ، ونهض كل أمير يبغي أن يخلفه في الحكم ، كما حـاول البطريرك دايبرت الذي خلف مالكورن أن يحوّل السلطة المدنية الى سلطة دينية ، وكاد النزاع بين الفرقاء المتعددين يؤدي إلى الصدام المسلح ، لولا أن حسم هذا النزاع بلدوين أمير الرها وشقيق غودفروا الراحل الذي قدم الى القدس على رأس جيش كبير ، بعد أن عهد بشؤون الرها الى قريبه بلدوين دى بورج ، ففر الزعماء المتنازعون وأعلن بلدوين نفسه ملكاً على بيت المقدس ، وجاء الأمراء والبطاركة بعد ذلـك فأعلنوا ولاءهم له . وكان بلدوين يقلد ملوك الشرق ، فيرتدي الثياب العربية ، ويرسل لحيته ، ويتناول طعامه على الأرض [1] ، كما فعل زميله تنكريد الانطاكي فيما بعد إذ كان يسك النقود وعليها صورته وهو في زي عربي [2] .

وهكذا غدت بيت المقدس في سنة ٤٩٤ هـ ١١٠٠ م مملكة لاتينية ، بالاضافة الى امارات الفرنجة في انطاكية وطرابلس والرها ، « وكان لمملكة بيت المقدس الرئاسة على تلك الامارات ، وانما تزيد هـذه الرئاسة او تنقص تبعاً لشخصية المهيمن على شؤون تلك المملكة [3] » الا ان النزاع بين الفكرتين العلمانية والاكليركية استمر حتى سنة ٤٩٧ هـ ١١٠٣ م حين

---

١ – الناصر صلاح الدين الأيوبي ص ٢٨ .

٢ – حضارة الاسلام لجرونيباوم ترجمة جاويد وعبادي ص ٨٢ .

٣ . نور الدين والصليبيون للدكتور حسن حبشي ص ٩ .



غودفروا دى بويون أول ملوك الفرنجة في المشرق
وقد وضع على رأسه اكليلاً من الشوك

عزل بلدوين نائب البابا ، ثم بُعث في عهد بلدوين الثاني (٥٢٢ – ٥٢٥ هـ ١١٢٨ – ١١٣٠ م) ، غير انه خُتم بموت النائب البابوي الثالث ، وانتهت القضية بتغلب العلمانية على الاكليركية . وهكذا دلت هذه القضية على مدى الخلاف في الحقيقة بين رجال الحملة من الصليبيين رغم دعوى قيام الوحدة الدينية بينهم [١] ، كما ان النزاع والتنافس الناشئين عن تعدد العناصر التي تحكم تلك الدويلات ، لم يختف أثرهما قط من مسرح الأحداث ، فقد كانت القدس والرها في ايدي البرغنديين ، بينما كانت انطاكية في ايدي النورمنديين ، وطرابلس في ايدي البروفنسيين ، فكان ذلك من عوامل انهيارها فيما بعد .

أما بقية المدن الساحلية فقد ظلت تقاوم مدة أطول ، معتصمة وراء أسوارها ، ومعتمدة على معاونة الفاطميين لها من البحر ، وقد استعان الصليبيون عليها ، بالسفن الايطالية التي كانت تنقل الحجاج ، وقد أدرك أصحابها ان امتلاك تلك المدن الساحلية يفتح أسواقاً جديدة وموانىء حرة لبضائعهم [٢] ، ولما انهارت مقاومة تلك المدن أخيراً تحولت الى مستعمرات اوربية انشأت فيها مارسيليا والمدن الايطالية أحياء برمتها [٣] . وكانت جنوة وبيزة تبعثان كل سنة بمراكب جديدة الى ثغور الشام [٤] تحمل السلاح والرجال .

★

وقد سجلت الاقطاعية الاوربية بتلك الأحداث الخطيرة اعظم

---

١ — العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج ، ص ٢٤ .
٢ — تاريخ العرب لحتي وجرجي وجبور ج ٢ ص ٧٥٧
٣ — خطط الشام ج ١ ص ٢٧٨ .
٤ — المرجع السابق ج ١ ص ٢٨٤ .

انتصاراتها ، ولم يمض وقت قصير حتى تأسست حول بيت المقدس امارات افرنجية عديدة ، وبنيت قصور محصنة على الطراز الفرنسي ، وبدأ الفرنجة يتطلعون الى افتتاح دمشق لأن طريق الحرير والأفاويه تمر منها .

ومرت الأعوام والحروب مستمرة بين الفرنجة والبيزنطيين والأتراك والعرب . « وفي معمعان الفوضى والاضطرابات السائدة اعتاد الناس على سرعة تبدل الحكام والأسياد ، الروم والأتراك والعرب والافرنج ، ولم يعودوا يهتمون بجنسية من يحكمهم [1] » ومما لا شك فيه : « ان عدد الحروب والمناوشات بين الدول الاسلامية المتنازعة كان يعادل عدد الحروب بين الدول الاسلامية والدول النصرانية ، وربما كان عدد الحروب الأهلية بين الأمراء النصارى لا يقل عن عدد الحروب بينهم وبين المسلمين [2] . » الا ان الامارات الافرنجية كانت تتحالف فيما بينها أحياناً ، ضد تحالف اسلامي « ولكن لم يقم بين الدول الاسلامية تعاون تام لطرد الغربيين ، ولم تستطع خلافتا بغداد والقاهرة المتنافستان ان تتفاهما بتاتاً ، وكانت المحالفات والحروب كثيراً ما تتعارض مع المصلحة الدينية [3] . »

وقد شغفت هذه الحروب الاقطاعية الاوربية ، ووجدت الفروسية فيها مجالاً واسعاً للمغامرات والبطولات والغنائم . وكان طبيعياً ان انشاء الدولة اللاتينية في القدس لن يضع حداً لتلك الحروب ، فالأتراك لم يلقوا سلاحهم بل كانوا ما يفتأون يهاجمون هذه الدولة ، يناصرهم في ذلك العرب سكان البلاد ، وكثيراً ما كان النصر يكلل الهجمات التي يقومون

---

١ — دراسات اسلامية باشراف الدكتور نقولا زيادة صفحة ١٠٦ .

٢ — المرجع السابق ص ١٠٧ .

٣ — المرجع السابق ص ١١٢ .

بها ، والفرنجة لم يكتفوا بما اصابوا من نجاح ، بل ظلت المطامع التوسعية تراودهم فيزحفون تارة نحو الشرق ويغيرون تارة على الجنوب ، حتى لم يبق مدينة او قرية في بلاد الشام إلا وأصيب بعض اهلها وتجارها بأرواحهم وأموالهم . والبيزنطيون يصرون على المطالبة بما يسمونه الممتلكات البيزنطية الشرقية ، فيتابعون حروبهم مع الأتراك ويشتبكون احياناً مع الفرنجة .

قال باشوليه ودزبوري في قاموسها الجغرافي التاريخي : « وقد عوضت الخسارة المادية التي اصابت المسيحيين بانتصارات باهرة في النظام السياسي والادبي ... وكذلك نال القن الذي حمل الصليب حريته الشخصية ، وانتشرت الملاحة وارتفع شأنها فزادت قوة بيزة وجنوة والبندقية التي اكثرت من مراكزها التجارية في البحر المتوسط [1] » ، وقد حصلت هذه المدن على ارباح تجارية عظيمة بتوطين جماعات من اهلها في موانىء سورية وفلسطين وكان لها احياء خاصة فيها [2] ، واستفادت الصناعة والزراعة ايضاً بما عرفه اهل اوربة من وسائل جديدة ومحصولات كانت مجهولة لديهم كالحرير وصناعته والصباغة والزعفران واشغال المينا والمعادن والأحجار الكريمة ، وانتقلت زراعة قصب السكر الى صقلية ، وتمكن السياح الاوربيون من دخول بعض مجاهل آسية .

وفي الواقع ان التفاعل – والتداخل اذا جاز هذا التعبير – قد اشتد بين الشرق والغرب خلال هذه الحروب ، واصبحت مدن الشاطىء في سورية ولبنان وفلسطين مستعمرات افرنجية حقيقية ، وعكفت المعامل

---

١ – حياة صلاح الدين الأيوبي للدكتور البيلي ص ٥٥ .
٢ – تاريخ العالم لهامرتن ، ج ٤ ص ٧٤٧ .

الاوربية على انتاج العتاد والذخيرة لفرسان الفرنجة ، حتى اصبحت المدن الايطالية والفرنسية اشبه بخلايا النحل لحركتها الدائمة .

وقد تعلمت جيوش الافرنج التي اصطبغت بحضارة العرب حين اقامتها في البلاد العربية ، أساليب الحرب العربية « واقتبست السلاح العربي وانواع الصيد بالبازي والسلوقيات وأخذت أساليب العيش في العمار واللباس (القميص والجوارب والقفاز والبابوش وأساليب المأكل وحفظ الصحة من المغطس واستعمال المنديل) كما نقلوا الصناعات التقليدية من الزجاج المذهب وانواع العقود والصابون وصنوف الأدوية والجلد المطرز والسروج المذهبة والمفضضة والخشب المطعم بالصدف والعاج والنحاس المدمشق الى غير ذلك [1] . » وبلغ تأثر الفرنجة بحياة الشرق ان المؤرخين بدأوا يتحدثون عن اختلاف الطبع بين الصليبيين القادمين حديثاً ، والفرنج المقيمين – وكانوا يدعونهم في الغرب : « الأمهار » ويعنون بذلك الشرقيين – كما كان الحجاج الجدد يتجنبون التعاطي معهم لأنهم في رأيهم « أنصاف مسلمين [2] »

والى جانب ذلك كله كانت ترد من الشرق طرف الفن والصناعة ، وكان الفرنجة يحملون الى بلادهم ، مع ذكرياتهم ، ما رأوه وما تعوّدوه خلال اتصالهم ببيزنطية والعرب والعالم الاسلامي من الوان الزينة والحياة المترفة ، فتقدمت الفنون والصناعات ، وازدهرت مدن جديدة ، وامتد نطاق التجارة البحرية الى القارة الاوربية كلها ، ولكن المراكز الصناعية

---

١ – الحضارة العربية في حوض البحر الابيض المتوسط لعثمان الكعاك ص ٧

٢ – انظر : رصيد التاريخ لرينه غروسه ج ٢ ص ١٢٧

التي كان ينشئها اصحاب المراكب الايطالية ، كانت السباقة الى العمل الدائب والانتاج المتزايد في ظل الاحتكار البحري الذي تتمتع به مدن الشاطىء ، هذه المدن التي اثرت ثراءً طائلاً ، حتى ان بعثاتها التجارية لم تعد تقف عند ابواب المحيط الأطلسي ، بل امتدت الى افريقية ووصلت الى مناجم تاغازا واسواق العبيد في تومبوكتو . ومن اجل تأمين النقد الذي تحتاجه هذه التجارة المتسعة النطاق ، ازداد البحث عن الذهب والفضة [1] .

وقد دفعت هذه الحركة الاقتصادية الصاعدة ، الغرب في طريق تحرر اجتماعي جديد ، لان بعض الاسياد الذين كانوا حتى ذلك الوقت يفرضون على الفلاحين العمل المسخر في مزارعهم مقابل حمايتهم اياهم والسماح لهم باستثمار جزء من اراضيهم ، اصبحوا يطلبون منهم عملاً اقل مقابل أجر اوفر ، فنشط بذلك قسم من الفلاحين الى العمل اكثر من قبل واستطاعوا الانعتاق من نظام القنانة .

الا ان نزعة الحرية بدت على اشدها في المدن الناشطة التي كان يسكنها التجار والصناع ، فان الطبقة البرجوازية الفتية التي كان نشوؤها نتيجة لتطور حاجات النظام الاقطاعي ، والتي نمت وازدهرت في حمايته ، اصبح هذا النظام نفسه عبئاً ثقيلاً عليها ، لأن مدنها قد استقلت اقتصادياً عن السيد الاقطاعي ولكنها ظلت خاضعة له من الناحية القانونية ، يفرض عليها سلطته ويطالبها بحقوقه ويجبي منها الرسوم والمكوس المختلفة ، فطفقت هذه المدن تناضل في سبيل استقلالها

---

1 — La prodigieuse histoire de l'humanité , pp. 252 - 253

وتحررها ، يناصرها في هذا النضال الملوك الذين ادركوا ان الحكم لا يتاح له النجاح الا حيث يُنظم الشعب تنظيماً مدنياً .

ورافق تلك النهضة الاقتصادية والاجتماعية ، نهضة فكرية عظيمة . وشاعت قراءة شيشرون وافلاطون وارسطو . وبدأ التمييز بين الحقيقة الفلسفية والحقيقة الدينية ، والاعتقاد بانه ليس محتماً ان يمتزج الايمان والمعرفة ويؤلفا كلا متحداً .

ولشد ما كانت المدارس الفكرية في هذه البيئة المتطلعة الى المعرفة ، تقبل على ما كان الصليبيون او الاسبان يحملونه من النصوص الاغريقية التي حفظها العرب ونقلوها الى لغتهم . وقد مثل التراث العربي حينذاك ، دون قصد من أبنائه ، دوراً كبيراً في توجيه الحضارة الأوربية .

ولم يضعف انهيار الخلافة الاموية في الاندلس من مكانة الفكر العربي، فظلت اللغة العربية لغة العلم والتجارة في مراكز ثقافية كبرى مثل طليطلة ، واحتضنت برشلونة رهطاً من المعلمين العرب ، واقتبست بلنسية عن العرب صنع الورق ، وانشأ الاسبانيون مجمعاً لترجمة النصوص العربية الى اللاتينية .

ولم تنقض فترة قصيرة من الزمن حتى اغتنت العلوم الاوربية الناشئة وازدهر الفكر الاوربي ، لاقبال الاطباء والرياضيين والفلكيين على تلك الكنوز الثمينة من المخطوطات العربية التي كانت تتدفق على اوربة من سورية ومصر وصقلية .

وكان النزاع ما يزال يشتد بين الفئات الاقطاعية في كل قطر اوروبي متحدة مع الفئات الاقطاعية في الاقطار الاخرى لما بينها جميعاً من

قرابة في النظام الحقوقي والشعور الطبقي – وبين كل مجتمع قومي يطمح الى السلام والرخاء والاتحاد في ظل احدى الاسر المالكة التي اصبحت في ذلك العهد رمزاً للوحدة القومية -وكانت وحدها القادرة على إقرار النظام محل الفوضى الاقطاعية السائدة . وقد انتهى هذا النزاع اخيراً الى توطيد دعائم الملكية ، اذ استعان الملوك بالمدن ، ورغبتها في التحرر ، لفرض سلطتهم المطلقة ، وكان هذا التطور حدثاً تقدمياً كبيراً لانه ركز السلطة التي كانت موزعة في ايدي عشرات الاقطاعيين .

بتلك الاقطاعية المسلحة ، والتجارة النشيطة ، والصناعة الناشئة ، والمدن المزدهرة ، وقف الغرب على رأس الحضارة العالمية ، بينما كانت بيزنطية ، امبراطورية الشرق ، تتداعى شيئاً فشيئاً ، فيتضاءل نفوذها وتضعف قوتها ، والبندقية تقف في وجهها تريد الثأر منها لعملائها الذين ذبحتهم القسطنطينية حسداً وحقداً كما تذبح المواشي ، ويهب البلغار والافلاق والمجر والصرب ثائرين عليها مطالبين بالانفصال عنها . وبينما كان النور يخبو في بغداد ، وتزداد الخلافة العباسية ضعفاً بعد انهيار دولة السلاجقة وقيام الاسر الاقطاعية في انحاء البلاد العربية تتقاسم الارضين وتتنازع على الحكم ، حتى اختل النظام وفقد الأمن وانحطت التجارة .

وبتداعي الدولة البيزنطية التي كان الغرب يقلدها ويخشاها ، وبانهيار دولة السلاجقة التي كانت تقف امام حملات الغرب المستمرة ، انفتح امام اوربة الطريق الى استعمار البلاد العربية وتوطيد اقدامها في الشرق

الفصل الرابع

إفاقة القوى العربية والاسلامية

استمر حكم الافرنج في البلاد العربية بضع سنوات وطوفان المغيرين يتسع ويمتد ، دون ان يلقوا مقاومة جدية من امراء المسلمين ، لانه لم يكن لدى هؤلاء « عزيمة صادقة في جهاد ولا حماية بلاد [1] » .. وكانت التفرقة السائدة بينهم اول العوامل التي ادت الى انتصار الفاتحين ، ومكنت لهم في الارض العربية الكريمة .. فما زالوا يدحرون هؤلاء الامراء المشتتين المتخاذلين ، ويمدون سلطانهم من بقعة الى اخرى ، والامراء المسلمون لاهون عن ذلك الخطر الداهم ، لا يتورع الواحد منهم عن محاربة اخوانه او محالفة خصومهم ، وكثيراً ما قاتل اولئك جرياً وراء مطمع او مغنم ، او صافح هؤلاء حفاظاً على امارته من عدوان المعتدين . وفي ذلك يقول رينه غروسه : « وبدلاً من ان يتحد الامراء المسلمون ضد الصليبية ، واجهوها فرادى ، وفرادى سحقوا ، الواحد تلو الآخر ، وتغلغلت الصليبية بينهم [2] . »

---

١ – ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥

٢ – رصيد التاريخ ج ٢ ص ١١٥

ولما بدأ الزحف الصلبي كان الب ارسلان قد اقطع ابن عمه سليمان آسية الصغرى ، وكان الصراع قائماً على تركة ملكشاه بين اخيه تتش الملقب بتاج الدولة الذي كان يحكم الشام ، وزوجته تركان خاتون الوصية على ابنها محمود ، وبركياروق الذي ما لبث ان اعترف له بالسيادة العليا على الدولة السلجوقية ، وانعم عليه الخليفة المتقي بلقب السلطان . ثم تلا ذلك صراع بين بركياروق وعمه تتش الذي كان يطمح هو ايضاً الى تسلم السلطة العليا ، ولم تجلب هزيمة تتش وموته السلام للامبراطورية المضطربة ، لأن بركياروق لم يلبث ان اشتبك مع أخيه محمد في حرب دامت عدة سنوات [١] .

وحين استولى الصليبيون على القدس « تدفقت جموع الهاربين من وجه الصليبيين على بغداد ، وكان ذلك في شهر رمضان ، واخذوا يسردون على مسامع أهلها حوادث الفتك وأعمال الاضطهاد التي ارتكبها الغزاة ، فعم الاسى المدينة ونسي المسلمون صيامهم وتجمعوا في المسجد الجامع وبكوا ، فأرسل الخليفة المستظهر بالله على جناح السرعة ثلاثة من رجال بلاطه البارزين الى بركياروق ومحمد اللذين كانا معسكرين في حلوان كي يحثوهما على تسوية خلافاتهما والزحف على العدو المشترك » ، ولكن نداء الخليفة لم يلق اذناً صاغية لدى الاخوين اللذين سرعان ما عادا الى الاقتتال بسبب اغتيال وزير بركياروق ، ويضيف المؤرخون الى ذلك قولهم ان الخلاف بين السلطانين مكّن الافرنج من توطيد أقدامهم في البلاد الاسلامية .

وعندما توفي السلطان بركياروق في سنة ٤٩٨ هـ ١١٠٤ م خلفه اخوه

---

١ - مختصر تاريخ العرب ص ٢٩١

محمد ودام حكمه اربع عشرة سنة ، ويصفه المؤرخون بانه كان عادلاً فاضلاً كريماً أشاد شعراء عصره بعطفه على الفقراء وبره باليتامى . ولكن حالة الامبراطورية السياسية لم تكن مؤاتية للقيام باي عمل موحد ضد العدو المشترك ، إذ كان التحاسد سبباً في انقسام رؤساء الاقطاع في الشام والجزيرة ، وكان أمير حلب رضوان بن تتش خائناً ، بينا كان الآخرون ، مع رغبتهم باطاعة السلطان ، منصرفين الى تحقيق مآربهم الشخصية اكثر منهم الى خدمة القضية العامة ، فضلاً عن ان الفوضى التي عمت الخلافة الفاطمية التي كانت مدن الشام الساحلية وفلسطين تابعة لها في ذلك الحين ، قد جعلت من العسير أو المستحيل مساعدة المدن التي تعرضت لهجوم الاعداء [١] .»

ولم ينتبه العالم العربي والاسلامي الى حقيقة وضعه الأليم ، ويسترد وعيه الذي اذهلته الصدمة المفاجئة ، الا في اوائل القرن الثاني عشر الميلادي ، إذ بدأت الشعوب الاسلامية تقدر اهمية الخطر الاجنبي المتعاظم وتتنادى لوقف طغيانه « وليس ادل على تلك الافاقة من تسرب فكرة الجهاد الى نفوس العامة ، في البلدان المستظلة بظل الخلافة العباسية ، واعتناقها اياها ، الى حد انذر الخليفة العباسي بوجوب الانتباه الى الروح الجديدة التي تمثلت في قدوم جماعة من اشراف حلب وصوفييها وتجارها الى بغداد : مستغيثين من إفساد الصليبيين في بلادهم [٢] . »

وقد كان لهذه الاستغاثة صداها لدى جماهير الشعب في بغداد ، فاجتمع

---

١ – المرجع السابق ص ٢٩٢

٢ – نور الدين والصليبيون ص ١٤

الناس وقت صلاة الجمعة في شعبان سنة ٥٠٤ هـ ١١١٠ م وحطموا المنبر ، وانزلوا الخطيب عنه ، ونادوا بوجوب القيام بالجهاد ، وزادوا فمنعوا الناس من الصلاة ، وتكرر هذا الحادث مرة اخرى في مسجد الخليفة المستظهر نفسه [١] .

ويروي ابن القلانسي ان العداء كان قد بلغ أشده بين البيزنطيين والصليبيين ، فأوفد الامبراطور البيزنطي رسولاً الى السلطان محمد السلجوقي يحضه على محاربة الفرنجة وطردهم من البلاد [٢] وترك التراخي في امرهم واستعمال الجد والاجتهاد في الفتك بهم قبل إعضال خطبهم واستفحال شرهم ، وقد وصل رسول العاهل البيزنطي الى بغداد قبل وصول وفد حلب ، الأمر الذي جعل الناس في بغداد يصيحون في السلطان : « اما تتقي الله تعالى ان يكون ملك الروم اكثر حمية منك للإسلام ، حتى قد أرسل اليك في جهادهم [٣] ! »

وكأن تلك المظاهرة القومية الصاخبة التي اشتركت فيها وفود حلب وجماهير بغداد، انما كانت تعلن غضبة العالم العربي والاسلامي على الخليفة العباسي الثامن والعشرين الذي احتل الفرنجة في عهده بيت المقدس ، دون ان ينهض لمقاومة أو يدعو لجهاد ، مكتفياً من مظاهر السلطان بالخطبة له على المنابر ، ومن مظاهر الاسلام بالصلاة ، في حين كان السلطان الحقيقي ملك قواده ومماليكه ، وكان الاسلام يُطعن في دياره ويهزم في جواره !..

وكان أول الامراء الذين تجاوبوا مع هذه الافاقة العربية ، ومهدوا

---

١ – ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٢
٢ – المرجع السابق ص ١٧٣
٣ – الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٦١

الطريق الى حركة التجمع الاسلامي في وجه الخطر الهاجم من الغرب ، الأمير مودود اتابك الموصل الذي أعلن الجهاد في تلك السنة ذاتها ، وخرج بجيش كبير فحاصر الرها سنة ٥٠٥ هـ ١١١١ م محاولاً استخلاصها من ايدي الفرنجة بمساعدة الارمن الذين استغاثوا به طالبين منه انقاذهم من الصليبيين ، ثم رجع عن محاولته ليتولى قيادة عدد من القوى الاسلامية المتحالفة في مصاولاتها مع قوى الفرنجة ، وبذلك « ظهرت أول بادرة للاتحاد بين الامراء المسلمين بشمال العراق وبلاد الشام لأول مرة منذ مقدم الصليبيين الى الشرق [١] ، بينا فتك بلدوين دي بورج صاحب الرها وجوسلين صاحب تل باشر بالأرمن فتكاً ذريعاً فذبحا وأحرقا عدداً كبيراً منهم وطردوا من الرها عدداً آخر [٢] ، وقد جدد الأرمن من محاولتهم لتسليم الرها الى المسلمين فتعرضوا لمذبحة جديدة بأمر من بلدوين .

ولما قتل مودود بيد الحشاشين [٣] برز على مسرح النضال نجم الدين ايلغازي صاحب ماردين الذي اتحد معه كل من دبيس بن صدقة امير الحلة وسلطان بن منقذ أمير شيرز وطغتكين اتابك دمشق ، وقد انجد ايلغاري حلب حين حاول روجر امير انطاكية الاستيلاء عليها . وقتل روجر في احدى معاركه مع ايلغازي ، ويروي اسامة بن منقذ من

---

١ – نور الدين والصليبيون ص ١٧ ، انظر ايضا ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥ و ١٨٤ – ١٨٥

٢ – Mattieu d'Edesse , pp. 102 - 105

٣ – كان الاسماعيليون يدينون بالولاء للخلافة الفاطمية في مصر ، فكانت فرقتهم الفدائية التي عرفت باسم « الحشاشين » تعمل على نشر الفوضى والاضطراب في بلاد الشام التي يحكمها السلاجقة باسم الخلافة العباسية في بغداد ، كما كان بعض الامراء يستعين بهم للقضاء على خصومه لما اشتهروا به من البراعة في أساليب الاغتيال .

اخباره « ان انطاكية كانت لشيطان من الافرنج يقال له روجار ، فمضى يحج الى بيت المقدس ، وصاحب البيت المقدس بغدوين البرونس [١] ، وهو رجل شيخ وروجار شاب ، فقال لبغدوين : « اجعل بيني وبينك شرطاً ، إن متّ قبلك كانت انطاكية لك ، وإن مت قبلي كان البيت المقدس لي » فتعاقدا وتواثقا على ذلك . وقدّر الله تعالى ان نجم الدين ايلغازي بن أرتق ، رحمه الله ، لقي روجار بدانيث يوم الخميس خامس جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة [٢] فقتله وقتل جميع عسكره [٣] ولم يدخل انطاكية منهم الا دون العشرين رجلاً ، وسار بغدوين الى انطاكية فتسلمها ، وضرب مع نجم الدين مصافاً بعد اربعين يوماً . وكان ايلغازي اذا شرب النبيذ يخمر عشرين يوماً ، فشرب بعد كسر الافرنج وقتلهم ، ودخل في الخُمار فما افاق حتى وصل الملك بغدوين البرونس الى انطاكية بعسكره . فكان المصاف الثاني بينهما على السواء : كسر بعض الفرنج بعض المسلمين ، وكسر بعض المسلمين بعض الفرنج ، وقتل من هؤلاء وهؤلاء جماعة ، وأسر المسلمون روبرت صاحب صهيون [٤] وبلاطنس وتلك الناحية ، وكان صديقاً لأتابك طغتكين صاحب دمشق ذلك الوقت ، وكان مع نجم الدين ايلغاري لما اجتمع بالافرنج في افامية حين وصل عساكر دمشق مع برسق بن برسق . فقال روبرت الأبرص لاتابك طغتكين : « ما أدري بأي شيء أضيفك ، ولكن قد ابحتك بلادي ، أنفذ خيلك تغير عليها وتأخذ كل ما وجدوه . بلى

---

١ – هو بلدوين الثاني (البرنس) .

٢ – ويقابل ذلك ١٤ آب (اغسطس) ١١١٩

٣ – سبق لاسامة بن منقذ ان روى ان روجر قد قتل في موقعة البلاط وهذا هو الصحيح (انظر كتاب الاعتبار ص ٤٠) .

٤ – حصن بين اللاذقية وحماة وتقع بلاطنس في جنوبه .

لا يسبوا ولا يقتلوا . الدواب والمال والغلة لهم ، يأخذون ذلك مباحاً لهم » فلما أسر روبرت وأتابك طغتكين حاضر المصاف في معونة ايلغازي ، قطع روبرت على نفسه عشرة آلاف دينار ، فقال ايلغازي : « امضوا به الى اتابك لعله يفزّعه فيزيدنا في القطيعة » فمضوا به وأتابك في خيمته يشرب . فلما رآه مقبلاً قام شمّر أذيال قبائه في البند واخذ سيفه وخرج اليه ضرب رقبته . فنفذ اليه ايلغازي يعتب عليه وقال : « نحن محتاجون الى دينار واحد للتركمان ، وهذا قد قطع على نفسه عشرة آلاف دينار نفّذته اليك تفزّعه لعله يزيدنا في القطيعة ، قتلته ! » قال: « أنا ما أحسن أفزّع إلا كذا [١] . »

وحمل اللواء بعد ايلغازي نور الدولة بلك بن ارتق صاحب قلعة خربوط وقد أسر جوسلين الاول الذي تولى امارة الرها ، ثم أسر بلدوين الثاني ملك بيت المقدس وهو في طريقه الى حلب في محاولة للاستيلاء عليها ، وتضعضع بذلك امر الفرنجة « وأخذ المسيحيون الحليون – السريان والأرمن والأرثوذكس – يتآمرون للخلاص من حكم الصليبيين الغربيين [٢] » إلا ان جوسلين فر من الأسر في قلعة خربوط وسيّر جيشاً لاستخلاص ملك بيت المقدس ، فلم يظفر ببغيته برغم الاعمال الانتقامية الرهيبة التي قام بها ، ولم يُطلق سراح بلدوين الثاني الا عندما توفي بلك سنة ٥٠٨ هـ ١١٢٤ م وهو قائم على حصار منبج التابعة لإمارة

١ – كتاب الاعتبار ص ١١٨ – ١٢٠ وقد سبق لطغتكين أن أسر ابن اخت ملك القدس في معركة دارت على ضفاف طبرية ، فبذل هذا في فداء نفسه ثلاثين الف دينار واطلاق خمسمائة أسير ، فرفض طغتكين عرضه وقتله بيده (انظر خطط الشام ج ١ ص ٢٩٣)

٢ – الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٠٦ نقلاً عن Stevenson : The crusaders in the East . p. 104

طرابلس الصليبية [1] إثر اصابته بسهم طـائش ، وآلت حلب الى حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي فقبل وساطة أمير شيزر سلطـــان بن منقذ لاطلاق سراح ملك بيت المقدس مقابل مائة الف بيزانت واعادة بعض المناطق المحتلة الى حلب [2] .

وكان رابع الشخصيات الاسلامية التي خالجتها فكرة الجهـاد ضد الفرنجة ، اقسنقر البرسقي اتابك الموصـل الذي انقذ حلب من عدوان بلدوين الثاني إذ عـاد لافتتاحها بعد ان عانى طويل الأسر فيهـا ، وحاول البرسقي انشاء محور قوي لمواجهة الخطر الاجنبي ، وقد قتلته جماعة من الحشاشين [3] سنة ٥٢٠ هـ ١١٢٦م قبل ان يحقق حلمه .

ثم برز على المسرح السياسي عماد الدين زنـكي احد عظماء عصره ، وقد خلف البرسقي في امارة الموصل ، الا ان مطامحه تجاوزت حدود امـارته ، فاستولى على جزيرة ابن عمر شمالي الموصـل ، وعلى نصيبين والخابور وحران ، ومضى في فتوحاته معتمداً القوة حيناً والدهاء حيناً آخر ، حتى بسط سلطانه على حلب وحماة وحمص ، واخذ يتطلع الى احتلال دمشق « لايمانه بأن قيام وحدة بـين الامارات الاسلامية يجب ان يسبق اية خطوة ضد الصليبيين [4] » إلا ان الصليبيين كانوا يتـابعون تحركاته بقلق شديد ، وقد انتهز فولك فرصة انشغال عماد الدين بمحاصرة حمص فزحف مع ريموند الثاني صاحب طرابلس للقضـاء عليه ، وعـلم

١ – نور الدين والصليبيون ص ١٠ - ٢٠
٢ – كتاب الاعتبار ص ١٢٠
٣ – شذرات الذهب ج ٤ ص ٦١
٤ – الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٧٤



عماد الدين زنكي محرر الرها

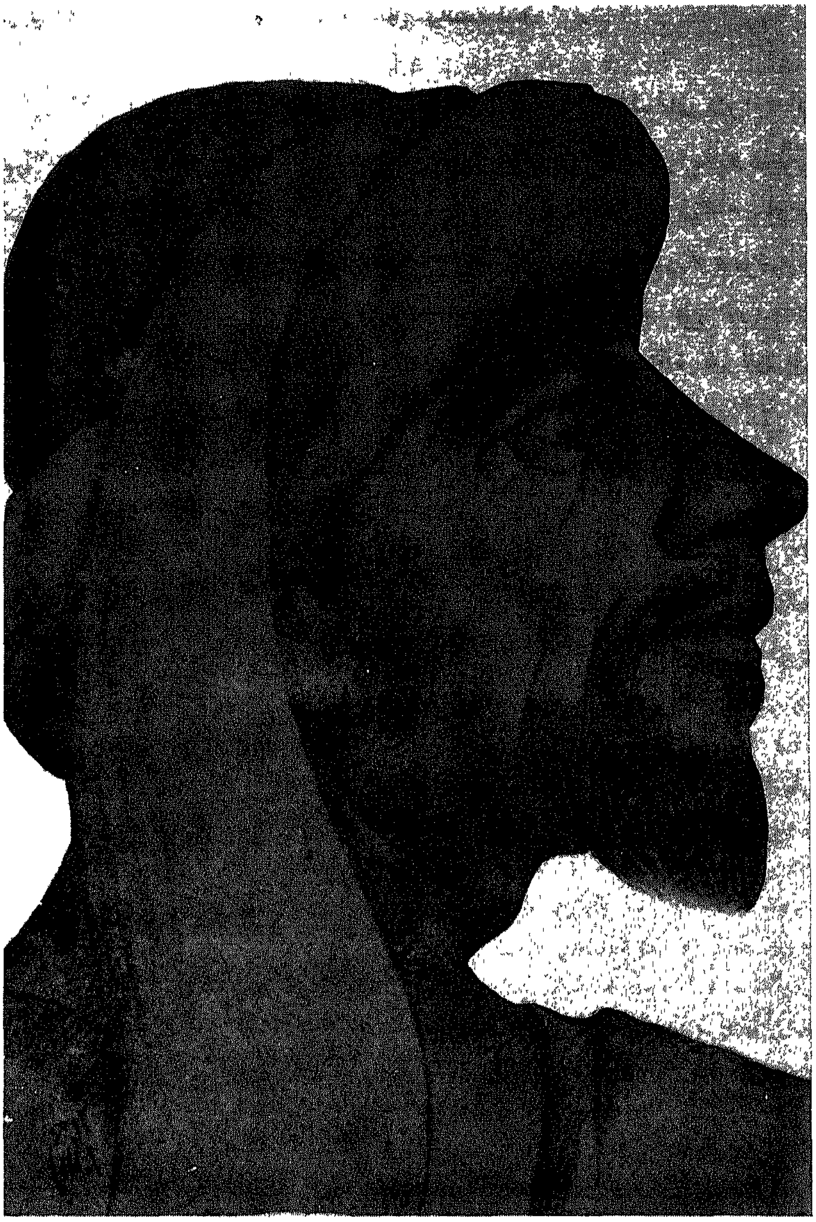
عماد الدين بالزحف الفرنجي فتخلى عن حمص واتجه لمواجهة الصليبيين عند قلعة بعرين ، فأسر ريموند وحاصر ملك بيت المقدس في القلعة ، ولم يطلق سراحه مع بقية الاسرى الا مقابل خمسين الف دينار .

وقد اعيت عماد الدين الوسائل للاستيلاء على دمشق في عهد اميرها بوري تاج الملوك ، ثم في عهد ولديه اسماعيل ومحمود اللذين تعاقبا على حكمها من بعده ، ولم ينفعه في ذلك زواجه من زمرد خاتون ارملة بوري التي كانت ذات بأس ونفوذ في دمشق ، كما تزوج من قبل بابنة رضوان صاحب حلب لتكون له شرعية الحكم فيها [1] . ثم قتل محمود بأيدي ثلاثة من غلمانه ، وارسلت زمرد الى عماد الدين تستغيث به وتطلب منه الثأر لولدها القتيل . فوجدها فرصة سانحة للاستيلاء على دمشق ، محتجاً برغبته في معاقبة القتلة وحماية المدينة من مطامع الافرنج، ولكن الامير معين الدين انر صاحب بعرين وبعلبك كان اسبق اليها منه ، فأسقط في يديه ، إلا انه ابى ان يتراجع عن غايته ، ورأى ان يبدأ خطته الجديدة باحتلال بعلبك ، فضرب عليها الحصار وما لبثت ان سلمت له .

وقد تمخضت هذه الاحداث عن مفاجأة ذهل لها العرب والمسلمون ، فان معين الدين انر ما كاد يشعر بأن جيش عماد الدين بات على مقربة منه حتى فكر في التحالف مع الصليبيين [2] حفاظاً على حكمه في دمشق ، واوفد الى ملك بيت المقدس فولك الخامس رسولاً من قبله هو اسامة بن منقذ [3] فوجد الرسول العربي من الملك الصليبي تقبلاً

---

١ ــ منتخبات من تاريخ حلب ص ٦٥٨
٢ ــ مفرج الكروب لابن واصل ج ١ ص ٥١
٣ ــ الكامل ج١١ ص ٣٤



صورة خيالية لأسامة بن منقذ

واضحاً لفكرة الحلف بين دمشق والصليبيين [1] .

لقد كان اخشى ما يخشاه الفرنجة ان يتحد امراء المسلمين ، او ان يظهر من بينهم امير فذ يوحد البلاد العربية ويركز في يديه القوى التي تزخر بها . وكان فولك يتابع باهتمام وتهيب تعاظم قوة عماد الدين التي باتت تؤلف خطراً على الصليبيين ، وسرعان ما لبى دعوة انر الى التحالف ، واتفق مع ريمون دي بواتييه أمير انطاكية على مساعدة امير دمشق ، لانها تضع في اعتقاده حداً لمقاومة هذه العاصمة العربية العريقة للاحتلال الصليبي ، وتحطم من عنفوان عماد الدين ومطامحه التي لا بد من أن تصطدم بمطامع الفرنجة .

وكان العرض الذي تقدم به اسامة بن منقذ الى فولك باسم معين الدين انر ، مقابل العون الذي يبتغيه ، اعادة بانياس الى الفرنجة [2] بعد استخلاصها من يد عماد الدين ، ودفع نفقات الحملة التي يقومون بها لمساعدته ، وتسليم عدد من الرهائن توكيداً لصدق تعهده [3] .

وقد ضلل عماد الدين جيوش فولك وتظاهر بانه يهرب من امامها ، ثم انقض عليها وهزمها شر هزيمة ، وتتابعت بعد ذلك الاحداث ،

---

١ – نور الدين والصليبيون ص٢٩

٢ – كان بوري امير دمشق قد شعر باستفحال خطر الاسماعيليين يوم تولى امرهم اسماعيل العجمي واتخذ بانياس مقراً له ، فقرر تجريد حملة عليهم ، فلم يكن منهم الا ان سلموا بانياس للصليبيين وانتقلوا الى المناطق التي يسيطرون عليها (انظر : الدول والملوك ج٣ ص ١٨) ثم استعاد اسماعيل بن بوري حصن بانياس وانتقل منه الى يد عماد الدين ، فغادره الاسماعيليون الى وطن جديد مهد لهم فيه دعاتهم هو جبال البهرة المحيطة بمصياف (انظر تاريخ قلعة مصياف تأليف ميشيل لباد ص ٥)

٣ – الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ٣٤

واهمهـا سقوط بانياس بعـد حصارها من القوات الصليبية والدمشقية ، واعادتها الى الصليبيين ، واغارة عماد الدين على المواقع الصليبية دون ان يقابل قواتهـا الاساسية في معـارك حاسمة ، وهجومـه على اطراف دمشق دون ان يستطيع الوصول اليها والاستيلاء عليهـا ، لقوة الحلف الدمشقي الصليبي . وقد ازداد هذا الحلف صلابة حين تحقق الفرنجة من صدق أنر ووفائه بوعوده ، فقام أنر وأسامة بن منقذ بزيارة الصليبيين في بيت المقدس .

وكان اسامة بن منقذ [1] قد خاض عدداً من المعارك مع الافرنـج في ايام الحرب ، كما زارهم واجتمع بهم في ايام السلم ، وقد سجل في كتابه « الاعتبار » وقائعه معهم ومشاهداته في المناطق التي يحكمونها ، ولهذا

---

١ ـ كان أسامة بن منقذ (٤٨٨ – ٥٨٤ هـ ١٠٩٥ – ١١٨٨ م) أحـد امراء بني منقذ ، الأسرة العربية المعروفة التي كانت تحكم شيزر في عهد الحروب الصليبية ، وكان كل من افرادهـا فارساً وبطلاً صنديداً ، وقد جمع اسامة بين الأدب والفروسية، نشأ على ضفاف العاصي بجوار حماة ، وقضى حياته متنقلا بين البـلاط الفاطمي في القاهرة وبلاط نور الدين في دمشق ، فعانى الشدائد والأهوال ونعم باللذائذ والمتارف ، وخاض مع الافرنج معارك عدة أظهر فيها بطولة نادرة وشجاعة فائقـة ، كما كانت مجاورة املاك اسرته لاملاك الصليبيين سبباً في اتصاله الوثيق بهم ، في عهود الحروب وعهود السلم ، فعرفهم عن كثب وزار ممتلكاتهم غير مرة ، ودون مشاهداته ووقائعه في كتاب « الاعتبار » الذي يوليه الباحثون اهمية كبرى لأنه شهادة مؤرخ معاصر ثاقب النظر نافذ البصيرة في مناقب الافرنج ومثالبهم على السواء . وقد قـال العقاد فيه : كان صلاح الدين مثلا في اتزانه واعتداله وتمدد جوانبه بين الشجاعة والروية ، وكان أسامة مثله في كل خصلة من تلك الخصـال ، شجاعاً حازماً مقتصداً في الهجوم متثبتاً في الحذر وعدواً بمقدار (انظر : اسامة بن منقذ لمحمد حسين ، والحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام لمحمد سيد كيلاني ص ٢٠٢ – ٢٠٧ و ٢٩٠ – ٢٩٧ ، واسامة بن منقذ بقلم العقاد في مجلة العربي العدد ٢ ، وكتاب الاعتبار بقلم يوسف الشاروني في مجلة العربي العدد ١٦) .

الكتاب اهمية كبيرة في وصف الحياة الاجتماعية في المناطق المحتلة من قبل الافرنج ، وابرز ما اثار اهتمامه تقاليد الفروسية التي كانت شائعة بينهم يومذاك ، ومما قاله في هذا الصدد :

« والافرنج ، خذلهم الله ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية الا للفرسان ، ولا عندهم ناس الا الفرسان ، فهم اصحاب الرأي ، وهم اصحاب القضاء والحكم . وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم اخذها صاحب بانياس [1] من الشعراء وبيننا وبينهم صلح ، وانا اذ ذاك بدمشق . فقلت للملك فلك بن فلك [2]: « هذا تعدّى علينا واخذ دوابنا ، وهو وقت ولاد الغنم ، فولدت وماتت اولادها وردّها علينا بعد ان اتلفها » فقال الملك لستة سبعة من الفرسان : « قوموا اعملوا له حكماً » فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد وعادوا الى مجلس الملك ، فقالوا : « قد حكمنا ان صاحب بانياس عليه غرامة ما اتلف من غنمهم » فأمره الملك بالغرامة ، فتوسل اليّ وثقل عليّ وسألني حتى اخذت منه اربعمائة دينار . وهذا الحكم بعد ان تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا احد من مقدّمي الافرنج يغيّره ولا ينقضه . فالفارس أمر عظيم عندهم .

« ولقد قال لي الملك : « يا فلان ، وحق ديني لقد فرحت البارحة فرحاً عظيماً » قلت : « الله يفرّح الملك ، بماذا فرحت ؟ قال : « قالوا لي انك فارس عظيم ، وما كنت اعتقد انك فارس ! » قلت : « يا

---

١ – واسمه رنيه .

٢ – هو فولك الخامس الذي تتوج ملكاً على بيت المقدس سنة ١١٣١ (٥٢٦) ه .

مولاي ، انا فارس من جنسي وقومي [1] » .

ولكن اذا كان من ابرز صفات الفروسية الصدق والوفاء بالوعد ، فقد روى اسامة بن منقذ ما ينفي تلك الصفة عن فرسان الفرنجة ، ومن ذلك هذه القصة الطريفة التي رواها عن تنكريد صاحب انطاكية :

« وكان نزل علينا دنكري [2] وهو اول اصحاب انطاكية بعد ميمون [3]، فقاتلنا ثم اصطلحنا ، فنفذ يطلب حصاناً لغلام لعمي عز الدين رحمه الله ، وكان فرساً جواداً . فنفذه له عمي تحت رجل من اصحابنا كردي يقال له حسنون ، وكان من الفرسان الشجعان وهو شاب مقبول الصورة دقيق ، ليسابق بالحصان بين يدي دنكري . فسابق به فسبق الخيل المجراة كلها . وحضر بين يدي دنكرى فصار الفرسان يكشفون سواعده ويتعجبون من دقته وشبابه ، وقد عرفوا انه فارس شجاع . فخلع عليه دنكرى ، فقال له حسون : « يا مولاى ، اريدك تعطيني امانك انك إن ظفرت بي في القتال تصطنعني وتطلقني » فأعطاه امانه على ما توهم حسنون ، فانهم لا يتكلمون الا بالافرنجي ما ندري ما يقولون .

« ومضى على هذا سنة أو اكثر ، وانقضت مدة الصلح . وجاءنا دنكري في عسكر انطاكية ، فقاتلنا عند سور المدينة . وكانت خيلنا لقيت أوائلهم . فطعن فيهم رجل يقال له كامل المشطوب من أصحابنا كرديّ ، وهو وحسنون نظراء في الشجاعة ، وحسنون واقف مع والدي ،

---

١ – كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ ص ٦٤ – ٦٥ .

٢ – يعني تنكريد .

٣ – هو بوهيمند وقد خلفه تنكريد سنه ١١٠٤ (٤٩٨ ه) .

رحمه الله ، على حجرة له ينتظر حصانه يأتيه به غلامه من عند البيطار ويأتيه كزاغنده . فأبطأ عليه وأقلقه طعن كامل المشطوب فقال لوالدي : « يا مولاي ، أءمر لي بلباس خفيف » فقال : « هذه البغال عليهـــا السلاح واقفة ، مهما صلح لك البسه » وأنا إذ ذاك واقف خلف والدي وأنا صبي ، وهو اول يوم رأيت فيه القتـــال . فنظر الكزاغندات في عيبها على البغال فما وافقته ، وهو يغلي يريد يتقدم يعمل كما عمل كامل المشطوب . فتقدم على حجرته ، وهو معرّى ، فاعترضه فارس منهم ، فطعن الفرس في قطأتها فمضت على فاس اللجام وحملت به حتى رمتـه في وسط موكب الافرنـج . فأخذوه أسـيراً وعذبوه أنواع العذاب ، وأرادوا قلع عينه اليسرى ، فقال لهم دنكري لعنــه الله : « اقلعوا عينه اليمين ، حتى اذا حمل الترس استترت عينه اليسار فلا يبصر شيئاً » فقلعوا عينه اليمين كما أمرهم ، وطلبوا منه الف دينـــار وحصانـاً أدهم كان لوالدي من خيل خفاجة جواداً من أحسن الخيل ، فاشتراه بالحصان رحمه الله [١] » .

والى جانب هذا المثل عن « فروسية » تنكريد ، يروي ابن منقذ في معرض اقاصيصه ونوادره الكثيرة قصة رائعة عن وفاء بدوي رواها ابن والي الطور وهي ولاية لمصر قريبـة من بلاد الافرنج كان الخليفة الفاطمي اذا أراد ابعاد بعض الأمراء ولاه اياها ، فقال : « وليها والدي وخرجت انا معه الى الولاية وكنت مُغرى بالصيد ، فخرجت أتصيد ، فوقع بي قوم من الافرنج فأخذوني ومضوا بي الى بيت جبريل فحبسوني فيه في جب وحدي ، وقطع علي صاحب بيت جبريل ألفي دينـــار ، فبقيت في الجب سنة لا يسأل عني أحد . فأنا في بعض الأيام في الجب ،

---

١ – كتاب الاعتبار ص ٦٥ – ٦٧ .

واذ قد رفع عنه الغطاء ودُلّني اليّ رجل بدوي . فقلت : « من اين اخذوك ؟ » قال : « من الطريق » فأقام عندي يُويّمات وقطعوا عليه خمسين ديناراً . فقال لي يوماً من الأيام : « تريد تعلم ان ما يخلصك من هذا الجب إلا انا ؟ فخلصني حتى اخلصك » فقلت في نفسي : « رجل قد وقع في شدة يريد لروحه الخلاص » فما جاوبته . ثم بعد ايام اعاد عليّ ذلك القول . فقلت في نفسي : « والله لأسعينّ في خلاصه لعل الله يخلصني بثوابه » فصحت بالسجان فقلت له : « قل للصاحب اشتهي اتحدث معك » فماد وأطلعني من الجب وأحضرني عند الصاحب ، فقلت له : « لي في حبسك سنة ما سأل احد عني ولا يدرى انا حي او ميت . وقد حبست عندي هذا البدوي وقطعت عليه خمسين ديناراً اجعلها زيادة على قطيعتي ودعني أسيّره الى ابي حتى يفكني » قال : « أفعل » فرجعت عرّفت البدوي وخرج ودّعني ومضى . فانتظرت ما يكون منه شهرين فما رأيت له اثراً ولا سمعت له خبراً ، فيئست منه . فما راعني ليلة من الليالي الا وهو قد خرج عليّ من نقب في جانب الجب ، وقال : « قم والله لي خمسة اشهر احفر هذا السرب من قرية خربة حتى وصلت اليك » فقمت معه وخرجنا من ذلك السرب ، وكسر قيدي واوصلني الى بيتي . فما ادري مم اعجب : من حسن وفائه او من هدايته حتى طلع نقبه من جانب الجب !.. [١] »

وكان اسامة يمضي في عهود السلم الى مناطق الافرنج فيشتري الأسرى ويطلق سراحهم ، ومن اطرف ما وقع له في ذلك ان مغامراً صليبياً يسميه اسامة « كليام جيبا » استولى على مركب كان يسافر عليه اربعمائة من حجاج المغرب رجالاً ونساء ، فأسرهم واراد بيعهم ، فاشترى اسامة

---

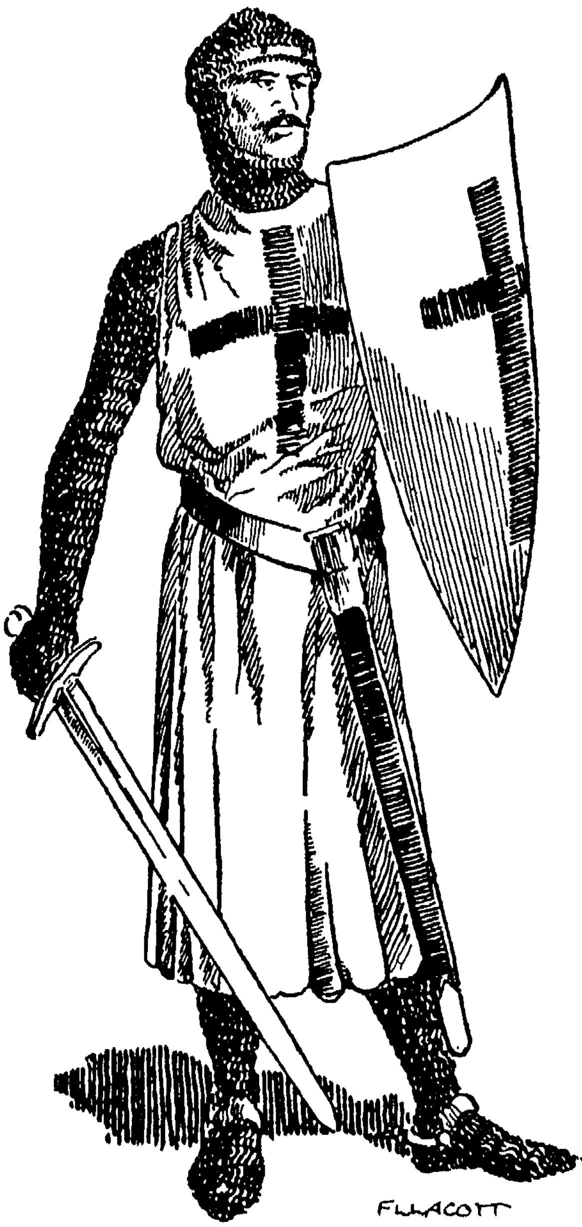
١ - المرجع السابق ص ٨٠ - ٨١ .

عدداً منهم واشترى عدداً آخر للأمير معين الدين ، قال : « وجئت الى دمشق فقلت للأمير معين الدين رحمه الله : « قد اشتريت لله اسارى اخصّك بهم ، وما كان معي ثمنهم ، والآن قد وصلت الى بيتي ، إن اردتهم وزنتَ ثمنهم ، والا وزنتهم انا » قال : « لا بل انا ازن ، والله ، ثمنهم ، وانا ارغب الناس في ثوابهم » . وكان رحمه الله اسرع الناس الى فعل خير وكسب مثوبة . ووزن ثمنهم . وعدت بعد ايام الى عكا . وقد بقي عند كليام جيبا ثمانية واربعون اسيراً وفيهم امرأة لبعض الذين خلصهم الله على يدي . فاشتريتها منه وما وزنت ثمنها . فركبت الى داره لعنه الله ، وقلت : « تبيعني منهم عشرة ؟ » قال : « وحق ديني ما ابيع الا الجميع » قلت : « ما معي ثمن الجميع ، وانا اشتري بعضهم ، والنوبة الأخرى اشتري الباقي » قال : « ما ابيعك الا الجميع » فانصرفت وقدّر الله سبحانه انهم هربوا في تلك الليلة جميعهم ، وسكان ضياع عكا كلهم من المسلمين اذا وصل اليهم الأسير اخفوه واوصلوه الى بلاد الاسلام . وتطلّبهم ذلك الملعون فما ظفر منهم بأحد ، واحسن الله سبحانه خلاصهم . واصبح يطالبني بثمن المرأة التي كنت اشتريتها وما وزنتُ ثمنها وقد هربت في من هرب . فقلت : « سلّمها اليّ وخذ ثمنها » قال : « ثمنها لي من امس قبل ان تهرب » وألزمني بوزن ثمنها ، فوزنته وهان ذلك عليّ لمسرّتي بخلاص اولئك المساكين [1] » .

ومن اطرف ما وقع له خلال زياراته للمناطق التي يحكمها الافرنج – وهو في الوقت نفسه يدل على توثق عرى الصداقة بينه وبين فرسان الفرنجة وما كان يلقاه بينهم من احترام وتسامح ، كما يبين الفرق الكبير بين الفرنجي القادم حديثاً من الغرب والفرنجي الذي اقام في الشرق

---

١ – المرجع السابق ص ٨١ – ٨٢ .



أحد فرسان الهيكل

فعرف اهله وتحرر من تعصبه عليهم وقامت بينه وبينهم اواصر الود — ما رواه بقوله : « كنت اذا زرت البيت المقدس ، دخلت الى المسجد الأقصى وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الافرنج كنيسة . فكنت اذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الدّاوية [1] ، وهم اصدقائي ، يُخلون لي ذلك المسجد الصغير اصلي فيه ، فدخلته يوماً فكبّرت ووقفت في الصلاة . فهجم عليّ واحد من الافرنج مسكني وردّ وجهي الى الشرق وقال : « كذا صلّ ! » فتبادر اليه قوم من الداوية اخذوه اخرجوه عني ، وعدت انا الى الصلاة ، فاغتفلهم وعاد هجم عليّ ذلك بعينه ، وردّ وجهي الى الشرق وقال : « كذا صلّ ! » فعاد الداوية دخلوا اليه واخرجوه ، واعتذروا اليّ ، وقالوا : « هذا غريب وصل من بلاد الافرنج في هذه الأيام ، وما رأى من يصلي الى غير الشرق » فقلت : « حسبي من الصلاة ! » فخرجت فكنت اعجب من ذلك الشيطان وتغيير وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة الى القبلة [2] .. »

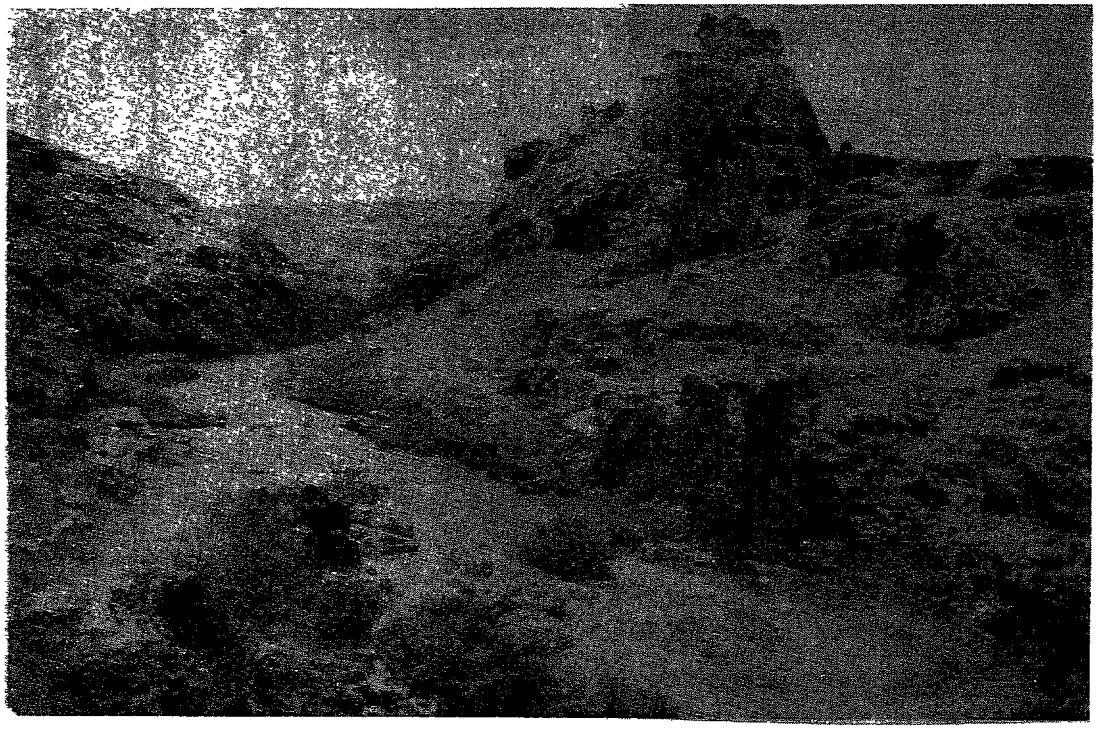
ومن ذلك ايضاً قوله : « ومن الافرنج قوم قد تبلّدوا وعاشروا المسلمين فهم اصلح من القريبي العهد ببلادهم ، ولكنهم شاذ لا يقاس عليه . فمن ذلك اني نفّذت صاحباً الى انطاكية في شغل ، وكان بها الرئيس تادرس بن الصفّي [3] وبيني وبينه صداقة ، وهو نافذ الحكم في انطاكية . فقال لصاحبي يوماً : « قد دعاني صديق لي من الافرنج ، تجيء معي حتى ترى زيهم » قال : « فمضيت معه فجئنا الى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في اول خروج الافرنج ، وقد اعتفى من الديوان

---

٢ — فرسان الهيكل .

٢ — المرجع السابق ص ١٣٤ — ١٣٥ .

١ — هو تيودور صوفيانوس .



قلعة شيزر كما هي اليوم وتبدو آثار الجسر القديم ظاهرة على ضفة العاصي

والخدمة ، وله بانطاكية ملك يعيش منه . فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة ، ورآني متوقفاً عن الأكل فقال : « كل طيب النفس ، فأنا ما آكل من طعام الافرنج ، ولي طباخات مصريات ما آكل الا من طبيخهن ، ولا يدخل داري لحم خنزير » فأكلت وانا محترز وانصرفنا . فأنا بعدُ مجتازاً في السوق وامرأة افرنجية تعلقت بي وهي تبربر بلسانهم وما ادري ما تقول . فاجتمع عليّ خلق من الافرنج ، فأيقنت بالهلاك . واذا ذلك الفارس قد اقبل فرآني ، فجاء فقال لتلك المرأة : « مالك ولهذا المسلم ؟ » قالت : « هذا قتل اخي عرس [1] » وكان هذا عرس فارساً بافامية قتله بعض جند حماة . فصاح عليها وقال : « هذا رجل برجاسي (اي تاجر [2]) لا يقاتل ولا يحضر القتال » وصاح على اولئك المجتمعين ، فتفرقوا واخذ بيدي ومضى ، فكان تأثير تلك المؤاكلة خلاصي من القتل [3] » .

ولعل امتع ما رواه اسامة بن منقذ في حديثه عن طبائع الافرنج واخلاقهم باسلوبه الفكه قوله : « ومن عجيب طبهم ان صاحب المنيطرة [4] كتب الى عمي يطلب منه انفاذ طبيب يداوي مرضى من اصحابه ، فأرسل اليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت . فما غاب عشرة ايام حتى عاد فقلنا له : « ما اسرع ما داويت المرضى ! » قال : « احضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف ، فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت ، وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم

---

١ Hurso .

٢ – بورجوازي .

٣ – المرجع السابق ص ١٤٠ – ١٤١ .

٤ – قرب افقه عند منبع نهر ابرهيم في شمالي لبنان .

طبيب افرنجي فقال لهم : « هذا ما يعرف شي يداويهم » وقال للفارس : ايما احب اليك : تعيش برجل واحدة او تموت برجلين ؟ » قال : « اعيش برجل واحدة ! » قال : « احضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً » فحضر الفارس والفأس ، وانا حاضر ، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس : « اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها » فضربه وانا اراه ، ضربة واحدة ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ، ومات من ساعته . وابصر المرأة فقال : « هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها .. احلقوا شعرها » فحلقوه ، وعادت تأكل من مآكلهم الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف ، فقال : « الشيطان قد دخل في رأسها » فأخذ الموسى وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكّه بالملح ، فماتت في وقتها . فقلت لهم : « بقي لكم اليّ حاجة ؟ » قالوا : « لا .. » فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم اكن اعرفه [١] ! » .

★

ولا ريب في ان عماد الدين قد تهيب ذلك الحلف الدمشقي الصليبي الذي حال بينه وبين احتلال دمشق ، توطئة لتحقيق اهدافه البعيدة في مهاجمة الفرنجة في المناطق التي بسطوا سلطانهم عليها ومكنوا لأنفسهم فيها ، كما ان احداث فارس والعراق قد شغلته وقتاً غير قصير عن متابعة اهدافه في بلاد الشام ، إلا انه لم يغمض عينيه الاغماضة الاخيرة في السادس من ربيع الآخر سنة ٥٤١ هـ ٤ ايلول (سبتمبر) ١١٤٦

---

١ المرجع السابق ص ١٣٢ – ١٣٣ .

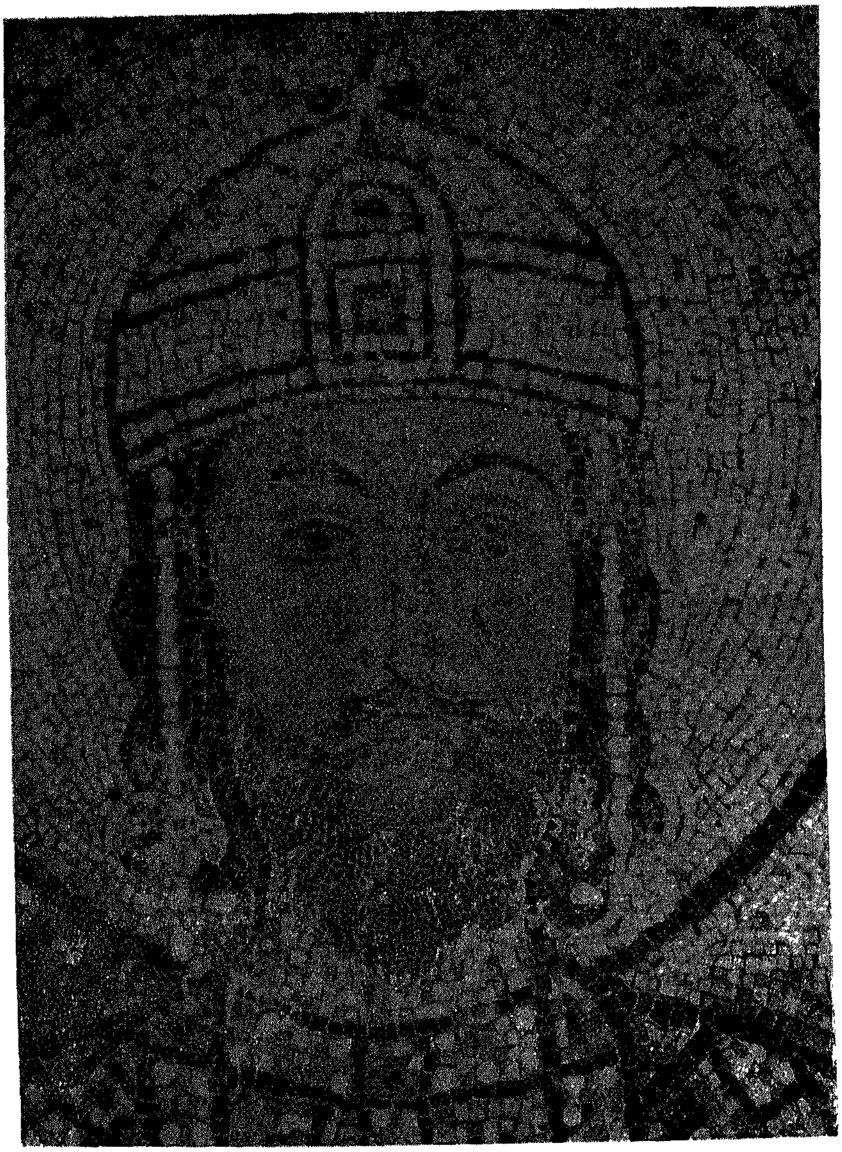
صريعاً بيد خادمه يرتقش فيما كان يحاصر قلعة جعبر [1] حتى كانت إفاقة القوى العربية والاسلامية قد بدأت تعطي ثمارهـا ، وحتى طرأ تغيّر كبير على الأوضاع السائدة في البلاد .

والواقع ان اواخر النصف الأول من القرن الثـاني عشر الميلادى ، شهدت ثلاثة احداث هامة كان لها اثرها في تطور ذلك الصراع التاريخي بين الشرق والغرب ، اولها زحف حنا كومنينوس سنة ٥٣٢ هـ ١١٣٧ م على انطاكية وارغام اميرها ريموند دى بواتيه على ان تبعيته للامبراطور البيزنطي ، واتفاقهما معاً سنة ٥٣٣ هـ ١١٣٨ م على القيام بحملة كبرى على البلاد الاسلامية لتحطيم قوة عمـاد الدين زنكي في حلب ، وامـارة بني منقذ في شيزر ، وانتزاع حمص من أتابكة دمشق ، واقامة امارة صليبية في هذه البقاع يتولاها ريموند دى بواتيه مقابل تخليه عن امارة انطاكية للبيزنطيين . الا ان هذه الحملة باءت بالاخفاق ، نتيجة لمقاومة عمـاد الدين ، والخلاف الذي شجر بين الصليبيين والبيزنطيين ، وفيما بين الصليبيين انفسهم . بيد ان جيش العاهل البيزنطي عاد من هذه الحملة الى انطاكية فاحتلها ، « فتنادى الصليبيون الى مقاومة البيزنطيين الأرثوذكس [2] » فشبت ثورة عارمة في انطاكية على حنا كومنينوس ورجـاله « فتجمع الناس في الطرقات واعتدوا على الجيش البيزنطي الذي أخذ على غرة ، ولم يستطع الامبراطور عندئذ سوى ان يغلـق على نفسه ابواب قصره

---

١ – يرجح بعض المؤرخين ان يرتقش كان على صلة بخصـوم عماد الدين وهم الذين دفعوه الى قتله (انظر : تاريخ الاسلام للذهبي ص ٩٥) وقد هال الناس مصرع عماد الدين حتى لقد صاح اهل قلعة جعبر انفسهم في القاتل : « لقد قتلت المسلمين كلهم بقتله ! »

٢ — Brehier : l'Eglise et l'Orient au Moyen Age. Les Cralaades, p. 324



الامبراطور حنا كومنينوس عن لوحة بالفسيفساء

ليحمي نفسه من غضب الجماهير الثائرة [1] ، وما لبث حنا كومنينوس ان غادر انطاكية ليعود اليها سنة ٥٣٧ ه ١١٤٢ م بجيش اكبر عدداً واكثر استعداداً ، غير ان الشتاء ادركه فقرر المسير الى بيت المقدس للحج ، فأبلغه فولك ان الاوضاع الاقتصادية لا تسمح بنزول جيشه اللجب في الأراضي المقدسة ، وانه اذا كان لا بد من ان يحج الامبراطور فيجب ألا يرافقه اكثر من عشرة آلاف جندي ، فغضب العاهل البيزنطي وقرر القيام بحملة كبرى على الصليبيين في الشام ، ولكن وفاته المفاجئة سنة ٥٣٨ ه ١١٤٣ م حالت دون ذلك .

وثاني تلك الأحداث هو وفاة فولك الخامس ملك بيت المقدس سنة ٥٣٨ ه ١١٤٣ م ، وقيام زوجته مليزاند بالوصاية على ولدها بلدوين الثالث، الذي تولى الملك إثر موت ابيه وهو في الثالثة عشرة من عمره ، إذ فقد الفرنجة بغياب فولك شخصية قوية كانت تفرض سلطانها على جميع الامارات الصليبية ، وحلت محله مليزاند التي كانت تعمل بوحي اهوائها ومصالحها الشخصية ، فغدا بعض امراء الفرنجة يستعْدون عماد الدين على امراء آخرين من الفرنجة ، كما سبق لأليكس زوجة بوهيمند أمير انطاكية ان استعانت به على ابيها بلدوين الثاني بعد وفاة زوجها كي ترث الامارة من بعده ولا ينازعها في الحكم منازع [2] .

اما الحدث الآخر فهو استيلاء عماد الدين سنة ٥٣٩ ه ١١٤٤ م على الرها بعد ان حكمها الفرنجة ستة واربعين عاماً ، رغم « ما هي عليه

---

١ - الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٨٩ .

٢ - الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٣٢ نقلا عن Runciman: Hist. of the Crusades, T. II, p. 133

من القوة والحصانة والامتناع على قاصديها والحماية على طالبيها [١] » ، إثر الجفوة التي ظهرت بين ريموند دي بواتيـه صاحب انطاكية [٢] وجوسلين الثاني صاحب الرها « وهي جفوة اشتدت بين الأميرين الصليبيين ، حتى كان كل منهما يفرح اذا ألمّت بالآخر نكبة [٣] » .

وقد سمي هـذا النصر « فتح الفتوح » وكان مصدر الهـام وابداع لكثير من الكتاب والشعراء ، ومما قاله في ذلك ابن القيسراني من قصيدة طويلة :

هو السيف لا يغنيك إلا جِلادُهُ ... وهل طوّق الأملاك إلا نجـادهُ
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا ... سناها وإن فات العيون اتقـاده
فيا ظفراً عمّ البـلاد صلاحه ... بمن كان قد عمّ البـلاد فساده
سمت قبةُ الاسلام فخراً بطوله ... ولم يك يسمو الدين لولا عمـاده

وأراد عماد الدين ان يصب جام غضبه على اهل المدينة « ليثـأر للفظائع التي ارتكبها الصليبيون في بيت المقدس وانطاكية ، ولكن مروءته تغلبت على سخطه [٤] » فعامل السكان خير معاملة ، وشمل المسيحيين بحمايته ، فأحاطهم بعطفه ورعايته ، وشعر السريان والأرمن الأرثوذكس

---

١ - مفرج الكروب ج ١ ص ٩٤ .

٢ ـــ كان فولك دوق انجو الذي خلف بلدوين الثاني على عرش بيت المقدس قد رأى ان يتخلص من مؤامرات اليكس أرملة بوهيمند بزفها الى ريموند دي بواتيه ، وهكذا غدا ريموند أميراً على انطاكية .

٣ ـــ نور الدين والصليبيون ص ٣٤ نقلا عن Stevenson: Crusades, p. 149 و G. T, p. 709

٤ ـــ مختصر تاريخ العرب ص ٢٩٧ .

الذين كانوا قد غادروها قبلاً ، بالاطمئنان ، فعادوا الى مدينتهم [1] .

وقد استقبل العالم العربي والاسلامي بالابتهاج هذا الانتصار الذي احدث ثغرة في صرح الاحتلال الفرنجي وكان حافزاً جديداً على تجمع قوى المقاومة في وجه العدوان الأجنبي .

---

١ — Michel Le Syrien, III, pp, 262 , 268

الفصل الخامس

نور الدين محمود والحملة الصليبية الثانية

حدد القدر لكل من الأميرين نور الدين محمود وسيف الدين غازي ولدي عماد زنكي الأرشدين ، هدفه في الحياة ، إذ اقتسما دولة أبيهما ، فآلت حلب والرُها للأول ، وغدت الموصل وما يليها للثاني ، فانصرف سيف الدين وهو اكبرهما الى حماية أملاكه من جيرانه المسلمين في الشرق ، واتجه اهتمام نور الدين الى مقاومة الافرنج الذين يحيطون بأطراف ملكه .

وكان اتجاه نور الدين يتلاقى مع يقظة الشعوب الاسلامية التي بدأت تُقدّر اهمية الخطر الأجنبي المتعاظم . وسرعان ما برز الأمير الشاب في حياة بلاده كشخصية فذة ذات أثر فعال في سير التاريخ ، واستطاع ان يفرض حبه واحترامه على اصدقائه وأعدائه جميعاً ، لما امتاز به من فضائل ومكارم ، وما كان يهدف له من آمال كبار تهون عندها صغار الأهواء .

ويبدي بروكلمان اعجاباً خاصاً بشخصية نور الدين فيقول عنه :

« انه ورث عن ابيه صفات الحاكم الفاضل الى حد بعيد جداً [1] . فبينا كانت الكثرة المطلقة من الحكام الذين تصدروا لسياسة المسلمين ، طوال اجيال عدة ، يعتبرون ممالكهم اقطاعات واسعة يستغلونها لمصالحهم الخاصة ، كان هو اول من استشعر أنه مسؤول تجاه الله عن رفاهية رعيته . ومن هنا لم ينفق موارد الدولة الغزيرة ، التي تمت له بالادارة البارعة والتي لم تُثقل كاهل رعيته على كل حال ، على تحصين بلاده وتوطيد مركزه الحربي في عالم زاخر بالأعداء — وهو ما اقتضاه نفقات ضخمة — فحسب ، بل أنفقها في المحل الأول على الشؤون الثقافية والمساجد وزوايا الدراويش وخانات المسافرين والمستشفيات ودور العلم [2] » .

وقد تمكن نور الدين بهذه الروح الطيبة الصافية من أن ينزع الغل والحقد من قلوب مجاوريه من الأمراء ، وان يوفق بينهم الى حد كبير ، وكان يأبى محاربتهم حتى وان اعتدى بعضهم عليه ، وانما يشتد في مقاتلة الفرنجة ليعوّض عن خسائره لدى المسلمين بمكاسب يحرزها لدى اعداء البلاد .

وهذه السياسة التي اتبعها في محاسنة امراء المسلمين ، قد ذللت له ما استعصى على ابيه . فقد عرفنا ان عماد الدين فارق الحياة وفي نفسه شيء كبير من دمشق ، لأن صاحبها معين الدين أنر كان يرهبه ويخشى

---

١ — كان عماد الدين زنكي مهيباً شديد الوطأة على خصومه وأهل الفساد ، وصفه العماد الاصفهاني بقوله : « كان جباراً عسوفاً ، بنكباء النكبات عصوفاً ، نمري الخلق ، أسدي الحنق ، لا ينكر العنف ولا يعرف العرف » ويقول محمد كرد علي : « وبعض هذه الصفات تنزهت منها نفس ابنه نور الدين محمود ، فانه جمع الصفات الحسنة في أبيه وتجرد عن الصفات الرديئة فيه — انظر خطط الشام ج ٢ ص ١٧ » .

٢ — تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

إن هو تقرب منه او استسلم له ، ان يقتله او ينتزع ملكه منه ، فأزال نور الدين ذلك الجفاء القديم ، واتخذ مع أنر سبيل الملاينة ، وتزوج من ابنته توطيداً لأواصر المودة بينهما .

إلا ان أنر ما فتىء يحاذر من نور الدين ، ويصانع الصليبيين ويوادعهم ، حتى اسفر هؤلاء عن مطامعهم ، ومزقوا الحلف القائم بينه وبينهم ، في محاولة قاموا بها للاستيلاء على حوران ، استجابة لدعوة واليها التونتاش الذي اعلن انفصاله عن دمشق ، وأملا في اتخاذ هذه المنطقة قاعدة لهم يتوغلون منها في بلاد الشام ويحتلون عاصمتها ، مما اضطر أنر الى الاستعانة بنور الدين فأعانه بجيش كثيف ، واحتل الأميران المنطقة قبل وصول القوات الصليبية الطامعة بها . ولما وصلت هـذه القوات وهي على اسوأ حال من الاعياء والظمأ ، رأت ان الجيوش الاسلامية قـد سبقتهـا الى مراكز المياه ، فاشتبكت معها في السابع والعشرين من محرم سنة ٥٤٢ هـ ١١٤٧ م في موقعة خاسرة ، وحينئـذ لم تجد بداً من العودة الى بيت المقدس ، مخافة ان تنتقل الجيوش الاسلاميـة الى الهجوم على المملكة الصليبية وقد شارفت حدودها .

ولم يشأ أنر تعقب تلك الحملة الصليبية وهي على تلك الحـال من التضعضع والانهيار ، إلا انها لم تسلم من تعرض المواطنين والجنود لها في معارج الطرق . « ولم ير الصليبيون بداً من ان يبعثوا بمبعوث من قبلهم يتقن اللسان العربي ، ليسأل أنر ونور الدين ان يأذنا لهم بهدنة يتمكنون خلالها من دفن قتلاهم ثم العودة الى بيت المقدس ، فلم يُقدّر لهـذا الرسول تأدية رسالته ، إذ عوجل في الطريق على يـد نفر من المسلمين أردوه قتيلا ، واضطر الصليبيون لمتابعة السير رغم اخطـار الطريق ، وبعد الشقة ، وتربص العصابات لهم ، وقلة ما بيدهم من الزاد . وهنـا تظهر حادثة تتجلى فيها روح الفروسية التي امتاز بهـا العصر الوسيط ،

فقد وصل الى الصليبيين مبعوث من قبل أنر يمدهم بالمؤونة اللازمة حتى يعودوا الى بلادهم ، كما جاء فارس عربي يبصّرهم مسالك الطريق [1] » .

وهكذا حل محل الحلف الصليبي الدمشقي ، الحلف بين نور الدين وأنر ، هذا الحلف الذي فرضته الأحداث وسياسة نور الدين الرشيدة ، وهو الأمر الذي كان الافرنج يتهيبونه وقد مهدوا له بجشعهم وسوء تصرفهم . فلما بلغت الحملة الصليبية الثانية بلاد المشرق ، وجدت أمامها هذا الحلف القوي الذي يؤلف سداً فولاذياً في وجوه المعتدين .

ذلك ان سقوط الرُها سنة ٥٣٩ هـ ١١٤٤ م في يد عماد الدين ، قد أثار في الغرب موجة جديدة من الحماسة والفزع ، فنهض البابا اوجاتيوس الثالث يحاول تمثيل الدور الذي لعبه اوربانوس الثاني ، داعياً الدول الاوربية الى حملة صليبية جديدة ، ووجد في القديس برناردوس داعية له فأخذ يطوف اوربة الغربية مستنهضاً العزائم مستثيراً الهمم ، فلبى النداء هذه المرة ملكان عظيمان هما كونراد الثالث امبراطور المانية ولويس السابع ملك فرنسة ، وكان جيش كل منهما يتألف من حوالي سبعين الف رجل . وكان السبب في استجابة لويس السابع للنداء كما يقول فليب مير ان ضميره كان يؤنبه على القسوة التي عامل بها نفراً من رعيته خرجوا عليه ، فأراد ان يكفر عن ذنبه باشتراكه في تلك الحملة [2] .

وقد اثارت الحملة الصليبية الجديدة مخاوف عمانوئيل الأول امبراطور

---

١ – نور الدين والصليبيون ص ٤٨ ، ويذهب الدكتور حبشي الى ان هذه البادرة تدل على ان أنر كان مرغماً على مصالحة نور الدين ، وانه كان يخشى ان تنجو دمشق من الخطر الصليبي لتقع فريسة للخطر النوري .

٢ – التاريخ العام ص ٢٤٨ .

بيزنطية وحفيد الكسيس كومنينوس ، فأخذ ينتظرها في قلق شديد . يقول الدكتور اسد رستم : « ووصل الألمان اولاً وكانوا قد نهبوا ذات اليمين وذات الشمال في اثناء مرورهم في اراضي الروم ، فطلب عمانوئيل الى كونراد ان يعبر جنوده الدردنيل لا البوسفور في طريقهم الى آسية . ولكن كونراد رفض وتابع سيره نحو القسطنطينية . وحطت رحال جنوده خارج اسوارها وسلبوا ونهبوا وأحرقوا . ولم يرض كونراد عن التقاليد المتبعة في التشريفات في القصر المقدس ، فساءت العلاقات بين الكبيرين . ولكن عمانوئيل تمكن من اقناع ضيفه الكبير بوجوب الانتقال الى آسية الصغرى ومتابعة السير نحو الأراضي المقدسة . وبعد هذا بقليل في خريف السنة ٥٤٢ هـ ١١٤٧ م أطل لويس السابع بجموعه فحلّ ضيفاً مكرماً على الفسيلفس [١] . واشترك الضيف والمضيف في عيد القديس دنيس في التاسع من تشرين الأول . وساد الحب والتفاهم الأحاديث والعلاقات كلها . ثم طلب عمانوئيل الى لويس السابع وامرائه وأشرافه ان يقسموا يمين الطاعة والولاء كما فعل امراء الحملة الأولى . فلم يرض الملك الافرنسي بذلك ، وشاركه في الرفض جميع حاشيته من كبار الرجال . وارتأى احد الأساقفة الافرنسيين أن يُصار الى احتلال القسطنطينية ، ولكن لويس أبى مذكراً الأسقف وغيره بالنذر الصليبي [٢] » .

وقد بادر عمانوئيل الاول الى مصالحة الامير مسعود سلطان قونية نكايةً بالصليبيين ، ومن المؤرخين من يقول انه « بعث بالرسائل الى مسعود يحثه على النهوض لقتال الألمان في الوقت الذي كان يعد العدة

---

١ . لقب اباطرة بيزنطية .

٢ - الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٤٨ - ١٤٩ .

لاستقبالهم ويتظاهر بالاخلاص لهم [١] . ولما وافت الامبراطور البيزنطي انباء الهزيمة التي ألحقهـا الأتراك السلاجقة بالألمان عند دوريلة ، زعم للفرنسيين الذين كانوا لا يزالون في القسطنطينية أن الالمان قـد احرزوا نصراً مبينـاً ، فسارعـوا الى مغـادرة القسطنطينية للمشاركة في هذا النصر !..

وحين وصـل لويس السابع الى انطاكية في ١٩ آذار (مارس) ١١٤٨ م (٥٤٣ هـ) حاول اميرها ريموند دي بواتيه اقناعه بالزحف على حلب وحماه ، لتوجيه ضربة قاصمة الى نور الدين تقضي عليه او تحـد من مطامحه ، لان مملكته التي ما تفتـأ تتسع على حساب المستعمرات الافرنجية ، باتت تؤلف خطراً شديداً على مشاريع الصليبيين . ولكن عوامل متعددة دفعت الملك لويس السابع الى رفض هـذه الفكرة ، والاصرار على مغادرة انطاكية للالتحاق بكونراد الثالث الى بيت المقدس . ومن هذه العوامل العلاقة المريبة التي نشأت بين اليانور زوجة الملك لويس السابع وعمها ريموند دي بواتيه أمير انطاكية [٢] ، ولمـا أصر لويس السابع على عزمه ، رفضت اليانور مرافقته ، وهددته بالطلاق ان هو أبى مرافقة عمها في الحمـلة على نور الدين ، فأصر على الرفض وغادر انطاكية تحت جنح الظلام .

وفي ٢٨ صفر ٥٤٣ هـ ٢٤ حزيران (يونيه) ١١٤٨ م عقد قادة الحملة الصليبية الثانية من الملوك والأمراء والنبلاء ورجال الدين ، مؤتمراً في بيت

---

١ – نور الدين والصليبيون ص ٥١ (انظر ايضا Dictionaire des Crolsades p. 285)

٢ – Rey: Hist. des princes d'Antioche, .p. 367 و Lavisse: Hist.de France, vol III, pp. 17 - 18



الحملة الصليبية الثانية في شعاب آسية الصغرى

المقدس [١] ، ليقرروا وجهة الجيوش التي جاءوا بها من الغرب ، وقــد عرضوا وجوه الرأي كلها إلا ما يتعلق منها بمهاجمة نور الدين ، ثم انتهوا الى اسوأ الآراء وهو مهاجمة دمشق التي كان أميرها أنر ما زال يوادعهم ويطمع بتجديد التحالف معهم ، فقــد كان كما يقول غروسّه « الحليف الوحيد للصليبيين بين امراء المسلمين في بلاد الشام [٢] » .

ويقول المستشرق لامونت في ذلك : « وعندما جاءت الحملة الصليبية الى الشرق ، وكان هدفها الوحيد استرجاع الرها ، انحرفت عن هــذا الهدف نتيجة للخلافات الداخلية وللسياسة الأنانية التي اتبعها افرنج القدس الذين عارضوا الحرب في الشمال ، ووجهت للهجوم على دمشق مع انــه كان بين دمشق واللاتينيين حلف وثيق دام عدة سنوات [٣] . »

وسرعان ما زحفت على دمشق الجيوش الفرنسية والألمانيــة وجيوش بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، واحتلت القرى القريبة منها ، وضربت الحصار عليها في السادس من ربيــع الأول ٥٤٣ هـ الثاني من تموز (يوليه) ١١٤٨ م .

ولكن أبناء دمشق استبسلوا في الدفاع عن مدينتهم ، ولم يتأخر منهم عن القتال حتى الكهول والزهاد والأئمة والفقهاء [٤] ، وأرسل أنر في الوقت نفسه يستصرخ سيف الدين ونور الدين وغيرهمــا من امراء المسلمين ، ثم اجتمع بنور الدين عند حمص في أواخر ربيــع الأول سنة ٥٤٣ هـ ١١٤٨ م

١ – نور الدين والصليبيون ص ٥٥ .
٢ – Hist. des Croisades, T 2, p. 255 .
٣ – دراسات اسلامية ص ١١٥ .
٤ – ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٨ وكتاب الروضتين ج ١ ص ٥٦ .

واتفق معه على أن يحتل قلعة دمشق فريق من جند حلب لدفع الخطر الصليبي ، شريطة أن يغادرها متى زال الخطر .

وبينا كانت الجبهة الاسلامية آخذة سبيل القوة ، كانت الجبهة الصليبية تنحدر الى الضعف ، بسبب التنافس الذي نشب بين امرائها حول مصير دمشق ، إذ كان كل منهم يطمع في امتلاكها ، وأخذوا يتبايعون ضياعها وجهاتها [٢] ، ويذهب مؤرخو تلك الحملة الفرنجة الى ان أنر استطاع ان يرشو فريقاً من امراء الحملة فأنشأوا يثبطون همة كونراد ولويس ويصعّبون أمامهما الموقف الحربي ، وأشاروا عليهما باخلاء ناحية الغوطة ، وجاز الأمر على العاهلين الأوربيين فانتقلا بجيوشهما الى باب كيسان حيث أخذوا يلاقون اكبر المشقة في الحصول على الماء والذخيرة [٢] ، وهكذا اضطربت صفوف الحملة ، وبدا عجزها ، وقرر ملكا فرنسة والمانية العودة من حيث أتيا .

ويتفق رأي ابن الأثير مع رأي ميشال السوري [٣] في الدور الذي لعبه معين الدين أنر في التفريق بين « فرنج الشام » وقادة الحملة الصليبية الثانية ، سالكاً طريق الترهيب والترغيب معاً ، قائلاً لهم : « انكم لتعلمون انهم إن ملكوا دمشق ، أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية » وانه ان شعر بأي عجز عن حفظها سلّمها الى سيف الدين ، وعندئذ لا يبقى لهم معه مقام في الشام ، فأجابوه إلى التخلي عن الأوربيين ، واجتمعوا الى الامبراطور والملك ، وخوفوهما من سيف الدين وكثرة

---

١ – ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٨ – ٣٠٠ .

٢ – نور الدين والصليبيون ص ٥٧ – ٥٩ .

٣ – Michel Le Syrien, p. 276

عساكره مع تتابع الامداد اليه ، وأنه ربما تملك دمشق وضعفوا هم عن مقاومته ، وما زالوا بها حتى رحلا بعساكرهم عن المدينة ، فتسلموا هم قلعة بانياس من أنر كما كان وعدهم وارتدوا من حيث أتوا [1] .

ويجمل الدكتور حسن حبشي العوامل التي أدت الى هذه النتيجة بقوله : « والخلاصة انه اذا استعرضنا موقف الصليبيين الحربي ، وتضعضع قوتهم ونفسيتهم ، واستيلاء اليأس على قلوبهم ، ونهوض نور الدين وأخيه سيف الدين لنجدة أنر ، ومجيء القوات الاسلامية لمعونة دمشق ، وذكرنا النزاع الذي دب بين قواد الحملة الصليبية وأشرافها ، وتحرك الأطماع في صدورهم ، ونظرة فرنجة الشام الى الألمان نظرتهم للغريب ، أمكننا ان نحكم بفشل الحملة الصليبية الثانية ، بل ان هذا الفشل تأكد منذ قدومها الى الشرق حين وقف الامبراطور عمانوئيل منها موقفه الملتوي ، ثم نشوب النزاع بين ريموند دى بواتيه وبين لويس السابع ، وعدم مهاجمة حلب رأساً ، مما اتاح الفرصة للقوات النورية ان تتأهب للدفاع ، بل وان تتحول من الدفاع الى الهجوم استجابة لاستغاثة انر . لذلك كان لا بد لتلك الجماعات الوافدة من الغرب ان تتلمس السبيل لخروجها سليمة من هذا المأزق الحرج ، فاتفق رأي ملك فرنسا وامبراطور المانية على الرجوع الى بلديهما » [2] .

أما الدكتور اسد رستم فقد اجمل مسيرة الحملة بقوله : « ولما وصل ملوك الفرنجة الى سورية الشمالية ، رأى ملك القدس ان يتجه الملوك المجاهدون نحو دمشق ، فوصلوا اليها في تموز السنة ١١٤٨ وأحاطوا بها

---

١ – الكامل ج ١١ ص ٥٨ – ٥٩ .

٢ – نور الدين والصليبيون ص ٦٠ .



الامبراطور عمانوئيل كومنينوس وزوجته ماري الانطاكية

وخربوا غوطتها ، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على المدينة . وأخفقت الحملة الصليبية الثانية ، وعزا امراؤها هذا الاخفـــاق الى عمانوئيل وحكومته . وعادوا الى الغرب يعدون العدة لحملة ثالثة توجه ضد الروم انفسهم [١] » .

والواقع ان موقف الحذر والمباغضة واساءة الظن الذي وقفه الامبراطور الكسيوس وخلفاؤه من الصليبيين وبادلهم اياه هؤلاء مبادلة تامة ، لم يتغير في وقت من الأوقات . ويقول هامرتن : « ومما كان يزيد في تلـــك المباغضة ان الفرنجة في فلسطين ذاتها ، كانوا يفرقون في المعاملة بين رعاياهم من الكاثوليك ورعاياهم من الارثوذكس (والآخرون يتفقون في مذهبهم مع ابنـــاء الامبراطورية الشرقية) ففرضوا على الارثوذكس الضرائب وأعفوا الكاثوليك منها [٢] » .

* *

غادرت القوات الصليبية منطقة دمشق ، بعد ان شقت امام نور الدين طريقاً معبدة لتوسيع ملكه وتوطيد سلطانه . والحق ان نور الدين قد اعتبر نفسه بعد تلك الحملة ، القائد المسؤول عن حماية البلاد الاسلامية ، ورأى ان احتلال دمشق ضرورة لا بد منها لتحقيق هذه الغاية على وجهها الأكمل ، مردداً في مجلسه قول ابي بكر : « ايها الناس لا يقعدن بكم عن درء المنكر ان يقول احدكم : عليّ نفسي ، فتكونوا كركب في سفينة خرقها احدهم فلم يحجزوه فهلكوا جميعاً !... » وادرك انر اهداف نور الدين ، كما ادرك الافرنج الخطر الذي تنطوي

١ – الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٢٩ .
٢ – تاريخ العالم ، المجلد الرابع ، ص ٧٥٥ .

عليه تلك الاهداف ، فعاد التعاطف الى سابق عهده بينهم وبين انر ، ثم بينهم وبين مؤيد الدين الرئيس [1] الذي خلفه بعد وفاته سنة ٥٤٤ هـ ١١٤٩ م . وقد استغل نور الدين ذلك للطعن في مؤيد الدين وجماعته وتشويه سمعتهم امام المواطنين وامام الدماشقة انفسهم . واخذ يعمل على استثارة الهمم واستنهاض العزائم ، منتدباً نفسه للدفاع عن حوران وهي من اعمال دمشق ، ولانقاذ عسقلان وهي من اعمال مصر ، معلناً اسفه لان الصليبيين يهاجمون هذه المدينة وهو لا يستطيع « الوصول اليهم ودفعهم عنها ، بسبب توسط دمشق بينه وبينهم [2] » موجهاً الى حكام دمشق اعنف اللوم والتأنيب :

« انني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم ولا منازلتكم ، وانما دعاني الى هذا الامر كثرة شكاية المسلمين من اهل حوران والعربان الفلاحين الذين اخذت اموالهم ، وشتتت نساؤهم واطفالهم بين الافرنج ؛ وعدم الناصر لهم ، لا يسعني مع ما اعطاني الله ، وله الحمد ، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين ، وكثرة المال والرجال ، ولا يحل لي القعود عنهم والانتصار لهم ، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ اعمالكم والذب عنها والتقصير الذي دعاكم الى الاستصراخ بالافرنج على محاربتي ، وبذلكم لهم اموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم وتعدياً عليهم ، وهذا ما لا يرضي الله تعالى ولا احداً من المسلمين [3] .. »

---

١ – كان اهل الرأي قد اجتمعوا في منزل معين الدين أنر بعد وفاته ليتداولوا فيمن يخلفه، وقد انتهى رأيهم الى ان يكون مؤيد الدين الصوفي خلفاً للأتابك الراحل ، ومجير الدين ابق اميراً على دمشق .

٢ – مفرج الكروب ج ١ ص ١٢٦ .

٣ - كتاب الروضتين ج ١ ص ٦٠ .

وما لبث نور الدين ان اعلن عزمه على احتلال دمشق ، الا انه عاد فتخلى عن هدفه هذا لينصرف الى صد هجوم جوسلين على الرها . فعقد مع أبق صلحاً وافق صاحب دمشق بموجبه على اقامة الخطبة لنور الدين من منابر المدينة بعد السلطان وكتابة اسمه على السكة [1] . ثم انتقل الى الرها ليدفع عنها جيوش جوسلين ويأسره (٥٤٥ هـ ١١٥٠ م) وعاد لفوره الى دمشق مجدداً عزمه على احتلالها ، ولكنه اراد احراج صاحبها امام الرأي العام الاسلامي فكتب اليه قائلاً : « أنا ما أوثر إلا صلاح المسلمين وجهاد المشركين ، وخلاص من في ايديهم من الاسارى ، فان ظهرتم معي في عسكر دمشق ، وتعاضدنا على الجهاد ، وجرى الامر على الوفاق والسداد ، فذلك غاية الايثار والمراد [2] » .

ولم يجب مجير الدين أبق على كتاب نور الدين ولكنه ارسل الى ملك بيت المقدس يستنجد به ، وكان بلدوين الثالث « بلدوين » بعد ان تحرر من وصاية امه مليزاند [3] قد عرض عليه العودة الى الحلف القديم ، ورأى أبق ان نور الدين اشد خطراً عليه لان ملك الفرنجة كان يتجه باطماعه الى مصر . واتفق الحليفان على ان يخرجا بجيوشها الى بصرى

---

١ – ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٩ .

٢ – المرجع السابق ص ٣١٣ .

٣ – رفضت مليزاند ان تتنازل لابنها بلدوين الثالث عن العرش بالرغم من بلوغه سن الثانية والعشرين ، ثم وافقت على ذلك تحت ضغط الرأي العام ، الا انها طلبت من بطريرك القدس ان تتوج مع ولدها دلالة على مشاطرتها له اعباء الملك ، ودعا بعض انصار الملك الى ان تقتسم المملكة معه ، الا ان بلدوين رفض ذلك وأجل موعد تتويجه ، ثم فاجأ البطريرك بدخوله الى كنيسة القيامة منفرداً وطلب منه تتويجه ملكاً على مملكة بيت المقدس ، فاضطر البطريرك الى تنفيذ طلبه ، وانقسمت البلاد إثر ذلك بين مؤيد للملك الشاب ونصير لأمه مليزاند ، واصطدم الفريقان في حرب اهلية انتهت بانتصار بلدوين واقرار الصلح بين الفريقين .

في منطقة حوران ، لاستدراج نور الدين الى هناك وابعاده عن دمشق . وكان نور الدين قد بعث بقسم من جنـده الى حوران لنجدة سرجـال عامله في بصرى وقطع الطريق على الافرنج فيما اذا قصد جيشهم تلك الناحية . وجاء جيش الفرنجة تلبية لطلب صاحب دمشق وتنفيذاً لخطته ، ولكن جيش أبق لم يوافه الى حيث دعاه . فاصطدم الصليبيون مرةً بجند نور الدين ومرةً بجند سرجـال ، وهزموا في كلتـا الموقعتين ، فجمعوا فلولهـم وعادوا الى بيت المقدس خائبـين ناقمين عـلى صاحب دمشق .

وتقدمت جيوش نور الدين شطرَ دمشق حتى شارفتهـا دون أن يحرك أبق ساكناً ، ولا ريب في انه كان على يقين بأنه اضعف من ان يقاوم خصمه ، لاسيما وان هذا الخصم كان قد ظفر بمكانة لا تضاهى في قلوب المسلمين ومنهم ابناء دمشق الذين أخذوا ينظرون اليه كبطل من ابطال الاسلام وولي من اولياء الله الصالحين ويتناقلون عنه رائع القصص والاساطير . وهكذا نرى أبق يسارع الى عقد الصلح مـع نور الدين (٥٤٦ هـ ١١٥١) ويدخل نور الدين دمشق دون قتال ، ويغدو أبق تابعاً له .

لقد خطا نور الدين بذلك الصلح الخطوة الاولى نحو ضم دمشق قلب البلاد الاسلامية ومفتاح طرقها ، وكانت الخطوة التالية انه انشأ يكاتب أبق من حلب متظاهراً بأنه يخصه بالحب والرعاية ، موغراً صدره في الوقت نفسه على كل من توسم فيه التمسك باستقلال دمشق ومقاومـة ضمها الى مملكته ، حتى قضى عليهم جميعاً . وحينئذ عاد نور الدين الى قطع المؤونة عن دمشق حتى جاع الناس ونقموا على ابق ، ثم بادر الى محاصرتها متخذاً من اضطراب المدينة ذريعة لاحتلالهـا . وادرك مجير الدين أبق الخطأ الذي ارتكبه حين وثق بنور الدين واطمأن اليه وقضى

على خصومه في دمشق ، فبادر الى الاستغاثة مرة جديدة ببلدوين الثالث ، متعهداً بأن يتخلى له عن بعلبك وبعض نواحي البقاع إن هو ردّ الخطر النوري عن دمشق .

ولكن نور الدين لم ينتظر وصول الافرنج ، بل سارع الى مهاجمة المدينة ، وما لبث ان دخلها بمساعدة انصار له في الداخل فتحوا له الباب الشرقي وباب توما ، دون ان يضطر الى اراقة الدماء . « ولما دخل نور الدين صاح اصحابه : « نور الدين يا منصور » وامتنع الاجناد والرعية عن القتال لما هم عليه من بغض مجير الدين وظلمه وعسفه للرعية ومحبتهم لنور الدين لعدله وخيره [1] » .

كان ذلك في ربيع الاول سنة ٥٤٩ هـ ١١٥٤ ايار (مايو) ، وقد استقبل نور الدين بالتهليل والتكبير ومنحه الخليفة العباسي لقب الملك العادل . وخشي مجير الدين ابق على حياته فاعتصم بالقلعة ، ثم فاوض نور الدين على الاستسلام له مقابل ان يقطعه مدينة حمص ، فوعده بذلك ، ولكنه ما لبث ان غادر بلاد الشام الى بغداد وبقي فيها حتى مات سنة ٥٦٤ هـ ١١٦٨ م .

وهكذا « صفت الممالك بالشام لنور الدين [2] » ، وحقق حلم ابيه عماد الدين زنكي ، بل حقق ارادة الشعوب العربية والاسلامية التي عرفت النتائج الأليمة التي ادى اليها الخلاف والفرقة بعد تمزق الامبراطورية العباسية الى عشرات الامارات والدويلات . واصبحت مملكته تمتد من

---

١ – خطط الشام ج ٢ ص ٣١ .

٢ – مفرج الكروب ج ١ ص ١٢٨ .

دمشق الى الرُها ، وتؤلف سداً منيعاً أمام عدوان الفرنجة ، وبدأ في ملحمة الصراع بين الشرق والغرب تحوّل خطير ، ويمكن القول ان سيرة نور الدين محمود كانت حداً فاصلاً بين مرحلتين من مراحل ذلك الصراع العنيف بالنسبة لأبناء الشرق : مرحلة التقهقر والتخـــاذل والاستسلام ، ومرحلة القوة والعزيمة والثبات التي بدأت مع صعوده الى ذرى المجد .

وقـد أطرى الشعراء نور الدين وتغنوا بمآثره وأثنوا على شجاعتـه وبلائه ، ومن قصائد العماد الأصفهاني فيه قوله :

عُقـدت بنصرك راية الايمـان وبـدت لعصرك آية الاحســان
يا غالب الغلب الملوك وصائد الصيـد الليوث وفارس الفرسان
يا سالب التيجان من أربابهـا حزت الفخار على ذوي التيجان
أحلى أمانيك الجهاد وإنـــه لك مؤذن أبداً بكل أمـان
كم وقعة لك بالفرنج حديثهـا قد سار في الآفـاق والبـلدان
قمّصت قومصهم رداءً من ردى وقرنت رأس برنسهـم بسنان
وملكت رق ملوكهم وتركتهم بالذل في الأقياد والأشجان
وجعلت في أعناقهم أغلالهم وسحبتهم هوناً على الأذقان

على ان وجوه العظمة في شخصية نور الدين لم تقتصر على انه ظـل عشرات السنين من حياته الحافلة مرابطاً للعدو ملازماً للجهاد ، يأبى ان يستظل بجدار حتى يثأر لبلاده وقومه ، فان مجده في السلم فاق مجده في الحرب ، وكان مثال الحاكم العادل الذي يتحرى الحق والانصاف ، وقد أنشأ دار العدل في دمشق فصارت ملجأ المظلومين من اقاصي البلاد ، وقرّب العلماء واكرمهم واحسن اليهم ، ومـــا تزال المدارس والمساجد والخانات والبيمارستانات التي بناها وأوقف لها الاموال قائمة في بلاد الشام حتى الآن .

الفصل السادس

الملك العادل والامارات الصليبية في المشرق

كان بين نور الدين وجوسلين الثاني الفارس الصليبي الشهير ، عداء قديم لا تخبو ناره حتى تشتعل وتضطرم من جديد . فمنذ وفاة ابيه عماد الدين سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) واقتسام مملكته بينه وبين اخيه ، اعتقد جوسلين الذي كان ما يزال يحتفظ ببعض اعمال الرها ، ان الفرصة سانحة لاستعادة هذه المدينة من ايدي المسلمين ، فقام بمحاولة جريئة للاستيلاء عليها ، ولكن نور الدين نهد له من حلب واضطره الى الفرار .

وانتظر جوسلين الثاني اربع سنوات ، ثم انتهز فرصة اهتمام نور الدين بأمر دمشق سنة ٥٤٥ هـ ١١٥٠ م ليهاجم الرها من جديد ، مما دفع نور الدين الى مصالحة أبق كما رأينا ، والانطلاق الى الرها لصد عدوان جوسلين الثاني وأسره وساقه الى حلب حيث ظل في الأسر تسع سنوات . وقد قال ابن القيسراني في ذلك من قصيدة طويلة :

دعى ما ادعى مَنْ غرّه الأمر والنهى ... فما الملك الا ما حباك به الأمر
ومن ثنت الدنيا اليه عنانها ... تصرف فيما شاء عن إذنه الدهر
ومن راهن الأقدار في صهوة العلى ... فلن تدرك الشعرى مداه ولا الشعر

ومنها :

أتى رأسه ركضاً وغودرشلوه   وليس سوى عافي النسور له قبر
وقد كان في استبقائه لك منة   هي الفتك لولم تغضب البيض والسمر

وتولت بياتريس زوجة جوسلين الثاني – بعد أسره – حكم ما تبقى من امارة الرها ، الا ان نور الدين بادر الى انتزاع عزاز وحارم منهـا ، وكأنه اراد ان يقيم على طول الحدود حاميات تحول دون تقدم النجدات الصليبية فيما اذا اشتبك مع بياتريس في حرب فاصلة لاستخلاص بقيـة الامارة . وهرع بلدوين الثالث لنجدة بياتريس ، ولكنه ادرك ان قواته اضعف من ان تنتصر على قوات نور الدين ، فكتب الى عمانوئيل الأول امبراطور بيزنطية يطلب مساعدته في نصرة الأميرة المهـددة . ورحبت الدولة البيزنطية بهذا الطلب بغية ان تقوّي حدودها وتخومها « عساها تتمكن من القضاء على الصليبيين والمسلمين معاً في هذه المنطقة يوماً ما [١] » وما لبث عمانوئيل الأول ان عرض على بياتريس التي هربت الى تل باشر ، ان تبيعه ما بقي تحت حكمها من امارة الرها ، وأغدق عليها الوان الهدايا والوعود ، فأثار هذا العرض جدلاً كبيراً بين قادة الصليبيين ، اذ استنكر بعضهم بيع الامارة الصليبية الى العاهل الذي كان في اعتقادهم سبباً في اخفاق الحملة الصليبية الثانية ، كما كان ابوه ألكسيس كومنينوس مبعث قلق شديد ومصدر خوف دائم للحملة الصليبية الأولى . الا انهم لم يجدوا بداً آخر الأمر من اقناع الأميرة بالموافقـة على بيـع تـل باشر وسميساط وروم قلعة والبيرة ودلوك وعنتاب وراوندان – بالاضافة الى « حقوقها » في البقاع التي كانت تابعة لامارة الرها واستولى المسلمون عليها ،

---

١ – نور الدين والصليبيون ص ٧٧ .


الرها
انطاكية
طرابلس
بيت المقدس

لامبراطور بيزنطية للتخلص من عبء الدفاع عنها [1] .

وكان الخصم الثاني لنور الدين ريمون دى بواتيه امير انطاكية الذي شد ما حاول اقناع لويس السابع بتوجيه الحملة الصليبية الثانية الى حلب بدلاً من ان تتجه الى دمشق حيث اخفقت وهزمت . وقد اشتبك هذان الخصمان في القتال مرتين ، فكان القتال سجالاً بينهما ، ثم اشتبكا سنة ٥٤٤ هـ ١١٤٩ م في معرئة ، وكانت قوات ريمون دى بواتيه قليلة العدد ، فنصحه احد الاسماعيليين [2] بانتظار المدد قبل ان يلتحم مع نور الدين في قتال ، الا انه لم يعمل بهذه النصيحة ونازل قوات نور الدين اللجبة بقواته القليلة ، فهُزم جنوده وقتل في المعركة بيد اسد الدين شيركوه [3] وقتل معه رينو صاحب مرعش وكيسوم ، وعلي بن وفا الزعيم الاسماعيلي الذي كان يرافق الصليبيين في تلك المعركة [4] .

لقد حدث ذلك كله قبل ان يستولي نور الدين على دمشق سنة ٥٤٥ هـ ١١٥٠ م ، اما بعد هذه السنة الفاصلة في مجرى التاريخ ، فقد اشتد

---

١ – كان الامبراطور البيزنطي قد اعتقد بأن شراءه تلك البقية الباقية من امارة الرها سيتيح له التوسع في الاطراف الشرقية من مملكته ، لكنه سرعان ما تم التحالف بين مسعود سلطان سلاجقة الروم ، وزوج ابنته نور الدين محمود ، وتمرتاش الارتقي صاحب ماردين ، على اقتسام تلك المنطقة، فاستولى كل منهم على قسم منها، وذلك قبل مضي عام واحد على شرائها من قبل الامبراطور .

٢ – كان الاسماعيليون ينقمون على نور الدين انه ابطل من الأذان «حي على خير العمل» ومنع التظاهر بسب الصحابة ، ويتحينون الفرص للقضاء عليه (انظر النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٨٢) .

٣ – هو عم صلاح الدين الايوبي كما سيرى في الفصول الآتية .

Chroniques du Michel, T III, p. 289 – ٤

التنافس بين امبراطور بيزنطية وملك بيت المقدس على رعاية كونستانس ارملة ريمون دى بواتيه التي آلت اليها امارة انطاكية ، فبـادر الأول الى خطبتها لأمير من اقربائه ، بينما عقد الثاني مجمعاً في طرابلس بحضور كونستانس ضم قادة الصليبيين لاستعراض اسماء الأشخاص الطامحين الى الزواج منها ، امـا هي فقد رفضت جميع هؤلاء ، كما اعتذرت من عمانوئيل الأول عن الزواج من قريبه ، واختارت فارساً جميلاً هو رينو دى شاتيون (ارناط) الذي عقد له عليها سنة ٥٤٨ هـ ١١٥٣ م .

وحكمت كونستانس انطاكية باعتبارها وصية على ابنهـا بوهيمند الثالث ، وكان زوجها رينو دى شاتيون يشاركها في الحكم ، وقد ادت اعماله المعادية للدولة البيزنطية الى غضب الامبراطور عمانوئيـل الاول ، ولا سيما حين تعرض لرجـال الدين الارثوذكس في انطاكية وقبرص وأطراف آسية الصغرى في حملات متعددة قام بها ضد الممتلكات البيزنطية ، وقد « افاضت المراجع فيما فعله بأهل قبرص من قتل وتخريب ، حتى انه جدع انوف رجال الكنيسة وصلم آذانهم وقطع ألسنتهم امعاناً في التشفي والانتقام [١] » ، فخرج الامبراطور سنة ٥٥٣ هـ ١١٥٨ م لتأديبه في جيش لجب بعث الذعر في قلبي الزوجين الطائشين ، فأرسلا يستنجدان ببلدوين الثالث ، ولكن ملك بيت المقدس تردد في انجادهما ، ولم يجد رينو دى شاتيون سبيلاً لأنقاذ نفسه من الأسر او القتل فيما لو اشتبك مع الجيش البيزنطي في القتال سوى ان يعلن خضوعه لعاهل بيزنطية ويلتمس منه العفو والغفران ، فخرج الى المصيصة حيث عسكر الجيش البيزنطي ، حافياً حاسر الرأس ، وركع امامه خاضعاً ، وقبل يده مستغفراً ، معلناً قبوله ان يكون تابعاً اقطاعياً للأمبراطور ، مبدياً استعداده لخلع

---

١ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٥١ .

البطريرك الكاثوليكي في انطاكية وتنصيب بطريرك ارثوذكسي [1] مكانه ، ويضيف الدكتور اسد رستم ان رينو رضي بتسليم قلعة انطاكية للعاهل البيزنطي [2] .

ويبدو ان هذا الاستسلام الصليبي او بالأحرى الكاثوليكي امام عاهل بيزنطية ، اي امام الارثوذكسية ، الذي شهدته كما يقول وليم الصوري وفود عديدة بينها وفد من قبل نور الدين محمود وآخر من قبل الخليفة العبـــاسي [3] ، لم يرق لبلدوين الثالث ، فشخص من بيت المقدس الى المصيصة ، ودخل فسطاط عمانوئيل الأول وهو ممتط جواده ، فاستقبله عمانوئيل مرحباً ، وبادره بلدوين بالدعوة الى التكاتف بين الدولة البيزنطية والامارات الصليبية في وجه نور الدين ومطامحه الخطرة .

الا ان الامبراطور البيزنطي قد خيب آمال بلدوين والصليبيين جميعاً ، إذ ما لبث اثناء اقامته في انطاكية محاطاً بكل مظاهر العظمة والمجد ، ان عقد في جمادي الأولى سنة ٥٧٤ ١١٥٩ م حلفاً مـــع نور الدين ، وارسل اليه الهدايا النفيسة من الجواهر والخيول وأثواب الحرير والديباج . وبالرغم من القوة التي يتمتع بها الملك العادل فانه « آثر الصلح مع مانويل حتى لا يجعل مملكته بين عدوين [4] » وبادر الى اطلاق سراح ستة آلاف

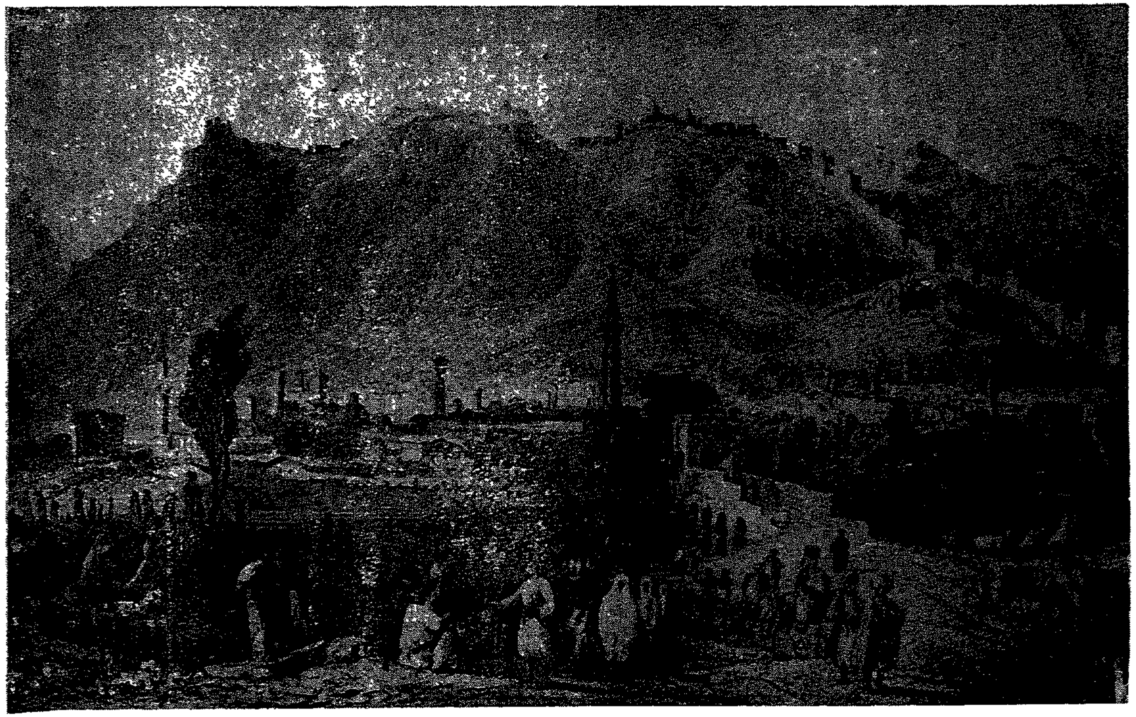
---

١ – شغل البطريرك الارثوذكسي اثناس الثاني كرسي انطاكية من سنة ١١٦٥ الى سنة ١١٧١ ، وقد أغضب ذلك رجال الدين الكاثوليك وأثار فتنة وقلقاً لدى عامة الصليبيين استمرا طوال تلك الفترة ـ انظر Michel Le Syrien, pp. 326 — 332

٢ – الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٥٢ .

٣ – Guillaume de Tyr, p. 860 .

٤ – نور الدين والصليبيون ص ٨٦ .



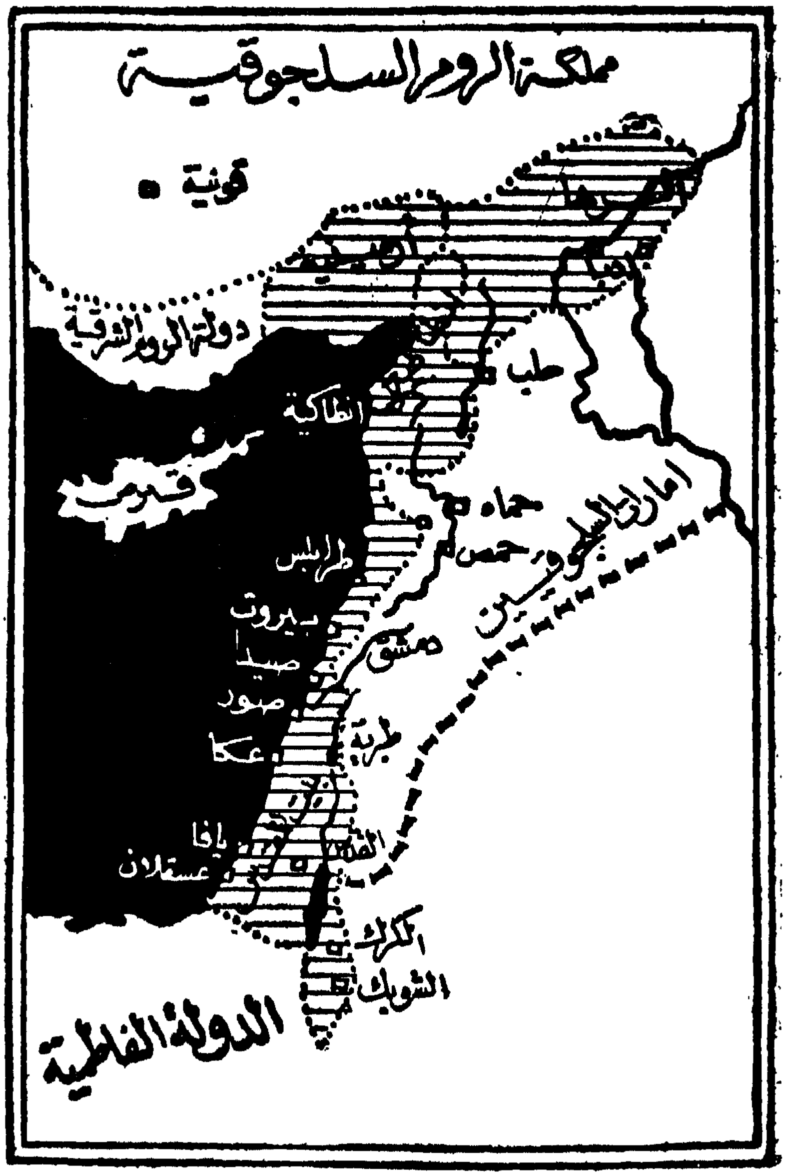
انطاكية في عهد الحروب الصليبية ، عن لوحة قديمة

من اسرى الافرنج [1] . أما عمانوئيل فكان « يجري على السياسة التقليدية التي رمت دائماً الى توازن القوتين الاسلامية والصليبية في الشام ، بحيث لا تطغى احداهما على الأخرى طغياناً يهدد مصالح الامبراطورية البيزنطية ومطامعها [2] » ، ولا شك كما يقول الدكتور سعيد عاشور : « ان تجارب الامبراطورية البيزنطية مع الصليبيين علّمت اباطرة القسطنطينية أن الصليبيين عدو خطير للامبراطورية ، وانهم لا يتجهون اليها الا في أوقات الحاجة والشدة [3] » ويرى شالاندون ان امبراطور الروم وجد نور الدين خير كابح لجماح اللاتينيين الذين كانوا يرغبون بالاعتراف بسلطانه حينما يتهددهم خطر من الشرق . وعلى هذا الاساس قرر الامبراطور عدم محاربة نور الدين . وعلى كل حال فقد عقدت هدنة بين الفريقين ، واصبح نور الدين متحرراً من مشاغله فسار الى مكة لاداء فريضة الحج التي كان ينوي القيام بها منذ سنوات [4] .

يقول الدكتور حسن حبشي : « وقد كان معنى الاتفاق بين نور الدين ومانويل كومنين اطلاق يد المسلمين في الأعمال الصليبية ومكايدة صليبيي الشام ، ولعل الاتفاق قد تم بينهما على ان يقوم سلطان حلب ودمشق بمراقبة شاتيون نيابة عن الامبراطور . ومن الدليل على ذلك انه حدث ان علم رينو بوجود عدد من الماشية والأغنام لبعض المسلمين فيما بين مرعش ودلوك من اعمال امارة الرها ، فقام في نوفمبر ١١٦٠ م وخرج في شرذمة ضئيلة للاستيلاء عليها ، وقد تربص مجد الدين بن الداية

---

١ – الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٥٣ .
٢ – نور الدين والصليبيون ص ٨٧ .
٣ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٧٦ استناداً الى Runciman : Hist. of the Crusades, T 2, p 355
٤ – دراسات اسلامية ص ١١٦ .



الامارات الصليبية وما جاورها

عامل نور الدين على حلب لرينو في الطريق وهاجمه وأحاط بـه وبمن معه ، واستطاع اخذه اسيراً حيث بقي في سجن حلب الى سنة ١١٨٦ م ، اي الى مـا بعد موت نور الدين ، دون ان يتحرك الامبراطور بحركة ما لانقاذ تابعه الاقطاعي ، وهكذا ادت رعونة شاتيون الى جلب الخطر على نفسه وعلى الامارة المنكوبة به ، إذ اوقع البلاد في يد الوصية ، لا سيا وان ابنها بوهيمند الثالث لم يزل غلاماً حدثاً لا يستطيع ان يأخذ مقاليد الأمور في يديه او يدبر شؤون الامارة كما ينبغي . وعند ذلك خشي بلدوين الثالث ان يُقدم نور الدين على ضرب إمارة انطاكية والاستيلاء عليها بعد ان تمكن من اسر اميرها وإذلاله ، كما انه خشي تدخل مانويل في امورها بحجة تعيين من يقوم مقام شاتيون ، ولذا ذهب بلدوين الى بيت المقدس وجعل الوصاية في يـدي البطريرك ايمري ليمجوس [1] » .

ورأى الملك العادل ان مهاجمة انطاكية وقـد غدت في حماية بلدوين الثالث ، ستؤلب عليه القوى الافرنجية كلها ، فتخلى عن ذلك منتظراً حتى توفي بلدوين الثالث واعتزم شقيقه أموري الاول (امالريك) الذي خلفه في الملك القيام بحملة على مصر ، وخرج في تلك الحملة على رأس جيش لجب ، كي ينهض بدوره للجهاد في شمال سورية ، بعد ان دعـا سائر الامراء لمؤازرته في تلك المهمة ، واتجه سنة ٥٦٠ هـ ١١٦٤ م بتلك القوات الكثيفة الى حارم المؤدية الى انطاكية ، فسرى الذعر في القوات الافرنجية بامارة انطاكية والامارات الحالفة لها ، وتنادى قادتهـا الى الدفاع عن انفسهم دفاع المستميت ، وخرجوا للقـاء نور الدين يتقدمهم بوهيمند الثالث الأمير الشاب .

---

١ – نور الدين والصليبيون ص ٨٧ – ٨٨ .

ولما بلغت انباء الزحف النوري قسطنطين كولمان حاكم قليقية البيزنطي ، اعتبر الهجوم على انطاكية اعتداء على الدولة البيزنطية التي اعترف رينو دى شاتيون بتابعيته لها ، فسار الى ملاقاة نور الدين في حارم ، فانكفأ هذا الى ارتاح ، وظن بوهيمند ان نور الدين قد تهيب منازلته فلحق به للقضاء عليه ، ونصحه قواده بألا يفعل ذلك ، ولكنه أصر على مطاردة نور الدين ليهزمه ويسحق جيوشه ، واذا بالقوات الاسلامية ترتد عليه شمال شرقي حارم قرب بلدة عم ، فتأسره وتأسر معه عامل بيزنطية على ارمينية وريموند الثالث امير طرابلس ، وتنزل بالقوات الافرنجية هزيمة منكرة ، ثم تنقض على حارم فتستولي عليها وتصبح الطريق الى انطاكية ممهدة امامها خالية من كل عائق .

ولكن على الرغم من ذلك ، ومع ان اموري الأول كان ما يزال في مصر ، فان الملك العادل لم يشأ متابعة الطريق الى انطاكية لاحتلالها ، منتهزاً فقدان العائق وغياب العدو ، لأنه كان على يقين بأن أموري لن يلبث حتى ينجد انطاكية ، ولأنه كان يتجنب تحالف الصليبيين والبيزنطيين لقتاله ، وقد التفت الى من معه من الأمراء والقواد الذين كانوا يزينون له متابعة الزحف المظفر قائلاً : «...اما المدينة فأمرها سهل ، واما القلعة فمنيعة ، وربما سلموها الى ملك الروم ، ومجاورة بيمند احبّ اليّ من مجاورة صاحب قسطنطينية [1] » .

والواقع ان اموري ما لبث ان عاد من مصر وشخص لفوره الى انطاكية بعد ان ضم اليه قوات كونت فلاندرز اخي زوجته ، واخذ يراسل نور الدين بشأن الاسرى ، فبادر الملك العادل الى اطلاق سراح

---

١ - الكامل ج ١١ ص ١٣٦ .

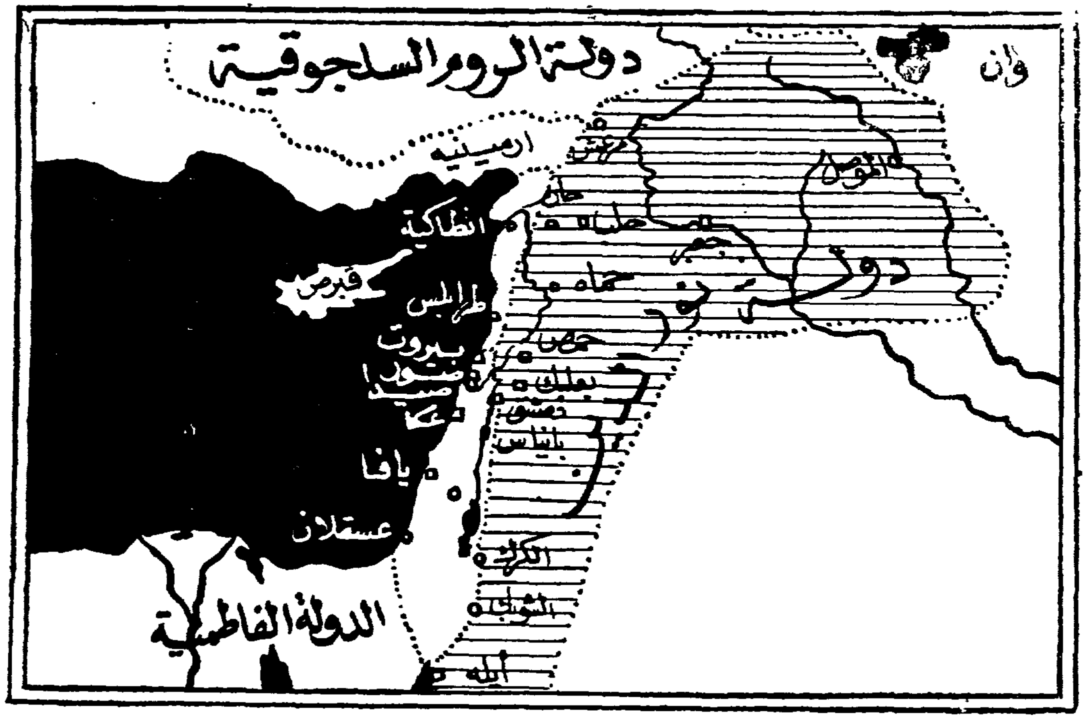
بوهيمند الثالث لأن بقاءه اميراً على انطاكية اخف وطأة من وصاية اموري على الامارة . غير ان بوهيمند كان على يقين بأن نور الدين لم يوقف زحفه عند ابواب انطاكية ، ولم يبادر الى اطلاق سراح الأمير الشاب ، الا تجنباً لاغضاب امبراطور بيزنطية ، ورغبة في مهادنتـــه ومواداعته ، بدليل ان رينو دى شاتيون الذى غاضب الامبراطور ظل يرسف في قيود الأسر . على ان الدكتور اسد رستم يذهب الى ان عمانوئيل وليس اموري هو الذي تدخل لدى نور الدين لاطلاق سراح الأمير الشاب [1] . ومهما يكن من امر فان بوهيمند الثالث ما كاد يستعيد حريته حتى نهد الى القسطنطينية كي يعرب للعاهل عن شكره وخضوعه ، ويربط مصير امارته بالدولة البيزنطية ، وقد ساعدت على ذلك العلاقة الودية التي نشأت بينه وبين الاميرة تيودورا ابنة اخي الامبراطور ، وكان من نتائـــج هذا التقارب ان بوهيمند الثالث اسند الزعامة الدينية في انطاكية الى البطريرك الارثوذكسي اثنـاس الثاني الرومي الملكاني ، وان البطريرك الكاثوليكي ليمجوس غادر انطاكية غاضباً .

ذلك هو الموقف الذي اتخذه نور الدين من امارتي الرها وانطاكية ، اما طرابلس فقد كان له مع اميرها حادث طريف رواه بروكلمان بقوله : « استشعر ريمونـــد قومص (كونت) طرابلس ، الخطر يتهدده من حصن عريمة الذي في حوزة القومص برتراند دى تولوز ، فاستعدى عليه كلا من نور الدين ومعين الدين اللذين هرعا لنجدته ، فدكت جيوشهما حصن عريمة دكاً ، وحملت ريموند اسيراً الى حلب [2] » ولعل نجـــدة نور الدين لأمير طرابلس واسره لخصمه ، هي التي اقامت بين

---

١ – الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٥٣ .

٢ – تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢٢١ .



دولة نور الدين وما جاورها

الرجلين تلك الهدنة الطويلة . وقد قتل ريموند بأيدي جماعة من الباطنية الاسماعيلية وتولت زوجته هوديرن شؤون الامارة من بعده باعتبارها وصية على ولدها ريموند الثاني الذي كان يوم مصرع والده في الحادية عشرة من عمره ، ومن المؤرخين من يتهم هوديرن بأن لها يداً في مقتل زوجها [١] .

بيد ان موقف الملك العادل من مملكة بيت المقدس كان يتميز بالدقة والحذر ، لأنه كان يخشى إن هو ابتدرها بهجوم مباشر ان تتألب عليه القوات الصليبية والبيزنطية جميعاً ، وان تجتاح الدول الاوربية موجة حماسية جديدة تتجسد في حملة عدوانية ثالثة . وكانت ابرز مواقعه مع بلدوين الثالث ، المعركة التي خاضها لاستخلاص حصن بانياس سنة ٥٥٢ هـ ١١٥٧ م وكان في يد همفري (الهنفري) وهو من القلاع الاستراتيجية الحصينة ، فزحف اليه وشدد الضغط على حاميته ، فهرع بلدوين لنجدة صاحبه وانقذ الحصن من السقوط ، الا ان نور الدين ما لبث ان تصدى له وهو في طريق عودته الى القدس فهزمه واسر طائفة كبيرة من قادة جيشه وفرسانه المشهورين ، وهرب بلدوين الى قلعة صفد واختبأ فيها عدة ايام ثم خلص منها الى عكا فبيت المقدس ، بينما جدد نور الدين هجومه على حصن بانياس ، فتألبت عليه القوات الصليبية من كل مكان وردته عنه .

وفي تلك السنة نفسها تعرضت بلاد الشام لعدد من الزلازل ، ونشبت فتنة طائفية أثارها الشيعة في حلب مطالبين « باعادة رسمهم في الأذان :

---

١ — Guillaume de Tyr, T I, pp. 789 — 792 ، انظر ايضاً : الجنة في ظلال السيوف لجاماتي ص ٦٣ — ٧١ .

« حيَّ على خير العمل ، محمد وعلي خير البشر »[١] وساءت صحة نور الدين حتى حُمل الى قلعة حلب على محفة وهو في حالة تدعو الى القلق ، وأوصى بأن يخلفه اخوه نصرة الدين في حلب وبأن يكون اسد الدين شيركوه نائباً له في دمشق[٢] ، وقد قلقت من جراء ذلك النفوس وجزعت القلوب واضطربت الأعمال ، فحاول بلدوين الافادة من هذا الوضع ، وهاجم حصن شيزر بالتعاون مع امراء انطاكية وطرابلس وقيليقية ، ولم يكن هذا الحصن قد دخل بعد في طاعة نور الدين ، فانتهز الملك العادل هذه الفرصة حين شفي من مرضه واستولى على الحصن وصد العدوان الصليبي عنه . وكان بلدوين يتوهم بان الاسماعيليين في تلك المنطقة سيناصرونه ويحاربون الى جانبه لما بينهم وبين نور الدين من عداء مستحكم بسبب تعصبه لمذهبه السني ، ولكنهم أخلفوا ظنه وقاوموا عدوانه مقاومة ضارية[٣] .

ويروى انه لما بلغ نعي الملك بلدوين مسامع القادة المسلمين ، وهم يعدون العدة لغارات جديدة ، عقدوا مجلساً للمداولة فيما بينهم ، وقالوا لنور الدين : « اننا نستعد لمهاجمة ميناء عسقلان التي هي من المملكة بمثابة الرئة من الجسد . فالفرصة سانحة الآن للقيام بهجوم خاطف على المدينة ، ثم لمواصلة الزحف نحو الموانيء الأخرى ونحو بيت المقدس والحصون الجبلية ، للاستيلاء عليها قبل ان تجف دموع الصليبيين ، وقبل ان يصحوا من ذهولهم ، فلنضربهم ضربة قاضية وهم في هذه الحالة من التضعضع والضعف . ان حزنهم وحدادهم حليفان لنا في هذه الحرب ! »

---

١ – نور الدين والصليبيون ص ٩٧ .
٢ – كتاب الروضتين ج ١ ص ١٠٩ .
٣ – ذيل تاريخ دمشق ٣٤٩ .

فلم يشاطرهم نور الدين الرأي ، وقال لهم : « ان مهاجمة الصليبيين وهم على هذه الحالة من الخور والقلق ، عمل لا يليق بي وبكم ، بل يلحق بنا جميعاً وصمة عار لن تمحوها الأيام المقبلة . فلو فعلنا لكان هجومنا عليهم أشبه بعمل فارس جبان يجهز على خصم سقط عن جواده مثخناً بالجراح ! ان اعداءنا لا يقوون اليوم على الدفاع عن أنفسهم ، وقد احاط قوادهم بجثة مليكهم يبكونه ويترحمون عليه ، وعندما يصبحون من جديد قادرين على الدفاع سنهاجم ونخرجهم من ارض نعدّها ملكاً لنا ، ونرفع عليها اعلامنا . اما اليوم ، فانني سأبعث اليهم بوفد من ابطالنا ، لا للتحدي ولكن للتعزية ! » وما لبث ان ارسل الى القدس وفداً من خيرة فرسانه فقابل الملكة الأرملة [1] معزياً اياها بوفاة العاهل الراحل ، وقدم إليها رسول نور الدين عقداً ثميناً كان الامبراطور البيزنطي قد ارسله هدية لها فوقع في يد نور الدين مع غنائم أخرى فحزنت على ضياعه كثيراً ، وأكد لها الرسول ان نور الدين لن يشرع في وجوه الصليبيين سلاحاً ، ولن يهاجم لهم قلاعاً ، ولن يعترض قوافلهم ورسلهم في السهول والجبال ، ما دامت مملكة القدس بلا ملك وما دامت جيوشها بلا قائد ، فتأثرت الملكة الحزينة لشهامة نور الدين وبعثت اليه مع رسوله منديلها الحريري مبللاً بدموعها اعترافاً بجميله ومروءته [2] .

أما النزاع بين نور الدين وأموري خليفة بلدوين الثالث ، فقد تجلى في تنافس العاهلين على مصر وتسابقهما الى احتلالها ، كما سترى في فصل

---

١ – هي الاميرة البيزنطية تيودورا وكانت قد زفت الى بلدوين الثالث سنة ٥٥٣ هـ ١١٥٨م وهي في الثالثة عشرة من عمرها ، وقد بلغت يوم وفاة زوجها سن السابعة عشرة .

٢ – الجنة في ظلال السيوف لحبيب جاماتي ص ٧٥ – ٧٧ .



الملكة تيودورا ورسول نور الدين

مقبل . ذلك ان احتلال اموري لعسقلان ، واحتلال نور الدين لدمشق ، فتح امام كل منهما الطريق الى القاهرة ، فضلاً عن ان الخلافة الفاطمية كانت تمر بدور الاحتضار ، وكان كل منهما يخشى ان يؤدي سقوطها الى احتلال خصمه لمصر فيحاول ان يسبقه اليها .

وصفوة القول ان مهمة الملك العادل قد اقتصرت على توحيد الدويلات الاسلامية المتاخمة للصليبيين في مملكة قوية كبرى باتت تؤلف سداً منيعاً في وجه العدوان الفرنجي ، وتقي الشرق العربي شر الحملات الأجنبية التي كانت تتدفق عليه كالسيل الهادر ، الا انها لم تتعد ذلك ، برغم معاركه الجانبية الكثيرة مـــع الصليبيين ، الى مهاجمة الغزاة في الأراضي التي يحتلونها ، والعمل على تحريرها من قبضتهم ، تاركاً هذه المهمة المجيدة لبطل آخر كمل سيرة نور الدين وحقق ما عجز عنه .

ذلك البطل الذي تمخض به الشرق العربي ، في تلك الفترة العصيبة من التاريخ ، هو صلاح الدين الأيوبي الذي نشأ في كنف نور الدين ، فقبس من هديه ، وتثقف في مدرسته ، وما كاد يبلغ سن الشباب حتى لمع اسمه ونبه شأنه وأصبح رجل الشرق وبطل المسلمين .

الجزء الثاني

عهد صلاح الدين

● كان صلاح الدين الأيوبي أعظم رجال عصره ، وفريد دهره شجاعة وبسالة وشهامة .

الامبراطور غليوم

● ولقد كان صلاح الدين شريف النفس ، هماماً وشجاعاً ، حليماً ورحيماً ، وفياً وكريماً ، طاهر القلب ناصع الحياة ، وهو بحق مثال البطولة في الاسلام .

ستانلي لينبول

● كان صلاح الدين نبأ في الشرق العربي ، وما زلنا نستعيد ذكرياتنا عن حروبه فنحس الفخر والعزة والشرف .

سلامة موسى

الفصل السابع

مولد في الشدائد

في ليلة داجية من شتاء سنة ٥٣٢ ﻫ ١١٣٧ م ، وفي برية مقفرة ليس فيها اي اثر لانسان او حيوان او نبات ، كان يسري رجلان طويلا القامة شديدا البأس ، يتبعهما بضع نساء واطفال ، ودابة هزيلة أبهظها ما تحمل من اثاث ، واجهدها طول السرى في ذلك الطريق الوعر ، يجرها شيخ بدين كأنه مثال للرضى والقناعة والصبر العجيب .

كان احد هؤلاء الرجلين ، وهو اطولهما قامة واكبرهما سناً ، يدعى نجم الدين ايوب ، واما الثاني ، وهو اكثر امتلاء وأوفر قوة ، فيدعى اسد الدين شيركوه ، وكلاهما ولد شادي بن مروان احد زعماء الأكراد في دوين ، وهي بلدة في اطراف اذربيجان من جهة ايران وبلاد الكرج على ما قال ابن خلكان [١] . وكانت الاقدار قد حملت هذا الزعيم من

---

١ – وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٧٠ – ٤٧١ ،ومن المؤرخين من يرجع باسرة صلاح الدين الى أصل عربي ، لأن قبائل العرب كانت تنزل عند الأكراد وتتزوج منهم ، وهم يذهبون الى ان هذه الاسرة من نسل المروانيين فرع بني امية،مستدلين على ذلك بأن صلاح الدين هو يوسف ابن نجم الدين ايوب بن شادي (او شاذي) بن مروان الكردي ، وان ربط هذه الاسرة =

بلاده الى بغداد ، فرحب به حاكمها بهروز لصداقة قديمة بينهما ، واقطعه قلعة تكريت القائمة بين بغداد والموصل ، ولما مات "عهد" بالقلعة الى ابنه نجم الدين وجعله حاكماً لها فظل على ذلك اعواماً طويلة .

ثم اخذ بهروز يتنكر لنجم الدين شيئاً فشيئاً ، حتى بلغه ان اخاه أسد الدين شيركوه قد قتل احد الضباط لملاحاة جرت بينهما ، وان المدينة ثائرة على الحاكم وأخيه ، فأرسل اليه يأمره بتسليم القلعة الى عامل آخر والخروج مع اهله من تكريت .

وكان نجم الدين قد ألف القلعة وصارت اشبه بوطن له ، فعظم عليه الخروج منها شريداً طريداً ، ناهيك بما في ذلك من خزي وعار . وبينا هو يطيل التفكير في امره ، ورسول بهروز لم يبارح مجلسه بعد ، إذا برسول آخر يقبل من بيته ويبلغه ان زوجه تبشره بانها قد وضعت غلاماً ، وانها سمته كما اتفقا : يوسف صلاح الدين . فتشاءم الرجل من هذا الاتفاق ، وتطيّر بالوليد الصغير . ثم ما لبث ان التفت الى اخيه وقال له :

– اني خارج منذ الآن متستراً بجنح الظلام ، كي لا اشمت بي الناس في وضح النهار .

= بمروان الكردي لا يقصد به اتصالها بجد حقيقي عرف بهذا الاسم ، اكثر مما يقصد به الى انها من سلالة مروان بن محمد آخر الامويين الذي كانت امه كردية (انظر : الناصر صلاح الدين الايوبي للدكتور عبد المنعم ماجد ص ٤٤ ووفيات الاعيان ج ٣ ص ٤٧٠ – ٤٧١ والكامل ج ٤ ص ٣٢٢ والخطط للمقريزي ج ٣ ص ٣٧٨) ويقول ابن خلكان انه اطلع على كتب كثيرة باوقاف واملاك هذه الاسرة فلم يجد لها جداً بعد شادي ، أما المقريزي فيرى ان نسبة صلاح الدين الى أصل عربي هو من اقوال الفقهاء الذين ارادوا التقرب منه والحظوة لديه ، والذي نرجح ان اسرة صلاح الدين كردية الاصل وقد استعربت يوم نزلت الى العراق ١٢ استعرب كثير غيرها من الأسر الكردية والتركية والفارسية في مختلف أنحاء الوطن العربي .



مولد بطل في ليلة عابسة

ونهض فنهض اخوه ، وسار فتبعه . وما هي الا ساعة حتى كانا خارج القلعة مع نسائهما واولادهما ، وشيخ نصراني من بغداد كان يكتب لهما ، واخذوا يضربون على غير هدى في جوف الليل .

ظلت القافلة الصغيرة تتابع السرى حتى بلغت بقعة من الارض لا يميزها وسط تلك القفار سوى عدد من اشجار النخيل . وكان الصبح يوشك ان يطلع ، وقد مسح بيده عتمة الليل ، فأخذت الأشياء يتميز بعضها عن بعض . فوقف نجم الدين يفكر ، ووقف اخوه الى جانبه منكس الرأس مثقل الضمير ، لا يجرؤ ان يرفع اليه عيناً ، لاعتقاده بانه سبب الكارثة التي حلت باخيه ، واذا بالوليد الصغير ينفجر باكياً على يدي امه ، فازداد نجم الدين حنقاً وتطيراً ، وهمّ في ثورة غضبه أن يبطش به ، ليريح نفسه من عبئه ويريحه من حياة ليس من يدري اين تفضي بها هذه البداية المخوفة ، فصرخت الام باكية متوسلة ، وهرع نحوه اخوه مهدئاً من روعه ، وأمسك كاتبه النصراني بيده وهو يقول له بصوت متضرع شفيق :

– الا ناشدتك الله ان تستبقيه ، فهو طفل ليس له ذنب ولا يعرف ما انت فيه من كدرٍ وغم ، ولعل الله جاعل له شأناً ..

فأجاب الأب الحانق : وأي شأن عساه يكون له ؟ الا ترى انه نذير شؤم وبؤس ؟.. ألا ترى في اي يوم جاء ؟.. فما عسى ينتظره من الحياة وما عساني انتظر منه ؟

فقال الشيخ : رويدك يا نجم .. اشفق عليه وعلى نفسك ، فلعل فيه الخير وانتم لا تعلمون !..

وانه لحائر لا يدري أيتجه الى يمين ام الى يسار ، وهل ينكفىء

صوب الشمال ام يضرب في البادية نحو الجنوب ، اذ أضاء في ظلمة حيرته ويأسه شعاع من امل : لماذا لا يذهب الى عماد الدين زنكي ؟ لقد جاءه هذا الرجل منذ سنوات في ليلة تشبه هذه الليلة بجوها العاصف وظلمتها الداجية ، وفي حالة تشبه حالته الآن بقلقها العنيف وحيرتها الطاغية ، وكان قد سار بجيشه لمظاهرة السلطان مسعود على الخليفة المسترشد فانهزم في المعركة التي خاضها ، وارتد راجعاً الى الموصل ، ومر في طريقه بتكريت ، وهو وفلول جيشه المهزوم على حال مروعة من اليأس والاعياء والجوع ، فلاذوا بنجم الدين ووضعوا مصيرهم بين يديه ، ان شاء ابقى على حياتهم وساعدهم على متابعة طريق العودة الى بلدهم ، وان شاء اسرهم وقضى عليهم ، فآثر المكرمة والمعروف ، وآواهم وموّنهم ، ثم ساعدهم على اجتياز دجلة بما اعطاهم من قوارب وبما وفر لهم من سبل النجاة ، بالرغم مما في ذلك من تحد للخليفة وتعرض للخطر [1] . ولا ريب في ان عماد الدين يذكر له هذه اليد ويعرف له تلك الصنيعة [2] ، ويود لو يجزيه على جميله خير الجزاء . فلماذا لا يلجأ اليه وهو اليوم أحوج ما يكون الى المعين والناصر .

وقد صدق ظن نجم الدين ايوب ، فانه ما كاد يبلغ وأخوه الموصل حتى احسن صاحبها عماد الدين زنكي وفادتهما ، واكرم مثواهما ، وأقطعهما ارضاً يعيشان فيها .

---

١ – مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل ج ١ ص ٨ .

٢ – عاد عماد الدين الى مركزه في الموصل حينما قتل السلطان مسعود الخليفة المسترشد في ١٦ ذي القعدة سنة ٥٢٩ هـ ٢٨ آب (اغسطس) ١١٣٥ م وخلفه ابنه الراشد بالله . والراجح ان الباطنيين هم الذين اغتالوا المسترشد وهو اسير في معسكر مسعود (انظر مختصر تاريخ العرب ص ٢٩٤ والنظم الاسلامية ص ٩٨ والفخري ص ٢٧١) .

وقابل الأخوان هذه المكرمة بما تستحقه من عرفان الجميل ، فخدما في جيش عماد الدين ، وأخلصا له الخدمة ، واحرزا انتصارات عديدة زادت في حبه لهما وتقديره اياهما ، فلما سقطت بعلبك في يده سنة ٥٣٤ ه (١١٣٩ م) عهد بادارتها الى نجم الدين [١]

وحين توفي عماد الدين زنكي ، وآل ملكه الى ولديه الأرشدين ، هبت دمشق التي كانت في ايدي اسرة توغتكين ، لاسترجاع بعلبك من ابنه نور الدين . وأدرك نجم الدين ايوب ان هذه المدينة لا بد من ان تسقط في ايدي الدمشقيين لضعف حاميتها ، فسلمهم اياها مقابل تعهدهم باقطاعه عشر قرى في جوار دمشق [٢] . وما لبث ان رحل الى هذه المدينة فأقام فيها والتحق بخدمة ايبك اكبر اولاد توغتكين . وما زال هذا يقربه منه ويجازيه على خدماته حتى جعله قائد قواد الشام . بينما بقي اخوه اسد الدين شيركوه في خدمة نور الدين فكان سيفاً من سيوفه ، ما عهد اليه بغزو الا كان النصر على يديه ، وأبدى من ضروب الاخلاص والشجاعة ما جعله قائداً لقوّاد حلب .

وكان مُلك نور الدين يتسع ، ونفوذه يتعاظم ، حتى طمع بضم الشام الى إمارته ووجه اليها في اواخر سنة ٥٤٧ ه ١١٥٤ م جيشاً بقيادة شيركوه ، واقبل أسد الدين بجيشه اللجب فحاصر دمشق ، ووقف اخوه نجم الدين ايوب على رأس جيش توغتكين مدافعاً عنها .

وحار الاخوان فيما يصنعان . وكانت تساور نجم الدين عواطف قوية متضاربة ، فهو لا يريد ان يحارب اخاه ويخشى ان يصيبه من هذه الحرب

---

١ – وفيات الاعيان ج ٣ ص ٤٧٤ وخطط المقريزي ج ٣ ص ٣٧٨ .
٢ – الكامل ج ٩ ص ١٦ .



صلاح الدين في شبابه كما تخيله أحد الفنانين

سوء ، ثم ان الجيش الذي يقوده اخوه هو جيش نور الدين بن عماد الدين زنكي الذي احسن اليه لما هاجر من تكريت واكرم مثواه ، وهو الى ذلك على يقين من ان جيش دمشق اضعف من ان يثبت في وجه الجيش المهاجم الى النهاية .

وما لبث ان عمد الى مفاوضة اخيه على ابرام الصلح بينهما ، واستمرت هذه المفاوضة ستة ايام انتهت بتسليم دمشق [1] وانتقالها الى يد اقوى امير في سورية عهد ذاك . وعرف هذا الأمير لنجم الدين ايوب حسن مسعاه فعينه حاكما لدمشق ، وأدناه من مجلسه حتى اصبح من اخص المقربين اليه .

وحياة صلاح الدين في هذه الحقبة يحيط بها الغموض ، لم تعرف تفاصيلها على وجه التدقيق . ويذهب بعض المؤرخين الى انه كان خلالها شاباً ناسكاً بلغ من تقاه انه كان ينزوي في اركان المساجد وزوايا البيوت . والراجح انهم يبالغون في ذلك بعض الشيء ، مدفوعين بالرغبة في التوفيق بين حياة صلاح الدين في مراحلها المختلفة ، او ليرفعوه فوق حياة الناس العادية .

وفي وسعنا ان نتخيل حياة صلاح الدين في هذه الحقبة فنراه يدرج في المغاني الفيحاء والبساتين المطردة بين بعلبك ودمشق ، محاطاً بعناية موفورة ، متمتعاً برغد العيش ، ثم نراه يختلف الى كتاتيب دمشق فيتلقى العلوم والآداب المعروفة في ذلك العهد ، ولا بد من ان نرافقه الى فلواتها الفيح وسهولها الممتدة على تخوم البادية العربية حيث مَرِنَ على ركوب الخيل ولعب الكرة [2] والقنص ومنازلة الابطال وغير ذلك من اعمال

---

١ – خطط المقريزي ج ٣ ص ٣٧٨ .

٢ – يذهب الاستاذ جمال الدين الشيال الى ان صلاح الدين كان امهر اللاعبين بالكرة والصولجان بين جنود نور الدين وقواده ، وان نور الدين كان يحب هذه اللعبة ويتقنها ولا يغلبه فيها الا صلاح الدين ، ولذلك كثيراً ما كان يدعوه ليشاركه اللعب (انظر : مصر والشام بين دولتين ص ٤٧) .

الفروسية التي برع فيها ؛ وربما شهدناه بين حين وآخر في مجلس من مجالس الأدب والظرف او في حلقات الجامع الاموي يستمع الى محاضرات عبدالله بن عصرون ، فلا ريب في انه قد عرف هذا كله وخبره خبرة طويلة ، وعرف كبار القادة والفرسان وعايشهم وتأثر بهم ، كما تأثر بشخصية نور الدين الفذة التي افتتن بها كل من احاط به وعرفه من الكبراء والشعراء واهل العلم والرأي ، حتى اكتملت له تلك الرجولة الفارمة والشخصية الجليلة ، وتوافرت له صفات الفروسية العربية من شجاعة وشهامة ونبل ومروءة اكثر مما توافرت لأي فارس من فرسان العرب والمسلمين .

اما ابن شداد الذي رافق صلاح الدين وكانت ترجمته له اوسع التراجم العربية القديمة ، فهو يجمل حياته في هذه الحقبة بقوله : « واتفق لوالده الانتقال الى الشام ، ثم اعطي بعلبك وأقام بها في خدمة والده يتربى تحت حجره ويرتضع ثدي محاسن أخلاقه ، حتى بدت منه امارات السعادة ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة ، فقدمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى ، وعوّل عليه ونظر اليه وقربه وخصصه ، ولم يزل كلما تقدم قدماً تبدو منه اسباب تقضي تقديمه الى ما هو أعلى منه [1] » .

---

١ – النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٥ .

الفصل الثامن

صراع على أرض الكنانة

كانت الخلافة الفاطمية المتهالكة في مصر تسير نحو الانهيار شأن الخلافة العباسية العجوز في العراق . وقد شاع الانحلال في الخلفاء لانغماسهم في المتارف ، فاكتفوا بما يتمتعون به من رغد العيش ، وتركوا حكم البلاد الى خدمهم ومواليهم ، فجعل هؤلاء الموالي يقبضون على أزمة الامور ويستأثرون بها ، حتى اصبح السلطان الحقيقي في ايديهم . وغدا الخليفة الفاطمي في القاهرة وهو على عرشه الباذخ ، كزميله العباسي في بغداد ، طيفاً من الوهم لا يملك من الوجود الا لقب الخلافة :

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

وباتت الدولة من الضعف بحيث كان يسهل على اي مُغير فتحها والاستيلاء عليها من غير عناء . ولم يكن بقاؤها في ايدي الفاطميين الا لفقدان الفاتحين الاقوياء فيما يجاورهم من البلدان ، لأن السلاجقة كانوا قد ضعفوا هم ايضاً لانقسامهم وتفرقهم . اما الفرنجة في القدس ، فكان الفاطميون يسدون افواههم بالذهب فيدفعون به شرهم عن مصر .

على ان وادي النيل كان قد اصبح مطمح انظار الفرنجة منذ استيلائهم

على عسقلان التي كانت القاعدة التي تخرج منهـــا القوات الفاطمية لغزو المواقع الصليبية القريبة في جنوب فلسطين [١] ، قبل ان تنحدر الخلافة الفاطمية الى بؤرة من المؤامرات والانقلابات والدسائس لا يتورع الاب فيها عن قتل ابنه [٢] .

كما غدا مطمح انظار نور الدين محمود الذي اتسع ملكه وقوي نفوذه بعد استيلائه على دمشق وانتصـاره على الفرنجة في عدة معارك نشبت بينه وبينهم . وكان كل من نور الدين وحـــكام الفرنجة ، يرى في الاستيلاء على مصر سبيلاً لترجيح كفته على الآخر في ميزان القـــوى والحروب في الشرق الاوسط ، ويعدّ العدة لاقتحامها والظفر بها .

وكان طبيعياً ان يتنازع امراء الدولة الفاطمية وقوادها على منصب الوزارة ، وقد غدا المنصب الاول في الدولة ، لما لصاحبه من نفوذ على الخليفة نفسه [٣] . وكان هذا النزاع الداخـــلي يمزق مصر ويشتت قوى

---

١ – قام الفاطميون بعدة حملات برية وبحرية على المواقع الصليبية لعل اهمها تلك التي جرت في عهد الوزير الافضل بن بدر الجمالي ، قبل ان تمزق مصر الحروب الاهلية والمؤامرات الداخلية.

٢ – قتل الخليفة الفاطمي الحافظ ابنه حـين علم انه يتآمر عليه فدس له السم ليتخلص منه :النجوم الزاهرة ج٥ ص ٢٤٤ – ٢٤٥

٣ – بدأ تسلط الوزراء الفاطميين في عهد الخليفة المستنصر بالله حين اشتدت الفتن وكثرت المجاعات – بعد فترة ازدهار امتد سلطان الفاطميين خلالها على بلاد الشام والموصل وفلسطـين والحجاز وصقلية وشمالي افريقية – حتى تزعزع مركز الخلافة الفاطمية واوشكت على الزوال ، فلجأ الى واليه في عكا بدر الجمالي لانقاذ العرش المهدد، فأقبل بدر الى مصر سنة ٤٦٧ هـ : ١٠٧٠م، وقبض على زمام الامور بيد من حديد ، وغدا رئيس الدولة الفعلي أو ما عرف بوزير التفويض، وقد جاء في سجل تولية بدر : وقد قلدك امير المؤمنين جميـع جوامع تدبيره ، وناط بك النظر في كل مـــا وراء سريره (انظر : الخطط المقريزية ج ٢ ص ٣٠٤ ، تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٦٩ و ٢٧٩)

شعبها ، والفرنجة على الحدود يزدادون كل يوم قوة وملكاً .

وقد شهدت سنة ٥٥٧ هـ ١١٦٢ م صراعاً عنيفاً على هذا المنصب بين اميرين عنيدين ، اولهما ابو شجاع شاور بن مجير السعدي الذي كان والياً على اعمال الصعيد ، فخافه الخليفة لتعاظم نفوذه فأمر بعزله ، فاذا به يجمع الجموع ويزحف الى القاهرة فيحتل قصر العادل ويقتله ، ويتولى الوزارة مكانه في ولاية العاضد الذي تولى الخلافة وهو لا يتجاوز التاسعة من عمره [1] ، وكان يومذاك دون العشرين عاماً . وثانيهما ابو الاشبال ضرغام بن سواد ويلقب بالمنصور ، وقد انشأ ينازع شاور فظهر امره وعلت كلمته ، حتى استولى على الوزارة ، وارغم شاور على الهرب ، فانطلق من مصر الى الشام يستنجد بنور الدين ويتعهد له بثلث خراج مصر [2] وبأن يكون نائبه فيها [3] ويتصرف على امره ونهيه واختياره [4] ، إن هو أنجده وأمده بجيش لاستعادة منصبه ، بينما لجأ ضرغام الى اموري الاول ملك الدولة اللاتينية في القدس ، فعقد معه حلفاً ، وطلب منه ارسال جيوشه الى مصر ، وكانت هذه الجيوش

---

١ – تولى الفائز بنصر الله الخلافة وهو في سن الرابعة وحكم بين سنتي ٥٤٩ – ٥٥٥ هـ ١١٥٤ – ١١٦٠ م ، والسبب في ذلك ان اختيار الخليفة الفاطمي لم يكن يتم بمبايعة الامة الاسلامية ، كما هي الحال في اختيار الخلفاء السنيين ، ولكن بما عرف بالتنصيص أو النص ، لأن الامام هو الذي ينص على من يخلفه ، وليس لهذا النص نظام معين، فقد يكون تحريرياً او شفوياً أو حتى بالتلميح بالعطف ، كما انه ليس ثمة شروط خاصة بعمر الامام أو حالته الجسمية والنفسية كما في تقاليد السنة ، غير ارادة الامام التي هي في اعتقادهم من ارادة الله (انظر فصل الامامة في كتاب « نظم الفاطميين ورسومهم في مصر » للدكتور عبد المنعم ماجد)

٢ – الكامل ج ١١ ص ١٣٣

٣ – النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٤٦

٤ – كتاب الروضتين ج ١ ص ١٣٠

الافرنجية قد اقبلت لافتتاحها منذ امــد يسير ثم ارتدت عنها لأن ضرغام قطع الجسور ، وكان النيل مرتفعاً ، فأغرق البـــلاد من ناحية بلبيس التي اقبلوا منها [١] .

الا ان بعض المؤرخين ينزهون ضرغام من جريمة الاستغاثة بالفرنج ، ويذهبون الى ان الخليفة العاضد هو الذي اشار بذلك فأباه ضرغــام ، فلما لم يجد عنده ما يريد ، رأى ان يستقل من ورائه بتدبير ما يراه، فعرض الامر على دهاقين السياسة في القصر ، ويقــال لهم الاستاذون ، وهؤلاء هم الذين يحفظون اسرار السياسة التي يجري عليهـــا القصر منذ زمن قديم ويتوارثونها استاذاً عن استاذ ، وهم دائماً موضع ثقة الخليفة، لا يقطع في امر دون مشورتهم ، ولا يتصرف في شـــأن من الشؤون العامة إلا بعد موافقتهم ، وبفضل هؤلاء اطردت سياسة القصر منــذ عهد الحاكم بامر الله الذي كان أمة وحده ، على ســنن واحد لا يختلف الا باختلاف الظروف والاحوال ، على تعاقب الخلفاء الذين يجلسون على العرش ، واختلافهم في الكفاية والسن ، فقـــد كان بعضهم أطفالاً لم يبلغوا الحلم او لم يصلوا الى سن الرشد ، وهذا العاضد نفسه كان عمره حين ولي الخلافة دون العاشرة ولم يزل حتى اليوم دون العشرين ، فمـا كان في الامكان أن يبدي ما ابدى من الدهاء وبُعد النظر ، وسعـــة الحيلة والبراعة في تدبير الامور وإحكام الخطط ، وفي التلاعب بأقــدار الرجال — لو لم يكن هؤلاء الاستاذون من ورائه يبصرّونه ويسددونه ، وكان عنده ذكاء خارق فأعانه ذلك على ان يعي عنهم من اسرار السياسة المتوارثة في القصر ما جعله وهـــو فتى دون العشرين يتصرف تصرف

---

١ — Schlumberger : Les compagnes du roi Amaury en Egypte , p. 38

الكهول بل يناطحهم دهاء وحكمة ، وكأنما كان يشعر في اعماقه بقرب نهاية حكمه وحكم اسرته ، فتجمع فيه ما تفرق من مواهب آبائه وأسلافه ، كاللمعة الاخيرة قبل انطفاء السراج !..

وبعد ان انتهى العاضد من التشاور مع دهاقينه المحنكين ، استقر رأيه على ان يكتب سراً الى الفرنج ليمنعوا نور الدين عنه ، ويكتب في الوقت نفسه الى نور الدين يستنجد به ليخلص البلاد من بغي ضرغام وطغيانه [1] . »

وقد وجد طلب شاور هوى في نفس أسد الدين شيركوه قائد قواد الشام وعمّ صلاح الدين ، وحثّ مليكه نور الدين على نجدته ، فقبل هذا بعد تردد يسير ، وكان سبب تردده ان اموري كان شديد العداوة له ومملكته تفصل بين امـلاك نور الدين ومصر ، فخاف اول الامر على جنده واتباعه لوعورة المسلك وبُعد المطلب . كما وجد اموري في تحالفه مع مصر سبباً قد يمهد له طريق الاستيلاء عليها [2]

وهكذا تسابقت جيوش نور الدين محمود وجيوش الفرنجة الى ارض

---

١ - سيرة شجاع لعلي احمد باكثير ص ٤٧ - ٤٨

٢ - سبق لابن السلام وزير الخلفة الفاطمي الظافر (٥٤٤ - ٥٤٩هـ ١١٤٩ - ١١٥٤م) ان ارسل اسامة بن منقذ في بعثة الى الشام ليطلب من نور الدين العون في غزو مدينة طبرية ، فيمنع بذلك غزو الصليبيين مصر ، وفي تلك الاثناء يسير الوزير بنفسه الى غزة وعسقلان ، وعلى الرغم من ان نور الدين لم يستجب لتلك الدعوة او انه أرجأها ريثما يمكن لنفسه في سورية ويوطد مركزه فيها ، فقد كان معنى هذا الرجاء كما يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن، تدخل نور الدين في شؤون مصر ، او على الاقل افهامه ان مصر لم تعد قادرة على ان تقف وحدها في وجه الصليبيين ، وذلك ما اتاح اخيراً الفرصة لنور الدين لغزو هذه البلاد (انظر: تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٨٢ وكتاب الاعتبار ص ٧)

الكنانة ، فكانت الاولى هي السابقة في الدخول اليها . وكان على رأس هذه الحملة أسد الدين شيركوه ، وقد اصطحب معه ابن اخيه صلاح الدين وكان يبلغ من العمر ستة وعشرين عاماً « وكان جيش اسد الدين اقل من جيش مصر عدداً وعدة ، ولكنه اقوى روحاً وأشد اقداماً ، كما كان يمتاز بشجاعة قواده [1] » وقد ابدى هذا الجيش مهـــارة كبرى وبسالة عظيمة ، فاستطاع دحر الجيوش المصرية في بلبيس والفسطاط ومحاصرة ضرغام في القاهرة (٥٦٠ هـ ١١٦٤ م) [2] .

وتختلف الروايات بشأن ضرغام ، بعضها ينسب اليه الظلم والطغيان ، وبعضها يبرئه من كل سوء ، اما الاستاذ علي احمد باكثير فيصف موقفه في حصار القاهرة بقوله :

« وقف العاضد في اول الامر يتفرج كأن الامر لا يعنيه ، لقـــد اطمأن انه باق على العرش مهما تكن النتيجة ، أليس قد كتب الى نور الدين يستغيث به هو ايضاً من طغيان ضرغام ؟ بل لعله الآن يميل الى انتصار شاور لأنه لم يفقد الأمل فيه ، كما فقده في ضرغام . هل بلغ شاور قط من الجرأة عليه بعض مـــا بلغه ضرغام ؟ ولكنه لم يجاهر بميله الى فريق شاور واسد الدين ، الا حين ايقن ان الدائرة ستدور على ضرغام !

أما ضرغام فقد أحس انه يقاتل في المعركة وحده ، فالقصر يكرهه ويضيق به ، والناس يكرهونه لظنهم انه في صف القصر ، واسد الدين

---

١ – مصر والشام بين دولتين ص ٥١

٢ – كتاب الروضتين ج ١ص ١٣٤ – ١٤٤ وفيات ، الاعيان ج٣ ص ٤٧٦

لم يستجب الى ما دعاه [1] لأنه لا يثق بغير شاور ، والجند قد انشقوا عليه كعادتهم حين يظهر في الميدان منافس جديد ، فامتلأت نفسه يأساً وتنزى قلبه ألماً ، ولكنه لم يجد بداً من المضي في القتال ، فقاتل مستبسلاً وهو يرى جنوده يتفرقون عنه ويتسللون ، ويرى الناس يلقون عليه وعلى رجاله الطوب والحجارة والماء الساخن من سطوح منازلهم ، ثم اجترأوا عليه بعد ذلك وقد تفرق عنه رجاله جميعاً « فأدركوه في الحس الاعظم بين القاهرة والفسطاط ، فأردوه عن فرسه [2] ، ثم قتلوه وقطعوا رأسه وساروا بها مهللين في شوارع القاهرة ، وهم يصرخون : هذا جزاء الخائنين [3] . .

يقول لينبول : « وهكذا كانت النهاية المحزنة لذلك السيد الشجاع المقدام ، والشاعر البطل الحسن الخَلق والخُلق ، الكامل العقل ، الجامع محاسن الرجال ، الذي كان فارس عصره ، واحسن من نَبَّل بالقوس في مصر [4] . »

وتداعى بذلك حصار المدينة ، فدخلها جند شيركوه ، وجلس شاور على سرير الوزارة المصرية ، وكتب له العاضد تفويضاً بذلك ذكر فيه انه ما اختاره الا لحنكته في السياسة والتدبير ، ودعاه الى المحافظة على الدعوة الفاطمية [5] .

---

١ — كان ضرغام قد فاوض اسد الدين على التحالف معاً لمحاربة الفرنج ولكن نور الدين كان قد وعد شاور بالمساعدة فلم يلق بالاً لرسائل ضرغام (انظر : مصر والشام بين دولتين ص ١٥ وسيرة شجاع ص ٥٧ ـ ٥٩)

٢ — سيرة شجاع ص ٦٣

٣ — صلاح الدين تأليف الدكتور مصطفى الوكيل ص ٤١

٤ — تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٩١

٥ — صبح الاعشى ج ١٠ ص ٣١٠ - ٣١٨

ولكن لم تكن الامور تستقيم لهذا الوزير وتستتب ، حتى انقلب على حلفائه ومغيثي لهفته واصحاب الفضل عليه ، فاحتال على اسد الدين شيركوه وجنده حتى جعلهم خارج القاهرة واغلق ابوابها استعداداً للحصار ، ثم امتنع عن تنفيذ الوعود التي قطعها لهم ، وارسل الى شيركوه يطلب منه العودة الى الشام ، فشق ذلك على شيركوه وامتنع عن تلبية الطلب ، وبادر الى احتلال بلبيس حيث التف من حوله عرب كنانة . ومن المؤرخين من يذهب الى انه قد تحصن بهذه المدينة عملاً بنصيحة صلاح الدين الذي تجلت عبقريته العسكرية منذ تلك المعارك التي خاضها في مصر [١] .

ولجأ شاور حينئذ الى اموري ملك الفرنجة يستنجد به ويخوفه من نور الدين إن هو تملك مصر ، وضاعف الوعود التي قطعت له في عهد ضرغام [٢] ، فاذا بالنجدة الفرنجية التي كان زعيم الدولة اللاتينية قد أعدّها لمقاومة شاور تقبل لنصرته ، وتحاصر شيركوه وجنده في بلبيس ، بعد ان عقد اموري مؤتمراً في بيت المقدس استعرض فيه وجوه الرأي مع امراء الصليبيين ؛ فاتفقت كلمتهم على ضرورة المسارعة لنجدة شاور لما في امتداد النفوذ النوري الى مصر من خطر على الوجود الفرنجي في المشرق . الا ان اموري كان يستعجل شاور في الوقت نفسه دفع ما تعهد به من نفقات الحملة ، فيتسلم منه في كل مرحلة يجتازها الف دينار حتى بلغ ما تسلمه سبعة وعشرين الفاً [٣] .

واستمر القتال بين الفريقين ، واستمر شهوراً ثلاثة ، وشيركوه ممتنع

---

١ – النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٤٧ وتاريخ العالم لهامرتن المجلد الخامس ص ١٠٨

٢ – الكامل ج ١١ ص ١٣٤

٣ – كتاب الروضتين ج١ ص ١٢٥ ومفرج الكروب ج١ ص ١٣٩

في بلبيس يغادي الفرنجة القتال ويراوحهم حتى اعيام دون ان يبلغو منه غرضاً ، وذلك بفضل مؤازرة أهلها له من الكنانية ، وبفضل صاحب رأيه صلاح الدين [1] » .

وعبثاً حاول اموري اقتحام أسوار المدينة ، بسهامه ومجانيقه اولاً ، وبالترويع والتجويع اخيراً ، فان المدينة قد صمدت ببسالة رائعة وتضامن اهلها مع جند الشام دفاعاً عن الوطن والدين ، كما كان بعض الفدائيين المصريين يتسللون من القرى القريبة الى خيام الفرنج فينزلون بهم خسائر فادحة في الارواح والاموال ثم يهربون تحت ستار الليل ، بعد ان هال الكثيرين موقف شاور وتركه اسد الدين « يقاتل الاعداء دفاعاً عن أرض مصرية ، واهل مصر واقفون يتفرجون [2] » ثم اتفق الفريقان على الصلح بأن يتخلى كل منهما عن ارض مصر . وقد اضطر اموري الى قبول الصلح والاسراع في العودة الى بلاده ، حين وافته الانباء بان نور الدين ما كاد يعلم بالحصار الذي ضربه الفرنجة حول جنده في بلبيس حتى اخذ يغير على اطراف املاكهم في بانياس وحارم والقدس غارات عنيفة مظفرة اسر في احداها جميع امراء الصليبيين الذين اشتركوا في المعركة ، كما روينا في فصل سابق ، وتعاظم هلع العاهل الصليبي حين ارسل نور الدين اعلام الفرنجة التي غنمها في تلك الغارات لتنشر على اسوار بلبيس [3] .

وغادرت جيوش الشام مصر في زهو واعتداد وتحد وكأنها تغادر المعركة وهي في اوج انتصارها . وقال ابن الأثير :

---

١ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الايوبي للدكتور نظير سعداوي ص ٨ نقلاً عن مخطوطة قلادة النحر في وفيات اعيان الدهر لابن مخرمة .

٢ – سيرة شجاع ص ١٣٨

٣ – مفرج الكروب ص ١٤٠ والخطط المقريزية ج ٢ ص ١٧٤

« حدثني من رأى اسد الدين شيركوه حين خرج من بلبيس قال : اخرج اصحابه بين يديه ، وبقي في آخرهم ، وبيده لب من حديد يحميهم ، والمسلمون والافرنج ينظرون اليه . فأتاه افرنجي من الغرباء الذين خرجوا من البحر فقال له : « أما تخاف ان يغدر بك هؤلاء المصريون والافرنج ، وقد احاطوا بك وبأصحابك ، فلا تبقى لكم بقية؟ » فقال شيركوه : « ليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما افعله . كنت والله أضع السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال ، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفني شجعانهم ، فنملك بلادهم ونهلك من بقي . والله لو اطاعني هؤلاء لخرجت اليكم من اول يوم ولكنهم امتنعوا !... [1] »

★

عاد قائد نور الدين الى دمشق ، وعاد مليك الفرنجة الى القدس ، وظلت الأماني تجيش في قلب كل منهما ، ولم ينقض وقت قصير حتى كان اسد الدين شيركوه يستعد لمهاجمة مصر بعد ان اقنع نور الدين بأنها بلا رجال تحميها [2] ، وان حكومتها قلقة على الدوام ، وان تربتها من اخصب بقاع العالم ، واتفق معه على ان محاربة مصر انما هي جهاد ديني « فهو بفتحه اياها – كما يزعم – انما يحارب عدوين للأسلام احدهما الخلافة الفاطمية وثانيهما الصليبيون ، وبذلك ينقذ الاسلام وهذا البلد – كما يدعي – من الفوضى السياسية وغيرها [3] » وقد اقر الخليفة العباسي في بغداد هذه

---

١ – الكامل ج ١١ ص ١٣٦
٢ – النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٢٩
٣ – نور الدين والصليبيون ص ١٠٩

هذه الحملة لمحو الخلافة الفاطمية [3] ، وتوحيد البلاد تحت راية بني العباس .

ومرة اخرى استنجد شاور بأموري ، وبادر ملك الفرنجة الى الزحف على مصر على رأس جيش لجب ، بغية طرد جيش نور الدين منها وتمكين أقدامه في هذه البلاد الجميلة الوافرة الثراء ، بعد ان اتفق على ذلك مع اشراف الصليبيين .

سار شيركوه الى البلاد المصرية بألفي فارس من خيرة رجال نور الدين (٥٦٢ هـ ١١٦٧ م) ، واتخذ طريق الصحراء مؤثراً مجابهة رياحها المتناوحة ورمالها السوافي على انتهاج طريق الساحل والاصطدام فيها بجيش الملك اموري . بيد ان هذا الاصطدام لم يلبث ان وقع في مصر، بعد ان عقد ملك الفرنجة مع الخليفة الفاطمي العاضد ، نزولاً عند طلب شاور ، معاهدة تقضي بأن تدفع مصر خراجاً سنوياً للقدس وتكون تحت حمايتها . وقد طلب اموري من شاور ان يتعهد بدفع اربعمائة الف دينار ثمناً لجيشه في تلك الحملة ، واصرّ على أخذ نصف المبلغ مقدماً،

---

٣ - كان ظهور الخلافة الفاطمية بالمغرب سنة ٢٩٧ هـ ٩٠٩ م على يد عبيدالله من سلالة فاطمة بنت الامام علي ، وقد تلقب بالمهدي وتسمى بأمير المؤمنين ، وعرف خلفاء الفاطميين من بعده بالعبيديين نسبة اليه ، واستولوا على مصر والشام ولم يستطيعوا الاستيلاء على بغداد للقضاء على الخلافة العباسية ، فتحول العداء بينها وبينهم الى صراع سياسي كان مسرحه في اكثر الاحيان بلاد الشام . وقد توالى على مصر من الفاطميين أحد عشر خليفة حكموا مائتي عام ونيفاً من سنة ٣٥٨ حتى ٥٦٧ هـ (٩٦٨ - ١١٧١ م) أولهم المعز لدين الله وآخرهم العاضد لدين الله ، وقد بنيت القاهرة في عهد المعز إثر افتتاح مصر على يد قائده جوهر ، وقد امر جوهر ببنائها لاستقبال المعز فيها ولتكون عاصمة للدولة الفاطمية ، وكانت الفسطاط عاصمة مصر من قبل .

فقبل شاور هذا الطلب مشترطاً الا يغادر اموري ارض مصر قبل ان يؤدي المهمة التي جاء من اجلها .

وقد وصف مؤرخو الفرنجة اللقاء التاريخي الذي تم بين الخليفة الفاطمي ورسولي ملك بيت المقدس على الشكل الطريف التالي :

« اختير هيو حاكم قيصرية وجوفري فارس المعبد رسولين من الملك اموري ، وقد سار بهم الوزير بنفسه (شاور) وجعل يقتحم بهم كل رسوم الاوضاع السرية . فسار بهم في ممرات خفية وأبواب عليها حراس من اقوياء السودان ، وكانوا يحيونهم بسيوفهم المجردة ، حتى بلغوا صحناً فسيحاً لا سقف له الا السماء وحوله اقبية قائمة على عمد من الرخام ، وكان السقف المزخرف مرصعاً بالذهب مزيناً ببديع الألوان ، وأما الأرض فكانت من الفسيفساء البديعة ، وقد أخذت تلك المناظر بعيون الفارسين اللذين لم يعتد نظرهما أن يقع على مثل هذا الجمال ، فكانا يريان هنا فوارة من الرخام تحيط بها الطيور الزاهية التي ليس مثلها في بلاد الغرب ، ثم يريان هناك انواعاً من الحيوان لا مثيل لها الا ان يصور الوانها مصور بارع ، او يخترع صورتها شاعر ماهر ، او يحلم بها حالم في عالم الخيال . وهكذا كانا يريان اشياء لا يريان مثلها في بلادهما إذ هي مما لا يوجد الا في بلاد الشرق والجنوب .

وبعد سير طويل في تعاريج وتلافيف وصلا الى مكان الدرش ، فأعلن قدومهما عدد عظيم من الحشم يلبسون حللاً بهية ، ثم تقدم الوزير خالعاً سيفه وقبل الارض ثلاث مرات كأنما يسجد لله ، ثم اعقب ذلك ان انكشفت الستائر الثقيلة فجأة وهي تلمع بما عليها من ذهب ولؤلؤ ، ولاح من خلفها الخليفة وعليه حلل وزينة تزري بما يتحلى به الملوك . فقدم اليه الوزير بخشوع الرسولين الفارسين ، وبيّن بصوت منخفض ما

كانت عليه البلاد من خطر ، وما كان من شأن صداقة ملك بيت المقدس له . وكان الخليفة شاباً اسمر اللون قد خطا الخطوات الأولى خارجاً من عهد الصبا ، فقال انه يرغب أن يوافق على معاهدة صديقه العزيز ملك بيت المقدس ، ولكنه تردد في ان يمدّ يده عندما طلب الرسول منه ان يمدّ يده دليلا على صدق عهده ، وقد غضبت حاشيته من ذلك الطلب ، غير ان الخليفة مد يده بعد قليل الى السيرهيو ، ولكن هذا وجد عليها قفازاً فقال : « مولاي ان الحق لا غطاء له ، وان كل شيء مكشوف في عهود الامراء » فتبسم الخليفة برغمه وخلع قفاره كارهاً ، ثم مد يده الى هيو وحلف اليمين على انفاذ المعاهدة بصدق واخلاص [1] »

وما هي الا ايام حتى ذاع نبأ وصول اسد الدين « ففرح الناس بهذ النبأ وإن اشفقوا ان تكون هذه النجدة من نور الدين قد وصلت متأخرة بعد ما تمكن الفرنج من العاصمة وتوثق التعاون بينهم وبين شاور [2] » .

★

عسكر جيش الشام في الجيزة بالقاهرة على الضفة اليسرى من النيل وعسكر جيش الفرنجة على الضفة اليمنى ، بحيث كان كل منهما على مرأى البصر من عدوه لا يفصلها سوى الماء [3] « وكأن هذا النهر العظيم

---

١ — صلاح الدين الايوبي تأليف محمد فريد ابو حديد ص ٦٨ - ٦٩ نقلاً عن ستانلي لينبول

٢ — سيرة شجاع ص ١٠٢

٣ — نور الدين والصليبيون ص ١١١

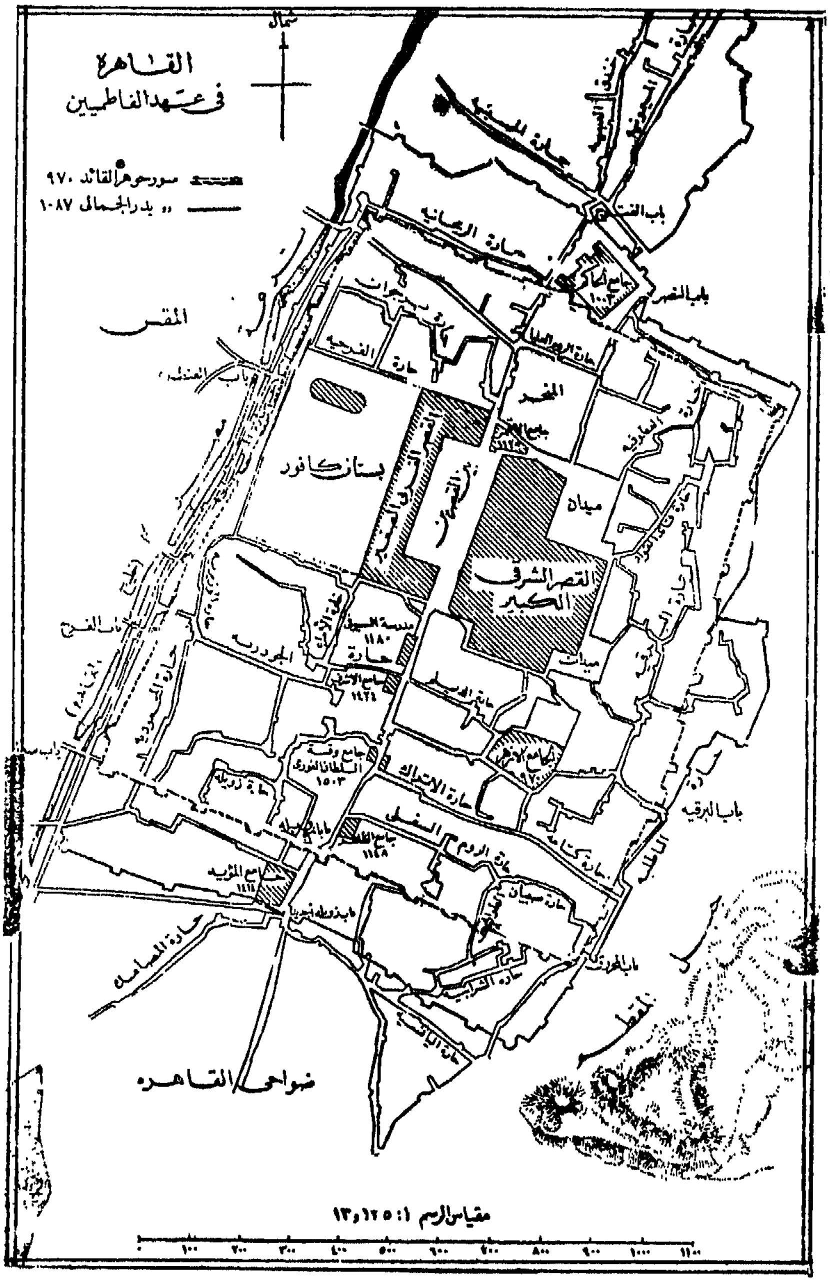
باعتراضه بينهم ، وفصله بين جند الحق وجند الباطل ، قد أراد أن يشهد الله ويشهد الناس ويشهد التاريخ الى اي الفريقين انحاز شاور بجند مصر[1] ».

ويبدو ان أسد الدين قد هالته كثرة جند العدو ووفرة استعداده ، فاجتمع بقادة جيشه وتداول الامر معهم ، فأشار بعضهم بوجوب المبادرة بالرحيل الى الشام ، ولكن القادة المقربين منه هاجموا هذا الرأي وأصروا على وجوب القتال[2] ، ثم اجمعت الكلمة على ضرورة الصمود والاستماتة في مواجهة العدو فاما نصر مؤزر او شهادة كريمة .

بيد ان أسد الدين اراد ان يبذل مسعى أخيراً لكسب شاور الى جانبه ، والحيلولة دون اراقة دماء المسلمين بأيدي المسلمين ، فأرسل اليه كتاباً يدعوه فيه الى التعاون معه للقضاء على العدو الباغي ، ومما جاء في هذا الكتاب :

« انا احلف لك بالله الذي لا إله الا هو ، وبكل يمين يثق بها المسلم من اخيه ، انني لا اقيم ببلاد مصر ، ولا اعاود اليها ابداً ، ولا امكـّن أحداً من التعرض اليها ، ومن عارضك فيها كنت معك إلباً عليه ، وما اؤمل منك الا نصر الاسلام فقط ، وهو أن العدو وقد حصل بهذه البلاد والنجدة عنه بعيدة ، وخلاصُه عسر ، وأريد منك ان نجتمع أنا وانت عليه . وننتهز فيه الفرصة التي قد امكنت ، والغنيمة التي قد كتبت ، فنستأصل شأفته ، ونخمد ثائرته ، وما اظن به يعود ويتفق للأسلام مثل هذه الغنيمة ابداً[3] » .

١ — سيرة شجاع ص ١٠٣
٢ — الكامل ج ١١ ص ١٠٥ – ١٢٦
٣ — كتاب الروضتين ج١ ص ١٦٨


القاهرة
في عهد الفاطميين
شمال
سور جوهر القائد ٩٧٠
,, بدر الجمالي ١٠٨٧
المقس
بستان كافور
القصر الشرقي الكبير
ميدان
حارة الريحانية
باب النصر
باب البرقية
حارة زويلة
جامع المؤيد
ضواحي القاهرة
مقياس الرسم

ولكن جواب شاور كان اشنع جواب يمكن ان يخطر على بال ، إذ عمد الى قتل الرسول الذي يحمل الكتاب وابلغ الصليبيين ما جاء فيه ، وأخذ ملك الفرنج وشاور « يستعدان للقاء اسد الدين ، ويرتبان جنودهما ، ويعدان العُدد ، ويدبران الخطط ، متعارنين متكافلين كأنهما فريق واحد[1] » فثار اسد الدين حينذاك وثار من معه من فرسان المسلمين ، وقرروا خوض المعركة والاستماتة فيها ، وعمد اموري الى اقامة جسر ليعبر عليه وجنده ، فاستعد لهم جيش الشام ، ولكن حالت دون التحام الفريقين عاصفة هوجاء أرغمت الصليبيين على الالتجاء الى احدى الجزر ، فانتهز شيركوه الفرصة ورحل بجيشه الى الجنوب ، ثم لحق به الجيشان الصليبي والفاطمي ، والتحم الفريقان عند « البابين » .

وقد عمد أسد الدين الى تقسيم جيشه الى يمنة ويسرة وقلب « وجعل الاثقال في القلب وعليه صلاح الدين ابن اخيه ، وامره ان لا يصدقهم في القتال ، بل يتظاهر بالانهزام حتى يعبر اموري فيتبعه . واما اسد الدين فقد اختار جماعة ممن يثق بصدق عزيمتهم وصبرهم في اللقاء ، ووقف بينهم في الميمنة ، والتحم الخصمان ، وكر الصليبيون على قلب العسكر النوري ، وصلاح الدين يتقهقر متظاهراً بالهزيمة ، حتى قام أسد الدين بمهاجمة من تخلف من عسكر الصليبيين وشاور ، وأسر العدد الجم ، ففر الباقون على وجوههم ، فكان هذا من « اعجب ما يؤرخ ، ان الفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل[2] » .

ولكن فلول الصليبيين عادت فاجتمعت بجند شاور ، وانضمت اليها نجدة وفدت بقيادة جير ان دى بوجي وكانت قد سبقتها نجدة بقيادة

---

١ — سيرة شجاع ص ٩٠٣

٢ — نور الدين والصليبيون ص ١١٤

المنفري صاحب شقيف تيرون وفليب النـابلسي ، واحتشدت جميعاً في القاهرة استعداداً للقاء جند الشام ، الا ان اسد الدين شيركوه انتقـل بجيشه الى الاسكندرية بدلاً من تعقب الفلول المهزومة ، ويقال ان اهل الاسكندرية نقمـوا على شاور استعانته بأعداء دينهم ووطنهم ، فـكاتبوا أسد الدين ، وبعثوا اليه برسالة حملها رجل يدعى الأدريسي [1] اتبعوهـا بخزانة من السلاح ، فسار الى الاسكندرية واحتلها وترك فيها ابن اخيه صلاح الدين في الف فارس [2] ، وعاد هـــو الى الصعيد ليشتت قوى اعدائه [3] ويجمع المؤن والأموال ، فانتهز الصليبيون وشاور هذه الفرصة وحاصروا الاسكندرية من البر والبحر [4] وشاركهم في هذا الحصـــار اسطول بيزة وقراصنتها ، فاشتد بذلك الضغط على سكان الاسكندرية ، وخافوا من المجاعة ، وأثرت فيهم دسائس شاور ، فشعر صـلاح الدين بالحرج ، فهو في قلة من الجند وكل ما في وسعه « ان يبث ما في نفسه من ثبات في قلوب من في المدينة من تجار وصناع وعامة ، فكان حيناً يعدهم بقدوم شيركوه بالزاد والثروة ، وحيناً يخيفهم من ايقاع الفرنج وقسوتهم ، وحيناً يرغبهم في الصبر والثبات في سبيل نصر الدين [5] » وقـــد كتب الى عمـــه يشرح له موقفه [6] فسار اسد الدين الى بركة

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ص ١٦٨

٢ – من المؤرخين من يرى ان تسليم الاسكندرية الى شيركوه راجع ايضاً الى ان أهلها كانوا من السنة الذين يكرهون التشيـع وكان كل ثائر على الخلافة الفاطمية يلتجىء اليها (انظر : الناصر صلاح الدين الايوبي للدكتور عبد المنعم ماجد ص ٤٥ استناداً الى السجلات المستنصرية)

٣ – الناصر صلاح الدين الايوبي ص ٥٤

٤ – درر التيجان ص ٣٦٧

٥ – صلاح الدين الأيوبي تأليف محمد فريد ابو حديد ص ٧١

٦ – الكامل ج ١١ ص ١٤٦

الجيش وفي عزمه ان يحتل القاهرة ، ولكنه وجد نفسه امـام مقاومة ضارية .

وقد بلغت اموري خلال ذلك انباء الحملات التي يقوم بها نور الدين على حصن المنيطرة وحصن الأكراد وحصن العريمة وحصن هونين في سائر الانحاء التي يسودها الصليبيون ، فساوره القلق على مملكته في القدس ، كما بدأ جنوده الذين طال حصارهم للاسكندرية على غير طائل ، يعلنون تذمرهم ورغبتهم في وضع حـد لهذه الحرب المجهولة النتائج . « ولكن شاور كان يرى ان الفرصة مؤاتية ، وان اسد الدين خطر عليه وعـلى حياته فلا بد أن ينزل به وبجيشه هزيمة نكراء تودي به أو تردعه فلا يعود يفكر في مصر ، فظل يماطل الفرنج ويراوغهم ويمدهم بالمال كسباً للوقت ، ولكن الملل كان قد بلغ بهم منتهاه ، كما كان الخوف عـلى بلادهم من نور الدين يملك عليهم افئدتهم ويقض مضاجعهم فلا يحسون طعم الراحة في اقامتهم في مصر ، فاضطر شاور ان يذعن ، وسارت الرسل بين المعسكرين تعرض شروط الصلح وتتناولها بالتعديل والتبديل، حتى اتفق الفريقان أن يرحلا عن مصر على أن يقدم شاور لأسد الدين جميع ما غرمه في هذه الحملة وثلاثين الف دينار اخرى ، وان يقدم ملك الفرنج لصلاح الدين السفن لتحمل الضعفاء من جنده عبر البحر الى الشام [1] » وقد رُفع الحصار عن القاهرة والاسكندرية في وقت واحد .

وغادر صلاح الدين مصر وقد تلقى فيها الكثير من الدروس والعبر ، وخاض اولى المعارك الكبيرة التي قادها منفرداً واظهر فيها ألواناً رائعة

١ – مصر والشام بين دولتين ص ١١٠ – ١٠١ ، انظر ايضاً التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي ص ١٢ – ١٣

من المهارة والشجاعة كما عاني كثيراً من الاخطـار والأهوال ، وكان اعظم ما عاناه وبعثه على التأمل في ما صار اليه وضع الشعوب العربية والاسلامية يومذاك انه قد حاربه في الاسكندرية وهو يحميها من الفرنجة جند وزير يزعم انه عربي وانه مسلم وقد كان اولى به لو صح ذلك ان يناصره ويشد ازره في مقاومة المعتدين الغاصبين ..

وقد كره صلاح الدين من اجل ذلك النزال والقتال ، وقرر الا يعود الى مصر ابداً ..

هذا ما قرره صلاح الدين وعزم أمره عليه ، اما القدر فكان يُعدّ للبطل الشاب طريقاً مغايراً مصيراً آخر ..

الفصل التاسع

فتح مصر

كان من شروط الصلح الذي عقد بين أسد الدين شيركوه وملك الفرنجة ان يكون أسد الدين هو البادىء بمغادرة الاراضي المصرية ، فلما كاد يغادرها حتى عقد اموري اتفاقاً خاصاً بينه وبين شاور يقضي ببقاء حامية صليبية في مصر ، وأن تكون أبواب العاصمة في أيدي فرسان الفرنجة لتدرأ جيوش نور الدين إن هي عاودت الهجوم ، كما اتفق الفريقان المصري والصليبي على ان يكون للصليبيين من دخل مصر مائة الف دينار في كل عام[1] .

ولكن سرعان ما تغير ما بين شاور وقادة الحامية الفرنجية في مصر ، فمالوا عنه الى العاضد منذ تردد شاور في الموافقة على ما طالب به ملكهم اموري قبل رحيله ، ولم يرحل حتى رسم لهم سياسة التقرب الى العاضد والاعتماد عليه ، ومساعدته في المستقبل على ازاحة شاور عن كرسي الحكم ليجلس عليه من يرشحه العاضد لذلك ، كما كان ديدنه من

---

١ - نور الدين والصليبيون ص ١١٧ - ١١٨

قبـــل [١] ، وكان عدد أفراد الحامية مائتين وخمسين فارساً فازدادوا الى الف ، وقد بذلوا كل جهد ولجأوا الى كل وسيلة ، لاشاعة البلبلة والفرقة في صفوف المصريين ، وركزوا مساعيهم على التفريق « بين المسلمـــين واخوانهم الأقباط ، وايثارهم بالمصالح والمنافع ، وايغار صدورهم عـــلى اخوانهم المسلمـــين ، وتذكيرهم بأنهم واياهم على دين واحد ، وان المسلمين جميعاً اعداؤهم ، وانهم قد جاءوا من بلادهم لانقـــاذ الأرض المقدسة من ايدي المسلمين ورفع لواء المسيحية في ربوع الشرق ، فعليهم ان يكونوا إلباً واحداً على اعدائهم المسلمين . ولكنهم كانوا يُقابلون ممن اتصلوا بهم من الأقباط بالاعراض والازورار ، وربما جادلهم بعضهم كما وقع من زكريا بن أبي المليح أحد وجهـــاء الاقباط وشعرائهم ، إذ تصدى لهم يوماً ، فلما حاوروه قال لهم : « نحن جميعاً مصريون ، وهؤلاء اخواننا وبلادهم بلادنا ، والدين لا يفرقنا إذ نحترم دينهم ويحترمون ديننا ، وما أنتم بأحق منا منهم ، حتى الدين لا يجمعنا وإياكم ، فان مذهبكم يختلف عن مذهبنا ، فليس يجمعنا بكم شيء [٢] . »

وكان معنى ذلك كله ان الفرنجة قد احتلوا مصر احتلالاً جزئياً ، تمهيداً لتحقيق مطامعهم في هذه البلاد الباذخة الغنى التي طالما تاقـــوا للاستيلاء عليها . وقـــد بدأ الفرسان الصليبيون المقيمون في القاهرة يكتبون الى اموري يستحثونه على العودة ، ويدعونه الى الاستعانة بملوك اوربة لفتح مصر ، ويهونون عليه أمرهـــا لما في أيديهم منها ،

---

١ — سيرة شجاع ص ١٩١

٢ — المرجع السابق ص ١٩٣ وفي الصفحات ١٩٣ ١٩٧ من هذا الكتاب امثلة مروعة عن الاساليب التي لجأ اليها الفرنج لاثارة التعصب الديني بين المسلمين والاقباط ، ومواقف رائعة من تضامن هؤلاء الاخوة في الحفاظ على وحدتهم أمام المعتدين الغاصبين .

لا سيما وانهم قد تمكنوا «من معرفة مواقع الحصون والأماكن التي يمكن أن يغزوا البلاد المصرية منها [١] »

إلا ان ملك بيت المقدس لم يشأ دعوة ملوك اوربة لما يعرف من مطامع قادتهم الى انشاء امارات خاصة بهم في الشرق ، وآثر الاستعانة بعاهل القسطنطينية ، ومهد لذلك بخطبة الاميرة ماري ابنة اخي الامبراطور في صور (٥٣٦ هـ ١١٦٧ م) وعلى اثر هذا الزواج انفق الملكان في ايلول (سبتمبر) من تلك السنة على توجيه حملة مشتركة من البيزنطيين والصليبيين لاحتلال مصر احتلالاً كاملاً ، على ان تكون رئاسة الحملة لأموري وقيادتها العسكرية لقائد الجيش البيزنطي .

بيد ان هذا الاتفاق لم يرض الفرسان الصليبيين ، لأنه يحمل اليهم شريكاً يقاسمهم خيرات مصر ، فألحوا على أموري بالشروع في الحملة منفرداً ، وعقد قادة الجند مؤتمراً قلّبوا فيه وجوه الرأي ، وشرح اموري مزايا الحملة على مصر ومضارها فقال ولعله أراد ان يعرف حقيقة ما يضمرون :

– ايها الامراء ، الرأي عندي بعد ان سمعت اقوالكم أن لا نقصد مصر فهي طعمة لنا وأموالها تساق الينا نتقوى بها على نور الدين ، وان نحن قصدناها فان صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها الينا ، ويقاتلوننا دونها ، ويحملهم الخوف منا على تسليمها لنور الدين ، ولئن أخذها نور الدين وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج واجلاؤهم من أرض الشام .

---

١ – صلاح الدين الأيوبي للدكتور جمال الدين الرمادي ص ١٧

وما كاد ينتهي من حديثه حق علت اصوات القواد والأمراء تعارضه في شدة ، وقال كبير الاسبتارية [1] :

– ايها الملك ، اننا لا نعبأ بمن في مصر من جنود ، وسيكون لنا النصر عليهم ، أما ما يرد اليك من مال مصر فهو قليل من كثير ، ولأن تحوز الكثير خير من ان تحوز القليل ، وإن انت لم تسر لملك مصر ، فوالله لنسيرنّ نحن اليها قبل ان يقصدها أسد الدين مرة اخرى [2] .

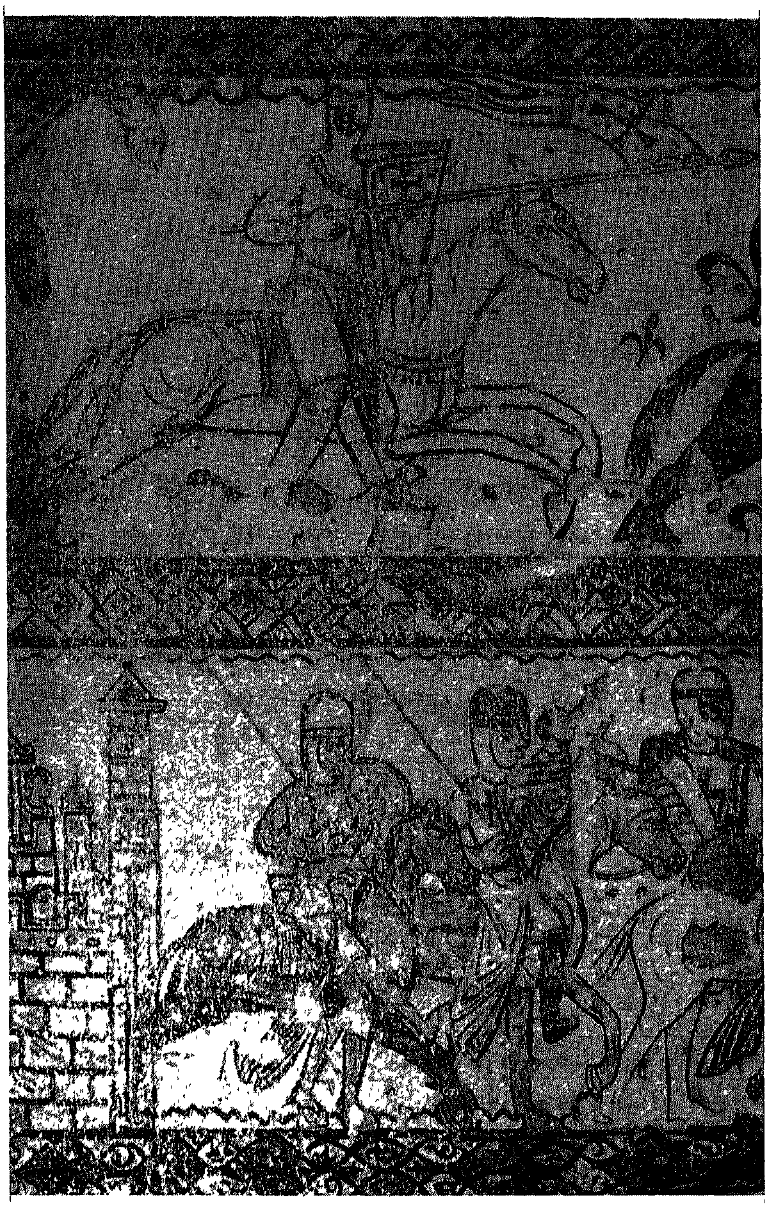
فاعلن اموري حينئذ الموافقة على ما قرره فرسانه وامراؤه ، وسار في شهر تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١١٦٨م ٥٦٤هـ) على رأس جيش ضخم ، قاصداً ارض الكنانة ، بينما اعلن انه زاحف على حمص ليشغل نور الدين عن التطلع الى مصر .

وسرعان ما أدرك شاور ان اموري لم يعد الى وادي النيل حليفاً وانما عاد عازياً فاتحاً على أسوأ ما يكون الغزة الفاتحون ، وانه قدم

---

١ – كان فرسان الصليبيين ينتمون الى منظمتين كبيرتين : فرسان المستشفى وهم فرسان القديس حنا وقد سموا كذلك لانهم نظموا فرقتهم في بدء امرهم بين رهبان مستشفى القديس حنا في القدس (ويسميهم العرب : الاسبتارية) وفرسان الهيكل وقد سموا كذلك لان بناء منظمتهم قد شيد حيث كان يقوم من قبل هيكل سليمان (ويسميهم العرب : الداوية) وقد اضاف فرسان القديس حنا الى نذورهم الدينية نذور الفروسية ، واضاف الهيكليون الى نذورهم العسكرية نذور الدين ، فتوحدت بذلك الغايتان المتخالفتان في الظاهر : غاية الراهب وغاية الفارس . وكانت هاتان المنظمتان تملكان الحصون والأساطيل ولهما حق عقد المعاهدات وجباية الضرائب . (انظر : التاريخ العام لفليب فان نس ميرص ٢٤٧ – ٢٤٨ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٣ والناصر صلاح الدين للدكتور ماجد ص ٢٩ والعلاقات بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية للدكتور النقاش ص ٣٥)

٢ – مصر والشام بين دولتين لجمال الدين الشيال ص ١٠٥



فرسان الهيكل ، عن لوحة قديمة

في عدة وعتاد لا قِبَل لمصر بها . قال بيرانت وبالميرفي كتابهما « القدس » : « سار فتيان القدس وما حولها من المدن واستولوا على بلبيس بعد مسيرة عشرة ايام في الصحراء ، في طريق قد عرفوه من قبل ، ولم يقاوم اهل بلبيس الا مقاومة ضعيفة استمرت ثلاثة ايام استولى الفرنجة عليها ، وذبحوا كل طفل وامرأة ورجل وقع في قبضتهم[1] » وكان اموري قد طلب من طي بن شاور وهو في بلبيس أن يسمح له بدخولها فقال له : « أتحسب ان بلبيس جبنة تأكلها ؟ » فأجابه : « نعم هي جبنة والقاهرة زبدة[2] !.. »

ثم اغار الافرنج على الريف يقتلون وينهبون ، لا يتركون شيئاً الا استباحوه منتقمين متشفين « ومما ضاعف حقدهم وحنقهم انهم وجدوا في هذه المرة مقاومة من الناس في كل مكان ، فصاروا يقتلون كل من بلغته ايديهم : فلم يتركوا الشيوخ ولا النساء ولا الأطفال ، وارتكبوا من الفظائع ما تقشعر له الأبدان وتنخلع له القلوب[3] . »

وقد اضطرب شاور لهذا الأمر اضطراباً عظيماً ، وأرسل الى اموري يسأله عن سبب حملته ، فاجابه ان المال الذي تدفعه مصر قليل ، فأنظره الى أجل قريب « وقرر مقاومته[4] » ، وبادر الى احراق

---

١ – حياة صلاح الدين الايوبي للدكتور احمد بيلي ص ٩١ ، انظر ايضاً : الكامل ج ١١ ص ١٥٠ – ١٥١

٢ – كتاب الروضتين ج ١ ص ١٧٠

٣ – سيرة شجاع ص ٢٠٢ ، انظر ايضاً : الفاطميون في مصر لحسن ابراهيم حسن ص ٣٠٥

٤ – الخطط المقريزية ج ٢ ص ١٤٣ وذيل النوادر ص ٢٥١

الفسطاط [1] كي لا يحتلهـا الفرنجة ، فظلت النيران متأججة فيها أربعة وخمسين يوماً [2] ثم صارت تخبو بعد ان اضحت رماداً .

وأخذ الوزير الطاغية يفكر في الاستنجـاد بنور الدين ، ولكنه لم يجرؤ على الكتابة اليه بنفسه بعد ان مكر به واخلف عهده له ، وجرّأ الافرنج على بلاده واستعداهم على قومه ، واطلعهم على خفـايا مصر وعوراتها . فكتب الخليفة الفاطمي الى نور الدين كتاباً مؤثراً « سخّم اعلاه بالمداد الاسود [3] » وأرسل معه شيئاً من شعور نسائه وقال فيه :

« هذه شعور نسائي يستغثن بك لتنقذهن من الافرنج !.. »

وما كادت استغاثة العاضد تصل الى نور الدين وهو في حلب ، حتى بادر الى اعداد حمـلة كبيرة من خيرة جنده لانقاذ مصر من المعتدين ، وكان من الطبيعي ان يسند قيادتها الى اسد الدين شيركوه وهـو أمضى

---

١ – هي العاصمة القديمة التي انشأها عمرو بن العاص لما فتح العرب مصر ، ويرى معظم المؤرخين ان احراق هذه المدينة التاريخية زلة لا تغتفر لشاور ، وأنه قد اقدم عليها إما نتيجة خطأ في التخطيط الحربي حين اعتقد بأن احراق الفسطاط هو الخطة المثلى لصد عدوه ، او قصد القضاء على القوة الشعبية التي تركزت في الفسطاط خشية ان تغلبه على امره في المستقبل أو تكون عوناً لجيش نور الدين عليه كما كانت من قبل ، وقد عانى ابناء الفسطاط في هجرتهم الى القاهرة واقامتهم فيها ألواناً مروعة من الشقاء والهول ، وقال المقريزي في وصفهم : « كأنما خرجوا من قبورهم الى الحشر لا يعبأ والد بولده ولا يلتفت أخ الى اخيه (انظر سيرة شجاع ص ٢٠٨، مصر والشام بين دولتين ص ١٣٥ ، الخطط المقريزية ج ٣ ص ٣١٤) وقد سفه اسد الدين شيركوه رأي شاور في احراق المدينة ، وأخذ يساعد اهلها ويأسو جراحهم ، ويعمل على تأمين المسكن والمؤونة لهم ، ويدعوهم للعودة الى الفسطاط وتعميرها (انظر : التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الايوبي ص ١٤)

٢ – الكامل ج ١١ ص ١٥١ وكتاب الروضتين ج ١ ص ١٥٤– ١٧٠

٣ – مصر والشام بين دولتين ص ١٢٣

سيوفه واشجع رجاله وبطل الحملتين السابقتين ، وقد اعطاه مائتي الف دينـار ، وزوده بالكثير من الثياب والدواب والأسلحة ، واعطى كل فارس معه عشرين ديناراً عدا الاعطيات المقررة له .

واراد اسد الدين ان يصطحب معه في هذه الحملة ابن اخيه فأبى وهو غافل عن الدور الذي يُعدّه له القدر والمستقبل الذي يهيئـه له التاريخ .

وروى ابن شداد ان صلاح الدين قال له : « كنت اكره النـاس للخروج في هذه الواقعة ، وما خرجت مع عمي باختياري ، وهذا معنى قوله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم [1] . »

أما تاج الدين شاهنشاه بن ايوب فقد وصف هذا الموقف التاريخي على لسان صلاح الدين بقوله :

« أمرني نور الدين بالمسير مع عمي شيركوه ، وكان قد قـال لي شيركوه بحضرته : « يا يوسف تجهز للسير » فقلت : « والله لو اعطيت ملك مصر ما سرتُ اليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية ما لا انساه ابداً » فقـال عمي لنور الدين : « لا بدّ من سيره معي ! » فأمرني نور الدين وأنا استقيل . فقال نور الدين : « لا بدّ من مسيرك مـع عمك ! » فشكوت الضائقة ، فأعطاني ما تجهزت به ، فكأنما كنت اساق الى الموت !... [2] »

وبينما جيش الشام يغذ السير في طريقه الى مَصر ، كان شاور يماطل

١ – النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٣١
٢ – ذيل النوادر ص ٢٦١ انظر ايضاً : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥٠

أموري ويرسل له الرسل والكتب ، ويفاوضه على مقادير من المـال ، وهو يطلب المزيد ، فيعده بأجابة طلبه ، ويبعث اليه بقسم منه مؤكداً له انه جاد في جمع القسم الآخر ، ويرسل جباته الى انحاء البلاد تجمع من الفلاحين المزيد من المال تحت لسع السياط ، واموري مستسلم لتلك الوعود وما تثيره في نفسه من الأحلام ، فـلا يجيب قواده وجنوده الى ما يريدون من الإسراع في الهجوم على القاهرة ، بل يزحف اليها متباطئاً منتظراً لأنه يريد الاستيلاء على كنوز مصر من اهون سبيل ، ثم يقف في ضواحيها فلا يتقدم ولا يهاجم ولا يحاصر لأن شاور قد انذره بأنه إن فعل ذلك كفّ الناس عن دفع المال ، ولا يدري انه قـد وضـع نفسه بذلك حيث أراد شاور ان يكون ، ليضعه بين نارين فيطوقه إذ تصل جيوش نور الدين ويقضي عليه .

وكان اموري يتوهم ان فتح مصر لن يقتضيه جهداً كبيراً ، ولكنه فوجىء بتلك المقاومة الضارية التي كان من بعض مظاهرها احراق المدن والقرى لئلا تسقط في يده فينتفع بخيراتها ويتنعم فيها . وكان يعتقد بأن جيش الشام لن يصل الى ارض الكنانة إلا وقد استتب الأمر له فيهـا، فيتسنى له طرد هذا الجيش منها بأيسر السبل ، فاذا بأسد الدين يصل الى القاهرة في ٧ ربيـع الثاني سنة ٥٦٤ هـ ٨ كانون الثاني (يناير) ١١٥٩م « وعدته ثمانية آلاف رجل [١] » فتفتح له ابوابها مهللة مرحبة ، وهو ما يزال ينظر اليها من وراء الحصون نظر المتلهف اليائس !..

وأدرك ملك بيت المقدس خطر مواقعـه بعـد وصول ذلك الجيش الذي كثر جمعاً وتـكامل قوة ، فبدأ بمغادرة الاراضي المصرية وهو يلوم

---

١ التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الايوبي ص ١٣

نفسه على هذه المغامرة التي افقدته مصر الى الابد بعد أن غدت او كادت تغدو محمية تابعة له .

واذا كان اموري لم ينتظر حتى يقع في الفخ الذي نصب له ، بل سارع الى مغادرة مصر منذ دخلها جيش الشام ورأى شاور يتنكر له، فانه قد خسر مصر على كل حال ، وخسرها الى الأبد ، والحقت به هزيمته العار أمام جنده وقواده وحلفائه ، لأن طمعه الذي حمله على تلك الحملة الجنونية وعلى سوء التصرف فيها ، هو الذى افضى به الى تلك النهاية الخاسرة التي افقدتهم صداقة مصر ونقلت هذه البلاد الى حكم قوي جديد .

ويذهب غليوم الصوري المؤرخ للصليبي الشهير الى ان هذا الحادث كان المعول الاول الذي هدم حكم الفرنجة في القدس ويعلق على ذلك بقوله : « ايه ايها الجشع الانساني والشره الآدمي !.. قد كانت كنوز مصر كلها تحت اقدامنا ، وكانت اسباب الامان والسلامة والهدوء متوفرة لأولئك الذين يفدون علينا من اوربة عن طريق البحر ، وكان باب التجارة مفتوحاً لمن يرغبون في ثروة مصر ، ولم يكن لنا عدو في جهاتنا الجنوبية بل كان المصريون دائبين على جلب بضائعهم وخيرات بلادهم الى اسواقنا وانفاق ذهبهم في بلادنا . على ان هذا كله قد ذهب وضاع ، بل تبدل وتغير ، فحل الحزن والشقاء محل السرور والنعمة ، واصبح البحر يأبى علينا ملاحة مطمئنة ، وصارت البلاد التي تحيط بنا تطيع عدونا ، وتسلحت كل مملكة لحربنا وتدميرنا ، وجميع هذه النتائج المحزنة السيئة انما جاءت من وراء جشع رجل واحد وطمع فرد من افرادنا [١] » .

---

١ — Guillaume de Tyr, pp.953 - 960



اموري الاول ملك بيت المقدس

لقد شاء القدر أن يدفع بالعاهل الصليبي الى تلك المغامرة الحمقاء ، لتكون فاتحة عهد جديد في تاريخ ذلك الصراع العنيف ، ينجز فيه نور الدين رسالة الوحدة بين بلدان الشرق العربي ، ويسلمها الى بطل جديد ينتقل ببلاد العرب والاسلام من طور الدفاع الى طور التحرير .

ولقد حاول شاور ان يعرقل تلك المسيرة المجيدة بدسائسه ومؤامراته حين رأى الشعب المصري يستقبل اجناد الشام استقبال المنقذين ، والخليفة الفاطمي يقرب اسد الدين ويلاطفه وينعم عليه ، والناس ينقطعون عن ديوانه ليغص بهم ديوان الأمير الجديد الذي جعل ينتزع شيئاً فشيئاً كل مظاهر الحكم والسلطان ، وحين لم يعد يسمع في كل مكان سوى تلك الدعوى التي يرى اصحابها انه خير لمصر أن يملكها العرب والمسلمون بدلاً من ان تقع في ايدي الفرنج ، فهي خير مهد لقوة عظيمة يعتز بها العرب والاسلام . ولكن القدر كان لشاور بالمرصاد ، وبعث ولداً من صلبه لفضح تلك الدسائس واحباط هاتيك المؤامرات .

فقد اراد ان يفتك بأسد الدين وقادة الجيش النوري ، خلال مأدبة يعدها لهم ، فيتخلص بذلك منهم [1] ، ويغدو جند الشام تحت إمرته ، ولكن ولده الكامل شجاع وقف في وجهه مهدداً وقال له :

– والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرّفن شيركوه !

فقال ابوه : والله لئن لم نفعل هذا لنقتلنّ جميعاً ..

فقال : صدقت ، ولئن نُقتل ونحن مسلمون ، والبلاد اسلامية ، خير من ان نُقتل وقد ملكها الفرنج ، فانه ليس بينك وبين عَوْدهم إلا ان يسمعوا بالقبض على شيركوه .. وحينئذ لو مشى العاضد بنفسه الى

---

١ – وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٧٤

نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً ، ويملك الفرنج البلاد ، وتزول دولة الاسلام !..

ثم قال : لأن يكون لنا أمير مسلم خير من أن يكون لنا صديق افرنجي ، فان هذا لا يلبث أن يصير عدواً ، أما ذاك فلا يكون الا صديقاً حميماً ومخلصاً أميناً وفياً [1] .

ويبدو ان اسد الدين قد عرف ما يبيّته له الوزير المخادع ، فسبقه الى تدبير مكيدة قضت عليه ، إذ جاء يوماً لزيارة أسد الدين في معسكره بأرض اللوق ، كعادته في مداهنته والتودد اليه ، فقيل له انه قد غادره الى ضريح الامام الشافعي ، فلحق به الى هناك والطبول والأبواق تسبق موكبه الفخم ، واذا بصلاح الدين وعز الدين جرديك يخرجان اليه ويقبضان عليه ويسوقانه الى حيث ينتظر أسد الدين .

ويقال ان اسد الدين لم يكن يرغب في قتل شاور ، وأنه نهى صلاح الدين وعز الدين عن ذلك ، ولكنه اضطر بعد تورطهما في اعتقاله الى الموافقة على خطتهما [2] ، فأبلغا الخليفة بما صنعا ، فأمر بأن يقطع رأسه . ثم تابع الرسل خشية أن يتردد القابضون عليه في قتله ، فقُتل وجيء برأسه اليه [3] . فملئت نفسه فرحاً ، وأحس كأن كابوساً كان يجثم على صدره فرفع عنه ، وشاع الخبر بين أهل القاهرة وعامة الشعب فخرجوا جماعات وتجمهروا فرحين ، يحمدون الله أن نجاهم من شر ذلك الرجل وظلمه [4] .

---

١ – الكامل ج ١١ ص ١٥٢ وكتاب الروضتين ج ١ ص ١٥٦ – ١٥٧ .
٢ – الكامل ج ١١ ص ١٦١ .
٣ – صلاح الدين للدكتور مصطفى الوكيل ص ٥٣ .
٤ – مصر والشام بين دولتين ص ١٦٩ – ١٧٠ .

إلا أن معظم المؤرخين يميلون الى الاعتقاد بان مصرع شاور انما تم بموافقة أسد الدين ونور الدين نفسه ، بعد أن عرض الخليفة العاضد على شيركوه التخلص من الوزير المستبد فهو لا يثق به ولا يطمئن اليه ، فوجوده بلاء وشر على البلد وأهله ، ومن الخير أن يقضى عليه ، على أن يستوزر الخليفة أسد الدين مكانه [1] .

وقد اعتبر نور الدين خروج الصليبيين من مصر فتحاً جديداً للبلد بعد فتح عمرو بن العاص في عهد عمر بن الخطاب ، ومنعة لسائر بلاد الشام ، وحمد الله على أن هذا الفتح قد تمّ في عهده وعلى يده [2] ، وأرسل ابن عصرون ليحمل هذه البشرى الى الخليفة العباسي ، فابتهجت بغداد مثلما ابتهجت دمشق ، وطغت عليها موجة صاخبة من الفرح والأمل ، كما ابتهجت القاهرة لهذا التلاقي بين الأشقاء المتباعدين .

أما أسد الدين فقد رحب بـه الخليفة العاضد بعد مصرع شاور ، وقلده الوزارة ، ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش . وقد جاء في وثيقة التولية :

« هذا عهد لا عهد لوزير بمثله ، من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين ، الى السيد الأجلّ المنصور سلطان الجيوش وليّ الأئمة مجير الأمة ، الأمير أبي الحارث أسد الدين شيركوه العاضدي ، عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه امير المؤمنين ، وأدام قدرته وأعلى كلمته ، سلام عليك فانه يحمد اليك الله الذي لا إله الا هو ، ويسأله

---

١ — الكامل ج ١١ ص ١٥٢ — ١٥٤ وكتاب الروضتين ج ١ ص١٧١ ومصر والشام بين دولتين ص ١٥٩ .

٢ — أتابكة الموصل ص ٢٥١ — ٢٥٢ .

أن يصلي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين ، وسلّم تسليماً ، تقلد أمانةً رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة ، وأسحب ذيل الفخـــار بأن اعتزت خدمتك الى نبوة النبوة ، واتخذه للفوز سبيلاً » .

وقد انتقل أسد الدين الى قصر شاور في دار الوزارة ، وأطلق يده في شؤون مصر ، فأقطع جنوده الاقطاعات الواسعة ، وعين على البلاد من الولاة من يثق بهم من أصحابه والمقربين اليه [1] ، وتمت له بذلك السيطرة على مصر دون عناء .

إلا أن هذا المجد الذي دان له لم يستمر سوى شهرين وخمسة أيام ، إذ ما لبث أن توفي في ٢٢ جمادي الثانيـــة سنة ٥٦٤ هـ ٢٣ آذار ١١٦٩ م ، وخلفه في منصب الوزارة يوسف صـــلاح الدين ابن أخيه ومساعده الأول وهو في سن الثانية والثلاثين .

---

١ - كتاب الروضتين ج ١ ص ١٧٤ - ١٧٥ .

الفصل العاشر

سقوط الدولة الفاطمية

اذا كانت الأحداث هي التي صاغت حياة صلاح الدين في طفولتـــه وشبابه ، ودفعت به الى معـترك النضال في مصر وهو كاره لذلـك ، ومهدت له السبيل الى بلوغ منصب الوزارة في الدولة الفاطميـة ، وهو المنصب الخطير الذي رفعه الى ذرى المجد ، وأوضح أمامه معالم الطريق ، ووضعه على قدم المساواة والمنافسة مع الخليفة العاضد في القاهرة والملك العادل في دمشق ، فان الأحداث التي تلت ذلك ، في غمرة صعاب من فوقها صعاب ، انما كانت من صنع يديه ونسج عبقريته ، بقدر ما يستطيع الرجل الفـــذ أن يُسهم في صنع الأحداث اذا عرف طبيعتها ، وسبر غورها ، وخبر وجوه الخير والشر فيهـا ، فأخـذ لكل أمر عدّته ، وأعدّ لكل موقف أهبته ، واستطاع أن يسلـك في دروب الحيـاة المتشابكة المتشعبة المسلك الذي يتلاءم وحاجات الناس ويتفق مع سير التاريخ .

وقد طمع معظم مقدمي الجيش الشامي في مصر ، بأن يخلفوا أسد الدين شيركوه في منصب الوزارة ، وهم أترابه وأقرانه الذين لا يقلون عنه معرفة في شؤون الادارة وخبرة في امور الحرب ، وكلهـم اشد

اعتداداً بنفسه من صلاح الدين ، واكثر أعواناً وأنصاراً منه ، ومع ذلك فان الخليفة العاضد لم يختر شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين ، او قطب الدين ينال المعروف بالقوة والصلف ، أو عين الدولة الباروقي وهو اكثر القادة طمعاً في المنصب الشاغر ، وانما اختار القائد الشاب دون غيره ، لاعتقاده بأنه اصغرهم سناً وأضعفهم شأناً ، فهو يستطيع أن يصطنعه لنفسه ويوحي اليه برأيه ، وقد قام في وهمه ان الفرصة قد سنحت له لاسترداد سلطانه المفقود ومجده المسلوب ، والعودة بالخلافة الفاطمية الى سابق عزها وازدهارها .

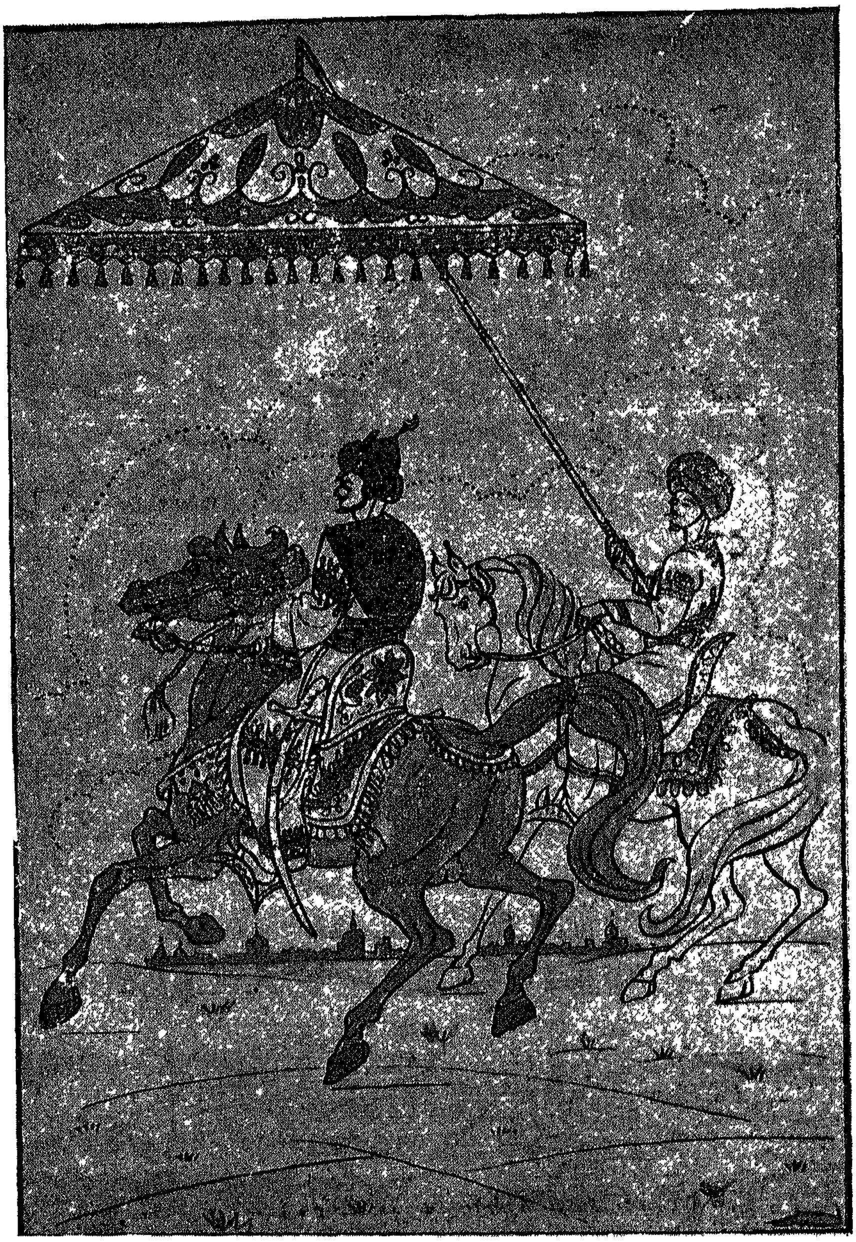
يقول ابن الأثير : « وكان الذي حمل العاضد على اختياره ، ما كان يظنه فيه من الضعف لقلة رجاله وضعف عسكره ، فظن انه اذا ولاه يكون مستضعفاً ولا يجسر على مخالفته [1] ، على ان بين المؤرخين من يعتقد بأنه لم يكن بين أمراء نور الدين من هو أقوى شخصية من صلاح الدين ، وأن العاضد قد ألزم بتوليته ، ولعل هؤلاء المؤرخين يعنون بذلك المساعي التي بذلها في هذا الشأن كل من عيسى الهكاري الفقيه الذي جمع قلوب الجند من حوله وأرضى عنه الطامعين فيه والمزاحمين له ، وبهاء الدين قراقوش الذي كان قد عين في آخر أيام اسد الدين استاذاً في القصر . ولكن المتفق عليه ان صلاح الدين لم يسع لمنصب الوزارة بل هناك من يؤكد انه قد تعفف عنه [2] ، وان كان ثمة من يرى ان تمنعه لم يكن الا أمراً ظاهراً وقد يكون الغرض منه أن يزيد العاضد ثقة واطمئناناً ، حتى اذا استوى على الأمر نفذ خطته واصلاحه الذي صمم عليه [3] .

---

١ - الكامل ج ١١ ص ١٤٥ وأتابكة الموصل ص ٢٥٥ .

٢ - مفرج الكروب ج ١ ص ١٦٩ .

٣ - أيام صلاح الدين ص ٧٨ .



الخليفة العاضد على صهوة جواده في موكبه وبجانبه حامل المظلة

وقد ألبسه العاضد حلة الوزارة في حفل كبير ، وهي جميعها بيضاء شعار الفاطميين ، وتتكوّن من عمامة لها طرف (ذؤابة) زي امراء مصر (القواد) وثوب مطرز بالذهب – لعله درّاعة وهي ثوب قصير مشقوق من أمامه ويحلى بعرى وأزرار – وجبة بطراز من الذهب ، وعقد جوهر من زي وزراء مصر ، ورداء يلقى على الكتف (طيلسان) زي القضاة الفاطميين [1] . ثم عاد في موكبه وأفراد الشعب يتبارون في اعلان فرحهم وسرورهم ، وقد انتشروا جماعات يغنون ويرقصون ويلعبون ، وهو ينثر عليهم الدراهم والدنانير ليزيدهم فرحاً ويدخل السرور على قلوبهم بعد أن ران عليها الحزن ، وطال بهم الضنك أياماً وسنين [2] .

وكانت العادة قد جرت بأن يُطلق على الوزير لقبٌ كبير يُعرف به ، فسمي الوزير الجديد « الملك الناصر ابو المظفر صلاح الدنيا والدين يوسف ابن ايوب » ولكن غلب عليه اسم السلطان دون ان يتلقب به [3] والسلطان هو لقب امثاله من القادة في بلاد الشام . وفي صبح الأعشى ان العاضد كتب اليه في طغراء العهد بالوزارة : « هذا عهد امير المؤمنين اليك ، وحجته عند الله عليك ، فاوف بعهدك ، وخذ كتاب امير المؤمنين بيمينك . ولمن مضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم احسن اسوة ، ولمن بقي بقربنا اعظم سلوة ، تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين [4] » .

---

١ – الناصر صلاح الدين الأيوبي ص ٦٠ .
٢ – مصر والشام بين دولتين ص ١٩٢ .
٣ – الناصر صلاح الدين الأيوبي ص ٦٠ .
٤ – صبح الاعشى ج ١٠ ص ٣٠٨ .

تولى الوزير الشاب ذلك المنصب الذي تحيط به الفتن ويتطلع اليـه كل امير على شيء من القوة والبأس ، على انه عبء ينهض بـه ورسالة يؤديها وليس متعة ولهواً ، وقد رأى بحكمته المشرقة وخلقه الرفيع ، ان خير ما يثبّت به دعائمَ حكمه العدلُ بين الناس فعاملهم بما عرف به من كريم السجايا ونبيل الصفات ، وكان له من كرمـه كما يقول ابن شداد ، ما أكسبه قلوبهم وما جعل الناس من كل الأرجاء يسارعون الى طاعته ، ولم يخيب رجاء قاصد له ، وبذلك نجح في اكتساب محبة الشعب له [1] ولم يتعرض لمن اعتنق المذهب الشيعي في عهد الفاطميين وقد استمر نحواً من قرنين ، واكتفى بذكر اسم نور الدين زنكي على المنابر بعد اسم العاضد ، موازناً بحكمته وكياسته بين المجاهد السني والخليفـة الفاطمي .

على ان احترام عقائد الناس شيعيين كانوا ام سنيين ، ومسيحيين ام مسلمين ، كان نزعة اصيلة في نفسه ، وسجية رفيعة من سجاياه ، فعرفت الطوائف المختلفة في عهده اقصى الحرية ، وأحبه الاقباط محبة شديدة ، حتى ليذهب احمد زكي باشا الى انهم قد وضعوا صورته في كنائسهم [2] ، ويستشهد على ذلك بأدلة كثيرة منها ان الشاعر عبد المنعم الاندلسي زار مصر في ذلك الحين فدهش لما رآه من حب القبط لصلاح الدين فنظـم قصيدة طويلة في هذا المعنى منها هذا البيت :

فحطوا بأرجاء الهياكل صورة   لك اعتقدوهـا كاعتقاد الأقانم

وقد رفع الملك الناصر المظالم عن المصريين ، وخفف اعباء الضرائب

---

١ – النوادر السلطانية ص ٣٣ .

٢ – مجلة رعمسيس ، السنة الخامسة ، العدد التاسع .

التي كانت ترهقهم ، واصدر بهذا الصدد مرسوماً قرىء على المنابر يدل دلالة واضحة على الشدة التي كان يستعملها الولاة في جباية المكوس ، ومما جاء فيه قوله : « وخرج امرنا بمسامحة اهل القاهرة ومصر ، وجميع التجار المترددين اليهما والى ساحل المقسم (المقس) والمنيـة ، بابواب المكوس ، صادرها وواردها . فيرد التاجر ويسفر ، ويغيب عن ماله ويحضر ، ويقارض ويتجر ، براً وبحراً ، مركباً وظهراً ، سراً وجهراً ، لا يُحَل ما شده ، ولا يحاول ما عنده ، ولا يُكشف ما سَتَرَه ، ولا يُسأل عمـا أورده وأصدره ، ولا يستوقف في طريقه ، ولا يشرق بريقه ، ولا يؤخذ منه طعمة ، ولا يستباح له حرمة . »

وقد اكسبت هذه السيرة السمحـة العادلة صلاح الدين محبـة الشعب وايثارهم اياه ، ولكنهـا لم تصرف عنه كيد الأمراء الموتورين والقواد الطامعين الذين ما فتئوا منذ اللحظة الاولى يتآمرون على حياتـه ، كل منهم يريد ان يقصيه عن كرسي الحكم ليحل محله فيه . وما لبث مؤتمن الخلافة جناح كبير الخصيان السود [1] ، ان خرج بفكرة التخلص منه الى حيز العمل ، فكتب الى الفرنجة بالزحف على مصر ، ووعدهم بانهم ان وصلوا وخرج صلاح الدين اليهم ، قام بجموعه فضربه من خلف ، بينا تناجزه جيوشهم وجهاً لوجه ، وفي هذا القضاء الحتم [2] .

وقد وضع مؤتمن الخلافة هذا الكتاب داخل حذاء جديد وأعطاه الى

---

١ – ورد في بعض المصادر ان اسمه « جوهر » وفي ذلـك يقول المقريزي ان فتح مصر للفاطميين كان على يد جوهر وخراب الفاطميين كان بسبب جوهر (الخطط ج ٣ ص ٤) .

٢ – يشك بعض المؤرخين في المؤامرة التي نسبت الى "جناح" ويرى ان" صلاح الدين انما تذرع بهذه التهمة للتخلص من خصومه (انظر : الناصر صلاح الدين الأيوبي ص ٦٨) .

احد رجاله لينطلق به الى مملكة الفرنجة ، فاشتبه رجل من اتباع صلاح الدين بأمر الرسول لما كان عليه من هيئة رثة وثياب بالية وهو ينتعل خفين جديدين ثمينين ، ففحص الحذاء ووجد الرسالة وسلمها الى صلاح الدين ، فتجاهل الأمر ولبث يتحين الفرص للايقاع بخصمه ، حتى خرج يوماً الى قصر له خارج القاهرة فارسل اليه من قتله .

فهاج السودان وثاروا ، وكانوا اكثر من خمسين الفاً [1] ، وكانوا اذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلوه واستباحوه . فهب صلاح الدين يردهم عن قصره بجيش يترأسه اخوه شمس الدولة توران شاه ، واجتمع الجيشان في الميدان بين القصرين ، ودارت رحى الحرب بينهما يومين كاملين . وكان الخليفة العاضد يشرف على الجيشين من احدى مناظر القصر وهو موزع القلب والعواطف ، لا يدري الى ايّ الفريقين يميل ، ولمن منهما يتمنى النصر ، وكلاهما قذى في عينيه وشجى في حلقه ، ولم يلبث ان رأى السهام والحجارة تترامى وتندفع من نوافذ القصر ، فاضطرب وخشي ان يثير هذا العداء جنود صلاح الدين ، وقد تحقق ظنه فان شمس الدولة توران شاه اثاره الغضب وأسرع فأمر احد الزراقين باحراق منظرة العاضد ، وهمّ الرجل بتنفيذ أمر قائده ، واذا بالأمير شمس الخلافة يخرج من القصر ويقول : « أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول : دونكم العبيد الكلاب فاقتلوهم او اخرجوهم من البلد ! » وكان السودانيون يهاجمون في شدة وحماسة إذ كانوا يعتقدون ، بعد ان رأوا السهام والحجارة تلقى من القصر ، ان الخليفة يؤيدهم ويشد أزرهم ، فلما سمعوا هذا القول فت في اعضادهم ، وتخاذلوا وأدبروا ،

---

١ – كثر السودانيون في الجيش الفاطمي في عهد الخليفة المستنصر لأن امه كانت نوبية (انظر : الخطط المقريزية ج ٣ ص ٣ – ٤ و ٢٩ وفصل الجيش في نظم الفاطميين) .

وانتهت المعركة بهزيمتهم ، وطارد توران شاه من بقي منهم الى الصعيد[١]، فظل الوجه القبلي من مصر طوال ست سنوات مسرحاً لفتن متواصلة يدبرها اعداء صلاح الدين من امراء الفاطميين ويذهب ضحيتها السودانيون الناقمون عليه .

وعيّن الملك الناصر مؤتمناً للخلافة جديداً من اتباعه هو بهاء الدين قراقوش[٢] ، وكان خصياً ابيض اللون قد اعتقه عمه اسد الدين ، فسيطر بذلك على حاشية القصر التي كانت تؤلف فرقة كبيرة ذات نفوذ قوي في شؤون الدولة لم يُعرف لها مثيل في قصر اسلامي من قبل ، إذ يقول المقريزي ان عددها عند سقوط دولة الفاطميين بلغ ثمانية عشر الفاً[٣] ، وهي تتكون كما يقول الدكتور عبد المنعم ماجد من موظفين من كل نوع ولون ودين ، يقومون بأعمال القصر المختلفة ، وان تميّزت بينهم طبقة من العبيد البيض والسود على السواء ، اغلبها من اصل اجنبي من الصقالبة الأوربيين او السودانيين ، خصيان وغير خصيان ، يُعرفون بالاستاذين جمع استاذ ، وهي كلمة من اصل فارسي تعني عبيد القصر . وقد كان يُشرف على هذا الجهاز الضخم في القصر رؤساء لهم يُعرفون بالاستاذين المحنكين ، لتمييزهم عن غيرهم بزي الحنك ، وهو ان يمر طرف

---

١ – الخطط المقريزية ج ٣ ص ٣ وما بعدها ، وفيات الأعيان ج ١ ص ١٧٥ – ١٧٧ الكامل ج ١١ ص ١٣٩ – ١٤٠ ، مفرج الكروب ج ١ ص ١٧٦ – ١٧٧ ، مصر والشام بين دولتين ص ٢٠٧ – ٢٠٨ .

٢ – يخلط بعض المؤرخين بين بهاء الدين قراقوش هذا وشرف الدين قراقوش الذي خدم الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وكانت حياته سلسلة مغامرات وقلاقل ومؤامرات ومذابح ألقت في قلوب الناس الهلع الذي لا تزال ذكراه باقية الى اليوم (انظر : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٠٠) .

٣ – الخطط ج ٢ ص ٣٩٦ .

العمامة تحت الحنك ليصعد من الجهة المقابلة ويلتف من جديد حول الرأس فكان هؤلاء يكوّنون الخاصة للخليفة ، ولهم نفوذ كبير ، إذ كان الواحد منهم له حق الالقب بلقب الأمير ، كما ان الخليفة والوزير يشتركان معهم – أحياناً – في لبس زيهم مما يدل على خطورة مناصبهم

ولم يكن مركز صلاح الدين من ناحية نور الدين محمود ، بأقل اضطراباً وحرجاً مما كان عليه من ناحية الأمراء الفاطميين ، فقد كان الحاكم الشاب يريد الاستقلال بمصر ، وكان نور الدين يستشعر منه ذلك ويخشاه ، فيطلب منه أن يغيّر خطبة الجمعة في المساجد ويجعلها باسم الخليفة العباسي بدل الخليفة الفاطمي ، لتكون له عليه سلطة شرعية واضحة ، فيستمهله في ذلك لأنه لا يريد اغضاب المصريين ، ويؤكد له ان اسمه يُذكر على منابر مصر مقروناً باسم الخليفة الفاطمي وتلك خطوة كبرى نحو هدفه ، فكان يأمن بذلك جانب نور الدين ، ويجمع في الوقت نفسه كلمة المصريين حوله ليكونوا عدّته في تحقيق الأحلام التي يريد .

وقد خدم الحظ صلاح الدين مرة أخرى ، بعد أن خدمه بالاستيلاء على مصر من أهون سبيل ووفاة عمه الذي وطّد له أسباب حكمها ، إذ لم يكد يخمد ثورة السودانيين ، ويتخذ ذلك مبرراً لابعاد خصومه عن مناصب الدولة واحلال قومه ورجال بيته محلهم ، حتى هب اموري ملك القدس ، وقد هاله ان يمتد ملك نور الدين الى مصر ، فاستنجد ببيزنطية « بعد ان يئس من نجدة اوربة لانشغالها بالنزاع بين البابوية

١ – الناصر صلاح الدين الأيوبي ص ٦٨ ، انظر ايضاً : نظم الفاطميين ج ٢ ص ١٠ وما بعدها .

والامبراطورية [١] » ، وزحف بجيشه الى دمياط يريد احتلالها . واتخذ الفرنجة لأنفسهم موقعاً بين البحر والمدينة ، في انتظار الاسطول البيزنطي . وكان الملك اموري قد اراد ان يغري فرسان الاسبتارية بمساندته في احتلال مصر « فأصدر بتاريخ ١١ اكتوبر سنة ١١٦٨ مرسوماً يقضي بمنح الاسبتارية جزءاً هاماً من ايراد مصر ، وصيباً كبيراً من دخل أهم المدن المصرية مثل الفسطاط وتانيس ودمياط والحلة والاسكندرية وقوص وأطفيح وأسوان والفيوم .. مما يدل على عزم اموري على الاستيلاء على مصر من ناحية ، وعلى اعتقاده في امكان تحقيق ذلك من ناحية اخرى [٢] » .

وكانت دمياط كما يقول ابن واصل « عقيلة الاسلام وثغر الديار المصرية [٣] » وعليها من جانبيها برجان بينهما سلسلة حديد عليها حرس ، ولا يخرج مركب الى البحر ولا يدخل الا باذن ، ومن قبلها خليج يأخذ من بحرها سمت القبلة الى تانيس ، وعلى سورها محارس ورباطات[٤] . فلما علم صلاح الدين بنبأ الحملة ، أنفذ الى دمياط الرجال والميرة وآلات السلاح ، عن طريق النيل ، بقيادة ابن اخيه تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين الحارمي ، فصدت قوات الفرنجة ، ولم ينفع هذه ما حملت معها من المجانيق والدبابات وآلات الحصار ، ومنها ابراج متحركة ذات سبع طبقات تجري على عجل وتغي جوانبها جلود غير مدبوغة

---

١ — Guillaume de Tyr, p. 961

٢ — الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧١١ نقلا عن : King: the Knights Hospitallers, pp. 100 - 101.

٣ — مفرج الكروب ج ١ ص ٣٧٤ .

٤ — التآصر في بلاد الروم والاسلام لمخائيل عواد ص ٣٨ .

لتقيها من النار [١] . وكان المسلمون والأقباط يداً واحدة في مدافعة المغيرين [٢] .

ثم وصل الاسطول البيزنطي الى الشواطىء المصرية وقد عانى في الطريق اليها من المصاعب ما أضعف من قوته وساعد في القضاء عليه . يضاف الى ذلك ان الخلافات عادت فتجددت فيما بين البيزنطيين والصليبيين مما أضعف قوتهم جميعاً ، وهكذا بدأ الانقسام في معسكر العدو ، فكان البادرة الأولى من بوادر الهزيمة ، والحقيقة ان كل حليف منهما كان يشك في حليفه ويخشى ان ينفرد بالهجوم ليتمكن من الاستيلاء على مصر وحده ، ولهذا أخذ الصليبيون يعملون على الاتصال بالمصريين ليفسدوا على البيزنطيين خطتهم .. وقد انتهت الحملة الى الاخفاق بعد هذا الانقسام ، وعُقد نوع من الهدنة بين الفريقين [٣] .

ويقول ستانلي لينبول : « ان زوبعة بحرية شديدة هبت فحطمت ما بقي من اسطول البيزنطيين فمات كل من كان عليها ، وطفت جثثهم على شواطىء البلاد التي كانوا قد جاءوا لفتحها [٤] » فكان شأنهم كما قال ابن الأثير كالنعامة التي خرجت تطلب قرنين فعادت بلا اذنين [٥] !..

وانما قلنا ان الحظ قد خدم صلاح الدين في هذه المرة أيضاً لأن هذه الموقعة انما كانت برهاناً قوياً على كفايته وجدارته ، فوطدت مركزه

---

١ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١٨ .

٢ – نور الدين والصليبيون ص ١٣٧ .

٣ – قصة الكفاح بين العرب والاستعمار للعريان والشيال ص ١٥ .

٤ – حياة صلاح الدين الأيوبي للبيلي ص ١٠٩ .

٥ – الكامل ج ١١ ص ١٤٧ .

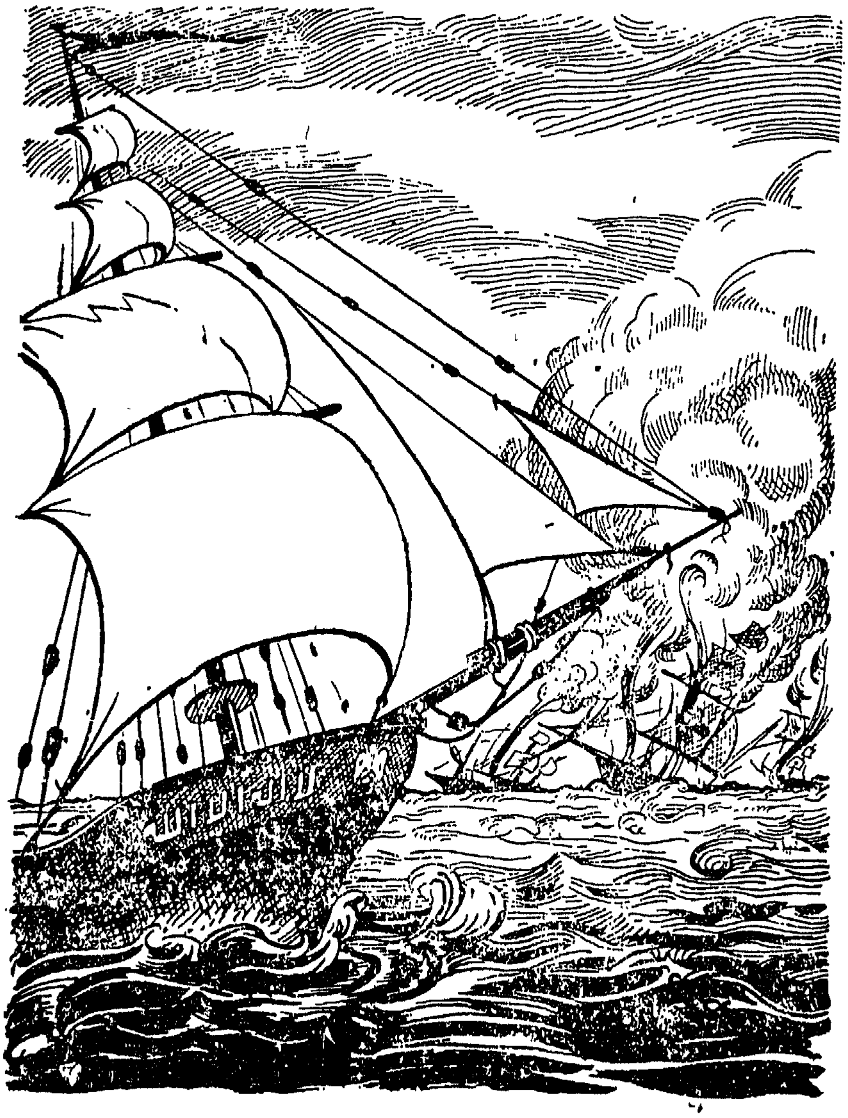
وعززت مكانته لدى المصريين ، اذ رأوه يخرج منها مكللاً بالظفر وقد رد خطر الفرنجة عن وطنهم ، ثم تعقبهم الى تخوم مملكتهم رغبة الى ازالة الخوف الذي كان يسيطر على الجنود المصريين من الافرنج . ثم استولى على مدينة العقبة مفتاح البحر الاحمر وطريق الحجاج المسلمين الى مكة [1] ، بحيث ايقنوا بأنهم سيكونون آمنين على أنفسهم وأرزاقهم في عهد هذا الوزير الباسل لقدرته على صد العدوان عن بلادهم بحكمته وشجاعته الفريدتين .

بيد أن المؤرخ المنصف لا يسعه الا أن يذكر باعجاب ما كان لنور الدين محمود من فضل كبير في المصير الذي انتهت اليه هذه الحملة الصليبية على مصر ، سواء بالنجدات العسكرية التي كان يمدّ صلاح الدين بها ارسالاً يتلو بعضها بعضاً ، أو في الحملات الضارية التي شنها على مراكز الفرنجة في بلاد الشام والحصار الذي ضربه على الكرك [2] ، وقد بلغ من اهتمامه بحصار دمياط انه حضر مجلساً دينياً وكان فيما ذكره العالم الفقيه حديث عن تبسم المؤمن ، فاستعبر نور الدين وقال : « اني لأستحيي من الله ان يراني متبسماً في حين ان المسلمين يحاصرهم الفرنجة في دمياط ! »

---

١ – يقول الدكتور نظير سعداوي ان السبب في احتلال صلاح الدين العقبة هو انه ما كاد يعود الى القاهرة من غزوته في فلسطين حتى جاءه الخبر بتلبية نور الدين رغبته في ارسال ابيه نجم الدين واهله اليه ، وبخروج القافلة بهم جميعاً من دمشق ، فخاف عليهم من الصليبين ، فخرج قاصداً العقبة وكانت بها قلعة في البحر حصنها الصليبيون عقب احتلال بلدوين لها بقصد السيطرة على طريق القوافل ، فأنشأ صلاح الدين مراكب مفصلة وحملها على الجمال ، وأرسلها من القاهرة في عسكر كبير ، وعلى مقربة من العقبة أمر بتركيب المراكب وشحنها بالمقاتلة ، وزحف بها الى القلعة براً وبحراً وما زال حتى استولى عليها وأفنى حاميتها وأسكن بها جماعة من ثقاته (التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١٩ – ٢٠)

٢ – النوادر السلطانية ص ٥٠



واذا كان لنور الدين نصيب في أمجاد معركة دمياط ، فـان للعاضد ولا شك نصيباً آخر إذ آزر صـلاح الدين في معركته وسانده في موقفه وأرسل اليه على ما قيل الف الف دينار سوى الثياب والذخيرة .

★

أراد صلاح الدين أن يتقدم بعد ذلك خطوة جديدة نحو تثبيت حكمه في مصر ، ونحو تحقيق الأحلام التي بدأت تراوده في توحيد بلاد العرب وجمع كلمة المسلمين ، فأخذ يعمل على تحويل الناس شيئاً فشيئاً عـن المذهب الشيعي الى مذهبه ، وهو مذهب السنة ، « كي يتمكن المسلمون في الشرق من توحيد صفوفهم أمام الصليبيين الذين استفادوا من هـذا التشتت [١] » فعزل قضـاة الشيعة ، وألغى مجالس الدعوة ، وأزال أصول المذهب الشيعي مثل الأذان بحي على خير العمل ، بدلاً من الأذان بحيّ على الفلاح ، وحذف من النقش الديني على العملة المتداولة بين الناس صيغة العقيدة الشيعية : « عليّ وليّ الله [٢] » .

ثم أقام قاضياً شافعياً في القاهرة فاستناب القضاة الشافعين في جميع البلاد ، وانشأ المدارس لتدريس المذاهب السنية ، وكان في القاهرة دار للشرطة تسمى دار المعونة يحبس فيهـا من يراد حبسه ، فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية ، ثم ابتنى المدرسة القمحية وجعلها خاصة بالمالكية ، وانشأ مدرسة للحنفية في دار الوزير البطائحي [٣] .

---

١ – الناصر صلاح الدين الايوبي ص ٦٢
٢ – كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٠١
٣ – الخطط المقريزية ج ٤ ص ١٩٢ - ١٩٣ ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٤ - ٥٥ ، مفرج الكروب ج ١ ص ١٩٨

وكان نور الدين ما يفتأ يلح عليه بتغيير خطبة الجمعة وجعلها باسم الخليفة العباسي المستنجد بالله اعلاناً لالغاء الخلافة الفاطمية ، ولكن صلاح الدين لم يكن يريد ان يتعجل الأمور قبل أوانها ، فظل يرجىء ذلك من شهر الى شهر ومن يوم الى آخر ، على الرغم من الحاح نور الدين [1] وعتاب الخليفة ، تجنباً لفتنة لا تعرف نتائجها [2] ، وهو في الوقت نفسه يضيّق الخناق على العاضد ، فيلغي مخصصاته ، ويحرمه من المال والخيل والرقيق ، ويمنع رسوم الخلافة وهي حفلاتها الرسمية في الأعياد وغيرها ، ويحتجز الخليفة في قصره فلا يسمح له بمغادرته الا في مناسبات قليلة منها خروجه لاستقبال نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوم جاء الى القاهرة !.. وعمد الى الخطة نفسها مع امراء الجيش ، فأخذ يحدّ من نفوذهم شيئاً فشيئاً ثم قبض عليهم في ليلة واحدة ، وأنزل اصحابه في دورهم ، وفرق اقطاعاتهم عليهم [3] .

وكان العاضد يتابع ذلك كله بقلب حزين ونفس كئيبة ، وقد خابت الآمال التي عقدها على ما توهمه من ضعف صلاح الدين ، وما ظنه خضوعاً واستكانة منه ، فاحتجب في قصره ، وانزوى في مخدعه ، فريسة للهم والمرض .

وأدرك صلاح الدين ان الفرصة باتت مؤاتية للقضاء على الدولة الفاطمية المحتضرة ، فعقد مجلساً كبيراً حضره امراء جيشه وقواده وفقهاء السنة ومتصوفوها ، وسألهم الرأي والنصيحة ، وهي بادرة تحولت فيما

---

١ - الكامل ج ١١ ص ١٤٧
٢ - النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧ ، مفرج الكروب ج ١ ص ٢٠٠
٣ - الخطط المقريزية ج ٢ ص ١٧٥ و ج ٣ ص ٣٧٩

بعد الى سنة كان يلجأ اليها كلما تشعبت به السبل أو أظلم الطريق . وقد اتفق رأي الحاضرين على اتخاذ تلك الخطوة الفاصلة في حياة البلاد ، واقترحوا ان يتولى ذلك نجم الدين ايوب حتى إذا أخفق الأب بادر الأبن الى تدارك الأمر والاعتذار عما بدر من ابيه .

وفي يوم الجمعة الأول من محرم سنة ٥٦٧ هـ ١٠ ايلول (سبتمبر) ١١٧١ م ذهب نجم الدين ايوب ومعه جماعة من اصحابه الى المسجد الجامع بالفسطاط واستدعى اليه خطيب المسجد فقال له : « إن أنت ذكرت هذا المقيم بالقصر في خطبتك ضربت عنقك ! » فشده الخطيب وعجب ، ثم سأل : « فلمن أخطب اذن ؟ » فقال نجم الدين : « لمولانا الخليفة العباسي المستضيء بالله [١] » وصعد الخطيب المنبر وقد استولت عليه الحيرة ، ونال منه الذعر . انه ان أطاع امر نجم الدين فلربما ثار به المصلون وقضوا عليه ، وان لم يطعه عرض نفسه للقتل . فألقى خطبته مضطرباً مرتبكاً على غير عادة ، وهو لا يدري ما يقول ، وأخيراً هداه الموقف الشائك الى ان دعا للائمة المهديين ثم للسلطان الملك الناصر صلاح الدين ، ونزل فصلى بالناس وهو لا يكاد يتمالك نفسه من الخوف ، فلما انفض الناس دعاه اليه نجم الدين وسأله : « لمَ لمْ تفعل كما أمرت ؟ » فقال الخطيب معتذراً : « انني لم أعرف اسم المستضيء ولا نعوته ، فاذا علمتها دعوت له في الجمعة القادمة ان شاء الله » وآثر نجم الدين العفو ، وخرج فجمع في داره جماعة من الفقهاء وطلب اليهم أن يختاروا من بينهم واحداً يتولى الخطبة للخليفة العباسي في الجمعة القادمة ، فتقدم منهم رجل موصلي كفيف البصر اسمه الأمين العالم

---

١ – كان المستضيء بالله قد خلف أباه المستنجد بالله منذ ستة شهور .

الدين بضربة حاسمة ، وغدت مصر تابعة للخلافة العباسية تبعية اسمية ، في حين اضحى صلاح الدين الأيوبي السيد المطلق فيها .

ولا ريب في ان الأحداث التي سبقت عهد صلاح الدين ، قد مهدت لسقوط الفاطميين ، إذ « أضحت البلاد من الضعف بحيث لم تعد تقوى على صد الغزوات الأجنبية ، لما سادها من الأحوال السيئة دهراً طويلاً ، وما مُنيت به من التطاحن الحزبي والمنافسات بين الوزراء الفاطميين ، حتى غدت في مركز يشابه مركزها حين فتحها الفاطميون على يد جوهر القائد [1] » .

وقد بكى الدولة الفاطمية بعض الذين تقلبوا في أعطاف نعمتها وذاقوا الخير على يديها ، كالشاعر عمارة اليمني الذي رثاها بقصيدة مؤثرة نذكر منها هذه الأبيات :

رميتَ يا دهر كفَّ المجد بالشلل وجيدَه بعد حسن الحلي بالعطل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل شقيتَ ، مهلاً ، اما تمشي على مهل؟
لهفي ولهف بني الآمال قاطبة على فجيعتها في أكرم الدول

١ - تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٩٦

الفصل الحادي عشر

الاستقلال بمصر

اقام صلاح الدين مأتماً للعاضد استمر ثلاثة أيام ، ثم شيع جثمانه ودفنه في موكب عظيم ، وأمر عامله قراقوش بفتح خزائن القصر وكانت تضم كل ما اكتنزه خلفاء الفاطميين وتوارثوه خلال مائتي عام من الجواهر والتحف والنفائس والرياش ، فأهدى الخليفة العباسي والملك العادل بعضها ، ووزع بعضها على قادة جنده وامراء مملكته ، وباع الباقي وضم ثمنه للخزانة العامة ، وقد استمر هذا البيع عشر سنوات ، ولم يحتفظ لنفسه من كل ذلك كثيراً او قليلاً .

اما اولاد الخليفة ونساؤه واقاربه وكان عددهم ١٥٢ شخصاً ، فقد اخرجهم من القصر واسكنهم داراً فسيحة احسن معاملتهم فيها واجرى عليهم النعم والخيرات ، ولكنه فرّق بين الرجال والنساء منهم كي لا يتناسلوا . كما اعتق قسماً من الجواري والعبيد ، ووهب القسم الآخر[1] .

---

١ – يقول المقريزي انه كان في القصور الفاطمية عشرة آلاف شريف وشريفة – أي من العلويين – ومن الخدم ثمانية آلاف بين خادمة وأمة ومولدة (الخطط ج ٢ ص ٣٩٦)

وكان في القصر مكتبة حافلة بالمؤلفات الثمينة ، فوكل الى القاضي الفاضل مهمة اختيار الصالح منها للاحتفاظ به .. قيل فتسلم القاضي الفاضل منها ١٢٠ الف مجلد ، واحرق ما يدعو الى التشيع ، وباع الباقي وادخل ثمنه الى بيت المال .

وكان قصر الخليفة الفاطمي يتألف من مجموعة قصور من أروع آثار الحضارة الاسلامية ، منها قصر الزمرد وقصر المظفر وقصر الأقبال وقصر البحر وقصر الحريم وقصر الشوك ، ودار الوزارة ودار الضيافة ودار الضرب ، وخزانة البنود وخزانة الكتب وحجر الصبيان ، وتسمى كلها القصر الشرقي تمييزاً لها من قصر آخر غربي اصغر منه وهو يقوم الى جانبه ، وبينهما ساحة يقال لها الميدان ، ووراءهما متنزه كبير يسمى البستان الكافوري يحده من الغرب خليج القاهرة الذي تمتد عليه منتزهات الخلفاء الفاطميين الحافلة بالاشجار والرياحين .

وقد استقبلت دمشق وبغداد العاصمتان السنيتان سقوط الدولة الفاطمية بابتهاج عظيم ، فازينت الشوارع واغلقت الأسواق واقيمت الاحتفالات ، ونصبت القباب والأقواس ، وأرسل الخليفة المستضيء الخلع الى نور الدين وصلاح الدين ، وكلها سوداء شعار العباسيين بدلاً من البياض شعار الفاطميين ، فاحتفل صلاح الدين بوصولها وارتدائها رسميا ، وكان قد بدأ منذ الجمعة التالية للألغاء بنصب الأعلام السوداء على منابر المساجد المصرية ، وألبس الخطباء ثياباً سوداء ، فكانوا يخطبون له بعد الخليفة العباسي ونور الدين [١] .

ولم ينتقل صلاح الدين الى قصر الخلافة ، بل بقي في دار الوزارة

---

١ – النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥٧ ، وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٥٧

على ضآلة شأنها بالنسبة لفخامة القصر . ولكنه ما لبث ان اخذ يفكر في ان ينشيء على قمة المقطم قلعة كبيرة على غرار القلاع الحصينة في مدن الشام ، ليجعل مقامه ودواوينه فيها ، ويمتنع بها ان عرض له خطر مداهم . كما فكر في بناء سور حول المدن الاربع التي تألفت منها مدينة القاهرة ، وهي الفسطاط التي انشأها عمرو بن العاص ، والعسكر التي انشئت في عهد العباسيين ، والقطائع التي انشأها احمد بن طولون ، والقاهرة التي انشأها جوهر الصقلي .

وقد عزز الناصر مقام اقاربه وابناء عشيرته في الجيش والحكومة ، واحاط نفسه بسور منهم . ولم تكن هذه الحيطة التي يحتاط بها لتدل على شيء بقدر ما تدل على تخوفه من ان يزحف نور الدين زنكي بجيوشه الى مصر لانتزاعها من يده ، او ان يحاول اغتياله او الانتقاض عليه قائد ذو بأس او امير فاطمي ناقم .

وفي الحق ان نور الدين كان واغر الصدر عليه منذ قبل وزارة العاضد وأخذ منه خلعة الوزارة قبل ان يأتيه منه اذن بهذا القبول ، وكان يعتقد بان صلاح الدين انما يعمل للاستقلال بحكم مصر من دونه ، وان كان الملك الناصر لم يدع عملاً يدل على ولائه له الا قام به ، فأمر بالخطبة له بعد الخليفة العباسي ، وضرب النقود باسمه ، وارسل اليه الهدايا الثمينة من كنوز القصر الفاطمي . ولكن ذلك كله لم يكن ليخدع نور الدين عما يجري في مصر ، وعن الهدف الذي ينزع صلاح الدين اليه .

وكان بين رجال نور الدين من لا يفتأون يوغرون صدره على صلاح الدين بما شاءت لهم نفوسهم المغضبة ، وفي مقدمتهم عين الدين الياروقي الذي غادر مصر غاضباً إثر اسناد الوزارة الى صلاح الدين ، وكان يعتقد بأنه أحق بها منه ، ولا ريب في ان غضبه قد تعاظم حين رأى ان

منافسه يغدو حاكم مصر وصاحب الأمر فيها .

وقد بلغ صلاح الدين ان نور الدين عازم على القدوم الى مصر واخراجه منها ، فجمع أهله والمخلصين له ، وعرض عليهم الأمر ، فنهض ابن اخيه تقي الدين عمر وقال : « اذا جاء نور الدين قابلناه كلنا وصددناه عن البلاد [1] » وأيده في ذلك نفر من الحاضرين ، فاستولى الغضب على نجم الدين أيوب وصرخ فيهم : « قوموا عنا ، فنحن مماليك السلطان نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد » وأمر صلاح الدين ان يكتب الى نور الدين بأنه خاضع له منفذ لأمره « فانه اذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده ، والايام تندرج والله عز وجل كل يوم في شأن [2] » فعمل صلاح الدين بنصيحة ابيه ، وأرسل الى نور الدين هدايا ثمينة ، ونهض لغزو بعض الحصون الصليبية القريبة لاثبات حسن نيته [3] . وان كان يعلم من خلق ذلك الرجل الكبير انه لا يُسرّ بهدية من هذا القبيل .

هذا ما رواه بعض المؤرخين ، وهو أمر لا نطمئن الى صحته ، لا سيا وان هؤلاء المؤرخين أضافوا اليه حديثاً خاصاً جرى بين الابن وأبيه عاتب فيه الأب ابنه على بحث مثل هذا الأمر في مجلس يضم عدداً من القادة والأمراء ، ثم قال له : « ألا فاعلم اننا لا نسلم البلاد له ، ولو أراد قصبة من قصب السكر لحاربناه عليها » ولا بد للباحث المدقق من ان يتساءل كيف يمكن ان يتسرب حديث خاص من هذا النوع

---

١ – كتاب الروضتين ج ١ ص ٣٠٤ ، الكامل ج ١١ ص ٢٤٤
٢ – السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٤٩
٣ – مفرج الكروب ج ١ ص ٢٢٣ – ٢٢٤

وبهذه الخطورة الى بعض المؤرخين ولا يبلغ مسامع نور الدين . أما ابن شداد المؤرخ الذي لازم صلاح الدين في سنواته الأخيرة فقد اقتصرت اشارته الى هذا الموضوع على قوله : « ولقد حكى لي السلطان قال كان بلغنا عن نور الدين انه قصدنا بالديار المصرية ، وكانت جماعة اصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف نرده اذا تحقق قصده ، وكنت وحدي أخالفهم واقول : لا يجوز أن يقال شيء من ذلك [1] . »

وكان استيلاء الفرنجة على مدينة الشوبك في فلسطين قد عرقل سير التجارة بين مصر والشام وأضرّ بها ضرراً كبيراً . فجهز صلاح الدين حملة لغزوها والاستيلاء عليها . على انه ما كاد يهاجمها وينال منها ، حتى علم ان نور الدين قد اقبل لمساعدته والاجتماع به هناك ، فخوّفه اصحابه وخواصه من الاجتماع بنور الدين وحملوه على الرجوع الى مصر [2] قائلين له انه اذا اجتمع به « يكون هو المتحكم فيك ان شاء تركك وان شاء عزلك [3] » فغادر الكرك زاعماً لنور الدين انه اضطر الى العودة لمصر لمساعدة اخيه في القضاء على بقايا الفاطميين [4] .

وقد اغضب ذلك السلطان نور الدين غضباً شديداً ذهب بكل حلمه، ورأى فيه دليلاً صارخاً على تهرب عامله منه ، ولم يجد لذلك الا تفسيراً واحداً هو ان صلاح الدين قد انفصل نهائياً عنه . فقرر الزحف الى مصر والاستيلاء عليها . على انه ما كاد يستريح من الفتن التي كانت تشغله في

---

١ – النوادر السلطانية ص ٢٧
٢ – السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ص ٤٤ – ٥٠
٣ – النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢
٤ – مفرج الكروب ج ١ ص ٢٢١

ناحية الجزيرة ، ويعتزم الشروع في الحملة على مصر ، حتى وافته من صلاح الدين كتب تؤكد له طاعته وولاءه .

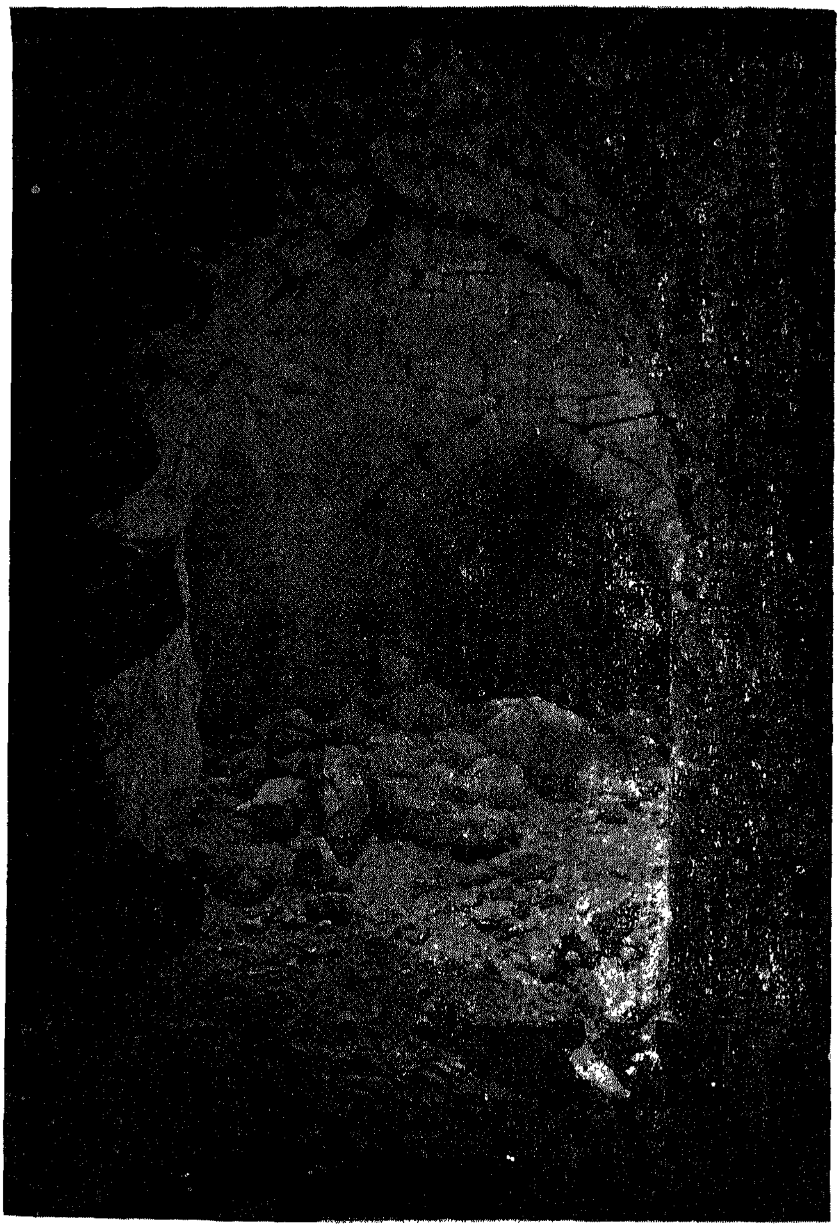
اسقط في يد نور الدين ، واعوزته بعد هذه الكتب الحجة التي يبرر بها حملته على مصر ، فاراد تجربة صلاح الدين ، فكتب اليه ان يخرج لغزو الفرنجة في الكرك ، على ان ينهد هو ايضاً الى هناك ، فأيهما سبق صاحبه أقام الى ان يوافيه الآخر . فذهب الناصر بجيشه الى الكرك فحاصرها ، ولكنه ما كاد يعلم باقتراب نور الدين وجيوشه لمشاركته في فتحها ، حتى عاوده الخوف منه .

واتفق أن بلغه في ذلك الحين أن اباه نجم الدين هوى عن جواده فمرض مرضاً شديداً ، فاحتج بمرض ابيه وعاد الى مصر قبل وصول جيوش الشام الى الكرك . وكان أبوه يعاني سكرات النزاع ، وقد توفي قبل وصول صلاح الدين الى القاهرة في ذي الحجة سنة ٥٦٨ هـ [١] ١١٧٢ م ، فحزن عليه حزناً عظيماً لأنه فقد فيه الأب الحادب والمعلم الراشد والصديق المدين .

وأخذ صلاح الدين يسعى دائباً لتوسيع ملكه وتقوية سلطانه ، فأرسل أخاه تورانشاه الى الشواطىء الافريقية فاستولى على سواحل طرابلس وتونس حتى مدينة قابس التي أعطته موقعاً ستراتيجياً دفاعياً مهماً . ثم أرسله الى بلاد النوبة ، فاستولى على ابريم وعيّن على حاميتها ابرهيم الكردي . ثم بعث به الى اليمن كي يخضعها لحكمه ويضمها الى ملكه ، فسار بعسكره عن طريق النيل حتى قوص ، ثم عن طريق البر حتى

---

١ - النوادر السلطانية ص ٦٧



بعض انقاض حصن الكرك كما تبدو اليوم

عيذاب ، ثم عن طريق البحر حتى جدة ، ثم عن طريق البر مرة أخرى حتى مكة حيث زار الكعبة صحبة أحد اشرافها ، ثم وصل براً الى زبيد في شوال سنة ٥٦٩ هـ ايار (مايو) سنة ١١٧٤ م وتسلمها بما فيها ، وقبض على صاحب اليمن عبد النبي ، ثم رحل الى عدن فصنعاء وعاد الى زبيد بعد أن تملك جميع الحصون . ويقال انه فتح وحده ثمانين حصناً ومدينة باليمن ، وان نواب القلاع ارسلوا مفاتيحها اليه دون قتال وهي واحد وأربعون حصناً . وبعد ان استتب له أمر الفتح، عهد الى اطباء الحملة ان يتخيّروا مكاناً صحيح الهواء والماء ليتخذ فيه سكناً ، فوقع اختيارهم على مكان تعز ، فاختطّ به تورانشاه المدينة ونزلها بعسكره وبقيت كرسياً لمملكته [1] . وقد استقام امر الأيوبيين في اليمن نحواً من خمسين سنة .

وقد شجعه على مهاجمة اليمن وأغراه بها وهوّن عليه أمر فتحها [2] ، عمارة اليمني الشاعر الذي أراد الخروج على صلاح الدين وجماعة من شيعة العلويين أصحاب الخلافة المنقرضة ، فزينوا لأخيه تورانشاه غزو اليمن لابعاده عن مصر مع قسم كبير من الجيش ، وكتبوا الى راشد الدين سنان رئيس الاسماعيلية بالشام يقولون له « ان الدعوة واحدة والكلمة جامعة ، وانه ما بين أهلها خلاف ، إلا فيما لا تفترق به كلمة ، ولا يجب به قعود عن نصرة » واستدعوا منه من يتمم على الملوك غيلة ، أو يبيّت له مكيدة وحيلة [3] . وأرسلوا الى اموري ملك بيت المقدس ووليم الثاني ملك صقلية ، للوثوب على صلاح الدين ، ووعدوهما بأن

---

١ — التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٤٤
٢ — الكامل ج ١١ ص ١٦٠ ، كتاب الروضتين ج ١ ص ٣١٦
٣ — مفرج الكروب ج ١ ص ٢٤٣

يثوروا عليه متى وصلت جيوشهم الى مصر[1] ولكن كما يسّر القـدر لصلاح الدين في كل مرة مـا ينقذه كلما أحدق به الخطر فيـأخذ بيده صعداً نحو ذرى المجد ، لقد كشف له عن تلك المؤامرة قبـل تنفيذ خطتها المحكمة بسعي الفقيه زين الدين بن نجا ، فعاجل المتآمرين وبطش بهم في شهر رمضان سنة ٥٦٩ هـ نيسان (ابريل) سنة ١١٧٤ م ، وصلب عمارة الشاعر وثمانية من زعمائها[2] . واكتفى بأن نفى من اشترك فيهـا من أجناد المصريين ، وتحفّظ على من بالقصر من سلالة الفاطميين .

ومن عجائب القدر ان عمارة الشاعر ، كان قد وصف منذ سنوات انساناً صُلب في عهد ابن رزيك لخروجه عليه ، فقال فيه وكأنه كان يصف نهايته الأليمة :

أراد عـلوّ مرتبة وقدر ... فأصبح فوق جذع وهو عالِ
ومُدّ على صليب الجذع منه ... يميـنٌ لا تطول على الشمال
ونكّس رأسه لعتاب قلب ... دعاه الى الغواية والضـلال

وقد اقبل اسطول صقلية الى الاسكندرية وهو لا يعلم باخفاق المؤامرة وكانت عدته « مائتي شيني في كل شيني مائة وخمسون راجلاً ، وست وثلاثين طريدة تحمل الف وخمسمائة رأس من الخيل ، وست سفن كبار تحمـل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ، وأربعـين مركباً لحمل الأزواد والرجال . وفيه من الراجل المتفرق وغلمان الخيالة وصناع المراكب وأبراج الزحف ودباباته والمنجنيقية ما يتم خمسين الف راجل[3] » ،

---

١ - كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٢١
٢ - المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ٥٤
٣ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٤٦

فخف صلاح الدين لنجدة الاسكندرية بنفسه ، ورد الغزاة من حيث أتوا بعد ان كبدهم خسائر كبيرة [1] . اما توران شاه فتابع مسيره الى بلاد اليمن فاحتلها كما ذكرنا ، وضمها الى مملكة أخيه ، وأعاد فيها الخطبة للخليفة العباسي .

ولم يكد صلاح الدين يعود من انتصاره في الاسكندرية ، حتى وافته الانباء بواسطة الحمام الزاجل الذي كان أول من استخدمه في مصر ، بثورة الامير السوداني كنز الدولة والي أسوان وعباس بن شادي والي قوص ، وكانا من الموالين للفاطميين ، وظلا على هذا الولاء برغم احسان صلاح الدين عليهما وحسن معاملته لهما ، فجرد لهما جيشاً كبيراً بقيادة أخيه العادل سيف الدين ابي بكر فقضى على الفتنة وقتل قائديها . وقد عرفت هذه الثورة بثورة الكنز [2] .

وكان نور الدين زنكي قد استقر يقينه بعد حادثة الكرك ، على ان صلاح الدين قد خرج عليه وخلع طاعته . فتأجج غضبه وشقّ الأمر عليه ، واقسم لينتقمنّ منه اشنع انتقام .

ولكن الحظ خدم صلاح الدين مرة اخرى . فان نور الدين ما كاد يعدّ العدة للحملة على مصر ، حتى فاجأه الموت في ٢١ شوال سنة ٥٦٩ هـ ١٥ ايار (مايو) سنة ١١٧٤ م وخلفه في الحكم ابنه الملك الصالح اسماعيل وليس له من العمر الا احد عشر عاماً ، فنسي صلاح الدين لما بلغه نعيه ، ما كان بينهما من جفاء ، وذكر وجهه الوسيم وخلقه الكريم ،

---

١ ـ كتاب الروضتين ج ص ١ ٢٣٥

٢ الكامل ج ١٢ ص ٢٨٧ ، النوادر السلطانية ص ٣٨ المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ٥٦

وذكر نزاهته وعدله ، وجهاده وفضله ، وشجاعته التي ليس بعدها مزيد، وسيرته العمرية في رد المظالم وتخفيف المغارم ، فحزن عليه حزناً عظيماً .

ومن مراثي الشعراء لنور الدين محمود قول العماد الاصفهاني :

الدينُ في ظُلَمٍ لغيبة نوره والدهرُ في غمٍّ لفقد أميره
فليندب الاسلام حامي اهله ، والشامُ حافظ ملكه وثغوره
ما أعظم المقدار في اخطاره اذ كان هذا الخطب في مقدوره
من ينصر الاسلام في غزواته ، فلقد أصيب بركنه وظهيره
من للفرنج ومن لأسر ملوكها ، من للهدى يبغي فكاك أسيره
من للخطوب مذللا لجماحها ، من للزمان مسهلا لوعوره
من كاشف للمعضلات برأيه ، من مشرق في الداجيات بنوره
يا حاملين سريره ، مهلا فمن عجبٍ نهوضكمُ بحمل ثبيره
يا عابرين بنعشه ، أنشقتمُ من صالح الأعمال نشر عبيره

ثم ما لبث الموت ان انقذ الناصر من خصم قوي آخر ، هو الملك اموري الذي توفي في ذلك الشهر نفسه تاركاً الملك من بعده لولده الصغير بلدوين الرابع الذي عُرف في التاريخ بلقب بلدوين المجذوم لأنه أصيب بمرض الجذام في صغره .

وعلى اثر ذلك اتسع امام صلاح الدين الامل لتحقيق الاحلام التي تراوده ، اذ لم يبق ثمة من يستطيع الوقوف في طريقه اليها .

الفصل الثاني عشر

في سبيل حلم عظيم

اضطرب الامن في ديار الشام بعد موت نور الدين زنكي ، وتصدعت الوحدة التي نذر نفسه لها وقضى حياته في بنائها وتوطيد دعائمها ، وكثرت الفتن والحروب بين امراء الانحاء الذين أستقل كل منهم بما يملكه ، او طمع في ضم ملك جاره اليه ، واحتلال مقام السلطان الراحل . وقد اشتد بذلك الخطرُ من توغل الفرنجة في البلاد ، لا سيما وانهم كانوا الملجأ الذي يلجأ اليه كل امير مغلوب او امير طامع ، للاستعانة بهم على خصومه من الامراء الأقوياء . وكان ابرز هؤلاء الامراء واعظمهم شأناً ، شمس الدين محمد بن عبدالله المقدم الذي تولى رعاية الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين وخليفته في الحكم ، وسيف الدين ابن عم الملك وصاحب الموصل في عهد ابيه الذي سارع الى الاستيلاء على ارض الجزيرة ، وشمس الدين ابن الداية صاحب حلب مركز الدولة النورية منذ نشأتها والدولة الزنكية قبلاً وقد اراد ان يأخذ الملك الصغير الى كنفه فاحضره الى قصره من دمشق على كره من امرائها ليتخذه ترساً ودرءاً واذا بكمشتكين ، وهو القائد الذي ارسله لخطف اسماعيل من دمشق ، يثور عليه فيودعه في السجن مع عدد كبير من الامراء وبينهم ابن الخشاب رئيس الشيعة بحلب ، و « انفرد هو بأتابكية الملك الصالح اسماعيل

واستبد بتدبير أموره[١] ، وهكذا غدت الوصاية على الملك القاهر موضع نزاع بين دمشق وحلب .

وامام هذه الفوضى العاصفة . أخذ الحلم الذي كان يراود صلاح الدين يعاوده بالحاح . بل تحوّل في نظره الى واجب ينبغي له القيام به ورسالة من الحتم عليه اداؤها ، فهو يعتقد بأنه الوارث الحقيقي لمملكة نور الدين ولسياسته في الجهاد ، وقد انشقت أمامه الطريق لانشاء امبراطورية كبرى يبعث بها امبراطورية بغداد ، بتوحيد البلاد الناطقة بالضاد ، وانتزاع اراضيها من أيدي الفرنجة .

ولقد كان واثقاً من ان ملايين العرب سيناصرونه في تحقيق هذا الحلم العظيم ، وانهم سيشعرون كما يشعر هو ، بانه واحد منهم ليس غريباً عن الارض العربية التي وُلد عليها وتغذّى منها ودرج في فلواتها ، او عن التقاليد العربية التي نشأ عليها وتأصلت في نفسه مذ كان في المهد صبياً ، او عن اللغة والآداب العربية التي ازدهرت في قصره وعهده ايما ازدهار ، ومن ثم فليس هو غريباً ايضاً عما يشجي العرب وعما يطمحون اليه ، ولا بدع في ان يتخذ الامل الذي تجيش به نفوسهم هدفاً ينزع اليه مع جنوده المتعددي القوميات ولكنهم في كثرتهم عرب من سكان البلاد ، واللغة العربية هي اللغة الجامعة لهم ، والثقافة العربية والشريعة الاسلامية هي البوتقة التي صهرتهم والرابطة التي وحدتهم ، فغدوا يُعرفون بها وفي ظلها يجاهدون .

وكان اول ما فكر فيه ، واراد أن يخطو به الخطوة الاول نحو

---

١ – مفرج الكروب ج ٢ ص ٨ – ١٠

تحقيق هدفه ، الانتصار للملك الصالح اسماعيل بن نور الدين ، ووضعه تحت كنفه ، ليتسنى له بذلك توحيد بلاد الشام وضمها الى مملكته في مصر . فكتب اليه والى الامراء الذين يحيطون به ويتنازعون على ملكه ، كتاباً اعلن فيه ولاءه له وعزمه على نصرته والانتصاف له من كل من يناوئه ، لانقاذ البلاد من التفرقة ودفعاً لخطر الفرنجة ، وقد قال فيه : « تختلف القلوب والايدي فتبلغ الأعداء مرادها وتعدم الآراء رشادها ، وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها الى ان اعطت قيادها ، فكونوا يداً واحدة ، واعضاداً متساعدة ، وقلوباً يجمعها ود ، وسيوفاً يضمها غمد ، ولا تختلفوا فتنكلوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا ، وقوموا على أمشاط الأرجل ، ولا تأخذوا الأمر باطراف الانمل ، فالعداوة محدقة بكم من كل مكان . » الى ان يقول بصدد الملك الراحل وولده القاصر : « ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله وقائم لا نسلمه . وقد كانت وصيته الينا سبقت ، ورسالته عندنا تحققت ، بان ولده القائم على الأمر ، وسعد الدين كمشتكين الاتابك بين يديه ، فان كانت الوصية ظهرت وقبلت والطاعة في الغيبة والحاضر اديت وفعلت ، وإلا فنحن لهذا الولد يدٌ على من ناوأه وسيفٌ على من عاداه [1] .. الخ » ولم يقتصر صلاح الدين على هذا بل ضرب النقود المصرية باسم الملك الصالح ، وأمر بأن يُخطب له على المنابر بعد الخليفة العباسي ، ولم يدع مناسبة إلا اغتنمها كيما يبين فيها للسوريين غيرته على الملك الصغير ، واهتمامه بامره واستعداده لبذل وسعه في سبيله .

ثم أرسل الى الخليفة العباسي المستضيء بالله كتاباً يوغر صدره فيه على ما آلت اليه الحال في بلاد الشام ، ويعلن استعداده للعمل على تغييرها

---

١ – مفرج الكروب ج ٢ ص ٧ .

بتحرير البلاد وتوحيدها في ظل خلافته ، مذكراً اياه من طرف خفي بانه هو الذي جعل منابر مصر واليمن والمغرب تتجاوب باسم الخليفة العباسي مع منابر الشام وبغداد ، بعد ان انقطعت عن ذلك نحواً من مئتي سنة ، وقد بدأ هذه الرسالة ، وهي من انشاء القاضي الفاضل وبخطه [1] ، بذكر ما كان لأفراد اسرته من أثر في جهاد الصليبيين وتأسيس المملكة النورية ، فقال : « كان أول أمرنا أنّا كنا بالشام لفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا ، ونجاهد الكفار متقدمين لعساكرنا ، نحن ووالدنا وعمنا في أي مدينة ُفتحت ، أو معقل مُلك ، أو عسكر للعدو كسر ، او مصاف للاسلام معه ُضرب ، فما يجهل أحد صنعنا ، ولا يجحد عدونا أنّا نصطلي الجمرة ، ونملك الكرّة ، ونتقدم الجماعة ، ونرتب المقاتلة ، وندبر التعبية ، الى ان ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرُها ، ولا يضرنا ان يكون لغيرنا ذكرُها » .

ثم ذكر رحيله الى مصر وما تم من فتحها وابعاد الخطر الفرنجي عنها والغاء الخلافة الفاطمية فيها : « فهنالك تمت لنا اقامة الكلمة ، والجهر بالخطبة ، والرفع للواء السواد الأعظم ، والجمع لكلمة السواد الأعظم ، وعاجل الله الطاغية الأكبر بفنائه ، وبرّأنا من عهدة يمين كان

---

١ - كان عبد الرحيم بن علي البيساني اللخمي المعروف بالقاضي الفاضل (٥٢٥ - ٥٩٦هـ ١١٣٥ - ١٢٠٠ م) من اشهر وزراء صلاح الدين في مصر ، وكان السلطان يستشيره ويستصحبه ويأخذ برأيه ويعهد اليه بتدبير شؤون البلاد أثناء تغيبه في الشام ، وقد عرف بالاخلاص لصلاح الدين ، والسهر على مصلحة البلاد ، والحض على الجهاد . أما مواهبه في الكتابة والانشاء فقد تغنى بها كثيرون ، وهي قائمة على التزام السجع والافراط في المحسنات اللفظية التي شاعت في عصره ، وكان صلاح الدين يقول لأعوانه : « لا تظنوا اني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل ! » انظر : النجوم الزاهرة ٦ : ١٥٦ ، ابن خلكان ١ : ٢٨٤ ، كتاب الروضتين ٢ : ٢٤١ ، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي ١٥٨ - ١٧٠ ،

إثم حنثها أيسر من إثم بقائه ، إلا انه عوجل لفرط روعته ، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته » وانتقل الى فتح العقبة وحملة النوبة واليمن والاستيلاء على قسم كبير من شمال افريقية « ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير : لك ، وبرقة ، وقفصة ، وقسطيلية ، وتوزر . كل هذه تقام فيها الخطبة لمولانا الامام المستضيء بالله سلام الله عليه ! »

وينتقل الى وصف الأوضاع المؤسفة التي سادت بلاد الشام بعد وفاة نور الدين ، قائلاً : « .. وتوافت الينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها ، وتشتت الأمور وتقطعها ، وان كل قلعة حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمع اليه طالب ، والافرنج قد بنوا قلاعاً يتخوّفون بها الأطراف الاسلامية ، ويضايقون بها البلاد الشامية ، وامراء الدولة النورية قد سُجن كبارهم وعوقبوا وصودروا ، وان المماليك قدّموا الايدي والاعين والسيوف ، وسارت سيرتهم في الأمر المنكر والنهي عن المعروف ، وكل واحد يتخذ عند الافرنج يداً ويجعلهم لنظره سنداً » .

ثم يقول بعد أن يشير الى مطامع الفرنجة واستعدادهم المتواصل : « وعلمنا ان البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه ، وأمر الكفر ان لم يتجه العزم في قلعه ، وإلا نبتت عروقه ، واتسعت على اهل الدين خروقه ، وكانت الحجة لله قائمة ، وهم القادرين بالقعود آثمة ، وإنا لا نتمكن بمصر منه ، مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة ، وكلال الدواب التي بها على الجهاد القوة . فاذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة ، والخيل مستريحة ، والعساكر كثيرة الجموع ، والاوقات مساعدة ، وأصلحنا مـا في الشام من عقائد معتلة وامور مختلة ، وآراء فاسدة ، وامراء متحاسدة ، واطماع غالبة ، وعقول غائبة ، وحفظنا الولد القائم بعد

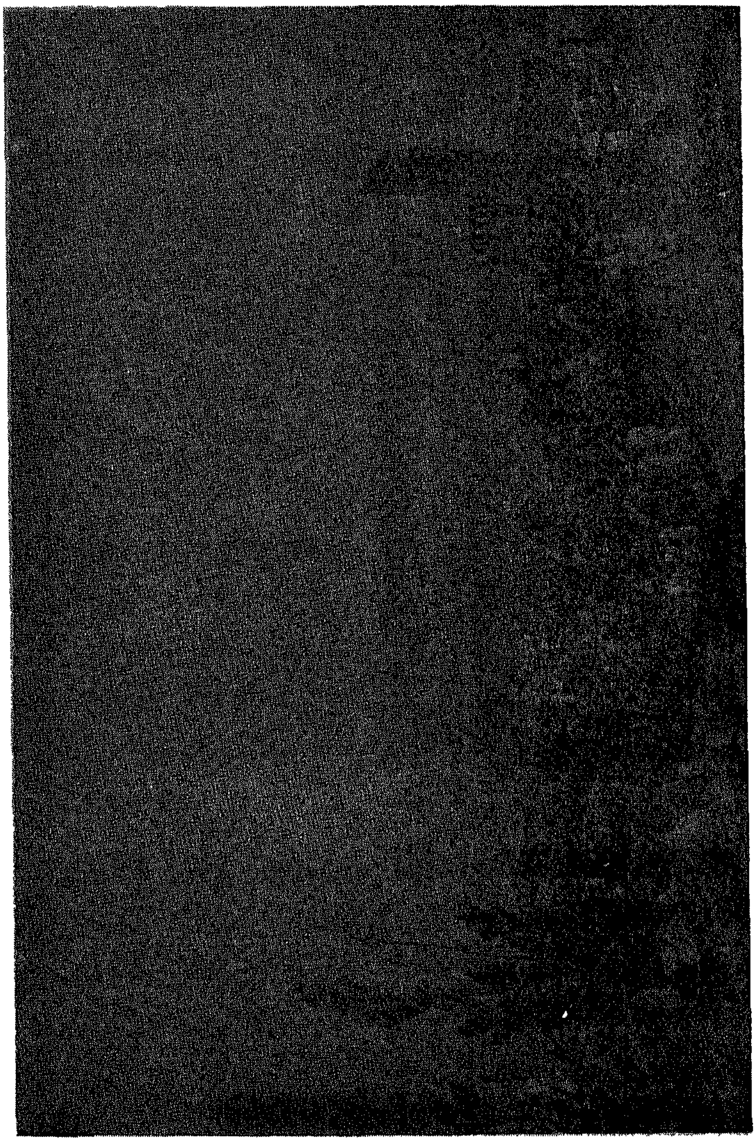
ابيه ، فأنا به اولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويظهرون الوفـاء في خدمته ، وهم عاملون بظلمه » .

ويصرّح صلاح الدين أخيراً بطلبه ، معتبراً اياه مطلباً قومياً وليس مطلبـاً شخصياً : « والمراد الآن هو كل مـا يقوّي الدولة ، ويؤكد الدعوة ، ويجمع الأمة ، ويحفظ الألفة ، ويضمن الرأفة ، ويفتح بقية البلاد » الى ان يقول مفصحاً عما يريد : » وهو تقليد جـامع لمصر واليمن والمغرب والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية ، وكل مـا يفتحه الله للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا [1] » .

ويقول الدكتور نظير سعداوي في التعليق على هذه الرسالة انها تبرهن أوضح برهان « على سعة أطماع صلاح الدين ، كما تشرح موقفه من مشروع توحيد القوى الاسلامية استعداداً للجهاد ضد الصليبيين ، فضلاً عما فيها من شرح لحقيقة القوى الاوربية ، وما فيها من اشارة الى مـا سوف يقوم به من حركات استراتيجية عندما يقتطف ثمار الحوادث بتلبية دعوة الدماشقة الى نجدتهم . وكيفما كان الأمر من تلك الرسالة ، فمن العسير على الباحث الحربي أن يدرك تماماً كيف فكر صلاح الدين تلك السنـة (١١٧٤) في ضرورة الاستيلاء على دمشق وحلب والموصل جميعاً للقضاء على الصليبيين ، إلا أن يرجع الباحث البصر الى كاتب الرسالة ، وهو القاضي الفاضل العارف بخطة تطويق الصليبيين من ناحيتين ، وهي الخطـة التي وضعها بدر الجمالي الوزير الفاطمي ، واتبعها من بعـده نور الدين نفسه بالاستيلاء على دمشق والقاهرة ، ومن ذلك يتضح أن اهتمام صلاح الدين

---

١ – السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٠ ، صبح الأعشى ج ١٣ ص ٨١ – ٩٠ ، كتاب الروضتين ج ١ ص ٣٤١ – ٣٤٤ .



دمشق كما رسمها أحد قدماء الرحالة الغربيين

بدمشق وحلب والموصل ، لم يكن للاستيلاء على أملاك نور الدين والبيت الزنكي فحسب ، بل لتطويق الصليبيين بالشام من جميع الجهات ما استطاع الى ذلك سبيلا [١] » .

ولبث الملك الناصر يترقب الفرص ولا يقدم على أي امر يثير غضب الشام عليه ويخاوفها منه ، حتى دعاه ابناؤها انفسهم للزحف اليها .

ذلك ان ابن المقدم ومن يواليه من امراء دمشق ، لما رأوا كمشتكين قد تغلب على ابن الداية وانصاره وسجنهم ، تخوفوا منه وارسلوا الى سيف الدين غازي صاحب الموصل ان يقبل الى دمشق ليحميهم من عدوانه ، فأبى سيف الدين ان يجيبهم الى طلبهم ظناً منه انهم يمكرون به ويتآمرون مع كمشتكين على قتله ، ثم بادر الى اعلان طاعته لابن عمه الملك الصالح وأقرّه هذا على ما بيده من البلاد ، فاشتد حينئذ خوف امراء دمشق ، واتجهوا شطر صلاح الدين ، فكتبوا اليه ان يسرع لانقاذهم من خطر احدق بهم . وكأن الملك الناصر كان في انتظار هذه الدعوة ، فلم يكد يتلقاها حتى اقام اخاه الملك العادل أبا بكر حاكماً بمصر مدة غيابه ، ثم انطلق على رأس سبعمائة فارس فقط ، فاخترق عباب الصحراء وبلغ تخوم سورية .

اقبل صلاح الدين الى الشام مدعواً من أهلها ، مؤيداً من الخليفة العباسي ، قوياً بجيشه وخبرته وبُعد نظره ، تتقدمه شهرة واسعة باذخة واسم مقترن في الأذهان بالبأس والنبل والمروءة ، وشعاره جمع شمل المسلمين وتوحيد كلمتهم أمام العدوان الصليبي ، فكانت المدن التي مر بها تستقبله بمجالي الفرح والزينة ، والأمداد تلتحق به من كل صوب ، حتى بلغ

---

١ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٥٦ .

دمشق في آخر ربيع الاول سنة ٥٧٠ هـ اواخر تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١١٧٤ م وملكها كما يقول ابن العماد « من غير مُدافع وبلا ضربة ولا طعنة [١] » بينما امتنع ريحان في القلعة ، فنزل صلاح الدين في دار أبيه التي قضى فيها سني شبابه ، ثم زار قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري فرحب به وقال له : « طب نفساً فالأمر امرك ، والبلد بلدك [٢] » .
ثم ارسل صلاح الدين قاضي القضاة الى ريحان يطلب منه تسليم القلعة ويؤكد له انه ما جاء الى الشام الا لتربية السلطان الطفل والانابة عنه في تدبير دولته ، فما لبث ريحان حتى ارسل الى صلاح الدين رسولاً يدعوه لاستلام القلعة ، فمضى اليها واخذ ما فيها من الأموال والكنوز ففرقها على الأهالي وأمر بالمناداة بازالة المكوس وابطال القبائح والمنكرات والضرائب المستحدثة بعد نور الدين [٣] ، فاستبشر الناس بهذه البادرة الكريمة ، ومدحه الشعراء بالقصائد الغراء . وكان ما يفتأ يؤكد في كل مناسبة وكل مجلس بانه في طاعة الملك الصالح ، وانه انما قدم لرعايته وحفظ وحدة البلاد وحمايتها من الفرنجة ، فعزز ذلك من مكانته وجمع حوله القلوب المتفرقة .

ودهش السلطان اسماعيل ووزراؤه حين بلغهم في حلب ، نبأ استيلاء صلاح الدين على دمشق دون أية مقاومة ، وكتب اليه ينذره ويتهدده ويدعوه للعودة من حيث اتى ، وحمل الرسالة الى الملك الناصر الأمير قطب الدين بن حسّان ، فقرأها بهدوء وقال لرسول السلطان : « اعلم يا

---

١ – شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٣٦ .
٢ – المرجع السابق ج ٤ ص ٢٤٣ .
٣ – كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٣٦ ، السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥٨ .

هذا أنني وصلت الى الشام لجمع كلمة الاسلام وتهذيب الأمور ، وحياطة الجمهور ، وسد الثغور ، وتربية ولد نور الدين ، وكفّ عادية المعتدين » فأجاب قطب الدين : « انك وردت لأخذ الملك لنفسك ، ونحن لا نطاوعك على ذلك ، ودون ما ترومه خرط القتاد وفتّ الأكباد [1] » .

وظل صلاح الدين محافظاً على رباطة جأشه ، فأمر باكرام الرسول وسلمه كتاباً الى السلطان الطفل قال فيه : « انما جئت من مصر خدمة لك ، ليؤدى ما يجب من حقوق المرحوم ، فلا تسمع ممن حولك فتفسد أحوالك ، وتختل أمورك ، وما قصدي إلا جمع كلمة الاسلام على الفرنج [2] » .

ولما اطمأن الى تأييد دمشق له والتفافها من حوله ، عهد بها الى اخيه سيف الاسلام ، وشخص الى حمص فاستولى عليها بدون قتال ، ولكن قلعتها امتنعت عليه فأمر فريقاً من جيشه بمحاصرتها وسار الى حماة ، وكان الوالي عليها الأمير عز الدين جرديك أحد الأمراء الذين عارضوا اسناد الوزارة اليه بعد وفاة عمه أسد الدين ، ولكن عز الدين آثر تناسي الماضي والتعاون مع صلاح الدين بدلاً من مخاصمته ، بعد ان رأى الحظ يسير في ركابه والمجد ينقاد له ، فسلمه مدينة حماة ، وقبل ان يكون رسوله الى كمشتكين صاحب حلب ، فلم يصغ هذا اليه بل قبض عليه وزجه في السجن مع غيره من الامراء المعتقلين .

وصل صلاح الدين الى حلب في الثالث من جمادى الأولى سنة ٥٧٠ هـ

---

١ – كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٣٨ .
٢ – مرآة الزمان ص ٢٠٧ .

٣٠ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١١٧٤ م وفيها الملك الصالح ووزيره كمشتكين ، فاذا بها قد اغلقت ابوابها في وجهه ، فأقام الحصار عليها بعد أن أعلن أهلها انه لم يأت اليها معادياً وإنما اتى لانقاذ سيده الملك الصالح من الأمراء المستبدين وعلى رأسهم كمشتكين . ولم يكن الملك الفتى مطمئناً لوزيره ، ولكن قلبه لم يطمئن ايضاً لصلاح الدين لشدة ما حرضه كمشتكين عليه وخوّفه منه ، وقد خشي ان تؤثر اقواله في الناس فيسلموه المدينة كما فعل اهل دمشق ، فطاف بهم قائلاً : « قد عرفتم إحسان أبي اليكم ، ومحبته لكم وسيرته فيكم ، وأنا ربيبكم ونزيلكم واللاجىء اليكم ، كبيركم عندي بمنزلة الأب ، وشابكم بمنزلة الأخ ، وقد جاء هذا الظالم الجاحد احسان والدي اليه ، يأخذ بلدي ولا يخشى الله تعالى[١] » وأخذ يبكي فأبكى الناس معه ، وتحمسوا له وقاوموا صلاح الدين بكل ما يملكون من قوة .

ولكن ضغط الهجوم واثر الحصار كانا يشتدان على المدينة يوماً فيوماً ، حتى أدرك كمشتكين ومن معه إنها لن تستطيع الصمود طويلاً إذا ظلت معتمدة على قواها الخاصة ، وانهم أقلّ خطراً وأضعف شأناً من أن يقفوا في وجه الملك الناصر ، فراسل كمشتكين راشد الدين سنان رئيس الطائفة الاسماعيلية المعتصم بقلعة مصياف ليبعث من يفتك بصلاح الدين لما يعرف من كراهيته له ، لأنه الغى الخلافة الفاطمية في مصر ، وضمن له على ذلك اموالاً جمة وعدة من القرى ، واستنجد بامير طرابلس ريمون الثالث (القومص) الذي كان نور الدين قد اسره عدة سنوات فأطلق كمشتكين سبيله لما تولى حكم حلب . فأما رئيس الطائفة الاسماعيلية

---

١ - كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٣٨ .

فقد ارسل الى صلاح الدين جماعة من اتباعه الفتاكين المعروفين بالحشاشين لاغتياله ، فجاءوا الى جبل الجوشن [1] بضواحي حلب فوق مشهد الدكة حيث نزل جيش الملك الناصر ، واختلطوا بالجنود ، فعُرفوا ونشبت بينهم وبين بعض رجال صلاح الدين معركة عنيفة ، ثم وثب احدهم الى خباء صلاح الدين وقد شهر بيده سكينة ليقتله بها ، فلما صار الى باب الخيمة اعترضه احد الامراء فقتله وطلب الباقين فقُتلوا بعد ان قتلوا عدداً من الجنود [2] .

واما ريمون الثالث وكان في ذلك الحين القيم على بلدوين الرابع ملك القدس ، فقد وجدت دعوة كمشتكين كل التجاوب في نفسه ، فأسرع بجيشه الى حمص ليستولي عليها في غفلة من صلاح الدين ثم يزحف الى حلب فيهدد مؤخرته ، ويضعه بين قوتين معاديتين ، لكن ما كاد الملك الناصر يعلم بذلك حتى فك حصاره عن حلب وهرع الى ملاقاة الفرنجة فاذا بهم يعودون من حيث اتوا تجنباً لمنازلته . لاسيما وانهم قد حققوا مهمتهم وهي رفع الحصار عن حلب ، وقد رد كمشتكين جميلهم بأن اطلق سراح أسرى الفرنجة في حلب وبينهم رينو دى شاتيون وجوسلين دى كورتناي [3] . فتابع صلاح الدين حينئذ سيره الى دمشق ، واستولى وهو طريقه اليها على قلعة حمص وعلى مدينة بعلبك التي قضى فيها سني طفولته الاولى .

ولما رأى كمشتكين وصحبه في حلب ، ما صار الى صلاح الدين من

---

١ - موقع مدينة سيف الدولة غربي حلب الحالية .

٢ - كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٣٩ .

٣ - Schlumberger : Renaud de Chatillon, p. 144



نفوذ وقوة في بلاد الشام ، تخوّفوا من عاقبة ذلك ، واتفقوا مع سيف الدين غازي صاحب الموصل على مهاجمة دمشق ، وزحفوا الى هذه المدينة في جموع غفيرة . فأرسل صلاح الدين اليهم ينصحهم بحقن دماء الأبرياء، ويحذّرهم من عدوان الفرنجة ، ويرغّبهم في الصلح مقابل تسليمه اياهم جميع المدن التي استولى عليها في سورية ، على ان يبقى نائباً للملك الصالح في دمشق مبرهناً بذلك للرأي العام الاسلامي « انه لم يقصد محاربة احد من المسلمين البتة ، بل اراد توحيد كلمتهم بالتفاهم الودي والاتفاق السياسي اولاً ، حتى اذا اخفق في الاتفاق بالمفاوضة عمد الى القتال في غير هوادة [1] » .

وقال رسول سيف الدين الى صلاح الدين انه رآه في خيمة صغيرة على بساط وتحته سجادة ، وبين يديه مصحف ، وهو مستقبل القبلة والى جانبه زرديته وسيفه وقوسه ، وجعبته معلقة في عمود الخيمة «فلما رأيته وقع في خاطري انه المنصور لأنني فارقت سيف الدين والامراء وهم على طنافس الحرير ، والخمور تراق والطبول تعمل ، وليس في خيامهم خيمة الا وفيها انواع المحرمات [2] » .

وكان هذا الرسول قد حمل الى صلاح الدين رفض قادة الجيش المهاجم ان يصالحوه إلا اذا سلّمهم كل ما بيده وعاد الى مصر وليس له من الأمر في الشام شيء ، معتقدين بأن دعوته الى الصلح مبعثها الضعف والخوف . فعمد الناصر حينئذ الى جيشه فجهزه وخرج به لملاقاتهم ، واشتبك معهم عند قرون حماة في معارك طاحنة ، حتى اذا ما وصل

---

١ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٦٥ .
٢ خطط الشام ج ٢ ص ٥٢ .

جيشه من مصر ، انتصر عليهم في التاسع عشر من رمضان سنة ٥٧٠ ﻫ ١٣ نيسان (ابريل) سنة ١١٧٥ م انتصاراً عظيماً ، حتى غـدا الواحد منهم لا يلوي على اخيه من شدة فزعه وخوفه ، وما زالوا في فرارهم وهو من ورائهم يستولي على أثقالهم ، حتى دخلوا حلب فحاصرها للمرة الثانية ، واشتد على الحلبيين الحصار ، فراسلوه في الصلح على ان يكون له ما بيده من بلاد الشام ، مضافاً اليها المعرة وكفرطاب وبارين ، ولهم ما بأيديهم منها ، واشترطوا ان يكون الدعاء للملك الصالح اسماعيل في جميع منابر البلاد التابعة لصلاح الدين ، وأن تكون السكة باسمه ، وان ينجده بنفسه وجيشه كلما قصده عدو ، فأجابهم الى جميع ما طلبوه ، وعقد الصلح وقفل عائداً الى حماة بعد هذا النصر المؤزر[١] ، وفي ذلك يقول العماد الأصفهاني :

وتحطمت عند القرون قرونهم　　بـل كلّـت الأنيابُ والأظفار
عبروا المعّرة مالكين معرّةً　　والعـار يُملك تارة ويُعـار

وعاد سيف الدين الى الموصـل يتأهب لخوض معركة جديدة ، وفي اعتقاده ان صلاح الدين لا بد ان يهاجمه في عقر داره فخير له ان يسبقه الى الهجوم . وما لبث ان حشد جيشاً مؤلفاً من ستة آلاف مقاتل ، وخرج الى ملاقاة جيوش صلاح الدين .

وكان سيف الدين قد أرسل الى الشام رسولاً حمّله كتابين أحدهمـا الى صلاح الدين يطلب فيه الموادعة تضليلاً له ، والثاني الى أمراء حلب يلومهم فيه على مصالحة صلاح الدين ، ويدعوهم الى الانتقـاض عليه ،

---

[١] كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٥٠

ومشاركته في المعركة التي يُعدّها له . فدخل الرسول على صلاح الدين أولاً ، وأخطأ فسلمه كتاب غازي الى أمراء حلب ، فقرأه وعرف ما بيتّه الموصليون والحلبيون ، فأعاده الى الرسول قائلاً : « لعلك قد تبدلت ! » فعرف الرسول غلطته ، ولم يكن في قدرته أن يتدارك ما فات [1] .

ولم يكتف سيف الدين بذلك وانما راسل ريموند الثالث صاحب طرابلس والوصي على بيت المقدس يطلب محالفته ومساعدته في الخطوة التالية التي سيقوم بها الزنكيون ضد صلاح الدين . ولكي يثبت حسن نيته ، أرسل لريموند جميع من لديه من أسرى الصليبيين [2] .

وشرع الملك الناصر يستعد لمقابلة غازي وحلفائه ، واستقدم لهذا الغرض قسماً من جيشه بمصر ، ثم تلاقى مع خصمه في مكان يقال له تل السلطان على الطريق بين حلب وحماة [3] ، فمزق جيشه شر ممزق ، وغنم مؤونته وعتاده ، وأسر عدداً كبيراً من أفراده ، وهرب الباقون الى حلب ، وواصل هو سيره الظافر الى شمال حلب فاحتل بزاعة ومنبج وعزاز .

وخلال حصار صلاح الدين لقلعة عزاز ، اندس بين جنوده اربعة من الحشاشين تزيوا بزيهم وحاربوا في صفوفهم وابدوا بسالة عظيمة ، وفي ليلة الأحد ١١ ذي القعدة سنة ٥٧١ هـ ١١٧٦ م ، بينما كان جالساً في خباء الأمير جاولي الأسدي الذي اعتاد الاختلاف اليه كل يوم للنظر في

---

١ – مفرج الكروب ج ١ ص ١٨٦
٢ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٤٧
٣ – النوادر السلطانية ص ٨٥ – ٨٦

الخطط الحربية ، وثب عليه احدهم فضرب رأسه بسكين ، فأصابت الزردية التي كان يرتديها دائماً فلم تؤثر فيها ، واحس الحشيشي بصفائح الحديد على رأسه فمد يده بالسكين الى خده يريد ان يطعنه بها ، فلم يصبه الا بخدش صغير ، لان صلاح الدين اسرع فقبض على رأس الحشيشي وجذبه فألقى به على الأرض ثم جاء اعوانه فقتلوه . ثم تتابع على الخباء الحشاشون الثلاثة الآخرون ، وكل منهم يريد قتل صلاح الدين فيلقى حتفه [1] .

وقد اضطرب صلاح الدين لهذا الحادث الرهيب ، وضرب حول سرادقه برجاً من الخشب ، ثم اعتبر جنده فمن انكره أبعده ، ومن عرفه أقره على خدمته [2] ، وشاع في البلاد ان صلاح الدين قد قتل ، فأرسل القاضي الفاضل كتاباً الى الملك العادل اخي صلاح الدين يطمئنه فيه ويروي له حقيقة الحادث وقد جاء فيه : « السلامة شاملة والراحة بحمد الله للجسم الشريف الناصري حاصلة ، ولم ينله من الحشيشي الملعون إلا خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة انقطعت لوقتها واندملت لساعتها ، والركب على رسمه ، والحصار لعزاز على حكمه ، وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدراً ولا ما يشغل سراً [3] . »

وقام في ذهن صلاح الدين ان كمشتكين هو الذي اغرى به اولئك المتآمرين وحرضهم على اغتياله ، فعاد بعد استيلائه على عزاز الى حلب وشدد الحصار عليها وهاجمها هجوماً قوياً ، فخرجت اليه ابنة نور الدين

---

١ – النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٧
٢ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٧٥
٣ – كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٥٨

زنكي وهي بنت صغيرة [١] ، فاستقبلها احسن استقبال وقدم اليها المال والهدايا ، وسألها عما يطلبه اهلها فأجابت انهم يريدون عزاز فوهبها اياها ، ثم اوصلها الى باب المدينة بنفسه وقدم لها من الجواهر والأموال شيئاً كثيراً [٢] . وعمد بعد ذلك الى إطلاق سراح الاسرى الذين وقعوا في يده في جميع المعارك التي خاضها في انحاء حلب ، وكان بينهم عدد من الجرحى قد احسن معاملتهم والعناية بهم ، فذهب الجميع يثنون عليه ويلهجون بحمده .

وكان الملك الصالح اسماعيل قد خشي ، لما اشتد الحصار على حلب ، ان يفقد هذا الملجأ الاخير الذي يلوذ به ، فعقد مع صلاح الدين صلحاً أقره فيه على مـا بيده من البلاد التي افتتحها على أن يبقي له مدينة حلب وحدها ، فأصبح سيداً على دمشق وحمص وحماه والمدن الصغيرة المنتشرة في ضواحيها وضواحي حلب ، وبينما هو في طريقه الى دمشق وصلت اليه خلع الخليفة المستضيء بالله ، وامرٌ بتوليته على مصر والشام واليمن . وهكذا اعترف به الخليفة العباسي سلطاناً على البلاد المصرية والسورية ، فخطب له على المنـابر بدلاً من الملك الصالح اسماعيل ، وضربت النقود في القاهرة باسمه فكتب عليها « الملك الناصر يوسف بن ايوب علا جاهه » . وتقدم بذلك شوطاً كبيراً نحو الهدف الذي ينزع اليه ، وشعر بارتيـاح كبير لتحرره من عبء النضال في سبيل الحصول على تأييد رسمي لعمله ، وهـو عبء كان يكلفه كثيراً من العناء لانه يضطره الى اظهار الولاء للملك الغِرّ الذي يحاربه ويمتنع عليه . وقـد

---

١ – لم تذكر المصادر العربية اسم ابنة نور الدين واكتفت بأن اطلقت عليها لقب الخاتون .

٢ – مفرج الكروب ج ١ ص ١٩٠ الكامل ج ١٢ ص ٢٩٥

وهب على اثر ذلك الهبات ، وفرق المال ، وأمر بأن توزع على جنوده جميع المغانم التي غنمها منذ قدومه الى الشام .

وفكر السلطان في العودة الى مصر لتفقد شؤونهـــا بعد ان تم له امتلاك الشام وأقام على كل من مدنها أميراً من قبله . ولكنه كان يشعر بأن بينه وبين الاسماعيليين الذين حاولوا اغتياله مرتين حساباً يجب أن يقاضيهم عليه ، فانطلق بقسم من جيشه الى معاقلهم في جبال اللاذقية .

الفصل الثالث عشر

سنان شيخ الجبل

حاول العلويون ، وهم انصار الامام علي وأولاده من بعده ، الوصول الى الخلافة بمحاربة الأمويين ، وتحالفوا في سبيل ذلك مع ابناء عمهم العباسيين ، ولكن ما كاد هؤلاء يؤسسون دولتهم على أنقاض الدولة الأموية حتى تنكروا لحلفاء الأمس واضطهدوهم ، فعاد العلويون الى النضال في الخفاء .

وقد تعددت الفرق المتشيعة للامام علي ، واشهرها الاثنا عشرية التي تسلسل أئمتها الى اثني عشر اماماً ، والاسماعيلية التي تقف بأئمتها عند الامام اسماعيل بن جعفر الصادق ، وجميع هذه الفرق ترتكز في عقيدتها على ان الامام يجب ان يكون من نسل الامام علي وفاطمة بنت الرسول[1] .

وذهبت طائفة الاسماعيلية الى ان الامام بعد جعفر الصادق هو ابنه اسماعيل ، لا ابنه موسى الكاظم ، وأنكرت موت اسماعيل في حياة ابيه وقالت إنه تغيب ، ولا يموت حتى يملك الأرض ويقوم بأمر الناس ،

---

١ – نظم الفاطميين ج ١ ص ٨ وما بعدها

كما قالت بعدم جواز تحويل الخلافة الى موسى بعد وفاة أخيه اسماعيل ، لان الامامة لا تنتقل من أخ الى اخ بعد الحسن والحسين ، ولا تكون إلا في الاعقاب [1] .

وقد اتخذ ائمة الاسماعيلية مدينة سلمية من أعمال حماة ببلاد الشام مركزاً لنشر هذه الدعوة ، وكانوا يبعثون الدعاة من هذه المدينة الى كافة الأقطار الاسلامية ، ويعهدون في تنظيم الدعوة الى كبار الدعاة الذين كان يُطلق عليهم في هذا الدور ، وهو دور الستر ، نواب الأئمة أو الحجج ، وهؤلاء يرسلون دعاة من قبلهم لنشر المذهب الاسماعيلي في أرجاء العالم الاسلامي [2] .

واستطاع هؤلاء الدعاة ان يمهدوا لظهور الخلافة الفاطمية في المغرب ، وكان أول ظهورها على يد عبيدالله المهدي الذي اعلن الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين في سنة ٢٩٧ هـ ٩٠٩ م . وتأسست الدولة الفاطمية اول أمرها في القيروان ثم في المهدية ، ثم اقتحمت مصر واستولت عليها ، وأخذت تناوىء الدولة العباسية التي كانت قد ضعفت وتضعضعت وبدأ السلطان يخرج من يدها لتقبض عليه ايدي الفرس والترك ويتألف في انحاء بلادها عديد من الدويلات الصغيرة المستقلة .

ومن اعلام الاسماعيلية الحسن بن الصباح الذي ولد في بلدة قم بفارس في عهد السلجوقيين سنة ٤٤٨ هـ ١٠٥٦ م وقيل سنة ٤٤٥ هـ ١٠٥٣ م ، وكان أبوه تاجراً فقيهاً يزعم انه يرجع بنسبه الى ملوك اليمن الحميريين ، ويعتنق مذهب الشيعة الاثنى عشرية ، ولكن اضطهاد الشيعة في عهد

---

١ – فرق الشيعة لابي محمد الحسن النوبختي ص ٥٧ – ٥٨ ، ٧١ – ٧٢ ، ٩٠ .
٢ – تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٤٠

السلجوقيين لاتصال بعضهم بالدعوة الفاطمية ، حمله على ارسال ولده الى جامعة نيسابور الشهيرة التي كان من اساتذتها الامـــام موفق الدين النيسابوري .

وفي هذه المدرسة اجتمع ثلاثة طلاب نابغين عُرفوا بالعاطفة الملتهبـة واتقاد الذكاء ، وهم عمر الخيام ونظام الملك والحسن الصباح . وكان هذا اكثرهم دهاء وبعد نظر ، وكثيراً ما كان يحرج اساتذته وزملاءه باسئلة غريبة لا تخطر لهم ببال .

كان هؤلاء الثلاثة الطامحون يعيشون معاً ، ويأكلون معاً ، ويتذاكرون دروسهم سوية ، ويرقدون في غرفة واحدة . وذات مساء ، بعد نزهة مرحة قاموا بها في انحاء نيسابور ، قال الحسن لرفيقيه : « تعالوا نتعاهد على ان من يتولى الوزارة منا في المستقبل يقرب رفيقيه الى السلطان ويسند اليهما ما يطلبانه من رفيع المناصب . »

فاعجبت هذه الفكرة عمر الخيام ونظام الملك ، وقالا له : « نعاهدك على ذلك » وتفرق الشبان الثلاثة ليلتقوا بعد ذلك في اعجب الظروف ..

عاد الحسن الى قم وكان ابوه قد توفي منذ امد قصير ، فلم يتخذ لنفسه عملاً او صنعة ، بل جعل ينفق من الثروة القليلة التي تركها ابوه ، ويقضي وقته معتزلاً او مع صديق له يدعى علي المطار يتناقشان في السياسة والفلسفة ، او يبحثان عن مغنية يصغيان الى صوتها الرخيم ..

وذات يوم اقبل عمر الخيام الى قم ، وكان قـــد اضحى شاعراً مرموقاً ، فزار صديقه ابن الصباح وقال له ان زميلهما القديم قـد شق طريقه الى المجد واصبح وزيراً للسلطان السلجوقي الب ارسلان ، وانه قد زاره مهنئاً فبرّه واكرمه وذكره بعهد المدرسة وقـال له لماذا لا يسأله

الوفاء به ، فاجابه ، « بارك الله بك وبوزارتك .. وانما انا رجل لا احب الا الحكمة والفلسفة وان يكون لدي من الدخل ما يكفيني مؤونة السعي .. » فرتب له الوزير ستمائة دينار يقبضها كل شهر ، فعاد الى نيسابور وعكف على التأليف ونظم الشعر ..

ونصح عمر الخيام رفيق الصبى بزيارة نظام الملك والتماس عونه ، فما هي الا ايام حتى رحل الى اصفهان عاصمة السلجوقيين ..

وكان نظام الملك معروفاً بتشجيع رجال الفكر ومساعدة العلماء والادباء ، فلما رأى الحسن بين من دخل عليه لم يعرفه وظنه احد الطلاب او الشعراء المتكسبين ، فقال له : « وانت ماذا تريد منا ايها الطالب ؟ »

فاجابه : « انا الحسن بن الصباح من جامعة نيسابور !.. »

فعرفه واكرمه ورفع أمره الى السلطان فولاه رياسة ديوان الجباية والخراج ، وهي مرتبة تلي الوزارة ..

وقيل ان نظام الملك خشي أن ينافسه الحسن في منزلته لدى السلطان لما يعرف من ذكائه ودهائه ، فدعاه اليه يوماً وقال له اني واثق بان سيدنا السلطان سيقدرك ويعطيك المركز اللائق بك ، ولما كنت اعلم حبك للقيادة فقد بدا لي ان ادعوك لتكون قائداً في الجيش ..

فقال الحسن : « ولكني لا احب الخدمة في الجيش »

فقال الوزير : « انت مخطيء ، لان الجيش قوة الهيبة .. وانت تعلم ان السلطان محمود الغزنوي لم يتمكن من توسيع رقعة الامبراطورية الا بواسطة الجيش .. »

فاجاب : ان هذه الامبراطورية التي توطدت بواسطة السلاح قد تمزقت ، ويجب صيانتها بشيء آخر غير السلاح .

فقال الوزير : فما هذا السلاح الآخر ؟..

فقال الحسن : لنبحث عنه !.

فقال الوزير : انك لا تزال كما عهدتك لم تتغير أو تتبدل ؟..

وبدا الجفاء في وجهه ، فنظر اليه الحسن وذكّره بعهدهما القديم ، فغضب نظام الملك وقال : ما تعودت ان احنث بعهد قطعته !..

فخرج الحسن حاقداً على صديق الامس ، وما زال حتى اجتمع بالسلطان وظفر باعجابه ، وشعر نظام الملك بذلك فاخذ يحول دون اجتماعهما ، واذا اتفق ان ضمهما مجلس حاول اشغال السلطان عن الحسن باحاديث يختلقها او شؤون يرتجلها ..

ثم انصرف السلطان الى الحرب مع بيزنطية ، وهي الحرب التي توطد فيها ملك السلجوقيين في سورية ، وما كاد يعود من معاركه الظافرة ، حتى ادركته المنية وحل محله ابنه ملكشاه بعد صراع عنيف مع عمه وقتله اياه ..

وبلغت السلطنة السلجوقية في عهد السلطان الجديد شأواً عظيماً ، واستطاع الحسن ان يغدو وزيراً لملكشاه ، ولكن نظام الملك ظل الوزير الاول وصاحب النفوذ الاكبر ، ونشأت من جراء ذلك بين الوزيرين النابغين منافسة قوية خفية .

وسأل ملكشاه نظام الملك يوماً عن الوقت الذي ينبغي له لتنظيم دفتر جامع لابواب الموازنة في الدولة ، فقال الوزير : سنتان !

فاستكثر السلطان المدة وقال انه يريد الدفتر في وقت أقصر ، واذا بالحسن الصباح يقول : في وسعي يا مولاي ان انظم لك دفتراً بموازنة الدولة خلال أربعين يوماً ..

فدهش السلطان ولم يصدق ما سمع . ولكن الحسن اكد له قدرته على ذلك ، فسر وامر كتاب ديوانه بأن يمدوه بما شاء من المعلومات ، وشرع الحسن في عمله وهو على يقين من انجازه في المدة التي عينها .

وحدّق نظـام الملك ، وخشي على مركزه في الدولة ، فرشا خادم الحسن وطلب منه ان ينتظر حتى ينتهي من عمله ثم يعبث فيه ، ففعل .

ودخل الحسن على السلطان ينبئه بانه قد فرغ من عمله ، فطلب منه حساب احدى الولايات ، فمد يده الى موضع تلك الولاية وسحب ورقتها فلم يجد مـا يطلبه ، وسحب اخرى فاذا هي غيرها ، ثم سحب ثالثة ورابعة وخامسة والسلطان يسأله هل وجدتها ، وهو يقول مضطرباً : « نعم .. نعم .. هذه هي . » ثم يبدو انها ليست الورقة التي يريدها ..

فغضب السلطان ، واغتنم نظام الملك هذه السانحة فقال له : « اذا كان مولانا لا يثق بالاكفاء من رجاله الذين يعرفون السهل من الصعب ، والممكن من المستحيل ، ويصغي الى مجنون لا خبرة له بالامور المـالية والحسابية ، فانه لن يلقى الا تدجيلاً وتضليلا .. »

فانتهر السلطان ابن الصبـــاح ، وامر الوزير بالقبض عليه ، فوثب الحسن من النافذة وتوارى عن الانظار ..

لقد عاد الحسن الى قم يائساً من الوصول الى مركز جديد في دولة السلجوقيين ، حاقداً اعظم الحقد على نظام الملك ، واخذ يلتمس لنبوغه

آفاقاً اخرى ، فاجتمع بدعاة الباطنية ، واطلع على تقاليدها واسرارها ، فتأثر بالحركة الاسماعيلية واعجب بالتنظيم السري الذي تقـــوم عليه ، ورأى ان في وسعه ان يبلغ عـن طريقها النفوذ الذي يريد ، وطفق يقوم بالدعوة للخليفة الفاطمي إمام الاسماعيليين في حماسة وبراعة اكسبتاه اعجاب عبـــد الملك بن عطاش كبيرهم في العراق ، فجعله من كبار الدعاة ، ونصحه بالسفر الى مصر ليتعرف بالامـام وينهل علوم الدعوة عن شيوخها وفلاسفتها .

وكان نظام الملك قد اتهم الحسن بالدعوة الى الالحاد ، وأرسل رجاله لملاحقته والقبض عليه ، فخرج من قم وسار متنكراً الى الري واصفهان واذربيجان وسورية ، حتى بلغ مصر بعد سنتين اتصل خلالها بدعـاة الاسماعيلية في جميع هذه البلدان ، واحتل منزلة عظيمة في نفوسهم ..

ولما بلغ مصر استقبـله المستنصر الفاطمي بحفاوة وقربه واكرمه ، فظل ثمانية عشر شهراً يعيش في رعاية الخليفة ، ويغشى دار الحكمة وهي يومئذ أعظم مركز للعلم والعرفان ، فيدرس فيها اساليب الدعوة السرية على أيدي اساتذتها .

ولكن نفوذ الحسن الصباح في الدولة الفاطمية كان ضعيفاً بالرغم من حب الخليفة له وعطفه عليه ، لان الخليفة الفاطمي كان قد غدا كالخليفة العباسي رئيساً دينياً اكثر منه رئيساً للدولة ، وتجمعت السلطة كلهـا في يد بدر الجمالي قائد الجيش ..

وكان بدر شديد الخصومة لكل من يثق به الخليفة ويسترسل اليه ، فنقم على الحسن وأوجس خيفة منه ، وزادت نقمته عليه يوم اشتـــد الصراع حول ولاية العهد ، اذ عهد المستنصر بالخلافة لابنه نزار وارادها

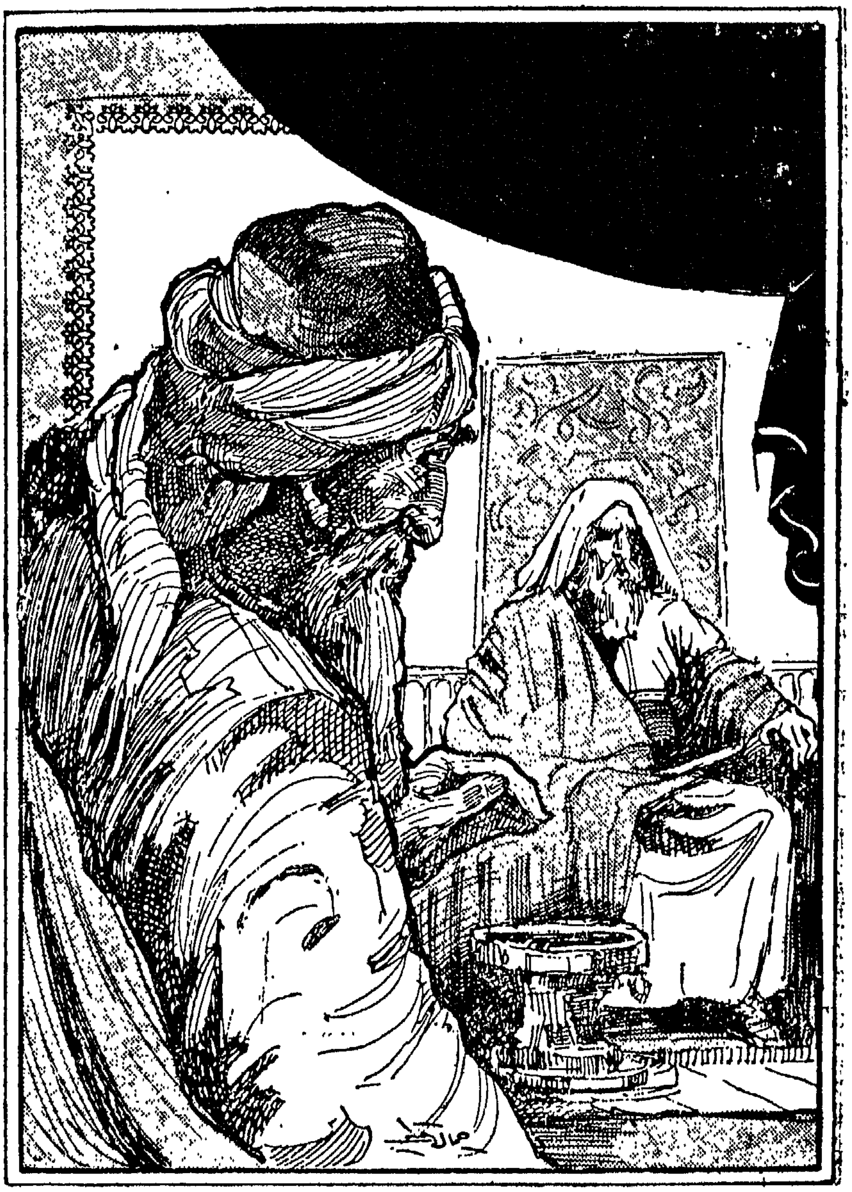
بدر للمستعلي بن المستنصر الثاني من شقيقة بدر على مـــا تقول بعض المصادر الاسماعيلية ، وانتصر الحسن لذلك على هذا ، واعتقل الحسن في احدى قلاع دمياط الا انه استطاع ان يفر من معتقله ويغادر مصر على ظهر مركب متجه الى سورية ، وسار الى حلب فاجتمع بالاسماعيليـين الذين فيها واخبرهم بالمؤامرة على نزار الذي هو في رأيه الامام الحقيقي ، وكيف ان بدر يحاول اسناد الخلافة الى احمد شقيق نزار الذي لقب فيما بعد بالمستعلي بالله .

وهكذا انقسمت الطائفة الاسماعيلية الى فرقتين ، النزارية التي تمسكت بامامة نزار بن المستنصربالله ، والمستعلية التي سارت وراء المستعلي .

وتنقضي شهور عدة وحسن الصباح يتنقل بين سورية والعراق وفارس، ناشراً الدعوة لمذهبه ، باحثاً عن عبد الملك بن عطاش داعي الدعـــاة وشيخ الجبل الاول حتى التقى به وقد اقعدته السن ، ففرح عبد الملك به وافضى اليه بجميع المعلومات والاسرار التي كان في حاجة اليها ، ودله على مراكز الاموال الاسماعيلية والمؤتمنين عليها فأنشأ يركز الدعوة حول امامة نزار ، ويعد العدة لانقلاب يطوّح بحكم السلجوقيين ويعلن حكم الفاطميين في فارس والعراق وسورية .

ولم يكن هذا المطلب بالامر اليسير ، اما خطة الحسن في الاستعداد له فلم تكن ترمي الى الاكثار من الانصار بقدر مـــا كانت تهدف الى اختيارهم من الرجال الاشداء الاوفياء الذين يستميتون في سبيل عقيدتهم

وقد اختار من اصفهان خمسين شخصاً منهم من اتبعه ايمانا بالامـام المنتظر ، ومنهم من سار معه حباً بالمغامرة والمخاطرة ، فارسل ثلاثين شخصاً منهم للدعوة في انحاء البـــلاد ، وسار بالباقين في ارجاء فارس



صورة خيالية لشيخ الجبل

باحثاً دارساً متقصياً ، متصلا خلال ذلك بالاسماعيليين ، داعياً اياهم الى الثبات والاستعداد ..

وظل شأنه كذلك ثلاث سنوات كاملة وهو يبث دعاته في كل مكان حتى استوثق من امره وقرر البدء بثورته ، فذهب الى قلعة آلموت ، أي عش النسر ، التي تقع على احد جبال مازندان في المنطقة الشمالية الغربية من فارس مـا بين الديلم والعراق ، فاتصل بحاكمها ابي مسلم المهـدي واظهر له الصداقة ثم وثب به في السادس من رجب سنة ٤٨٣ هـ ٤ ايلول ١٠٩٠ م فاخرجه من القلعة واستولى عليها ..

وما كاد يستتب له الامر في القلعة حتى زاد في تحصينها واخذ يرسل منها الحملات على المناطق المجاورة ، فاستولى على الحصون التي فيها وبنى حصوناً جديدة ، وراح ينظم اتباعه تنظيما سرياً عجيباً ، فهم يتألفون من ثلاث مراتب : المستجيبون او الدعاة وهم الذين يقومون بالدعوة لمبادىء الطائفة ويعرفون اسرارها ، والرفاق او المقدمون وهم قـادة الجيش والساهرون على تنفيذ خطط الفئة الاولى ، والفـدائيون وهم الذين يختارون لتنفيذ المهمات الجسام ، ولا يبالون بالموت ان اعترض طريقهم اليها .. وكان هؤلاء يربون في بيوت الرؤساء والمقدمين فيوهمون بأن مخالفة الرئيس هي اعظم خطيئة وان خدمته هي اعظم فريضة واكبر نعمة [١].

ويقال ان الحسن بن الصباح قد انشأ لاتباعه جنة او جنات ملأها بالوان الجمال والفتنة والغواية ، من زهور وحسان وولدان ، وانه كان

---

١ – يقول الاستاذ عارف تامر ان اول من اسس هذه المنظمة وسن منهاجهـا وابتدع فكرتها هو الداعي الاسماعيلي عبدالله بن عطاش وقد درس الحسن الصبـاح تعاليمها عليه وقام بتوسيع نطاقها وتعديلها وتحسينها (سنان وصلاح الدين ص ٢٧)

يسقي احدهم الحشيش الذي اكتشفه في مصر ، ثم ينقله الى تلك الجنة وهو غائب عن الوعي ، فاذا استيقظ حسب انه انتقل الى السماء وقضى الساعات مستمتعاً بما يحيط به من متع الروح والحس ، ثم يُسقى الحشيش من جديد ويُعاد الى مكانه الاول ويقول له الرؤساء ان عودتك الى ما كنت فيه من نعم الفردوس رهينة برضى الشيخ عنك .. والشيخ او شيخ الجبل الأول هو عبدالله بن عطاش ، وشيخ الجبل الثاني هو الحسن بن الصباح ، وشيخ الجبل الثالث هو راشد الدين سنان .

وكان نزار حين رأى ان الخلافة قد افلتت منه ، سار الى الاسكندرية مع اخيه عبدالله وابن مصال اللكي ، فاستقبله واليها ناصر الدين افتكين التركي مرحباً ، وبايعه هو وأهل الاسكندرية بالخلافة ، ولقبوه « المصطفى لدين الله » فلما علم الوزير الافضل بذلك ، خرج لقتاله على رأس جيش كثيف ، فدارت الدائرة أولاً على الأفضل وعاد الى القاهرة ، وأخذ يعدّ العدة لقتال نزار من جديد ، ونجح في استمالة بعض اتباع نزار من العربان ، ثم زحف الى الاسكندرية ثانية فحاصرها حصاراً شديداً ، واضطر نزار وافتكين الى طلب الأمان ، فأمنهما الأفضل ، ثم انتقم من نزار بأن وضعه بين حائطين وبنى عليه فمات ، وقتل افتكين ، وفر ابن مصال الى المغرب [١] .

وبينما يؤكد ابتاع الاسماعيلية المستعلية ان نزاراً قتل على النحو الذي رويناه ، سنة ٤٨٨ هـ ١٠٩٥ م ، وبذلك تم للمستعلي القضاء على سلالته ، وان الامام الذي اسس الدولة النزارية في فارس لم يكن من صلب نزار وانما هو من سلالة الحسن بن الصباح ، يؤكد اتباع الاسماعيلية النزارية

---

١ – تاريخ الدولة الفاطمية ص ٧٢ .

ان الحسن الصباح قد ارسل الى القاهرة كلاً من الفدائيين زاده اسد وحسن اسماعيل ، فاختطفا الحسن بن الأمام نزار وحملاه الى آلموت فأسس الدولة النزارية فيها وأطلق عليه لقب « الحسن الهادي » ، وأرسل الحسن الصباح البشرى بذلك الى قلاع الدعوة في فارس والعراق وسورية كي يفتح المريدون قلوبهم ويفرشوا ارواحهم لأمامهم الحسن هادي المستجيبين وأمير المؤمنين ووريث الفاطميين .

وكان ملكشاه على خلاف مع الوزير نظام الملك ، فلما علم باستيلاء الحسن الصباح على قلعة آلموت ، استدعاه اليه واسترضاه واستشاره ، فحرضه على استعادة القلعة منه قبل أن يتعاظم أمره ويستفحل خطره ، فأرسل اليه جيشاً صغيراً حاصره عدة أشهر ، ولكن شيخ الجبل لم يلبث ان بطش بجيش ملكشاه وشتت شمله .

واتفق أن ثار اسماعيلي آخر من أتباع الحسن ، يدعى حسن القيالي، فجرد السلطان عليه حملة كبيرة حاصرته في قلعة ديره وكادت تظفر به... فارسل الى شيخ الجبل يستنجد به ويقول له انه ينتظر من كبير الطائفة معجزة تنقذه مما هو فيه ، فقال الحسن : « لبيك .. » وأرسل احد الفدائيين من اتباعه الى قصر الوزير نظام الملك فاغتاله ، واضطرب الامر قليلا من بعده ، مما اضطر السلطان الى استدعاء الجيش الذي يحاصر قلعة ديره ، وسلم بذلك حسن القيالي وتمت المعجزة !..

ودشنت هذه الجريمة عهداً جديداً في تاريخ الشعوب الاسلامية ظل الاغتيال فيه سلاحاً سياسياً طوال مائة عام ..

---

١ – انظر : على ابواب آلموت لعارف تامر ص ١٦٦ – ١٦٧

مات السلطان ملكشاه واخذ ابناؤه وامراؤه يقتتلون من بعده ، كل منهم يريد ان يستأثر بالحكم من دون اخوته ، وكانت الاسماعيلية وعلى رأسها الحسن بن الصبـــاح تذكي هذه الحرب الاهلية ، وتوغر صدور الأمراء والحكام بعضهم على بعض ، وتمد يد المعونة وسلاح الاغتيال الى هذا او ذاك ، ولا يـــكاد يظهر واحد منهم على الآخرين حتى يُقتل ويُقبض على القاتل فيعترف بأنه اسماعيلي ، وبأن شيخ الجبـــل هـــو الذي ارسله في هذه المهمة ، وبأنه فخور وسعيد لقيامه بواجبه وإن فقد حياته في سبيله !..

وتعاظم الضغط على الاسمـــاعيليين من جراء ذلك ، واخذهم الامراء بالشدة ، وطفق العلماء يحملون عليهم في المساجد والمجالس العامة ، وفتك بهم الجند فتكا ذريعاً ، ولكن ذلك كلـه لم يكن ليفت في عضدهم ، بل كان يذكي الحقد في صدورهم ، ويدفعهم في طريق الانتقام ، حتى تناسوا الاهداف الفكرية التي كانوا ينزعون اليها ، وغدوا طوال مـــائة سنة عصابة سرية فريدة من نوعها في التاريخ ، مدربة على القتل المنظم ، ولا هم لها أو غاية سوى الاغتيال وبث الذعر ونشر الاشاعات المخيفة .

احدى وعشرون سنة مرت والحسن بن الصبـــاح معتصم في حصنه ، ينظم الدعوة ويؤلف الكتب ، ويدرب الجيوش ، ويعلم الشبان ، ويحيك المؤامرات ، ويرسل الفدائيين لقتل الامراء والوزراء والحكام من خصوم الاسماعيليين ، يريد ان يبني لهؤلاء مجداً ويشيد لنفسه سلطاناً ، بالخنجر المسموم والمدية المشهرة في الخفاء .

وفي سنة ٥٠٥ هـ ١١١١ م جرد السلطان محمد بن ملكشاه حملة قوية على حصن آلموت حاصرته سبع سنوات كاملة ، ثم غادرته دون ان تنال بغيتها منه عندما نعي اليها السلطان ، فحمل الاسماعيليون عـــلى

مؤخرتها وسلبوها من القوت والعتاد ما اعاد اليهم بأسهم وقوتهم

ثم جاء السلطان سنجر وكان قائداً بارعاً ، فاراد ان يقضي علـى الحسن بن الصباح بنفسه ، ولكنه ما كاد يبلغ بجيشه تخوم قلعة آلموت حتى استفاق ذات صباح ليشاهد على فراشه خنجراً حاداً كتب عليه : لو لم تكن محبتي للسلطان قوية لأمرت بوضع هـذا الخنجر في صدره ، فتولاه الذعر ، وصالح الحسن متخلياً له عن امتيازات كثيرة .

وفي سنة ٥١٨ هـ ١١٢٤ م توفي الحسن بن الصباح ، بعد ان عين كيابزرد حميد خليفة له . وقد تعرض الاسماعيليون بعد وفاته لاضطهاد عنيف ، وحملات عديدة ، اهمهـا الحملة التي وجهها اليهم في فارس سنة ٥٢٢ هـ ١١٢٨ م ابو النصر احمد بن الفضل وزير السلطان سنجر ، والحملة التي تعرضوا لهـا في العراق سنة ٥٣٢ هـ ١١٣٧ م بأمر الخليفة العباسي الراشد لله . وكانت ترافق هـذه الحملات العسكرية ، مذابح اهلية ، فغزيت قلاعهم ، واستبيحت دماؤهم ، واحرقت قراهم ، وثار عليهم الناس في كل مكان ، فتشتتوا وتفرقوا وهرب الى سورية من استطاع الهرب منهم .

وكانت بـلاد الشام طوال الحكم الفاطمي بالمغرب ومصر ، تتلقى فيضاً من الدعاة الاسماعيليين ، كما كانت تستقبل وفود القرامطة وسيل الهـاربين من الاضطهاد العباسي والسلجوقي ، فنشأت للاسماعيلية عـدة قواعد في حلب وسلمية وما يجاورهـا من القرى والقلاع . وكان نشاط هذه القواعد ينمو ويزدهر أو يخبو ويضعف ، تبعاً لامتداد النفوذ الفاطمي أو انحساره . ثم جاءت موجة الهجرة الاسماعيلية من فارس والعراق ، إثر النكبات التي عاناها الاسماعيليون هناك ، عاملاً قوياً يعزز قواعدهم في سورية ويمكّن لهم فيها .

وقد اتجهت انظار المهاجرين الوافدين الباحثين عـن معاقل جديدة تتوافر فيها الحماية والمنعة ، الى جبـال البهرة الواقعة في القسم الجنوبي من جبال العلويين ، لوعورة مسالكها ومناعة حصونها ، فهي تتألف « من مرتفعـات شديدة الانحدار ، وأودية وعرة المسالك ، ودروب متشبعة ضيقة ، تتشابك في سفوحها الاشجار وتتعانق في اعاليها القمم ، فتؤلف بذلك منطقة حصينة ، تغري الهاربين من الاضطهاد الديني والسياسي ، من اصحاب العقائد والثائرين ، الذين اختلفوا مع بيئتهم ، باللجوء اليها تعشقاً للحرية والأمن [1] » .

وكان اول ما تركزوا فيها سنة ٥٢٥ ﻫ ١١٣٠ م حين اشترى الداعي ابو الفتح قلعة القدموس من صاحبها ابن عمرون بالمال ، ثم وثبوا عـلى أغلب القلاع في تلك الجبـال الشاهقة فسقطت في ايديهم الواحدة تلو الاخرى ، فملكوها وعمروها ووطدوا أقدامهم فيها . ولما انتزعوا مدينة مصياف من بني منقذ سنة ٥٣٥ ﻫ ١١٤٠ م جعلوا منها مقراً لممثل الامام ومركزاً لنشر الدعوة وتدريب الفدائية ووضع الخطط الحربية للدفـاع والهجوم [2]

وفي سنة ٥٥٨ ﻫ ١٠٦٥ م اختير سنان راشد الدين ليكون ممثلاً ونائباً للأمام في سورية ، وكان سنان قد ولد في البصرة وتثقف في المدارس الاسماعيلية بآلموت ، وكان الامام القاهر بقوة الله يرعاه ويعطف عليه رعايته لأولاده ، فسار الى حلب متخفياً بزي الدراويش وبقي فيها عدة اشهر ،

---

١ – الاسماعيليون والدعوة الاسماعيلية بمصياف ص ٤١

٢ – كان احد المصادر التي رجعنا اليها في كتابة هذا الفصل ، مخطوطة قيد الطبع للاستاذ مصطفى غالب بعنوان « سنان راشد الدين » وفي ذيلها تحقيقه لمخطوطة « مناقب المولى سنان راشد الدين »

ثم تنقل دارساً منقباً في جميع المناطق التي كان للاسماعيلية وجود فيها، حتى وصل الى منطقة مصياف فأقام في قرية بصطريون على مقربة من حصن الكهف يعلم الصبيان القراءة والكتابة دون ان يعرّف احداً بنفسه ، وكان يجلس على حجر خارج القرية يلقي دروسه عدة ساعات دون ان يتحرك في مجلسه ، ويعالج المرضى بأدوية يصنعها بنفسه من الأعشاب ، ويلبس بردة يمنية يغسلها بيده ويحتذي خفاً من صنعه [١] .

ولما شاعت أخبار صلاحه وتقواه ، دعاه كبير دعاة الاسماعيلية الشيخ ابو محمد المنقي الذي كان يقيم في حصن الكهف ، الى الاقامة في الحصن ، فظل يعمل على خدمة الشيخ أبي محمد مدة سبعة اعوام دون أن يطلعه على المهمة الموكلة اليه ، وهو يدرس خلال ذلك أحوال الاسماعيلية ليتمكن من معرفة كل شخص ويخبر كل شيء . ثم أصيب أبو محمد بمرض شديد ، وكان قد طعن في السن ، فدخل عليه وقدم اليه كتاب الامام الذي يطلب منه تقديم الطاعة لممثله الجديد الشيخ سنان ابن سليمان الملقب براشد الدين ، فبكى أسفاً على ما فاته من امتثال الأمر منذ سبع سنوات وهو لا يعلم ان مملوكه هو سيده ، ثم دعا الاكابر والاعيان وقرأ عليهم تقليد الامام ، وقال لهم : « هذا نائب الامام منه السلام والحاكم عليكم بأمره بعدي !.. »

وقد نقل سنان مركز القيادة الاسماعيلية الى مصياف ، وهي قلعة منيعة بموقعها من أعلى الجبل ، وزادها مناعة انها قائمة على صخر جوانبه عمودية يعسر تسلقها ، وان جبل مصياف محاط بالمستنقعات من كل ناحية ، وعلى مسافة من الجبل تقع بلدة مصياف التي يسكنها الفلاحون المشتغلون

---

١ — Guyard ; Crand Maitre des Assassins au temps de Saladin . p. 35

بالزراعة ، والقلعة حمراء اللون ذات سور سميك ارتفاعه ستون قدماً ، ليس له الا باب واحد سقفه عقد متين ، فاذا دخل الرجل منه سار في ممر كله معقود ، يصل من الداخل الى قمة القلعة وما وراءها وفوقها من الغرف ، وكلها مبنية من الحجر الصلد . وعلى السور أبراج متلاحقة تقيم بها الحامية ، ترمي الهاجمين عليها بالسهام او الحجارة قبل وصولهم الى الباب لمسافة بعيدة ، بحيث يستحيل اخذها بالهجوم الا بعد قتل المئات والألوف [1] .

ثم وجه شيخ الجبل اهتمامه لخلق جيل جديد من المحاربين المدربين على الاعمال الفدائية والأمور العسكرية [2] وكان يقضي ايام الاسبوع متنقلاً في القلاع الأربع : الكهف ، مصياف ، القدموس ، عليقة ، ويقوم بزيارات الى الخوابي والمينقة ، ويخصص يومين للاقامة بجبل مشهد حيث ينقطع للتأليف ورصد النجوم والعبادة والتأمل ، وكان يسير بين القلاع في طرق ومعابر سرية مشياً على الأقدام حتى لا يعرفه أحد ، ويكثر من الذهاب الى شيزر وحماة وحمص والشام متخفياً [3] . وقد بلغت الاسماعيلية في سورية في عهد سنان اوج ازدهارها ، وبسطت نفوذها على جميع المنطقة التي استوطنتها ، وفتحت قلاعها لاستقبال الاسماعيليين المضطهدين القادمين من فارس والعراق والمدن السورية الاخرى .

---

١ – صلاح الدين ومكايد الحشاشين لجرجي زيدان ص ١٤٤

٢ – اعلام الاسماعيلية ص ٩٨ ، الطائفة الاسماعيلية ص ١٠٠ ، سنان وصلاح الدين ص ٣٢

٣ – سنان وصلاح الدين لعارف تامر ص ٣٣ نقلاً عن كتاب « فصول واخبار » ص ١٦٤

وتدل الأقاصيص التي تروي عن تنبؤاته واطلاعه على اسرار الدول وخفايا النفوس ، على انه « قد بث في أنحاء دولته ودول جيرانه شبكة من المخبرين السريين يراسلونه بواسطة النار والحمام الزاجل الذي مهر في استخدامه الاسماعيليون مهارة فائقة تتمشى مع خطتهم في الحذر والحيطة، ومع ما تتسم به دعوتهم من غلو في الأسرار ، واغراق في التكتم . وفي المساء ، عندما تغفو مصياف يخف سنان راشد الدين الى قمة جبل مشهد ، او يؤوب الى عرينه في أعالي القلعة ، ليتلقى رسائل الأنصار، تحملها حمامات بيضاء من الشرق النائي او الغرب القصيّ ، فتقرع النوافذ بمناقيرها المقوسة ، وتلمع عيونها في الظلام لتنبه شيخ الجبل ، فيتلو الرسائل ، ويعكف على دراستها ، ثم يخبر من حضر من اتباعه ، ويتناقل الناس ذلك عنه فيمسي عالماً بالغيب لديهم ، لا سيا عندما تتحقق الأخبار فيا بعد [1] . »

لقد نشأت هذه الدولة الفتية في غفلة من الحكومات المجاورة ، واستغلال للوضع المضطرب في بلاد الشام من جراء الصراع بين امراء المسلمين المتنازعين فيا بينهم من جهة ، وبينهم وبين الصليبيين من جهة ثانية . ولكن سرعان ما اثارت هذه الدولة حفيظة جيرانها ، وحركت عوامل الخوف لدى المسلمين والصليبيين ، « وكانوا كلهم يكرهون مجاورة الاسماعيليين [2] » لما اشتهروا به من اعمال الوقيعة والاغتيال .

وكثيراً ما تعرضت قلاع الاسماعيليين للعدوان ، من قبل الامراء المسلمين أو الصليبيين ، فكانوا يخسرون في معركة ليظفروا في معركة ثانية،

---

١ – الاسماعيليون والدولة الاسماعيلية بمصياف ص ٦٣ – ٦٤ .

٢ – خطط الشام ج ٢ ص ٨

ويفقدون معقلا ليكسبوا معقلا آخر ، وربما انحازوا خلال ذلك الى هذا الجانب او ذاك ، حتى رأيناهم يهادنون الصليبيين احياناً او يوادعونهم او يتعاونون معهم . وقد اتهمهم بعض المؤرخين بأنهم انما فعلوا ذلك لأنهم اسماعيليون ، والواقع اننا رأينا بعض امراء السنة يهادنون الفرنجة او يحالفونهم ، كما رأينا امراء بيزنطيين وصليبيين يستنجدون الامراء المسلمين على خصومهم وأبناء جلدتهم ، ليدفعوا بهم عدوان جيرانهم ومنافسيهم ، او يستعينوا بهم لبلوغ مزيد من المجد والسلطان ، ولم تكن دوافع اولئك لتختلف عن دوافع هؤلاء [1] !..

ثم جاء صلاح الدين فنقم عليه الاسماعيليون لأنه الغى الخلافة الفاطمية. وتروي المصادر الاسماعيلية ان سنان راشد الدين قد اغضبه ذلك ، رغم الخصومة الشديدة بين النزارية والمستعلية ، فأرسل الفدائي حسن الأكرمي لتهديد صلاح الدين في القاهرة ، فتمكن هذا الفدائي من دخول القصر ، والوصول الى حجرة رقاد صلاح الدين ، فوجده غارقاً في سباته ، فترك قرب وسادته خنجراً مسلولاً مغموساً بالدم مع البطاقة التالية : « اعلم ايها السلطان المغتصب العاتي .. انك وان اقفلت الابواب ، ووضعت الحراس ، لا تستطيع ان تنجو من القصاص ومن انتقام الاسماعيلية . اراك قد بلغت القحة واستبديت وقتلت ، وظلمت وسلبت ، دون ان تحسب حساباً لشيخ الجبر الاسماعيلي الذي يقف لك بالمرصاد ،

---

١ – من الروايات التي نسجت حول الاسماعيليين والتي نشك في صحتها ، ان شيخ الجبل أرسل في سنة ٥٦٨ هـ ١١٧٢ م وفداً الى ملك القدس للمفاوضة بشأن اعتناق اتباعه للنصرانية ، ويقول الدكتور فيليب حتي تعليقاً على ذلك : « وهو تدبير منسجم مع مبدأ التقية الذي يأخذ به غلاة الشيعة ، على ان الفرسان الهيكليين ، حرصاً منهم على الجزية التي كان الحشاشون يؤدونها ، عمدوا الى قتل اعضاء هذا الوفد ! » انظر تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ٢٤٧ .

ولو أردنا قتلك الليلة لفعلنا ولكن عفونا عنك لعلك تقدر هذا ، واننا ننذرك لتصلح من سيرك وتعيد الحق المغتصب الى ذويه ، ولا تحاول ان تعرف من أنا فذلك صعب عليك وبعيد عنك بعد السماء عن الارض ، إذ قد أكون اخاك او خادمك او حارسك أو زوجك وأنت لا تدري ، والسلام [1] . »

وقد اغفلنا رواية هذه القصة في مكانها حسب التسلسل لشكنا في صحتها . والذي نعتقده ان المصادر الاسماعيلية قد غالت في تصوير راشد الدين سنان ونسبت اليه الخوارق والمعجزات ، وقد نقل المؤرخون الغربيون عنها هذه الروايات لطرافتها وغرابتها ، ثم عاد بعض الكتاب العرب فاتخذوا من رواية اولئك المؤرخين لها دليلاً على صدقها وصحتها .

والواقع ان مؤيدي شيخ الجبل وخصومه على طرفي نقيض ، فالأولون ينسون اليه الكرامات والمعجزات ، فهو في رأيهم يعلم الغيب ، ويتنبأ عن المستقبل ، ويعرف خفايا القلوب ومكنونات الصدور ، يحدث الأموات فيجيبونه ، ويأمر الحجارة فتستجيب لأمره ، ولم يقع حادث غريب مخيف إلا نسبوه اليه وان كان من العوارض الطبيعة كالمطر والرعد والبرق . أما الآخرون فينكرون عليه كل شيء إلا الذكاء الحاد ، والحيلة البارعة ، والتدبير المحكم ، والتلاعب بالساذجين والبسطاء من الناس ! .

ومن هذا القبيل الملابسات التي رافقت حملة صلاح الدين الأيوبي على معاقل الاسماعيليين سنة ٥٧١ هـ ١١٧٦ م وحصاره لقلعة مصياف في ٢٠

---

١ – اعلام الاسماعيلية ص ٣٠٠

محـرم سنة ٥٧٢ هـ اول آب (اغسطس) ١١٧٦ م ، فابن واصل يروي ان صلاح الدين قـــد نصب المجانيق على الحصن « واوسعهم قتلاً وأسراً وساق ابقارهم وخرب ديارهم » حتى شفع فيهم صاحب حماة ، وهو شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين ، وقد فسر ابن واصل هذه الشفاعة في ضوء الجيرة بين شهاب الدين والباطنية [1] . أما شاهنشاه تاج الدين أيوب فيقول : « ثم دخلت سنة احدى وسبعين وخمسمائة وفيها قصد السلطان بلد الاسماعيلية في قلعة مصياف فأرسل سنان مقدم الاسماعيلية الى خال صلاح الدين وهو شهاب الدين الحارمي صاحب حماة يسأله ان يسعى في الصلح ، فسأل الحارمي الصفح عنهم ، فاجابه صـــلاح الدين الى ذلك وصالحهم ورحل عنهم [2] » وكذلك ما ذكره ابن أبي طي ، وكان والده من رؤوس الشيعة ومع ذلك فانه لم يذهب الى ما ذهب اليه متطرفو الشيعة بصدد حملة صلاح الدين على مصياف ، وانما قال ان السبب في تخليه عن حصار مصياف ومصالحة أهلها هو خوفه من أن يستغل الصليبيون غيبته واشتغاله بحصارها فيغيرون على الشام الأعلى ، وقد وصلت الأخبار أثناء حصاره مصياف بوقوع ذلك فعلاً [3]

وأما الروايات الاخرى عن هذه الحملة ، فهي مقتبسة في معظمها عن كتاب « مناقب المولى سنان راشد الدين » للشيخ أبي فراس ابن القاضي نصر بن جوش الذي نشره للمرة الأولى المستشرق « غيارد » ، أو متأثرة بها ، وخلاصتها ان صلاح الدين لما جاء الى مصياف بجيشه فحاصرها ، ارسل الى شيخ الجبل رسولاً ، وكان يومئذ في قرية العنيبة من أعمـال

---

١ – مفرج الكروب ج ١ ص ٤٧

٢ – ذيل النوادر ص ٢٧٣

٣ – كتاب الروضتين ج ١ ص ١٧٤

قدموس ، فشاهده جالساً خارج القرية ومعه رجلان ، فتوجه نحوه وهو يستهزىء به ، ولكنه ما كاد يقترب منه حتى « لاحظ انواراً باهرة ، وجلالة ظاهرة ، ومهابة زاهرة ، وقوة بقدرة الله قاهرة ، مما ادهشه وأطار لبه ، وأرعب قلبه ، فأرتعدت فرائصه ، وعظم الامر عليه ، فلم يستطع الدنو منه ، فبعث اليه المولى راشد الدين منه السلام الحاجب دبوس ، فاحضره بين يديه . ولما زالت دهشته ، وتبدلت بالأنس وحشته ، اعترف بذنبه وبما دار في خلده ، وطلب من مولانا أن يكون من الجماعة ، فيؤدي له الطاعة ، وينتظم في سلك الدعوة ، حتى لا يكون له الى عسكر صلاح الدين بعد ذلك رجعة . فقال له المولى راشد الدين : « بل يجب ان تعود الى عند الملك وتبلغه جواب رسالته التي أتيت بها الينا ، وقل له إن اختار أن يأتي الى عندنا فليأت ، فما عندي غير هذين الرجلين اللذين تراهما ، وان لم يجىء فأنا غداة غد أنزل اليه » فعاد الرسول الى صلاح الدين وأخبره بذلك ، فقال : « انني لا أغتر بذلك ، ولن اسمح لجيشي بدخول هذه الجبال الشامخة ! »

ونزل سنان بعد يومين من القرية ، وتوجه الى الجبل الذي يشرف على مصياف فقعد على القمة . فلما علم صلاح الدين بذلك ، أمر بأن تضرب حول الجبل حلقة من الفرسان الأشداء ، ثم أرسل نحواً من ستين فارساً للقبض عليه ، فلما شاهد الرجلان المرافقان لسنان هذه الشرذمة من الفرسان ، قالا له : « ألا نركب خيلنا يا مولانا وننجو بأنفسنا ؟ » فقال : « لن يصلوا الينا ، ولا يقدرون علينا » فلما وصل اولئك الفرسان سكنت حركاتهم وبطلت آلاتهم ، فقال لهم : « تقدموا وخذونا كما أمركم الذي ارسلكم الينا » فقالوا : « ان الله قد نجاكم ، ومنا قد حماكم ، وأيدكم بحراسته وعظمته » فقال لهم : « ارجعوا الى صاحبكم واعلموه بما جرى لكم ! »

وأرسل صلاح الدين كتاباً جديداً الى شيخ الجبل ، فلما دنا من مقره توقف جواده « ورفض أن يتقدم فانهال عليه بالمقرعة والمهاميز ، ولكن الجواد كان يتقهقر الى الوراء ولا يتقـــدم » فاضطر الرسول حينئذ الى النزول عن جواده ، فقال سنان لأحد أصحابه : « أدفع اليه كتـــابي هذا ، واذا أعطاك كتابه فلا تأخذه منه ، وقل له : أرجع الكتاب الى الملك فقد كتبت له الجواب » ففعل الرجل ذلك ، واخبر صلاح الدين بما رآه وان سنان راشد الدين لم يفض كتابه ولا قرأه ، ثم دفع اليه كتاب سنان « فوجده جواباً لـما حواه كتابه فصلاً فصلاً من أوله الى آخره [1] ، فعظم شأن المولى راشد الدين منه السلام عند الملك ، وعلم بأن الله قد منحه سراً لأنه من عباده المخلصين واوليائه المكرمين » .

يقول الشيخ أبو فراس : « وخاف (صلاح الدين) على نفسه منه ، وهابه مهابة عظيمة ، فأمر بطرح الجير والرماد حول دهليزه ، ورتب لحراسته في الليل الف فارس . ولما اغدق جنح الليـل ، وغلب النوم على النيام ، نزل المولى منه السلام من الجبل ، وبين يديه فانوس يضيء ورجاله من القلعة يشاهدون ضوء الفانوس الى أن وصل الى الجيش فغاب عنهم الضوء . وكان مولانا قد دخل الى خيمة صلاح الدين وهو نائم ، فحوّل النور الذي عند رأسه الى عند قدميه ، والنور الذي عند قدميه الى عند رأسه ، ثم وضع بالقرب منه جرادق من خبز الاسماعيلية كانت معروفة في ذلك الزمان ، وشك في الجرادق سكيناً من سكاكين الفدائية مغموسة بالدم الى نصفها ، ووضع فوق الخبز ورقة فيها بيتان من الشعر بخط المولى راشد الدين في المعنى :

---

١ — لم ننشر نصوص الرسائل المتبادلة بين صلاح الدين وسنان والتي تفردت المصادر الاسماعيلية بروايتها ، لان ما ورد فيها من الغلو يبعث على الشك في صحتها .

أمَا وجلال الملك ما تملكونها   مراغمةً منا ، وذا النصر قائم
نخبرّكم انا قدرنا عليكم   نؤخرّكم حتى تتمّ العزائم !

ثم خرج من عند الملك وعاد الى الجبل . وأما الملك فانه استيقظ فلمح شبحاً يغادر خيمته ، ووجد الأنوار قد تغيرّت ، وشاهد السكين والرسالة مع الجرادق الى جانب فراشه . فصاح صيحة أزعج بها كل من كان عنده ، فأقبل عليه الامراء والأكابر من أهل مملكته وأماثل دولته كتقي الدين صاحب حماة [1] وغيره من الامراء والوزراء ، فأخبرهم بما جرى له ، وعرض عليهم السكين المسموم والجرادق ، ومن ثم قرأوا الورقة فدهشوا لتلك الجرأة النادرة والخطب الجسيم ، فقالوا : يا للغرابة من هذا الحلم الجميل والفضل الجزيل ، والبراعة التامة ، والبرهان الباهر ، والمعجزة الظاهرة ، والعفو الكبير عند المقدرة ! ثم أن الملك سأل خدمه ومماليكه بقوله : هل سمع أحدكم حساً او شاهد انساً ؟ فقالوا : لا ، ولكننا عندما سمعنا صراخ الملك يدعونا لمشاهدة الشبح الذي خرج من خيمته ، توجهنا الى باب الدهليز والشموع في ايدينا ، فرأينا على الجير والرماد آثار أقدام انسان خارجاً فقط ، ولم نره داخلاً ، وكانت اليزبك محيطة بالدهليز والرجال على ظهور الخيل فسألناهم فقالوا : لم نر أحداً ! فازداد تعجب الملك من ذلك وعظم الأمر عليه ، وخاف خوفاً شديداً ، فقال له تقي الدين صاحب حماة : ان الذي استطاع ان يدخل على الملك

---

١ – يلاحظ ان ابا فراس يطلق على صاحب حماة اسم تقي الدين ، والواقع انه شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين الذي سعى في الصلح بين الفريقين ، وتزعم بعض الروايات انه انما فعل ذلك بعد انذار سنان له وتهديده اياه بقتل افراد اسرته جميعاً (الكامل ج ١١ ص ٢٨٩) اما تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين فقد تولى حماة بعد ذلك في سنة ٥٧٤ هـ ١١٧٩ م .



ويصل اليه ويفعل ما قد فعل ، لو أراد ان يقتل الملك لقتله . فقال السلطان : ليس الخبر كالعيان : ومن الواجب أن تجدوا لنا من هذا الرجل أماناً ، ونسأله أن لا يؤاخذنا على ما سلف من خطايانا . ثم أمر بأن يكتب الى المولى راشد الدين منه السلام في هذا المعنى كتاباً يرسله اليه » .

ويضيف أبو فراس ان شيخ الجبل قد اشترط قبل اعطاء الأمان ، أن يغادر صلاح الدين مصياف ويرفع الحصار عنها ، ففعل ذلك « وترك لمولانا عليه السلام جميع الزردخانة على حالها في مكانها ، وجميع الآلات على اختلاف اصنافها ، ثم نزل على جسر ابن منقذ ، وسيّر الى المولى راشد الدين علينا سلامه من هناك رسولاً يطلب منه الأمان فأعطاه أمانه ، وقسم الآلات التي تركها صلاح الدين على القلاع ، من الطوارق والجنويات والعشي والجلوخ والزرديات وغير ذلك ، فجعل لكل قلعة من قلاع الدعوة سهماً يخصها ويحمل اليها ، وصار له الملك صلاح الدين موالياً بعد ما كان معادياً [١] .

هذا ما يقوله الشيخ أبو فراس ، تعليلاً للأسباب التي حملت صلاح الدين على مصالحة سنان راشد الدين ، ولعل ما في روايته من مبالغة وتهويل ظاهرين هو الذي يحملنا على الاعتقاد بأن الأسباب الحقيقية التي جعلت صلاح الدين يرحب بتلك المصالحة هي اقتناعه بأن حصاره لمصياف سيطول أكثر مما قدّر له لمناعتها وصلابة حماتها بينما سئم جنوده الحرب ورغبوا في العودة الى اوطانهم [٢] ، وقد انتهز الصليبيون انشغاله في هذا

---

١ — مناقب المولى سنان راشد الدين تحقيق مصطفى غالب

٢ — الكامل ج ١١ ص ٢٧٨

الحصار فأغاروا على بعض أنحاء الشام ، وجاء محمد بن المقدم من بعلبك الى مصياف وهو يسوق معه مائتي أسير من الفرنجة ظفر بهم اثناء غارة قاموا بها على بعلبك ، وشخص تورانشاه الى حماة ليلاقيه فيها بعد ان اشتبك مع بقايا تلك الحملة المخفقة على بعلبك فور وصوله من مصر الى دمشق .

ومهما كانت دوافع شهاب الدين الحارمي في سعيه للصلح واقرار السلام ، وهو الذي يجاور الاسماعيليين وتشده الى بعض زعمائهم أواصر الصداقة والود ، فان سياسة صلاح الدين لم تكن تتعارض وذلك المسعى النبيل ، لأنها لا ترمي الى محاربة المسلمين وهدر دمائهم وتفتيت قواهم ، مهما اختلفت فرقهم وتباينت مذاهبهم ، وانما تهدف الى الاتفاق معهم وتأليف قلوبهم وتوحيد جهودهم ، واتخاذهم اعواناً وأصدقاء في مقاومة الغزو الأجنبي وصد عدوان المعتدين .

والحق انه كان لهذا الصلح أثره البعيد في سير الحروب الصليبية ، إذ انعقدت وشائج الصداقة بين السلطان وشيخ الجبل ، وانقلب الاسماعيليون الى مؤيدين لصلاح الدين ، فناصروه في حروبه المقبلة ، وأيدوه في مواقفه المختلفة ، كما انه «عامل بلادهم في صلح الرملة معاملته لبلاده ، فاشترط دخول بلاد الاسماعيلية في الهدنة كي لا تتعرض لضغط الصليبيين [1] » ولزم الاسماعيلية وزعيمهم بعد ذلك خطة الولاء نحو السلطان ، إما ايماناً برسالته او خشية سطوته ، وإما لأنهم خشوا رجحان كفة الصليبيين اذا اختفى صلاح الدين من الميدان [2] .

---

١ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٨٤
٢ – تراجم اسلامية لعبد الله عنان ص ٦٠

وقد توفي سنان شيخ الجبل سنة ٥٨٨ هـ ١١٩٣ م وهي السنة التي توفي فيها صلاح الدين ، وهذا ما جعل الروايات الاسماعيلية تزعم ان سنان لم يشأ قتل صلاح الدين ، لانه كان يعلم من حركات النجوم والكواكب أنه سيموت في نفس السنة التي يموت فيها صلاح الدين !.

أما صلاح الدين فكان قد هادن الفرنجة ، وحالف الملك الصالح ، فما كاد يصالح سنان شيخ الجبل ، حتى وجه جنوده الى منازلهم ليستريحوا من متاعبهم ويتمتعوا بمغانمهم ، ويستعيدوا قواهم استعداداً للمعارك المقبلة ، ثم عاد الى دمشق فأناب اخاه توران شاه عنه في ادارة بلاد الشام ، وذهب لتفقد احوال مملكته في مصر ، ورؤية أهله ونسائه وأولاده .

وقد تزوج صلاح الدين قبل مغادرة دمشق من الخاتون عصمة الدين ام اسماعيل وأرملة نور الدين ، وكانت قد بقيت فيها بعد وفاة زوجها ويبدو ان القصد من هذا الزواج كان سياسياً بالنسبة له ، واجتماعياً بالنسبة لها « حفظاً لحرمتها وصيانتها [١] » ، إلا أن أحد الشعراء الفرنسيين قد نسج حوله أسطورة خيالية طريفة ، فزعم ان عصمة الدين انما كانت تحب صلاح الدين منذ كان في دمشق ، وقد سحرها جماله وشبابه ، فدست السم لزوجها نور الدين ، كي تمهد له سبيل العودة الى الشام [٢] .

---

١ — كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٦٣

G. Paris ; La Legende de Saladin . ournal des Savants. Mai 1893 — ٢

الفصل الرابع عشر

السلطان المجاهد

اطمأن السلطان صلاح الدين الى مهادنته للفرنجة ومحالفته للملك الصالح، والى استتباب الامن في ملكه بالشام ، فعكف في مصر على انشاء الكليات والمستشفيات والجسور والحدائق العامة ، وتقوية وسائل الدفاع عن الإسكندرية ودمياط ، وزيادة قطع الأسطول وشحنها بالرجال واصلاح ما هو في حاجة منها الى الاصلاح ، والاشراف على بناء السور حول مدينة القاهرة ، وتشييد قلعة حصينة على قمة المقطم ، وقد نقش على جدران هذه القلعة صورة نسر احمر على رقعة صفراء وهي صورة علمه الشخصي ، مستفيداً في ذلك من تجاربه الحربية الجديدة وعمليات الحصار التي قام بها في سورية لأهم قلاعها ومدنها ، احتياطاً من غزوة خارجية أو انقاء لثورة داخلية .

يقول العماد الأصفهاني : « وكان السلطان لما تملك مصر ، رأى ان مصر (الفسطاط) والقاهرة لكل منهما سور لا يمنعها ، فقال إن أفردت كل واحدة بسور احتاجت الى جند مفرد يحميها ، واني أرى أن ادير عليهما سوراً واحداً من الشاطىء الى الشاطىء ، وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم ، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقس ، وانتهى به الى اعلى مصر ببروج وصلها بالبرج

الأعظم » ثم يقول : « ووجدت في عهد السلطان بيتاً رفعه النواب ، وتكمّل فيه الحساب ، ومبلغه وهو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل تسعة وعشرون الفاً وثلاثمائة وذراعان [1] . »

وقد كانت لتلك المشاريع المعمارية أهميتها الحربية الكبرى في ذلك العصر ، أما القلعة فكانت « تشرف على القاهرة ومصر إشرافاً تاماً ، وهي محصنة من الجهتين سواء ، وتستطيع حاميتها أن تقوم بعملين مزدوجين ، وهما ضبط الأهالي وقطع من يخرج منهم عن طاعة السلطان فضلاً عن مقاومة ما عساه يقع من محاولات خارجية للاستيلاء على القاهرة [2] » .

---

١ — كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٦٨ ، والعماد الاصفهاني ، او العماد الكاتب (٥١٩ — ٥٩٧ ﻫ ١١٢٥ — ١٢٠٠ م) مؤرخ أديب فارسي النشأة ، ولاه الوزير ابن هبيرة النظر بالبصرة ثم واسط في عهد الخليفة المقتفي لامر الله ، ولما توفي ابن هبيرة اعتقل بعض اصحابه ومنهم العماد ، وما كاد يطلق سراحه بعد سنتين حتى انتقل لفوره الى دمشق والتحق بخدمة نور الدين ، ثم اتصل بصلاح الدين لسابق معرفته به وقديم وده له ، فجعله نائباً عن القاضي الفاضل في الكتابة الديوانية ، ولازم السلطان في سلمه وحربه، وكان من خواصه ومستشاريه ، وله مؤلفات أدبية اشتهر منها كتاب « خريدة القصر وجريدة العصر » ، ومؤلفات تاريخية فقد معظمها وقد نقل عنها أبو شامة الكثير من وصف الوقائع والأحداث ، كما ان له كتاباً بعنوان « الفتح القسي في الفتح القدسي » حوى تاريخ سبعة اعوام من حياة صلاح الدين ابتداء من تحريره لمدينة القدس ، وكان السلطان معجباً باسلوبه في الانشاء حتى انه لما فتح القدس لم يعهد الى احد بكتابة رسائل البشارة ، وفضل ان ينتظر قدوم العماد الذي كان متغيباً عنه في مرض (انظر : العماد الاصفهاني لمظفر سلطان ، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الايوبي ، الحروب الصليبية واثرها في الأدب العربي في مصر والشام ، ادب الحروب الصليبية لحمزة) .

٢ — التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٩٢



نسر احمر على رقعة صفراء نقش على حائط قلعه صلاح الدين وهي صورة علمه الشخصي

وقد زار الرحالة ابن جبير مصر في اواخر سنة ٥٧٨ هـ (أوائل سنة ١١٨٢) فروى الكثير من مآثر صلاح الدين ومقاصده في العدل والخير، ومما قاله في ذلك : « ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة الى سلطـــانه : المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطب والتبعد ، يفدون من الاقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكناً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه واجراءً يقوم به في جميع أحواله . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيهـــا متى احتاجوا الى ذلك ، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون احوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء [١] »

ثم يقول : « وشاهدنا ايضاً بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة ، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكنـــاه ، ويمدّ سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة [٢] » ويقول : « ومـمـا شاهدناه أيضاً من مفاخر هذا السلطان المارستان الذي بمدينة القاهرة ، وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً واحتساباً ، وعين قيماً من أهـــل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة واقامتها على اختلاف انواعها . ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرّة يتخذها المرضى مضاجع كامـلة الكسى . وبين يديّ ذلك القيّم خدَمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية ، فيقابلون من الأغذية والأشربة بمـا يليق بهم . وبازاء هذا الموضع موضعٌ مُقتَطع للنساء المرضى . ولهنّ أيضاً من يكفلهن . ويتصل بالموضعين المذكورين

---

١ – رحلة ابن جبير ص ١٥

٢ – المرجع السابق ص ٢٥

موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين ، ولهم أيضاً من يتفقد كلّ يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها. والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد . وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينيه [١] » .

وبعد ان يعدد كثيراً من هذه المرافق يقول : « ومن مآثره الكريمة المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة ، انه امر بعمارة محاضر (مدارس) ألزمها معلمين لكتاب الله عز وجلّ ، يعلمون ابناء الفقراء والأيتام خاصة وتُجرى عليهم الجراية الكافية لهم [٢] »

الا ان ما يستوقف ابن جبير اكثر من أي شيء آخرما أعرب عنه بقوله : «ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة من الله تعالى وآثاره التي ابقاها ذكراً جميلاً للدين والدنيا ، ازالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين .

فكان الحجاج يلاقون من الضغط في استيدائها عنتاً مجحفاً ويسامون فيها خطة خسف باهظة . وربما ورد منهم من لا فضل لديه على نفقته أو لا نفقة عنده فيُلزَم أداء الضريبة المعلومة ، وكانت سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية التي هي خمسة عشر ديناراً مؤمنية على كل رأس، ويعجز عن ذلك ، فيُتناول بأليم العذاب بعيذاب ، فكانت كاسمها مفتوحة العين . وربما اخترع له من أنواع العذاب التعليق من الانثيين أو غير

١ – المرجع السابق ص ٢٦
٢ – المرجع السابق ص ٢٧

ذلك من الامور الشنيعة ، نعوذ بالله من سوء قدَره . وكان بجدة امثال هذا التنكيل و ضعافه لمن لم يؤدّ مكسه بعيذاب ووصل اسمه غير معلمّ عليه علامة الاداء . فمحا هذا السلطان هذا الرسم اللعين ودفع عوضاً عنه ما يقوم مقامه من اطعمة وسواها ، وعين مجبى موضع معين بأسره لذلك ، وتكفل بتوصيل جميع ذلك الى الحجاز ، لأن الرسم المذكور كان باسم ميرة مكة والمدينة ، عمرّهما الله فعوّض من ذلك أجمل عوض ، وسهل السبيل للحجاج ، وكانت في حيز الانقطاع وعدم الاستطلاع ، وكفى الله المؤمنين على يدي هذا السلطان العادل حادثاً عظيماً وخطباً أليماً ، فترتب الشكر له على كل من يعتقد من الناس أن حجّ البيت الحرام احدى القواعد الخمس من الاسلام ، حتى يعمّ جميع الآفاق ، ويوجب الدعاء له في كل صقع من الاصقاع وبقعة من البقاع ، والله من وراء مجازاة المحسنين ، وهو ، جلّت قدرته ، لا يضيع أجر من احسن عملاً . إلى مكوس كانت في البلاد المصرية وسواها ضرائب على كل ما يُباع ويُشترى مما دق أو جلّ ، حتى كاد يؤدى على شرب ماء النيل المكس فضلاً عما سواه . فمحا هذا السلطانُ هذه البدع اللعينة كلها وبسط العدل ونشر الأمن

ومن عدل هذا السلطان وتأمينه للسبل أن الناس في بلاده لا يخلعون لباس الليل تصرفاً فيا يعنيهم ، ولا يستشعرون لسواده هيبة تثنيهم . على مثل ذلك شاهدنا أحوالهم بمصر والاسكندرية حسبما تقدم ذكره [١] . »

وفيا هو منصرف الى أعماله العمرانية وتصريف شؤون مملكته ، بلغته

---

١ - المرجع السابق ص ٣٠ - ٣١

أنباء مثيرة من الشام ، مفادها ان الفرنجة نقضوا الميثاق الذي عقـده معهم ، فحاولوا الاستيلاء على بعلبك في غير طائل ، ثم غزوا أطراف دمشق فانتصروا على جنوده ، وأسروا قائده ابن السلار ، وهزموا أخاه توران شاه شر هزيمـة . فساوره الغضب الشديد ، وسارع بجيشه الى غزو غزة وعسقلان في جنوبي فلسطين ، وغرضه من تلك الغزوة غـير واضح بالمصادر المعاصرة ، وان كان الظاهر منها فتح الطريق الساحلي بين مصر وفلسطين لتأمين مدخل مصر الشمالي الشرقي من خطر الصليبيين كما فعل بالطريق المـار بوسط شبه جزيرة سيناء ، فضلاً عن اجتذاب جزء من قوات الصليبيين نحو تلك الجبهة ، لتخفيف الضغط عن الحاميات الاسلامية المرابطة بحماة وحارم [1] ، وهما المدينتان اللتان اتجهت اليهما الحملات الصليبية الجديدة .

لقد أراد القيام بحملة عسكرية خاطفة ، قبل عودة الجيوش الصليبية من الشمال ، فهاجم الداروم وغزة ثم ركز حملته على عسقلان لضعف حاميتها ، فأسرع بلدوين الرابع لنجدتها ، إلا ان صلاح الدين ما لبث أن حاصره فيها ، فخلت بذلك المدن والقـلاع الصليبية من جيوش تحميها ، ولما رأى المسلمون ذلك ، انبسطوا واسترسلوا ، وتوسط السلطان البلاد [2] ، ووصلت جنوده الى اللد والرملة ، وتسلل بعضهم الى الجهات الواقعة بين ارسوف ونابلس [3] وتفرقوا جميعاً منشغلين بالغنائم ، فأتاحوا الفرصة لبلدوين الرابع كي ينجو من الحصـار ويحشد القوات الصليبية القريبة منه ، ويباغت صلاح الدين بمساعدة رينو دى شاتيون (أرناط)

---

١ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٩٠
٢ – مفرج الكروب ج ٢ ص ٥٩
٣ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٥٨

وهو في قلّة من الجند عند تل الصافية على مقربة من الرملة .

وقـــد ركز الفرنجة حملتهم على صلاح الدين ، ووصف ذلك بنفسه فقال : « رأيت فارساً يحث نحوي حصانه ، وقد صوب اليّ سنانه ، فكاد يبلغني ، ومعه آخران قد جملا شأنهما شأنه ، فرأيت ثلاثة مـن أصحابي خرج كل واحد الى واحد منهم ، فبادروا وطعنوه وقد تمكن من قربي فما مكنوه ، وهم ابراهيم بن قنابر ، وفضل الفيضي ، وسويد ابن غشم المصري [٢] » .

الا ان فرسان الفرنجة احاطوا بصلاح الدين ، يريدون القضاء عليه ، فاضطر الى الافلات من بينهم والانطلاق في الفلاة على غير هدى ، يتبعه اولئك الشجعان الثلاثة ، « الى ان دخل الليل ، وسلك الرمل ولا ماء ولا دليـــل ولا زاد أو علف . وأوقع اختفاء صلاح الدين الرعب في الصفوف ، فخرج القاضي الفاضل في بعض أدلائه يتلمس مكان صـــلاح الدين ، وبثهم في الرمال حتى اهتدوا اليه وأسعفوه بمـا كان معهم من الزاد والعلف . ثم جدّ الجميع في السير الى مصر ، ولقوا في طريقهم مشقة شديدة وقلّ عليهم القوت والماء ، وهلك كثير من دواب العسكر جوعاً وعطشاً وسرعة سير . وأما العسكر الذي تفرق في طلب الغنيمة داخل حصون الصليبيين في فلسطين فان اكثرهم ذهب بين قتيل وأسير [٣] » .

وكان من اسرى المسلمين في تلك المعركة الفقيه عيسى الهكاري الصديق القديم لصلاح الدين وقـــد افتداه فيما بعد بستين الف دينار . ويقول

---

١ — A. Champdor : Saladin , Le plus pur Héros. de l'Islam , p. 98

٢ — كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٧٣ ، السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٤

٣ — التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١١١ - ١٩٢

شامبدور : « وقد كانت غلطة صلاح الدين انه استهان بحامية عسقلان ملك القدس الصغيرة المحاصرة في عسقلان ، فبدلاً من ان يتغلب عليها دون أيّ قتال ، بحصار لا يتجاوز بضعة ايام ، لأنها لا تملك قدراً كافياً من المؤن ، فضل ان يرسل جيوشه عبر الحقول المجاورة لاحراق الرملة ومحاصرة اللد والانطلاق على طول الساحل حتى أرسوف [١] » أما أبو الفرج ابن العبري فقد عزا في تاريخه السرياني هزيمة المسلمين الى ريح عاصفة هبت في وجوههم وأثارت الرمل في عيونهم [٢] ، بالاضافة الى تفرق الجند وتشتت المقاتلين .

وقد تركت هذه الموقعة أثراً عميقاً في نفس صلاح الدين ، فأقسم أن لا تضرب له نوبة حتى يكسر الصليبيين ، وكتب الى أخيه توران شاه كتاباً ، استهله بهذا البيت من الشعر :

ذكرتك والخطّي تخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر [٣]

ثم أنبأه بما حدث له وقال : « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ، وما نجانا الله إلا لأمر يريده سبحانه ، وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر [٤] »

كان ذلك في سنة ٥٧٣ هـ ١١٧٧ م فلم يُقبل شهر رمضان من تلك السنة نفسها ، حتى سار السلطان صلاح الدين الى دمشق على رأس جيش كبير ، بعد ان اناب عنه اخاه الملك العادل . وكان الفرنجة قد اغتنموا

---

١ – Saladin Le plus pur Héros de l'Islam, p. 97

٢ – تاريخ سورية للمطران يوسف الدبس ج ٦ ص ٧٩

٣ – الخطي والمثقفة السمر : الرماح .

٤ – الكامل ج ١٢ ص ٢٩٧

فرصة قيام الخلاف بين الملك الصالح وكمشتكين وحاصروا حارم التي كانت اقطاعاً لهذا الوزير ، ولم يتخلوا عنها الا بعد أن اعطاهم الملك مبلغاً كبيراً من المال . ثم نشب خلاف آخر بين السلطان وابن المقدم الذي امتنع عليه في بعلبك ، وانتهز الفرنجة هذه الفرصة ايضاً وشرعوا في بناء قلعة بالقرب من طبرية عند بيت النبي يعقوب في مكان كان حرماً بين الفرنجة والعرب يُسمى « بيت الأحزان » لزعمهم « ان يعقوب اعتاد الانفراد فيه للبكاء على يوسف [1] »

وما كاد بناء هذه القلعة يتم حتى ملأها الفرنجة بالمؤونة والذخيرة ، وحصنوها تحصيناً قوياً لجعلها قاعدة لغزواتهم ، ثم سار بلدوين الرابع شطر دمشق ليقاتلها ، فأرسل صلاح الدين لملاقاته الأمير فرخشاه ابن أخيه وشخص الى ناحية طبرية لتخريب قلعة يعقوب وقد أدرك اهميتها الستراتيجية وخطرها على مواصلات المسلمين [2] ، فانتصر فرخشاه على بلدوين الرابع وكاد يأسره لولا شجاعة البطل همفري (الهنفري) الذي أسرع لانقاذه والدم ينزف من جراحه ، وقد أدى ذلك الى وفاة همفري بعد عدة ايام في حصن هونين [3] . وبقي صلاح الدين يحاصر القلعة وقتاً طويلاً ، ويرسل السرايا خلال ذلك الى بيروت وصيدا وغيرهما لتغزوها وتعود اليه .

وعلى اثر الهزيمة التي مني بها بلدوين الرابع ، والغزوات التي ما يفتأ صلاح الدين يوجهها الى بلاده ، اشتدت حماسة الفرنجة ، واتحد نبلاؤهم

---

١ – مرآة الزمان ص ٢٢٥

٢ – كان صلاح الدين قد عرض على الفرنجة مائة الف دينار مقابل هدم هذه القلعة فرفضوا ذلك (انظر خطط الشام ج ٢ ص ٤٤)

٣ – Guillaume de tyr , p. 1052

وتألبت جموعهم ، وساروا في جيش عظيم من صفد الى أعالي وادي الأردن ، وانحدروا الى مدينة مرجعيون ، وأنزلوا بالمسلمين خسائر فادحة في النفوس والأرزاق . ولكن صلاح الدين ما لبث ان وافاهم الى هناك ، وخاض معهم معركة عظيمة تكللت بانتصاره في الثاني من المحرم سنة ٥٧٥ هـ ١٠ حزيران (يونيه) ١١٧٩ م وأسره عدداً كبيراً منهم ، بينهم ريمون أمير طرابلس ، وهوج أمير طبرية ، وبلدوين أمير الرملة ، وقد أفتدى هذا نفسه على ما قيل بمائتين وخمسين الف قطعة من الذهب والف من أسرى المسلمين [١] .

وسرت حميّا النصر في صلاح الدين ، فعاد الى حصار قلعة يعقوب ، فما هي الا أيام قليلة حتى استولى عليها « بعد قتال وحصار ، فغنم منهم مائة الف قطعة حديد من أنواع الاسلحة ، وشيئاً كثيراً من الأقوات وغيرها ، وأسر نحو السبعمائة ، وخرب الحصن حتى سوّى به الأرض [٢] » .

وقد اضطرب بذلك موقف الفرنجة ، ثم اشتد هذا الموقف اضطراباً وحرجاً حين انتقل السلطان الى مهاجمة عكا « قسطنطينية الفرنج [٣] » بما أعدّ لهذا الهجوم من أساطيل ، بينما كانت سراياه تغزو أنحاء صفد وطبرية ، حتى لم يجد ملك القدس بداً من مصالحته ، فعقد معه (٥٧٦ هـ ١١٨٠ م) هدنة لمدة سنتين شملت جميع المدن التي كانت بيد

---

١ – مفرج الكروب ج ٢ ص ٧٤

٢ – انظر تفاصيل حصار قلعة يعقوب واستيلاء صلاح الدين عليها في الكامل ج ١١ ص ٣٠١ – ٣٠٣ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١١ – ١٣ ، السلوك ج ١ ص ٦٧ – ٦٩

٣ – كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤

الفرنجة ما عدا طرابلس التي ظلت تقاتل المسلمين ردحاً من الوقت ثم صالحتهم ، وانطاكية التي حالت خلافاتها الداخلية دون قيامها بعمل عدائي ذي شأن ضد المدن المجاورة لها .

وجرى امراء الجزيرة وما وراءها على غرار ملك القدس ، فعقدوا مع صلاح الدين ـ في شهر جمادى الأولى سنة ٥٧٦ هـ تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٠ م ، بعد فتن ومعارك عديدة ـ معاهدة لمدة سنتين ، توسط بشأنها عز الدين قلج ارسلان ، ووقعها امراء الموصل واربل وكيوه وماردين وقونيه وملك أرمينية أيضاً ، وتعهدوا فيها بأن لا يشهروا خلال تلك المدة على السلطان سيفاً فـاطمأن صلاح الدين على بلاد الشام ، ولاسيما بعد أن وصلت رسل الخليفة الناصر لدين الله الذي خلف اباه المستضيء بأمر الله ، بالتفويض والتشريف والتقليد والموافقة على طلب صلاح الدين بامتلاك الرها والرقة والخابور ونصيبين ، وعاد الى مصر بعد أن أناب على الشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه ، للنظر في أحوال الاسكندريه واليمن بعد وفاة أخيه توران شاه الذي كان أميراً عليهما ، ومواصلة أعماله العمرانية وانشاءاته العسكرية هناك ، وتعزيز أسباب الأمن الداخلي والدفاع الخارجي .

ويجمع المؤرخون الغربيون على ان صلاح الدين كان أميناً للعهد الذي قطعه على نفسه في الهدنة التي عقدها مع ملك القدس ، كما كان طول حياته أميناً لعهوده ومعاهداته ، ولكن رينو دى شاتيون (أرناط) صاحب الكرك ، قد خالف شروط تلك الهدنة ، ولم يكتف بتحصيل رسوم المرور من قوافل الحجاج التي تمر بالقرب من بلاده ، بل أخذ يفكر في الزحف على المدينة المنورة لاحتلالها ، وخرج في صيف ٥٧٧ هـ ١١٨١ م الى الصحراء العربية وتوغل فيها حتى وصل تيماء الواقعة بين الشام ووادي القرى ، على طريق الحجاج المسلمين ، فيسلب قافلة غنية ،

وقطع طريق الحج نهائياً [١] . فكان جواب صلاح الدين على ذلك انه استولى في ثغر دمياط على مركب كان يقل بعض السياح الاوروبيين ، بينما أغار عز الدين فرخشاه على امارة الكرك وخرب قراها واكتسح نواحيها ، فقلق رينو دى شاتيون عليها وتخلى عن مشروعه العدواني وعاد مسرعاً الى الكرك كما عاد فرخشاه الى دمشق [٢] .

وفي خريف تلك السنة نفسها ، استقبل صلاح الدين في القاهرة رسولاً من قبل العاهل البيزنطي الكسيوس كومينوس الثاني ، وعقد معه صلحاً وطد أواصر الصداقة والسلام بين الدولتين ، وكفل صلاح الدين بتلك المعاهدة عدم مساهمة الاسطول البيزنطي في أية حركة هجومية على مصر ، ومن ذلك التاريخ صارت علاقة مصر بالدولة البيزنطية ودية للغاية واستمرت بيزنطية في الاحتفاظ بالعلاقة الحسنة مع صلاح الدين نكاية بالصليبيين [٣] ،

على ان صلاح الدين ما لبث أن ندم على تغيبه عن بلاد الشام ، إذ ما كاد يغادرها حتى توفي سيف الدين غازي أمير الموصل ، وترك ملكه لأخيه عز الدين ارسلان بن مسعود ، ثم مات الملك الصالح اسماعيل ابن نور الدين في ٢٥ رجب سنة ٥٧٧ هـ ٤ كانون الاول (ديسمبر) ١١٨١ م ، موصياً بملكه لابن عمه عز الدين كي تتألف من حلب والموصل جبهة واحدة .

---

١ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١٢٦

٢ – الكامل ج ١١ ص ٣١٠ .

٣ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١٢٧ نقلا عن :

Stevenson : The Crusades in the East p. 214.

وكان صلاح الدين يعدّ نفسه الوارث الشرعي للملك الصالح ، فرأى ان تغيبه عن سورية في تلك الفترة قد ضيع عليه فرصة مؤاتية للاستيلاء على حلب ، وأوجد مزاحماً قوياً له هو عز الدين ارسلان بن مسعود ثم عزاه بعض الشيء ان هـذا المزاحم الجديد ، ما كاد يستقر في حلب حتى كتب له أخوه عماد الدين امير سنجار ، في أن يستبدل حلب بسنجار ، فأجابه الى طلبه وعاد الى الموصل ، وأقبل عمـاد الدين الى حلب ، وهو أهون شأناً من أخيه وأقلّ قوة .

ومن ثم كانت حياة صلاح الدين بعد عودته الى سورية [١] في صفر سنة ٥٧٨ هـ حزيران (يونيه) ١١٨٢ م ، حياة نضال متوزع بـين امراء الفرنجة الذين نقضوا الهدنة ولم ينقطع عدوانهم على المسلمين ، وعز الدين مسعود الذي لم يبق من امراء بلاد المسلمين من ينافسه غيره ، إذ مـا كاد ينقضي أجل المعاهدة التي سبقت الاشارة اليها حتى دخل في طاعته

---

١ – غادر صلاح الدين القاهرة في ٥ محرم سنة ٥٧٨ هـ ١١ أيار (مايو) ١١٨٢ م ، ثم استغرقته هموم الجهاد ومشاغله في بلاد الشام فلم يعد اليهـا بعد ذلك ، لأن الشام كانت جبهة العرب والاسلام وميدان النضال بينهم وبين القوة المغيرة ، ويقال انه كان في مجلس وداعه بالقاهرة وهو ينتظر اجتماع الجيش ليسير معلم لبعض أولاده فأخرج رأسه من بين الحاضرين كأنه يودع السلطان وقال البيت المشهور ،

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار

فتطير السلطان وتنكد المجلس .

والواقع ان صلاح الدين كان قد أدرك انه لا يتمكن من بلاد الفرنجة وهو في مصر ، لبعد المسافة وانقطاع العمارة وكلال الدواب عن المسير ومتابعة الجهاد ، وقـد جرب فهلكت القوافل عند الكرك والشوبك عدة مرات ، فرأى انه لا يمكنه فتح القـدس الا من الشام ، فرأى ان يملكها ويسوق الجند منها فيكون الفتح قريبـاً والحرب سهلة التموين ، (انظر : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٩) .

امراء حرّان وكيوه والرها وسروج والرقة وقرقيسية ونصيبين . فبينما نراه يقاتل الفرنجة في طبرية وبيسان ، ثم يحاصر بيروت براً بعد أن حاصرها بحراً في محاولة لفصل امارتي طرابلس وانطاكية عن مملكة بيت المقدس ، اذا به يتجه نحو الشرق فيحاصر الموصل حين وافته الانباء بأن اميرها قد تحالف مع الصليبيين لضرب مؤخرة صلاح الدين [1] .

وتمتنع الموصل عليه ، فيغادرها بعد شهرين ليهاجم سنجار ويستولي عليها ، ثم يستولي على آمد ويولي عليها محمد بن قرا ارسلان ، وكان فيها كثير من الذخائر فوهبها له ، فقيل له في ذلك فقال : « لا أضن عليه بما فيها من الأموال ، فانه قد صار من اتباعنا واصحابنا ، ونحن انما نريد ان يسير الناس معنا على قتال الاعداء فقط ، وليس قصدنا من الفتح البلاد بل العباد [2] » .

وانتقل بعد ذلك الى محاربة عماد الدين امير حلب واضطره الى طلب الصلح على أن تعاد اليه ولاية سنجار مقابل الدخول في طاعة السلطان ، فيقبل صلاح الدين ذلك ، ويغادر عماد الدين حلب وأهلها يشيعونه بالهتاف : « يا حمار ، بعت حلب بسنجار » ، ويدخلها صلاح الدين فيستقبله اهلها باحتفال وسرور عظيمين وكأنهم في يوم عيد . ويصعد السلطان الى القلعة مبتهجاً ، مدركاً أهمية هذا الفتح العظيم ، ويقول لمن حوله مغتبطاً : « والله ما سررت بفتح مدينة كسروري بفتح هذه

---

١ – مفرج الكروب ج ٢ ص ١١٥ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٢ – ٢٣ ، النوادر السلطانية ص ٦٨

٢ – خطط الشام ج ٢ ص ٥٧ .

المدينة ، والآن تبينت أنني أملك البلاد وعلمت ان ملكي قد استقر وثبت [1] ! »

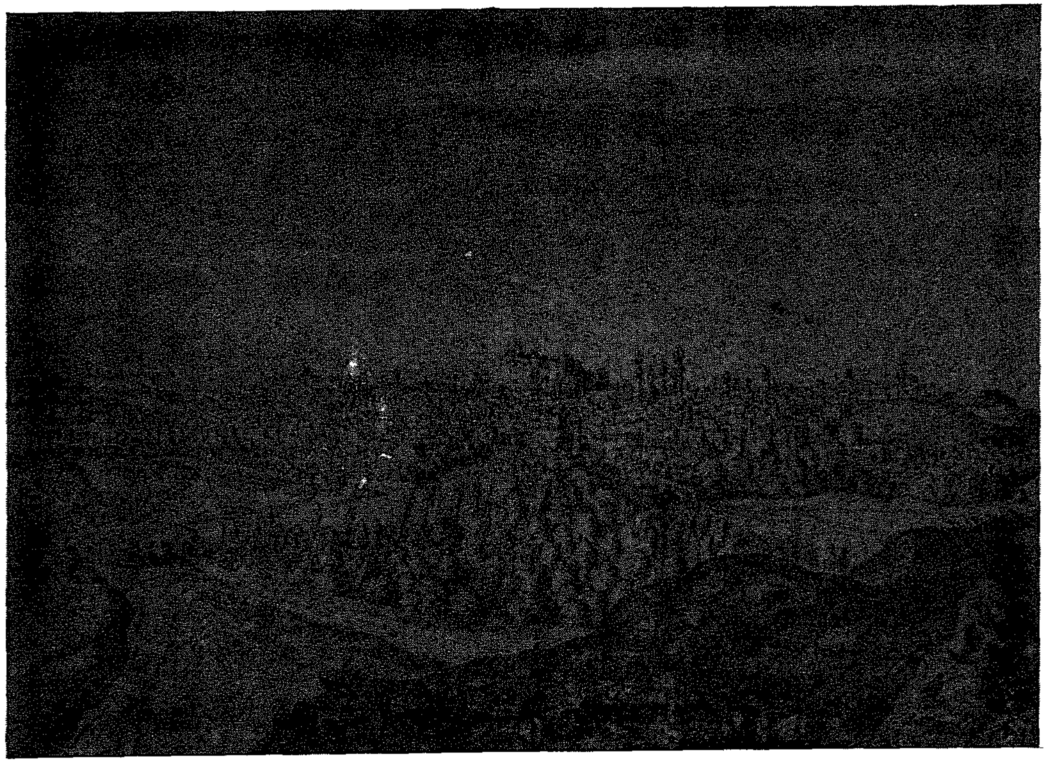
ويروى انه قد بلغته اثناء دخوله حلب ، وفاة اخيه تاج الملوك بوري ، إثر طعنة اصيب بها في فخذه خلال المعركة ، فتألم لذلك ألماً شديداً وقال : « ما أخذنا حلب رخيصة بقتل تاج الملوك [2] » ، ولكنه انطوى على ألمه وأسرّ النبأ في نفسه ، كي لا يفسد على جنده سرورهم بالانتصار الذي أحرزوه

وما عتم هذا الانتصار أن أعقبه انتصار آخر ، إذ دخل عز الدين مسعود في طاعة صلاح الدين ، بعد معارك وأهوال ومفاوضات كثيرة ، وتدخل الخليفة العباسي الناصر لدين الله إثر استمالة الموصليين بالخليفة بوساطة القاضي ابن شداد [3] ، والتخلي عن المدينة مرة للعودة الى حصارها

١ – كتاب الروضتين ج ٢ ص ٤٥ ، الكامل ج ١٢ ص ٣١٣

٢ – وفيات الأعيان ج ١ ص ١٣٩

٣ – كان بهاء الدين ابو المحاسن المعروف بابن شداد (٥٣٩ – ٦٢٣ هـ ، ١١٤٥ – ١٢٣٤ م) من علماء الموصل ، تولى التدريس والقضاء وعرف بالحكمة والاتزان ، فأرسله الموصليون الى الخليفة العباسي ليتشفع لهم عند صلاح الدين فيرفع الحصار عنهم ، وحالفه التوفيق فأرسله صاحب الموصل بعد عامين نائباً عنه الى مؤتمر اسلامي دعا اليه صلاح الدين بدمشق ، وقد أسفرت مناقشات المؤتمر عن اعجاب ابن شداد بصلاح الدين فأيد سياسته مخالفاً في ذلك وجهة نظر اميره ، كما اعجب السلطان بقدرة ابن شداد ، فلما التقى به مرة ثانية في سنة ٥٨٤ هـ ١١٨٨ م وهو قائم على حصار كوكب وكان ابن شداد قد أتى لزيارة القدس بعد تحريرها ، استبقاه وولاه قضاء العسكر ، ومنذ ذلك التاريخ لم يفارق ابن شداد صلاح الدين ، وقد روى سيرته في كتابه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » اعتماداً على مشاهداته الشخصية وما سمعه عن لسان صلاح الدين (انظر : المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي ص ١٤ – ١٩ . دائرة المعارف الاسلامية ج١ ص ٢١٠ ، ابن خلكان ج ٢ ص ٤٦٦ – ٤٦٨)



حلب في عهد الحروب الصليبية ، عن لوحة قديمة

مرة اخرى بعزيمة أشد وأقوى ، واستخدام الذكاء والدهاء حيناً والسيف والمنجنيق حيناً آخر ، لأن عز الدين قد حشد فيها عدداً ضخماً من المقاتلين « ومن السلاح والات الحصار ما حارت به الأبصار[1] » الى ان تقررت قواعد الصلح نهائياً في ٩ ذي الحجة سنة ٥٨١ هـ ٣ اذار (مارس) ١١٨٦ م على أن يسلّم عز الدين الى صلاح الدين شهرزور وأعمالها وولاية القرابلي وجميع ما وراء الزاب من أعمال ، وولاية بني قفجاق ، وأن يترك له صلاح الدين الموصل وأعمالها ، على ان تكون الخطبة والسكة باسم صلاح الدين وأن يحضر عز الدين بعسكره في خدمته حين يدعوه الى المشاركة في قتال الافرنج[2] .

وتمت بذلك لصلاح الدين سيادة مطلقة على جميع أنحاء سورية والجزيرة وجزء من العراق ، تتصل بسيادته على حوض النيل وسواحل افريقية الشمالية وبلاد اليمن وعدن ، وتؤلف معها وحدة متماسكة جبارة تنتظم أقوى دولة في الشرق الأوسط .

وقد ختم هذه الصفحة من حياته النضالية الشاقة ، بمعاهدة على الهدنة لمدة اربع سنوات عقدها مع ملك القدس في اواخر سنة ٥٨٠ هـ ١١٨٤ م ، بعد غزوات عدة قام بها على بلاد الفرنجة تركز اكثرها حول مدينة الكرك التي كانت عقبة كأداء في الطريق بين مصر والشام ، أما انطاكية فقد « رجفت رعباً » على اثر استيلاء صلاح الدين على حلب وأعمالها ،

---

١ – مفرج الكروب ج ٢ ص ١١٥ .

٢ – الكامل ج ١١ ص ٣٤٠ ، كتاب الروضتين ج ١ ص ٦٤ ، النوادر السلطانية ص ٥٦ .

وسارع اميرها الى امان السلطان [1] . ثم عاد الى دمشق قلب المملكة الكبيرة التي انشأها ، لينصرف خلال هذه الحقبة من السلام ، الى توطيد ملكه وتنظيم بلاده وتقوية دفاعه ، استعداداً لانجـــاز البناء الذي وضع اسسه وتحقيق الهدف الذي يطمح اليه .

يقول لامونت : « ولو ان صلاح الدين كان ذلك المتعصب ، كما يُصوّر أحياناً ، لاستهل فتوحاته بمهاجمة الافرنج المضعضعين المنقسمين على انفسهم وربما كان الاستيلاء على الدول اللاتينية أسهل منـــالاً من الاستيلاء على القسم الاسلامي من سورية . ولكن صلاح الدين رأى أن يوطد مركزه في سورية الاسلامية قبل ان يهاجم الدول اللاتينية . كان يشعر أنه سيقهر اللاتينيين لا محالة ، ولكن عليهم ان ينتظروا الى ان تسنح المناسبة التي تلائم الفاتح [2] . »

وقد زار ابن جبير خلال رحلته الشهـــيرة العراق والجزيرة وبلاد الشام ، في عام ٥٨٠ هـ ١١٨٤ م ، وسجل انطباعاته التي حفظت لنا صوراً حية عن الحياة العامة في ذلك العصر ، وقد استوقفه ما رأى فيها من كثرة الألقاب « فلا تسمع الا القاباً هائلة ، وصفات لذي التحصيل غير طائلة ، قد تساوى فيها السوقة والملوك ، واشترك فيها الغني والصعلوك ، ليس فيهم من اتسم بسمة به تليق ، او اتصف بصفة هو بها خليق ، إلا صلاح الدين صاحب الشام وديار مصر والحجاز واليمن ، المشتهر الفضل والعدل ، فهذا اسم وافق مسمّاه ، ولفظ طابق معناه ، وما سوى ذلك في سواه فزعازع ريح ، وشهادات يردها التجريح ، ودعوى نسبة للدين

---

١ – كتاب الروضتين ج ٢ ص ٤٧ .
٢ – دراسات اسلامية باشراف نقولا زيادة ص ١٢٠ .

برّحت به أيّ تبريح[1] ! »

ثم يقول : « وهذه البلاد كلها من الموصل الى نصيبين الى الفرات ، المعروفة بديار ربيعة ، وحدّدها من نصيبين الى الفرات مع ما يلي الجنوب من الطريق وديار بكر التي تليها في الجانب الجوفي كآمد وميّافارقين وغيرها مما يطول ذكره ليس في ملوكها من يناهض صلاح الدين ، فهم الى طاعته وإن كانوا مستبدين ، وفضله يُبقي عليهم ، ولو شاء نزع الملك منهم لفعله[2] » .

ويصف ابن جبير دمشق ومعالمها ومرافقها وصفاً مسهباً دقيقاً ، ومن مشاهداته فيها « كنيسة لهـا عند الروم شأن عظيم ، تُعرف بكنيسة مريم ، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها . وهي حفيلة البناء ، تتضمن من التصاوير امراً عجيباً تبهت الافكار ، وتستوقف الأبصار ، ومرآها عجيب ، وهي بأيدي الروم ، ولا اعتراض عليهم فيها[3] » .

واعجب الرحالة اعجاباً شديداً بما شاهده من مرافق الغرباء في دمشق : « ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من ان يأخذهـا الاحصاء ، ولاسيا لحُفّاظ كتاب الله عز وجل ، والمنتمين للطلب . فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جداً . وهذه البلدة المشرقية كلها على هذا الرسم ، لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر والاتساع أوجـد . فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنـا فليرحل الى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم فيجـد الأمور المعينات كثيرة . فأولها فراغ البال على امر المعيشة ، وهو أكبر الأعوان واهمها ،

١ - رحلة ابن جبير ص ٢١٦
٢ - المرجع السابق ص ٢٢٢ .
٣ - المرجع السابق ص ٢٥٥

فاذا كانت الهمة فقد وجد السبيل الى الاجتهاد ، ولا عــذر للمقصر إلا من يدين بالعجز والتسويف ، فذلك من لا يتوجه هــذا الخطــاب عليه ، وانما الخاطب كل ذي همة يحول طلب المعيشة بينه وبــين مقصده في وطنه من الطلب العلمي ، فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك ، فادخل ايهــا المجتهد بسلام ، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الاهل والاولاد وتقرع سن الندم على زمن التضييع ، والله يوفق ويرشد ، لا إله سواه ، قــد نصحتُ إن ألفيتُ سامعاً مجيباً ، ومن يهدِ اللهُ فهو المهتدِ ، جلت قدرته وتعالى جَدّه ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها الا مبادرة أهلها لاكرام الغرباء وايثار الفقراء ، ولاسيما أهل باديتها ، فانك تجد من بدار الى برّ الضيف عجباً ، كفى بذلك شرفاً لها [1] . »

ويتحدث ابن جبير عن صلاح الدين فيقول : « وقد تقدم الذكر ايضاً في غير موضع من هذا الكتاب عن حسن سيرة السلطان بهذه الجهات : صلاح الدين ابي المظفر يوسف بن ايوب ، وما له من المآثر المــأثورة في الدنيا والدين ، ومثابرته على جهاد اعداء الله ، لانه ليس امام هذه البلدة بلدة للاسلام ، والشام اكثره بيد الافرنج ، فسبّب الله هذا السلطان رحمةً للمسلمين بهذه الجهات ، فهو لا يأوي لراحة ، ولا يخلد الى دعة ، ولا يزال سرجه مجلسه . إنا بهذه البلدة نازلون منذ شهرين اثنين وحللناها وقــد خرج لمنازلة حصن الكرك ، وقد تقدم الذكر ايضاً له ، وهو عليه محاصر حتى الآن ، والله يعينه على فتحه .

« وسمعنا أحد فقهاء هذه البلدة وزعمائها المسلمين يُسدّة هذا السلطان والحاضرين مجلسه يذكر عنه في حضرة محفل علماء البلد وفقهائه ثلاث

---

١ - المرجع السابق ص ٢٥٨

مناقب في ثلاث كلمات حكاها عنه ، رأينا اثباتها هنا : إحداها ان الحلم من سجاياه ، فقال ، وقد صفح عن جريرة أحد الجناة عليه : أما أنا فلأن أخطىء في العفو أحبّ اليّ من أن أصيب في العقوبة . وهذا في الحلم منزع احنفي . وقال ايضاً ، وقد تنوشدت بحضرته الأشعار وجرى ذكر من سلف من اكارم الملوك واجوادهم : والله لو وهبتُ الدنيـــا للقاصد الآمل لما كنت استكثرها له ، ولو استفرغت له جميع ما في خزائني لما كان عِوَضاً مما أراقه من حُرّ ماء وجهه في استمناحه اياي . وهذا في الكرم مذهب رشيدي أو جعفري .

« وحضره أحد مماليكه المتميزين لديه بالحظوه والاثرة مستعدياً على جمّال ذكر انه باعه جملا معيباً أو صرف عليه جملا بعيب لم يكن فيه ، فقال السلطان له : ما عسى أن أصنع لك ، وللمسلمين قاض يحكم بينهم ، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة ، واوامره ونواهيه ممتثلة ، وانما انا عبد الشرع وشحنته – والشحنة عندهم صاحب الشرطة – فالحق يقضي لك أو عليك . وهذا في العقد مقصدٌ عُمري . وهذه كلمات كفى بهـــا لهذا السلطان فخراً ، والله يمتّع ببقائه الاسلام والمسلمين بمنّه [1] . »

---

١ – المرجع السابق ص ٢٧٠ – ٢٧١

الفصل الخامس عشر

الجهاد الأعظم

لقد رأينا بلاد العرب زمن ولادة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٣٢ هـ ١١٣٧ م ، وقد تمزقت الى امارات عديدة يتقاسمها الحكام الأقوياء ويتنازعون عليها ، كل منهم يبغي الاستئثار بملكه ويطمع بالاستيلاء على ملك جاره . ثم رأينا هذه البلاد سنة ٥٨٠ هـ ١١٨٤ م وقد وحدها ذلك الرجل الفذ تحت سلطانه بعد نضال شاق استغرق شطراً كبيراً من حياته . وها نحن نراه الآن مستوياً على سدة ذلك الملك المنبسط من الفرات شرقاً الى برقة غرباً ، ومن الموصل وحلب شمالاً الى النوبة واليمن جنوباً ، وهو ينهد الى الخمسين من عمره دون أن يفكر بالخلود الى الدعة والتفرغ للاستمتاع بخيرات هذا الملك الباذخ الذي صار اليه ، بل هو يفكر في معارك جديدة يخوضها ومجد جديد يضيفه الى امجاده .

ورب قائل ان صلاح الدين انما كان يعمل لنفسه ، وانه انما وحد البلاد العربية لتكون له ، دون غيره ، السيادة التامة عليها ، ونحن لا ننكر ان في هذا القول كثيراً من الحق ، ولكننا لا نرى فيه ما يقلل من اهمية العمل العظيم الذي قام به . فصلاح الدين قد وحّد بلاد العرب في وقت هي احوج ما تكون الى هذه الوحدة ، وهو قد وحّدها

في ظل مبادىء انسانيه خيرة واخلاق كريمة رحيمة تنشد الحرية والحق والعدالة ، وليس في ظل الحديد والنار والارهاب الذي يلوي عنق الامة الى الوراء ويقضي على تراثهــا الفكرى ، ويخنق فيهــا روح التجدد والتوثب والابداع .

ذلك هو الحادث التاريخي الجيد الذي قام به صلاح الدين الايوبي ، وهو حادث ليس ينقص من اهميته في شيء ، كونه قد اكسب صاحبه مجداً شخصياً أو اتفقت أهدافه مع مطامحه الشخصية . وفي اعتقادنا ان سر العظمة في حياة الأبطال الكبار الذين تفخر البشرية بهم ، انمــا هو توفيقهم بين مطامحهم الشخصية ومطامح شعوبهم ، وليس تسخيرهم لهــا واستثمارهم اياها في سبيل مطامع رخيصة وغايات حقيرة واهداف تعسفية رجعية ، بحيث تمتزج تلك المطامح وتتفاعل وتصبح كلاً واحداً يستطيع ان يؤثر في التاريخ بتعبيد طريقه وتعجيل سيره نحو الاغراض الانسانية الرفيعة التي تتمخض بها مرحلة من مراحله ، او تنزع اليها امة من الامم في عصر من عصوره ، وذلك هو الدور الذي قام به صلاح الدين .

ويزيد في أهمية الوحدة التي بناها الرجل الكبير ، كونها اتجهت ، منذ تم بناؤها ، الى تحرير بقية البلاد العربية من ذلك البنيان الطفيلي الذي زرع في غير بيئته وأرضه ، وقد ارتدّت هذه المهمة التي استغرقت المرحلة الاخيرة من حياته ، وهي مرحلة قصيرة بمدتها عظيمة بالأعمــال التي حققتها ، طابعاً اسلامياً يقابل الطابع المسيحي الذي اصطبغت به الحروب الصليبية التي شنها الفرنجة على الاقطــار العربية والاسلامية ، ولكنها تظل في حقيقتها وجوهرها مهمة تحررية ، إذ بدافع التحرر من الحكم الاجنبي ، وبعامل الغيرة الوطنية والحمية القومية والذود عــن المقدسات الاسلامية ، وباسم خلافة بغداد العباسية العربية سارت الجيوش الجرارة تحت لواء صــلاح الدين ، وأقبلت اليه الأمداد من كل صوب ،

وأيدته القبائل في كل مكان .

ويذهب البير شامبدور الى ان الحروب الصليبية انما كانت بالنسبة للعرب والمسلمين حرب دفاع عن الأرض والذات ، ولم تتخذ طابعاً دينياً الا « بعد البادرة الحمقاء التي قام بها رينو دى شاتيون ، إذ اعتدى ، برغم معاهدة الصلح ، على القافلة الآمنة التي مرت بأراضيه في طريقها الى الحج [1] » ويقول الزعيم جوزف سمعان : « ولا بد من الأعتراف بأن العرب لم يذهبوا في مقاتلة المشركين والكفار الى الحد الذي ذهب اليه فرسان الحروب الصليبية [2] » ومن الملاحظ ان بعض امراء المسلمين لم يكونوا ليجدوا حرجاً في محالفة الصليبيين لمقاومة خصومهم من الامراء المسلمين ، الا إن ذلك قد انقطع نهائياً أو ندر كثيراً بعد هذا التاريخ .

وقد ساعدت صلاح الدين على احراز انتصاراته مع الفرنجة عوامل عديدة ، منها اختلاف امرائهم فيما بينهم اختلافاً شديداً بعد وفاة بلدوين الرابع ، اذ خلفه في الملك بلدوين الخامس وكان طفلاً ، فكفله ريمون الثالث أمير طرابلس وبادر بوصفه الوصي على مملكة القدس الى عقد هدنة مع السلطان لمدة أربع سنوات تمتد من سنة ٥٨١ هـ ١١٨٥ م الى سنة ٥٨٥ هـ ١١٨٩ م ، وبادر الى اطلاق سراح الأسرى المسلمين في طرابلس ، واتفق مع صلاح الدين على مكافحة المجاعة التي اجتاحت الشرق الأدنى في ذلك العام [3] .

ولكن الموت فاجأ الملك الطفل في صيف سنة ٥٨٢ هـ ١١٨٦ م ،

---

١ — Saladin Le plus pur Héros de l'Islam , p. 15

٢ — الفروسية العربية ص ٧٣

٣ — Hist. des Croisades et du Royaume Franc du Jerusalem, II. p. 760

فاعتقد ريمون الثالث بأن من حقه البقاء في مركز الوصاية وتعهد شؤون الحكم ، ولم تجاره سيبيل ام الملك في اعتقاده هذا ، بل أرادت الملك لزوجها الجديد غي دى لوسينيان (جفري) وقد عارض ذلك الأمراء البارزون ، الا انها اصرت عليه وايدهـا البطريرك ورئيس الهيكليين ، ودعيا الامراء المجتمعين في نابلس الى حفلة لتتويجها هي ، فأجاب الأمراء انهم لا يقبلون ان تملك عليهم امرأة ، فأقفـل الهيكليون (الداوية) أبواب المدينة وسارت سيبيل الى كنيسة القبر المقدس ، فأخذ البطريرك من الخازن تاجين فوضع أحدهما على المذبح والآخر على رأس سيبيل ، ثم قال لها : « مولاتي ، انت امرأة فيجب ان يكون معك رجل يدبر شؤون المملكة ، خذي هذا التاج وتوّجي به مـن ترينه أهلاً لذلك » فأخذت التاج ودعت زوجها لوسينين وقـالت : « مولاي ، تقدم اليّ واقبل هذا التاج ، فانني لا أرى أجدر منك به » فجثا أمامها ووضعت التاج على رأسه ، ونودي بهما ملكا وملكة [1]

ولما بلغ النبأ الامراء المجتمعين في نابلس ، شق الأمر عليهم ، إذ كان غي كما يقول وليم الصوري ملكاً تنقصه الفروسية والحكمة [2] ، فرفـض بوهيمند الثـالث أمير نطاكية ان يقدم للملك الجديد فروض الولاء والتبعية ، وهجر امير الرملة امارته وسار الى انطاكية فقام فيهـا ، وذهب ريمون الثالث الى طبرية ، وكانت قد آلت الى زوجته البارونة ايشيف ، مؤثراً التخلي عن امارته عـلى العمل تحت حكم غي ، فغضب هذا واعتزم مهاجمته هناك مدعياً انه يريد محاسبته على الأموال الـتي جباها في عهد وصايته . وكان ريمون قد عقد اثناء وصايته عـلى ملك

---

١ – تاريخ سورية، للمطران يوسف الدبس ج ٦ ص ٣٢

٢ – Guillaume de Tyr. p. 1116



بيت المقدس ، اواصر الود بينه وبين صلاح الدين ، فلما لجأ الى طبرية تطلع الى السلطان « وانتمى اليه واستعضد به ، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعده النصرة [١] » وشدّ عضده باطلاق من كان في الأسر من أصحابه ، فقويت مناصحته للمسلمين [٢]

وفي غمرة تلك الأحداث نقض رينو دى شاتيون أمير الكرك المعاهدة التي أبرمها الصليبيون مع صلاح الدين ، كما نقض المعاهدة السابقة من قبل . يقول الدكتور فيليب حتي : « ولعل رينو هذا كان أشد زعماء اللاتين مغامرة ، واكثرهم تعدياً ونقضاً للعهود ، وأوفرهم الماماً باللغة العربية . وحين كانت الكرك في عهدته أوقع مراراً بالقوافل الآمنة يسلبها امتعتها ، بينما كان اصحابها يجتازون الطريق خلف اسوار حصنه . كل هذه الأمور أتاها خروجاً على شروط العهود والمحالفة . وبلغ منه الكيد للمسلمين أن جهز اسطولاً أخذ يعيث في شواطىء الحجاز فساداً ويُنزل الأذى بمراكب الحجاج ، وقد أقسم صلاح الدين ليقتلنّ هذا الرجل وينتهزها فرصة لضرب الفرنجة في الصميم . ويرى كثير من المؤرخين الغربيين ان مغامرات دى شاتيون ، هي الثغرة التي سببت انهيار المملكة اللاتينية في القدس أو عجلت بانهيارها [٣] » .

ولا ريب في ان القراء يذكرون ان رينو دى شاتيون كان أميراً لانطاكية ، وقد حاول أن يتحدى فيها الدولة البيزنطية ، فأثار عليه غضب عاهل القسطنطينية واستياء ملك القدس ، فلما اسره مجد الدين

---

١ – الكامل ج ١١ ص ٣٤٨
٢ – كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٤

ايو بكر بن الداية أحد أمراء نور الدين سنة ٥٥٦ هـ ١١٦٠ م لم يتقدم أحد لفدائه ، فظـل سجيناً في قلعة حلب ستة عشر عاماً حتى أطلق كمشتكين سراحه سنة ٥٧٣ هـ ١١٧٧ م .

وكانت اتينيت دى ميلي التي ورثت عن أبيها حصني الشوبك والكرك ، يومذاك أرملة لا يزينها شباب أو جمـــال . وقد سبق لها ان تزوجت مرتين ، الا ان رينو دى شاتيون ما لبث ان تزوج منها طمعاً بمـا ورثت ، وأضحى أميراً على تلك المنطقة الهامة التي تتحكم في مواصلات المسلمين .

وكان رينو شرساً حاقداً لم ينس قط سني الأسر التي قضاها في حلب بـل زادته حدة وتوتراً ، ولم يستطع ان يقدر ظروف الصليبيين الـتي غدت أميل الى الموادعة والمسالمة مع أبناء البلاد المغتصبة وانتقلوا مـن طور الهجوم الى طور الدفاع ، ولم ينتبه الى تطور أوضاع المسلمين الذين استفاقوا من ذهول الصدمة الاولى ، فاتحدوا بعد فرقة ، واستقووا بعد ضعف وخذلان .

ذلك هو كما يقول البير شامبدور : « الفارس الذي لا يعرف الخوف ولا يملك الضمير ، والذي قاد مملكة الفرنجة الى اسوأ المغامرات ، فتحمل امام التاريخ أفدح المسؤوليات [1] »

أما المؤرخان م . ج . كينـغ وك . م. سيتون ، فقد وصفه الأول بقوله : « انه نموذج للفـارس اللص في عصره ، اتصف بالجشع وعـدم الوفـاء والغدر والوحشية والتعصب الاعمى ، ولم تفلح الخمس عشرة

---

١ — Saladin Le plus pur Héros de l'Islam. pp, 97 , 143 - 144

سنة التي قضاها أسيراً في حلب في تعديل سلوكه او تهذيبه » وقال الثاني فيه : « لم يكن من نوع الفرسان الذين يحرصون على شرفهم ويتمسكون بمبادىء الفروسية ، وانما كان لا يصلح الا للسلب والنهب وشن الغارات على الابرياء والمسالمين [1] » .

واذا كان هذا هو رأي المؤرخين الغربيين في رينو دى شاتيون ، فاننا لا نستغرب قول أبي شامة فيه انه « أغدر الفرنجية واخبثها ، وأفحصها عن الردى والرداءة ، وانقضها للمواثيق المحكمة والأيمان المبرمة ، وأنكثها وأخبثها [2] . »

لقد راودت رينو دى شاتيون الأحلام بالسيادة على البحر الاحمر وغزو مكة والمدينة ، فبدأ خطته تلك بالاستيلاء على العقبة وحمل اجزاء السفن حتى ذلك الخليج حيث ركبت وأنزلت الى البحر فاستولت على جزيرة القلعة ، واغارت على الموانىء المصرية ، ونهبت بعض المراكب التجارية ، ثم انتقلت الى شاطىء الحجاز « فعظم البلاء وأعضل الداء ، وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر عظيم [3] » وكان صلاح الدين كما ذكرنا في الفصل السابق في حلب فاسرع الملك العادل الى انشاء اسطول قوي في البحر الاحمر تحت قيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ فطارد مراكب الفرنجة واستولى عليها وأسر من فيها . ثم وافى العادل اخاه صلاح الدين الى حصن الكرك وكان قد زحف اليه وحاصره ونصب عليه سبع منجنيقات لقذفه بالحجارة ليلاً ونهاراً ، الا انه ما لبث ان

---

١ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٨٥ نقلاً عن : King: The Knighis Hospitallers, p. 111
٢ – خطط الشام ج٢ ص ٥٦
٣ – كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٥

تخلى عنه وعاد الى دمشق حين علم بتجمع الصليبيين لدفعه عن الكرك .

وقد عاود صلاح الدين حصار الكرك بعد ذلك مرات عديدة وفي سنوات متعاقبة ولكنه « لم ينل منه غرضاً [1] » لمناعته وقوة تحصينه ، فقد كان ذلك المعقل الهائل من المناعة بحيث سماه الناس « صخرة الصحراء » . ومن اطرف ما حدث سنة ٥٨٠ هـ ١١٨٤ م ان السلطان كان يحاصر الكرك للمرة الخامسة « واخذت المجانيق تدك بحجارتها أبراج الحصن وأسواره وستائره حتى تهدمت ، ولم يحل دون دخول المسلمين الى الحصن إلا خندق واسع يبلغ عمقه ستين ذراعاً ، ولا سبيل الى اجتيازه الا بطمه وردمه . فأمر صلاح الدين بضرب اللبن وجمع الأخشاب لبناء سرداب تحت الخندق ، وسرعان ما بنى العسكريون ثلاثة سراديب مسقفة بالخشب ، اتخذوها طرقاً آمنة يسيرون بداخلها الى سور الحصن ، وسارع المسلمون الى ردم الخندق واستبشروا بالعمل والنصر [2] » الا انهم ما لبثوا أن تلقوا أمراً بوقف العمل ، وتخلى المقاتلون عن تلك الفرصة التي كادت تتيح لهم الاستيلاء على الحصن .

ذلك ان اتينيت زوجة رينو دي شاتيون كانت تحتفل بزواج ابنها همفري (ربيب رينو) من الاميرة ايزابيلا شقيقة بلدوين الرابع ملك القدس ، فطلبت سيدة الحصن من صلاح الدين أن يمنحها هدنة قصيرة حتى تتم حفلات الزواج ، وأرسل رينو الى السلطان هدية من حلوى العرس معتذراً بأن الوقت لم يسمح له بأن يقدم لضيفه ما يليق به ، فبادر صلاح الدين الى وقف القتال ، بينما انتهز دي شاتيون الفرصة

---

١ - السلوك ج ١ ص ٨١ - ٨٢

٢ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١٥٣ - ١٥٤

لطلب النجدة من القدس !

وها هو صاحب الكرك يعمد مرة اخرى الى نقض الهدنة ومعاودة الغزو ، لأن ذلك الفارس اللص – كما يقول غروسته – كان لا يستطيع الحياة دون أن يسرق وينهب [١] ، فينصب كميناً لقافلة متجهة من القاهرة الى دمشق علم انها تحمل نفائس ثمينة وثروات طائلة ، ويستولي عليها ويلقي بأفرادها أسارى في حصن الكرك .

وقد بادر صلاح الدين أول الأمر الى الاحتجاج لدى رينو دى شاتيون ، ثم الى جان دى لوسينيان ، مذكراً بمعاهدة السلام ، ولكن صاحب الكرك ابى الاصغاء الى احتجاج السلطان واستخف بتهديده ، ورفض أوامر ملك القدس باطلاق سراح الأسرى واعادة ما سلبه منهم ، كما اعرض من قبل عن طلب مماثل لبلدوين الرابع حين نقض المعاهدة الأولى ، فاشتد غضب صلاح الدين ، واقسم لينتقمنّ منه شر انتقام ، واعتبر عدوانه على القافلة وعجز لوسينيان عن تسوية الأمر ، نقضاً للهدنة ، وقرر اعلان الحرب على مملكة القدس [٢] .

ولعل صلاح الدين كان يعتقد بأن الحرب بينه وبين الصليبيين قد تقتصر على مملكة القدس وحدها ، فقد رأينا أن ريمون الثالث أمير طرابلس كان على صلات ودية بالسلطان ، أما بوهيمند الثالث امير

---

١ – Hist . des Croisades , II, p. 778

٢ – يذهب المؤرخون الغربيون الى ان اخت صلاح الدين كانت بين افراد القافلة ، ويجعلون ذلك سبباً للغضب الشديد الذي استولى عليه ودفعه الى الانتقام ، وليس في المصادر العربية ما يؤكد ذلك أو يشير اليه .



فارس من المسلمين في عهد الحروب الصليبية

انطاكية فقد جدد الهدنة المعقودة بينهما ، وظل اميناً لها حين نشبت المعركة الكبرى . والواقع ان شؤون الحب كانت قد شغلت بوهيمند عن شؤون الحرب ، فتزوج سراً بامرأة تدعى اوريجيليز الى جانب زوجته البيزنطية تيودورا كومنينوس ، ثم تزوج امرأة ثالثة تدعى سيبيل دى بورزي كانت تراسل صلاح الدين وتطلعه على أوضاع بلادها [١] ، ويقول ابو شامة في ذلك : « وكانت امرأة ابرنس انطاكية ، وتعرف بدام سيبل ، في موالاة السلطان عيناً له على العدو ، وتهاديه وتناصحه وتطلعه على اسرارهم ، والسلطان يكرمها لذلك ويهدي اليها انفس الهدايا [٢] » وقد أغضب سلوك بوهيمند البطريرك ايمري فأصدر بحقه قرار الحرمان لاقترافه جريمة تعدد الزوجات .

وقد حال المرض دون صلاح الدين وخوض المعركة الكبرى في تلك السنة (٥٨٢ هـ ١١٧٦ م) ويبدو انه خشي ان يقضي عليه المرض فتنهار المملكة المترامية التي بناها بكثير من الجهد والنضال ، فاوصى بولاية ابنه العزيز عثمان على مصر بكفالة ابن عمه تقي الدين عمر ، وبولاية ابنه الملك الأفضل على الشام بكفالة عمه العادل صاحب حلب ، وشاع أمر هذه الوصية ، فسرّت أناساً واغضبت آخرين ، ويروي ابو المحاسن ان علاء الدين سليمان بن جندر أحد امراء حلب لقيه مرة ، فقال له : بأي رأي كنت تظن أن وصيتك تنفذ ، كأنك كنت خارجاً الى الصيد ثم تعود فلا يخالفونك ، أما تستحي ان يكون الطائر أهدى منك الى المصلحة ؟ فقال صلاح الدين وهو يضحك : وكيف ذلك ؟ قال ابن

---

١ — Saladin Le Plus pur Héros de l'Islam. p. 145

٢ — كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٣١

جندر : اذا أراد الطائر ان يعمل عشاً لفراخه قصد أعـــالي الشجر ليحمي فراخه ، وأنت سلمت الحصـون الى اهلك وجعلت اولادك على الأرض ، هذه حلب وهي ام البلاد بيد أخيك ، وحماة بيد ابن اخيك وحمص بيد ابن عمك ، وابنك الافضل مـع تقي الدين ابن عمـك بمصر يخرجه متى شاء ، وابنك الآخر مع أخيك في خيمة يفعل به ما أراد ! فقال صلاح الدين : صدقت ، فاكتم هذا الأمر[1] ! »

وما كاد يشفى من مرضه حتى عمد الى تعديل في المناصب ، فاستدعى ولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين علي من مصر لمنافرة بينه وبين ابن عمه تقي الدين عمر ، واقرّ ولده الظاهر على حلب وفي خدمته الشحنة (رئيس الشرطة) حسام الدين بشاورة والوالي عيسى بن بلاشوا . وشقّ ذلك الأمر على الملك المظفر تقي الدين عمر وحدثته نفسه بتملك الديار المصرية وامتنع عن العودة الى الشام وهمّ بملاحقة مملوكه قراقوش الذي استولى على برقة وبلاد المغرب ، فسيّر اليه صلاح الدين عيسى الهكاري لمراجعته ، وكان عيسى مهاباً مطاعاً بين الجنود المصرية فنجح في اقناع تقي الدين عمر بالخروج الى دمشق ، حيث استقبله صلاح الدين استقبالاً حاراً بمرج الصفر وأقطعه حماة ومنبج والمعرة وميافارقين[2] ، اما شقيقه الملك العـــادل فقد ولاه دمشق ليكون على مقربة منه يفيد من خبرته ونصحه .

لقـد كان نقض رينو دى شاتيون لشروط الهدنة ، في سنة ٥٨٢ هـ ١١٨٦ م ، فلما كانت السنة التي تلتها ، وتأهب امـير الكرك لاقتناص

---

١ – النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٠ – ٣١

٢ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١٦٨

الحجاج وهم قافلون ، أعلن صلاح الدين الجهاد في جميع انحاء بلاده ، واستنفر الناس ، وأثار الرأي العام ، وطلب الجند من مصر والشام وحلب والجزيرة وديار بكر ، وجاء بالفقهاء والرواة لتلاوة القصص الحماسية وأخبار الغزوات الاسلامية في أوساط الجيش والمجالس العامة ، وخرج بصحبة ولده الملك الأفضل فأبقاه عند رأس الماء قرب دمشق في انتظار تجمع قوى الشام والجزيرة ، وعسكر هو في قصر السلام بالقرب من بصرى ، وظل هناك حتى مر الحجاج بسلام .

ولا بد من الاشارة هنا الى الوضع الاستراتيجي للبلاد العربية آنذاك ، مستعينين بما كتبه الدكتور نظير سعداوى [١] الذي تخصص في هذا الموضوع ، فقد كانت بلاد الفرنجة تقتصر على السواحل السورية والفلسطينية التي تعتمد على البحر لضمان التموين من الخارج ، وعلى سلسلة القلاع الضخمة المبتدئة من ذعيرة على الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية ثم كرك المعاب من الكرمل وبيت جبريل وداروم ، وخلف هذا الخط الأول القلاع الممتدة من شقيف ارنون الى صفد والقسطل ، وفي الشمال حصون عكا والكرك وبارين ، ومن ورائها جميعاً المدن الساحلية الكبيرة : انطاكية وطرابلس وعكا وصور وطرسوس والمرقب وبيروت ويافا وعسقلان وهي اطراف القوى الصليبية من ناحية البحر ، ويقابلها من ناحية البر مرجعيون وجسر يعقوب وبيسان وطبرية ، وامتازت هذه الحدود الصليبية بأن قلاعها جمعت بين خصائص العمارة الحربية الغربية والشرقية من حيث ازدواج الأسوار وتعدد الابراج ذات الطابقين وكل مستلزمات الحامية من ذخيرة وتموين ووسائل دينية وصحية . أما الخصائص الاستراتيجية الاسلامية فامتازت باتساع رقعتها وطول خطوط

---

١ – المرجع السابق ص ١٧٢ – ١٧٣

مواصلاتهـا المتصلة شرقاً وغرباً بقواعد آمنة للتموين في سرعة ، ففي الشمال حلب وحماة ، والى الشرق منها الموصل وقلاع الجزيرة ، وكلهـا مدن حصينة ، وفي الغرب مصر وما وراءها من بـلاد المغرب والنوبة واليمن . ثم ان القاهرة غدت منذ غادرهـا صـلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٨ ﻫ ١١٨٢ م قاعدة لتدريب الجند وإعداده وتموينه ، واليهـا تُرسل الجرحى والأسرى ، ومنها يُطلب الامداد لسد النقص في ميادين القتال . على حين غدت دمشق منذ استقر بها صلاح الدين مسرحاً لنشاط سياسي ، وساحة لحركات عسكرية مستمرة ، ومعملاً لدراسة الخطـط الحربية ، وآية ذلك قول صلاح الدين في وصف دمشق وقتذاك ، بأنه مـا بقي له دار إلا هي حتى « يقضي الله بيننا وبين الفرنج وهـو خير الحاكمين [١] » .

وقد انتظر صلاح الدين حتى وافاه جيش مصر بقيادة الملك العادل ، فضمه الى جيش سورية ، وسار بها الى تل عشترة حيث أخذ يعدّ العدة للوقعة الحاسمة بينه وبين الصليبيين ، بينما الجيوش العربية والاسلامية تلتحق به من جميع انحاء مملكته ، والاسطول المصري يتجه الى شواطىء الفرنجة بقيادة الأمير لؤلؤ استعداداً للجهاد .

---

١ – كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧

الفصل السادس عشر

حطين معركة التاريخ

كانت اصابع الفجر الوردية تمزق عتمة الليل ، والنجوم تتلاشى واحدة بعد اخرى ، ثم ما لبث ستار الظلام أن انحسر عن سهول ممتدة الأطراف تتخللها تلال صخرية تنحدر من الشمال الى الجنوب أشبه بجيش اسطوري يزحف في أرض الأساطير ، وظهر في الشرق شعاع قرمزي ضئيل ما زال يمتد ويتركز حتى بدا وكأنه سيل من لهيب ثم انبثق منه قرص الشمس كمركبة ذهبية تمخر عباب اللهيب ..

وكان لسهول الأردن في ضوء النهار منظر رائع يُشيع في النفس الرهبة والخشوع ، لشدة اتساعها وفرط جمالها وقوة الصمت فيها ..

وبينما كان افراد المعسكر ينهضون لاستقبال اليوم الجديد ، كان قائد المعسكر ، وهو الرجل الوحيد الذي لم ينم في تلك الليلة ، جالساً أمام خيمته ، وقد التفّ بعباءته ، واصابعه تعبث بالرمال ، وهو يرسل الى الافق البعيد بين حين وآخر ، نظرات شاردة لا تبحث عن شيء ولكنها تدل على أن في صدر صاحبها عاصفة من القلق العميق .

كان ذلك في يوم الخميس الموافق ١٦ ربيع الثاني سنة ٥٨٣ هـ ٢٥

حزيران (يونيه) ١١٨٧ م ، وما إن ارتفع الضحى حتى كان صلاح الدين الأيوبي يستعرض جيوشه اللجبة ، وينظمها ، وينفخ فيهـا روح الحماسة والجرأة استعداداً لليوم الفاصل ومعركة المصير

وكان عـدد الفرسان اثني عشر الف فارس وعدد المشاة ثلاثة عشر ألفاً ، وذلك عدا الجيش الاحتياطي والمتطوعة وهم كثيرون [١] .

وكذلك اجتمعت جيوش الفرنجة ، وتنادى امراؤهم وتناسوا خلافاتهم ، وأرسلوا الى طبرية طائفة من أصحـاب الرأي فيهم على رأسهم جوزيف أسقف صور وباليان صاحب بيت جبريل ورينولد صاحب صيدا لاسترضاء ريمون الثالث ذي اللحية البيضاء ، فقبل وساطتهم وعاد الى صفوفهم ، ولا سيما حين « هددوه بالحرمان وفسخ زواجه [٢] » .

وعقد الملك غي دي لوسينيان مجلساً سأل أمراءه فيه ان يرشدوه الى ما ينبغي له عمله أمام استعداد صلاح الدين لمقاتلتهم . فأشار ريمون عليه بأن يحشد جيشه في صفورية لأنها ملائمة للعمليات الدفاعية ، فاحتشد في هذه البلدة اثنان وعشرون الف مقاتل بين راجل وفارس [٣] . وهناك من يذهب الى ان عدد المقاتلين بلغ الخمسين [٤] او الستين الفاً [٥]

وفي يوم السبت عبر صـلاح الدين بجيشه نهر الاردن جنوبي طبرية ، وقد آثر هذه الناحية اعتماداً على صداقته مع ريمون ، وبات برجاله تلك

---

١ — كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦

٢ — الناصر صلاح الدين الايوبي لماجد ص ١١٥

٣ — Les Colonies franques de Syrie aux xll et xlll siecles, p. 340

٤ — تاريخ سورية للمطران يوسف الدبس ج ٦ ص ١٠١

٥ — L'Eglise et l'Orient au Moyen Age, p. 115

الليلة عند الاقحوانة ، وارسل العيون لمعرفة مواقع العدو ، ثم سار الى تل كفر سبت جنوبي غربي طبرية محاولاً الاشتباك مع الفرنجة ، فلم ينهضوا لملاقاته ، فترك حينئذ في ذلك المكان نخبة جيشه ، وزحف بالقسم الباقي منه الى طبرية نفسها فاستولى عليها في ٢٤ ربيع الثاني ٢ تموز (يوليه) ولكن البارونة ايشيف زوج ريمون امتنعت في قلعة طبرية مع اولادها وحاشيتها ، وأرسلت الى الملك غي في صفورية تدعوه الى انقاذها [١] ؛ فجمع هذا مجلس امرائه واستشارهم فيما يصنع ، فاشار ريمون بعدم مهاجمة المسلمين كي لا يتخلى الفرنجة عن مواقعهم الحصينة القريبة من مراكز المياه ، وقال إن صلاح الدين لا بد من ان يرحل عن القلعة اذا لم تتقدم اليه الفرنجة ، وان ضياع طبرية اذا تم لا يضير المملكة اللاتينية في شيء ، فخالفه رينو دي شاتيون وجيرار دي ريدفور مقدم الداوية وقالا له : « قد أطلت في التخويف من المسلمين ، ولا شك انك تريدهم وتميل اليهم ، وأما قولك انهم كثيرون فان النار لا يضرها كثرة الحطب » فاجاب . « ان انقاذ طبرية يهمني شخصياً اكثر من أصحاب السمو الامراء ، فهي خاضعة لسلطاني وفي داخلها امرأتي واولادي وثروتي ، ولكني لا ارى ما يراه الزملاء من وجوب مهاجمة العدو في طبرية ، لاننا اذ نخطو هذه الخطوة نكون قد وقعنا في الشرك الذي نصبه صلاح الدين لنا ، وهو الاندفاع في هذه المنطقة الصحراوية القاحلة في شهر تموز (يوليه) . وعندي ان نترك قوى العدو وشأنها في طبرية لأن سقوط هذه المدينة وقلعتها لا اهمية له من الوجهة الحربية . فان غرض السلطان من مهاجمتنا هو استدراجنا الى الخروج من صفورية لنهلك عطشاً وبحد السيف في الصحراء القاحلة . أما اذا لزمنا موقفنا الدفاعي

---

١ – الكامل ج ١١ ص ٢٠١ ، الفتح القسي في الفتح القدسي ص ١٨

الحالي فان صلاح الدين يضطر الى الجلاء عن طبرية فندخلها دون قتال[١] . ان جيش صلاح الدين اكبر من جيشكم وفرسانه امهر من فرسانكم ، فامكثوا هنا وانتظروا هجومه تنالوا الفوز . دعوا طبرية يصيبها ما يصيبها وفيها أهلي وثروتي ، وانقذوا جيشكم الذي هو آخر رجاء للفرنجة في الشرق ! »

ولكن نصائح ريمون الحكيمة ذهبت في الهواء ، وأنكر زملاؤه أن يصدر عنه هذا الرأي وهو صاحب طبرية وزوجه هي التي تستغيث ، وظنوا فيه الخيانة لسابق صداقته مع السلطان

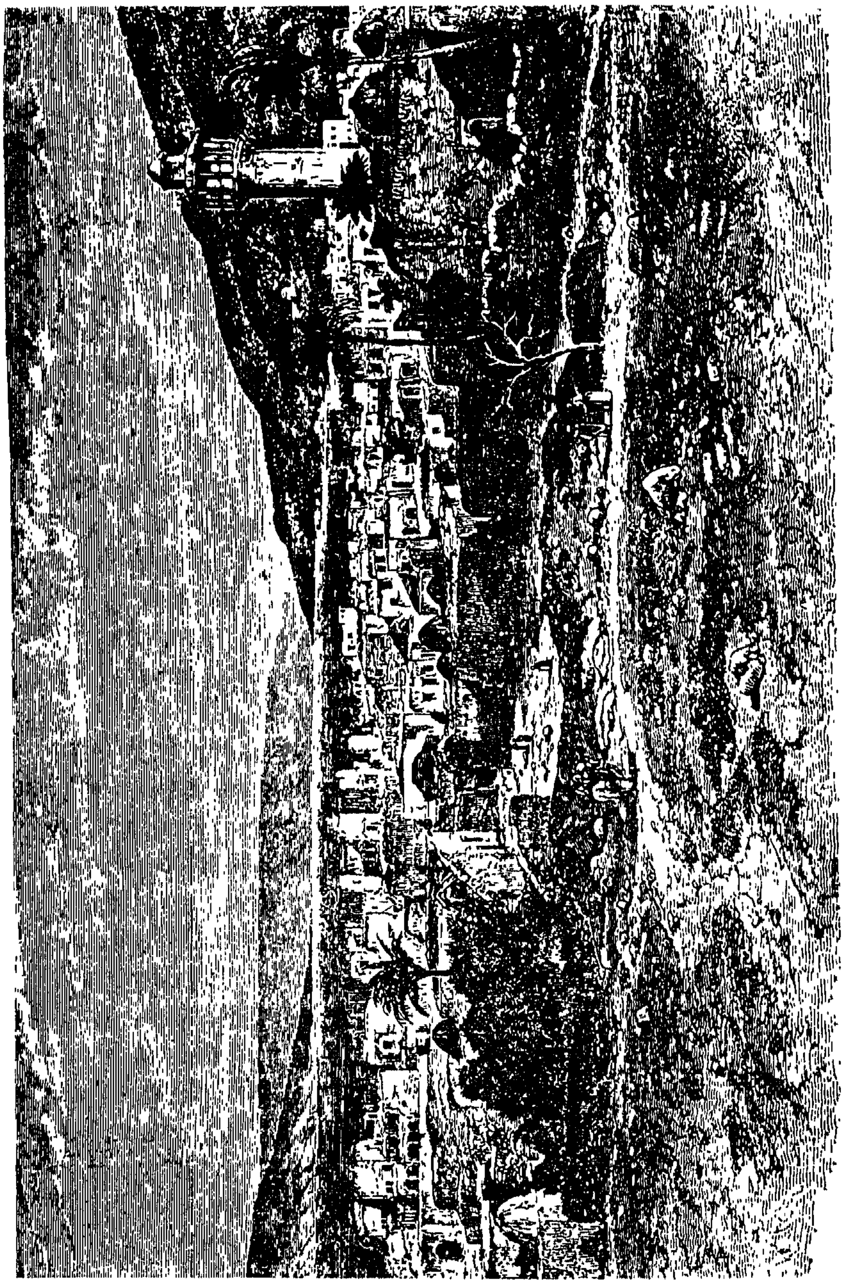
وما زالوا حتى حملوا الملك على إصدار أمره للجيش بالزحف عند الفجر لملاقاة الأعداء ، فانحدروا نحو طبرية كالجبال المتحركة ، وواصل هذا الجيش اللجب زحفه بين الرمال والصخور . تحت أشعة الشمس المحرقة ، وكان معظم افراده يسيرون مكرهين ، بنفوس يعصف بها القلق واليأس ، لانهم لا يجهلون الخطر المحدق بهم من كل صوب .

وعلم صلاح الدين في غداة اليوم الخامس والعشرين من ربيع الثاني ٣ تموز (يوليه) بتحرك جيش الفرنجة نحو طبرية وكان السلطان انما يبغي اجتذابهم اليه ليحاربهم وجهاً لوجه في معركة مكشوفة وأرض خالية من كل شيء ، ولا سيما اذا وصلوا اليها متعبين ، وكان هو قد ادّخر جهده وجهد رجاله[٢] ، فلما قيل له انهم قد تركوا مواقعهم في صفورية لمهاجمته هتف فرحاً :

---

١ — L'Estoire d'Eracles , II, pp. 49 51

٢ — الكامل ج ١١ ص ٣٣٢ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦ ، الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٠٤



طبرية وبحيرة الجليل

- الحمدلله .. هذا ما كنت ارجوه !

وما لبث أن أضرم النار في طبرية ، ورجع الى حيث ترك نخبة جنوده غربي المدينة ، وأمرهم بالاستيلاء على موارد الماء لندرته في تلك الفلاة القفر . فلما وصل الفرنجة الى ذلك الأتون الذي استدرجهم اليه بين لوبين وحطين ، بعد أن اجتازوا ستة عشر ميلاً ، وقد أدركهم التعب وأجهدهم العطش ، لوعورة الطريق وحرارة الجو وقلّة الماء ، تعذر عليهم الحصول على الماء لإرواء ظمئهم ولم يكن معهم منه الا القليل الذي يحملونه في جعبهم ، وحملت عليهم جيوش المسلمين وهم على هذه الحال ، فنالت منهم منالاً عظيماً ، وهي تحمل تارة على طليعة الجيش الذي يقوده الكونت ريمون ، ثم ترتد قبل ان يتمكن الفرنجة من الالتحام معها ، وتلتف تارة لتهاجم مؤخرته حيث يسير فرسان الهيكل وفرسان المستشفى وفصيلة رينو دى شاتيون ، وتنقض تارة اخرى على القلب حيث يسير الملك وقد احاط به كبار لامراء .

واستولى التعب والاعياء على الرجال والجياد قبيل الغروب ، وصاح الجنود في قوادهم يطلبون الماء وليس في المكان ماء ، ووقف الكونت ريمون امام الملك يتوسل اليه أن يأمر بمواصلة الزحف ، كي يشق الجيش المجهد طريقاً الى البحيرة ، فيجد الراحة والطمأنينة ، ويستعيد نشاطه وعزيمته . ولكن غي دى لوسينيان أجاب وهو أشد ما يكون حيرة وقلقاً ، انه لا يستطيع اصدار مثل ذلك الأمر ، لأن الجنود لا يريدون السير خطوة واحدة في هذا اليوم .

وسارع الفرنجة الى تلال حطين فلاذوا بها وباتوا فيها على اسوأ حال ، وزحف السلطان بجيشه ليلاً فأحاط بتلك التلال من جميع جهاتها ، ورتب نظام الجيش ، وأوقف كل جماعة في مكانها استعداداً للمصاف .

وفي فجر اليوم التالي (٢٦ ربيع الثاني ٤ تموز - يوليه) وهو يوم جمعة ، وكان صلاح الدين يتخير لحروبه هـذا اليوم لتفاؤله به ، التحم الجيشان على بعد ميلين من حطين ، وكان المسلمون هم البادئين بالقتال ، إذ أخذوا يطلقون على العدو سهامهم فتجندل الفرسان والجياد ، حتى عمت الفوضى في صفوف الفرنجة ، ثم انقضوا عليهم انقضاض الصخور المنحدرة من الجبال وهم يصيحون ويهللون ، واخذوا يقاتلونهم وجهاً لوجه ، فالتحمت السيوف واشتبكت الرماح وتقارعت العصي ، وارتفع الصليل والصهيل والصراخ ، وصلاح الدين يكرّ تارة على هذه الجماعة ، ويغير تارة اخرى على تلك ، او يعود الى صفوف جنوده ينظمهم ويحثهم على الإقدام والاستبسال .

ولقـد ابدى الفرنجة ضروباً مدهشة من الشجاعة والثبات ، ولكن الشمس كانت تعلو في كبد السماء ، ووهج الظهيرة يشتدّ في تلك الأرض الرملية الخلاء ، والمسلمون يشعلون النار ويلقون بها عليهم فيضاعف لهيبها ودخانها من اضطرابهم وتضعضعهم وقد اجتمع عليهم « نار الضرام ، ونار الأوام ، ونار السهام »[1] . ثم يكرون عليهم فيحاولون صدّهم مستعيدين شيئاً من عزيمتهم وإقدامهم فلا يستطيعون الى ذلك سبيلاً ، حتى بلغوا اقصى دركات العياء والكلال ووهنت قواهم وهنـاً عظيماً ، فاندفعوا يريدون الوصول الى بحيرة طبرية ليرووا بمائها ظمـأهم ويستعيدوا نشاطهم ، ولكن صلاح الدين اسرع فوقف امامهم كالسد المنيع مع ثلة من الفرسان . فجمدوا في اماكنهم فوق التل مترددين حائرين ، وقـد احاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها ، ومليكهم غي يستثيرهم ويدعوهم الى الهجوم ، فيجيبونه بانهم يضطرمون عطشاً ولا يستطيعون

---

١ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٧

الحرب مع هذه اللظى المستعرة في جوانحهم ، والشمس المتوهّجة تعشى لها عيونهم ، والرمال المحرقة تلتهب تحت اقدامهم

وكرت عليهم وهم في تلك الحال من الحيرة والتردد والقنوط ، فصيلة من فرسان المسلمين فقتلت منهم طائفة واسرت طائفة اخرى ، والقى كثير منهم اسلحتهم مستسلمين من غير قتال بينما شهر بعضهم السلاح في وجوه رفاق لهم لاستلابهم ما معهم من قرب الماء !..

ولم يبق للفرنجة اخيراً إلا أمل واحد عقدوه على ريمون قائد الفرسان، فأمره الملك غي بالهجوم ، فانحدر هو وفرسانه يتدفقون كالسيل ، فتراجع أمامهم تقي الدين عمر عامداً ، وظن اولئك انهم قد فتحوا ثغرة في صفوف المسلمين فاندفعوا فيها متحمسين ، واذا بتلك الثغرة قد سدّت ، وانفصلت فرقة ريمون عن بقية الجيش .

ويُلقي مؤرخو الفرنجة كثيراً من علامات الاستفهام حول موقف ريمون ، ويتساءلون عما اذا كان قد سبق له الاتفاق مع صلاح الدين على فتح تلك الثغرة في صفوف المسلمين ، كي ينفصل عبرها عن قومه ويخرج من المعركة [1] ، بينما يرى مؤرخو المسلمين انه عندما رأى امارات الخذلان تحل بالفرنجة وأيقن بهلاكهم أراد الفرار بأية وسيلة « فحمل حملة مكروب » وعندئذ فتح له تقي الدين عمر طريقاً خرج منه ولما خرج « التأم الصف [2] » .

وبعد أن خرج ريمون وأفراد فرقته من المعركة ، أو أخرجوا

---

١ – Saladin Le plus pur Héros de l'Islam. pp. 154 , 163

٢ – النوادر السلطانية ص ٦٢ ، الكامل ج ١١ ص ٣٦٢


ELLACOTT

منها ، بدأ قواد الفرنجة يجيئون مستسلمين ومن ورائهم أعداد هائلة تتهافت على الاسر ، وتنتظم في حباله ، حتى لقد رؤي جندي من جنود حوران يجرّ في حبل خيمة نيّفا وثلاثين أسيراً أخذهم وحده ، ونظمهم في الحبل وجرهم به ، لفرط ما أصابهم من الرعب والخذلان ، ثم رؤي المائة والمائتان قد اجتمعوا في مكان واحد تحت حراسة جندي فرد [1] .

وبقي الملك على التل وليس حوله الا جماعة من الامراء والنبلاء وبضع مئات من الجنود ، وقد التفوا جميعاً حول خباء غي لحمايته ، فحملت عليهم ثلة من فرسان المسلمين فردّوها ، ثم كرت عليهم ثانية فردوها مرة اخرى .

وكان صلاح الدين يراقب هذا المشهد على مقربة من التل الى جانب ابنه الافضل وهو حينذاك في سن الحادية عشرة ، فصرخ بجنوده صرخة غاضبة مثيرة ، فاذا بهم يعاودون هجومهم بحمية اكبر واندفاع أشد ، واذا بخيمة الملك الحمراء تهوي ويستولى المسلمون عليها [2] ويقع الملك في وسطها كما يقع الطائر في الشرك ، فيستسلم جميع الامراء والنبلاء الفرنجة ، وفي طليعتهم مليكهم غي دى لوسينيان ، وكان بينهم رينو دى شاتيون امير الكرك ، وجفري أخو الملك ، وهوغ صاحب جبيل ، وابن همفري ، وابن صاحب اسكندرون ، وصاحب مرقية ، وجيرار دى ريدفور مقدم الداوية ، وطائفة من كبار الفرسان.

ولما رأى ريمون الثالث أمير طرابلس ، وكان يراقب المعركة من بعيد ، استسلام الملك وحاشيته ، آثر النجاة بنفسه ، وأطلق لجواده

---

١ – ايام صلاح الدين ص ١٩٧ ، النوادر السلطانية ٦٣

٣ – الكامل ج ١١ ص ٣٦٣ ، الفتح القسي ص ٢٣ ، مفرج الكروب ج ٢ ص ١٩٠

العنان ، وظل هائماً على وجهه مع شرذمة من فرسانه حتى وصل الى صور سالماً ، فمكث فيها قليلاً ثم غادرها الى طرابلس حيث مات بعد ثلاثة اشهر في غمرة طاغية من الحزن واليأس ، إذ شاع بين قومه انه قد خان رفاقه وتخلى عنهم في وقت حاجتهم اليه .

واستقبل صلاح الدين أسراه العظام في خبائه واكرمهم ، وكان الملك غي متداعي القوى وقد أوشك هناك على السقوط مغشياً عليه لما ناله من الظمأ والإعياء ومرارة الاخفاق ، فأسرع اليه صلاح الدين فأمسك به وأجلسه الى جانبه ، وقدم اليه كأساً من الماء المثلج المعطر شرب الملك نصفها وأعطى رينو دى شاتيون النصف الباقي فشربه ، فغضب صلاح الدين وقال لمترجمه : « قل للملك انه هو الذي سقاه وليس أنا !.. » إذ كان من جميل عادات العرب أن الأسير اذا أكل وأشرب شيئاً في بيت من أسره أمِن ، فقصد السلطان بقوله هذا ان الملك غي آمن وأما رينو فلم يأمن[1] .

والتفت السلطان الى رينو وأنشأ يوبخه على حنثه بقسمه وخرقه المواثيق والعهود ، فقال رينو : « لقد جرت بذلك عادة الملوك[2] !.. »
ثم قال له : « ترى لو ركبت أنا رأسي وسلكت مسلكك ثم وقعتُ أسيراً في قبضتك ، فأي المواقف يكون موقفك مني ؟ »

فأجاب رينو دى شاتيون ساخراً متحدياً : « أقطع رأسك دون تردد ! »

---

١ – النوادر السلطانية ص ٦٤ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٩
٢ – مفرج الكروب ج ٢ ص ١٩٤

فانتفض السلطان وصاح به غاضباً ثائر الأعصاب : « يا لك من وقح! أفي خيمي وتحت رحمتي تجيبني بهذه اللهجة ! »

وطعنه بسيفه في كتفه ، وانقض عليه مرافقو السلطان فأجهزوا عليه [1] أما الملك غي ومن معه من النبلاء والفرسان فقد ارسلهم الى دمشق آمنين مكرّمين [2] ، وأبقى اسقف الناصرة مع مرضاهم كي يتولى العناية بهم حسب تقاليدهم . وقدّر المؤرخون عدد الأسرى جميعاً بثلاثين الفاً والقتلى ثلاثين الفاً أيضاً [3] .

ولم يصب الفرنجة ، ولا وقعت بهم كريهة منكرة ، منذ خرجوا الى الشام في سنة ٤٩١ هـ ١٠٩٦ م ، اشد وأدهى مما وقع بهم في حطين [4] . وقد ارجع بعض المؤرخين هذا الانتصار الى كثرة عدد المسلمين ، في حين رأى آخرون ان انتصارهم انما يرجع « الى تنظيم قواهم على يد صلاح الدين ، واتحاد هدفهم بالعمل على استنقاذ اراضيهم المحتلة ، على عكس الصليبيين الذين اصبحوا عناصر يسودها الاختلاف ، ليس لها اهداف محددة غير الطمع والتنافس فيما بينهم ، هذا فضلاً عن التكتيك الحربي الرائع الذي استخدمه صلاح الدين ، بفهمه للأرض التي يحارب فيها [5] . »

أما رينه غروسه فيقول : « يجب الا ننحو كثيراً باللائمة على غي

---

١ – Saladin Le plus pur Héros de l'Islam. p, 158

٢ – Hist , des Croisades et du Royame Franc de jerusalem, II, p. 798

٣ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١٨٤ نقلاً عن :
Bellok : The Crusades. p. 289 , Lamb ; The Crursdes . p. 55

٤ – معجم البلدان ج ٢ ص ٢٧٤ ، ذيل النوادر ص ٢٩٠

٥ – الناصر صلاح الدين الإيوبي ص ١١٨

دى لوسينيان في موقعة حطين التي انحطم فيها جيش الفرنج ، لأن الحالة التي وضعت فيها وحدة امبراطورية صلاح الدين ، الفرنج ، كانت عسيرة جداً ، وعاجلا أو آجلا كان لا بدّ لهم من هذا المصير ، فأسرُ طبقة الاشراف في هذه المستعمرة التي لم تكن الا « مستعمرة لرجال الادارة » كان الاستئصال التام لشأفة الاستعمار هناك دفعة واحدة [1] . »

وقد طرب المسلمون لهذا النصر العظيم والفتح المبين وابتهج المجاهدون وتغنى به الشعراء ، ومن ذلك قول ابن الساعاتي يخاطب صلاح الدين :

جلت عزماتك الفتح المبينا ... فقد قرّت عيون المؤمنينا
رددت أخيذة الاسلام لما ... غدا صرف القضاء بها ضمينا
يقاتل كل ذي مُلك رياء ... وأنت تقاتل الأعداء دينا
غدت في وجنة الأيام خالاً ... وفي جيد العلا عقداً ثمينا
فيا لله كم سرّت قلوباً ... ويا لله كم أبكت عيونا
وما طبرية الا هدى ... ترفع عن أكفّ اللامسينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء ... وسل عنها الليالي والسنينا
فضضت ختامها قسراً ومن ذا ... يصد الليث أن يلج العرينا
هناك ندي أهل الأرض طراً ... سواك ، ومعقل أعيا القرونا
قست حتى رأت كفؤاً فلانت ... وغاية كل قاس ان يلينا
فلو ان الجهاد يطيق نطقاً ... لناداك ادخلوها آمنينا
جعلت صباح أهليها ظلاماً ... وأبدلت الزئير بها أنينا
تخال حماة حوزتها نساء ... يخضون الحديد مقنعينا
لبيضك في جماجمهم غناء ... لذيذ علّم الطير الحنينا

---

١ – رصيد التاريخ ج ٢ ص ١٢٩

تميــل الى المثقفة العوالي فهل أمست رماحاً أم غصونا
يكاد النقع يذهلها فــلولا بروق القاضبات لما ُهدينا
فكم حازت قدود قناك منها قدوداً كالقنا لوناً ولينـا
وغيد كالجآذر انسات كغيد نداك أبكاراً وعونا
ولما باكرتها منك نعمى هتان تفضح الغيث الهتونا
أعدت بها الليالى وهي بيض وقد كانت بهـا الأيام جونا
فليس بعادم مرعى خصيبا أخو سغب ولا ماء معينا
فلا عدم الشآم وساكنوه ظبى تشفي بها الداء الدفينا

الفصل السابع عشر

تحرير بيت المقدس

لم يسبق للفرنجة مذ وطأت اقدامهم بلاد العرب ، أن عانوا مثل الخسارة الفادحة التي كابدوها في موقعة حطين . وقد ضاعف من أهميتها ونتائجها ، أسر ذلك الفريق الكبير من الأمراء والقواد والفرسان وفي طليعتهم الملك غي دى لوسينيان ، حتى لم يبق لديهم من يصلح لولاية أمورهم وقيادة جيوشهم . ومن ثمّ لم يكن تقدم صلاح الدين الأيوبي بعد ذلك تقدماً سريعاً في جهات فلسطين وجنوب لبنان ، حرباً بالمعنى الصحيح ، بل كان تتمة لما أحرزه من نصر مبين في يوم حطين ، إذ كثيراً ما كانت القلعة او المدينة التي يشخص اليها تسارع الى الاستسلام وطلب الأمان لمجرد وصوله أو بعد مقاومة يسيرة محدودة ، لضعف دفاعها وغياب قادتها ، ولما غدا لاسمه من الرهبة في قلوب الفرنجة ، ولكنها رهبة يمازجها الاعجاب والاجلال لما اتصفت به فتوحاته من النبل والشهامة والمروءة ، كما كان لتسامحه مع الصليبيين وحسن معاملته لأسراهم أثرهما الكبير في استسلام العديد من المدن والحصون دون مقاومة تذكر .

لقد تسلم السلطان حصن طبرية ، وأكرم الكونتيسة ايشيف زوجة

ريمون الثالث « وأخرجها من حصنها بالأمان ، ووفى لها وللفرسان بنيها بشروط الايمان ، فخرجت بمالها ورجالها ونسائها ، وسارت الى طرابلس بلد زوجها القومص بمالها وحالها [1] » ثم سار نحو عكا فاحتلها دون مقاومة إذ ما كاد يشارفها حتى أرسل اليه صاحبها جوسلين الثالث دي كورتناي مفاتيح المدينة [2] مشترطاً تأمين الفرنجة على ارواحهم وأرزاقهم « فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وخيرّهم بين الأقامة والظعن [3] » .

وبينا كان صلاح الدين ينظم شؤون عكا ، كانت سراياه تزحف على الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية والفوله وسبطية وتبنين فتحتلها جميعاً ، وكان أخوه الملك العادل سيف الدين يزحف من مصر اجابة لطلبه فيستولي على مجدل يابا ويافا [4] .

ثم اتجه صلاح الدين الى صيدا فاستولى عليها ، وواصل سيره الى بيروت فسلّمت بعد حصار قصير . وكان هوغ صاحب جبيل معتقلاً مع غيره من امراء الفرنج بدمشق ، فلما احتل المسلمون بيروت أرسل الى السلطان يطلب منه اطلاق سراحه مقابل تسليمه جبيل ومن فيها من اسرى المسلمين ، فقبل السلطان ذلك ، واطلق سراحه وتسلم منه المدينة [5] .

لم ينم صلاح الدين منذ موقعة حطين إلا لماماً ، ولم يركن الى راحة ،

---

١ – كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٩
٢ – Saladin Le plus pur Héros de L'Islam , p. 166
٣ – مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٠١ ، كتاب الروضتين ج ٢. ص ٨٦
٤ – السلوك ج ١ ص ١٩٥
٥ – الفتح القسي ص ٣٥

بل تابع انتصاراته بحكمة وجرأة وبراعة ، حتى استطاع أن يستولي في مدة قصيرة على جميع المدن الكبيرة التي يحتلها الفرنجة في فلسطين وجنوبي لبنان ، ولم يبق في ايديهم منها الا صور وعسقلان وبيت المقدس .

يقول البير شامبدور : « وكانت الحصون الثلاثة التي صمدت وقتاً طويلاً أمام الحصار الصلاحي ، هي حصون شقيف ارنون وصفد وهونين، ولما استسلمت اخيراً كافأ صلاح الدين حماتها على شجاعتهم باطلاق سراحهم ، ومنحهم الحرية في الذهاب الى حيث يشاؤون [١] »

ولقد كان صلاح الدين يترك الصليبيين في المدن والقلاع التي يحتلها احراراً، مخيّراً اياهم بين البقاء حيث هم أو الذهاب الى حيث يشاؤون ، فتجمع معظمهم في صور [٢] ، ثم أقبل المركيز كونراد دى مونتفرات المركيس) احد امراء ايطالية من القسطنطينية مع عدد من الفرسان لخلاف نشب بينه وبين عاهلها ، وكان يحمل ثروة طائلة وخبرة عظيمة وعزيمة جبارة، فحفر فيها الخنادق ، وأنشأ الأبراج ، وجدد الأسوار ، ودرّب الجند، وقوّى النفوس ، وشحذ العزائم ، حتى اصبحت مركزاً حصيناً للفرنجة يفدون اليه ويجتمعون به ويعتمدون عليه ، ثم أضحت قاعدة للحملة الصليبية الثالثة .

ويرى المؤرخون في مجيء المركيز الى صور ، حادثاً تاريخياً هاماً غيّر الموقف بالنسبة للصليبيين « إذ وجدوا فيه زعيماً التفوا حوله وعقدوا عليه آمالهم ، بعد أن ذهب عنهم زعماؤهم في واقعة حطين ، وكان في

---

١ – Saladin Le pluS pur Héros de l'Islam , p. 167

٢ – النوادر السلطانية ص ٥٨٦ السلوك ج ١ ص ٩٧

عزم أهل صور مكاتبة صلاح الدين في طلب الأمان وتسليم البلد اليه ، فلما جاءهم المركيز ردّهم عن ذلك العزم وقوّى نفوسهم وضمن لهم حفظ البلد [1] » .

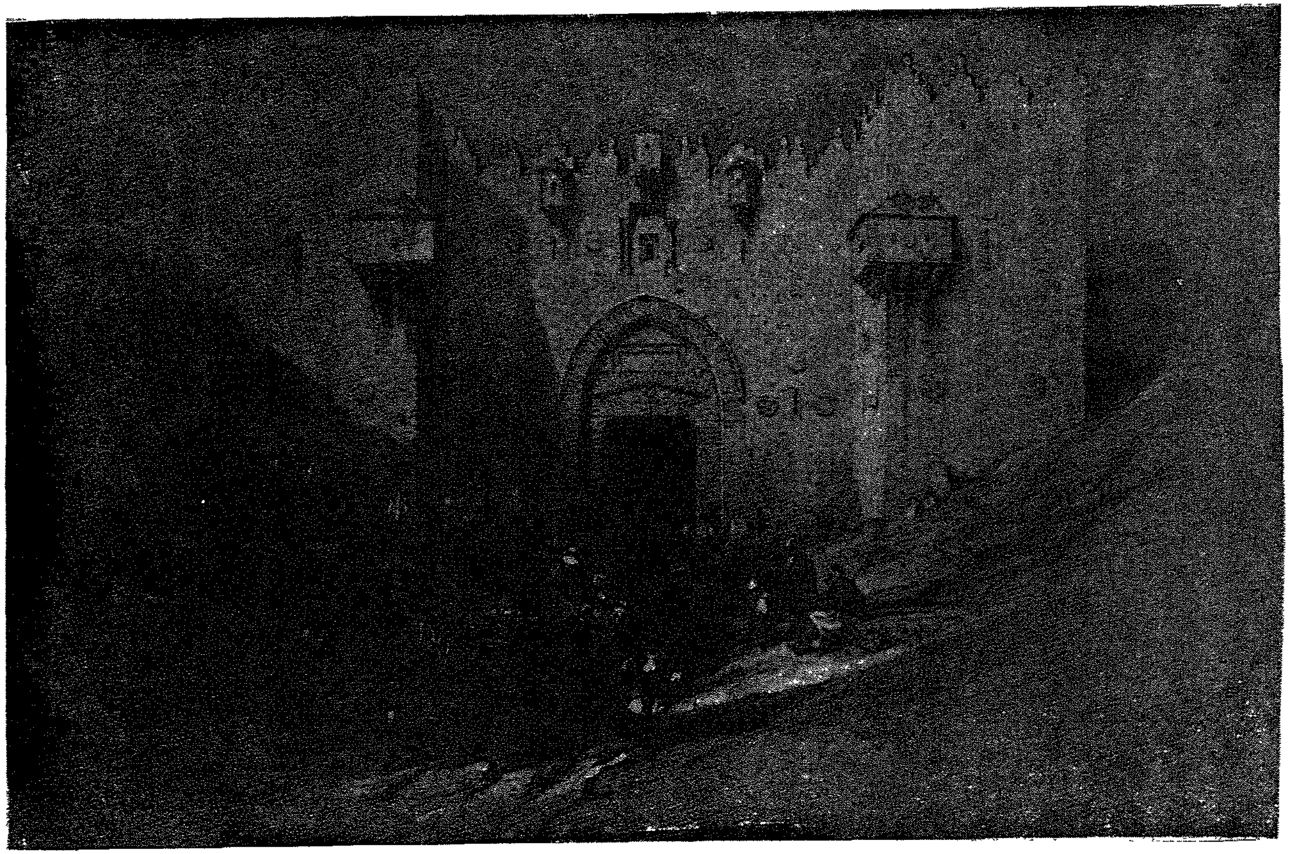
وقد انتبه السلطان بعد فوات الأوان الى تهاونه في أمر صور ، وأراد أن يحتال على المركيز ليسلمه المدينة ، فأحضر اباه دوق مونتفرات وكان أسيراً في دمشق ، وعرض عليه ان يطلق سراحه مقابل تسليمه المدينة ، وهدده بقتله امام عينيه إن هو رفض طلبه ، فأجاب المركيز انه لا يتخلى عن حجر واحد من حجارة صور ولو فقد اباه ، وان والده قد عاش طويلاً فيكفيه ما عمّر ، وليقتله السلطان إذا شاء ! فأعجب صلاح الذين بجواب كونراد وأعاد أباه الى مكانه من الأسر في دمشق ، الا انه ما لبث ان أطلق سراحه وارسله معززاً مكرماً الى ابنه في صور [2] .

ورحل السلطان عن صور الى عسقلان « باب القدس » فحاصرها هو وأخوه العادل وولده العزيز عثمان . وأراد ان يعيد تجربته مع حامية هذه المدينة ، فأحضر الملك غي ، وأبلغ الحامية انه مستعد لاطلاق سراحه ان هي استسلمت له ، فأبت ذلك ، ورفضت مساعي غي ، فأعاده الى الأسر ثم افرج عنه بعد بضعة أشهر اعترافاً بمساعيه هذه ، وشدد الهجوم على المدينة فاستسلمت بعد عدة ايام ، ثم بعث بسراياه في انحائها فاستولت على حصون الهيكليين (الداوية بجنوب فلسطين وهي غزة والقطرون وبيت جبريل مقابل اطلاق مقدمهم جيرار دى ريدفور ،

---

١ – التاريخ الحربى المصري في عهد صلاح الدين ص ١٨٩ .

٢ – Grousset : Hist des Croisades, III. p. 18



أحد ابواب القدس

ثم احتلت الرملة والداروم والخليل وبيت لحم .

حدث ذلك كله في غضون شهرين كان صلاح الدين ينتقل خلالها من ظفر الى اخر ، وكأنه يسابق في ذلك الزمان . وفي نهاية هذه المرحلة القصيرة الحافلة بالانتصارات المعجزة ، غدت طريق القدس مفتوحة امامه، فسار اليها بجيشه وايمانه ، وكلاهما قوي عظيم ، فبلغها في ١٥ رجب سنة ٥٨٣ هـ ٢٠ ايلول ١١٨٧ ، إلا أنه لم يشأ مهاجمتها فوراً لحرمتها لديه ، ففاوض حاميتها على التسليم ، متعهداً باحترام الاماكن المقدسة وشعائر الديانة المسيحية وعواطف المسيحيين ، وكتب لهم في ذلك كتاباً قال فيه : « انني انا نظيركم ايضاً ، واعرف ان القدس هي بيت الله ، ولست آتياً لكي أدنس قدسيتها بسفك الدماء ، فعليكم ان تدعوها وأنا اكفيكم أمركم وأهبُ لكم من الأرض بقدر ما تستطيعون ان تعملوا فيه[١] » إلا أنهم رفضوا الدعوة الى السلم ، وأبوا الا المقاومة والقتال

وكان كثير من جنود الفرنجة قد لاذ بالقدس كما لاذ غيرهم بمدينة صور ، إلا انهم كانوا يفتقرون الى القادة المدربين لأسر قادتهم في موقعة حطين ، واتفق ان باليان ديبالان (ابن بارزان) امير الرملة كان اسيراً لدى صلاح الدين ، فاستأذنه في الرحيل الى القدس ليعود بامرأته واولاده ، واقسم ألاّ يمكث فيها الا ليلة واحدة ، فسمح له السلطان بذلك ، فلما وصل باليان الى القدس ناشده كبار الفرنجة ان يبقى بينهم ويقود جندهم ويحمي عاصمتهم ، فقبل طلبهم متناسياً العهد الذي قطعه على نفسه ، وحين اقبل صلاح الدين وفاوضهم على التسليم رفضوا ان

١ – تاريخ الحروب المقدسة في المشرق لونروند ترجمة البطريرك مكسيموس مظلوم ج ٢ ص ٩٠

يجيبوه الى طلبه اعتماداً على الآمال التي عقدوها على باليان .

وقد عمد باليان الى تجنيد كل مـــن استطاع من الشبان والصناع والتجار ، واستولى بالاتفاق مع البطريرك على كل ما في كنيسة القيامة من نفائس فضية وذهبية ، وسبكها وحولها الى نقود لتحسين وسائـل الدفاع واستئجار المزيد من الجنود [1]

وطاف السلطان بمدينة القدس عدة إيام دارساً متفحصاً ، ثم اتخـذ جبل الزيتون مركزاً لجنده ، لأنه وجد أسوار المدينة في هذه الناحية اضعف منها في أية ناحية اخرى : فهي إذن اصلح مكان لمهاجمتها منه ، ثم نصب عليها المجانيق ، وضايقها بالزحف والقتـال . وكان فرسان الفرنجة يخرجون كل يوم الى ظاهر البلدة يقاتلون مستبسلين ثم يعودون.

ولـما كان اليوم السابع والعشرون من رجب سنة ٥٨٣ ﻫ ٢ تشرين الأول ١١٨٧ م ، حمل المسلمون على المدينة حمـلة رجل واحد ، فأزالوا الفرنجة عن مواقعهم ، واضطروهم الى دخول المدينـــة ، وزحفوا الى الخندق فاجتازوه ، ووصلوا الى السور فنقبوه ، تحت وابل من قذائف الفرنجة وسهامهم [2] .

---

١ — Eracles • II. p. 70 , Saladin Le plus pur Héros de L'islam. p 176

٢ — كتاب الروضتين ج ٢ ص ٩٤ ٢،السلوك ج ١ ص ٩٦ والنوادر السلطانية ص ٦٦ ، ومن الطرائف التي تروى ان احد الفقهاء أو أحد الشعراء كان قد تنبأ بفتح القدس في رجب عندما هنأه بفتح حلب ، وهي نبوءة كما يلاحظ قضت بها القافية :

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر قضى لكم بافتتاح القدس في رجب

ـ كما تنبأ أحد المنجمين له بقوله : «تفتح القدس وتذهب احدى عينيك» فأجابه : «رضيت ان افتحه واعمى »

وأخذ الحصار يتطور من فزع الى فزع ومن هول الى هول ، والمدافعون عن المدينة يرمون المحاصرين بالحجارة دون انقطاع ، والسهام تتطاير في الجو من كل مكان ، وفرسان صلاح الدين يحومون حول الأسوار ، بينما الآلات تقذف النيران على المدينة ، والجنود يحفرون لأنفسهم طريقاً تحت الأسوار والأبراج .

ويذهب بعض المؤرخين الغربيين الى ان الخلاف كان على أشده داخل مدينة القدس ، أثناء محاصرتها ، بين الارثوذكس والكاثوليك ، وان الفريق الاول كان يصرح بأنه يفضل حكم المسلمين على حكم الكاثوليك الافرنج ، وهناك من يعتقد بأن زعماء الارثوذكس قد كاتبوا صلاح الدين لمساعدته في فتح المدينة [1]

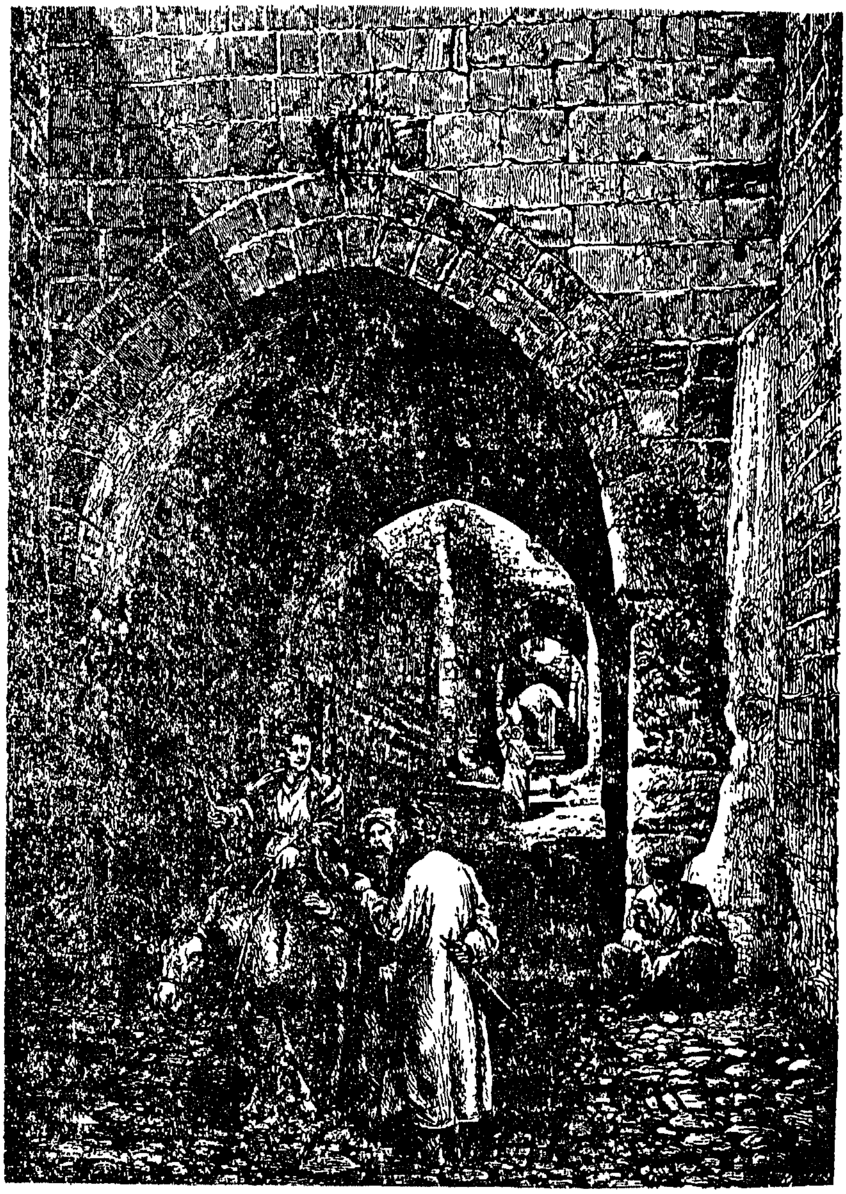
ولما ايقن افراد الحامية بأن المدينة صائرة الى السقوط الحتم ، رغم بسالتهم واستماتتهم في الدفاع عنها ، أجمعوا رأيهم على طلب الأمان فأرسلوا باليان الى السلطان يفاوضه في الصلح على أن يدفع سكان المدينة له مائة الف دينار [2] .

وأمسك صلاح الدين بيد باليان وقاده الى باب الخيمة ، وأشار الى الأعلام الصفراء التي اخذت تخفق فوق عدد من أسوار المدينة ، والى العلم الذي كان رجاله يرفعونه في تلك اللحظة فوق ثغرة جديدة احدثوها في السور القديم ، وقال له : « هل لمدينة وقعت في الأسر أن تطلب شروطاً للصلح ؟ »

---

١ — Grousset ; Hist des Groisades. pp. 811 - 812

٢ — Saladin Le plus pur Héros de L'islam p. 181



احد شوارع القدس

فقال الرسول : « ايها السلطان ، ان في المدينة خلقاً كثيراً لا يعلم عددهم الا الله ، وهم انما يفترون عن القتال رجاء الأمان ، ظناً منهم انك تجيبهم اليه كما أجبت غيرهم ، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة ، فان رأينا الموت لا بدّ منه ، فوالله لنقتلنّ ابناءنا ونساءنا ، ونحرقنّ أموالنا ومتاعنا ، ولا نترككم تغنمون ديناراً او درهماً واحداً ، ولا تأسرون ولا تسبون رجلاً او امرأة أو طفلاً ، فاذا فرغنا من هذا قمنا على الصخرة فخربناها ، وألحقنا المسجد الأقصى وغيره من الأماكن المقدسة بها ، ثم بعد ذلك نقتل من عندنا من أسرى المسلمين وهم زهاء خمسة آلاف أسير ، ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً الا قتلناه ، ثم نخرج اليكم في جمعنا نقاتلكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه ، فلا يُقتل الرجل منا حتى يقتل منكم امثاله ، فنموت أعزاء أو نظفر كراماً [١] »

يقول محمد كرد علي : « وكان رأي صلاح الدين أخذ الفداء فتغلب رأيه على ما كان يراه بعض جماعته اولاً من اهراق دماء الفرنج كما اهرق اجدادهم دماء المسلمين ، وهذا التهديد من سفير الصليبيين في الصلح لا شأن له مع صلاح الدين وهو في تلك القوة والمنعة ، ولكن صلاح الدين يرمي الى مقصد أعلى من جميع مقاصد جماعة الصليبيين ، كان يريد بما فعل من قبول الفداء تعليم الصليبيين درساً في مكارم الاخلاق وسماحة الاسلام [٢] »

ويقول سيد أمير علي : « لقد تغلبت رقة قلب السلطان على رغبته في الاقتصاص ، وسمح للروم ونصارى القدس بالاقامة في بلاده وبالتمتع

---

١ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ٩٧ ، مفرج الكروب ج ٢ ص ٢١٤
٢ - خطط الشام ج ٢ ص ٦١

بحقوقهم المدنية كاملة ، كما سمح بالبقاء للفرنج واللاتين الذين شاؤوا ان يقيموا في فلسطين بوصفهم رعايا السلطان . أما المحاربون داخل المدينة فقد امر برحيلهم خلال أربعين يوماً ، وضمن لهم سلامة الوصول بحراسة جنوده الى صور او طرابلس ، وحدد فدية الرجل منهم بعشرة دنانير شامية وخمسة دنانير المرأة ودينار واحد للطفل ، فمن عجز عن أداء الفدية أخذ اسيراً ، غير ان هذا الشرط لم يعمل به قط [١] ،

وقبل الفرنجة هذا الشرط[٢] ، وبدأوا يغادرون القدس منذ ذلك اليوم نفسه ، والسلطان وجنده ينتظرون في ظاهرها ، وشرطته تحفظ الأمن في داخلها ، كي لا يقع أي اعتداء او انتقام ، وكي يسود التسامح والشرف والاباء [٣] .

---

١ – مختصر تاريخ العرب ص. ٣١١

٢ – للكاتب الانكليزي ريدر هيجارد رواية عن صلاح الدين ذهب فيها الى ان احد نبلاء الانكليز كان قد اختطف شقيقة السلطان وصحبها معه الى انكلترا حيث اعتنقت الدين المسيحي وانجبت فتاة دعتها « روز اموفد » أي «وردة العالم » وأن صلاح الدين رأى في المنام ان ابنة اخته هذه ستنقذ السلام في البلاد المقدسة ، وتكرر هذا الحلم ثلاث مرات ،فارسل الى انكلترة من اختطف الفتاة وجاء بها الى دمشق ، فلحق بها ابناء عمها وهما فارسان باسلان ، وبدأت مغامرات واهوال هربت وردة العالم ولجأت الى دير في بيت المقدس،فلما حاصرها صلاح الدين ، وجاء باليان لمفاوضته طلب ان تأتي اليه وردة العالم ، والا فانه سيحيل القدس قاعاً صفصفاً ويعمل السيف في رقاب سكانها ، فجاءت الملكة سيبيل ونساء الاشراف يتوسلن الى الفتاة ان تفتدي بنفسها المدينة المقدسة ، واستجابت وردة العالم لطلبهن ومضت الى صلاح الدين ورجته أن يعفو عن المدينة ، فقبل السلطان رجاءها ، وتحققت بذلك رؤياه ، وهكذا نجت بيت المقدس من المصير الرهيب الذي كانت تنتهي اليه امثالها من المدن التي كان يحتلها الفاتحون في القرون الوسطى ، ومن الواضح ان كل ما جاء في رواية ريدر هيجارد انما هو من نسج الخيال .

٣ – Saladin Les plus pur Héros de L'isłam, q. 182

ويقول رانسيمان في ذلك : «كان المنتصرون معقولين وانسانيين ،فعلى حين نجد الفرنج عند استيلائهم على المدينة منذ ثمانية وثمانين عاماً يخوضون في دماء ضحاياهم ، لا نجد في هذه المرة بناءً نُهب ، ولا انساناً أصابه أذى ، ونرى الحراس – تنفيذاً لأوامر صلاح الدين – منبثين لحراسة الطرق والابواب وحماية المسيحيين من أي اعتداء قد يصيبهم [١] »

ويثني المؤرخون جميعاً ، غربيين وشرقيين ، على الموقف النبيل الذي وقفه صلاح الدين اثناء فتح بيت المقدس [٢] ، ويتحدثون باعجاب شديد عن توزيعه المال والدواب على المرضى والمسنين والمحتاجين من الفرنجة [٣] ، وعن إكرامه النساء ، ورأفته بالأطفال . ورعايته للضعفاء منهم . ويشهدون بأن جنوده كانوا على غراره في المروءة والشهامة ، فلم يقع في هذا الحادث التاريخي الخطير ، أيّ امر من الأمور التي تقع عادة في مثل هذه الظروف على ايدي الجنود المنتصرين ، والتي وقع كثير منها لما احتل الفرنجة القدس ، ويقول الدكتور فيليب حتي في ذلك : وكان الفرق جلياً بين معاملة صلاح الدين للمدنيين من الافرنج ومعاملة الافرنج للمسلمين قبل ذلك بثمان وثمانين سنة [٤] »

وفي كتاب « تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوّة حرب الصليب » الذي الفه مكسيموس مونروند ونقله الى العربية البطريرك مكسيموس مظلوم ، وطبعه دير الرهبان الفرنسيسكانيين بالقدس سنة ١٨٦٥ ، يتحدث المؤلف عن المجازر التي رافقت احتلال الفرنجة للقدس

---

١ – قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص ٣٨

٢ – انظر : Ernoul. p. 171, Crousset. II, p. 800، Champdor, P. 183

٣ – مرآة الزمان ص ٢٥٢

٤ – تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ٢٣٨

ويقول : « فالمؤرخون بنـوع خاص ذموا قساوة هؤلاء الجنود البربرية عن هذا الفعل » ثم يقول [1] « وأمـا نحن فنحوّل نظر تأملنا في هـذا المشهد البربري المكروه [2] » وعندما يتحدث عن فتح القدس من قبـل صـلاح الدين واعمال الرحمة والشهامة التي بدرت منه نحو الصليبيين لا يسعه الا ان يقول : « فالفضل لشهـامة الملك العادل اخي السلطان صلاح الدين واشفاقه الذي به ساعد هؤلاء ، ثم الحمد لرأفة هذا السلطان نفسه بما ترأف به عليهم [2] »

وقد كان البطريرك اللاتيني ايراكلوس اول من غادر القدس ، وكان يحمل مقداراً كبيراً من الأموال والجواهر [3] ، فقيل للسلطان : « خـذ ما معه لتقوي به المسلمين » فقال : « لا اغدر به ! » ولم يأخذ منـه غير عشرة دنانير [4] ، وهمّ بعض الامراء باعتراض البطريرك لما رأوا معه من الأموال ، فمنعهم صلاح الدين وقال لهم : « الوفاء خير [5] »

ثم خرجت الملكة سيبيـل يحيط بها الأشراف والاميرات ، فبـالغ السلطان في اكرامها ، وخاطبها باسلوب مهذب رقيق ، وبعث بها الى زوجهـا غي السجين بقلعة نابلس حيث مكثت في ضيافته حتى أطلق سراحهما معاً .

وسمـح بخروج الملكة ماريا كومنينوس ارملة اموري الأول وزوجة

---

١ - تاريخ الحروب المقدسة في المشرق ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٣

٢ - المرجع السابق ج ٢ ص ٩٥ - ٩٦

٣ - المرجع السابق ج٢ ص ٩٥

٤ - مفرج الكروب ج ٢ ص ٢١٥ تاريخ سورية للمطران الدبس ج ٦ ص ١٠٨

٥ - دول الاسلام ج ٢ ص ٧٠

جاليان وامر بحراستها ومن معها من بيت المقدس حتى طرابلس

وخرجت طـــائفة كبرى من النساء ووقفن في حضرته متهيبات ، يختلسن النظر اليه فـــلا يرين ملامح الوحش الكاسر ، آكل لحم البشر وشارب الدماء ، فقال « ما تردن ؟ » فقلن : « ايهـــا السلطان ! اترانا الآن راحلات عن هذه الديار ونحن بـــين زوج أو ام او ابنة لاولئك الجند الذين ما يزالون في أسرك ؟ ونحن الآن نغـــادر هذه الديار الى الابد ، وهؤلاء الجند الذين نتركهم هم عدتنـــا في حياتنا وسلاحنا في أيامنا ، فاذا فقدناهم فقدنا الحياة ، أما اذا وهبتهم لنا فقد وهبت لنا النعيم ، وخففت بذلك الامنا ، وازحت بؤسنا ، وابعدت عنا شقاءنا ، فانا لا نكون على ظهر هذه الأرض من غير مساعد او عائل !.. »

فتأثر السلطان لقولهن ، واطلق سراح ابنـــائهن وازواجهن وآبائهن جميعاً ، وعوّض اللاتي مات اولياؤهن مالاً كثيراً ، وجدد الأمر عـــلى عماله بأن يحسنوا معاملة من بقي لديهم من الأسرى ٢

وكان بين الأسرى الذي اعتقهم صلاح الدين فتاة فرنسية ، فتولاها الغضب وتقدمت نحو صلاح الدين قائـــلة : لقد قتلت أبي ايهـــا المجرم السفاك ، واسرت اخويّ ، فلم يعد لي عائل ، وها انت تمن عليّ بالعتق كيما يزداد بلائي !

فلم تثر تلك الشتائم صلاح الدين ، وبعث بمن احضر اخويْ الفتاة، وقال لهـــا :

---

١ – Eracles. II, pp. 81 . 84

١ – تاريخ الحروب المقدسة في المشرق ج ٢ ص ٩٥



– أما ابوك فقد قتل في حرب هو الذي اشعل نارها واعتدى بها على القوم الآمنين ، واما اخواك فاني اطلق سراحهما اكراماً لامرأة في حاجة الى العائل والمعين ..

فقالت الفتاة : عفواً مولاي ، فانما هي ثورة الحزن ، ومـا كنت اسمعه في بلادي عن ظلم المسلمين .. هذا ما جعلني أنطق بما لا اعي ، وانني مع هذا لست يائسة من صفحك وكرم عفوك .

ولما همت بالانصراف قال السلطان : الى اين انت ذاهبة ؟

فقالت : الى بلادي .

قال : وماذا انت قائلة لقومك ؟

قالت : اقول لمتعصبيهم كلمة الحق في الاسلام والمسلمين [1] .

وخرج فوج من الفرنجة الذين يحملون اقـاربهم المرضى على ظهورهم بدلاً من ان يحملوا امتعتهم وارزاقهم « فهذا المشهد حرك حنو السلطان صلاح الدين فاشفق على هؤلاء المساكين وسمح للرهبان صياف الغربا (الاسبتارية بأن يستمروا باقين في اورشليم ويتمموا واجبات رسومهم بالاعتناء بجميع الذين من المسيحيين لم يكونوا قادرين على السفر [2] »

وهذه امرأة من نساء الفرنج وقفت على خيمة السلطان وبكت بكاء

---

١ - ابطال الشرق ص ١٥

٢ – تاريخ الحروب المقدسة في المشرق ج٢ ص ٩٦ ، والاسبتارية هم فرسان المستشفى الذين كانوا من ابرز فرسان الصليبيين الذين حملوا السلاح في وجه صلاح الدين في معركة بيت المقدس وغيرها من المعارك ، وقد كان سماحه لهم بالبقاء في القدس للعناية بالمرضى من أغرب واعظم مآثره

شديداً ، وهي تمرغ وجهها في التراب ، وتستغيث به وتستنجد ، فقد ارسلها قومها اليه قائلين : « انه اشرف محـــارب رأيناه ، على هذه الأرض . هو قاس على المقاتلين ، ولكنه رؤوف بالأطفـــال والنساء » فاستدعاها اليه ، وعرف من امرها انها فقدت رضيعاً لها لا يزيد عمره عـن ثلاثة أشهر ، فرقّ قلبه لهـــا ، ودمعت عينه لمنظرها ، وامر بالبحث عن رضيعها ، ولم يزل واقفاً حتى أحضر الطفل وسلمه بيده الى امه كي تقرّبه عينها ، وقال لها : « خذيه ولا تربيه على بغضنا ،فنحن لسنا وحوشاً مفترسة ، ولكننا ندافع عن حقنا وارضنا[١] . »

وتقدم مـــن السلطان شيخ مسيحي مسن يمسك بذراع شاب مسلم وقال له بصوت متهدج : « ايها المولى ، انا فرنسي من بلدة تولوز اقيم في هذه المدينة منذ عشرين سنة ، وقد جاءني هذا الشاب منذ سنتين ، هارباً من مدينة عسقلان ، فأضفته في بيتي وكتمت خبره عن الناس . وقد اقام في بيتي هذه المدة كلها ، يأكل ويشرب وينام ، فلما استرجعتم القدس ، وخسر الصليبيون كل شيء ، وشعر هذا الشاب بأنني غدوت ضعيفاً واصبح هو قوياً ، انقلب عليّ وطردني من بيتي واستولى على كل شيء فيه . فهل انتم تطلقون الأيدي في السلب والنهب وتقرون خيانة الضيف للمضيف ؟ ام تطبقون علينا شروطاً قبلناها وارتبطتم بها ؟ ان هذا الرجل خائن وسارق ، فهل تعاقبه يا صلاح الدين ، ام تسكت عن خيانته وسرقته ؟ » فلم يتردد صلاح الدين لحظة في الجواب ، بـل التفت الى الملك العادل وقال : « اعيدوا الى هـذا الشيخ بيته وماله ،

---

١ – صلاح الدين بطل حطين ص ١٢٢ ، دمعة صلاح الدين ص ٩ ، قصص من التاريخ ص ١٨ ، وقد روى ابن شداد قصة هذه الام بين الحوادث التي جرت اثناء حصار عكا : انظر النوادر السلطانية ص ١٤٦

واعفوه من دفع الفدية او الجزية ، واسجنوا هـذا الشاب حتى ننظر في امره [1] »

ومن حق التاريخ ان نقول ان قوافل الفرنجة التي ارسلها صلاح الدين مخفورة كي لا تتعرض لأيّ اعتداء [2] ، قد اغلقت في وجهها ابواب طرابلس وانطاكية اللتين كانتا مـا تزالان في ايدي الفرنجة ، فساروا على وجوههم في بلاد المسلمين فقوبلوا بكل ترحاب [3] . ويقول البـير شامبدور انه لما اغلقت ابواب طرابلس وانطاكية في وجوه اللاجئين من الفرنجة واعتدى عليهم بنو قومهم المقيمون في طرابلس ونهبوهم حتى ان احدى النساء قد انتابتها ثورة عصبية شديدة دفعت بها الى القاء وليدها في اليم يأساً وألماً « امر صلاح الدين بأن توزع عليهم الخيـام والأطعمة دون مقابل الى ان يستطيعوا الابحار الى الغرب ، ونقل عدداً كبيراً منهم الى الاسكندرية أملاً في تسهيل رحيلهم على المراكب الايطالية ، ولكن قادة سفن بيزة وجنوة والبندقية لم يقبلوا في سفنهم الا من كان يملك اجور السفر ونفقات الغذاء طوال مدة الرحلة ، مما أدهش المسلمين هنـاك وأغضبهم فاندفعوا لتأمين الغذاء والمأوى لاولئك المسيحيين الأوربيين المشردين [4] »

وهكذا يتبارى المؤرخون الغربيون في الاشادة بسيرة صلاح الدين في فتوحه ، مؤكدين انه « ظهر على مستوى من كرم الأخلاق والشهـامة لا يفوق المستويات العادية التي عرفها فرسان الغرب فحسب ، بل يفوق

---

١ – الناصر صلاح الدين لجاماتي ص ٩٢

٢ – الحركة الصليبية ج٢ ص ٨٢٥ نقلاً عن Besant et Palmer : Jerusalem P. 400

٣ – Ernoul , p, 281 ، مختصر تاريخ العرب ص ٣١٢

٤ – Saladin Le plus pur Héros de l'Islam, pp. 183 - 184

المثل العليا التي لم يصل اليها اولئك الفرسان في يوم من الأيام [١] »

ويقول المطران يوسف الدبس بعد ان لخص أقوال المؤرخين المسلمين في فتح بيت المقدس : « اما المؤرخون الفرنج فرووا اخبار فتح صلاح الدين اورشليم كما رويناها عن المؤرخين المسلمين وقلّ ما زادوا عليها . ومـا زادوه كان المؤرخون العرب أولى منهم بذكره ، فانهم أثنوا على سماحة صلاح الدين وكرم اخلاقه واشفاقه على الفقراء والمصابين بهـذه النازلة » وبعد أن يروي معظم ما رويناه في الصفحات السابقة من مآثر صلاح الدين يقول : « ودفع الملك العادل أخو صـلاح الدين فدية ألفي أسير فافتدى به السلطان أخوه وكسر اغلال كثيرين من الفقراء والأيتام. وقد اشار اليه بعض المسلمين ان يدكّ حينئذ كنيسة القبر المقدس وسائر الكنائس ليمنع النصارى من الحج الى القدس أو من ان يتذرعوا بتكريمها الى الاستيـلاء على هذه المدينة ، فآثر ان يخالفهم في بقـاء الكنائس ولا سيما كنيسة القبر اقتداء بعمر بن الخطاب ، إذ أبقى هذه الكنائس للنصارى في صدر الاسلام [٢] »

أما من بقي من الفرنجة في القدس فقد رعاهم صـلاح الدين وأحسن اليهم . واما المسيحيون السوريون والبيزنطيون من سكانها فقد وسّع لهم في امـلاكهم ومنحهم من الحرية ما كانوا يتمتعون به في العهود العربية السالفة [٣] ، شأنهم في جميع انحـاء بلاده ، مؤكداً بذلك انه لم يكن يحارب المسيحية والمسيحيين وانما كان يقاوم الاستعمار والمستعمرين .

---

١ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٣١ نقلا عن : Stevenson : the Crusades the East, p. 254

٢ – تاريخ سورية المجلد السادس ص ١٠٩ ، انظر ايضاً دول الاسلام ج ٢ ص ٧١

٣ – تاريخ الحروب المقدسة في المشرق ج ٢ ص ٩٤

ومن اطرف ما يروى ان عيد الميلاد أطل بعد تحرير بيت المقدس باسابيع معدودة ، في ليلة ممطرة حالكة السواد ، فاحتفل المسيحيون الباقون في القدس بعيد المرح والبهجة في ظروف تكتنفها الكآبة والحزن. يقول الاستاذ حبيب جاماتي : « وفي مساء ذلك اليوم ، أقدم الرجل الذي هزت انتصاراته العالمين في الشرق والغرب ، والذي كان عظيماً في حربه ، عظيماً في سلمه ، على عمل نبيل تجاه المسيحيين الحزانى المكلومين ، لم يذكر التاريخ له مثيلاً من قبل او من بعد . فقد سار السلطان صلاح الدين الأيوبي في مياه الأزقة وأوحال الطرقات ، يبحث عن النصارى الافرنج القابعين في عقر بيوتهم والذين لم يفتقدهم اهلوهم فوجدوا انفسهم في ضنك شديد ، حاملاً اليهم تهانئه وهداياه . كان يطرق الأبواب ، فتنفتح صارخة على رزازها ، ويبدو الشيوخ والنساء من ورائها خائفين مرتاعين أو يطل الاطفال من الطاقات والنوافذ مذعورين باكين ، ثم تعود الطمأنينة الى نفوسهم فيستقبلون الوافدين ، ويتقبلون منهم الهدايا من مأكل وملبس ومال . ولم يكن اولئك الوافدون غير السلطان ورفاقه ، وقد راحوا ينشرون الغبطة والسعادة والرخاء ، في بيوت النصارى بالقدس ليلة عيد الميلاد [١] »

ويروي الشاعر اليهودي الاسباني يهودا الحريزي الذي زار القدس في سنة ١٢١٦ ، أن اليهود قد افادوا من جو الحرية الدينية الذي شاع في عهد صلاح الدين ، فلجأت الى القدس جماعات كبيرة من اليهود وفدت اليها من جميع أنحاء العالم [٢] .

---

١ — الناصر صلاح الدين ص ١١٩

٢ — Saladin Les plus pur Héros de l'Islam. p. 188

وقـــد كتب صلاح الدين الى الامبراطور البيزنطي اسحق الثـــاني انجيلوس يخبره باستعادة بيت المقدس ، ويرد اليه مائة وتسعين مـــن رعايا بيزنطية كانوا قد وقعوا اسرى في يده أثناء حروبه مع الصليبيين ، فأجابه العاهل البيزنطي مهنئاً [١] .

---

١ – السلوك ج ١ ص ٩٨

الفصل الثامن عشر

قمة المجد

أقام صلاح الدين الأيوبي في بيت المقدس شهراً كان خلاله موضوع احتفال السكان وتمجيد الشعراء وتهنئة الأمراء من جميع الأنحاء . وتؤلف قصائد الشعراء في تحرير القدس لوناً خاصاً في الأدب العربي يعرف باسم « القدسيات » .

ومن « القدسيات » قول ابن الساعاتي :

أعيا وقد عاينتم الآية العظمى　　لأية حال تذخر النثر والنظما
وقد ساغ فتح القدس في كل منطق　　وشاع الى ان أسمع الأسل الصما
فليت فتى الخطاب شاهد فتحها　　فيشهد أن السيف من يوسف اصمى
وما كان إلا الداء أعيا دواؤه　　وغير الحسام العضب لا يحسن الحسما
وأصبح ثغر الدين جذلان باسماً　　وألسنة الأغماد توسعه لثما
سلوا الساحل المخشي عن سطواته　　فما كان إلا ساحلاً صادف اليمّا

ومن « القدسيات » ايضاً قول ابن سناء يخاطب صلاح الدين :

لست أدري بأيّ فتح تُهنا　　يا منيل الاسلام ما قد تمنى
كل فتح يقول اني أولى　　وهو أولى لأنه كان أهنا

قد ملكت الجنان قصراً فقصر   إذاً فتحت الشآم حصناً فحصناً
إن دين الاسلام مَنٌ على الـ   ـخلق وأنت الذي على الدين منّا
لك مدح فوق السموات ينشا   ومحل فوق الأسنة يُبنى
كم تأنى النصر العزيز عن الشا   م ، ولما نهضت لم يتأنى
لم تقف قط في المعارك إلا   كنت يوسفاً كيوسف حسنا
يُجتبى النصر من ظباك كأن الـ   ـقضيب قد صحفوه أو صار غصنا
قصدت نحوك الأعادي فرد الله   ما أمّلوه عنك وعنا
لم تلاق الجيوش منهم ولكنك   لاقيتهم بلاداً ومدنا
خانهم ذلك السلاح فلا الرمـ   ـح تثنى ولا المهند طنا
وتصيدتهم بحلقه صيد   يجمع الليث والغزال الأغنا
وجرت فيهم الدماء بحاراً   فجرت فيهم الجزائر سفنا
صنعتَ فيهم وليمة وحش   رقص المشرفيّ فيها وغنى
وحوى الأسر كلّ ملك يظن   الدهر يفنى وملكه ليس يُفنى
لا يُخص الشآم فيك التهاني   كل صقع وكل قطر مهنا
قد ملكت البلاد شرقاً وغرباً   وحويت الآفاق سهلاً وحزناً
واغتدى الوصف عن علاك حسيراً   أيّ لفظ يقال أو أيّ معنى
ورأينا ربنا قال اطيعو   ه ، فسمعنا لربنا وأطعنا

وقد عني السلطان بتنظيم شؤون المدينة ، وتأمين السلام والحرية لجميع ابنائها . ثم اخذ يستعد لمهاجمة صور لعلمه انه إن أخر امرها اشتد . وقد كتب له في ذلك بعض الأمراء ١ . ولكن هذه المدينة كان قد أصبح لها من المنعة ، بما انشأ فيها المركيز كونراد من أسباب

---

١ – الفتح القسي ص ٦٢

الدفاع ، وبما تجمع فيها من أجناد الفرنجة الهاربين من كل مكان ، مما جعل الاستيلاء عليها امراً عسيراً ، ان لم يكن مستحيلاً . فظل ينازلها بضعة اسابيع من البر والبحر ، دون طائل .

وقد اشترك مع السلطان في محاصرة صور ولداه الأفضل والظاهر وشقيقه العادل وابن عمه تقي الدين عمر ، فوزعهم وغيرهم من الأمراء على أسوار المدينة ووكل كلا منهم بناحية منها ، وبدأ برميها بالمجانيق والعرادات والجروخ ، ومهاجمتها بالدبابات . ولما لم يجد ذلك قسم جنده الى ثلاثة اقسام ، وجعلهم يتناوبون على القتال خلال اربع وعشرين ساعة ، كي لا يدع للمدينة المحاصرة سبيلاً الى الراحة ليلاً أو نهاراً ، ولكن ذلك كله لم يؤدّ الى نتيجة حاسمة .

وقد اشتهر في هذه المعارك فارس افرنجي اطلق عليه لقب « الفارس الأخضر » لأنه كان يرتدي قميصاً أخضر ، ويحمل على ذراعه الأيسر ترساً أخضر اللون ، ويقود الفرنجة المحاصرين فيندفع بهم الى صفوف المسلمين فيزحزحهم عن مواقعهم . ويقال ان صلاح الدين قد اعجب بهذا الفارس وما يتحلى به من شجاعة فائقة ، فدعاه مرة الى خيمته ، وأهداه خيولاً وجوهر ، وعرض عليه ان يقطعه ارضاً في بلاد الشام اذا قبل العمل معه ، ولكن الفارس الأخضر رفض كل ذلك ، وقال انه لم يأت من بلاده ليعيش مع الشرقيين ولكن ليحاربهم !..

وكان موقف الفرنجة وهم وراء حصونهم المنيعة ، افضل من موقف المسلمين في الفلاة وفي بقعة ضيقة من الأرض تركزت هجماتهم فيها[1] ،

---

١ – الكامل ج ١١ ص ٣١٦

نظراً لموقع صور الجغرافي الذي يجعل منها مدينة بحرية اكثر منها مدينة برية ، ولا عجب فهي سيدة البحر في العصور القديمة ، فكانت قذائف الفرنجة وسهامهم تفعل في المسلمين أضعاف ما تفعل قذائف هؤلاء وسهامهم في الفرنجة .

وقد وصف ابن جبير مدينة صور وأعطى صورة دقيقة عن مناعتها، فقال عنها : « مدينة يُضرب بها المثل في الحصانة ، لا تُلقي لطالبها بيد طاعة ولا استكانة ، قد اعدّها الافرنج مفزعاً لحادثة زمانهم ، وجعلوها مثابة لأمانهم ، هي انظف من عكا سككا وشوارع ، واهلها ألين في الكفر طبائع ، واجرى الى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع ، فخلائقهم اسجح ، ومنازلهم اوسع وافسح ، واحوال المسلمين بها أهون واسكن ، وعكا اكبر واطغى واكفر . واما حصانتها ومناعتها فأعجب ما يُحدّث به ، وذلك انها راجعة الى بابين : احدهما في البر ، والآخر في البحر ، وهو يحيط بها الا من جهة واحدة ، فالذي في البر يُفضى اليه بعد ولوج ثلاثة ابواب او اربعة ، كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب ، واما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين الى ميناء ليس في البلاد البحرية اعجب وضعاً منها ، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ، ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجصّ . فالسفن تدخل تحت السور وترسو فيها ، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال للمراكب الا عند ازالتها . وعلى ذلك الباب حرّاس وامناء ، لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج الا على اعينهم . ولعكا مثلها في الوضع والصفة لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك ، وانما ترسو خارجها والمراكب

الصغار تدخل اليها ، فالصورية اكمل واجمل واحفل [1] .

وادرك صلاح الدين خطورة الموقف فعمد الى اشراك سفنه في الحصار ، ولكن ذلك ادى الى كارثة كبرى خسر فيها المسلمون عشر سفن بمن فيها من النوتية والمقاتلة [2] . وقد كان على الاسطول المصري الذي اشترك في حصارها بدران الفارسي ، ومع انه كان رجلاً ناهضاً جلداً في البحر ، فقد غفل عن وصية قائده عبد المحسن امير البحر بأن يأخذ حذره ويتيقظ ، لأن الفرنجة اقدر في البحر وامكن ، ومتى سنحت لهم الفرصة فلن يهملوها ، ولكن بدران وبحارته كانوا مأخوذين بانتصارات صلاح الدين وقوته فغفلوا عن الوصية واهملوها ، وباكرهم اسطول الفرنجة من صور فلم يطيقوا قتاله ، وقتل العدو جنداً عظيماً بعد أن اصابوا السفن وغنموا عدداً منها وعليها مقدمو المقاتلة في الأسطول [3] .

وعقد السلطان مجلس شوراه الذي كان يرجع اليه في كل امر خطير ، فانقسم اعضاء المجلس الى فريقين ، يرى احدهما تأجيل حصار صور ريثما تستكمل المعدات والآلات اللازمة لذلك ، لا سيما وان الشتاء قد اقبل والمقاتلون الذين تعودوا الفتح السريع يريدون العودة الى اهلهم ، ويرى الفريق الآخر مصابرة البلدة ومضايقتها حتى تسقط [4] . وقد اخذ

---

١ – رحلة ابن جبير ص ٢٧٧ – ٢٧٨ وتجدر الملاحظة بأن الرحالة قد وصف صور وتحصينها ومناعتها سنة ٥٨٩ هـ ١١٨٤ م أي قبل الانشاءات التي اقامها كونراد فيها .

٢ – راجع تفصيل ذلك في الفتح القسي ص ٦٢ – ٦٩ ، النوادر السلطانية ص ٧٥ ، الكامل ج ١١ ص ٣٦٦ ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨

٣ – ايام صلاح الدين ص ٢١٧

٤ – الكامل ج ١١ ص ٣٦٨ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٢٩

المجتمعون برأي الفريق الأول ، وكان لذلك كما يقول الدكتور نظير سعداوي : « أثر شيء في العمليات الحربية التالية ، لأن رفع الحصار عن صور يوم اول يناير سنة ١١٨٨ (ذو القعدة ٥٨٣ هـ) كان نقطة تحول خطيرة في تاريخ مصر الحربي وفي انتصارات صلاح الدين [١] »

ولم يكن صلاح الدين ليريد ارغام قواده على الحرب وهم لها كارهون، فرفع الحصار ورحل الى عكا فقضى فيها فصل الشتاء ، ثم دعا بهاء الدين قراقوش وكلفه القيام بتحصينها ، وغادرها الى دمشق ففاجأه نائب ديوانه الصفي بن القابض بأنه استجدّ داراً في قلعة دمشق لينزل بها السلطان وأنفق عليها اموالاً كثيرة وبلغ في تزيينها شيئاً عظيماً ، فرأى صلاح الدين ان في ذلك اسرافا لا مبرر له ، وعزله من الديوان وعين مكانه بدر الدين مودود وقال : « هذا منزل لا يصلح لمثلي ابداً ، وان منزلي دائماً خيمة تعصف الرياح من خروقها ، وانها لأحب الى نفسي من هذا القصر وغيره من زخارف الدنيا » .

وقدجهز في دمشق جيشاً كبيراً وسار به في شهر ربيع الاول سنة ٥٨١ ، ايار (مايو) ١١٨٨ م صوب طرابلس وانطاكية ، فاستولى على اللاذقية ومن اطرف ما حدث في معركة هذه المدينة ، ان السلاح قد نفد من الفرنجة والعرب جميعاً ، فأخذوا يتقاذفون بالحجارة ، وتكاثر المسلمون فغلبوا وسلم الفرنجة . وكتب قاضي جبلة الأمان الذي طلبوه : كتب ان يُطلقوا بأنفسهم وذراريهم ، خلا الغلال والذخائر وآلات الحرب والدواب ، ما عدا ما يركبونه منها ليصلوا الى مأمنهم [٢]

---

١ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١٩٨

٢ – ايام صلاح الدين ص ٢١٨



صورة خيالية لصلاح الدين الأيوبي وهو في العقد الخامس من عمره

ثم استولى على طرطوس وفيها اطلق سراح الملك غي بعد ان اقسم له الا يعود الى محاربته ابداً » وهو وعد بذله جيرارد مقدم الداوية وجي وغيرهما من الاسرى دون أن يفي به أحد منهم [1] » ثم احتل مرقب وجبلة واللاذقية وقلعة صهيون وسرمينية وبزرية ، وقد اسر أمير بزرية وأفراد اسرته ثم اخلى سبيلهم وأرسل معهم من اوصلهم الى انطاكية ومعهم صاحبة الحصن شقيقة سيبيل التي مـــا فتئت تراسله وتكشف له مواطن الضعف في مواقـــع الصليبيين [2] ، فأحسن السلطان معاملتها « اكراماً لامرأة البرنس (سيبل) فشكرته على ذلك ودامت مودتها له [3] » وكانت بينهم عروس أسر جنوده عريسها فأمر برده اليها .

ولما استولى على حصني دربساك وبغراس ، وأصبح على مقربة من انطاكية ، خافه أميرها وناشده ان يهادنه ثمانية اشهر . وكان صـلاح الدين قد شعر بتبرم جنوده لكثرة ما قادهم اليه من المعارك ، فقبـــل الطلب وعقدت الهدنة بينهما .

عاد صلاح الدين الى حلب تلبية لدعوة ولده الملك الظاهر ، فقضى

---

١ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٠٥ ويقول الدكتور عاشور : « كان صلاح الدين قد وعد باطلاق سراح جاي لوزجنان ، حتى اذا ما كان صيف ١١٨٨ ارسلت اليه زوجه الملكة سيبل ، ترجوه تحقيق وعده ، وعندئذ غلبت على صلاح الدين روح الشهامة والمروءة والوفاء بالعهد ،وهي الصفات التي تحلى بها دائماً في جميع تصرفاته مع الصليبيين والتي طالما عانى كثيراً من المتاعب بسبب تمسكه بها ، في الوقت الذي لم يعرف خصومه في معاملاتهم معه سوى الغدر والخيانة ونكث العهود . وكان أن افرج فوراً عن لوزجنان في يوليه سنة ١١٨٨ ، ولم يشأ ان يتركه ينصرف وحيداً ،وانما افرج ايضاً عن عشرة من اعيان الصليبيين ليكونوا رفقاء وبطانة له ، منهم اخوه عموري ومقدم الداوية »الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٥٣

٢ – كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٣١

٣ – مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٦٧

بضعة ايام بـين اهله واولاده ، ولكم كان يود لو تطول هذه الايام السعيدة ، ولكن الجهاد كان يدعوه الى غمراته ، ولم يكن هذا الرجل الكبير ليؤثر على تلبية دعـوة الواجب شيئاً ومن ثم نراه يسرع الى دمشق فيصلها في النصف الثاني من شعبان سنة ٥٨٤ هـ ٢٠ تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٨ م ليتابع منها نضاله ، وكأن هناك دافعاً خفياً يحثه على الاسراع وكسب الوقت « فالعمر قصير – كما كان يقول – والأجـل غير مأمون [١] » . ولكن جيشه لا يحس هذا الدافع ، « وقد مـلّ العسكر الغريب الاقامة وأبدى السآمة [٢] » ، فيسرّح اولئك الجنود ، ويسير الى صفـد بحرسه وحده ، فيبلغ ضاحيتها في مساء بارد تعصف فيه الرياح من كل جانب ، ولكنه يأبى أن يغمض له في تلك الليـلة جفن قبل أن ينصب مجانيقه الخمسة ، فلم يطلع الصبح حتى كان قـد اقام حول المدينة الات الدمار وضرب الحصار عليها .

وقد طال ذلك الحصار شهراً سلّمت المدينة في نهايته ، فأنتقل الى حصار كوكب ولبث ينازلها تحت سيل الامطار وفي غمرة الاوحال حتى سلمت في منتصف ذي العقدة سنة ٤٨٤ هـ أوائل كانون الثـاني (يناير) ١١٨٩ م . وفي تلك الفترة بلغه سقوط الكرك بيد أخيه العادل ، بعد ان حاصرها حصاراً شديداً اضطر اهلها من وطأته الى أكل الدواب [٣] ، ثم سقط حصن الشوبك بعد ذلك ببضعة اشهر [٤] .

وهكذا لم يبق في ايدي الفرنجة من القـلاع الحصينة « التي كانت

---

١ – خطط الشام ج ٢ ص ٦٥
٢ – الفتح القسي ص ١٢٩
٣ – مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٧١
٤ – كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٠٤

بمثابة المخافر الأمامية [١] لهم ، سوى حصن الشقيف او شقيف أرنون ، فسار صلاح الدين الى مرجعيون استعداداً لمهاجمته ، وكان يحتمي فيه رينو دوسا جيت صاحب صيدا الذي التجأ اليه إثر سقوط مدينته ، فما كاد يعلم بأن السلطان يقصده حتى عمد الى زيارته واعلان رغبته في تسليم الحصن ، على أن يتعهد صلاح الدين بحمايته والسماح له ان يحيا في دمشق ، ويقول ابن شداد في ذلك : « وما أحسسناه الا وهو قائم على باب خيمة السلطان ، فأذن له فدخل ، فاحترمه وأكرمه . وكان من كبار الافرنج وعقلائها ، وكان يعرف العربية ويتكلم بها ، فحضر بين يديّ السلطان وأكل معه الطعام ، ثم خلا به وذكر انه مملوكه وأنه تحت طاعته ، وانه يسلم المكان اليه من غير تعب ولا قتال ، واشترط ان يُعطى موضعاً يسكنه بدمشق ، فانه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الفرنج [٢] » الا ان الحامية الصليبية رفضت تسليم الحصن ، ولم تستسلم الا بعد دفاع ضار وقتال عنيف . ويقول شامبدور ان رينو دي ساجيت كان يخادع صلاح الدين ، وقد طلب منه مهلة ثلاثة اشهر لاحضار اسرته من صور قبل ان يسلمه الحصن ، فأمهله السلطان وأخذ يستقبله في مخيمه ويناظره في القضايا الدينية ، بينما كان رينو يكسب الوقت لتعزيز وسائل الدفاع عن حصنه ، ولما انتهت المهلة المحددة طلب مهلة جديدة مدتها تسعة اشهر ، ولكنه ما كاد يتجه الى الحصن للعودة اليه كعادته ، حتى اعتقله رجال صلاح الدين ، فأدرك أن حيلته قد كشفت ، ونادى افراد الحامية محذراً اياهم من الاستسلام ، فاعتقل وسيق الى دمشق . ويضيف شامبدور ان الوقت الذي قضاه صلاح

---

١ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٣٠

٢ – النوادر السلطانية ص ٨٠



الدين امام حصن الشقيف ، بخدعة بارعة ، هيأ الفرصة لغي دي لوسينيان للظهور بعد قليل أما صور وتحت إمرته سبعة الاف مقاتل [١] .

واطلت سنة ١١٩٠ وليس في أيدي الصليبيين من مملكة القدس سوى مدينة صور ، ومن امارة طرابلس سوى عاصمتها طرابلس وقلعة طرطوس وحصن الاكراد ، ومن امارة انطاكية سوى عاصمتها وميناء السويدية وحصن المرقب [٢] .

الا ان هذه الانتصارات الكبرى لم تمر السلطان بالخلود الى الراحة فانتقل الى القدس يعالج شؤونها ويتفقد حصونها ، إذ كان يشعر بأن ثمة زوبعة عاتية توشك أن تهب في بلاده .

والواقع ان صلاح الدين كان قد بلغ ذروة مجده . ويقسم المؤرخون الحربيون مرحلة الجهاد الصلاحي قسمين تفصل بينهما بداية سنة ١١٨٩ م (أو اخر سنة ٥٨٤ هـ) : أحدهما عهد الفتح والغزو والغنائم ، وثانيهما عهد الدفاع والتحصين والمقاومة . وقد « انضح ذلك تماماً لصلاح الدين نفسه منذ بداية تلك السنة ، حين وصلت مجهوداته الى نقطة التشبع ، ولم يقو بعدها على مغالبة بقايا المقاومة الصليبية في صور بزعامة كونراد ، وفي طرابلس بزعامة حي دى ليزجنان ، وفي انطاكية التي اوشكت هدنتها على النهاية بزعامة بوهيمند الثالث . ولذا تحول صلاح الدين في خططه العسكرية منذ بداية سنة ١١٨٩ من جانب الهجوم الى الدفاع ، وهي خطة اتفق عليها فيما يبدو مع أخيه العادل في اجتماع

---

١ – Saladin Le plus pur Héros de l'Islam, p. 214 216

٢ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٣٧ ، Grousset. II, pp. 834 835

صحراء بيسان ، ودلت عليها رحلته التفتيشية للمدن الداخلية والحصون الساحلية ، ورتب صلاح الدين العادل والعزيز عثمان لحماية مصر وسواحلها ، والأفضل عليّ لحماية جنوب فلسطين وسواحلها ، وتقي الدين عمر لمراقبة امارة طرابلس وما حولها ، أمـا هو فعزم على منازلة امارة انطاكية غداة انتهاء الهدنة معها [1] . »

وكان غي دى لوسينيان الذي أطلق السلطان سراحه بعد أن قطع على نفسه عهداً بألا يشهر في وجهه سيفاً وأقسم بذلك على الانجيل [2] ، قد حنث بيمينه وأخلف وعده ، فلم يسافر الى اوربة وانما ذهب الى صور للعمل مع أميرها كونراد ، ثم تنافس الاثنان على الزعامة فغادرها الى طرابلس وعمد الى جمع الجنود وتدريبهم .

وبينما كان الفرنجة في المشرق يتجمعون ويستعـدون ، كانت اوربة تضج لسقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين وتتنادى الى حمـلة صليبية ثالثة ، مثلما ضجت يوم سقطت الرهـا في يد عماد الدين زنكي منذ أربعين سنة فتنادت الى الحرب الصليبية الثانية . وعمد كونراد الى ارسال جوسياس رئيس اساقفة صور الى اوربة مستنجداً بملوكها مستصرخاً البابا اوربان الثالث وخلفه غريغوري الثامن [3] .

وقـد بلغ من اهتمام ملوك اوربة هذه المرة بالحرب الجديدة التي

---

١ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢١٣

٢ – Saladin Le plus pur héros de L'Islam, p. 217

٣ – خلف غريغوري الثامن البابا كليمنت الثالث ، وقد استطاع البابا الجديد أن يقرّ بين ملوك اوربة وامرائها هدنة عامة لمدة سبع سنوات كي يوجهوا اهتمامهم الى الشرق . انظر تفصيل ذلك في Lavisss : hist. General. II. P. 303

اعلنوها على الشرق ، وتناسوا من أجلها أحقادهم وخصوماتهم [١] ، انهم فرضوا على كل من لم يشأ التطوع فيها او تعذر عليه ذلك ، ان يدفع عُشر مداخيله مع عشر ثمـــن املاكه المنقولة ، وسموا هذه الضريبة « العشور الصلاحية » رمزاً لانتصار صلاح الدين عليهم ، وحرم رؤساء الكنائس كل من يتأخر عن دفعها ، وهي أول ضريبة عامة فرضت في تاريخ اوربة ، وقـــد كان تجمع هذه الأموال السبب الأول في نشوء المصارف [٢]

وكان اول من لبى الدعوة الصليبية الجديدة ، ملك صقلية ولـــيم الثاني الذي انجد طرابلس باسطول يتألف من ستين سفينة عزز مقاومتها وحال بين صلاح الدين والاستيلاء عليها [٣]

وتتابعت بعد ذلك أمداد الفرنجة ، إذ طـــاف الرهبان والقسس وبطريرك القدس الذي أطلقه صلاح الدين بمـا معه من مال ، في اوربة يستنجدون بهـا ، وقد لبسوا السواد وأظهروا الحزن واقتدوا ببطرس الناسك ، فعظم ذلك على الفرنجة فحشدوا وحشروا ، حتى النساء خرجن للقتال ، ومن لم يستطـع الخروج استأجر له عوضاً أو اعطى معونة ، فاجتمع من المحاربة ما لا يقع عليه الاحصاء [٤] .

وحـــين تكامل لغي [٥] دي لوسينيان في طرابلس جيش وافر القوة

---

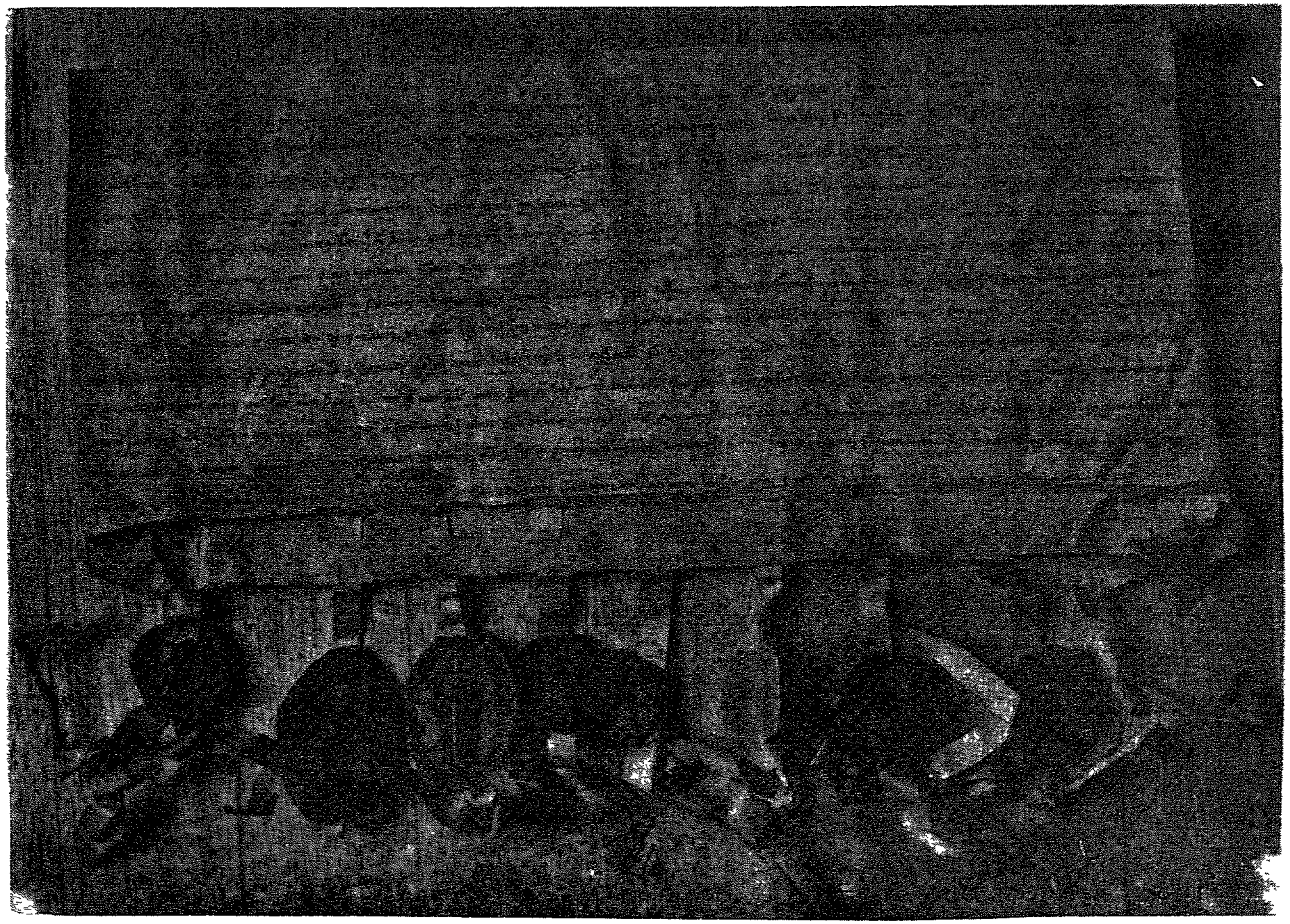
١ – Michaue. ; II. pp. 314 315

٢ – L'Eglise et l'Orient au Moyen Age, P, 118

٣ - Croussea ; hist des Groisades, ill. p, 8

٤ – ايام صلاح الدين ص ٢٢٠

٥ – ويسميه المؤرخون العرب ايضاً « الملك العتيق » لان السلطان أعتقه من الأسر .



الرسالة التي وجهها أحبار المملكة اللاتينية الى فيليب اوغست لحمله علي الاشتراك في الحملة الصليبية الثالثة

والعدد ، ذهب به الى صور فرفض المركيز كونراد السماح له بدخولها ، فاضطر الى الاقامة في ضاحيتها اربعة اشهر ، واتفق ان مرت من هناك شرذمة من المسلمين فنازلها وغلبها ، فشجعه ذلك على المسير الى عكا ، فزحف اليها على رأس عشرة آلاف مقاتل . فلما علم كونراد ببغيته ، خشي ان يستأثر منافسه باقتحام هـذه المدينة ، فلحقه بجيش لجب ، واشترك الاثنان في ضرب الحصار عليها ، وكان السلطان قد أغفل شأن غي ومن معه لما خيّم في جوار صور ، كما تهاون بشأن صور واحتشاد الفرنجة فيها واقبالهم اليها من جميع المدن والقلاع التي تخلوا عنها ، فعظم أمر غي ، وعظم أمر صور ، وكان من نتائج ذلك أن حوصرت عكا براً وبحراً وباتت مهددة بالضياع .

ويلقي بعض المؤرخين المسلمين تبعة الاخفاق الذي مني به السلطان في صور ، وتحوّل هذه المدينة الحصينة الى قاعدة للحملة الصليبية الثالثة ، على صلاح الدين وما ابداه من تسامح وتساهل مع الصليبيين في المدن والقلاع التي احتلها منذ موقعة حطين ، والسماح لهم بالهجرة منها آمنين ، الى مدنهم وقلاعهم على الساحل ، ولا سيما مدينة صور التي كانت تمتاز بالمناعة الجغرافية ، فأضافت الى ذلك المناعة البشرية ، وعدّ اولئك المؤرخون ذلك منه تهاوناً وتفريطاً وغلواً في الشهامة والنبل أدى الى أسوأ النتائج .

يقول محمد كرد علي : « وذكر المؤرخون ان اطلاق امراء الفرنج من الاسر وحملهم الى صور كان من أعظم اسباب الضرر وقوة الفرنج ورواج عكا [١] » ، أما ابن الاثير فيحمل على صلاح الدين قائلاً : « ولم يكن لأحد

---

١ - خطط الشام ج ٢ ص ٥١

ذنب في أمرها (صور) غير صلاح الدين ، فانه هو الذي جهز اليهـــا جنود الفرنجة ، وأمدّها بالرجال والأموال من أهـــل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك كما سبق ذكره . كان يعطيهم الأمـــان ويرسلهم الى صور ، فصار اليها من سلم من فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم ، فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم ، فأجابوا بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصرة ، وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم ، يجتمعون بها ويلجأون اليها ، فزادهم ذلك حرصاً عـلى حفظها والذب عنها [١] »

ويلتقي مع ابن الاثير بعض المؤرخين الغربيين الذين يعتقدون بأن الخطة التي انتهجها صلاح الدين ، بدعوة المدن والقلاع الى التسليم مقابل الأمـــان بدلاً من الفتح بالسيف ، قد أدت الى نجاة عشرات الألوف من القتـــل والأسر ، وانطلاقهم احراراً الى مراكز تجمعهم الجديدة ولا سيما مدينة صور التي غدت منطلق الحرب الصليبية الثالثة [٢] !.. حتى ان لامونت يرى ان هذه السياسة النبيلة بلغت حد الحماقة ، ولعله يعني حد السذاجة ، واليك تفصيل ما قـــال : « لم يظهر صلاح الدين ، طوال حربه ضد الدول اللاتينية ، بمظهر المتعصب الديني . وكان حلمه وشهامته مثار اعجاب معاصريه ، وموضوع مدح المؤرخين منذ عصره فطالعاً . وقد أبدى في معاملته لشعوب البـــلاد المفتوحة من ضبط نوازع النفس واحترام الناس مـــا كان مبايناً كل المباينة للقسوة المتعارف عليها في حروب العصور الوسطى . وكانت سياسته القاضية بايصال اللاجئين مـــن

---

١ – الكامل ج ١١ ص ٣٦٨

٢ – Cibl p. 67 , Lane pool p. 243 , Stevenson PP. 255. 256

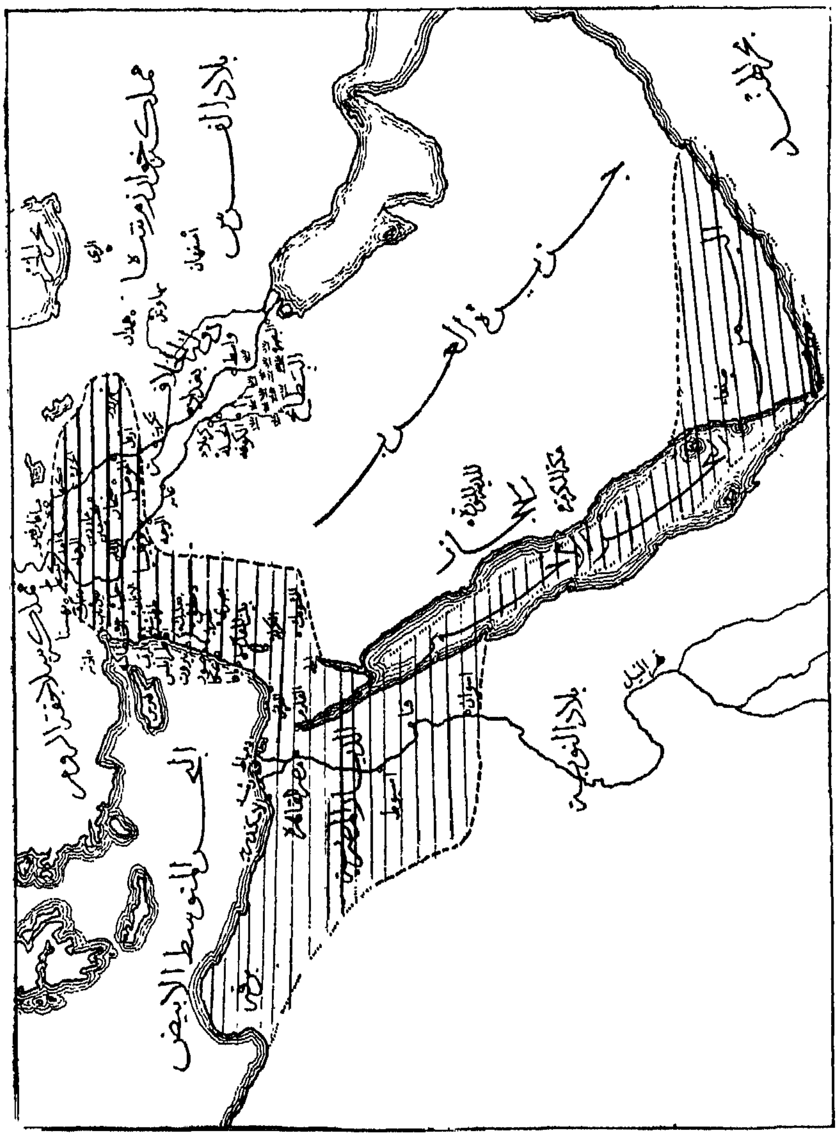
بلاد النصارى المحتلة الى معقل النصرانية فى صور سياسة نبيلة الى حد الحماقة ، لأنها أدت الى تحشد أعدائه ، ومن ثم منعته من احتلال مدينة صور نفسها . لقد تصرف صلاح الدين ، طوال حروبه ، وكأنه يحاول محاولة واعية أن يجعل نفسه مقبولاً عند رعاياه المقبلين ، وان يضع اساس دولة تعيش فيها الديانتان جنباً الى جنب تحت ظل السلطان ... وكان هدف صلاح الدين سحق قوة الصليبيين السياسية ، ولم يكن ابادة المسيحيين [1] »

والواقع ان ابن الاثير ينسى الجانب الانساني في الموضوع ، فهو يحاكم صلاح الدين كقائد حربي « لا ينبغي - كما يقول - أن يترك الحزم وان ساعدته الأقدار ، فلأن يعجز حازماً خير له من ان يظفر مفرّطاً مضيعاً للحزم !.. » وفي اعتقادنا ان صلاح الدين لم يكن محارباً الا بالضرورة ، فهو ليس فاتحاً بل محرراً ، والفرق بينهما كالفرق بين الشر والخير ، وبين الموت والحياة . ولأن كان الفاتح يقاتل بطمعه ، فان المحرر يقاتل بايمانه ، واذا كان من اخلاق الفاتحين أن يصونوا امجادهم بالحديد والنار ، فان من شمائل المحررين ألا يحملوا الحقد والضغينة حتى لأولئك الذين يضطرون الى شهر السيف في وجوههم . أليس صلاح الدين هو القائل وقد لامه أصحابه لأنه صفح عن جريرة أحد الجباة عليه : « لأن اخطىء في العفو أحبّ اليّ من ان أصيب في العقوبة ! »

لقد كان صلاح الدين رجل سلم وبناء ومحبة ، وليس رجل حرب وهدم وضغينة ، وبعد كل معركة كان يعي اكثر فاكثر وحشية الحرب وغباءها ، ولكن الأحداث التي عاصرها والظروف التي لابسها ، كانت

---

١ - دراسات اسلامية ص ١٢٢ - ١٢٤



مملكة صلاح الدين الأيوبي

تدفع به مضطراً الى ساحة القتال ، دفاعاً عن الأرض التي امتزج ترابها بدمه ، واختلط نسيمها بانفاسه ، وارتسمت طبيعتها في عينيه ، ويا ويل الحرب ، آفة البشرية وعار التاريخ ، اذا لم تكن دفاعاً عن الذات .

ولعل صلاح الدين كان يعاني من جراء ذلك عظم مأساة يعانيها الانسان ، حين يريد السلم وتفرض عليه الحرب ، وينشد الرحمة وتطلب منه القسوة ، ويسير في الطريق الملوث بالوحل والمخضب بالدم بمشاعر الملائكة وأخلاق القديسين .

اذا كانت جميع الطرق ملأى بالاشواك ، فلا بد من ان نسلك طريقاً شائكة . واذا فرضت الحرب نفسها ، وغدا الشر خبز الحياة اليومي ، وحلق شبح الدمار مثل طائر اسطورى رهيب لا يستطيع أحد ان يهرب من تحت جناحيه ، فبحسب المرء ان يُبعد عن قلبه ظل الحقد ، لعل زهرة واحدة للحب تتفتح في مستنقع البغضاء !..

هكذا شاءت الاقدار ، بل هكذا شاءت الاطماع التي دفعت جحافل الفرنجة الى الشرق ، متدفقة مثل سيل لا نهاية له . واذا كان المعتدون قد غالوا في التخريب وأمعنوا في الغارة الجاهلة ، فان سر عظمة صلاح الدين أنه لم يقابل تلك العاصفة الباغية ، الا بعفو الكريم وتسامح النبيل ، فكان اسوة حسنة ومثلاً يُضرب للناس ، وكسبَ للعرب والاسلام بقلبه أكثر مما كسب لهم بسيفه ، وهذا ما جعل تشرشل يقول عنه أنه من اعظم ملوك الدنيا ، ودفع الكاتب الانكليزي ريدر هجارد الى القول بأنه اعظم رجل على وجه الأرض !

الفصل التاسع عشر

الحملة الصليبية الثالثة وملحمة عكا

كان الشرق والغرب يحشدان قواهما البشرية والمادية ، ليلتقيا من جديد عند ابواب مدينة وادعة تطل على سهول الأردن وتغسل اقدامها في مياه البحر الابيض المتوسط ، مدينة كانت « مجتمع السفن والرفاق ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق [1] » . وشاء القدر مرة اخرى أن يكون ذلك اللقاء بين القارتين ، داميا مدمراً رهيبا ، بدل ان يكون لقاء التعاون الفكري والتبادل الحضاري ، اللذين كان هذا البحر الهادىء الجميل مهداً لهما ومسرحاً لعطائها السخي ، على تتابع الأجيال وتعاقب العصور .

وحين هرع صلاح الدين لانقاذ عكا [2] ، وجد ان جيوش الفرنجة قد سبقته الى احتلال الاماكن المنيعة والتحصن فيهـا ، وباتت حائلاً دون

---

١ – رحلة ابن جبير ص ٢٧٦

٢ – عرفت عكا في عهد الفينيقيين باسم بتولمايس يقول اتيين البيزنطي أحد جغرافيي القرن الخامس ان هرقل عضته أفعى فلم يجد دواء يشفيه الا في هذا المكان ، فدعي من اجل ذلك « عكا » وهي مشتقة من كلمة اغريقية تعني الشفاء !

وصوله اليهـــا ، فأقام غير بعيد عنهـــا ، وأخذت الامداد تصل الى الفريقين [١] .

وفي اصيل اليوم الثاني من شعبان سنة ٥٨٥ هـ ١٥ ايلول (سبتمبر) ١١٨٩ م ، هاجم السلطان حشود الفرنجة دفعة واحدة ، فزحزحهم عن اماكنهم قليلاً ، وشقّ طريقاً الى باب المدينة فدخلها قسم مـن جيشه بكميات من الذخائر والأموال والسلاح والغلال ، وعاد بمن بقي معه الى معسكره لمعاودة القتال في اليوم التالي [٢] .

ولكن الفرنجة رفضوا منازلته في ذلك اليـوم والأيام التي تلته ، ولبثوا على ذلك شهراً انصرفوا فيه الى تعزيز مراكزهم وتحصين مواقعهم ثم انقضـوا على خصومهم فشتتوهم وارغموهم على التقهقر ، وانزلوا بهـم خسائر فادحة .

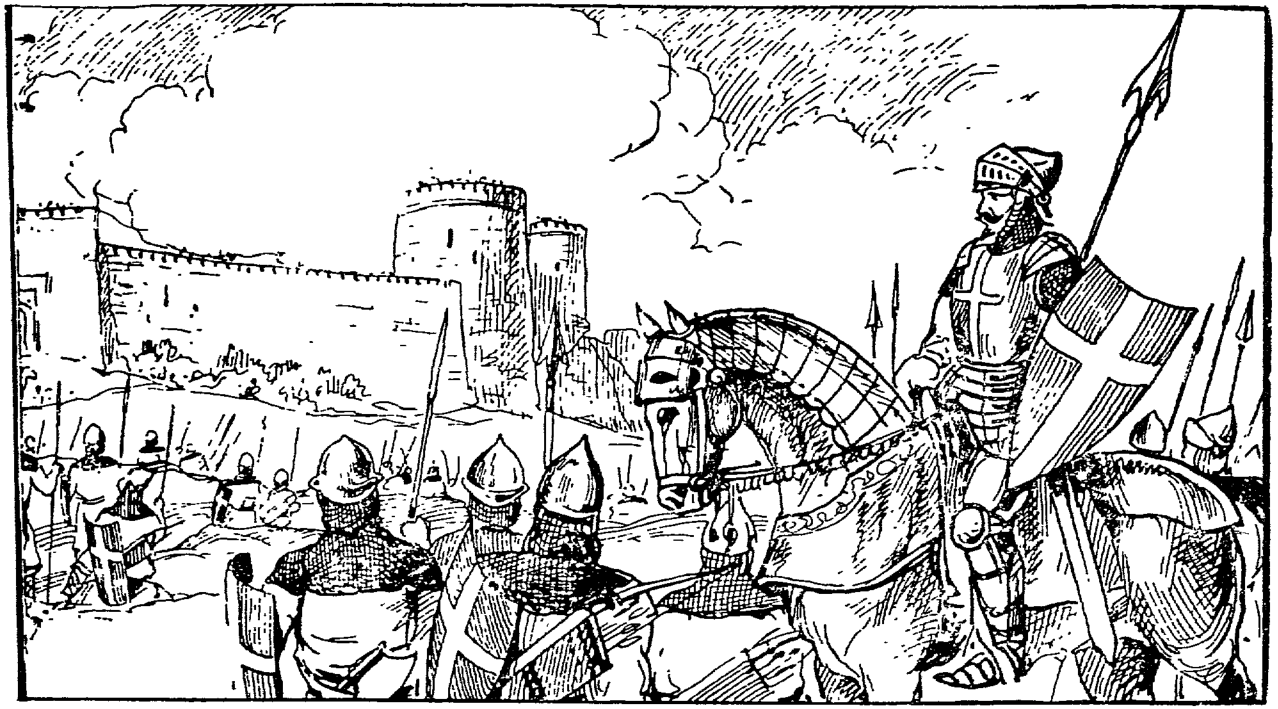
وكان الشتاء قد اقبل ، وحل شهر رمضان ، ثم جاءت هذه الهزيمة المروعة ، فشجع ذلك كـله امراء صلاح الدين على الالحاح عليه بوقف القتال وارجائه الى وقت اخر ، لرغبتهم في العودة الى بيوتهم انتجاعاً للراحة والاستمتاع بالحياة العائلية الرخية ، فلم يجد بداً من اجابتهم الى طلبهم ، وخرج هو وحرسه الى الخروبة .

لم يقصد صلاح الدين بيته لانتجاع راحة او طلب مسرة ، ولم يذهب

---

١ – كان من رأي صلاح الدين ان يهاجم الفرنجة وهم في الطريق الى عكا لئـلا يتمكنوا من اراضيها فخالفه قواده ولم يرضوا قتالهم الا متجمعين امام عكا ، فكان من جراء ذلك ان الصليبيين سبقوا المسلمين الى المدينة وعسكروا بالأماكن الحصينة في ضواحيها – الفتح القسي ص ١ : ١ ، الكامل ج ١٢ ص ٢١

٢ – الفتح القسي ص ١٥٦



الفرنجة يحاصرون مدينة عكا

الى احدى عواصمه الخمس : القاهرة والقدس وبيروت ودمشق وحلب فيتمتع بالمجد الباذخ والنعيم الوارف ، وانما شخص الى الخروبة القائمة في الفلاة القفر ، وارسل في طلب الامداد من جميع انحاء بلاده ، ولبث ينتظر ويفكر ويراقب ، وقد لجّ به الهم ، والح عليه المرض ، وهاجت من حوله عواصف الشتاء ورياحه المتناوحة .

في تلك البقعة القصية المنعزلة قضى السلطان شهر الصيام ، والعيدين السعيدين ، وفصل الشتاء بطوله ، وهو دائب على عمله في مراس قوي وعزم فولاذي ونشاط لا يفتر . حتى اذا كان شهر ربيع الاول سنة ٥٨٦ هـ نيسان (ابريل) ١١٩٠ م ، عاد بما تجمع لديه من قوة الى المكان الذي فارقه من سهل عكا ليحاول انقاذها مرة اخرى . ولكن هذه المحاولة كانت عسيرة وعسيرة جداً . فقد اعد الفرنجة اثناء الشتاء عدداً كبيراً من الات الدمار ، واقاموا الدبابات والابراج الشاهقة ، ليقذفوا المدينة منها بقذائفهم المروعة . وكان صلاح الدين يحسب ان منازلته اياهم ستشغلهم عن المدينة ، فاذا بهم قد غدوا من القوة والكثرة بحيث استطاعوا منازلته ومواصلة الهجوم على عكا في ان واحد .

واستمر القتال في البر والبحر عامين كاملين خالدين في تاريخ الحروب والفروسية ، تكبد فيها الفريقان خسائر فادحة وكوارث جسيمة ، وابدى كل منهما ما يدهش ويروع من ضروب التضحية والبطولة ، وشاركت نساء الفرنجة رجالهن في كثير من المعارك [١] ، وللعماد الاصفهاني وصف مؤثر للنساء الصليبيات وما كن يبذلنه في سبيل قومهن من نفس ونفيس ، قال : « ووصلت أيضاً في البحر امرأة كبيرة القدر وافرة

١ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٩ ، الفتح القسي ص ١٨٤

الوفر ، وهي في بلدها مالكة الأمر ، وفي جلتها خمسمائة فارس بخيولهم واتباعهم وغلمانهم وأشياعهم ، وهي كافلة بكل ما يحتاجون اليه من المؤونة ، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة ، وهم يركبون بركبانها ، ويحملون بحملانها ، ويثبون لوثباتها . وفي الفرنج نساء فوارس لهن دروع وقوانس ، وكن في زي الرجال ، ويبرزن في حومة القتال ، ويعملن عمل أرباب الحجال وهن ربات حجال ، وكل هذا يعتقدنه عبادة ، ويخلن انهن يعقدن به سعادة ، ويجعلنه لهن عادة ... وفي يوم الوقعة قلعت منهن نسوة ، لهن بالفرسان اسوة ، وفيهن مع لينهن قسوة ، وليست لهن غير السوابغ كسوة .. »

وأبدت عكا المحاصرة براً وبحراً ، مثلاً فريداً من صبر أهلها وصمود حاميتها وشجاعة جندها وقتالهم المستميت . الا ان طول مدة القتال أضعفت من معنويات الجنود حتى ان الصليبيين كما يقول البير شامبدور لم تعد تحركهم الدوافع الحماسية أو الدينية ، وكل ما كانوا ينشدونه هو الاستيلاء على المؤن التي قد يجدونها في المعسكر الآخر [١] .

لقد كانت ملحمة لا مثيل لها في التاريخ ، يحاصر الصليبيون فيها المسلمين في عكا ، وجيوش صلاح الدين تحاصر الصليبيين ، والقتال مستمر في البر والبحر ، والطواعين والمجاعات تفتك بالجميع ، والمعركة قد طالت اكثر مما قدر لها الفرقاء ، فانهارت القوى وتراخت العزائم وتداعت النفوس ، ولكن البحر كان ما يفتأ يمد الافرنج كل حين بمدد جديد وحياة جديدة

ولعل اشهر المعارك التي نشبت امام عكا ، تلك التي يسميها المؤرخون

١ — Saladin Le plus pur Héros de l'Islam , p. 237

المسلمون « الوقعة الكبرى » وقد هجم الفرنجة فيها على المسلمين « غداة وصـــول كونراد بعساكره من صور ، ووصول سفن صليبية من اوربة تحمل اقواماً مختلفة من السكنديناويين والألمـان[1] » فهزموهم واضطروهم الى الفرار ، ووصلوا الى خيمة السلطان فقتلوا من حولها ، ولكن صلاح الدين وقف في وجه المهاجمين ، يقاتل ويصاول ، ويصرخ بصوته الجهير ، ويطوف على فلول المسلمين يدعوهم الى المقاومة ويحثهم على الجهـــاد ، فأنهض ذلك من عزيمة رجاله ، فعـاد الى القتال من بقي منهم في جوار المعركة ، وأرغمـوا الفرنجة على التقهقر ، بعد أن قتلوا منهم خمسة آلاف مقاتل[2] ، وهكذا استطـاع صلاح الدين بشجاعته ورباطة جأشه وسرعة خاطره أن يحوّل الهزيمة المؤكدة الى نصر مؤزّر[3] »

ومن الوقـائع المشهورة أيضاً الوقعة التي اشتهرت باسم « العادلية » ، وبطلها الملك العادل ، وكان صلاح الدين قد أمر أمراء المدن الشمالية في الشام بالعودة الى منازلهم لمقـــاومة الصليبيين الزاحفين من البر ، فشعر معسكر الفرنجة بأنه اصحى في قلة من الجند ، فنهضوا لقتاله وأغاروا على ميمنته ، وكانت بقيادة الملك العادل ، فهب للقائهم ومكر بهم ، واستدرجهم الى قلب المعسكر الاسلامي ، وشغلهم بالنهب والسلب ، ثم حمل عليهم حمـلة صادقة ، ولحق به صلاح الدين لنجدته وشدّ أزره ولكن المعركة كانت قد انتهت بنصر المسلمين . وروى بعض المؤرخين

---

١ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٢٦

٢ – كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٤ ،الفتح القسي ص ١٦٢ – ١٦٤، النوادر السلطانيا ص ٩٢ – ٩٦

Saladin Le plus pur Héros de l'Islam. p. 228 – ٣



ان قتلى الفرنجة فيها بلغوا عشرة آلاف [1] ! يقول الدكتور نظير سعداوي : « وانتهزت الحامية الاسلامية خلو خيام الصليبيين من الجند الحرسية ، فخرجت اليها ونهبت الكثير من الاقمشة والقدور والاسلحة ، والنساء ايضاً . ولو عكف المسلمون على القتال ثاني يوم لتلك الوقعة لتمّ لهم النصر النهائي ، ولكنهم فرحوا بما أصابوا من الغنائم ، ورضوا بما عرضه عليهم الصليبيون من هدنة ، وأشاروا على صلاح الدين لانسحاب ، بسبب وصول نجدة اوربية جديدة بقيادة صليبي كبير اسمه هنري دي تروا ومعه عشرة آلاف مقاتل ، ورضي صلاح الدين بهذا القرار كارها [2] »

وفي يوم الاثنين ١١ شوال ٥٨٦ هـ ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٩٠ م ، غادرت جيوش الفرنجة معسكرها لمهاجمة المسلمين عند شفرعم ، وقضت الليل في تل العياضية قرب آبار حفرها المسلمون هناك ، فاستعد صلاح الدين لمقابلتها في اليوم التالي بعد أن وزع جيوشه الى ميمنة وميسرة وقلب ، وسار بها حتى وقف على تل الخروبة « فبلغت آخر ميمنته آخر التل ، وبلغت آخر ميسرته مصب نهر الامن بقرب البحر ، ولما دنت جيوش الفرنجة « أمر صلاح الدين الميسرة ان تستدير بهم حيث يقع آخرها على البحر ، وأن تستدير الميمنة بالنهر من الجانب الشرقي ، وان يمضي الجاليش في الرمي بالنشاب ، وهدف صلاح الدين من ذلك أن يقطع صلة الصليبيين بخيامهم المضروبة حول عكا » . والواقع ان الافرنج قضوا ليلتهم تلك وهم معزولون عن خيامهم ، ونهضوا في

---

١ – كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٥٧ ، الفتح القسي ص ٢١١ ، السلوك ج ١ ص ١٠٤ ، النوادر السلطانية ص ١١٤

٢ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٤١

الغداة ولا همّ لهم الا النجاة من الشرك الذي اوقعوا انفسهم فيه ، وما زالوا يتقهقرون وهم يقاتلون ، حتى بلغوا ليـلة الخميس جسر داعوق فهدموه لمنع المسلمين من العبور عليه ، وانتهت المعركة بذلك بعد أن ذهبت بالكثير من الضحايا ، وعاد صلاح الدين الى معسكره وقد اشتد المرض عليه ، الا انه عاد بعد أيام فأكمن نخبة من جنده في سفح تل كيسان ، ثم سار جماعة منهم الى معسكر الافرنج ، فتصدى لهم اربعمائة فارس منهم ، وحينئذ اخذ المسلمون بالتقهقر والفرنجة يتبعونهم حتى بلغوا الكمين ، فانقضّ بقية الجند عليهم فأسروهم جميعاً وجيء بهم الى صلاح الدين فاطعمهم وكساهم ونقلهم الى دمشق [1] .

ومن اروع ما يدل على ان الصلات الانسانية والمشاعر المشتركة بين الشعوب ، أقوى وأعمق من عوامل الفرقة والبغضاء ، اتفاق المؤرخين على ان المسلمين والصليبيين قد أنس بعضهم ببعض ، لطول المدة وكثرة المعاشرة ، بحيث كانوا يتركون القتال ، ويتجاذبون الأحاديث ، ويتبادلون الطرائف والنوادر ، وربما غنى فريق ورقص فريق اخر ، ثم يعاودون القتال بعد ساعة [2] !..

وفي أحدى المعارك اسر عدد من الافرنج ، وجيء بهم الى صلاح الدين ، وكان بينهم شيخ هرم فقد أسنانه وضعف جسمه ، فقال للترجمان : « قل له ما الذي حملك على المجيء وانت في هذه السن ، وكم بين هذه البلاد وبلادك ؟ » فأجاب : « بلادي بيني وبينها عدة اشهر ، وأما مجيئي فانما كان للحج الى كنيسة القيامة » فرق له وأمر بايصاله

---

١ - المرجع السابق ص ٢٤٥ - ٢٤٦ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٧٩ النوادر السلطانية ص ١٣٢

٢ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٣ ، مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٩٤ ، Michand. Ii. p. 123

الى القدس لزيارة الاماكن المقدسة [١]

يقول ابن شداد : « وكان الرجال يوماً من الطائفتين قد سئموا من القتال ، فقالوا الى كم نقاتل الكبار وليس للصغار حظ ، نريد أن يتصارع صبيان منا ومنكم . فأخرج صبيان من البلد الى صبيين من الافرنج ، واشتد الحرب بينهم » فوثب احد الصبيين المسلمين الى احد الصبيين الفرنجيين فاختطفه وضرب به الأرض « وقبضه أسيراً ، فاشتراه بعض الافرنج بدينارين ، وقالوا : « هو اسيرك حقاً » فأخذ الدينارين وأطلقه [٢] »

غير ان الأغرب والأعجب ، ان المجاعة اشتدت في معسكر الصليبيين في شتاء ١١٩٠ – ١١٩١ إذ انقطعت عنهم مراكبهم لهياج البحر ، فكان امراء صلاح الدين ومنهم عز الدين أسامة صاحب بيروت وسيف الدين المشطوب صاحب صيدا ، يأتون بالغلال من بلدانهم ويبيعونهم اياها باعلى الاثمان ، ويقول ابن الأثير « لولا مسلك اولئك الامراء لهلك الصليبيون جميعاً [٣] .

وقد روينا في الفصل الرابع وقائع معبرة من هذا القبيل ، سجلها أسامة بن منقذ في كتابه « الاعتبار » تلقي بعض الاضواء على العلاقات الاجتماعية التي سادت بين الصليبيين والمسلمين ، وننقل هنا بعض ما سجله الرحالة ابن جبير عن مشاهداته في البلدان التي كانت مسرحاً للحروب الصليبية ، وهي تؤلف دليلاً حياً على اصالة المشاعر المشتركة

---

١ – Saladin Le plus pur Héros de l'Islam. p. 258

٢ – النوادر السلطانية ص ٩٢

٣ – الكامل ج ١٢ ص ٣٥ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١١١ ، الفتح القسي ص ٢٤٧

بين البشر ايا كانت مذاهبهم وأعراقهم والأقوام التي اليها ينتسبون ، وعلى ان تلك الحروب التي سميت حروباً دينية انما كانت نزاعاً مجنوناً على مكاسب الدنيا ومتاع الحياة .

يقول ابن جبير : « ومن العجب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان اذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا اليهم ، ويقولون : هؤلاء ممن انقطع الى الله عزّ وجل فتجب مشاركتهم . وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا ، فيه انواع الفواكه ، وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة ، وقلما يخلو من التبتيل والزهادة . واذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض .

« ومن أعجب ما يُحَدَّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين : مسلمين ونصارى[1] ، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . شاهدنا في هذا الوقت الذي هو شهر جمادي الأولى[2] من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك ، وهو من أعظم حصون النصارى ، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر ، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشقّ[3] قليلاً ، وهو سرارة[4] ارض فلسطين ، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة ، يُذكر انه ينتهي الى اربعمائة قرية ، فنازله هذا السلطان وضيق عليه وطال

---

١ – يريد الافرنج
٢ – سنة ٥٨٠ ه (آب – اغسطس – ١١٨٤)
٣ – أكثر
٤ – سرارة الشيء اطيبه .

حصاره ، واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكا كذلك . وتجار النصارى أيضاً لا يُمنع أحد منهم ولا يُعترض . وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم ، وهي من الأَمَنَة [1] على غاية . وتجار النصارى ايضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم . والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية ، والدنيا لمن غلب .

« هذه سيرة أهل البلاد في حربهم ، وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك . ولا تُعترَض الرعايا ولا التجار ، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً . وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يُستوفى الحديث عنه [2] »

وكانت الأمداد ما تفتأ ترد الى سهل عكا من دمشق وحلب والموصل يلي بعضها بعضاً ، كما ترد الى عكا المحاصرة نفسها من بيروت والاسكندرية رغم ما يعترض ذلك من صعوبات كثيرة . ومن مواقف البطولة الفذة التي رواها ابن واصل ان صلاح الدين امر بتجهيز سفينة كبيرة من نوع البطسة في بيروت ، تملأ بالرجال والعتاد والمؤن وتُرسل الى عكا ، فما كادت تدنو منها حتى أحاطت بها أربعون من سفن الاعداء ، ولم ينفع رجالها تنكرهم بزي الافرنج فقد عرف امرهم ، وكانت تحمل ستمائة وخمسين رجلاً ، فقاتلوا قتال الأبطال ، واحرقوا احدى السفن الافرنجية ، ولما يئسوا من النجاة قال مقدمهم يعقوب الحلبي : « والله لا نُقتل الا

١ – الامن والاطمئنان
٢ – رحلة ابن جبير ص ٢٥٩ – ٢٦١

عن عز ، ولا نسلمّ اليهم من هذه البطسة شيئاً » ثم اغرقوا سفينتهم فاستشهد كل من فيها [1]

وكان السلطان يتصل بحامية عكا بواسطة الحمام الزاجل والسباحين ، ومن هؤلاء السباحين فتى يدعى عيسى العوام نزل الى البحر ذات ليلة وقد شد على وسطه ثلاثة اكياس فيها الف دينار ورسائل هامة ، فغرق وقذف به البحر بعد ايام الى عكا فأخذ أهلها ما كان معه من رسائل ومال . قال ابن شداد : « فما رؤي من أدى الأمانة في حال حياته وقد ردها في مماته الا هذا الرجل [2] » ويقول الدكتور عبد اللطيف حمزة ان هذا الفتى كان من المسيحيين الشرقيين وكان تعبيراً عن كراهية هؤلاء المسيحيين للافرنج المعتدين [3] .

وكان صلاح الدين حريصاً ، كلما واتته فرصة أو حيلة ، على ان يمد حامية عكا براً وبحراً بالمؤن والرجال ، ومن المحاولات الناجحة التي قام بها في هذا الصدد ، انه أدخل الى المدينة المحاصرة ، عن طريق البحر ، عدداً من القادة والامراء على رأسهم سيف الدين المشطوب ، وأخرج عدداً آخر ممن أجهدتهم معاناة التعب والسهر وملازمة القتال في الليل والنهار ، إلا أن الظروف الدقيقة التي جرت فيها هذه العملية الناجحة أدت الى عكس النتيجة المطلوبة ، ويقول أبو شامة في ذلك: « ودخل الى عكا من لم يجرب حصارها ، ولم يخبر منافعها ومضارها.. ودخل عشرون مقدماً وأميراً شبه المكرهين عوض ستين ، واستخدمت

---

١ — مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٥١ ، الكامل ج ١٢ ص ٤٢ ، النوادر السلطانية ص ١٤٩

٢ — النوادر السلطانية ص ١٢٠

٣ — صلاح الدين بطل حطين ص ١٢٨

الرجال وانفقت الأموال ، وتفاوت الداخلون والخارجون ، فلا جرم وقع الوهن وقضي الأمر [1] ... »

ولكن الامداد التي كانت تصل الى الفرنجة من اوربة كلها ، كانت من الوفرة والاستعداد والحماسة ، بحيث لا تستطيع الصمود امامها أية قوة او تتغلب عليها اية بطولة [2]

وقد جاء الى الشرق أول الأمر امبراطور المانية فردريك الأول الملقب ببربروس ، على الرغم من كبر سنه ، على رأس مائة الف محارب [3] وكان فردريك قد اشترك في الصليبية الثانية مع عمه الامبراطور كونراد الثالث فاستعد لهذه الحملة استعداداً كبيراً ، واستكمل نواحي النقص في الحملة السابقة ، وجهزها بكل ما تحتاج اليه [4] ، وأرسل الى صلاح الدين كتاباً ينذره فيه بأنه اذا لم يتخلَّ عن جميع المناطق التي احتلها خلال اثني عشر شهراً فانه سيشهر الحرب عليه مع جميع الشعوب الاوربية التابعة له وعددها سبعة وعشرون شعباً . وقد أجابه صلاح الدين بأنه اذا اصرّ على تهديد السلام والأمن في الشرق الادنى فسيغزو اوربة نفسها [5]

---

١ — كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨١

٢ — الفتح القسي ص ١٨ : ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٩

٣ — خطط الشام ج ٢ ص ٦٦ ، الحركة الصليبية ج ٢ ص ٥ : ٨ نقلاً عن ، Cambridge Med. Hist. v. p. 411 وروي بعض المؤرخين المسلمين انهم كانوا الف الف مقاتل (الفتح القسي ٣٠٣ - ٣٠٤) أما ابن شداد فيقول انهم مائتا الف وقيل مائتان وستون الفاً (النوادر السلطانية ص ٩٨) .

٤ — الناصر صلاح الدين الايوبي ص ١٣٥

٥ — Saladin Le Plus pur Héros de l'Islam. pp, 206 - 207 , Michaud, Iv P.146

يقول البير شامبدور : « وهكذا غادر المانية في ١١ ايار (مايو) ١١٨٩ مائة الف جرماني مأخوذين بسحر الشرق ، ليعيشوا اسوأ مغامرة في تاريخ بلادهم[١] . » فقد سلك فردريك بحملته طريق البر فغرق وهو يعبر نهراً في كيليكية ، وتضعضع افراد جيشه بموته ، وانتشر بينهم المرض والطاعون ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من عاد الى وطنه ، ومنهم من التحق بجموع الفرنجة أمام عكا بقيادة فردريك السوابي ابن الامبراطور الغريق ، فما لبث الامير الشاب ان توفي أمام أسوار عكا في ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١١٩١ (٥٨٧ هـ)

وقد وقف العاهل البيزنطي اسحق الثاني انجيلوس (ايساكيوس) موقفاً عدائياً صريحاً من الامبراطور الالماني ، وبادر الى التحالف مع السلطان ، متعهداً بأن يكون لصلاح الدين نوع من الوصاية على مسلمي القسطنطينية ، كما تعهد له صلاح الدين بوضع الأماكن المسيحية المقدسة تحت رعاية رجال المذهب الارثوذكسي[٢] . وبينما حاول العاهل البيزنطي منع الامبراطور الالماني من الوصول الى سورية - وكان ينبىء صلاح الدين بتحركاته ، كما كان يكتب اليه بشأنها بركري كور بن باسيل مقدم الأرمن بقلعة الروم على طرف الفرات ، كما ذكر ابن شداد[٣] - تطوع الامير المسلم قلج ارسلان سلطان سلاجقة الروم ، بارشاد الامبراطور في طريقه الى الشام ، عبر آسية الوسطى ، نظراً لتخوفه من محور دمشق القسطنطينية[٤] .

---

١ - Saladin, p. 213

٢ - السلوك ج ١ ص ١٠٤ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٥٩ - ١٦٠ ، الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٧٢ ، Chrmpdor ; Saladin. p. 212

٣ - انظر النوادر السلطانية ص ١٠٧ - ١٠٩

٤ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٥٤ - ١٥٦

وبعد امبراطور المانية أقبل الكونت هنري دي شمبانيا (الكندهري) فقوّى من عزيمة الفرنجة بما كان معه من مال ورجال ، وما حمل اليهم من بشائر حافزة عن النجدات العظيمة المقبلة اليهم ، وما أدخل على أساليب القتال والحصار من طرق فنية ومكائد حربية جديدة .

ثم وصل فيليب اوغست ملك فرنسة (الفرنسيس) في جيش لجب ، فاستقبل بالمشاعل والتراتيل كأنه ملاك من السماء جاء لانقاذهم ، وكان ذا قرابة بكونراد فرحب به وولاه القيادة . الا ان فيليب اوغست ما كان لينظر الى الحرب الصليبية الا نظرة ملك عظيم يجب عليه ألا يتخلف عن مهمة تحرك لها غيره من العظماء [1] ، وسنرى انه لن يلبث حتى يعود الى بلاده التي كانت في نظره محل اداء واجبه وليس بلاد الشام .

وتبعه ريشارد ملك الانكليز (الانكتار) الملقب بقلب الاسد ، والذي أحرز في هذه الحرب شهرة لا تقل عن شهرة صلاح الدين . وكان ريشارد يقود اسطولاً كبيراً ، وقد حارب صقلية وهو في الطريق الى سورية واحتل قبرص بعد ان اعتقل صاحبها الكسيوس كومنيوس الذي كان يطلق على نفسه لقب امبراطور قبرص ، وكان على صلات ودية مع صلاح الدين [2] ، وارسله الى فلسطين مكبلاً بالقيود لأنه كان يحالف صلاح الدين وقد حاول منع ملك الانكليز من النزول في الجزيرة [3]

وقد كان لاسطول ريشارد اثر فعال في تشديد الحصار على عكا ، الا ان اسطول قلب الأسد لم يكن الاسطول الوحيد الذي حاصر عكا

---

١ – صلاح الدين الايوبي البطل الذي انتصر على الغرب ص ١٧٠
٢ – تاريخ العالم لهامرتن ج ٥ ص ١١٠
٣ – تاريخ سورية للمطران الدبس ج ٦ ص ١١٨



أختام فيليب اوغست وريشارد قلب الاسد

واشترك في الحملة الصليبية الثـــالثة ، وأنما أسهمت في ذلك أساطيل صقلية وبيزة. وجنوة والبندقية جميعاً

ويسجل التاريخ لصلاح الدين مأثرة عظيمة تدل على تجرده وتضحيته وانكاره لذاته في سبيل تحقيق رسالته وتحرير بلاده ، وهي انه لما رأى ذلك الطوفان المتدفق من جنود الفرنجة الذين توافدوا من جميع انحـاء اوربة وحملوا معهم كل آلات الموت ووسائل الدمار ، طلب من الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، أن يحضر بشخصه الى أرض المعركة ليثـــير بذلك حماسة المسلمين وعزيمة المقاتلين ، معلناً انه يتنازل له مقابل ذلك عن مملكته الشاسعة كلها ، ولكن امراء الجزيرة الزنكيين رفضوا رؤية الخليفة بينهم ، كما أن الخليفة نفسه لم يكن مستعداً للانتقال من الحياة المترفة في قصره الى حياة الشظف والمخاطرة في ساحة القتال ، فلم يجب على صلاح الدين واكتفى بأن ارسل اليه عدة أحمال من النفط ، ورقعة تتضمن الأذن له بأن يقترض بعض المال من التجار [1] .

يقول ابن شداد : « ووصل رسول الخليفة وهـــو شاب شريف ، ووصل منه حملان من النفط وجماعة من النفاطين والزراقين ، ووصل معه من الديوان العزيز النبوي مجّده الله رقعة تضمن للسلطان ان يقترض عشرين الف دينار من التجار ينفقها في الجهـاد ويحيل بها على الديوان العزيز ، فقبل جميـع مـــا وصل مع الرسول واستغنى عـن الرقعة والتثقيل بها !.. [2] »

والواقع ان الخليفة لم يكن لينظر بارتيـاح الى توسع صلاح الدين ،

---

١ – الفتح القسي ص ١٦٢ ، ١٧٩ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٦٧
٢ – النوادر السلطانية ص ١٠٢

وكان قد أرسل اليه وهو قائم على حصار صور رسالة يعاتبه فيها لأنه بعث البشارة بفتح بيت المقدس مع جندي بغدادي يدعى الرشيد ابن البوشجي ، إذ عدّ الخليفة ذلك اهانة له ، كما لامه على الاستمرار في اتخاذ لقب الملك الناصر مع انه لقب الخليفة ، واعتبر البشارة نوعاً من الفخر والاعتداد فقال عنها « يفتخر علينا بالقدس ، وهل فتحها الا بعساكر الديوان وتحت رعايته » . وقد تركت هذه الرسالة أثراً عميقاً في نفس صلاح الدين ، إذ آلمه ان يقابل جهاده وتضحيته بالجحود والنكران ، ولعل هذا الموقف المؤسف الذي وقفه الخليفة العباسي هو الذي حمل صلاح الدين على دعوته الى الاشتراك في موقعة عكا مقابل التنازل له عن كل ما يملك ، وهو ضرب من التحدي قابله الخليفة بارسال احمال النفط التي يستهلك صلاح الدين اضعافها كل يوم ، وبالرقعة التي اعتذر السلطان عن قبولها « والتثقيل بها » .. وكادت رسالة الخليفة تشعل نيران ثورة لاهبة في معسكر صلاح الدين حين اطلع امراءه وقادته عليها ، فغضبوا غضباً شديداً ، ودعاه بعضهم الى اعلان العصيان ، لولا ان تدارك العماد الموقف ، ونسب ما جاء في الرسالة من لوم وتقريع الى كاتب الديوان الذي لم يحسن التعبير فيها او حرفها عامداً بقصد الوقيعة بين الرجلين الكبيرين [1] .

ولما كثر القتلى من الفريقين ، انتشرت الأمراض والأوبئة ، واصيب صلاح الدين باعتلال في صحته ، وهو يجالد المرض ، ويرتب الجنود بنفسه ، ولا يهتم بوصية الاطباء ونصح الناصحين ، ويركب من بكرة النهار الى المغيب ، يطوف على الأجناد صابراً ، قائلاً لمن يلومونه على ما يفعل : « اذا ركبت للجهاد زال عني الألم حتى أنزل !.. »

---

١ — انظر الفتح القسي ص ٨٤ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٧

الا ان امراءه ما زالوا يلحون عليه حتى استطاعوا اقناعه بنقل معسكره من تل كيسان الى الخروبه [1] فانقطع بذلك الاتصال بين قوات المسلمين في داخل عكا وخارجها حتى تعذر التراسل بينهما الا بالحمام الزاجل، وشرع الفرنجة « في حفر خندق على معسكرهم حوالي عكا من البحر الى البحر ، وأخرجوا ما كان في مراكبهم من آلات الحصر .. فكان من قضاء الله اننا اغفلناهم وأمهلناهم بل اهملناهم .. ولما فرغوا من هذا الأمر اشتغلوا بالحصر ، وانقطعت الطريق على المسلمين الى عكا [2] »

وكما اعتلت صحة صلاح الدين ساءت صحة ريشارد حتى اشرف على الموت ، وجرح فيليب اوغست جرحاً بالغاً ، وغادر كونراد عكا الى صور غاضباً حين استفحل الخلاف بينه وبين غي دى لوسينيان ، وقد كانا يتنازعان على عرش مملكة لا وجود لها [3] ، فخشي الصليبيون ان ينتهز المسلمون تلك الفرصة فيحملوا عليهم حملة قاضية ، فلجأوا الى الحيلة، وأنشأ ريشارد يراسل السلطان ويشاغله ويطلب مقابلته ، وتأثر صلاح

---

١ – كان صلاح الدين يؤثر البقاء قريباً من المدينة ومتابعة القتال لصد قوى الفرنجة قبل ان ينفتح البحر وتتكاثر الامداد التي تتدفق من اوربة وشواطىء سورية ، ولكن امراءه اضطروه للرحيل الى الخروبة ليبتعدوا عن جو المعركة الذي تلوث برائحة القتلى – كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٦ ، الفتح القسي ص ١٦٩

٢ – كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٠٧

٣ – توفيت الملكة سيبيل وبناتها بالطاعون اثناء حصار عكا وأمام اسوارها ، ففقد زوجها غي دى لوسينيان حقه في عرش بيت المقدس ، وآل الملك الى اختها الاميرة ايزابيل الابنة الثانية لأموري الأول ، ولم يكن زوجها اونفروا الرابع دى تورون محبوباً من امراء الصليبيين فبادر هؤلاء الى اقناعها بأن تطلقه وتتزوج من كونراد دى مونتفرات ، لاعتقادهم بقدرته على بعث مملكة بيت المقدس (Champdor : Saladin, p. 263) وقد عاد كونراد الى المشاركة في حصار عكا مع خمسين سفينة مسلحة ومثل دوراً حاسماً في استسلام حاميتها .

الدين لمرض قلب الاسد فهادنه وأرسل اليه الفاكهة والثلج حتى شفي [١]. ولما جاء رسول ريشارد طالبا تحديد موعد للاجتماع بين العاهلين أجابه السلطان : « ان الملوك لا يجتمعون الا عن قاعدة ، ولا يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة ، واذا اراد ذلك لا بد من تقرير قاعدة [٢] » الا ان بعض المؤرخين الغربيين يؤكدون ان صلاح الدين قد عين موعداً للمقابلة ، ونصب خيمة خاصة لهذا الاجتماع ، ولكن ريشارد ارسل يعتذر في الوقت المحدد بأن المرض قد حال دون تحقيق امنيته في الاجتماع بصلاح الدين [٣]

وقد تعددت الآلات الحربية التي استخدمها الفرنجة في هذا الحصار الطويل والقتال الضاري ، ومنها الزنبورك وهو سهم في سمك الابهام وفي طول الذراع ذو اربعة اوجه وحدّه من الحديد ، وطلقته سريعة تخترق رجلين جالسين احدهما خلف الآخر بزيهما العسكري ودروعهما ، وكان هذا السلاح قد حُرم استعماله ، ثم استخدمه الصليبيون في حصار صور وعكا ، وانتشر بعد ذلك في اوربة وقُتل ريشارد نفسه بطلقة منه [٤] ومنها دبابة هائلة مصنوعة من الخشب والرصاص والحديد والنحاس مقامة على عجل تسير من داخلها ، تنقر الاسوار وتلقي بالنار ، وقد تمكن المسلمون من تدميرها بالقاء النار عليها لما فتح بابها فقتل من فيها [٥].

وصنع الفرنجة ابراجا كبيرة من الأخشاب والحديد ذات خمس طبقات ،

---

١ – الفتح القسي ص ٢٧٥ ، مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٥٥

٢ – النوادر السلطانية ص ١٥١

٣ – Saladin Le plus pur Héros de L'islam p. 281

٤ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١٩٦

٥ – الفتح القسي ص ١٠١

يسع سطحها منجنيقاً ومن المقاتلة ما يزيد على خمسمائة رجل ، وقد علت هذه الابراج على أسوار المدينة ومنازلها ، وكانت مكسوة بجلد البقر ، ومبللة بالخل والطين كي لا تتأثر بالنار اذا اطلقت عليها [١] ، وكان الافرنج يقذفون منها النار والأحجار والسهام ، وقد جمع السلطان الصناع والنفاطين المحنكين ، وحثهم على الاجتهاد في احراقها ، ووعدهم بمكافآت ثمينة ، ولكنهم اخفقوا وضاقت بهم الحيل ، ثم تقدم شاب من دمشق يشتغل في صناعة النحاس يدعى علي بن عريف النحاسين ، وأعلن انه يستطيع احراقها ، فهزىء به القوم وقالوا : « اين تذهب انت ايها الشاب الصغير امام هؤلاء الشيوخ المجربين ؟! » ولكن صلاح الدين أفسح له المجال ، فتمكن الشاب من احراقها ، إذ رمى بالمنجنيق قدور النفط البارد لتبلل الأبراج من كل ناحية ، ثم رمى بالنار فاشتعلت فيها [٢] وقد أراد السلطان مكافأة هذا الشاب النابغة فرفض المكافأة قائلاً : « انما عملته لله ، ولا اريد المكافأة الا منه [٣] »

وقد نوه صلاح الدين في رسالة وجهها الى الخليفة العباسي بذلك كله ، فقال : « انهم قاتلوا مرة بالأبرجة ، واخرى بالمنجنيقات ، ورادفة بالدبابات ، وتابعة بالكباش ، واونة باللوالب ، ويوماً بالنقب ، وليلاً بالسرايات ، وطوراً بطم الخنادق ، وآناً بنصب السلالم ، ودفعةً بالزحوف في الليل والنهار ، وحالةً في البحر بالمراكب . ثم شرعوا فأقاموا في وسط خيامهم حائطاً مستطيلاً يشبه السور من التراب ، وتلالاً تشبه الأبرجة مدورة ، ورفعوها بالأخشاب وعلوها بالحجارة [٤] »

---

١ - ذيل النوادر ص ٢٩٧ ، الكامل ج ١٢ ص ٢٨
٢ - الناصر صلاح الدين الايوبي ص ١٣٠ - ١٣١
٣ - العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٥ ص ٣٢١
٤ كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٤

وكذلك تطورت فنون القتال لدى المسلمين ، فكانوا يزرعون الطرق بالحديد لتعوق تقدم العدو ولا سيما فرسانه ، واستعملوا في قذائفهم النفط الاسود الذي يؤتى به من ساحل البحر الأحمر والنفط الأبيض الذي يؤتى به من العراق ، وأنشأوا أقواساً تطلق عدة سهام في آن واحد .

وجملة القول ان كلا من الفريقين قد استنفد ما لديه من جهد وفن وذخائر وآلات حصار ، في البر والبحر ، مما لم يشهد مثيله في جميع أدوار الحروب الصليبية [1]

وفي اوائل جمادى الثانية سنة ٥٨٧ هـ تموز (يوليه) ١١٩١ م ، اشتد الضيق على أهالي عكا وحاميتها ، ووهنت منهم القوى ، وتهدمت اسوارهم ، ولم يعد بهم طاقة على مواصلة الصمود ، وفقدت معظم قطع الأسطول الأيوبي التي كانت تقوم بمحاولات بطولية يائسة لانقاذ المدينة المحاصرة ، إذ حطم بعضها الأعداء ، وأغرق بعضها هياج البحر .

وبينما كانت أعداد الفرنجة تتكاثر ، وتفوقهم البحري يتعاظم ، بدأ امراء الاجناد من المسلمين يتململون « وضجرت العساكر من كثرة القتال ، فرحل صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل [2] » ، وتتابع رحيل الأمراء واجنادهم حتى بلغ عدد الراحلين منهم عشرين أميراً [3] .

ويبدو انه لم يكن من اليسير على صلاح الدين « ابقاء هذه الجيوش

---

١ – العلاقات بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية ص ٢٠

٢ – السلوك ج ١ ص ١٠٥

٣ – كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٣ ، الفتح القسي ص ٤٠٦

المختلفة الاجناس والعادات في حالة حرب أمام القلاع والحصون اعواماً متصلة ، على غير مألوفها من الحرب والغنيمة السريعة ثم العودة السريعة الى أهلها ، ولم يكن هناك من نظم بريدية ما يهوّن على الأمراء طول البقاء ، لأن نصيب الاجناد من نظام البريد يكاد يكون معدوماً في تلك العصور ، لاقتصاره على لاغراض الحكومية [1] ،

وقد روى السلطان ذلك كله للخليفة العباسي في رسالة أوضح فيها أبعاد الموقف أمام عكا ، وانسحاب الأمراء واحداً بعد آخر لأن « المدة الطويلة والكلف الثقيلة قد أثرت في استطاعتهم لا في طاعتهم ، وفي احوالهم لا في شجاعتهم ، فالبرك (الثياب) قد أفضوه ، والسلاح قد احفوه ،والدرهم قد أفنوه » في حين ان البحر يمد الافرنج « بمراكب اكثر عدة » من أمواجه .. فاذا قتل المسلمون واحداً في البر بعث عوضه الفاً ، واذا ذهب بالقتل صنف منهم أخلف بدله صنفاً [2] »

الا ان السلطان لم يأسف لشيء بقدر ما أسف لتغيب ابن اخيه تقي الدين عمر الذي ذهب الى امارته في الجزيرة على أن يعود في اقرب وقت ، فشغلته أحداث الامارة عن العودة السريعة ، وقد رأى صلاح الدين في غياب تقي الدين أحد الاسباب الرئيسية التي أدت الى سقوط عكا [3] .

وحينئذ راسل أمير عكا سيف الدين المشطوب الفرنجة في الصلح ،

---

١ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ٢٤٨

٢ – صبح الاعشى ج ٧ ص ١٢٨ ويلاحظ ان صلاح الدين يجد الاعذار للامراء الذين غادروه وهو في أحرج الظروف وتخلوا عنه وهو في اوج المعركة

٣ – الفتح القسي ص ٢٨٢


ELLACOTT

وقال لهم : « لما استولينا على هذه المدينة سمحنا لجميع السكان بكل ما يشاؤون ، فوهبناهم حرية الذهاب الى حيث يريدون ، يحملون معهم اسلحتهم وأمتعتهم وبضاعتهم وأهليهم ، وها نحن اليوم نعطيكم المدينة على أن تعاملونا بمثل ما قد عاملنا به قومكم من قبل » ولكنهم أبوا عليه ما طلب [1] ، فعاد الى القتال وقد عزم على المضي فيه حتى ينتصر او او يموت تحت انقاض المدينه .

وتدخل صلاح الدين في المفاوضات ، ومثل الفرنجة مقدم الاسبتارية ومثل المسلمين الملك العادل شقيق السلطان ، فطالب الفرنجة باستعادة مملكة بيت المقدس كما كانت عليه قبل استيلاء صلاح الدين عليها ، فرفض الملك العادل ذلك وأخذ السلطان يعيد تنظيم جيشه استعداداً للاشتباك مع العدو في معركة فاصلة ، فلم يكن من كونراد الا ان عقد مع حامية عكا اتفاقاً منفرداً تعهدت الحامية فيه بدفع مائتي الف دينار وتسليم الفين وخمسمائة من أسرى الفرنجة ، مقابل السماح لافرادها بمغادرة المدينة [2] ، فما أحس المسلمون الا وقد ارتفعت أعلام الفرنجة على أسوار عكا ، فعظمت المصيبة واشتد الحزن وغشيت الناس بهتة عظيمة وحيرة شديدة [3] ، لا سيما وان عكا كانت تحوي جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب [4] . وزاد من عظم المصيبة ان الفرنجة نقضوا شروط الصلح « فأسروا من فيها وكانوا الوفا [5] » ، وكانت هذه المعركة أول معركة

---

١ – المرجع السابق ص ٢٧٧

٢ - مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٥٦ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٧ ، الفتح القسي ص ٢٨١

٣ – كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٨

٤ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٥٧

٥ – السلوك ج ١ ص ١٠٥

يخسرها صلاح الدين الأيوبي منذ أربعة عشر عاماً .

ودخل الفرنجة عكا في ١٧ جمادى الثانية سنة ٥٨٧ هـ ١٢ تموز (يوليه) ١١٨٠ م . يقول ستانلي لينبول : « وقتل ملك الانكليز ريشارد بعدئذ ٢٧٠٠ أسير من أهالي عكا دون ان يضطرب له ضمير [١] » وهو أمر يتنافى مع الأعراف السائدة في تلك العصور ، بالتمييز بين الأسرى الذين يؤخذون في ساحة الحرب ، والأسرى الذين يسلمون انفسهم رهائن مقابل شروط معينة

وقد تناول المؤرخون الغربيون هذه المذبحة البشرية ، بلاذع النقد واللوم ، على حين أثنوا على صلاح الدين وما انطوت عليه نفسه من روح التسامح ورسعة الصدر والحلم والوفاء بالوعد [٢] . ويقول الدكتور فيليب حتي : « وهو عمل شائن يناقض تماماً معاملة صلاح الدين لأسرى اللاتين عندما احتل بيت المقدس [٣] »

وكان صلاح الدين قد جمع المال المطلوب لفداء الأسرى وعددهم يزيد على عشرة آلاف وعلى رأسهم سيف الدين المشطوب وبهاء الدين قراقوش[٤] ، وطلب من الفرنجة اعطاء الضمانات على الوفاء بوعدهم قبل استلام المال ، لئلا يأخذوا المال ويرفضوا تسليم الاسرى ، فأبوا عطاء أي نوع من الضمانات ، ورفض فرسان الداوية ان يكفلوا تنفذ ريشارد

---

١ – حياة صلاح الدين الايوبي للبيلي ص ١٩٣

٢ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٦٠

٣ – العرب ...

٤ – افتدى صلاح الدين سيف الدين المشطوب فيما بعد بعشرة آلاف دينار ، أما بهاء الدين قراقوش فقد تمكن من الهرب

لوعده حين قبل السلطان بكفالتهم ، مما جعله يتردد في دفع الفداء ، فغضب ملك الانكليز وعمد الى قتل اولئك الأسرى بدافع الانتقام . ويرى بعض المؤرخين في هذا الخلاف ، أو سوء التفاهم ، مـا يخفف من جريرة ريشارد ، لا سيما وان الجدال في امر الفداء والضمانات التي طلبها صلاح الدين قد طال شهراً كاملاً .

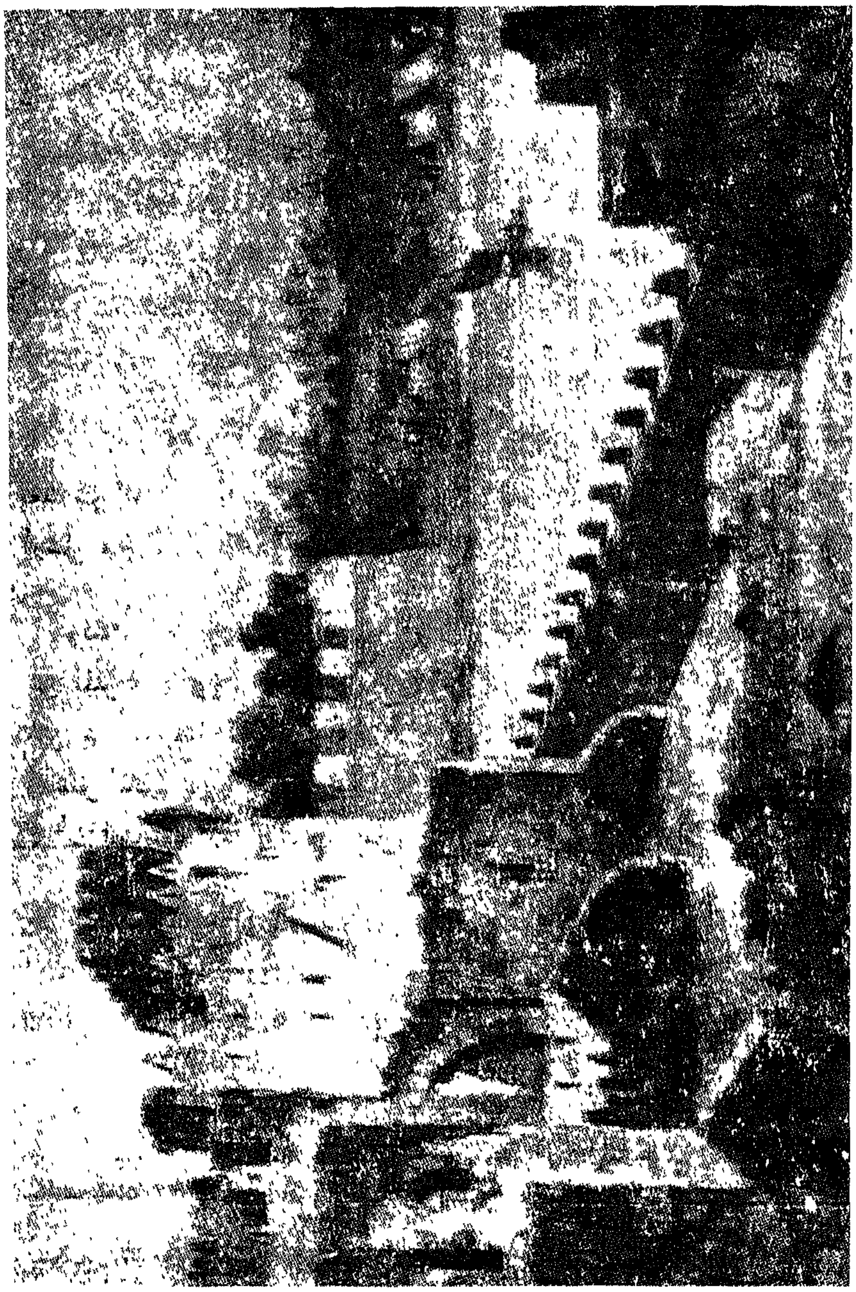
ولما علم صلاح الدين بما فعله ريشارد لطم رأسه ونتف لحيته وبكى بكاء شديداً [1] ولكنه على الرغم من شدة غضبه فقد استطاع الاحتفاظ بسماحته ورباطة جأشه ، وكان قد جيء بمن في دمشق من اسرى الفرنجة لتجري مبادلتهم بأسرى المسلمين ، فأمر باعادتهم الى دمشق سالمين ولم يأخذهم بجريرة اخوانهم [2] .

ويعلل الدكتور نظير سعداوي سقوط عكا من وجهة النظر العسكرية ، فيقول ان المدينة قد قاومت حصار الصليبيين سنتين كاملتين « شهدت خلالها أعظم عمليات حربية اشترك فيها الصليبيون بأكثر من ربع مليون جندي . وامتاز الصليبيون خلال هـذا الحصار باسطول قوي ، وآلات حربية ضخمة ، على حين امتاز المسلمون بوحدة القيادة الكفيلة بالانتصار ، لولا مـا تسرب الى صفوف المسلمين من ضجر في المعسكر الصلاحي ، وملل من طول الحصار في جند الحامية المحصورة بعكا .

« والواضح ان المسلمين فقدوا عكا لأسباب سياسية وعسكرية ، . أولها ضعف قوتهم البحرية ، ثم فقدان الروح المعنوية عند امراء صلاح الدين ، واختلافهم معه في الرأي اكثر المناسبات الحربية ، ثم عدم إنجاد الخليفة

---

١ — مرآة الزمان ص ٢٦٢
٢ — صلاح الدين الأيوبي البطل الذي انتصر على الغرب ص ١٨٨



اسوار عكا عن لوحة قديمة

العباسي لصلاح الدين بنجدة معنوية او مادية كبيرة .

« ومما تجب الاشارة اليه ما شهدت عكا من قيام مدينتين عسكريتين خارج اسوارها أثناء مقاومة ذلك الحصار الطويل المدى ، احداهما اسلامية شرقية بها خصائص وتقاليد الحياة الدينية والاجتماعية والعسكرية الموروثة .. والثانية صليبية غريبة بها خصائص المدينة الاوربية .. وكانت العلاقات الاجتماعية السلمية بين الأيوبيين والصليبيين ودية عموماً ، رغم مـــا بين الفريقين من حرب !.. [1] »

ووقف صلاح الدين على رابية عالية يطيل منها النظر الى عكا الأسيرة بعد صراعها الجبار ، وقد بدا في جلاله ونبله وحزنه العميق ، كأنه قد أرسل روحه في صلاة صامتة خاشعة .

ولبث وقتاً طويلاً وهو في موقفه ذاك ما يريم ، ولا يتحول بوجهه عن المدينة الجريحة ، كأم تنظر الى قبر ابنها القتيل ، وفي نفسها عوامل شتى من الفجيعة والثورة الصامتة والألم العميق ، ثم لوى عنـق جواده وأطلق عنانه ، فانطلق يشق به الرمال السوافي ، وكأن له جناحي نسر كما أن لصاحبه إباء النسور .

وكانت جوارح الطير تنقض على جثث القتلى ، فتنهشها ثم تحلق في الفضاء وهي تطلق صرخات حـــادة ظافرة ، فيتصل صوتهـــا المخيف بقلبه ، ويشتبك في صراع أليم مع نوازع الخير المتأصلة فيه .

في تلك البقعة التي كانت مهـــد السلام والحب ، وقف صلاح الدين

---

١ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الايوبي ص ٢٦٠ – ٢٦٢

الأيوبي مستنداً الى عنق جواده ، وقد خيل اليه ان الأرض تشتعل في كل مكان ، والسحب تغطي السماء كأعمدة من دخان ، وتمثلت له الجيوش الجرارة والملوك العظام والشعوب المختلفة اللغات التي تتقاتل وتتطاحن ، وكأنها ستظل تتقاتل وتطاحن حتى تبيد جميعاً ، ولا يبقى في أرض الحب والسلام سوى تلك الطيور الجوارح ، تنهش لحوم الموتى وترسل صيحتها الساخرة في السماء !..

ولفّ السلطان ذراعه حول عنق الجواد ، ذلك الصديق الصامت الطيب ، ومسح بشعره الناعم الطويل دمعات خرساء تحدرت على خديه !..

الفصل العشرون

ريشارد قلب الأسد

وصف الكاتب الفرنسي الكبير شامبدور الوضع الجديد الذي انتقلت اليه عكا بعد استيلاء الفرنجة عليها فقال :

« لقد تقاسم الصليبيون الغنائم الكبرى التي عثروا عليها في المدينة ، بل توزعوا ايضاً أرزاق التجار المسيحيين الذين عاشوا في عكا منذ سنين عديدة ، مطمئنين الى الادارة الاسلامية التي لم يشكوا منها قط ، ولم يصبهم منها اي أذى . ولما رأى هؤلاء التجار ان اولئك الفاتحين الذين اعمتهم ولا ريب نشوة الانتصار ، سيسلبونهم كل ما يملكون ، جاءوا الى ملك فرنسة يحتجون لديه على اعمال النهب التي يتعرضون لها ، وقالوا له بشيء غير قليل من القسوة ان المسيحيين انما جاءوا في اعتقادهم لانقاذ بيت المقدس وليس لسلب الأرزاق التي تركهم الكفار يتمتعون بها .

وقد دافع فيليب اوغست عن قضيتهم ، واتخذ التدابير اللازمة كي لا تساء معاملة مسيحيي عكا القدماء من قبل المنتصرين . ولكن ما هو الا قليل حتى كان الانكليز والفرنسيون والهيكليون وفرسان المستشفى والسكندينافيون والفلمنديون وأبناء بيزة والبندقية والألمان ، يتنازعون السيادة في المدينة التي اشتركوا جميعاً في الاستيلاء عليها . وكان غي

دى لوسينيان الباحث عن المملكة التي فقدها في حطين ، يتفجع بمفرده وهو يرى تمزق المسيحية المجاهدة .

والحق ان التحالف الودي بين الصليبيين كان قصير المدى ، فمنذ اليوم التالي لدخولهم الى عكا ، بدأوا يتقاتلون فيما بينهم . وقد احتل ليوبولد دوق النمسا ورجاله أحد الحصون ، ورفع علمه عليه ، فاستاء قلب الأسد الغضوب لمرأى هذا العلم وهو يخفق مزهواً في السماء دون استشارته وموافقته . فانتزع العلم والقى به في الوحل ونصب علمه مكانه .

« وشعر الالمان بالاهانة فقرروا ذبح الانكليز الذين يلتقون بهم في الاسواق ، وكان الأمر في حاجة الى ديبلوماسية الدوق ليوبولد كي لا يؤدي الى نتائج مؤسفة . الا ان الدوق ما لبث ان انتقم لنفسه فيما بعد . وكان ملك انكلترة مستمراً في التصرف وكأنه السيد الوحيد الذي ينبغي أن يقدّم له الجميع فروض الطاعة ، من أصغر الناس شأناً الى أوفرهم قوة . ولعله كان على حق في ذلك ، لو لم يعامل فيليب اوغست كتابع له . والواقع ان ملك فرنسة ، بصناديقه الفارغة وثيابه البالية ، كان يبدو بمظهر الغريب الفقير الى جانب الثري الانكليزي الذي كان يستطيع ان يشتري بالذهب القبرصي جنوداً وضباطاً ونبلاء كما يشتري امراء خانوا صلاح الدين .

« وبدافع القرف ، والمرض الذي عاوده من جديد ، وانباء الاضطرابات التي عمت فرنسة ، قرر فيليب اوغست مغادرة عكا ، حيث كان كونراد دى مونتفرات ما يزال مخلصاً لصديقه الفقير الذي اكتشف الخدعة التي تورط فيها . وفي هذه المدينة استقبل ملك فرنسة وفداً رسمياً أرسله صلاح الدين للاطمئنان على صحته ، ولتهنئته بالانتصار الذي احرزه

عليه ، وليقدم له هدايا ثمينة جديرة بملك عظيم .

« وما لبث فيليب اوغست أن قرر السفر الى فرنسة ، فأبقى الفاً وخمسمائة من جنوده في الأرض المقدسة بقيادة هوغ الثالث دوق دي بورغونية ، وتخلى لمركيز صور العجوز عن حصته في عكا بوصفه شريكاً في فتحها ، وأوصى بأن تعود المكاسب المقبلة التي يجب ان تقسم بين فرنسة وانكلترة بمقتضى معاهدتي فيزيلاي وعكا ، الى كونراد دي مونتفرات ، على أن يتولى أمرها لحساب ملك فرنسة . وبعد ان أنهى قضاياه السياسية على هذا النحو ، أبحر في ٢ آب (اغسطس) ١١٩١ الى ايطالية على اسطوله المؤلف من خمس عشرة سفينة ، حيث تلقى شعار حجته من يد البابا سيلستان الثالث ، وما كاد يصل الى مملكته حتى أعاد تنظيم شؤونه المالية وأخذ يبحث عن طريقة للاستيلاء على الأراضي التي يملكها البلانتاجانيون [١] في فرنسة ، متناسياً اليمين التي أقسمها على احترام تلك الأراضي ، وصيانتها من كل عدوان ، حتى عودة ملك الأنكليز !.. [٢] »

وقد ترك سفير فيليب اوغست الساحة خالية أمام ريشارد قلب الاسد ، فغدا الزعيم الذي لا يُنازع للحملة الصليبية الثالثة ، وقرر الزحف الى عسقلان والاستيلاء على جميع المدن الساحلية التي تقع بينها وبين عكا ، حتى اذا تمت له السيطرة عليها اتجه داخلياً شطر المدينة

---

١ – لقب الاسرة الثانية من كونتات انجو التي توارثت العرش البريطاني من عهد هنري الثاني الى عهد هنري السابع (١١٥٤ – ١٤٨٥) ، وقد أدى خلاف ريشارد وفيليب اوغست الذي بدأ في الاراضي المقدسة الى اشعال حرب المائة عام بين المملكتين ،

١ – Saladin Le plus pur Héros de L'islam, q. 284 - 285 ، انظر ايضاً : Marin : Hist. de Saladin. II, p. 303

المقدسة ، فسار جنوده – وقد بلغ عددهم مائة الف جندي وقيل ثلاثمائة الف [1] – على مقربة من الشاطىء وسفنهم تواكبهم في البحر ، كي يتجنبوا الاصطدام مع الجيش الصلاحي في معركة مكشوفة [2] ، ولحق بهم صلاح الدين بعد أن تبنى خطة الارض الجرداء ، فأمر باخلاء المدن الساحلية وتدميرها واحراق مزارعها وردم آبارها ، حتى لا يجد الفرنجة فيها زاداً أو مالاً أو ملجأ يلجأون اليه .

وأدرك صلاح الدين ان جنوده بسلاحهم الخفيف ، اضعف من أن يلاقوا الفرنجة المدججين بالحديد في ملحمة او معركة كبرى ، فانتقل الى ما نسميه اليوم حرب العصابات ، وأخذ جيشه ينقض على اعدائه في مناوشات خفيفة يرغمهم على منازلته فيها ارغاماً ، ويتغلب عليهم فيها بمهارته وشجاعته وبراعة خططه ، حتى أصبح شغل الافرنج الشاغل حماية أنفسهم من هذه الغارات الصغيرة المفاجئة على طلائعهم أو رسلهم أو كتائبهم الصغيرة أو أطراف معسكرهم نفسه ، تارة من الأمام وتارة من الخلف وتارة اخرى من اليسار ، فكانوا اذا ما نعموا بفترة قصيرة من السلام ، اشتغلوا بتأمين المعسكر الذي باتت تشغله جماعات قليلة من المسلمين ، واحاطته بوسائل التحصين .

وقد سجل صاحب الروضتين باعجاب منظراً رائعاً لتحرك الجيش الصليبي ذا اهمية تاريخية كبرى نظراً لدقته ووضوحه ، فقال : « وفي تاسع شعبان جاء الخبر بأن الفرنج ركبوا وتألبوا وهم يسيرون في الساحل

---

١ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٢٦ نقلا عن :
Morgate : Richard The Lion Heart, p. 176

٢ – دلت معركة عكا على تفوق المسلمين في المعارك المكشوفة ، وحسن تعاون رماتهم مع فرسانهم ، كما دلت على تفوق الافرنج في البحر والمعارك البحرية .

بالفارس والراجل ، وعن يمينهم البحر وعن يسارهم الرمل . وكانت الرجالة حولهم كالسور ، وعليهم الكبورة الثخينة والزرديات السابغة المحكمة ، بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون ، وهم يرمون بالزنبورك فتجرح خيول المسلمين وغيرهم . ولقد شاهدتهم وفي ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة مغروزة وهو يسير على هيئته من غير انزعاج ، ثم قسم اخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم ، فاذا تعب هؤلاء المقاتلة أو اثخنتهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح واستراح القسم المقاتل ، هذا والخيالة في وسطهم لا يخرجون عن الرجالة الا في وقت الحملة لا غير . وقد انقسموا ايضاً ثلاثة اقسام : الأول الملك العتيق جفري وجماعة الساحلية معه في المقدمة ، والانكبار والفرنسيسية معه في الوسط ، وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة اخرى في الساقة ، وفي وسط القوم برج على عجلة ، وعلمهم على ما وصفت من قبل يسير ايضاً في وسطهم على عجلة كالمنارة العظيمة ، وساروا على هذا المثال ، وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين ، والمسلمون يرمونهم من جوانبهم بالنشاب ، ويحركون عزائمهم حتى يخرجوا ، وهم يحفظون في نفوسهم حفظاً عظيماً ، ويقطعون الطريق على هذا الوضع ، ويسيرون سيراً رفيقاً ، ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر الى ان أتوا المنزل فنزلوا . وكانت منازلهم قريبة لأجل الرجالة فان المستريحين كانوا يحملون اثقالهم وخيمهم لقلة الظهر عليهم . فأنظر الى صبر هؤلاء القوم على الاعمال الشاقة . [١] »

ومع ذلك فما لبث الفريقان ان التحما امام أرصوف ، في الرابع عشر من شعبان ٥٨٧ هـ ٧ أيلول سبتمبر ١١٩١ م ، بعد أن خلا

١ – كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٠

المسلمون حيفا وخربوا قيسارية فاحتلها الصليبيون دون أن ينتفعوا منهما بشيء . وكانت المعركة التي دارت في أرصوف شديدة على جيش المسلمين، فمزقته وبددت شمله ، مع انه كان البادىء بالهجوم .

وكانت المعركة في البدء غـــارة خاطفة على الساقة الصليبية ، ثم تطورت الى هجوم تطويقي على الجيش الصليبي كله . وكانت خطة الفرنجة في الغارات السابقة الدفاع المنتظم دون خروج الجنود أو الفرسان عـن الصفوف ، بعد أن جعل ريشارد على طول الجناح البري من هذا الجيش عجلاً يحمل رماة الزنبورك ومهمتهم حماية جيشه من سهـــام المسلمين ولكن خطة الجيش اختلفت هذه المرة ، عندما اشتد ضغط المسلمين على كتائبه ، وقذف صلاح الدين بنفسه بين صفوف الطلائع في جماعة مـن خيالته الفدائيين ، فـــلم يعد فرسان الفرنجة يطيقون الحفاظ على الخطة السابقة ، وخشي ريشارد ان يخرجوا عـــن طاعته ، فأمر بالهجوم ، فحمل الفرسان جملة واحدة من الجوانب كلها ، ففوجىء المسلمون وتراجعوا أمامهم [1]

وقد تفرق جند المسلمين خلال هذه الموقعة وتشتت فرسانهم ، وقتل منهم اثنان وثلاثون اميراً وأكثر من سبعة آلاف جندي ، وكاد يقضى عليهم جميعاً لولا توغلهم في غابة كثيفة الشجر ملتفة الأغصان ، وتوقف الصليبيين عـن ملاحقتهم ، حين لم يتمكنوا من معرفة عددهم ولا تبيان خطتهم ، هـل هي هزيمة أم كمين أم هجوم جديد [2] ، ولولا الشجاعة الفريدة التي ابداهـــا صلاح الدين الذي ، ثبت الى أن اجتمع عليه

---

١ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٧١ - ٢٧٤

٢ – الكامل ج ١٢ ص ٤٥


ELLACOTT

المسلمون [١] ، وكان كما يقول ابن شداد « يطوف من الميمنة الى الميسرة يحث الناس على الجهاد ، ولقيته مراراً ليس معه الا صبيان يجنبه لاغير، ولقيت أخاه وهو على مثل هذه الحال ، والنشاب يتجاوزهما [٢] »

وكان انتصار الصليبيين في أرصوف بعد انتصارهم في عكا ، مبعث أمل جديد لهم قوى معنوياتهم وثبت أقدامهم ، في حين كان مدعاة ألم شديد للمسلمين [٣] ، وقال ابن شداد ان صلاح الدين « كان في قلبه من تلك الوقعة ما لا يعلمه الا الله تعالى ، والناس بين جريح الجسد وجريح القلب [٤] »

على أن كارثة اخرى كانت تنتظر المسلمين عند عسقلان ، فقد أراد صلاح الدين أن يحشد قواته فيها وحولها كما فعل في عكا ، ليتخذ منها قاعدة لمعركة فاصلة يستعيد فيها هيبته ويعيد للمسلمين ما فقدوه من أراضيهم ومعنوياتهم ، ولكن امراءه خالفوا رأيه ، وصارحوه بقولهم : « ان أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار ، وإلا فما يدخلها منا أحد ، لئلا يصيبنا ما أصاب عكا [٥] » ودعوه الى ترك الساحل واتخاذ خط دفاعي داخل البلاد [٦] !

وقد تألم السلطان من ذلك ، وقرر التخلي عن المدينة ، ولكن راعه

---

٣ — السلوك ج ١ ص ١٠٥

٢ — النوادر السلطانية ص ١٧٥ ، انظر ايضاً Saladin Le plus pur Héros de l'Islam. p. 294

٣ — Grousset ; Hist. des Croisades. III, p. 71

٤ — النوادر السلطانية ص ١٧٧

٥ — الكامل ج ١٢ ص ٤٦

٦ — الناصر صلاح الدين ص ١٤٥

أن تقع في أيدي الفرنجة «فيقتلوا من بها من المسلمين ، ويأخذوا بها القدس الشريف ، ويقطعوا بها طريق مصر [1] » فعمد الى هدمها واحراقها بعد أن أخرج الناس منها [2] ، وكانت «بلداً نضراً خفيفاً على القلب ، محكم الأسوار ، عظيم البناء ، مرغوباً في سكناه ، فلحق النـاس عليه حزن عظيم ، وعظم عويل أهله على مفارقة أوطانهم [3] » ثم هدم اللد والرملة للغرض نفسه [4] . وكان يقول وهو يرى تلك الحصون تتداعى تحت معـاول جنوده : «والله لأن أفقد أولادي بأسرهم ، أحب اليّ من أن أهدم حجراً واحداً [5] ...» ثم مضى الى القدس لعلمه انها مقصد الافرنج الأول .

غير ان زحف ريشارد الى القدس كان بطيئاً ، فبعد ان احتل عسقلان [6] سار الى يافا وشرع في تعمير الخراب الذي احدثه صلاح الدين فيها ، بعد ان حطم مقاومة سكان يافا ومن بقي في عكا . ولما وصل قلب الاسد الى مشارف القدس ، رأى ان السلطان قد أحكم تحصينها وأعدّ عدّته للدفاع عنها وأفسد الآبار القريبة منها ، فعاد الى اللـد لمتابعة مفاوضات الصلح . وكانت هذه المفاوضات قد بدأت حوالي آخر

---

١ – النوادر السلطانية ص ١٧٨

٢ – السلوك ج ١ ص ١٠٦ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٢

٣ – النوادر السلطانية ص ١٨٠

٤ – مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧٠ – ٣٧١

٥ – النوادر السلطانية ص ١٧٩

٦ – أرسل كونراد الى الملك ريشارد يلومه على تأخره في احتلال عسقلان قبل ان يهدمها صلاح الدين قائلاً ان السلطان لم يخربها الا لأنه عاجز عن حمايتها «ولو كنت مكانك لأريتك كيف أسرع الى المدينة فأحتلها عنوة ، قبل أن ادع للسلطان فرصة ليفعل بها ما فعل»: Grousset : Hist . des Croisades, III, 73

شهر رمضان سنة ٥٨٧ هـ (منتصف تشرين الاول (اكتوبر) ١١٩١ م) وقد مثل صلاح الدين فيها أخوه الملك العادل ، وكان ريشارد يصر على أن يكون من شروط الصلح اعـادة مملكة بيت المقدس الى الافرنج كما كانت عليه سنة ١١٨٥ ، وكان السلطان يرفض ذلك الشرط اطـلاقاً ، مؤكداً للملك الانكليز ان المسلمين يقدسون القدس مثلما يقدسها المسيحيون، وانهم حريصون على تأمين الحرية الدينية فيها لجميع المواطنين [١] .

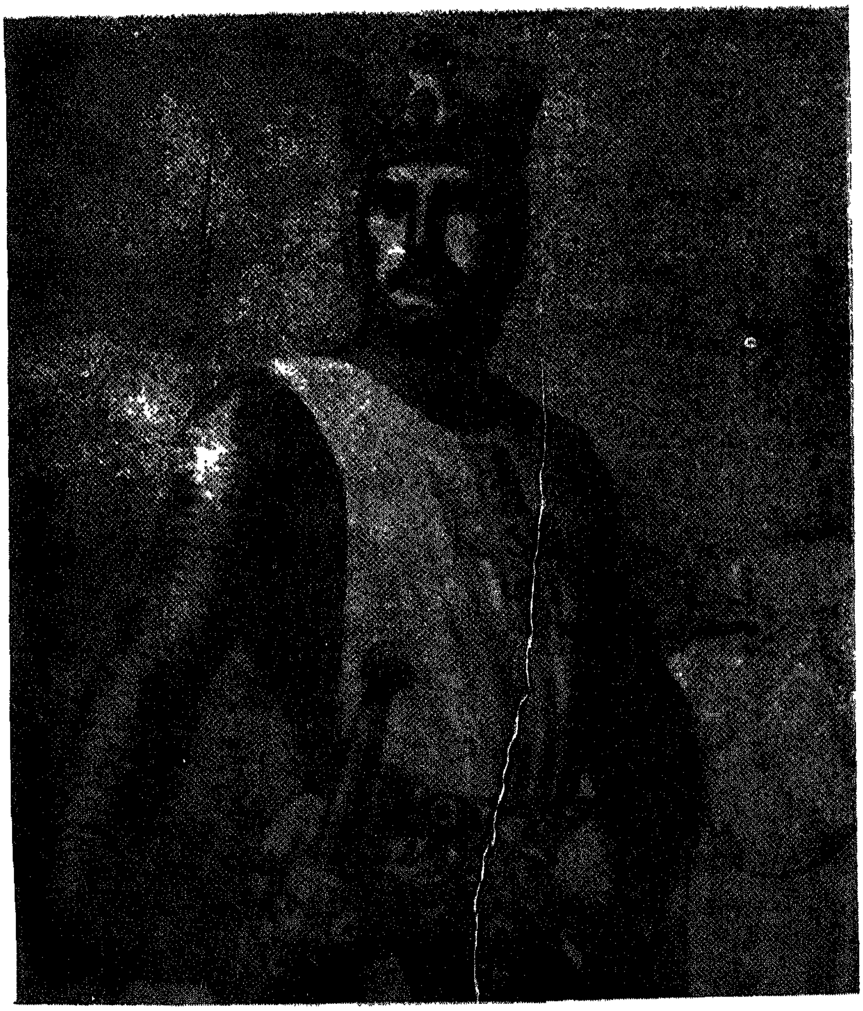
وكان ريشارد يرغب في العودة الى بلاده ، وقد رأى صعوبة احتلال بيت المقدس ، وما عاناه من المتاعب في مسيره من عكا الى يافـــا ، وانقسام الافرنج الذين معه ، وطول الوقت الذي قضاه قومه لاحتــلال عكا ، فتقدم بعرض جديد للصلح من شأنه أن يصون كرامة الفريقين ، ومن شروطه ان يتزوج الملك العادل الأميرة جوانا اخت ريشارد وأرملة ملك صقلية ، وأن يتنازل السلطان لأخيه عـن البلاد الساحلية الـــتي احتلها ، كما يتنازل ملك الانكليز عن المدن التي افتتحها كصداق لأخته، وأن تكون القدس ملكاً للزوج والزوجة بوصفهما محايدين ، فيفتحـــا ابوابها للمسيحيين والمسلمين على السواء « ويرضي العـــادل مقدمي الفرنج والداوية والاسبتارية ببعض القرى ولا يمكنهم من الحصون [٢] »

وقد عرضت هذه الشروط على صلاح الدين الأيوبي فوافق عليها رغبة في حقن الدماء واقرار السلام ، غير ان رجال الدين من الفرنجة قاوموا ذلك ، وما زالوا بالأميرة جوانا حتى رفضت هذا الزواج ، وان كان من رأي أخيها قلب الاسد ان الملوك اذا لم تجمعهم رابطة الدين جمعتهم

---

١ — مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧٣ Saladin Le plus pur Héros de l'Islam, p. 292

٢ — الفتح القسي ص ٣٠٩ ، المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ٨٤



ريشارد قلب الاسد

علائق المجد [٢] .

ويؤكد العماد وابن شداد ان صلاح الدين قد وافق على ذلك الزواج ورضي بتلك الشروط ، كما رحب به الملك العادل [٢] ، ويعلق سيد أمير علي على هذا المشروع بقوله « لو سمح الكهنة ورجال الدين بهذا الزواج، لكان بلا نزاع القنطرة التي سار عليها السلام بين المسلمين والمسيحيين الى اليوم [٣] »

والمؤرخون من شرقيين وغربيين متفقون على ان كلا من ريشارد وصلاح الدين كان معجباً بالآخر [٤] وكثيراً ما كانا يتبادلان الهدايا ، وعلى ان السلطان لما علم بمرض خصمه إشتد قلقه عليه وأرسل اليه طبيبه الخاص فعالجه وشفاه ، وكان ما يفتأ يسأل عنه ليطمئن على صحته ، ولا صحة لما روته الأساطير عن مقابلاتهما ومبارزاتهما الفردية ، وانقاذ رجال صلاح الدين الملك الانكليز من مؤامرة أعدّها جماعة من الصليبيين لاغتياله ، وتنكر صلاح الدين في زي طبيب لزيارة رشارد ومعالجته

---

١ — كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٠٣ ، Saladin Le plus pur Héros de L'Islam, pp. 300 - 301

٢ — الفتح القسي ص ٣٠٩ ، النوادر السلطانية ص ١٨٩

٣ — مختصر تاريخ العرب ص ٣٢١

٤ — يذهب بعض المؤرخين الغربيين الى ان المودة التي كانت تسود علاقات صلاح الدين وريشارد » انما ترجع الى علاقة غرامية كانت قد نشأت بين اليانور زوجة لويس السابع وصلاح الدين في عهد الحملة الصليبية الثانية ، وكانت هذه العلاقة الباعث على طلاق ايليانور بعد عودتها الى فرنسة وزواجها من هنري الثامن ملك انكلترا ، وكان ريشارد ثمرة هذا الزواج ، وقد شعر صلاح الدين بالعطف عليه استمراراً لعلاقته الغرامية بوالدته . ومن الواضح ان هذه الاسطورة انما هي من نسج خيال مؤلفيها ، لأن صلاح الدين كان في عهد الحملة الصليبية الثانية فتى في الثالثة عشرة من عمره ، وكانت العلاقة الغرامية التي اشتهرت بها اليانور وكانت سبباً في طلاقها من لويس السابع ، هي علاقتها بريموند الثالث صاحب انطاكية كما ذكرنا في الفصل الخامس ؟؟ (انظر التاريخ الحربي المصري ص ٢٩٧ - ٢٩٨)

لأنه أسف عليه ان يموت على فراشه بغير موت الأبطال فقال له وهو يسقيه الدواء : « أنت تشفيني من دائي وأنت طبيب عدوي الألد ، هل فعل هذا الفعل سلطان ، وهل بلغت المروءة هذا الحد ! »

والواقع ان ريشارد قد رغب في الاجتماع بصلاح الدين ، فأبى هذا تحقيق رغبته على كره منه ، لأن الملوك في رأيه اذا اجتمعوا لم يصح ان يتقاتلوا بعد ذلك ، وطلب الاتفاق على قاعدة سلمية أولاً « وعند ذلك يكون الاجتماع الذي يعقبه الوداد والمحبة [1] ، ولكن قلب الاسد اجتمع مع العادل مرات ، وكانا يجتمعان على تواد ومحبة فتمكنت الصداقة بينهما وأعجب كل منهما بالآخر ، وكانا يتجاذبان الحديث في سمر ودعابة وقد نسيا انهما في حرب ضروس

وقد دعا ريشارد الملك العادل الى مأدبة فخمة أقامها على شرفه في المعسكر الصليبي ، وقابله العادل بدعوة مماثلة ، وطلب قلب الأسد من مضيفه أن يسمعه شيئاً من الغناء الشرقي فدعا الى المأدبة مغنية تضرب بالعود ففتنتها بارع الألحان [2] ، كما أقام ريشارد حفلة رسمية أنعم فيها على الملك الكامل ابن العادل برتبة الفروسية [3] .

---

١ – النوادر السلطانية ص ١٩٥
٢ – الكامل ج ٢ ص ٤٧ ، مفرج الكروب ج٢ ص ٣٧٤ ، النوادر السلطانية ص ١٩٥
٣ – تاريخ العرب لحتي وزميليه ج ٢ ص ٧٧١

الفصل الحادي والعشرون

السيف .. والكلمة الطيبة

بينما كان ملك الانكليز مقيماً في عسقلان منصرفاً الى بناء أسوارها من جديد ، كانت الانباء تنقل اليه ان الثورات قد نشبت في بلاده ، وأن أخاه يطمع في الاستيلاء على عرشه ، وان ملك القسطنطينية قد أوفد رسله الى صلاح الدين ليبرم معه معاهدة سلام وصداقة ، وعلم ان الفرنسيين والانكليز في عكا يتقاتلون فيما بينهم ، وان كونراد دى مونتفرات يفاوض السلطان ليعقد معه صلحاً منفرداً يكون من شروطه أن يعطيه المسلمون صيدا ، وان يحارب الى جانبهم جيوش الصليبيين[١]، ويلقي القبض على ريشارد ويسلمه الى صلاح الدين[٢] ، ولكن السلطان لم يكن واثقاً من صدق نيته ، فاشترط عليه أن يبدأ بحرب الفرنج ومهاجمة عكا قبل ان يصالحه ، وكان صلاح الدين في الواقع اميل الى مصالحة كونراد لأنه اذا بقي في الساحل كان اقل خطراً من ريشارد[٣]

---

١ – النوادر السلطانية ص١٩٧ ، Saladin Le Plus pur Héros de L'islam, p. 302

٢ – jorga ; Hist. des Croisades, p. 134

٣ – Grousset ; Hist. des Croisades, III, P. 59

وعلى اثر ذلك جمع ريشارد أمراء الفرنجة وطلب منهم أن يختاروا ملكاً غيره لأنه لن يستطيع البقاء في الشرق طويلاً ، فاختاروا كونراد (المركيس) ملكاً عليهم . وهو خصمه ومنافسه ، وأذعن ريشارد لما قرروا .

ولكن لم تمض اسابيع معدودة حتى قُتل كونراد غيلة بيد أحـــد الحشاشين ، في فراشه بمدينة صور يوم ١٧ ربيع الثاني ٥٨٨ هـ ٢٧ نيسان (ابريل) ١١٩٢ م ، وقيل ان ريشارد هو الذي اغرى رئيس الطائفة الاسماعيلية في مصياف بقتل حليفه الخارج عليه ، فارسل اليه اثنين من اتباعه فنزلا عليه ليلاً وقتلاه [١] كما قيل ان اللذين قتلاه هما من رجاله وقد دسهما عليه ريشارد فدخلا عليه في زي الرهبان واغتالاه [٢] .

وعلى اثر مقتل كونراد بسط قلب الاسد نفوذه على صور ، واختار لعرش المملكة الصليبية هنري دى شمبانيـــا (الكندهرى) الذي يمت بصلة القرابة اليه والى ملك فرنسة معاً ، وبادر بعقد قران هنري عـلى الاميرة ايزابيل وريثة العرش بعد مصرع زوجها بيومين [٣] أما غي دى لوسينيان حليف ريشارد فقد عوّض قلب الأسد عليه ، بأن وهبه جزيرة قبرص [٤] وكان قد باعها من قبل الى فرسان المعبـــد بمائة الف بيزانت ثم عدل هؤلاء عن هذه الصفقة حين ثار القبرصيون بهم ، وطالبوا

---

١ — الفتح القسي ص ٣٣٠ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٦ ، مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٨٢ ، مختصر تاريخ العرب ص ٣٣٢ ، Iorga : Hist. des Croisades, p. 135

٢ — ذيل النوادر ص ٣٠٣

٣ — تذهب المراجع العربية الى ان هذا الزواج قد تم في نفس اليوم الذي قتل فيه كونراد وأن ارملته كانت حاملاً (انظر الفتح القسي ص ٣٣٠ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٦).

٤ — استمر حكم اسرة لوسينيان لجزيرة قبرص منذ تلك السنة حتى سنة ١٤٧٢ م .

ريشارد باعادة مـــا أخذه مقدماً من قيمة الجزيرة ، وهو ستون الف بيزانت ، فتعهد لوسينيان بدفع هذا المبلغ .

ويبدو ان ريشارد قرر أن يقوم بمحاولة اخيره لاستعادة بيت المقدس، وقـد قوّى مقتل كونراد مركزه وشجعه على وقف مفاوضات الصلح ، فاتفق مع هنري دي شمبانيا على المسير اليهـا ، وبدأت جيوشهم تدنو منهـــا والمسلمون يتعرضون لهم في كل منعطف ويكمنون لهم تحت كل رابية [1] .

ولكن محاولته هذه كانت تنقصها العزيمة والاقـدام والرغبة الصادقة والاستعداد لخوض معركة كبرى قـد تستمر سنتين او ثلاث سنوات ، وكان قد فقد هذه الدوافع جميعا ، فأخذ يؤخر الزحف الى القدس ، ويتباطأ فيه ، ويهوّل أمره على أصحابه يريد أن يصرفهم عنه ، لأنه لا يريد أن يغادرهم وهم يخوضون هذه المعركة الفاصلة من دونه ، ويخشى ان هم خاضوها وهو الى جانبهم أن تستغرق من الوقت مثل ما استغرقته معركة عكا وأن يُحشد لها ما حشد تلك من رجال وأموال ومعدات ، حتى استطاع ان يثنيهم عن هذه المحاولة ، فارتدوا عن القدس وقـــد اصبحوا على مرمى السهم منها دون أن يخوضوا مع حاميتها أية معركة [2] .

الا ان شعور ريشارد بعجزه عن احتلال القدس قد حمله على القيام باعمال انتقاميه ، بقطع الطريق بين مصر والشام ، نظراً لسيطرته على عسقلان والداروم ، فاعتدى على عدد من القوافـــل وأحرز كثيراً من

---

١ – مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٨٢

٢ Saladin Le plus pur héros de L'islam, p. 304

المغانم [1] ، ومن هذه المغانم عدا الأسرى والأموال أربعة آلاف وسبعمائة جمل والف وخمسمائة حصان ومثلها من البغال والحمير ، وبذلك تضاعفت قوة الصليبيين ماديا ومعنويا ، وصح عزم امرائهم مجدداً على احتلال القدس [2] .

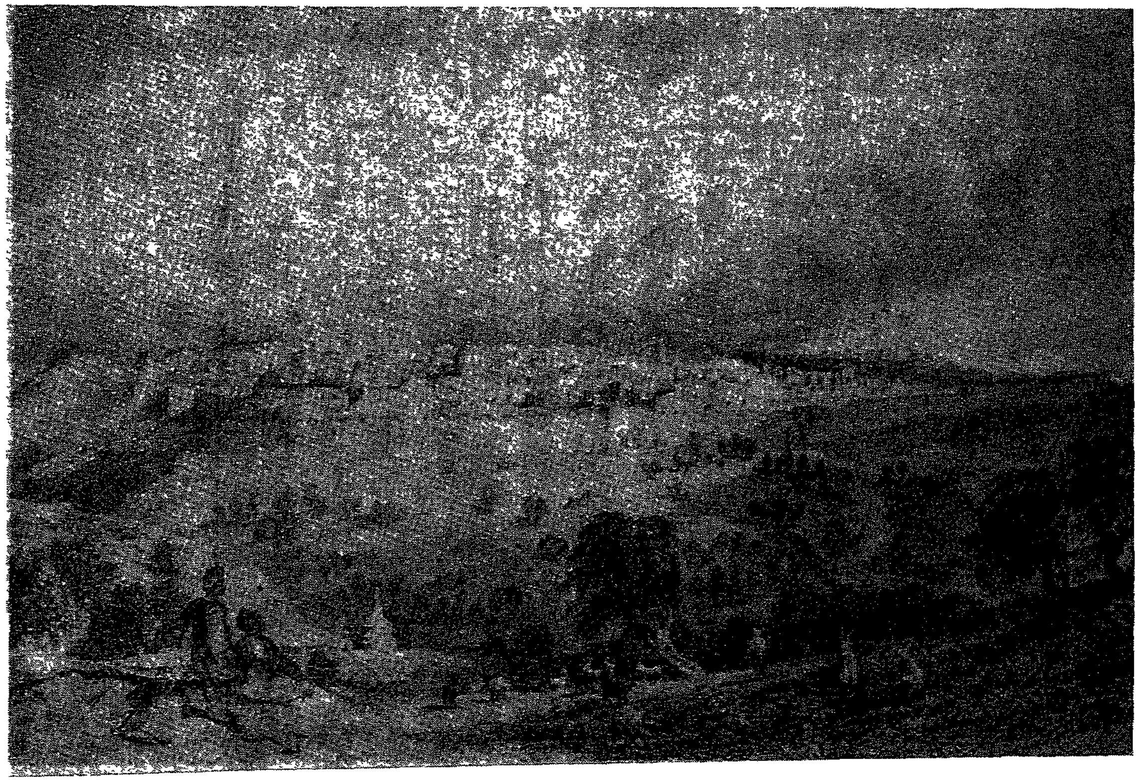
الا ان ريشارد عارضهم في ذلك ووصفهم بالجنون ، وقال : « هذه مدينة لا يمكن حصرها وصلاح الدين حي وكلمة المسلمين مجتمعة [3] ، وكي لا يتوهم اولئك الامراء بأنه قد جبن عن خوض المعركة ، أكد لهم بانه مستعد لمشاركتهم فيها ولكن كأحد افراد الجند لا كقائد لهم ! ولما أقنع امراء الصليبيين بالامتناع موقتاً عن مهاجمة القدس ، وعدهم بالعودة الى هذه المحاولة في العام المقبل ، الا انه اخذ يفكر بدلاً من ذلك في الاستيلاء على مصر ، ولا سيما حين رأى الثروة الضخمة التي كانت تحملها القافلة المصرية التي اعتدى عليها . وذهب قلب الأسد بعد ذلك الى عكا ليجهز حملة لفتح بيروت ، وليعود من ثم لغزو مصر .

ومما يدعو الى الدهشة ان رسل ملك الانكليز لم تنقطع خلال ذلك في طلب الصلح ، وان لهجته كانت تعتدل مع الايام وشروطه تزداد لينا وتهاونا ، مظهراً رغبة شديدة في حقن الدماء ونشر السلام . وقد أرسل الى صديقه الملك العادل كي يتوسط بينه وبين أخيه ، ويقنعه باقرار الصلح .

وقد دهش ابن شداد لبراعة ملك الانكليز في المفاوضة فقال : « فانظر

---

١ - كتاب الروضتين ج٢ ص ١٩٨ ، السلوك ج ١ ص ١٠٩ ، النوادر السلطانية ص ٢٠٨
٢ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٨٨
٣ - الكامل ج ١٢ ص ٣٨



مشهد عام لمدينة القدس عن لوحة قديمة

الى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين تارة والخشونة أخرى » الى ان يقول عنه : « فما بلونا أعظم حيلة ولا أشد اقداماً منه [١] » وقد سبق لابن شداد أن قال عنه معجباً : « انه عظيم الشجاعة قوي الهمة وله جسارة على الحروب [٢] »

وكان العرض الجديد الذي تقدم به ريشارد أن يحكم هنري دى شامبانيا ابن أخت قلب الأسد ، مملكة بيت المقدس ، ولكن تحت حماية المسلمين ، فيكون هو وجيشه تحت إمرة صلاح الدين وطاعته « ولو استدعيتهم الى الشرق سمعوا وأطاعوا » وأجابه صلاح الدين : « اذا دخلت معنا هذا المدخل لما جزاء الأحسان الا الاحسان ان ابن اختك يكون عندي كبعض اولادي [٣] »

ثم تنازل ريشارد عن المطالبة بالسيطر السياسية على بيت المقدس ، واكتفى بالتمسك بحق الصليبيين في حماية الأماكن المقدسة ، ولم يفت ملك الانكليز أن يخاطب مشاعر صلاح الدين الانسانية ، فقال ما معناه : « ان جماعة من الرهبان والمنقطعين ، قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها ، وانا اطلب منك كنيسة القيامة ، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك مما كان يجري في المراسلة مع الملك العادل تركتها وأعرضت عنها ، ولو أعطيتني مقرعة أو خربة رضيت بها [٤] » . فوافق صلاح الدين على ذلك « وأما بقية البلاد فنقسمها ، فالساحلية التي بيدك تكون بيدك ، والذي بأيدينا من القلاع الجبلية يكون لنا ، وما بين العملين

---

١ – النوادر السلطانية ص ٢١٨
٢ – المرجع السابق ص ١٤٤
٣ – كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٠٠
٤ – النوادر السلطانية ص ٢١٦

يكون مناصفة ، وعسقلان وما وراءها يكون خراباً لا لنا ولا لكم [1] »

إلا أن المفاوضات تعثرت حول عسقلان التي رفض قلب الأسد التنازل عنها لتعبث بهـا أيدي الخراب ، فانتهز صلاح الدين مسيرة ريشارد الى بيروت وسار هو الى يافا « فحاصرها ولم يزل يقاتل من فيها من الفرنج الى أن اخذ البلد عنوة وغنم الناس منهـا شيئاً عظيماً [2] » بعد معارك عنيفة أبدى فرنجة فيها بطولة رائعة « ورأى الناس هولاً عظيماً من صبر القوم وثباتهم ، وسداد حركاتهم وسكناتهم [3] »

ولكن سفن الفرنجة كانت تتوافد الى يافا لنجدة من فيها ، حتى بلغ عددها نيفاً وخمسين سفينة « فقويت - كما يقول ابن شداد - نفوس الباقين في الحصن وظهرت عليهم امارات العصيان ودلائله ، وخرج منهم مـن أخبرني بتشويش عزمهم ، وأخذوا الطارقيات والجنويات وعلوا عـلى الأسوار ، وكانت القلعة جديدة لم تشرف بعد ، فلما رأيت الأمر قـد آل الى ذلك نزلت من التل الذي كنت واقفاً عليه وهو ملاصق لباب القلعة وقلت لعز الدين جرديك وهو مع عسكره في الاسفل مع جمـع من الأجناد : خذوا حذركم فقـد تغيرت عزائم القوم ! فما كانت الا ساعة بحيث صرت خارج البلد في خدمة الملك الظاهر ، الا وقد ركب القوم خيلهم وحملوا من القلعة حملة الرجل الواحد ، وأخرجوا من كان في البلاد من الأجناد [4] »

---

١ - المرجع السابق ص ٢١٧
٢ - السلوك ج ١ ص ١١٠
٣ - النوادر السلطانية ص ٢٢١
٤ - المرجع السابق ص ٢٢٥

وهكذا تجدد القتـــال مرة اخرى ، وانتصر المسلمون من جديد ، فدخلوا البلد وحصروا جنود الفرنجة في القلعة ، واستبطأ هؤلاء الجنود نجدة المراكب ، فجددوا المفاوضة في الصلح . وكان رجـال المراكب الفرنجية ، وعلى رأسهم ريشا د قلب الاسد ، قد امتنعوا عن الاشتراك في المعركة لظنهم ان البلد قد أخذ والقلعة قد سلمت ، فوثب احـــد فدائيي الفرنجة من فوق أسوار القلعة الى الميناء « وكانت رملا فـــلم يصبه شيء ، واشتـد عدواً حتى أتى البحر فخرج له شاني وأخذه الى شاني الملك فحدثه بالحديث ، فلما شعر الانكتار أن القلعة مع أصحابه اندفع يطلب الساحل ، وكان أول شاني ألقى من فيه بالبر شانيه وكان أحمر ورقبته حمراء وبيرقه أحمر ، فما كانت الا ساعة حتى نزل كل من في الشواني الى الميناء »

ويتابع ابن شداد وصف هذه المعركة فيقول : « ثم حملوا على المسلمين فاندفعوا بين ايديهم وأخرجوهم من الميناء ، وكان تحـتي فرس فسقته الى السلطان ، واخبرته الخبر ، وبـــين يديه الرسولان (اللذان جاءا يطلبان الصلح والأمان) وقد أخذ القلم بيده ليكتب لهم الامـــان ، فعرّفته في أذنه ما جرى ، فامتنع من الكتابة وشغلهم بالحديث ، فما كان الا ساعة حتى فر المسلمون نحو السلطان [١] » فأمرهم بالانكفاء .

وكاد ريشارد يؤخذ أسيراً في احدى ضواحي يافا لولا ان افتداه احد فرسانه المخلصين ، حين هرع الى الساحة وهو يصيح « انا الملك ! » فأسر بـــدلاً منه . وقتل جواد قلب الأسد في احدى هذه المعارك ، فحارب راجلاً ، واخذ يضرب ذات اليمين وذات الشمال بفأسه الداغركية

---

١ — النوادر السلطانية ص ٢٢٦

التي اشتهر بها والتي يقال انه ضرب بهـــا أحد المقاتلين فشطر جسمه شطرين من رأسه الى خصره ولم تنقـــذ القتيل درعه الفولاذية من تلك الضربة الرائعة . وبينا ملك الانكليز يقاتل راجلاً ، اذا بصرخة ترتفع من معسكر المسلمين ، ونادى المنادون : « تفرقوا عـــن ملك الافرنج يا رجال ! » وشق الصفوف فارس يعدو نحوه عـلى جواد أصيل وهو يجر معه جواداً آخر ، وقدم الجوادين لريشارد ، معلناً ان صلاح الدين قد رأى الملك راجلاً فبعث اليه بهذين الجوادين الأصيلين ، لـكي يواصل القتال وهو راكب إذ لا يليق في رأيه ان يحارب بطل شجاع مثله وهو واقف على قدميه !..

وفي يافا عاود المرض ريشارد قلب الاسد ، واشتدت رغبته في العودة الى بلاده ، وقد أدهشه وبعثه على القنوط أن يستطيع المسلمون اقتحام يافا في أيام معدودة بعد أن حشد فيها القوى اللجبة وقضى شهوراً عدة وهو يجدد أسوارها ويعزز دفاعها ، ورأى ان الانتصارات التي أحرزتها الحملة الصليبية الثالثة على صلاح الدين خلال ثلاث سنوات اشترك فيهـا خمسمائة أو ستمائة الف صليبي [1] وقضى من أجلها ما لا يقل عـــن مائة وعشرين الف ضحية منهم [2] انما كانت انتصارات جزئية محلية لم تنل من مملكة صلاح الدين الشامخة الصرح الراسية الأساس المترامية الاطراف التي تحيط ببقايا المستعمرات الصليبية من كل مكان ، ولولا ان المجاعة قد اجتاحت سكان عكا لاستمرت مقاومتها سنين أخرى وربما تحولت هزيمتهـا الى انتصار ، وقد تتاح لريشارد أن يسجل انتصارات جزئية أخرى ولكن

---

١ – خطط الشام ج ٢ ص ٧٢

٢ – Saladin Le plus pur héros de L'islam, p. 284

من الصعب أن ينتصر عـلى صلاح الدين انتصاراً حاسماً وهو في وسط بلاده تتجدد قواه ولا تنقطع موارده ، ولا بد قبل لرحيل من الاتفاق معه وانتزاع وعد منه بوقف القتال ، لئلا يفقد الفرنجة بعد سفره البقية الباقية من ممتلكاتهم ، ويتبين للقارة الاوربية ان المجد الذي بناه لها في المشرق انما بني على رمال !.

يقول جون لامونت : « ولا ريب ان احزان ريشارد لفشله في احتلال القدس ، كانت منبعثة من شعوره بالخزي لعدم تمكنه من الوصول الى هدفه ، ولم تكن صادرة عن عدم تمكنه من انقـاذ قبر المسيح » والواقع ان ريشارد قلب الاسد وفيليب اوغست لم يكونا « مدفوعين بالدين مثل اندفاعهما برغباتهما لكسب المجد عن طريق الحرب في الشرق[1] »

وكان جواب صلاح الدين لقلب الاسد إذ عـاد الى طلب الصلح : « انك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة ، وكان الحديث في يافـا عسقلان ، والآن قد خربت يافا فيكون لك من صور الى قيسارية » فعاد الرسول يقول للسلطان : « يقول الملك ان قاعدة الافرنج انه اذا أعطى واحد واحد بـلداً صار تبعه وغلامه ، وأنا أطلب منك هذين البلدين : يافا وعسقلان ، وتكون عساكرهمـا في خدمتك دائماً ، واذا احتجت اليّ وصلت اليك في أسرع وقت ، وخدمتك كما تعلم خدمتي » فأجاب السلطان : « حيث دخلت هذا المدخل فأنا اجيبك بأن تجعـل هذين البلدين قسمين : أحدهما لك وهو يافا ومـا وراءها ، والثاني لي وهو عسقلان وما وراءها[2] »

---

١ – دراسات اسلامية ص ١٠٣

٢ – النوادر السلطانية ص ٢٢٧

وعادت رسل قلب الأسد بهذا الجواب ، وانتقل السلطان بعسكره الى الرملة ، فوافاه رسول ريشارد اليهـــا شاكراً له اعطاءه يافا ويلحّ في طلب عسقلان ، مؤكداً رغبته في السفر الى بلاده ، وأنه اذا اقرت مبـادىء الصلح لم يعد في حاجة الى قضاء الشتاء في الشرق ، واجاب صلاح الدين جواباً بارعاً طريفاً يصور أبعاد الوضع السائد بين الفريقين ، فقال : « أما النزول عن عسقلان فلا سبيل اليه ، وأما تشتيته هنا فلا بد منها لانه قد استولى على هذه البلاد ويعلم انه متى غاب عنها أخذت بالضرورة ، كما تؤخذ أيضاً اذا أقام ان شاء الله تعـــالى . واذا سهل عليه ان يشتي ها هنا ويبعد عن أهـله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب في عنفوان شبابه [1] ووقت اقتناص لذاته ، أفلا يسهل عليّ أن أشتي وأصيّف وأنا في وسط بلادي ، وعنـدي أولادي وأهلي ، ويأتي اليّ ما أريد ، وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عني ، والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غير العسكر الذي يكون عندي في الصيف ، وأنا اعتقـــد اني في أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء !.. [2] »

وتوقفت بذلك مفاوضات الصلح ، ووصلت صلاح الدين أمداد جديدة من مصر والشام والجزيرة ، فجمع مجلس شوراه وقـال لهم : « ان الانكتار قد مرض مرضاً شديداً والافرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك ونفقاتهم قـــد قلت ، وهذا العدو قد أمكن الله منه ، وأرى أن نسير الى يافا ، فان وجدنا فيهـا مطمعاً بلغناه والا

١ – كان ريشارد في الخامسة والثلاثين من عمره وصلاح الدين في الخامسة والخمسين (السادسة والخمسين بالسنين الهجرية)
٢ – النوادر السلطانية ص ٢٢٨

عدنا تحت الليل الى عسقلان ، فما تلحقنا النجدة الا وقد نلنا منها غرضاً [١] »

وخلال هذا الوقت كانت « رسل الانكتار لا تنقطع في طلب الفاكهة والثلج ، ووقع عليه في مرضه شهوة الكمثرى والخوخ ، فكان السلطان يمده بذلك ، ثم جاء رسول يشكر للسلطان انعامه بالفواكه والثلج ، وذكر الحاجب ابو بكر العادلي ان الرسول انفرد به وأبلغه أن قلب الاسد قال له : « قل لأخي الملك العادل يبصر كيف يتوسل الى السلطان في معنى الصلح ، وأمضي أنا ويبقى هو في هذه الشرذمة اليسيرة يأخذ البلاد منهم ، فليس لي غرض الا اقامة جاهي بين الافرنج ، وان لم ينزل السلطان عن طلب عسقلان فيأخذ لي منه عوضاً عن خسارتي على عمارة سورها [٢] »

وهكذا عاد ريشارد الى الحديث عن الصلح ، وتراجع عن تمسكه بعسقلان ، ورضي بأن يعوّض عنها إذا أصر السلطان على أمرها ، ولكن صلاح الدين رفض قبول التعويض أيضاً ، وتنازل قلب الأسد عن طلبه هذا .

يقول البير شامبدور : « وهكذا املى صلاح الدين بالرغم من خسارته في عكا وعسقلان ويافا ، المعاهدة التي كان يستطيع فرضها لو كان هو الغالب المنتصر [٣] »

---

١ – المرجع السابق ص ٢٣٢

٢ – المرجع السابق ص ٢٣٣

٣ – Saladin Le plus pur Héros de l'Islam . p. 330

وتم عقد الصلح في ٢٢ شعبــان سنة ٥٨٨ هـ ٢ ايلول (سبتمبر) ١١٩٢ م ، ومثل صــلاح الدين فيه ولداه الملك الافضل والملك الظاهر واخوه الملك العادل ، وناب عــن ريشارد قلب الاسد في التوقيع على الاتفاقية هنري دى شامبانيا (الكندهري) وباليان الثاني دى ابيالين (باليان بن بارزان) واونفروا الرابع دى تورون

وقضت اتفاقية الصلح بأن يسود السلام بـين الفريقين ثلاث سنوات وثلاثة اشهر ، وبأن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف ، وتبقى صيدا وبيروت وجبيل للمسلمين، وتكون عسقلان مدينة غير مسلحة في ايدي المسلمين ، في حين تكون الرملة واللد مناصفة بـين المسلمين والصليبيين ، وان يكون للمسيحيين حرية الحج الى بيت المقدس دون مطـالبتهم بأية ضريبة ، واشترط صلاح الدين أن تشمل المعاهدة بـلاد الاسماعيلية ، كما اشترط ريشارد ان تشمل انطاكية وطرابلس ، ورضي الاسبتارية والداوية وسائر مقدمي الفرنجة بذلك ، وأعلن صلاح الدين « ان الصلح قد انتظم ، فمن شاء من بلادهم ان يدخل بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا ان يدخل بلادهم فليفعل » فابتهج الجميع « وكان يوماً مشهوداً عم فيـه الطائفتين الفرح والسرور لما نالهم من طول الحرب [1] »

يقول سيد امير علي : « وهكذا انتهت الحرب الصليبية الثالثة التي هلك فيها عدد هائل من الناس ، وخرّبت الوف البيوت في المشرق والمغرب على حد سواء ، وفقدت المانية فيهـا واحداً من أعظم اباطرتها ، كما

---

١ – انظر : النوادر السلطانية ص ٢٣٦ ، الفتح القسي ص ٣٤٣ ، مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٠٣ – ٤٠٤ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٠٣ ، السلوك ج ١ ص ١١٠

خسرت فرنسة وانكلترة فيها زهرة فرسانها ، وكان كسبها الوحيد هو الاستيلاء على عكا [١] ، الا ان روم لاندو يرى انه كان « من مجالي الحملة الصليبية الثالثة المميزة نشوء صلات أوثق بين النصارى والمسلمين [٢] » واما البير شامبدور فيقـــول : « هكذا انتهى تجمع الشعوب الرهيب الذي تألفت منه الحملة الصليبية الثالثة ، هذه الحملة التي كرست مجد صلاح الدين وعبقريته ، وأظهرت مـع الأسف ، عجز الفرنجة الذين كانت تفرقهم مصالحهم الجشعة ، أمـام الاسلام الذي سيلقي ظله المتعاظم على قارات أخرى [٣] »

وقد حرص صلاح الدين على أن يتحلى دائمـاً بروح الشهامة والمروءة والتسامح التي ميزت معاملاته مع الصليبيين ، فاستقبـل هوبرت أسقف سالسبوري بالتجلة والتكريم ، ووافق على طلبه بتعيين اثنين من رجال الدين اللاتين في كل من كنيسة القيامة وكنيسة بيت لحم وكنيسة الناصرة، وذلك الى جانب ما كان في تلك الكنائس من رجال الدين الارثوذكس [٤] .

وسرعان مـــا نسي الجميع أحقاد الحرب وكوارثها « واختلط العسكران ، وذهب جماعة من المسلمين الى يافـــا في طلب التجارة ، ووصل خلق عظيم من العـدو الى القدس للحج ، وفتح لهم السلطان الباب ، وأنفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردهم الى يافا [٥] »

ويضيف العماد وابن شداد ان قلب الاسد لما علم بكثرة زوار القدس

---

١ — مختصر تاريخ العرب ص ٣٢٣

٢ — الاسلام والعرب ص ١٢٧

٣ — Saladin Le plus pur Héros de L'islam. p. 231

٤ — الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٩٩ ، تاريخ سورية للمطران الدبس ج ٦ ص ١٣٢

٥ — النوادر السلطانية ص ٢٣٨

من الفرنجة خشي ان يغضب صـــلاح الدين ذلك ، وسيّر الى السلطان يسأله منع الزوار ، واقـترح ألا يؤذن لهم الا بعد موافقته ، وعلمت الافرنج ذلك فعظم عليهم واهتموا في الحج ، فكان يرد منهم كل يوم جموع كثيرة : مقدمون وسوقة وامراء ، وشرع السلطان في اكرام من يرد ومدّ الطعام ومباسطتهم ومحادثتهم ، واعتذر للملك عـن منعهم بأن هؤلاء الحجاج « قد وصلوا من ذلك البعد لزيارة هذا المكان الشريف فلا أستحل منعهم[1] » .

وهكذا كان السيف والكلمة الطيبة يتسابقان في حسم النزاع بـــين الشرق والغرب ، أو بين صلاح الدين وقلب الاسد ، وقد رأينا ان الكلمة الطيبة كانت أفعل في قلبي الرجلين الكبيرين ، وأبعـــد أثراً في تسوية العلاقات بينهما ، فما ان يعمد أحدهما الى امتشاق السيف حـتى يقابله الآخر بسلاح أقوى وعزيمة امضى ، ومـا ان يتقدم ريشارد الى صلاح الدين بطلب مشفوع بكلمة طيبة حتى يجيب سؤله ويحقق طلبه ، ويقابل البادرة الحسنة بأحسن منها . وقد كانت فرحة الفريقين بالصلح ومبادرة كل منهما الى الاختلاط بالفريق الثاني ، في مودة ومحبة وتسامح، دليلاً على ان المشاعر الانسانية التي تأصلت جذورها في تربة السلام ، أقوى وأبقى من المشاعر المفتعلة التي ارتجلتها عاصفة الحرب .

وقد استن صلاح الدين وقلب الأسد بذلك ، سنة اللجوء الى المفاوضات السلمية لحل معضلات الحرب ، وكان لهذه السنة أثرها الحميد في مقبـل الايام .

---

١ — الفتح القسي ص ٣١٧ النوادر السلطانية ص ٢٣٩

الفصل الثاني والعشرون

دينار واحد

ابحر ريشارد من عكا عائداً الى بلاده عن طريق اوربة البري في ٩ تشرين الاول (اكتوبر) ، وفي عداد حاشيته مائة وعشرون شخصاً من مماليك صلاح الدين رغبوا في خدمة قلب الاسد ¹

وأراد الملك العادل أن يرافق صديقه ملك الانكليز ، ليشاطره مخاطر السفر ، ولكن ريشارد رفض ذلك شاكراً ، واكتفى بأن يرافقه مصلي طبيب العادل الخاص .

إلا أن زعيم الحملة الصليبية الثالثة ما لبث ان غرقت سفينته ، واستطاع ان يصل الى الشاطىء سالماً ، ثم توغل في أرض النمسا متنكراً، حتى اكتُشف أمره في احدى الحانات بالقرب من مدينة فيينا في ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١١٩٢ ، فاقتيد الى ليوبولد دوق النمسا الذي اتهمه بقتل المركيز كونراد مونتفرات .

---

١ — Grouset : Hist. des Croisades, III. p 103

وأراد الدوق أن يبيعه فتقدم أعداؤه لشرائه [1] ، الا انه مـا لبث ان سلمه الى هنري السادس امبراطور الدولة الجرمانية المقدسة فبقي في أسره حتى دفـع فدية كبيرة . وقد حزن صلاح الدين لأسر ريشارد وأبدى استعداده لمؤازرته [2]

وقـد اطلق سراح ريشارد قلب الأسد في اذار (مارس) ١١٩٤ ، وظل يقاتل خصومه من الأمراء حتى أصيب بسهم قاتل ، فقضى نحبه في ٢٦ آذار عام ١١٩٩ .

أما صلاح الدين الأيوبي فانه ما كاد يعقد معاهدة الصلح حتى أخذ يفكر في اداء فريضة الحج ويستعد للرحيل الى الديار المقدسة ، الا انه ما لبث أن ارجأ ذلك الى فرصة أخرى حـين وافته كتب القاضي الفاضـل من مصر ، تنصحه بالانصراف الى اعمال الدولة ، ومعالجـة المشكلات الداخلية التي تكاثرت بسبب الانصراف الى الجهاد ، فدخـل الدولة الأيوبية وخرجها في حاجة الى تقدير وتعديل جديدين ، وحصونها في حاجة الى التحصين والذخيرة والجند ، والثورات المحلية قد تعددت احتجاجاً على ظلم الامراء الاقطاعيين وتسلطهم على الأهلين ، والانقطاع لكشف مظالم الخلق أهم ما يتقرب به حاكم الى الله [3] .

وعمل السلطان بنصيحة وزيره ومستشاره ، فانصرف الى انجـاز تحصين القدس وأمر واليها عز الدين جرديك بادارة الخنادق على المدينة كلها ، وباصلاح المسجد الأقصى وتعميره ، وولى قضاءها وأوقافها للقاضي

---

١ – تاريخ سورية للمطران الدبس ج ٦ ص ١٣٠

٢ – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٩٩

٣ – كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٠٥

بهاء الدين ، وولى علم الدين قيصر بلاد الخليل وغزة والداروم وعسقلان، وأمره بنقل الغلال من مصر الى عسقلان والعمل على تنمية العمران والزراعة فيها .

ثم أنشأ يتجول في بلاد الشام ، فنزل الى نابلس فأزال عن أهلها ظلم الامير سيف الدين المشطوب . ورحل الى بيسان وأمر بتعمير قلعتها وتخريب قلعة كوكب ، ومضى الى طبرية فنزل في ظاهرها ولقي هناك الامير بهاء الدين قراقوش . وبعد أن زار صفد ، سار الى جبل عامل وزار مرج تبنين وأوصى واليها بعمارتها ، ومرّ بقلعة هونين ومرجعيون. ثم وصل الى بيروت في ٢٠ شوال ٥٨٨ هـ ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١١٩٢ م ، فاستقبله واليها عز الدين أسامة استقبالاً حافلاً ، وزاره فيها بوهيمند صاحب انطاكية .

وانتقل السلطان بعد ذلك الى دمشق وكان يحبها ويؤثر الاقامة فيها، فبلغها يوم الاربعاء في ٢٦ شوال ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) بعد أن غاب عنها أربع سنوات ، فاستقبلته استقبالاً عظيماً . وقضى فيها اربعة أشهر كانت سلسلة من الأعياد والأفراح ، وكان يجلس في اكثر أوقات فراغه بين أولاده الصغار وأصدقائه المقربين ، وقد رفعت عنهم الكلفة وسادت المباسطة ، فكأنه كان يودع أهله وأصحابه ومرابع شبابه وانسه

وفي فجر اليوم السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ هـ ٤ آذار (مارس) ١١٩٣ م ، توقف ذلك القلب الكبير عن الخفقان ، بعد ستة أشهر فقط من ابرام معاهدة السلام ، وهو في السابعة والخمسين من عمره ، بعد ان ملك مصر نحو اربع وعشرين سنة وملك الشام نحو تسع عشرة سنة ، غيّر خلالها الجغرافية السياسية والتوزيع السياسي في فلسطين

وقضى على آمال رجال الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة في استرداد بيت المقدس ، وحصر الصليبيين في شريط ساحلي ضيّق يقع بين يافا وانطاكية [1] ، باستثناء صيدا وبيروت .

وقد وصف ابن شداد الساعات الأخيرة في حياته فروى ان في ليلة السبت السادس عشر من صفر ، إثر عودته من استقبال الحجيج العائد من الديار المقدسة ، شعر بتعب شديد وغشيته الحمى ، فلما كان اليوم التالي حضر بهاء الدين ابن شداد والقاضي الفاضل وولده الملك الأفضل ، وطال جلوسهم عنده ، واخذ يشكو من قلقه ليلاً ، وطاب له الحديث الى الظهر ، ثم انصرفوا والقلوب عنده ، ولما مدّ الطعام في الأيوان جلس الملك الأفضل مكان أبيه ، فتشاءم كثيرون وغادروا الايوان وبكى جماعة منهم .

ثم أخذ المرض يتعاظم « وكان مرضه في رأسه ، وكان من امارات انتهاء العمر إذ كان قد الف مزاجه سفراً وحضراً » فرأى الأطباء فصده ففصدوه في اليوم الرابع ، فاشتد مرضه ، ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى الى غاية الضعف « ولقد جلسنا في سادس مرضه وأسندنا ظهره الى مخدة ، وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شرب دواء ، فشربه فوجده شديد الحرارة ، فشكا من شدة حرارته ، وعُرض عليه ماء ثان فشكا من برده ، ولم يغضب ولم يصخب ولم يقل سوى هذه الكلمات: سبحان الله ألا يمكن أحداً تعديل الماء ؟ فخرجت انا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتدّ بنا البكاء ، والقاضي الفاضل يقول لي : ابصر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها ، والله لو ان هذا بعض

---

[1] — التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٣٠٣



صورة خيالية لصلاح الدين في العقد السادس

الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره ! »

يقول ابن شداد : « واشتدّ مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه . ولما كان التاسع حدثت عليه غشية وامتنع من تناول المشروب ، فاشتد الخوف في البلد ، وغشي الناس من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته . ولقد كنت انا والقاضي الفاضل نقعد في كل ليلة الى ان يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه ، ثم نحضر في باب الدار فان وجدنا طريقاً دخلنا وشاهدناه وانصرفنا وإلا عرّفونا احواله . وكنا نجد الناس يترقبون خروجنا الى ان يلاقونا حتى يعرفوا احواله من صفحات وجوهنا [١] »

وقد توفي في اليوم الثاني عشر لمرضه ، وكان قد فقد وعيه منـــذ اليوم التاسع ، فكان يوماً مشهوداً لم يصب الاسلام بمثله منذ عهد الخلفاء الراشدين ، حتى خيّل ان الدنيـــا كلها تبكيه بصوت واحد . وتجهز الناس لدفنه ، ووقفوا يبكونه بكاء مراً ، وانهم لفي بكائهم ونحيبهم ، اذا بالقاضي يحمل في يده سيفاً وينزل به الى قـبر السلطان ويضعه الى جانبه ، ولا يزيد على أن يقول : « هذا تتوكأ عليه الى الجنة !.. »

وقد عبر الشعراء في رثائهم لصلاح الدين عن مشاعر العرب والمسلمين في هذا المصاب الفادح أصدق تعبـير ، ومن هذه المراثي قصيدة كبرى للعماد الاصفهاني في مائتين واثنين وثلاثين بيتاً جاء فيها :

شمل الهدى والملك عم شتاته ، والدهر ساء وأقلعت حسناته

---

١ — النوادر السلطانية ص ٢٤٦ — ٢٥٠

أين الذي مـذ لم يزل مخشية ... مرجوّة رهباته وهبـاته
أين الذى كانت له طاعاتنـا ... مبذولة ، ولربه طاعـاته
بالله اين النـاصر الملك الذي ... لله خالصة صفت نياته ؟
اين الذي ما زال سلطانا لنا ... يُرجى نداه وتُتقى سطواته ؟
اين الذي شرف الزمان بفضله ... وسمت على الفضلاء تشريفاته ؟
اين الذي عنت الفرنج لبأسه ... ذلا ، ومنها أدركت ثاراته ؟
أغلال أعنـاق العدا أسيافه ، ... أطواق أجياد الورى منـاته
لم يُجْدِ تدبيرُ الطبيب ، وكم وكم ... أجْدَتْ لطبّ الدهر تدبيراته
من في الجهاد صفاحه ما أغمدت ... بالنصر حتى أغمدت صفحاته
لذّ المتاعبَ في الجهاد ولم تكن ... مـذ عاش قـطّ لذاتهِ لذاتُه
مسعودة غدواته ، محمـودة ... روحـاته ، ميمونة ضحواته
في نصرة الإسلام يسهر دائمـاً ... ليطول في روض الجنان سباته
لا تحسبوه مات شخص واحد ، ... فمـمات كل العالمين مماته
ملك عن الاسلام كان محـاميا ... أبدا إذا مـا أسلمته حمـاته
قد أظلمت مذ غاب عنها دوره ... لمـا خلت من بـدره داراته
دُفن السماح فليس ينبش بعد مـا ... أودى إلى يوم النشور رفـاته
الدين بعد أبي المظفر يوسف ... أقوت قواه وأقفرت ساحاته
جبل تضعضع من يضعضع ركنه ... أركاننا ، وتهـدنا هـداته
ما كنت أعلم أن طودا شامخـا ... يهوي ولا تهوي بنا مهواتـه
ما كنت أعلم أن بحرا طاميـا ... فينا يطم وتلتهي زخراته
بحر خـلا من وارديه ولم تزل ... محفـوفة بوفوره حفاتـه
من لليتامى والأرامـل راحم ... متعطف مفضوضة صدقـاته
لو كان في عصر النبي لأنزلت ... في ذكره من ذكره آياته !
فعلى صلاح الدين يوسف دائماً ... رضوان رب العرش ، بل صلواته

لضريحه سقيا السحاب فإن يغب ... تحضر لرحمة ربه سقياته
وكعادة البيت المقدس ، يحزن الـ ... بيت الحرام عليه ، بل عرفاته
من للثغور وقد عداها حفظه ؟ ... من للجهاد ولم تعد عاداته ؟
بكت الصوارم والصواهل إذ خلت ... من سلها وركوبها غزواته
وبسيفه صدأ لحزن مصابه ... إذ ليس يشفى بعده صدياته
يا وحشتا للبيض في اغمادها ... لا تنتضيها للوغى عزماته
يا وحشة الاسلام يوم تمكنت ... في كل قلبٍ مؤمن روعاته
يا حسرتا من يأس راحته الذي ... يقضى الزمان وما انقضت حسراته
ملأت مهابته البلاد فإنه ... أسد وإنّ بلاده غاباته
ما كان اسرع عصره لما انقضى ، ... فكأنما سنواته ساعاته !
لم أنس يوم السبت وهو لما به ، ... بيدي السبات وقد بدت غشياته
والبشر منه تبلجت أنواره ... والوجه منه تلألأت سبحاته
ويقول لله المهيمن حكمة ... في مرضة حصلت بها مرضاته
يا راعيا للدين حين تمكنت ... منه الذئاب وأسلمته رعاته
ما كان ضرك لو اقمت مراعيا ... ديناً تولى مذ رحلت ولاته
أضجرت منا ام أنفت ، فلم تكن ... ممن تصاب لشدة ضجراته
أرضيت تحت الأرض يا من لم يزل ... فوق السماء علية درجاته
فارقت ملكا غير باق متعبا ، ... ووصلت ملكا باقيا راحاته
أعزز على عيني برؤية بهجة الد ... نيا ، ووجهك لا ترى بهجاته
أبني صلاح الدين إن اباكم ... ما زال يأبى ما الكرام أباته
لا تقتدوا الا بسنة فضله ... لتطيب في مهد النعيم سناته

وشاع نبأ وفاته في اوربة ، فبهت الناس هناك لهذا النبأ ، وطفقوا يؤلفون الكتب حول موته من خلال ما عرفوا عنه من أخلاق وشمائل ، ومنها قصة صورت صلاح الدين وقد حضره الموت ، فدعا اليه حامل



العلم وأوصاه قائلاً :

« أنت الذي حملت رايتي في الحروب ، وانت تحمل رايتي كذلك بعد الموت ، فدعها تكون خرقة باليه ، واحملها على رأس رمح طويل ، وطف بها ربوع دمشق ، وادع جميع الناس لينظروا اليها ، وقل لهم : ها هوذا ملك الملوك ، مات ولم يأخذ معه سوى خرقة واحدة ، هي الخرقة التي كفنوه بها ، وانها لبالية كهذه الخرقة التي بيدي ، ومن جميع الممالك المترامية التي ملكها صلاح الدين ، والكنوز الهائلة التي كانت في يده ورهن ارادته . لم يستطع ان يأخذ لنفسه أكثر من هذه الأذرع الثلاثة من نسيج الكتان لكفنه الذي لفوه به [1] !. »

ولا بدع ان يبكي العرب والمسلمون صلاح الدين الايوبي ، وهو الذي احتل باخلاقه وشمائله وجهاده وتضحيته ، المكان الاسمى في قلوبهم ، فكان موضع حبهم وتقديسهم ورمز عزتهم وفخارهم . وقلّ بين حكام المسلمين من احتل مثل هذه المكانة ، ومن حظي مثله باجماع المواطنين على الولاء له والتعلق به والثناء عليه . وقد رأينا ابن جبير في مواضع عدة من هذا الكتاب ينقل الينا هذه العاطفة التي لمسها في كل بلد حلّ به خلال رحلته الشهيرة من المغرب الى مصر فالحجاز والعراق فالجزيرة وبلاد الشام . ولعلّ ابلغ من ذلك كله ما سمعه في الحرم الشريف بمكة المكرمة إذ قام الامام فصلى على الرسول ، ورّضى عن آله واصحابه، ثم دعا للخليفة العباسي ولأمير مكة ولصلاح الدين الأيوبي . قال ابن جبير : « وعند ذكر صلاح الدين بالدعاء تخفق الألسنة بالتأمين عليه من كل مكان :

---

١ – صلاح الدين بطل حطين ص ١٦٠

واذا أحب الله يوماً عبدَه ألقى عليه محبة للنـــاس

وحُقّ ذلك عليهم لما يبذله من جميل الاعتناء بهم ، وحسن النظر لهم ، ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم [١] »

ويقول ابن جبير في مكان آخر : « وفي إثر كلّ صلاة مغرب يقف المؤذن الزمزمىّ في وسط قبة زمزم ، ولها مطلع على ادراج من عود في الجهة التي تقابل باب الصفا ، رافعاً صوته بالدعاء للامام العباسي أحمـد الناصر لدين الله ثم للامير مكثر امير مكة ، ثم لصلاح الدين أمـير الشام وجهات مصر كلها واليمن ، ذي المـآثر الشهيرة والمناقب الشريفة ، فاذا انتهى الى ذكره بالدعاء ارتفعت اصوات الطائفين بالتأمـين بألسنة تمدّها القلوب الخالصة والنيات الصادقة . وتخفق الألسنة بذلك خفقـاً يذيب القلوب خشوعاً لما وهب الله لهذا السلطان العادل من الثناء الجميل ، وألقى عليه من محبة الناس ، وعباد الله شهداؤه في أرضه [٢] . »

ويصف ابن جبير زيارة شقيق صلاح الدين لمكة ودخوله الى الحـرم الشريف فيقول : « والمسجد قد ارتجّ وغص بالنظـــارة الواندين ، والاصوات بالدعاء له ولأخيه صلاح الدين قد علت من الناس حتى صكت الأسماع وأذهلت الأذهان [٣] »

كل ذلك وصلاح الدين لم يكن قد خاض معركة حطين وحرر بيت المقدس ، وسجل انتصاراته الباهرة على الصليبيين ، ولكنه كان على كل

---

١ رحلة ابن جبير ص ٧٣
٢ - المرجع السابق ص ٨٠
٣ - المرجع السابق ص ١٢٤

حال قد بسط نفوذه على رقعة كبرى من العالم العربي ، وأخضع لنفوذه جميع القادة والأمراء الحاكمين في هذه الرقعة .

وهذا ما يجعلنا نتساءل عن سر عظمة صلاح الدين ، وسر محبة الناس له ، وسر ذلك الاجماع المنقطع النظير على النظر اليه نظرة مفردة معجبة فيها كثير من التقدير والتقديس ؟

ولا ريب في ان القارىء قد لاحظ اننا لم نحاول في هذا الكتاب اظهار المزايا العسكرية التي يتمتع بها صلاح الدين ، بقدر ما عنينا بابراز الملامح الانسانية في شخصيته ، لاعتقادنا بأن هذه الملامح هي التي كان لها الأثر الاول في حياته ، وهي بالتالي سر عظمته واجماع الناس على محبته وتقديره .

صحيح ان صلاح الدين خلال حكمه الذي استمر أربعاً وعشرين سنة، قد امضى ست عشرة سنة في الجهاد ، الا انه حتى في ذلك المظهر من مظاهر حياته ، لم يكن حاكماً يحشد الجيوش ويبعث بالقادة الى غمرات القتال من أجل مزيد من المجد والسلطان والمتارف ، وانما جعل من نفسه رمزاً ومثلاً ، وهجر في سبيل الهدف الذي جعل منه التاريخ واجبه الأول « أهله ووطنه وسكنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة [1] » وبذلك أعاد سيرة الابطال العظام الذين يعايشون جنودهم ويشاركونهم مصيرهم .

لقد وثق الناس بصلاح الدين فأحبوه ، وآمنوا بصدقه وتجرده وتضحيته فاجتمعوا حوله وهرعوا لنجدته ، من حلب الى عسقلان ومن

---

١ - النوادر السلطانية ص ١٦

الموصل الى القاهرة والاسكندرية ، ورأوا فيه أميراً من طراز جديد ، بسط الاحسان لعدوه فأحبه عدوه ، وفك قيد أسيره فقيده بالعفو، والرحمة ، وعطف على شعبه فأشاع روح المحبة والمودة في قلوب الرعية ، وارتفع بمستوى القادة والامراء من وهدة التنابذ والتنازع والتذابح الى صعيد التكاتف والتعاضد في سبيل هدف عظم

ولا ريب في انه كانت لصلاح الدين قدوة حسنة في نور الدين محمود الذي نشأ في ظله وتأثر بمدرسته ، وقبس من رسالته ، واعتبر نفسه وريثاً له ، فقد كان نور الدين اول من وضع دعائم الوحدة الاسلامية في وجه العدوان الغربي ، « ولم يلجأ نور الدين في تكوين هده الوحدة الى غدر أو خديعة ، ولم يهبط بخلقه ودينه الى ما كان يهبط اليه انداده ومعاصروه من سلاطين زمانه ، انما ظل طوال ايامه مسلماً فاضلاً شريفاً لا يكاد الانسان يستدرك عليه شيئاً يمس الخلق والدين [1] »

وقد ازداد احساس صلاح الدين بمسؤوليته التاريخية بعد وفاة نور الدين ، وشعوره بالفراغ الذي تركه رحيله في بلاد الشام أمام الجيوش الفرنجية الغازية ، فانتقل من طور الى طور ، وجعل نصب عينه أن يملأ ذلك الفراغ ، ويكمل رسالة نور الدين ، ويحقق ما عجز عنه .

ويرى هاملتون جب انه كان على صلاح الدين بعد وفاة نور الدين الأخذ بأحد اسلوبين ، الاول هو دمج الكيان الزنكي كله في دولة عسكرية قوية من الخارج ، والثاني هو البناء على اسس الوحدة الاخلاقية التي وضعها نور الدين ، وتقوية تلك الأسس الى حد بالغ ، بحيث يضطر

---

١ - صور من البطولة ص ١٧٧

الكيان الذي أقامه نور الدين الى ان يخدم أهداف تلك الوحدة . وتدل المظاهر الخارجية الخالصة على ان صلاح الدين أخـذ بالاسلوب الأول ، والواقع ان سر نجاحه يرجع الى اخذه بالاسلوب الثاني وتنفيذه [1] .

وقد نفذ جب الى اعماق الحقيقة عندما نسب الفضل في اتساع دوله صلاح الدين في آسية بين عامي ١١٨٢ و ١١٨٦ الى مواقفه الخلقية اكثر من الاعمال العسكرية [2] . ويمكننا أن نعيـد انتصاراته على الفرنجة الى الاسباب نفسها التي اشار اليها جب . فان اعمال صلاح الدين الحربية أمام الموصل وحلب كانت اقرب الى المظاهرات منها الى الحصـار ، وكذلك كانت أعماله أمام عشرات الحصون التي استسلمت له بعد موقعة حطين . فان ثقة امراء المسلمين ، وامراء الصليبيين فيما بعد ، بخلق الرجل ، جعلت الاولين يقدمون له الولاء طوعاً ، ودفعت الآخرين الى أن يطلبوا منه الأمان .

والواقع ان سر عظمة صلاح الدين ودعامة مجده ، هي الأخلاق التي امتاز بها في وقت تفسخت فيه الاخلاق وانهارت القيم . وقد استعاض بقوة هذه الاخلاق الكريمة عـن العبقرية العسكرية والدهاء السياسي . وكانت هذه الاخلاق تظهره احياناً بمظهر البساطة والسذاجة ، فيحاول الكثيرون استغلالها ، ولكنهـا كانت تتغلب في النتيجة على الخديعة والمكر ، وتتحطم تلك المحاولات على صخرة منيعة من الصفاء والوفـاء ونبل الغاية والوسيلة معاً .

بالحب والصدق والتجرد ، فرض صلاح الدين نفوذه العظيم ، وأوجد

---

١ -- دراسات اسلامية ص ١٣٠

٢ -- المرجع السابق ص ١٣٧

بين المواطنين والأجناد والقادة ذلك الجو المؤاتي من الولاء الشخصي له ، واستطاع ان يجند الجميع للنضـــال تحت لوائه دون ان يفرض عليهم اوامر ونواهي سلطـــان حقيقي . وفي ذلك العصر الذي كان اغتصاب السلطة الهدف الاول لكل ذي قوة ، لم يفكر احـــد من امرائه او اقربائه او قواده في منافسته او الخروج عليه او انتزاع السلطة منه. وكان يكفي ان يراه الجبان حتى يتشجع ، والمتردد حتى يقدم ، والعاصي حتى يعود الى الطاعة ، لأنه كان يعطي المثل بنفسه سلوكاً وعملاً .

لم يكن يعاملهم على انه سيد الدولة ، بل كان يقف أمامهم بوصفه رجلاً امام رجال ، لا فرق بين واحد وآخر الا بمقـدار حظه مـن الرجولة والنبل والطيبة التي استعاض بها عن ابهة الملك وهيبة السلطان .

وكان طاهر المجلس لا يُذكر بين يديه الا الخير ، وطاهر اللسان لا يشتم ولا يعنف قط ، وطـاهر القلب لا يفكر الا في مصلحة قومه وبلاده ، حليماً لا يثور وسمحاً لا يغضب . روى تاج الدين شاهنشاه ابن ايوب ان احد الخدم رمى آخرَ بحذاء فتجاوز حتى وصل اليه ، فأدار وجهه للناحية الأخرى حتى لا يحرج ذلك الخادم [1] . وكان اذا عرضت عليه القصص ازدحم النـاس من حوله حتى يطأوا طراحته وهو لا يتأثر . وقـــد عُرف بالعطف على كل ضعيف ولا سيا الشيوخ والنساء والاطفال ، يقف في الفتوح على مفارق الطرق باحثاً عن فقير يؤويه ، او محتاج يقضي حاجته ، او عاجز يعفيه من فدية يعجزه الحصول عليها

وفي عصر الترف والبذخ والأسراف ، تميز صلاح الدين من بين ملوك عصره ، بالبساطة والبعد عن ابهة الملك ، فـلم يكن يحب السكنى في

---

١ – ذيل النوادر ص ٢١٠

القصور ، وكان يرتدي الملابس المصنوعة من الكتان والقطن والصوف[١] . وكان يعتبر نفسه واسرته خزنة المسلمين وحراساً لأموالهم لا اسيـــاداً عليهم ، وقد ولى ابنه الظاهر حلب ، فغفــل وتلهى ، وشغف بالملك وأحبه ، فخاف صلاح الدين أن يسد عليه حبه للمنصب والجاه أبواب الذكاء والفطنة وحسن الخدمة ، فعزله عـن ولاية حلب وأرسل مكانه أخاه العادل[٢] ، وطلب منه الملك العادل أن يكتب له في اقطاع حلب كتاباً ككتاب البيع والشراء ، فامتنع وقال له : « أظننت ان البلاد تباع ، أو ما علمت ان البلاد لأهلها المرابطين بها ، ونحن خزنة المسلمين ورعاة للدين وحراس لأموالهم[٣] » ورفض اعفاء اخيه من مال يحمله الى خزينة الدولة ، وجند يرسله الى ميدان القتال .

وكان بعض اولاد الصغاره يرافقونه في احدى المعارك ، فأرادوا أن يأذن لهم بقتل أحد الأسرى ، فغضب وزجرهم عن ذلك ، لئلا يعتادوا على سفك الدماء ويهون ذلك عليهم[٤] .

وقد أوصى الملك الافضل كبير اولاده قبيل وفاته بالوصية التالية : « اوصيك بتقوى الله تعالى فانها رأس كل خير ، وآمرك بما أمر الله به فانه سبب نجاتك ، واحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بهـا فان الدم لا ينـام ، واوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في احوالهم فأنت اميني وامين الله عليهم ، واوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والاكابر فما بلغت ما بلغت الا بمداراة الناس ، ولا تحقد على أحد فان

---

١ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٦
٢ — النوادر السلطانية ص ١٠
٣ — كتاب الروضتين ج ٢ ص ٥٢
٤ - النوادر السلطانية ص ١٤٢



صلاح الدين في مجلسه

الموت لا يبقي على احد ، واحذر ما بينك وبين الناس فانه لا يُغفر الا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك فانه كريم [1] »

وقد اجمل بروكلمان عدداً من صفاته ومزاياه بقوله : « وليس من شك في ان قلة ضئيلة من امراء الاسلام كانت تضارعه من حيث تجرده عن ايما نزعة الى الكسب الشخصي ، ومن حيث انصرافه الى خدمة دولته ورعاياها ليس غير ، ولم يستطع اعداؤه أنفسهم الا الاقرار له بالشهامة والنبل في معاملة الخصم المغلوب . ليس هذا فحسب ، فقد كان صلاح الدين بالاضافة الى ذلك كله نصيراً للعلم [2] »

لقد كان يجمع اهل العلم والرأي لكل أمر ، ثم يلتزم مشورتهم ويتقيد بها . وكان العلماء يشاركون في الجهاد اما بقيامهم بتذكير الجند بقصص البطولة عند ابطال الاسلام السابقين ، واما بالاشتراك الفعلي في القتال وقد ملأ مملكته بالكليات والمستشفيات والمدارس المجانية ، لم يؤثر فيها اقليماً على اقليم ، ولا يكاد يفتح مدينة حتى يؤسس فيها المعاهد والمرافق ويبني الجسور ويتعهد الترع . وكانت اخته ست الشام بنت ايوب تصنع الأشربة والأدوية والعقاقير كل سنة بالوف الدنانير وتفرقها على الجرحى والمرضى من المدنيين والعسكريين . وكان عدد العلماء والادباء في مجلسه اكثر من عدد القواد ورؤساء الأجناد ، وقيل ان رواتب العلماء في سورية كانت تتجاوز في عهده مائتي الف دينار ، وقد مرَّ به رجل منهم وانصرف بعد لقائه ، ومضى على ذلك ليال وسأل السلطان عنه فقيل انه سافر ، فظهرت على وجهه امارات العتاب وقال:

---

١ - المرجع السابق ص ٢٤١

٢ - تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢٣٢

« كيف يتركنا هذا الرجل وينصرف عنا من غير احسان يمسه منا ! »

وجعل نصب عينيه القضاء على المظالم ، ورد الحقوق الى ذويها ، وازال الضرائب الجائرة ، ومنع الرشوة وعاقب من يرتكبها أشد عقاب، وضرب على أيدي اللصوص ، وتفقّد أحوال الناس ، وفتح ابوابه لطلاب الحاجات ، وجلس بنفسه للنظر في المظالم في حربه وسلمه وسفره وحضره ، فلا يعترض مجلسه حاجب أو وزير ولا يستغيث به أحد الا اغاثه ، ولا يحابي في الحق وان كان على أهله او على نفسه .

ويحكى ان مواطناً من أهل دمشق يدعى ابن زهير ، حضر ليشكو ابن اخيه تقي الدين ، فأمر بحضوره في مجلس المحاكمة ، وأخذ لابن زهير من ابن اخيه وكان هذا من احب الناس اليه وأعزهم عنده [1] .

وروي ابن شداد انه كان يوماً بمجلس الحكم في بيت المقدس ، فدخل عليه شيخ حسن الهيئة يسمى عمر الخلاطي ، وهو من التجار المعروفين ، وكان بيده كتاب « حكمي » ، فسأل ابن شداد أن يفتحه ، فقال له ابن شداد : من خصمك ؟ فقال : خصمي السلطان ، وهذا بساط العدل ، وقد سمعنا انك لا تحابي .

فقال ابن شداد : وفي أي قضية هو خصمك ؟ فقال : ان سنقر الخلاطي كان مملوكي ، ولم يزل على ملكي الى ان مات ، وكان في يده أموال عظيمة كلها لي ومات عنها ، واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه بها ! فقال ابن شداد : يا شيخ ، وما أقعدك الى هذه الغاية ؟ فقال : ان الحقوق لا تبطل بالتأخير ، وهذا الكتاب الحكمي ينطق بأنه لم يزل

---

١ – صلاح الدين الايوبي للرمادي ص ٩٤

في ملكي الى أن مات .

فأخذ ابن شداد الكتاب منه ، وتصفحه فوجده يتضمن حلية سنقر الخلاطي ، وانه قد اشتراه فلان التاجر بأرجيش في يوم كذا من سنة كذا ، وأنه لم يزل في ملكه الى أن شذ عن يده في سنة كذا ، وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه ما .

فتعجب ابن شداد من هذه القضية ، وذكر للتاجر انه لا يصح سماعها من غير وجود الخصم ، وانه سيعرفه بها ويعرفه بما يقوله فيها ، فرضي بذلك وانصرف .

ثم اتفق ان مثل ابن شداد بين يدي صلاح الدين في ذلك اليوم ، فذكر له قصة ذلك التاجر ، فاستبعدها استبعاداً شديداً ، وسأله : هل نظرت في الكتاب ؟ فقال له : نظرت فيه ورأيته متصل الورود والقبول الى دمشق ، وقد كتب عليه « كتاب حكمي من دمشق » وشهد به على يد قاضي دمشق شهود معروفون . فقال : نحن نُحضر الرجل ونعمل في القضية ما يقتضيه الشرع .

ومضى على هذا أيام كان التاجر يتردد فيها على ابن شداد ، ويطالبه بالنظر في دعواه ، ثم اتفق أن جلس ابن شداد مع صلاح الدين في خلوة ، فقال له : هذا الخصم يتردد عليّ ولا بُدّ ان تُسمع دعواه ! فقال : أقم عني وكيلاً يسمع الدعوى ، ثم يقيم الشهود شهادتهم ، وأخّر فتح الكتاب الى حين حضور الرجل ها هنا .

فذهب ابن شداد ففعل ما أشار به صلاح الدين ، ثم عاد اليه ، فأمر باحضار الرجل الى مجلسه ، فلما حضر استدناه حتى جلس بين يديه ، وكان ابن شداد الى جانبه ، فنزل صلاح الدين من طراحته حتى

ساوى الرجل ، ثم قال له : ان كان لك دعوى فاذكرها .

فقام الرجل فذكر دعواه على نحو مـا ذكره ابن شداد ، فقال له صلاح الدين : ان سنقر هذا كان مملوكي ، ولم يزل على ملكي حـتى اعتقته ، وتوفي وخلف ما خلفه لورثته . قال الرجل : لي بيّنة تشهد بما ادعيته . ثم سـأل ابن شداد أن يفتح كتابه ، ففتحه فوجده كما ذكر .

فلما سمع صلاح الدين التاريخ قـال : عندي من يشهد أن سنقر في هذا التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر ، وإني اشتريته مع ثمـانية انفس في تاريخ متقدم على هـذا التاريخ بسنة ، وانه لم يزل في يدي وملكي الى ان اعتقته

ثم استحضر جماعة من الأمراء والمجاهدين ، فشهدوا بذلك ، وذكروا القصة كما ذكرها وحددوا التاريخ كما حدده ، فأبلس الرجل حين ظهر كذب دعواه .

فقال ابن شداد : يا مولاي ، هذا الرجل ما فعل ذلك الا طلبـاً لمراحم السلطان ، وقد جاء من خلاط في طمع ، ونفدت نفقته ، وما يحسن ان يرجع خائب القصد . فقال صلاح الدين : يا قاضي ، هذا انما يكون على غير هذا الوجه . ثم امر له بنفقة وخلعة [1] .

وكان صلاح الدين كريماً ينفق كل ما في يده في وجوه الخير والاحسان، وقد بلغ من فرط كرمه وزهده انه لم يكن لديه مال يتزكى به ، ولما

---

١ – النوادر السلطانية ص ١٠ – ١٣ ، القضايا الكبرى في الاسلام ص ٣٠٦ – ٣٠٩

توفي لم يترك وراءه – وهو الذى وضع يده على كنوز الدولة الفاطمية وكانت مملكته من اغنى ممالك الشرق – داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا مزرعة ، ولم يخلف سوى سبعة وأربعين درهماً ودينار ذهبي واحد[1] .

وكان يحترم عقائد الناس ، ويوسّع لهم في الحرية ما استطاع ، ويولي المسيحيين واليهود العرب المناصب التي يستحقونها . ولعل اكبر صفاته وأنبل مزاياه ، انه لم يكن مغرماً بقتل اعدائه أو اذلالهم ، فكان يسرع الى العفو والتسامح اذا مدوا له يد الود أو طلبوا منه الأمان ، سواء أكانوا من المسلمين ام من الصليبيين ، وقد رأينا انه لم يقتل أحداً من أمراء الفاطميين ، وهو أمر نادر في ذلك الزمان حين كانت تنهض دولة على انقاض دولة .

ولم يبطره الظفر يوماً بل كان يزيده مروءة وتسامحاً ورحمة بالانسان ، وان لم يكن من دينه وجنسه ، وقد يضيع جنده كرامة الانتصار وعظمته ، فيعيثون فساداً وخراباً ، وهو يشتد في ردعهم وضبطهم .

وقد اعطى صلاح الدين الغرب ، بعدله ورحمته وتسامحه ، صورة جديدة للاسلام ، فزالت تلك الروح العدائية القديمة التي حملت الصليبيين الى الشرق سنة ١٠٩٦ ، حتى غدا ملك الانكليز يقترح كما رأينا زف شقيقته الى أحد أمراء المسلمين .

ويلاحظ الاستاذ نقولا زيادة ان الصليبيين كانوا في السنين الاولى من القرن الثاني عشر قد عللوا عظمة عماد الدين زنكي بأن جعلوه ابن

---

١ – السلوك ج ١ ص ١١٣ – ١١٤ ، المختصر في اخبار البشر ج ٣ ص ٩١ ، النوادر السلطانية ص ١٣ ، ذيل النوادر ص ٣١٠

الكونتيس ايدا الــتي اشتركت في الحملة الأولى ، وفي زمن الحملة الثانية اعتقــدوا ان قلج ارسلان من نسل جرماني شريف ، ولكن بعد أن ذاعت شهرة صلاح الدين ظهرت اسطورة تعلل عظمة توماس بكت أحد مشاهيرهم بجعله ابناً لأم عربية [1] .

وهكذا تثبت سيرة صلاح الدين الايوبي ان القوة لا تصنــع البطولة اذا لم تقترن بالمروءة ومكارم الاخلاق .

فيا سيرة صلاح الدين علمينا مناقب الأبطال !

١ – مجلة المقتطف عدد يوليو ١٩٠٥

الجزء الثالث

خلفاء صلاح الدين

● كان القرن الثاني عشر أعظم عصور الحملات الصليبية ، أما تاريخ الدول اللاتينية في سورية في القرن الثالث عشر فيعتبر عادة خاتمة . ومنذ عام ١١٠٨ أصبحت الحروب ضد الكفار والهراطقة تعتبر في نظر معظم البابوات أهم من الحروب ضد المسلمين

جون لامونت

● ولم يكن حصول احد الامراء المسيحيين المتخاصمين على تأييد من المسلمين ضد الجانب الآخر ، بأغرب من فوز بعض المسلمين بالتأييد من بعض النصارى ضد مسلمين آخرين .

فيليب حتي

● فالصلات الودية والعلاقات التجارية التي كانت قائمة بين كل من المسلمين والنصارى قبل استيطان اللاتين لشقة الشام الساحلية ، لم يكن يستطاع قطعها ، ولم تنقطع كلية بعد ان فتح الصليبيون جانباً من هذه البلاد .

جون هامرتن

● وعندئذ ظهرت بوادر مميزات العصر الجديد التي لا تؤيد روح الحروب الصليبية الجامحة ، ولا روح الالتجاء الى الجهاد الديني عند المسلمين ، وتعد كلتاهما من بقايا عهد غبر !

جورج كيرك

الفصل الثالث والعشرون

حملة صليبية على دولة مسيحية

يرى الدكتور فيليب حتي ان التقسيم التقليدي للحركة الصليبية الى عدد معين من الحملات ، لا يخلو من تكلف وافتعال ، لان سبل الامدادات كاد يكون متواصلاً ، فالخط الواصل بينها لا يبدو بجلاء[1] . وفي هذا الرأي كثير من الصحة ، إذ ما كانت لتنقضي سنة واحدة من القرن الثاني عشر ، دون أن ترد الى الشام وفود من الحجاج المتحمسين ، غير ان تلك الوفود ما كانت تأتي للحرب قصداً ، ولكنها كانت اذا وجدت الحرب قائمة اشترك فيها القادرون من رجالها وشبانها . وكذلك كانت الامدادات العسكرية تتوالى من جميع انحاء اوربة لنصرة الامارات اللاتينية في الشرق ، ولكن التاريخ لا يعتبر هذه الامدادات الجانبية حملات جماعية منظمة اشتركت فيها دول اوربية متعددة ، ولهذا فهو لا يسلكها في عداد الحملات الصليبية الكبرى .

وفي ذلك التقسيم التلقيدي للحركة الصليبية ، تأتي بعد حملة الملوك التي انتهت زعامتها الى ريشارد قلب الأسد ، الحملة الرابعة التي تكشف اكثر من

---

١ - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ٢٣٤

الاعمال العدوانية التي تعرضت لهـا المدن المسيحية في البلقان التي مرت الحملات الصليبية السابقة – عـن الأسباب الحقيقية والدوافع الخفية لتلك العاصفة الهوجاء من الصراع الدامي بين الغرب والشرق خـــلال قرنين كاملين .

فقد تولى سدة البابوية سنة ١١٩٨ م ٥٩٥ هـ انوسنت الثالث ، وهو احدى الشخصيات البارزة في القرون الوسطى ، وكان من المشاريع التي أعدها وسعى اليها ، استعادة ما انتزعه صلاح الدين الأيوبي من أمـلاك الدولة اللاتينية في فلسطين ولا سيا بيت المقدس . وقـد بعث برسله الى دول اوربة لدعوة ملوكها الى المشاركة في حملة صليبية جديدة ، وأرسل الدعاة لاثارة الحماسة لهذه الحملة في الأوساط الشعبية .

وقد حالت المشكلات الخاصة التي كانت تستغرق اهتمام كل من ملوك اوربة ، دون مشاركته في هذه الحملة ، الا ان أمجادها اجتذبت معظم الامراء والفرسان البارزين في فرنسة وانكلترة والمانية وهولندة وصقلية ، وفي مقدمتهم بلدوين التاسع أمير فلاندر وأخوه هنري ، وبونيفيس دى مونتفرات وثيبوت الثالث امير شمبانيا ولويس امير بلوا .

ورأى قادة الحملة ان تكون وجهتهم مصر ، حتى اذا مـا استولوا عليها ولوا وجوههم شطر فلسطين واحتلوا بيت المقدس ، واتفقوا مـع قادة البندقية على أن تقوم بنقل اربعة آلاف وخمسمائة فارس وعشرين الف جندي على مراكبها الى شواطىء مصر ، وان تطعم هؤلاء الجنود والفرسان ، على ان يدفع الصليبيون لها مبلغاً معيناً من المال ، وان تقسم الغنائم في المستقبل بينها وبينهم .

وتجمعت الحملة في البندقية خلال شهري تموز (يوليه) وآب (اغسطس)

من سنة ١٢٠٢ م ٥٩٩ هـ ، ولكن الصليبيين عجزوا عن دفـــع المبلغ المتفق عليه ، ولم يتمكنوا الا من دفـــع نصفه . وكانت مدينة زارة الهنغارية تنافس البندقية منافسة تجارية شديدة ، فانتهز قـادة البندقية هذه الفرصة واقترحوا توجيه الحملة الى مدينة زارة على الشاطىء المقابل للبحر الادرياتي ، وانتزاعها من ملك هنغاريا وتسليمها للبندقيين ثمنـــاً لنقل الحملة فيما بعد الى مصر [١] .

واستجاب الصليبيون للطلب ، ومضوا الى زارة وحاصروها ، وعبثاً حاول أهلها اظهار شعائر المسيحية على الاسوار لردع الصليبيين عـــن محاربة ابناء دينهم [٢] . فقـــد هاجم الصليبيون المدينة ونهبوها [٣] . ثم قدموها للبندقية لقمة سائغة .

وحدث في ذلك الوقت نفسه أن افلت اليكسي ابن الامبراطور اسحق انجيلوس من السجن الذي كان قد زجه فيه عمه اليكسي الثالث الذي اغتصب الحكم من أخيه اسحق بعد أن سمل عينيه واعتقله مـــع ابنه ، ورفض كنية عائلته وتسمى اليكسي الثالث كومنينوس . فتبنى الصليبيون والبنادقة قضية اليكسي انجيلوس المطالب بعرش ابيه ، مـــع ان اسحق انجيلوس كان خصماً صريحاً للحملة الصليبية الثالثة ، ووجهوا الحملة الصليبية الرابعة الى القسطنطينية . وكان البندقيون ينتظرون مثل هذه المناسبة للثأر من القسطنطينية التي حرمتهم من امتيازاتهم التجارية

---

١ – لم تكن البندقية مستعدة اصلا لمعاداة المسلمين في مصر لما صار لهـــا من مصالح اقتصادية وجاليات واسعة في الاسكندرية ودمياط (انظر الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٣١ - ٩٣٢)

٢ – الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٧٦

٣ – L'Eglise et l'Orient, P, 156 - 157

يقول الدكتور اسد رستم : « وقـــد اختلف رجال الاختصاص في اسباب تحول الصليبيين عن مصر وفلسطين الى القسطنطينية . فقـام في السنة ١٨٦١ ماس لاترى الافرنسي يتهم البنـدقية وشيخها بالوصول الى تفاهم سري سابق مع سلطان مصر لتحويل هذه الحملة عـن اراضيه وأيّد قوله كارل هويف الألماني فحدد تاريخ هذه المعاهدة السرية ، وجعله في الثالث عشر من ايار سنة ١٢٠٢ [٢] »

وكان اليكسي انجيلوس قد جاء الى روما يستنجد البابا على قضيته. ثم اتجه شطر المانية يستعين بشقيقته ايرينة زوجة الامبراطور فيليب سوابيه ، فرجت ايرينة زوجها في ذلك وألحت عليه ، فأرسل وفـداً الى زارة يرجو البنـــدقيين والصليبيين مساعدة الأمير الطريد : ورحل اليكسي بنفسه الى زارة طالباً المعونة ، مقابل وعده بدفع مبلغ كبير من المال ، واستعداده لادخال البيزنطيين الارثوذكس في طاعة البـــابا والحاق الكنيسة الشرقية بالكنيسة الغربية .

الا ان الأمر كان في واقعه ، كما يقول جون هامرتن ، مجرد صفقة كفلت لرجال الحرب من جهة وأصحاب السفن من جهة اخرى ، ان يشتركوا سوياً فيما يمكن ان تجلبه من اموال وأرباح [٣] .

والواقع ان الرخاء العظيم الذي كانت تتمتع به الدولة البيزنطة كان

---

١ — Vie et Mort de Byzence, p. 366

٢ — الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٧٧ ، انظر ايضاً : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٣٣ ، Heyd ; hist. du Commerce, I. P 401 404

٣ — تاريخ العالم ج ٥ ص ١١٧

وبالاً عليها ، لأنه اثار مطامع الآخرين فيها ، وانتهت تلك المطامع بضياعها . ويقول نورمــا بينز : « اذا نظر الانسان الى الحروب الصليبية من وجهة نظر الامبراطورية الاغريقية ، لا يسعه الا ان يتبين ان هذا المجهود العظيم الذي بذلته المسيحية لتخليص قبر المسيح ، انما كان شره على الدولة اكثر من خيره ، فهذه الحروب قاربت بين عالمين عاجزين عن التفاهم بيزنطية والغرب) ، فكانت النتيجة ان زادت في حدة الضغائن واسباب الكراهية بينهما ، وأطلعت كذلك أهل الغرب ، والبندقيين منهم خاصه ، على غنى الدولة والميادين التجارية الفسيحة التي تضمها ، فأثارت بذلك نيران الطمع [١] »

وفي آخر حزيران سنة ١٢٠٣ م ٦٠٠ هـ ظهر اسطول الصليبيين أمام أسوار القسطنطينية ، ونزلوا بالقرب من غلطة ، وقطعوا السلاسل الحديدية التي تحمي مدخل القرن الذهبي ، فدخلت مراكب البندقيين وأحرقت المراكب البيزنطية . ثم اقتحم الفرسان الصليبيون أسوار العاصمة . واستولوا على المدينة ، وفر اليكسي الثالث بخزينة الدولة وجواهرها ، وأطلق سراح اسحق الثاني واعلن ابنه شريكاً له في الحكم باسم اليكسي الرابع .

وطالب الصليبيون ودندولو شيخ البندقية ، الحاكمين الجديدين بدفع المال المتفق عليه ، فاستمهلهم اليكسي الرابع ورجاهم ان يقيموا خارج اسوار العاصمة . واسخط البيزنطيون على اللاتين الفاتحين ، واتهموا اسحق وابنه بالخيانة . ونهض اليكسي دوقاس صهر اليكسي الثالث في اوائل سنة ١٢٠٤ م ٦٠١ هـ يدعو الى الثورة ، فتبعه الشعب ، وقضى على

---

١ - الامبراطورية البيزنطية ص ٣٥٠ - ٣٥١

اسحق وابنه . ونودي بقائد الثورة امبراطوراً باسم اليكسي الخامس .

وكان واضحاً ان الثورة لم تكن موجهة الى اسحق انجيلوس وابنه اليكسي الرابع ، بقدر ما كانت موجهة الى التدخل اللاتيني في شؤون الدولة البيزنطية ، ووجود الصليبيين والبندقيين في أراضيها . فما لبث هؤلاء ان اتفقوا في اذار سنة ١٢٠٤ م ٦٠١ هـ ، على احتلال العاصمة من جديد ، واقامة حكومة لاتينية فيها ، واقتسام الغنائم فيما بين الطرفين ، وتأليف لجنة من ستة بندقيين وستة فرنسيين تتولى انتخاب امبراطور « يحكم لمجد الله ومجد الكنيسة الرومانية المقدسة ومجد الامبراطورية [١] » على ان يحكم هذا الامبراطور ربع العاصمة وربع الدولة التابعة لها ، ويوضع تحت تصرفه قصران من قصور العاصمة ، ويقسم ما بقي من العاصمة وأراضي الدولة مناصفة بين البندقية وسائر الصليبيين.

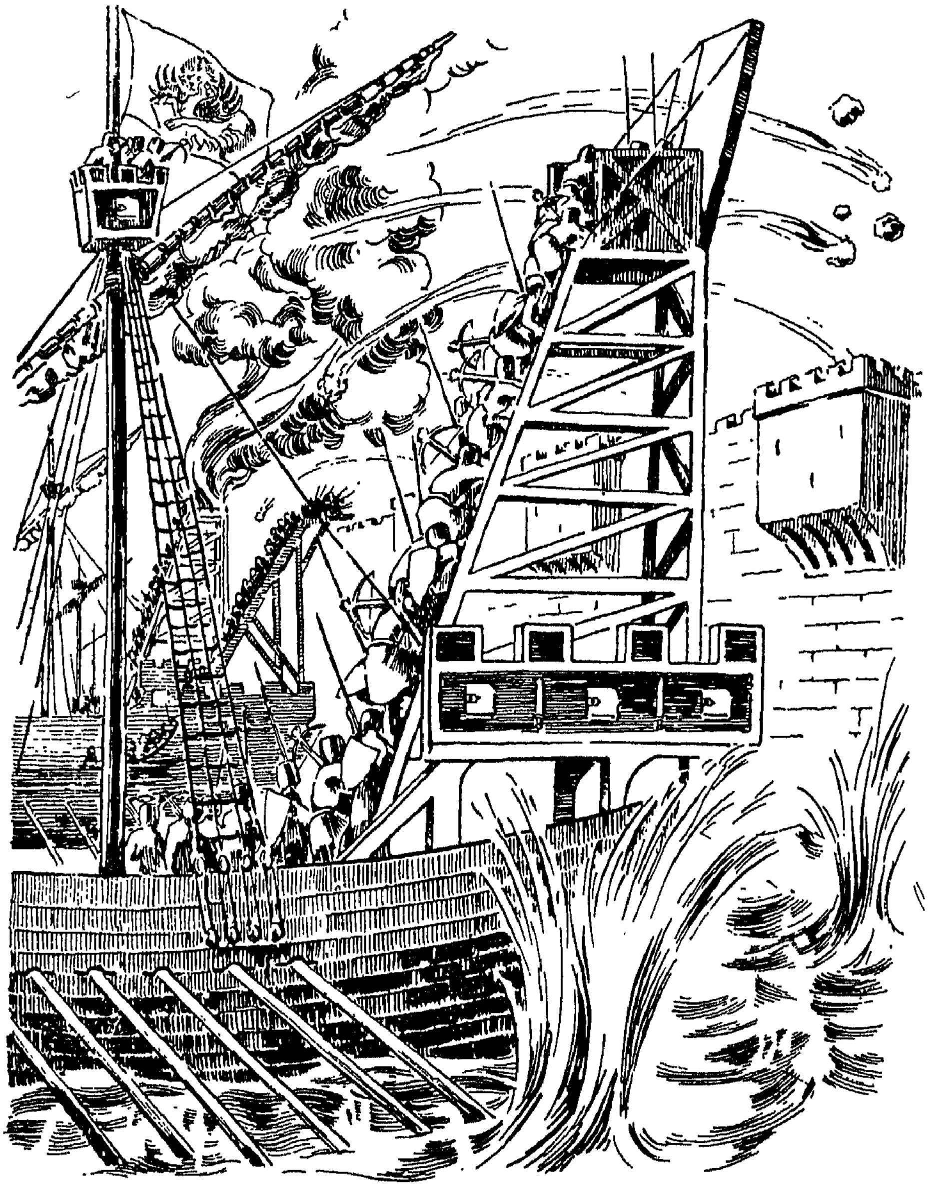
وحاصر الصليبيون القسطنطينية ، فما هي إلا أيام قليلة حتى فر اليكسي الخامس « فتدفقوا اليها في الثالث عشر من نيسان سنة ١٢٠٤ ناهبين . واشترك في اعمال النهب الفظيع الجنود الصليبيون وفرسانهم والرهبان اللاتينيون ورؤساؤهم . وشمل هذا النهب كنيسة الحكمة الالهية ، وغيرها من كنائس العاصمة وأديارها ، كما قضى على عدد كبير من اثمن المخطوطات [٢] »

لقد « نسي الفرنجة انهم فتحوا بلداً مسيحياً ، وانهم اقتحموا اكبر مركز ظل يحمل لواء المسيحية في الشرق طوال تسعة قرون ، فانساحوا

---

١ – الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٧٨

٢ – المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٩



في طرقات المدينة وشوارعها كالجراد المنتشر ، يقتلون من صادفهم من الرجال والنساء والأطفال ، فلم يقع بصرهم على تحفة او ثروة إلا نهبوها، ولم يتركوا اثراً فنياً أو أدبياً إلا افسدوه ودمروه ، فشبع منهم مـن كان جائعاً ، واغتنى مـن كان فقيراً . حتى الكنائس والأديرة لم تسلم من عبث الصليبيين ولم تنج من ايديهم ، وهم الذين حملوا اشارة الصليب لخدمة المسيحية ومحاربة المسلمين . وقد تمنى شاهد عيان اسمه نقتاس حونياتس أن لو كانت العاصمة البيزنطية سقطت في يد المسلمين بدلاً من سقوطها في ايدي الصليبيين ، وذكر ان المسلمين عندما استولوا على بيت المقدس لم يفعلوا بالمسيحيين والبيوت المسيحية مثلما فعله الصليبيون بأهل القسطنطينية وكنائسها [1] . »

ويقول ابو شامة : « وفي شهور هذه السنة تغلبت طائفة من الفرنج البحرية بالبنادقة على قسطنطينية ، وأخرجوا الروم منها بعد حصـار وقتال ، وحازوا مملكتها وانتهبوا ذخائرها وما حوته كنائسها من آلات ورخام ، وحملوا الى الديار المصرية والشامية ، فبيـع ووصل منه الى دمشق رخام كثير ، وكان أسامة يعمر داره فحصّل منه شيئاً لم يكن قبله مثلها [2] »

وقد انتخب بلدوين التاسع كونت فلاندر امبراطوراً على القسطنطينية ، ثم قسمت الدولة البيزنطية ، فتولى الامبراطور على خمسة اثمـان العاصمة وعلى الأراضي التي تاخمت المضيقين وبحر مرمرة وعلى بعض جزر الارخبيل

---

١ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٣٥ نقلاً عن :

Runciman ; hist. of the Crusades. II. 123

Hist. of the Byzantine Empire. II. 461

٢ – كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٠

الكبرى . واستولى مركيز مونتفرات على تيسالونيكية وما جاورها من ارض مقدونية وعلى تيسالية . ونال دندولو شيخ البندقية حصة الاسد ، فاستولى على حي كبير من القسطنطينية ليارس فيه البندقيون نشاطهم التجاري ، كما استولى على ديراتزو وغيرها من النقاط الهامة في ساحل الأدرياتيك الشرقي ، واحتل كورفو وغيرها من جزر مداخل هـذا البحر وبعض الأماكن في شبه جزيرة المورة وجزيرة اقريطش ، وبعض المرافىء على شاطىء تراقية وغاليبولي ، وثلاثة اثمـان القسطنطينية . واتخذ دندولو لنفسه بهذه المناسبة لقب دسبوتس ولقب « سيد الربـع ونصف جميع امبراطورية رومانية » وظل خلفاؤه في البندقيه يستعملون هذا اللقب حتى منتصف القرن الرابع عشر ، وتسلم اكليروس البندقية كنيسة الحكمة الالهية ، وأقاموا توما موروسيني بموافقة البابا بطريركاً على الكنيسة الكاثوليكية في الامـبراطورية الجديدة ، فكان اول كاهن كاثوليكي يتولى رئاسة كنيسة القسطنطينية . واتخـذ مركيز مونتفرات لنفسه لقب ملك ، وزحف الى آثينة فاحتلها ، وجعل منها ومن ثيبة دوقية ، وحوّل كنيستها الكاتدرائية في قلب البارتينون الى كنيسة لاتينية [1] .

وهكذا قامت في بيزنطة امبراطورية لاتينية على اساس اقطاعي ، شبيهة بالملكة التي أسسها الصليبيون في القدس اثنـاء الحملة الصليبية الأولى ، وقسمت اراضيها الى عدد من الاقطاعات ، واقسم امراء هذه الاقطاعات يمين الولاء والطاعة للامبراطور . وكتب الامبراطور بلدوين التاسع الى البابا ينبئه بفتح القسطنطينية وبارتقـائه عرشها « بنعمة الله »

١ - الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٨٠

مؤكداً خضوعه للسدة البابوية . فأجابه البابا « متهللاً بالرب لتمجيد اسمه بالاعجوبة التي تمت فشرفت العرش الرسولي وشعب المسيح » وطلب الى جميع الاكليروس وجميع الملوك والشعوب ن يؤيدوا الامبراطور الجديد . الا انه كتب في الوقت نفسه الى بعض قا ة الصليبيين يلومهم على ما اقترفوه في القسطنطينية ، ويظهر اسفه لأنهم آثروا كنوز الدنيا على كنوز الآخرة » ولم يوقروا الدين ولم يحترموا العمر او الجنس [1] »

وليس هنا مجال الحديث عن الامبراطورية اللاتينية التي انشأها الصليبيون في القسطنطينية ، والامارات التي اقاموها في تيسالونيكية ، وآخية ، وآثينة وثيبة ، وما الحقوه من الجزر والمواقع الاستراتيجية بامبراطورية البندقية . ونكتفي بالقول ان تلك الامبراطورية قد استمرت من سنة ١٢٠٤ الى ١٢٦١ م (٦٠١ – ٦٦٠ هـ) ، وعبثاً حاول اللاتينيون خلال ذلك اخضاع الشعب البيزنطي والحاق الكنيسة الشرقية بكنيسة الغرب .

وقد تجمعت المقاومة في بقاع بيزنطية متعددة أهمها نيقية حيث تأسست اسرة مالكة جديدة بدأت بتيودور الأول الذي عرف بنضاله ضد الصليبيين في عهد اليكسي الثالث الذي كان السبب في دخولهم الى القسطنطينية وتمكنهم فيها ، وانتهت بيوحنا الرابع الذي ورث الملك وهو في العاشرة من عمره ، فاستطاع ميخائيل باليولوغوس ان يدس للوصي عليه من يغتاله ، ثم يعلن نفسه وصياً عليه ، ثم يتوج نفسه بدلاً منه .

ثم نهض ميخائيل لمحاربة الفرنجة في غير موقع من المواقع البيزنطية

---

١ – المرجع السابق ج ٢ ص ١٨١



احتلال الصليبيين لمدينة القسطنطينية ، لوحة شهيرة لاوجين دولاكروا

التي استولوا عليها ، وبينما كان قائد جيشه اليكسي استراتيغولوس يمرّ بغاليبولي في طريقه الى الحدود البلغارية على رأس ثمانمائة جندي ، انضم اليه كثير من المتطوعين البيزنطيين ودعوه للمسير الى ضواحي القسطنطينية مؤكدين له ان حاميتها الافرنجية خرجت لتحارب بعيداً عنها ، فخشي القائد سوء العاقبة ، ولكن أحد أبناء العاصمة خرج في مساء ذلك اليوم من سرداب في بيته الى خارج الاسوار ، وأدخل معه خمسين جندياً، فتمكن هؤلاء من الاستيلاء على أحد أبواب المدينة ، فدخل الجند جميعهم في الخامس والعشرين من تموز (يوليه) سنة ١٢٦١ (٦٦٠ هـ) ، وأعلنوا عودة الدولة البيزنطية ، ونادوا بميخائيل باليولوغوس امبراطوراً عليها ، فانضم اليهم افراد الشعب ، ولاذ الفرنجة بالفرار . وانتقل الامبراطور الى قسطنطينية ، وأعاد اليها شعائر الارثوذكسية وأحبار المذهب الارثوذكسي

وهكذا اندثرت الامبراطورية الرومانية اللاتينية وكان فناؤها جزاء وفاقاً [١] . ويرى رينه غروسه ان قيام هذه الدولة على الشكل الذى رأينا، هو من أشأم احداث تاريخ اوربة ، ولم تكن عواقبها بأقل سوءاً على « سورية الفرنجية » من العواقب الوخيمة التي جرّتها على العالم اليوناني ، فبينما كانت هذه في أشد الحاجة الى المساعدة كي يستقيم أمرها ، حرمتها « الصليبية الرابعة » اياها ، وقطعت عنها سبيل الامداد الى حين من الزمن . فالجهد الفرنسي وقد تبدد بين عكا والقسطنطينية ، أكمل اضعاف مستعمرات الأرض المقدسة . ويمكننا القول ان الامبراطورية اللاتينية الموقتة في القسطنطينية ، جاءت في الساعة الحاسمة لتسد منافذ

---

١ - تاريخ العالم لهامرتن ج ٥ ص ١١٧

الحياة على « سورية الفرنجية » [1] .

يقول فيليب فان نس مير ان من نتائج هذه المغامرة « ان الصليبين قد اضعفوا القوة الحربية في العاصمة التي ظلت الف سنة الحصن المظيم للتمدن الغربي ، يدفع عنه البربرية الآسيوية . واما الآن فقد انحطت قوتها في الدفاع ، فجاء ذلك بأسوأ النتائج للعالم المسيحي [2] »

ويرى المؤرخون عامة انها كانت نذيراً باخفاق الحركة الصليبية بأكملها [3] فقد جذبت امبر طوريه القدس اللاتينية ودول اليونان اللاتينية ، الفرسان الغربيين اكثر مما اجتذبتهم سورية ، حتى ان بعض الافرنج القاطنين في سورية تركوا بيوتهم ليشاركوا في مغامرات الشمال . أما عامة الناس الذين كانوا عماد الحملات الصليبية فقد فقدوا كل اهتمام بها [4] .

الا ان نورمان بينز يذهب الى ابعد من ذلك فيقول : « بينما كانت الاحزاب المدنية والعسكرية تتنازع السيادة داخل الامبراطورية ، كانت جيوش الغرب التي قامت بالحملات الصليبية تجذبها أبهة الأباطرة البيزنطيين، وتستفزها سياستهم . وقد كان من الممكن ان يحاول البلاط الشرقي شراء المساعدة المسلحة من الغرب ببذله وعوداً خلابة عن الاتحاد الديني مع البابوية ، لولا ان الشعب حميت في نفسه العداوة للمهاجرين الايطاليين وللسيادة الغربية . وربما كان أمرٌ شيء على امبراطورية قوية ان تجد نفسها في حاجة الى الحماية ، وان تجد ان القوى الوحيدة التي تستطيع

---

١ – رصيد التاريخ ج ٢ ص ١٣٣ – ١٣٤

٢ – التاريخ العام ص ٢٤٩

٣ – Grousset ; Hist. des Croisades. III, p. 175

٤ – دراسات اسلامية ص ١٢٥

حمايتها أبغض شيء اليها اما رجال الغرب الذين لم يجدوا في أرض الميعاد سوى القليل من اللبن والعسل ، ولقي الكثيرون منهم الموت في رمال الصحراء ورأوا روما الشرقية تفوز لنفسها بالاسلاب والغنائم التي كسبتها ايديهم ، فقد أذكى كل هذا في نفوسهم الشعور بخيبة الرجاء ، وأججت الخيبة في قلوبهم نيران الكراهية ، ومن الكراهية المريرة نشأت مأساة سقوط الامبراطورية . وكل حضارة رفيعة تجتذب نحو نفسها الحضارات التي هي أدنى منها في المرتبة بطبيعة الحال . ومن هنا يقول عالم محدث : إن الحروب الصليبية كانت في واقع الأمر صراعاً في سبيل القسطنطينية [1] ! »

---

١ – الامبراطورية البيزنطية ص ٧٠ – ٧١

الفصل الرابع والعشرون

العادل سيف الدين

بينما كان الصليبيون يستولون على القسطنطينية ويقيمون امبراطورية لاتينية فيها ، كان امراء المسلمين في الشرق يقتسمون مملكة صلاح الدين ويتنازعون عليها .

وكان صلاح الدين الأيوبي قد خلّف سبعة عشر ولداً أكبرهم نورالدين علي الذي لقب الملك الأفضل ، وكان ملازماً لأبيه عند وفاته فاستولى على دمشق والقدس وسورية الغربية ، وعماد الدين عثمان الذي لقب بالملك العزيز وكان يتولى مصر فاحتفظ بهـا ، وأبا الفتح الغاري الذي لقب بالملك الظاهر وقد حكم حلب وسورية الشرقية ، كما كانت له ابنة واحدة تدعى مؤنسة وقد تزوجت محمد ناصر الدين الذي لقب بعدئذ بالملك الكامل وهو ابن عمها الملك العادل . واما الملك العادل فكان حينئذ في الكرك والأردن فظل مسيطراً عليها إلى جانب اقطاعاته في الجزيرة . وتوزع بقية الأخوة والابناء عدداً من الامارات ، فأخذ سيف الاسلام طغتين شقيق صلاح الدين اليمن وجزيرة العرب ، وشيركوه الصغير حفيد أسد الدين شيركوه حمص ، والظافر خضر بن صلاح الدين بصرى وحوران ، والأمجد بهرام شا ابن أخي صلاح الدين بعلبك . والى

جانب هؤلاء من أفراد الاسرة الأيوبية احتفظ عز الدين مسعود بالموصل ، وعماد الدين زنكي بسنجار ، وقطب الدين سقمان بكيفا وآمد ، وعماد الدين أبو بكر بن قرا ارسلان بخرتبرات [١] .

وكان كثير ممن نشأوا في ظل الدولة الصلاحية والعدل الصلاحي يتخوفون ان تصير حال الدولة بعد صلاح الدين الى الشقاق والنزاع ، وممن أوجسوا خيفة من ذلك القاضي الفاضل وقد كتب الى الملك الظاهر إثر وفاة السلطان : « ان وقع اتفاق فما عدمتم الا شخصه الكريم ، وان كان غير ذلك فالمصائب المستقبلة أهونها موته وهو الهول العظيم [٢] »

ولم تنفع وصية القاضي الفاضل وامنية الأصدقاء المخلصين ، فسرعان ما نشبت الحروب بين تلك الممالك والامارات ، ولم تنفع الملك الأفضل الذي يسميه أبو المحاسن « الملك النوام [٣] » تلك المبايعة التي دعا اليها القادة والامراء في دمشق ، بينما كان ابوه يعاني سكرات الموت ، معتذراً « بأن المرض قد اشتد وما يعلم ما يكون ، وما يفعل هذا إلا احتياطاً على جاري عادة الملوك [٤] »

وكان من الواضح ان نصيب الملك العادل من ذلك الارث العظيم ، لم يكن يعدل مكانته ومقدرته وسابقته في الجهاد ومشاركته في بناء

---

١ – مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧٨ – ٣٧٩ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٢٦ الفتح القسي ص ٣٦٤

٢ – خطط الشام ج ٢ ص ٧٣

٣ – النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٢١

٤ – النوادر السلطانية ص ٢٠٨ – ٢٠٩

المملكة الأيوبية ، وهو الذي كان صلاح الدين يستشيره في معضلات الأمور فيبين عن رأي ودهاء وحنكة ، فلا بدع اذن في ان يطمع بتغيير تلك القسمة غير العادلة بينه وبين أبناء اخوته وليس فيهم من يدانيه في حسن السياسة وكثرة التجربة وبعد النظر .

وقد خالف الأفضل سيرة أبيه فأقصى العقلاء من مستشاريه وامراء دولته الدافعين عن حوزتها الغيورين على بقائها ، وكان ابوه يفادي بكل مرتخص وغال لاستمالة قلوبهم ، فنقموا عليه ولجأوا الى العزيز في مصر ، فاستغل العزيز تلك الفرصة وسار بجنده الى دمشق ، فاستنجد الأفضل بالملك العادل ، والتقى هذا بالملك العزيز في صحراء المزة غربي دمشق ، ونصحه بالعودة من حيث أتى قائلا له : « لا تخرب البيت وتدخل الآفة ، والعدو وراءنا من كل جانب .. ارجع الى مصر واحفظ عهد أبيك .. ١ »

فعاد العزيز أدراجه الى مصر ، بعد أن أيقن بان امراء الشام قد اجتمعوا لمقاومته ، وبعد أن تم الاتفاق على تعديل في ممتلكات الاخوة الثلاثة ، بحيث يأخذ العزيز فلسطين بالاضافة الى مصر ، ويأخذ الظاهر جبلة واللاذقية بالاضافة الى حلب .

الا ان سيره « الملك النوّام » الغارقة في اللهو والترف ، هي التي كانت تغري بالحملة عليه ، فما لبث العزيز ان زحف على دمشق مرة اخرى في سنة ٥٩٢ هـ ١١٩٥ م ، واستنجد الأفضل بالملك العادل من جديد ، فلما قارب العزيز دمشق كاتب الملك العادل الأمراء سراً ،

---

١ – النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٢١

واستمالهم ، وكان الامراء الصلاحية قد وقع بينهم وبين الامراء الأسدية تنافس لتقديم العزيز الصلاحية على الأسدية ، فعملت حيل العـادل حتى وقعت الوحشة بـين الطائفتين ، واتفقوا بأجمعهم على مفارقة العزيز والانضمام الى العادل والأفضل [1] »

والواقع ان العزيز لم يكن أحسن مسلكاً من أخيه الأفضل ، وقد قال ابن اياس عنه : « فلما تولى الملك العزيز على مصر وأتى من دمشق وجلس على سرير الملك ، لم يمش على طريقة والده الملك الناصر صلاح الدين ، وسار مع الناس في مصر أقبح سيرة ، فأعاد المكوس التي كان أبطلهـا أبوه صلاح الدين ، وزاد في شناعتهـا ، وتجاهر بالمعاصى والمنكرات [2] . »

وقد تم الاتفاق بين اولئك الامراء الذين فارقوا العزيز مع الأفضل والعادل على ان يأخذ الأول مصر والثـاني دمشق ، فجمع الاثنان جيوشهما وزحفا على بيت المقدس فاستوليا عليها ، ثم سارا الى مصر . الا ان العادل خشي أن يخلف الأفضل وعده بالتخلي له عـن دمشق ، فأخذ يكاتب العزيز ، واستطاع ان يجعل نفسه حكماً بينهما . فعاد الأفضل الى دمشق ليستسلم نهائياً الى لهوه وعبثه ، ويطلق يد وزيره ضياء الدين ابن الاثير في شؤون الدولة [3] ، فنقم عليه الناس ، ورأى العادل ان الفرصة قد سنحت له أخيراً لتحقيق أهدافه ، فرحل الى مصر وعـاد مع العزيز الى دمشق سنة ٥٩٣ هـ ١١٩٦ م فاحتلاها دون مقـاومة ،

---

١ – السلوك ج ١ ص ١٢٤ – ١٢٥

٢ – بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ١ ص ٥٩

٣ – خطط الشام ج ٢ ص ٧٥



وأبعدا الملك الأفضل الى حوران ، وحل العادل محله في حكم دمشق وأوسط الشام ، بينما استعاد العزيز بيت المقدس .

وخلال هذا الوقت كان هنري دى شمبانيا الذي أطلق عليه لقب ملك بيت المقدس ، في حين ان مملكته كانت تقتصر على عكا وصور ، يوطد علاقاته بامارتي طرابلس وانطاكية الصليبيتين وامارة ارمينيا المسيحية ، كما استطاع ازالة الجفاء الذي كان قائماً بينه وبين غي دى لوسينيان ملك قبرص ، حين خلف غي أخوه اموري فتوطدت الصداقة بينهما وتزوج ابناء اموري الثلاثة ببنات هنري الثلاث .

وكان هنري السادس ملك المانيا الذي ما زالت تثيره ذكرى وفاة ابيه فردريك بربروس وهو في طريقه الى بيت المقدس وخلال عشرات الالوف من أفراد الجيش الالماني في الحملة الصليبية الثالثة ، يعدّ العدة للقيام بحملة صليبية جديدة لا تهدف الى استعادة بيت المقدس وحسب ، بل لتحقيق احلامه الواسعة في الشرق باخضاع الشرقين اللاتيني والبيزنطي للأمبراطورية المقدسة العالمية . وقد وضع لحملته برنامجاً ضخماً يستهدف فتح القسطنطينية ولأ ثم بيت المقدس بعد ذلك ، ثم اخضاع الدولة البيزنطية والشرق اللاتيني بأجمعه لسلطة الامبراطورية ، ولما بدأت جموع الصليبين الألمان تتوافد على بلاد الشام سنة ٥٩٤ هـ ١١٩٧ م ، أثار مسلكهم العدائي هنري دى شمبانيا ، وأدرك ن الحملة الألمانية انما تهدف الى استعباد الصليبيين في الشرق لا الى تحريرهم ، فأمر باستخدام القوة ضد اولئك الصليبيين الألمان [1] ولا سيما بعد أن أخذوا يغيرون على الأراضي الاسلامية دون استئذانه ، ويعكرون صفو السلام السائد في الشرق .

---

١ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩١٧ - ٩٠٨

وما لبث هنري دى شمبانيا أن وجد نفسه مضطراً الى الخروج على خطته في متابعة الهدنة القائمة بينه وبين المسلمين ، حين رد الملك العادل على غارات الصليبيين الألمان ، وانتصر عليهم في معركة كبرى قرب غزة . فكتب هنري دى شمبانيا الى الامبراطور مستنجداً ، في حين اسرع الملك العادل الى احتلال يافا ، وبينما كان دى شمبانيا يستمد لنجدتها فاجأه الموت في ١٠ ايلول ١١٩٧ م ٥٩٤ هـ .

ومرة اخرى أخذ أمراء الفرنجة يبحثون عن زوج رابع للملكة ايزابيل كي يتولى العرش ، وتم الرأي على أن تزف الى اموري دى لوسينيان ملك قبرص لتوحيد تاجي الجزيرة ومملكة بيت المقدس ، فعقد له عليها في سنة ١١٩٨م ٥٩٥ هـ . وكان اموري قد حاول نجدة يافا ، فلما وصل الى شواطىء الشام رأى انها قد سقطت في يد الملك العادل ، فعمد الى محاصرة بيروت ، وما كاد يضرب الحصار عليها حتى هرب أميرها عز الدين أسامة واستسلمت المدينة بدون قتال .

وهكذا اتسعت مملكة بيت المقدس فغدت تضم عكا وصور وبيروت وجزيرة قبرص . وكانت البقية الباقية من الألمان قد غادرت البلاد بعد هزيمة اخرى منيت بها عند حصن تبنين ووفاة مليكهم هنري السادس ، فوجد أموري نفسه وجهاً لوجه مع المسلمين ، في حرب تورط فيها ولم يكن له يد في اشعال نيرانها ، فآثر الموادعة والمصالحة ، وعقدت بين الفريقين هدنة لمدة ثلاث سنوات على أن يحتفظ كل من الفريقين بفتوحاته الجديدة وتقسم صيدا مناصفة .

ولعل الملك العادل كان احوج الى هذه الهدنة من أموري ، فقد توفي الملك العزيز في ٣٠ محرم سنة ٥٩٥ هـ اواخر تشرين الثاني نوفمبر) ١١٩٨ م ، وكان ابنه ناصر الدين محمد الذي لقب بالملك المنصور

ما يزال في العاشرة من عمره ، فأراد بعض أمرائه ان يعهدوا بالوصاية عليه الى عمه الملك العادل ، وأراد آخرون ان يعهدوا بها الى الملك الافضل ، وسبق هؤلاء مخالفيهم فاستدعوا الافضل من حوران وسلموه مصر : وتولى الغرور الملك الافضل فاتفق مع اخيه الملك الظاهر على انتزاع دمشق من يد عمهما العادل [1] .

وكان الملك العادل يحاصر ماردين في ديار بكر لخلاف نشب بينه وبين صاحبها النظام ، فلما علم بالمؤامرة سارع الى دمشق وأعدّها للدفاع ، وما لبث الافضل أن وصل على رأس جيش مصر ، كما وصل الظاهر على رأس جيش حلب ، فحاصرا المدينة ستة اشهر ، وكان الملك العادل يعمل سراً على استمالة امراء الأفضل والظاهر حتى استطاع اجتذاب معظمهم اليه ، ثم اخذ يبذل مساعيه لايقاع الشقاق بين الافضل والظاهر ففعلت مساعيه فعلها ، وما لبث كل منهما ان تخلى عن الحصار وعاد الى بلده ، الا ان العادل لحق بالأفضل فالتقى بجيشه عند بلبيس فأنزل به هزيمة منكرة ، ثم تبعه الى القاهرة واضطره الى الاستسلام وأعاده الى حوران واستولى على مصر [2] .

ولم تنقض سنة واحدة حتى عاد الافضل والظاهر الى الاتفاق مرة اخرى على انتزاع دمشق من يد العادل ، فما لبث هذا ان عاد الى دمشق واستطاع بذكائه ودهائه أن يستميل الظاهر اليه ، وأن يعاقب

---

١ — السلوك ج ١ ص ١٤٦ - ١٤٧ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣٥ ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٤٧

٢ — مفرج الكروب ج ٣ ص ٨٠ ، السلوك ج ١ ص ١٤٩ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣٦ - ٢٣٧

الأفضل بأخذ حوران منه واعطائه سميساط وحدها . أما الملك المنصور ابن العزيز فقد أقطعه حماة ، على أن يكون الثلاثة تابعين له يدينون له بالولاء والطاعة . وهكذا أعاد الملك العادل وحدة المملكة الأيوبية تحت سلطانه واناب عنه ابنه الكامل محمد في مصر ، وابنه المعظم عيسى في دمشق ، وابنه الاشرف موسى في حوران ، وابنه الأوحد في ميافارقين « وصار يتنقل في ممالك اولاده والعمدة في كل الممالك عليه [1] » . ويصف المؤرخون العادل سيف الدين بأنه كان ملكاً كثير المعرفة ، بعيد النظر ، عظيم الفطنة ، مستقيم السيرة ، حسن النوايا والمقاصد ، وكان ، شأن أخيه ، محباً للعلم والعلماء ، وقد أصبح ملكاً على الشام واعالي الجزيرة ومصر وجزيرة العرب دون منازع ، كما اصبحت امبراطوريته تماد في اتساع رقعتها امبراطورية أخيه ، وأضحت الخطبة تقرأ له من على المنابر وتضرب السكة باسمه [2] .

وكان الفرنجة في الشام يتابعون ذلك النزاع العائلي في المملكة الأيوبية دون أن يتدخلوا فيه ، وظل السلام مستتباً بين الفريقين باستثناء بعض المعارك المحلية أو المناوشات الجانبية . وكان الجميع ينتظرون الحملة الصليبية الرابعة ، فالفرنجة يعتقدون بأنها القوة المنقذة التي ستعيد لهم مستعمراتهم القديمة ، والمسلمون يستعدون قلقين ويوفرون قواهم للمعركة الحاسمة . وما كاد اموري يعلم بما انتهت اليه تلك الحملة من انحراف الى القسطنطينية واحتلالها والاستقرار فيها ، ونزوح عدد من فرسان الفرنجة وامرائهم في الشام الى بلاط بلدوين دى فلاندر امبراطور الدولة اللاتينية الجديدة ليستقروا من ثم في الاقطاعات التي كان يوزعها عليهم في بلاط

---

١ — السلوك ج ١ ص ١٥٩ ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢٧

٢ — مختصر تاريخ العرب ٣٢٦ - ٣٢٧

اليونان والبلقان ، حتى رأى لا بد له من تجديد الصلح مع المسلمين ، ولم يكن العادل بأقل منه رغبة في هذا الصلح ، فعقد الفريقان سنة ٦٠١ هـ ١٢٠٤ م هدنة جديده لمدة ست سنوات [١] . ويبدو ان العادل كان من الحرص على تحقيق تلك الرغبة بحيث تنازل للصليبيين في اتفاقية الصلح عن يافا التي كان قد احتلها منذ أعوام وعن النصف الخاص بالمسلمين في صيدا واللد والرملة [٢] .

وتوفي أموري دى لوسينيان في أوائل ابريل سنة ١٢٠٥ م ٦٠٢ هـ ، فآل عرش مملكة بيت المقدس الى ماري كبرى بنات ايزابيل من هنري دي شمبانيا بوصاية حنا الأول ديبالان حاكم بيروت ، وآل عرش قبرص الى هيو الأول ابن أموري ، فوقعت إثر ذلك عدة معارك بين المسلمين والفرنجة ، واشترك العادل في بعض هذه المعارك ، ولكنه لم يخض غمراتها الا مضطراً ، وبعد عدوان الفرنجة المتكرر ، وسرعان ما كان يعود الى المهادنة والموادعة لحرصه الشديد على سياسة الاعتدال والتسامح.

ولما بلغت ماري سن الرشد ، أنشأ الأمراء يبحثون لها عن عريس يتولى العرش مكان المليك الراحل ، ثم رأوا أن يكلوا هذا الأمر الى فيليب اوغست ملك فرنسة ليتولى اختيار الزوج المناسب ، فاختار حنا دي برين الذي كان في الستين من عمره ، وكان التفاوت في السن واضحاً بينه وبين عروسه التي لم تبلغ بعد سن العشرين ، ولكنه كان يجمع في

---

١ — Grousset : Hist. des Croisades. III. p. 184

٢ — مفرج الكروب ج ٣ ص ١٦٢ — ١٦٣ ، السلوك ج ١ ص ١٦٤ ، وقد كانت سياسة العادل السلمية وتنازلاته تتناقض مع جو الحماسة الذي ساد البلاد الاسلامية في تلك الفترة .

شخصه الصفات اللازمة للصليبيين في الشام ، ووصل العريس العجوز المفلس الى عكا في ايلول (سبتمبر) سنة ١٢١٠ م ٦٠٧ هـ ، بعد أن زوده كل من البابا وملك فرنسة بمبلغ من المال ، فتزوج من عروسه الشابة وتوّج ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية في كتدرائية صور[١] .

وكانت الهدنة بين المسلمين والفرنجة قد انتهت ، فرغب الملك العادل في تجديدها ، عملاً بسياسته التي كانت ترمي الى تحقيق السلام وتنمية الصلات التجارية مع الايطاليين[٢] ، الا ان فرسان الداوية قاوموا ذلك وقاموا ببعض الاعمال الاستفزازية لافتعال جو الحرب بين الفريقين[٣] ، فسرت موجة من الحماسة في البلاد الاسلامية ، وبنى المعظم ابن الملك العادل فوق جبل الطور المطل على عكا قلعة حصينة حشد فيها الصناع من كل بلد ، وشحنها بالرجال والذخائر والسلاح[٤] ، مما أثار مخاوف حنا دي برين فبادر الى طلب الصلح ، ولم يتردد العادل في الموافقة على ذلك الطلب فعقدت بين الجانبين هدنة تمتد الى سنة ٦١٤ هـ ١٢١٧ م .

وتوفيت ماري ملكة بيت المقدس سنة ١٢١٢ م ٦٠٩ هـ حزينة على شبابها الضائع[٥] ، ولكنها كانت قد انجبت من زوجها الكهل طفلة دعتها

---

١ – الحركة الصليبية ج ٢ س ٩٥٠

٢ – تاريخ سورية ولبنان وفلسطين لحتي ج ٢ ص ٢٤٢

٣ – كان فرسان الداوية والاسبتارية قد تولاهم الضجر خلال الهدنة السابقة ، فشل الأولون انفسهم بمساعدة بوهيمند امير طرابلس في الحروب التي نشبت بينه وبين ليو الثاني ملك ارمينية حول وراثة الحكم في انطاكية وحالفه فيها الملك الظاهر صاحب حلب، وعالج الآخرون ضجرهم بمساعدة ملك ارمينية في حربه مع سلاجقة الروم (انظر الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٥٣ و ٩٨٧ – ٩٨٩)

٤ – السلوك ج ١ ص ١٧٦

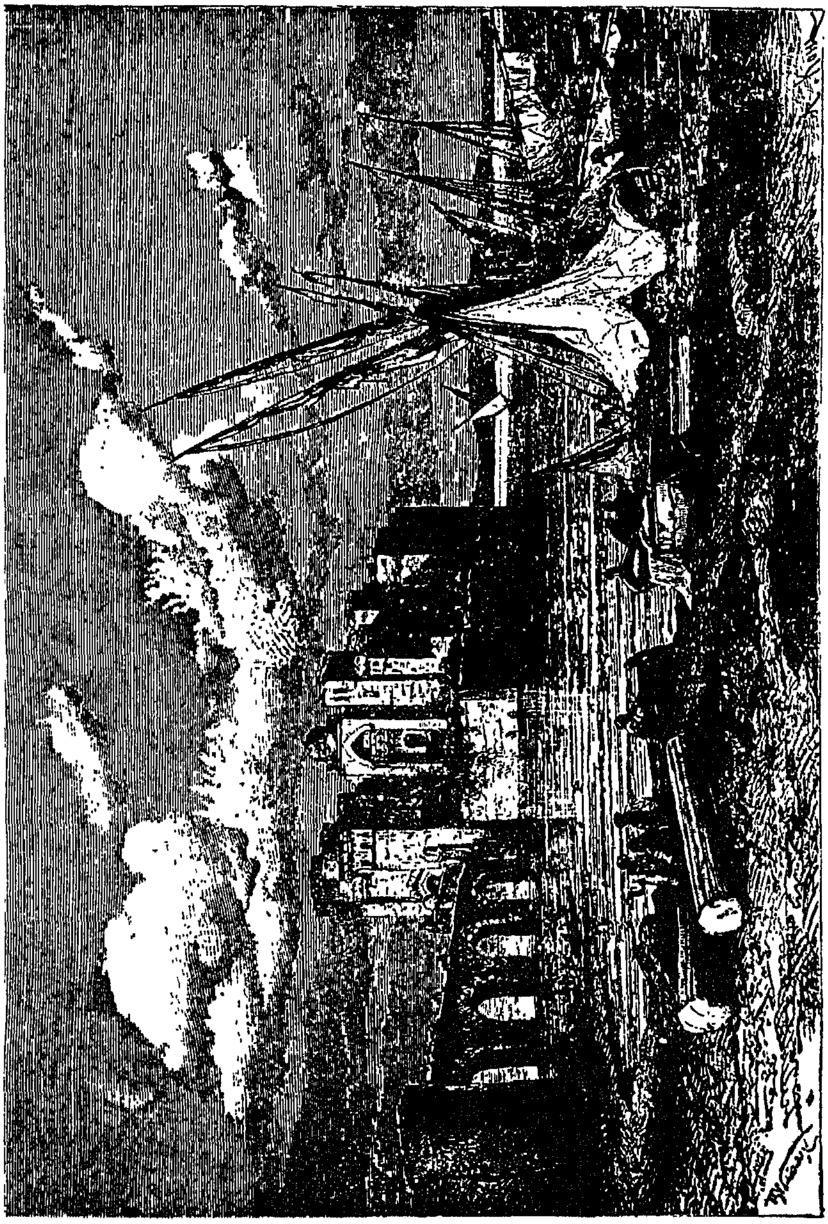
٤ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٥٢

يولاند ، فورثت الطفلة عرش امها ، وغدا حنا دى برين وصياً عليها .

وكان حنا دى برين قد استغاث بالدول الأوربية إثر توقيع الهدنة ، وطلب منها إعداد حملة جديدة على الشرق ، فما كاد أجل الهدنة ينتهي حتى بدأت جموع صليبية جديدة تتحرك في الغرب لنجدة الفرنجة في الشام ، وكان أغربها وأطرفها ما سماه المؤرخون « حملة الأولاد » ، وكان زعيم هذه الحملة فتى فرنسي يدعى اسطفان في الثانية عشرة من عمره ، اقتنع بأن المسيح قد أمره بقيادة حملة صليبية من الأولاد لانقاذ القبر المقدس ، فدعا أترابه الى التطوع معه في حملته مؤكداً لهم انهم لن يصلوا الى شاطىء المتوسط حتى ينشق البحر أمامهم فيصلوا الى هدفهم سالمين . وتداعى الاولاد والبنات من كل مكان متحمسين للانضمام اليه والزحف معه . وعبثاً حاول الآباء منع ابنائهم من الاشتراك في هذه المغامرة التي اختلفت آراء الناس فيها ، فمنهم من اعتقد بانها وحي من الروح القدس ، ومنهم من رآها نزوة طائشة من عمل الشيطان .

وفي احصاء الصبيان الجرمان خلاف ، فهو من عشرين الفاً الى أربعين الفاً ، وقد عبر هؤلاء جبال الألب ونزلوا الى الشواطىء الايطالية متوقعين ان يجدوا في البحر طريقاً عجائبية تقودهم الى فلسطين ، وكابدوا في الطريق من الأهوال ما قضى على قسم كبير منهم ، واستقبل البابا فلولهم الباقية فلاطفهم وأقنعهم بالعدول عن رأيهم والعودة الى بيوتهم .

أما الأولاد الفرنسيون الذين بلغوا على ما قيل ثلاثين الفاً ، فلما وصلوا الى مرسيليا كانت خيبتهم شديدة لأن البحر لم ينفلق عن طريق تفضي بهم الى فلسطين . وقد أدرك القنوط وخيبة الأمل قسماً كبيراً منهم ، فقفلوا راجعين الى بيوتهم . وعرض تاجران فرنسيان على خمسة أو ستة آلاف منهم ان ينقلاهم الى الأرض المقدسة دون مقابل ، فقبلوا ذلك



صيدا قبل تدمير قلعتها في عهد الأشرف خليل

متوهمين ان الاخلاق المسيحية الكريمة هي التي دفعت ذينك التاجرين الى تضحيتهما ، فنزلوا في سبع سفن ، وأقلعت بهم تلك السفن الى الشرق ولكن لا لتقلهم الى الأرض المقدسة بل ليبيعهم ذانك التاجران عبيداً في أسواق النخاسة [1] . ويقول المطران يوسف الدبس ان بعض هـؤلاء الاولاد استطاعوا الوصول الى عكا ، فزادوا الفرنج قنوطاً ووجلا ليأسهم من انجاد الرجال [2] !..

وبعد « حملة الاولاد » وصلت الى عكا الحملة الهنغارية ، وكان يقودها ملك هنغاريا ومعظم افرادها من الهنغاريين والألمان ، فقامت بغارات متعددة في سورية ولبنان ، وأراد الملك العادل منازلتها قرب بيسان ، ولكنه ما لبث ان تخلى عنها فاستولوا على هذه المدينة وعلى المنطقة المحيطة بها ، وغنموا كثيراً من الغلال والمواشي ، ثم حاصروا حصن الطور وقتاً طويلا دون ان يستطيعوا الاستيلاء عليه . ولكنهم ما كادوا يغادرونه حتى استدعى الملك العادل ولده المعظم وقال له : « قد بنيت هذا الطور وقد يكون سبباً لخراب الشام ! » ورأى العادل ان من الصعب حفظ هذا الحصن لقربه من عكا ، وان من الافضل خرابه للاستعانة بما حشد فيه من الرجال والسلاح لحفظ مدينة دمياط التي كانت هدف الحملة الصليبية الخامسة [3] .

---

١ – التاريخ العام لفيليب فان نس مير ص ٢٥٠

٢ – تاريخ سورية ج ٦ ص ٢٢٤

٣ – مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٥٥ – ٢٥٦ ، ذيل الروضتين ص ١٠٢ – ١٠٣ ، السلوك ج ١ ص ١٨٦

الفصل الخامس والعشرون

معركة دمياط

انتهت تجمعات الصليبيين في الغرب وتحركات الفرنجة في الشرق ، الى تنظيم حملة صليبية جديدة عرفت بالحملة الصليبية الخامسة ، وكان هدفها احتلال مصر ، لأن جمهوريات ايطالية البحرية كانت قد ادركت ان مركز الثقل في السياسة الاسلامية قد انتقل بعد وفاة صلاح الدين من سورية الى مصر ، وان سفنها لا يتسنى لها الاتصال بالبحر الاحمر والمساهمة في تجارة المحيط الهندي الرابحة ما لم يتم لها السيطرة على وادي النيل [١] .

وقد ترأس حنا دي برين تلك الحملة ووصلت سفنها الى دمياط في أواخر ايار (مايو) سنة ١٢١٨ م ٤ ربيع الاول ٦١٥ هـ ، فأقام الصليبيون معسكرهم على الضفة الغربية للنيل المواجهة لمدينة دمياط ، وقد وجدوا المدينة محصنة تحصيناً قوياً ، إذ كانت المآصر تمتد بعرض مجرى النيل ، وهي سلاسل من حديد عظام القدر والغلظ ، تمتد في

---

١ — تاريخ العرب لحتي وزميليه ج ٢ ص ٧٧٤

النهر لتمنع المراكب الواصلة من البحر من عبور أرض مصر ، يضاف الى ذلك برج السلسلة ، وهو بمثابة حصن بناه المسلمون وسط مجرى النهر لحماية المدينة ودفع أي عدوان يقع عليها [1] .

وبادر الملك الكامل الذي كان ينوب عن ابيه العادل في حكم مصر ، بالمسير مع جيشه الى دمياط ، وعسكر في العادلية على ضفة النيل الشرقية ، بينما أمر العادل نوابه وقواته في الشام بالغارة على أطراف المستعمرات الصليبية ليشغل الفرنجة هناك . الا ان ذلك لم يحل دون احتلال القوات الصليبية لبرج السلسلة وتحطيم المآصر التي تحمي مجرى النهر ، بعد نضال استمر ثلاثة أشهر . وكان ذلك البرج يعتبر « قفل الديار المصرية [2] » فلما استولى عليه الصليبيون – ولم يعد هناك ما يحول دون دخول سفنهم الى النيل – انتشر الذعر في صفوف المسلمين ، وتألم الملك العادل ألماً شديداً ، فاعتراه المرض وفارق الحياة .

وقد حاول الكامل ان يسد مجرى النهر ، باغراق عدد من السفن ، ولكن الصليبيين قابلوا ذلك بالالتجاء الى خليج يُعرف بالأزرق كان النيل يجري فيه قديما ، فحفروه حفراً عميقاً ، واجروا فيه الماء الى البحر المتوسط ، وبذلك تمكنت سفنهم من دخول النيل حتى وصلت الى موضع يقال له بورة بقابل العادلية حيث عسكر الكامل [3] .

الا ان احتلال برج السلسلة لم يوفر للصليبيين مكاسب سريعة ، لأن

---

١ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٩٦ ، السلوك ج ١ ص ١٨٨
٢ – السلوك ج ١ ص ١٩٠
٣ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٦٨ ، السلوك ج ١ ص ١٩٥

قسم من هؤلاء اعتبروا ان مهمتهم قد انتهت فعادوا أدراجهم الى اوربه وكان على حنا دي برين أن ينتظر وصول امـدادات اوربية جديدة كي يتـابع الزحف على مصر . وقد وصلت هذه الامدادات في ايلول سنة ١٢١٨ م ٦١٥ هـ ، وكان يرافقها الكاردينال بلاجيوس مندوباً عن البـابا وقائداً أعلى للحملة .

والغريب ان الكامل لم ينتقل الى مهاجمة الصليبيين على الضفة المقابلة من النيل ، الا بعد أن وصلتهم الامدادات المنتظرة ، فكان من جراء ذلك أن أخفق هجومه وتكبد خسائر فادحة ، الا انه استطاع مـع ذلك صد الفرنجة عن العبور الى الضفة الشرقية في محاولة جريئة قاموا بها لاقتطاف ثمار المعركة .

ولكن احداثاً داخلية خطيرة كانت تجري حينذاك في مصر ، فقد تآمر على الكامل عدد من قواده برئاسة عمـاد الدين أحمد المعروف بابن المشطوب ، لعزله واحلال أخيه الفائز محله في حـكم مصر . وعرف الكامل بالمؤامرة الا انه أخذ يداري المتآمرين « لكونه في قبالة العدو ولا يمكنه المقاهرة [١] » ثم ما لبث ان اختفى من المعسكر ، إذ تسلل منه الى أشموم طناح . ولما شعر قادة الجيش باختفاء الكامل ، غادروا المعسكر تاركين فيه كل ما معهم من مؤونة وسلاح ، ووجد الصليبيون الساحة خالية فانتقلوا الى الضفة الشرقية من النيل ، واستولوا على مـا في المعسكر ، وضربوا الحصار على دمياط [٢] .

ومرت مصر بفترة من الهلع والحيرة والقلـق تنذر بأسوأ مصير ،

---

١ – النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٣٠
٢ – السلوك ج ١ ص ١٩٦

لولا أن اسرع الملك المعظم الى مصر لنجـــدة اخيه ، واستدرج ابن المشطوب الى حيث اعتقله وأرسله الى الشام ، ثم جمـــع شتات الجيش وسار به مع أخيه الى فارسكور (فارس كور) لمهاجمة الصليبيين مـــن الخلف اذا هاجموا دمياط ، وبعثا بالرسل الى العواصم الاسلامية لموافاتهما بالأمداد . وهكذا استعادت البلاد رباطة جأشها ، واستطاعت دميـــاط أن تصمد في وجه الحصـــار الصليبي شهوراً عديدة عانى أهلها ألواناً رهيبة من الجوع والمرض واليأس والعياء « وأنزل الله عليهم الصـــبر ، فثبتوا مع قلة الأقوات عندهم وشدة غلاء الاسعار [1] »

وقد اشتهر في حصار دمياط شاب يدعى شمايل كان يخاطر بنفسه ويسبح في النيـــل ومراكب الفرنج محيطة به ، حتى يصل الى المدينة فيأخذ رسائل أهلها ويعود سابحاً من حيث أتى ، ورماة الفرنج تتبعه بالسهام ، ومحاربوهم يرمونه بالحراب ، وهو يتهارب كسمكة في المـــاء حتى يخلص من منطقتهم ، ويفضي الى حيث اسطول المسلمين عنـــد أشموم [2] .

ولكن البلاد العربية والاسلامية كان يتهددها حينذاك غزو جديد هو بلا ريب اكثر خطراً وأشد هولاً وأسوأ نتيجة من الخطر الصليبي القادم من الغرب ، وهو الغزو المغولي الزاحف من الشرق ، وكان لا بد لهذه البلاد أن تواجه هذا الغزو بالاتحاد والاستعداد ، ممـــا جعل الملك الكامل يتقدم الى الصليبيين بعرض سخي مقابل الجلاء عن مصر ، وهو

١ – المرجع السابق ج ١ ص ١٩٨
٢ – صور من البطولة ص ١٨٢

التنازل لهم عن مملكة بيت المقدس كما كانت عليه سنة ١١٨٧ باستثناء الأردن منها .

وقبل حنا دى برين هذا العرض السخي ، في حين رفضه الكاردينال بيلاجيوس وفرسان الداوية والاسبتارية ، وأصر هؤلاء جميعاً على إحتلال مصر ، ورأى ابناء البندقية وجنوة وبيزة الذين عارضوا الهجوم على مصر بادىء الأمر ، ان احتلال الدلتا سيؤمن لهم مكاسب تجارية هامة ، وغدت استعادة بيت المقدس بالنسبة للجميع أمراً ثانوياً [١] .

واشتدت حماسة الصليبيين فقاموا في ٢٩ آب (أغسطس) ١٢١٩ م ٦١٦ هـ بهجوم واسع على جيش الكامل ، ولكنهم سرعان ما ارتدوا عنه خاسرين وقد فقدوا كثيراً من القتلى والأسرى . وانتهز الكامل هذه الفرصة وجدد طلبه بعقد الصلح ، معلناً استعداده لاعطائهم القدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية ، وكل ما حرره صلاح الدين من بلاد الساحل باستثناء الكرك والشوبك . وكان يدفع الكامل الى ذلك شعوره بأن البلاد الاسلامية لن تستطيع نجدته لانشغالها بالخطر المغولي الذي يتهددها بينما وافت الفرنجة نجدات جديدة من الانكليز والفرنسيين والقبارصة ، والمجاعة التي كانت تهدد الشعب المصري لانخفاض فيضان النيل في تلك السنة مما جعلها من أشق السنين وأشدها على مصر [٢] .

ومرة اخرى وافق حنا دى برين على عرض الملك الكامل ، ورفضه الكاردينال بيلاجيوس وأصر كما يقول لامونت على ان يهزم المصريين

---

١ — Grouset : Hist. des Croisades, III. p. 223

٢ — السلوك ج ١ ص ٢٠٦

هزيمة تامة ساحقة بالاستيلاء على القاهرة ، وأيده الايطاليون والهيكليون وفرسان المستشفى [1] .

وكانت مقاومة دمياط قد أوشكت على الانهيار تماماً ، فحاول الكامل ان يمدها بخمسمائة من جنوده ، ولكن هؤلاء الجنود وقعوا في أيدي الفرنجة ، فقتلوهم وصفّوا رؤوسهم على الخنادق [2] فراع ذلك أهل دمياط وزاد في قنوطهم بعد أن « أهلكتهم الأمراض ، وغلت عندهم الاسعار حتى بيعت البيضة الواحدة من بيض الدجاج بعدة دنانير ، وامتلأت الطرق من الأموات ، وعدمت الأقوات ، وصار السكّر في عزة الياقوت ، وفقدت اللحوم ، فلم يُقْدَر عليها بوجه ، وآلت الحال بالناس أن لم يبق عندهم غير شيء يسير من القمح والشعير فقط ، فتسوّر الفرنج السور وملكوا منه البلد ، فكانت مدة الحصار ستة عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً ، وعندما اخذوا دمياط وضعوا السيف في الناس ، فلم يُعرف عدد من قتل لكثرتهم [3] » .

استسلمت دمياط في ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هـ ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٢١٩ م ، ووضع الفرنجة في أهلها السيف قتلاً و سراً [4] ، بينما كانت جيوش المغول تجتاح بقيادة جنكيزخان خوارزم وما وراء النهر ، وتقتحم بخارى والري وقزوين وهمذان ، وتدق أبواب العراق مهددة العاصمة بغداد .

---

١ – دراسات اسلامية ص ١٢٧
٢ – ذيل الروضتين ص ١١٦
٣ – السلوك ج ١ ص ٢٠٦
٤ – النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢٨



وقد تولى الذعر الخليفة العباسي الناصر ، وأرسل يستنجد بامراء الأقاليم ومنهم الملك الأشرف حاكم خلاط والجزيرة ، فأجابه معتذراً لأنه في شغل بنجدة أخيه الكامل وانقاذ مصر من غزو الافرنج . والواقع ان الأشرف ما لبث أن قدم الى مصر على رأس جيشه ، كما سار اليها المعظم وجيشه بعد أن عزز دفاع دمشق ودمر حصون تبنين وبانياس وصفد وشرع في هدم براج القدس وسورها حتى اذا قبل الصليبيون باستعادتها مقابل جلائهم عن مصر أخذوها مهدمة البناء [1] « فوقع البلد في ضجة مثل يوم القيامة ، وخرج النساء المخدرات والبنات والشيوخ والعجائز والشبان والصبيان الى الصخرة والأقصى ، فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم ، بحيث امتلأت الصخرة ومحراب الاقصى من الشعور ، وخرجوا هاربين ، وتركوا اموالهم واثقالهم ، وامتلأت بهم الطرق فبعضهم الى مصر وبعضهم الى الكرك وبعضهم الى دمشق [2] »

وبينما كان المسلمون في مصر يستعيدون معنوياتهم ويعززون قواتهم ، كان الخلاف يشتد بين الصليبيين بعد احتلال دمياط لرغبة كل فريق في الاستئثار بحكمها وتولي زعامة الحملة ، فرحل حنا دى برين الى عكا في ربيع سنة ١٢٢٠ م ٦١٧ هـ تاركاً مهمة القيادة للكردينال بيلاجيوس وحده ، وانصرف هذا الى تعمير دمياط وتوطين الجاليات الفرنجية فيها ، ونشاطاً في الزحف الى القاهرة في انتظار امدادات جديدة ، وتراخت يده عن الحصار البحري الذى كان الفرنجة قد ضربه بين دمياط وعكا ، فنشطت السفن الاسلامية هناك واحرقت عشر سفن للعدو [3] .

---

١ — Grousset ; Hist. des Croisades, III, P. 214

٢ — ذيل الروضتين ص ١١٥

٣ — السلوك ج ١ ص ٢٠٧
Grousset ; Hist. des Croisades, III, pp. 232 234

وقد جدد الكامـــل عرضه السلمي فرفضه الافرنج للمرة الثالثة ، واشترطوا مقابل الموافقة عليه أن تكون لهم الكرك بالاضافة الى مدن فلسطين ، وان يُدفع لهم ثلاثمائة الف دينار . ولا شك في أن انباء النجدات التي تُحشد في الغرب والحملة الصليبية الكبرى التي كان يقال ان الامبراطور فردريك الثاني يُعدّها في الغرب ، هي الـــتي كانت تقوي موقف الكردينال وتحمله على التشدد في مطالبه ورفض أي عرض سلمي، قائلاً انه من العار على الافرنج ألا يتموا ما بدأوا به بعد ان استبشروا بتمامه !

ولما وصلت الى دمياط حملة لويس دوق بافاريا ، اشتد ساعد الكردينال وقرر الزحف الى القاهرة ، وارسل الى حنا دى برين يطلب منه العودة الى دميــاط ، فوجد « ملك بيت المقدس » نفسه مضطراً الى المشاركة في العودة لئلا يتهم بعرقلة أعمال الصليبيين . وهكذا توافدت كما يقول المقريزي «امم الفرنج من داخل البحر تريد مدد الفرنج على دمياط،فوافى دمياط منهم طوائف لا يحصى لهم عدد ، فلمـا تكامل جمعهم بدمياط خرجوا منها في حدهم وحديدهم ، وقد زين لهم سوء عملهم أن يملكوا أرض مصر [1] »

وللمرة الاخيرة جدد الكـــامل عرض الصلح ، فاشتط الفرنجة في الطلب وأصروا على أن يعطيهم الكرك والشوبك الى جانب ما عرضه من البلاد ، بالاضافة الى خمسمائة الف دينار !

وتقدم الجيش الصليبي وسط مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات ،

---

١ - السلوك ج ١ ص ٢٠٣

هي بحيرة المنزلة شرقاً ، وفرع دمياط غرباً ، والبحر الصغير جنوباً [1].

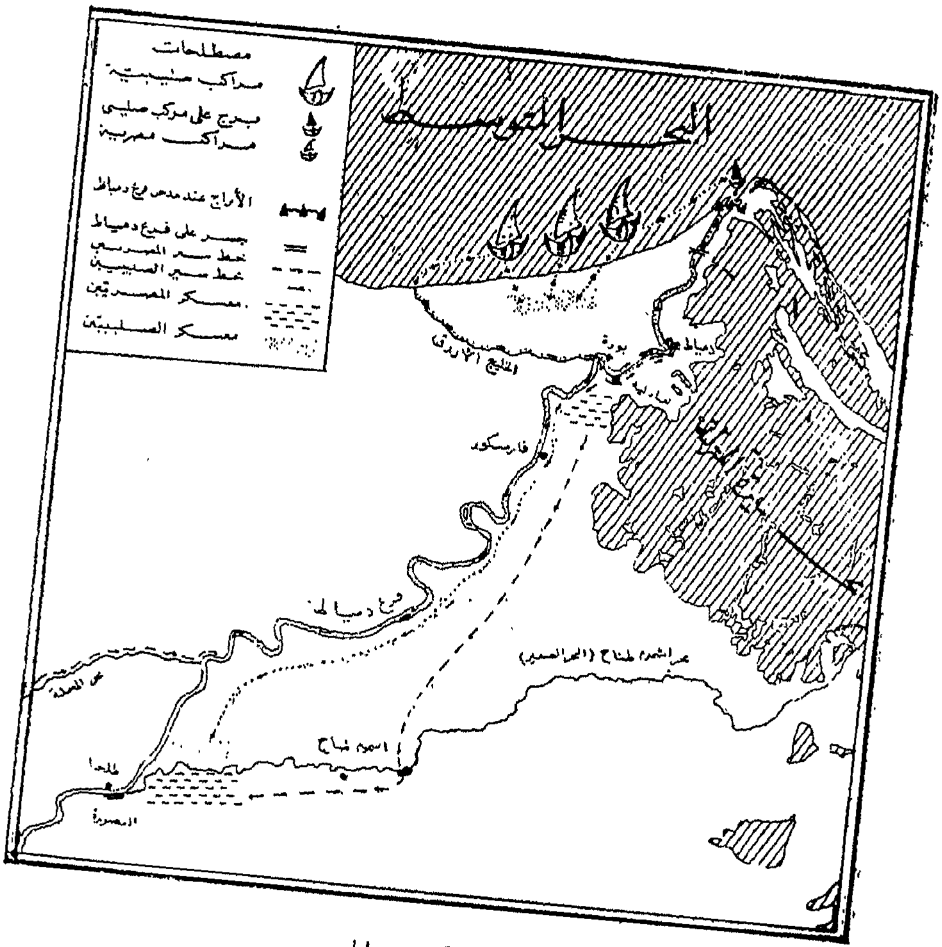
واحتال الكامل فأرسل سفناً من اسطوله بقيادة الأمير بدر الدين بن حسون في بحر المحلة ، وهو فرع كان يخرج من النيل قرب بنها الحالية ثم يعود فيتصل به شمال طلخا – فحالت هذه السفن بين مراكب الفرنج الآتية من الشمال بالمؤونة وبين الوصول الى عسكرهم عند المنصورة . وكان قد استجاب لاستنفار الكامل عدد كبير من الأهلين المتطوعين ، فعبر جماعة منهم في بحر المحلة الى الأرض التي يعسكر عليها الفرنج ،وحفروا مكاناً عظيماً في النيل ، وكان في وقت فيضانه ، فغمر الماء أكثر تلك الأرض ، وصار حائلاً بين الفرنج ومدينة دمياط ، وانحصروا فلم يبق لهم سوى طريق ضيقة . فأمر السلطان في الحال بنصب الجسور عند أشموم طناح ، فعبرت العساكر عليها ، وملكت الطريق التي يسلكها الفرنج الى دمياط اذا أرادوا الوصول اليها . فأيقن هؤلاء بأنهم باتوا محاصرين من كل الجهات ، وأدركوا ان الهزيمة تنتظرهم ، فهدموا خيامهم ومجانيقهم، وأشعلوا النار فيها ، ثم هموا بالزحف نحو جيش المسلمين ليشقوا لأنفسهم طريقاً الى دمياط ، فحال بينهم وبين ذلك كثرة الوحل والمياه ، وبسالة المقاتلين المسلمين ، ويقول المقريزي ان العامة منهم كانت تكرّ على الفرنج أكثر مما يكرّ عليهم العسكر ، فما لبثوا أن أصابهم الذعر ، وشاع الاضطراب في صفوفهم ، ولم يجدوا مفراً من طلب الأمان على أن يتركوا دمياط دون قيد أو شرط [2] !

واختلف قادة المسلمين حول قبول الصلح أو رفضه ، الا ان الملك

---

١ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٨٢

٢ – قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص ٥٠ – ٥١ ، السلوك ج ١ ص ٢٠٣ وما بعدها ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٤١


مصطلحات
مراكب صليبية
برج على مركب صليبي
مراكب مصرية
الأبراج عند مدخل فرع دمياط
جسر على فرع دمياط
خط سير المصريين
خط سير الصليبيين
معسكر المصريين
معسكر الصليبيين
البحر المتوسط
دمياط
بورة
الخليج الأزرق
فارسكور
فرع دمياط
أشموم طناح
طلخا
المنصورة

معركة دمياط

الكامل قرر الموافقة عليه ، واتفق الفريقـــان على أن يقدم كل منهما رهائن للآخر حتى يتم تسليم دمياط ، فأرسل الكامل ابنه الصالح نجم الدين ايوب وعدداً من قواده ، وأرسل الفرنج عشرين من كبرائهم على رأسهم الملك حنا دي برين والكردينال بيلاجيوس ، فأحسن استقبالهم وأكرم وفادتهم [١]

وتسلم المصريون دمياط في ٢٩ رجب سنة ٦١٨ هـ ٧ أيلول (سبتمبر) ١٢٢١ م ، محققين بذلك نصراً لم يكن في حسبانهم ، فـــأطلق الفرنج الصالح نجم الدين أيوب ومن معه ، كما أطلق الكامل رهائنه من الملوك والامراء . وجلا الافرنج عن مصر ، فعاد حنا دي برين الى عكا ، بعد أن عقد مع الكامل هدنة لمدة ثمانية أعوام كان الشرط الوحيد فيها ان يطلق كل منهما من عنده من الأسرى . وعاد أفراد الحملة الصليبية الخامسة الى بلادهم ، بعد أن قضوا في دمياط وعلى شاطئيها الغربي والشرقي ثلاث سنين وأربعة أشهر وتسعة عشر يوماً ، رفضوا خلالهـــا أربعة عروض باستعادة فلسطين مقابل الجلاء عن مصر !

ومن قصائد الشعراء في تمجيد هـــذا النصر والاشادة به ، قول ابن عنيّن من قصيدة أشار فيها الى موقف الكامل المتسامح وعفوه عنـد المقدرة :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى اذا جهلت أيامنا ، والقنا اللدنا
غداة التقينا دون دمياط جحفلاً من الروم ، لا يُحصى يقيناً ولا ظنا

---

١ – السلوك ج ١ ص ٢٠٨ ، ذيل الروضتين ص ١٢٩ ، المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ١٣٥ - ١٣٧ ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٣٤٩ – ٣٥٠

وأطمعهم فينـــا غرور فأرقلوا   الينا سراعاً بالجهاد ، وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم   بأطرافها حتى استجاروا بنا منّا
بدا الموت من زرق الأسنة أحمراً   فألقوا بأيديهم الينا ، فأحسنّا
وقــد عرفت أسيافنا ورقابهُم   مواقعها منا ، فان عاودوا عدنا
منحناهمُ منا حياةً جديدةً   فعاشوا بأعناق مقلدةٍ منـــــا
ولو ملكونا لاستباحوا دماءنا   ولوغاً ، ولكنا ملكنا فأسجحنا

الفصل السادس والعشرون

الامبراطور فردريك الثاني أو حملة التسامح

اشتد في اوائل القرن الثالث عشر التنافس الذي وصفنا نشأته في الفصل الأول من هذا الكتاب ، بين البابوية والامبراطورية المقدسة . فبينا كان الصراع على أشده بين الاسبانيين والعرب في اسبانية والمغرب ، وبين الصليبيين والمسلمين في الشرق الادنى ، كان ثمة صراع آخر يدور في غرب اوربة بين السلطة الكنسية والسلطة الزمنية ، للفصل في أمر طالما أثار النزاع والجدل ، أمر يلخصه هذا السؤال : من هو السلطان الأكبر : البابا أم الامبراطور ؟

وكان بطل هذا الدور الجديد من ادوار ذلك الصراع ، الامبراطور فردريك الثاني (الأنبرور) الذي ساعدته البابوية في القضاء على خصومه ، فما كاد يجمع تحت سلطانه صقلية وجنوبي ايطالية بالاضافة الى المانية ، حتى أخذ يهدد النفوذ البابوي بدهائه العظيم ، ومهارته الديبلوماسية ، وقوة شخصيته ، وشدة بطشه ، وعمله على ضم شمال ايطالية الى مملكته المترامية .

وكان الامبراطور قد وعد البابا غريغوري التاسع غير مرة بتنظيم

حملة صليبية جديدة تعيد للفرنجة في المشرق معنوياتهم التي انهارت بعد هزائمهم المتكررة ، ولكنه اخلف هذا الوعد ، ولعله لم يكن جـــاداً بـــه قط .

وأراد البابا أن يوجد للأمبراطور مصلحة مباشرة في الحرب الصليبية ، فأيـد فكرة زواجه من يولاند ابنة حنا دى برين ووريثة عرش بيت المقدس من امها ماري ، على أن يعقد الزواج في بلاد الشام ، فاستدعى فردريك خطيبته الى صقلية وعقـد زواجه عليها ، وكانت في الرابعة عشرة من عمرها ، الا انه وعد البابا مرة اخرى بالقيام بالحملة الصليبية المنتظرة في آب سنة ١٢٢٧ ، وتعهدله بايداع كفالة قدرها مائة الف اوقية مـن الذهب في خزينة البابوية بروما ، ولا تردّ الى الأمبراطور الا اذا وفى بوعده [١] . ولكن مرت الأيام دون أن ينفذ الامبراطور عهده أو يحقق وعده ، فكتب البـابا الى ملوك اوربة يشكوه لحنثه بيمينه ، فاستاء العاهل من ذلك وأعلن خصومته للحبر الروماني ، وا تمال أشراف روما فثاروا على البابا وأكرهوه على الفرار من رومة ، فانتضى البابا حينئذ سيفه الروحي وأعلن الحرم على الامبراطور [٢]

وكان فردريك من ب المـــاني وأم نصف ايطالية ، وقد نشأ في صقلية في جو الثقافة الاسلامية التي خلـّفها العرب ، والثقافة الغربية التي أدخلها النورمان [٣] ، فأجاد ست لغات منهـــا اللغة العربية ، وشغف بالعلوم والآداب ، وجعلت منه هذه المؤثرات المختلفة شخصية فذة بين

---

١ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٩٤
٢ – تاريخ سورية للمطران الدبس ج ٦ ص ٢٣٢
٣ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٩٥

معاصريه ، اكثر تحرراً ، وأعظم تسامحاً ، وأقوى مقدرة على التجرد العلمي ، واكثر اتصافاً بالروح العالمية ، حتى سماه المؤرخون « اعجوبة الدنيا » ويقول لامونت انه « كان لا أدرياً متسامحاً مع جميع الاديان [1] » وفي وسعنا القول ان عصر النهضة الايطالية ، انما بدأ في عصر فردريك الثاني وفي بلاطه بالذات

وقد سار فردريك في صقلية على غرار روجر الثاني الذي امتد حكمه فيها ما يقارب نصف قرن ، الذي كانت تغلب عليه في مظاهر حياته العادات العربية ، ويقرب اليه العلماء العرب واشهرهم العالم الجغرافي الأدريسي الذي كان صديقاً حميماً له ، وكانت اللغة العربية في عهده احدى اللغات الرسمية المعترف بها ، وعاش المسلمون والمسيحيون في الجزيرة خلال حكمه في اخاء وتفاهم وثيقين ، وقد رفض الاشتراك في الحملات الصليبية على الشرق أو في الهجوم على القيروان .

وكانت تربط فردريك بالكامل ملك مصر ، علاقات ودية ، مبعثها محبة كل منهما للعلم ، واهتمامهما بقضاياه ، ورعايتهما لرجاله ، واشتراكهما في المناظرات الأدبية والعلمية التي تعقد في بلاطيهما بين النخبة من اهل الفكر . وقد بعث فردريك الى الملك الكامل بعدة مسائل مشكلة في الهندسة والحكمة والرياضة ، فعرضها على الشيخ علم الدين الحنفي وأرسل جوابها اليه [2] . وكما كان فردريك معروفاً بالتسامح مع المسلمين ، فقد بلغ من عطف الكامل على رعاياه المسيحيين درجة جعلت الكنيسة القبطية تعدّه اكثر الملوك احساناً الى أبنائها ، وقد عرف القديس

---

١ — دراسات اسلامية ص ١٢٨

٢ — السلوك ج ١ ص ٢٣٢

فرنسوا الأستيزي ذلك عنه فزاره وباحثه في بعض أمور الدين [1] .

وهذا ما جعل الملك الكامل يستنجد بالامبراطور فردريك الثاني ، حين تحول أخوه الملك المعظم من محالفته الى مخاصمته ، واستنجد المعظم بجلال الدين الخوارزمي عليه وعلى أخيه الملك الأشرف ، فأرسل الكامل الى فردريك رسالة مع الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، يدعوه فيها للقدوم الى الشام ، ويعده بأن يعيد اليه بيت المقدس [2] .

وأمام هذه الدعوة أو هذا الاغراء ، لم يتردد الامبراطور — وهو الذي أخلف وعوده المتعددة للبابوية بالزحف على بلاد الشام ، ولم يأبه لقرار الحرمان الذي أصدره بحقه البابا غريغوري التاسع لهذا السبب — في الاستجابة لطلب الملك الكامل ، لا سيما وان الفرصة غدت مؤاتية له ليظهر نفسه بغير الصورة الجاحدة التي أرادت البابوية أن تصوره بها .

وهكذا تألفت الحملة الصليبية السادسة برئاسة فردريك الثاني ، الا انها كانت حملة فريدة من نوعها ، لأنها لم تنعم ببركة البابا ، كما ان زعيمها محروم منه ، وهي فوق ذلك حملة صغيرة لم يزد عدد المشتركين فيها على خمسمائة فارس ، لأن معظم الامراء والقادة قد انفضوا عن الامبراطور المحروم من الكنيسة ، وهذا العدد لا يكفي للانتصار على المسلمين في معركة جانبية صغيرة ، فضلاً عن ان اولئك الفرسان لم يأتوا بدافع الحماسة الدينية أو اية رغبة في العدوان أو الانتقام ، وكانت الحملة أشبه ما

---

١ — تاريخ العرب لحتي وزميليه ج ٢ ص ٧٧٤

٢ — السلوك ج ١ ص ٢١٦ - ٢٢٣ ، المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ١٤٨ ، الكامل ج ١٢ ص ٣١٥

تكون بزيارة ودية يقوم بها الامبراطور مع أفراد حاشيته لصديقه ملك مصر [١] .

الا ان فردريك الثاني لم يصل الى عكا الا في اواخر سنة ١٢٢٨ م ٦٢٦ ه بعد ان مر بجزيرة قبرص لتوطيد نفوذه وتثبيت حقوقه فيها . وكان الملك المعظم صاحب دمشق قد فارق الحياة في السنة الماضية ، وزال بوفاته الخطر الذي كان يتهدد الكامل والذي دعا الامبراطور من أجله ، بل ان الكامل ما لبث ان اتفق مع أخيه الأشرف على اقصاء الملك داود ابن المعظم عن عرش ابيه واقتسام مملكته ، وبادر الكامل الى احتلال القدس ونابلس ، واحتل الأشرف دمشق ، وعوّض الناصر داود بالكرك والبلقاء وبعض النواحي التابعة لها .

وقد حار الكامل في الموقف الذي يجب ان يتخذه من الامبراطور ، لأنه هو الذي دعاه الى الشام وألحّ عليه في المجيء اليها ليناصره على خصمه ، واعداً اياه بقسم من أملاك هذا الخصم وهو اخوه نفسه ، فلما وصل اليها لم يعد في حاجة الى مساعدته لأن هذا الخصم كان قد غاب ، وغدت الاملاك الموعودة جزءاً من مملكته ، وأضحى من واجبه ان يدافع عنها ، إن لم يكن بعامل الرغبة الصادقة في المحافظة عليها ، فبعامل الحفاظ على سمعته امام جماهير المسلمين .

ولم يكن موقف فردريك الثاني أقل دقة وحرجاً ، لأنه خرج من بلاده محروماً من الكنيسة ، مغضوباً عليه من البابوية ، معتمداً على وعد الكامل له باعطائه بيت المقدس لاستعادة نفوذه في الغرب ، ولو جاء

---

١ — Grousset ; Hist. des Croisades, III. p. 281

غازياً محارباً لاستقدم معه جيشاً قادراً على الغزو والحرب ، أما الآن فان جماع قوته خمسمائة فارس ، وهو لا يعتمد على أية مناصرة من القوى الافرنجية في الشام ، لان قادة هذه القوى تأبى النضال تحت لواء رجل محروم من الكنيسة مطرود من رحمتها . أما اذا عاد الى اوربة دون أن يحقق أيّ انتصار ، فانه سيعطي خصومه ، والبابوية في مقدمتهم ، سلاحاً قوياً للسخرية منه والتشهير به ، فالمسألة بالنسبة اليه اذن « كانت تعني مستقبل عرشه في الغرب الأوربي ، ومصير المعركة بينه وبين البابوية [٢] » وهو لم يتردد في التصريح لاصدقائه من المسلمين في الشرق بأنه « ما له غرض في القدس ولا غيره ، وانما قصده حفظ ناموسه عند الفرنج [٢] »

وهكذا كشف ملكان ، مسيحي ومسلم ، عن حقيقة الاهداف الدنيوية التي تسيرهما ، في صراع وصف بأنه ديني ، ولم يستطع ايّ منهما الا أن يتستر بهذه الصفة وهو أبعد ما يكون عنها . ولكن الأغرب والأعجب من هذا ، موقف البابا غريغوري التاسع الذي أخذ يسعى لدى الكامل ، ويرسل اليه الكتب ، محرضاً اياه على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور ، لأنه « كان يعلم انه لو قدر لفردريك الانتصار في مهمته ، فان ذلك سيكون في نظر المعاصرين بمثابة حكم الله للامبراطور المحروم ، وفي هذا فصل الخطاب بين فردريك وغريغوري أو بين الامبراطورية والبابوية [٣] »

---

١ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٠٨

٢ – السلوك ج ١ ص ٢٣٠

٣ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٠٨ نقلاً عن :

Kantorowicz, FredericK the Second, p. 185

وانتقل فردريك الى يافا ، واخذ يلهي من معه من الرجال بترميم الاسوار ، بينما كانت المفاوضات تجري بين العاهلين ، فقد بعث الكامل رسوله الامير فخر الدين يوسف الذي سبق ان حمل اليه دعوة ملك مصر للقدوم الى الشام ، مرحباً به ومقدماً اليه هدايا ثمينة ، ومصارحاً اياه في الوقت نفسه بأنه انما وعده ببيت المقدس ثمناً لمناصرته اياه على اخيه المعظم ، وبما انه لم يعد في حاجة الى هذه المناصرة ، وان بيت المقدس غدت من املاكه ، فانه لا يستطيع التنازل عنها ، لان ذلك سيثير عليه نقمة المسلمين

وشرح الامبراطور حرج موقفه ، وأنشأ يرجو ويستعطف ، حتى قيل انه كان يبكي في بعض مراحل المفاوضات [1] . وقد جاء في احدى رسائله الى السلطان : « أنا اخوك واحترم دين المسلمين احترامي لدين المسيح ، وانا وريث مملكة القدس ، وقد جئت لاضع يدي عليها ، ولا أروم أن انازعك ملكك ، فلنتجنب اراقة الدماء [2] » وجاء في رسالة اخرى : « انا مملوكك وعتيقك ، وليس لي عما تأمره خروج . وأنت تعلم اني اكبر ملوك البحر ، وقد علم البابا والملوك باهتمامي وطلوعي ، فان رجعت خايباً انكسرت حرمتي بينهم .. وهذه القدس فهي أهل اعتقادهم وضجرهم ، والمسلمون قد اخربوها فليس لها دخل طائل ، فان رأى السلطان ان ينعم عليّ بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه ، ويرتفع رأسي بين ملوك البحر [3] .. »

---

١ – المرجع السابق ج ٢ ص ١٠١٠

٢ – تاريخ سورية للمطران الدبس ج ٦ ص ٢٣٤

٣ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠١٠ نقلاً عن : المكتبة الصقلية ج ٢ ص ١٤ ، ذيل الباب الثاني والسبعين من كتاب الوافي بالوفيات .

ومرة اخرى كانت الكلمة الطيبة أفعل من السيف ، وكانت العلاقة الودية بين عاهلين اجدى من الحقد المفتعل بين قارتين ومذهبين ، فبعد مفاوضات استمرت شهرين كاملين ، عقدت بين الفريقين في ١٨ شباط (فبراير) ١٢٢٩ م ٦٢٧ هـ اتفاقية تقضي باقرار السلام بينهما لمدة عشر سنوات ، وان تمنح للصليبيين القدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا ، على أن تبقى القدس على ما هي عليه « ولا يجدد سورها ، وان تكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنج ، وان الحرم - بما حواه من الصخرة والمسجد الاقصى - يكون بأيدي المسلمين ، لا يدخله الفرنج الا للزيارة ، ويتولاه قوّام من المسلمين ، ويقيمون فيه شعائر الاسلام من الأذان والصلاة [1] . »

وسرعان ما وضعت هذه الاتفاقية موضع التنفيذ « فنودي بالقدس بخروج المسلمين منه وتسليمه الى الفرنج [2] » كما أعلن فردريك الثاني في جنوده : « اشكروا الله واحمدوه إذ أتمّ عليكم نعمته ، فان اتمامها كان معجزة من الله وليس نتيجة الشجاعة او الحروب . وما أتمه الله لم تستطع قوة من قوى البشر على الارض اتمامه لا بكثرة العدد ولا بالقسوة ولا بأية وسيلة اخرى [3] »

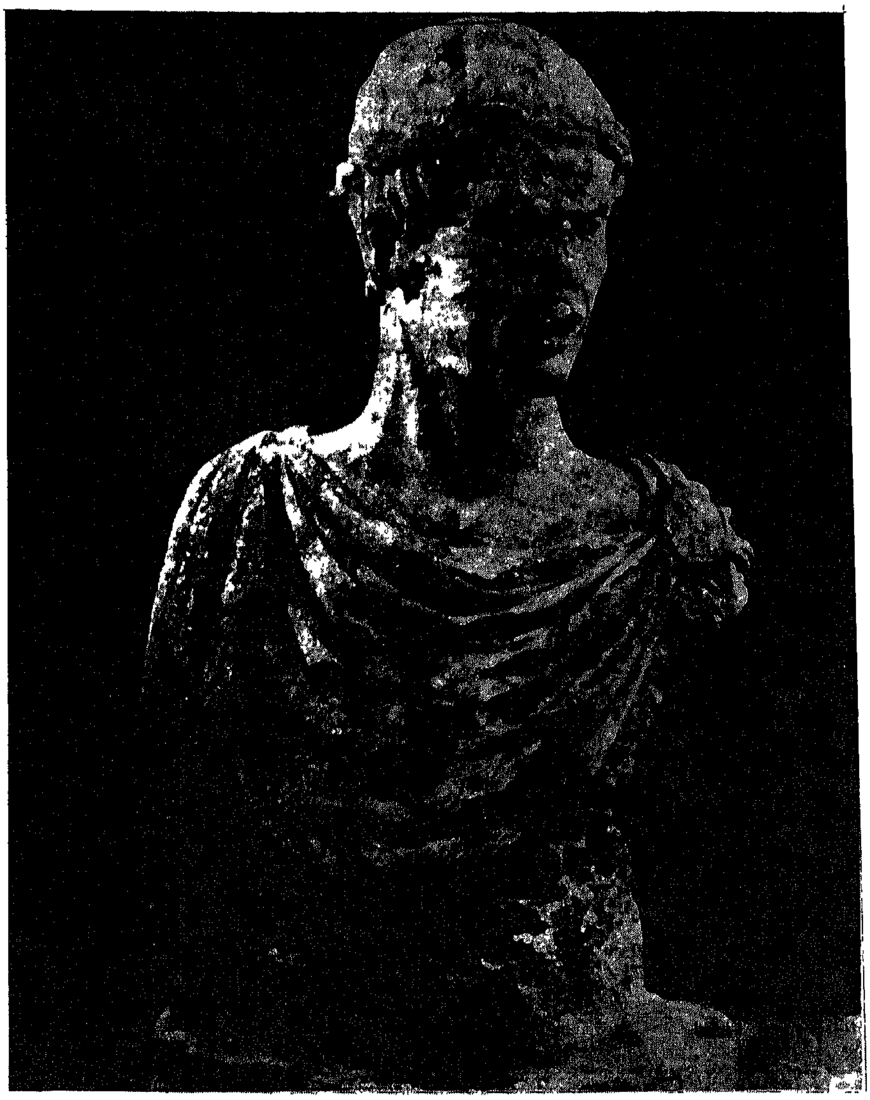
يقول بريبه : « وهكذا حقق فردريك الثاني ما عجزت عن تحقيقه الحملة الصليبية الثالثة ، وما أعيا ريشارد قلب الأسد وجيوشه اللجبة ،

---

١ - السلوك ج ١ ص ٢٣٠ ، المختصر في اخبار البشر ج ٣ ص ١٤٧ ، الكامل ج١٢ ص ٣١٥

٢ - السلوك ج ١ ص ٢٣١

٣ - شمس العرب ص ٢٧ ؛



فردريك الثاني « اعجوبة الدنيا »

دون ان يخوض معركة او يخسر رجلا واحداً [١] »

الا ان الرأى العام الاسلامي لم يجد لاتفاقية الكامل مبرراً ولم يستطع لها تفسيراً « فعظم على أهل الاسلام هـذا البلاء ، واشتد الانكار على الملك الكامل ، وكثرت الشناعات عليه في سائر الاقطار » أمـا في القدس « فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل ، وحضر الائمة والمؤذنون من القدس الى مخيم الكامل وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان » وقد بلغ من ذلك ان فردريك نفسه شعر بحرج موقف السلطان « فاعتذر للامير فخر الدين بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ما كلف السلطان شيئاً من ذلك [٢] »

واذا كان المسلمون قد شعروا بالغبن مـن جراء تنازل الملك الكامل عن قسم كبير من فلسطين دون قتـال ، لامبراطور لا يسير في ركابه سوى خمسمائة فارس غير قادرين على الانتصار في معركة جانبية صغيرة ، فان العالم المسيحي لم يهلن في الوقت نفسه لاستعادة بيت المقدس على يد امبراطور محروم ، ولم يرحب أحد باقرار السلام وحقن الدمـاء في الأراضي المقدسة ، وبلغ من توتر الموقف أن « وقـع جيرولد بطريرك مملكة بيت المقدس ، قرار الحرمان على المدينة نفسها ، وعلى من فيها من المسيحيين اذا هم استقبلوا الامبراطور المحروم من الكنيسة [٣] » وقـد توقفت على اثر ذلك الصلوات في الكنائس ، وامتنع الكهنة عـن اداء

---

١ -- L'Eglise et l'Orient, p. 203

٢ - السلوك ج ١ ص ٢٣١

٣ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠١٣ نقلاً عن :
Cambridge , Meed . Hist. p. 314

المراسم الكنيسية ، وحرض الجيش على العصيان ، وقذف الامبراطور وفرسانه بالقاذورات [1] .

وهكذا اضطر فردريك الثاني حين دخل بيت المقدس في ١٧ آذار (مارس) سنة ١٢٢٩ م ٦٢٧ هـ ، وتسلم مفاتيحها من القاضي شمس الدين قاضي نابلس الذي أرسله السلطان لمرافقة الامبراطور ، الى ان يتوج نفسه بيده في كنيسة القيامة .

وقد زار الامبراطور المسجد الاقصى ، وعلم وهو يقوم بهذه الزيارة، ان السلطان اصدر أوامره بالتوقف عن الأذان خلال أقامة فردريك الثاني في القدس ، احتراماً لشعوره ، فأخذ فردريك ذلك على القاضي شمس الدين قائلاً : « أخطأت فيما فعلت ، والله انه كان اكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم في الليل [2] » .

ويروي المقريزي ان العاهل شاهد قيساً يحمل الانجيل ويريد دخول المسجد الأقصى فنهاه عن ذلك ومنع دخول أي شخص من الفرنجة اليه الا بعد استئذان ، وقال : « انما نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده ، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الانعام منه ، فلا يتعدى احد منكم طوره [3] »

وتقول زيغريد هونكه : « وعلى الرغم من ان الذي حققه فردريك الثاني الخارج على الكنيسة باتفاقه مع السلطان الكامل كان انجح

---

١ – شمس العرب ص ٤٢٩

٢ – السلوك ج ١ ص ٢٣١

٣ – المرجع السابق ج ١ ص ٢٣٢

مما حققته الحروب الصليبية كلها ، فان اعداءه لم يتركوا فرصة العمل ضده الا واستغلوها فقد أرسل رئيس فرسان المعبد سراً برسالة يبدو انها بايحاء البابا غريغوريوس التاسع ، يخبره فيها بانهم -- اي الفرسان -- قد علموا ان الامبراطور سيخرج بصحبة نفر من أتباعه في ساعة معينة ، من بيت المقدس الى مكان معين من ضفة نهر الأردن الشمالية للصلاة .. وهم يدعون السلطان لانتهاز هذه الفرصة للفتك بالامبراطور وقتله .. واشمأز الكامل من خيانة هؤلاء الفرسان ، فأرسل الى الامبراطور نفسه هذا الخطاب المختوم بختم رئيس فرسان المعبد [1] ،

وبعد يومين من دخول الامبراطور الى بيت المقدس ، وصل اليها اسقف قيسارية ليوقع قرار الحرمان على المدينة وفقاً لقرار البطريرك جيرولد ، فتألم فردريك الثاني من ذلك ألماً شديداً ، وعادر القدس الى يافا ثم انتقل منها الى عكا حيث جمع رجال الدين وبعض النافذين وبرر أمامهم ما تذرعوا به في محاربتهم له من مآخذ على اتفاقية يافا تتعلق بمنح المسلمين في بيت المقدس بعض الحقوق والسماح لهم بالاحتفاظ بالمسجد الاقصى ، فلم يصغ اليه أحد منهم .

وكانت المدينة منقسمة الى انصار للبابوية ومؤيدين للامبراطورية ، فأراد ان يستعين بهؤلاء لاتخاذ تدابير مشددة بحق الفريق الآخر ، ولكن شؤونه في الغرب كانت أهم من مشكلاته في الشرق ، وقد وافته الانباء بان الجيش البابوي قد صادر ممتلكاته في ايطالية ، وبان حنا دي برين والد زوجته يولاند ، قد انضم الى خصومه ، فبادر بالرحيل في ١٠ حزيران سنة ١٢٢٩ م ٦٢٧ هـ الى قبرص فانطاكية ، حيث عقد الصلح

---

١ -- شمس العرب ص ٢٩ ؛

مع البابا بسان جرمانوس سنة ١٢٣٠ م ٦٢٨ هـ فرفع عنه قرار الحرمان، واعترف بأنه حقق للمسيحية مكاسب عظيمة .

ولكن الصلح بين الفريقين كان قصير الأجل ، اذ لم يلبث الخلاف ان أشتد بين البابوية والامبراطورية بعد وفاة البابا غريغوري التاسع سنة ١٢٤٣ م ٦٤١ هـ ، اذ عقد خلفه البابا انوسنت الرابع مجمعاً في ليون سنة ١٢٤٥ م ٦٤٣ هـ قرر فيه حرمان فردريك الثاني من جديد ، واشتد بذلك النضال بين البابا والأمبراطور وحاول كل منهما ان يضم الرأي العام لى جانبه تعزيزاً لمركزه ، وتأييداً للسلطة الدينية او السلطة الزمنية ولم تفت المؤرخين المسلمين حدة هذا الصراع ومعرفة بعض تفاصيله ، ويقول العيني في ذلك : « ان البابا غضب على الامبراطور وحرض خواصه الملازمين له على قتله وكانوا ثلاثة ، وقال : « قد خرج الانبرور عن دين النصرانية ومال الى المسلمين فاقتلوه وخذوا بلاده » . وأقطع كل واحد مملكة ، فأعطى واحداً صقلية ، والآخر تصقانة ، والآخر بولية ، وهذه ممالك الأنبرور . وكتب أصحاب الاخبار بذلك الى الأنبرور ، فعمد الى مملوك له فجعله في مكانه على التخت ، وأظهر أنه قد شرب دواء ، وأرسل الى الثلاثة فجاءوا والمملوك نائم على التخت فظنوه الانبرور . وقد اختفى الانبرور في مجلسه ومعه مائة فارس ، فلما دخلوا على المملوك مالوا عليه بالسكاكين فقتلوه ، فخرج عليهم الانبرور، فذبحهم بيده وسلخهم وحشا جلودهم تبناً وعلقهم على باب القصر . وبلغ الخبر البابا ، فبعث الى قتاله جيشاً ، والخلف واقع بينهم ، وهذا الانبرور هو الذي أعطاه الملك الكامل القدس [١] » .

---

١ – الشرق العربي بين شقي الرحى ص ٢٤

والواقع ان ما قام به فردريك الثاني في صقلية ، وما أدخله من انظمة جديدة في الحكم ، كانت له آثار بعيدة المدى ، فهو الحد الذي انتهت عنده الفكرة القديمة عن مدلول حكومة العصور الوسطى . فبدلاً من وجود مجتمع واحد يشمل العالم المسيحي ولا يتجزأ الا أجزاء متعددة داخلة فيه ، ظهر نظام مركزي مطلق غير مسؤول الا أمام القائمين عليه . وبدلاً من تلك النظرية التي كانت تفترض بناء سلطان الدولة على التزام أدبي ، ظهرت هذه السلطة المطلقة التي لا حد لها . وهكذا فقدت الكنيسة في صقلية تلك المكانة التي كانت تتبوأها في كل دولة من دول العصور الوسطى ، ولم يعد مقبولاً أن يوجد ميدان لأي نشاط سياسي ليس للسلطة الزمنية حق التدخل فيه [1].

---

١ - تاريخ العالم لها مرتن ج ٥ ص ٢٢٩ - ٢٣١ .

الفصل السابع والعشرون
لويس التاسع الملك القديس

انقضت بين الحملة الصليبية السادسة والحملة الصليبية السابعة عشرون سنة تعاقبت خلالها أحداث جسام على مسرح الشرق الأوسط ، كان أبرزها الصراع بين حنا دى ابلين صاحب بيروت وفردريك الثاني ، فقد احتل حنا دى ابلين قبرص فارسل فردريك جيشاً احتل بيروت ، فبادر دى ابلين الى انزال جيوشه قرب طرابلس وهاجم بيروت فاستعادها من جديد .

وكانت مملكة بيت المقدس تابعة اسمياً للامبراطورية الغربية ، ولكن الامبراطور وخلفاءه كانوا في شغل عنها بمشكلاتهم المتعاقبة في اوربة ، فترك ذلك فراغاً على صعيد الحكم والقيادة . وكان النفوذ الاسلامي والنفوذ الغربي يتقاسمان القدس ، فلا يستطيع أيّ فريق أن يقوي مراكزه ويوطد أعماله لشكه في المستقبل وتخوفه من مفاجأة طارئة .

وظلت عكا مركزاً لحكومة « مملكة بيت المقدس » باشراف مجلس بلدي يرأسه حنا دى ابلين خصم فردريك الثاني ، بينا كان يحكم القدس مندوب عن الامبراطور بوصفه الوصي على ابنه كونراد من زوجته يولاند ،

وعبثاً حاول البابا اقناع امراء الفرنجة بأن من حق فردريك الثاني الاشراف العام على شؤون الصليبيين في الشام ، وذلك قبل ان تقع الواقعة بينهما من جديد .

وكانت المعارك لا تنقطع بين الاسبتارية والداوية في امارتي انطاكية وطرابلس وسكان المناطق المجاورة لهما ، الا انها معارك جانبية حرص الفريقان على ألا تتحول الى حرب عامة ، كما تجددت المعارك في عهد بوهيمند الخامس أمير انطاكية وطرابلس بينه وبين ملك أرمينيـة « ولم يستطع بوهيمند الخامس طوال حكمه أن ينس للأرمن انهم استدعوا أخاه ليتولى الحكم ثم تخلصوا منه بالقتل [1] » .

وعلى الجانب الآخر من خارطة الشرق الأدنى ، كان الأيوبيـون في صراع مع سلاجقة الروم ، ثم صالحوهم واتفقوا معهـم على صد هجوم المغول الذي عاد فتجدد بعد ان توقف فترة من الزمن إثر وفـاة جنكيزخان . الا ان الأيوبيين والسلاجقة ما لبثوا ان اختلفوا من جديد . ثم اختلف الايوبيون فيما بينهم فتآمروا على الكامـل ، فسارع هذا الى احتلال دمشق واقصاء صاحبها اخيه الملك الصالح ، ثم ما لبث الكامل ان توفي سنة ٦٣٦ هـ ١٢٣٨ م مخلّفاً لابنه الملك العادل الثـاني السلطة العليا في مملكة الأيوبيين . يقول محمد كرد علي : « وأشبه حال الكامل حال معاوية بن أبي سفيان فانه حكم في الشام نائبـاً نحو عشرين سنة وملكاً نحو عشرين . وكان الكامل ملكاً جليلاً مهيبـاً حازمـاً حسن التدبير ، أمنت الطرق في أيامه ، وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه [2] » .

---

١ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٢٥

٢ – خطط الشام ج ٢ ص ٩٨

واضطربت المملكة الأيوبية اضطراباً شديداً في عهد العادل الثاني ، وغصت بأصحاب المطامع ، وبدأت تتمزق وتسير نحو الانهيار . ونشبت الحروب بين اسد الدين شيركوه صاحب حمص حفيد أسد الدين القائد المعروف ، والمظفر تقي الدين الثاني صاحب حماة ، كما استولى الملك الصالح نجم الدين أيوب على دمشق واشتبك في صراع عنيف مع أخيه العادل الثاني ، واستعان كل منهما بفئة من امراء الأيوبيين وبفريق من الخوارزمية الذين تفرقوا في البلاد بعد مقتل سلطانهم جلال الدين منكبرتي ، حاملين معهم الويل والخراب ، مقدمين خدماتهم لهذا أو ذاك من الامراء والسلاطين

وبلغ هذا النزاع الداخلي أوجه عندما عاد الصالح اسماعيل الى المسرح السياسي ، فاحتل دمشق ، ووقع الصالح أيوب في قبضة الناصر داود صاحب الأردن والكرك ، فاقتاده أسيراً الى قلعة الكرك ، واقتيدت معه شجرة الدر وقليل من صحابته ، فبقي في أسر الناصر شهوراً طويلة وهذا يفاوض بشأنه العادل في مصر ، حتى يئس الناصر من بلوغ امنيته في اعتلاء عرش دمشق عن طريق العادل ، فأطلق سراح الصالح أيوب وسار معه لانتزاع مصر من العادل ، وكان قادة الجند قد ثاروا بالعادل فأعلنوا الصالح أيوب سلطاناً على مصر .

ووصلت الى الشام خلال تلك الفترة حملتان صليبيتان لا يسلكها التاريخ في عداد الحملات الكبرى ، عرفت الأولى بالحملة الفرنسية والثانية بالحملة الانكليزية .

وقد وصلت الحملة الفرنسية الى عكا في اول ايلول (سبتمبر) سنة ١٢٣٩ م ٦٣٧ هـ وعلى رأسها تيبوت الرابع امير شمبانيا وملك النافار ، ، وعندما علم الناصر داود صاحب الأردن بنزول الصليبيين في عكا خرج

على رأس جيش صغير قاصداً القدس . وكان الصليبيون قد عمروا القدس وحصنوها ، وبذلك نقضوا الشروط المتفق عليها مع المسلمين ، فتحجج الناصر داود بما فعله الصليبيون واستولى على القدس [1] »

ولكن ما كاد الناصر داود يتحالف مع الصالح أيوب ويتولى هـذا ملك مصر بدلاً من العادل الثاني ، حتى غضب الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، لاسيا وان الملك الجديد في مصر قد وعد الناصر داود بمساعدته في الاستيلاء على دمشق ، فمد الصالح اسماعيل يده الى الصليبيين ، وطلب محالفتهم ضد الصالح ايوب في مصر والناصر داود في الأردن ، وفي مقابل ذلك تعهد باعطاء الصليبيين مدينة القدس واعادة مملكة الصليبيين الى ما كانت عليه قديماً بما فيها الأردن . ولكي يبرهن صاحب دمشق على صدق نيته تجاه الصليبيين بادر فوراً بتسليمهم القدس وطبرية وعسقلان ، فضلاً عن قلعة شقيف أرنون وأعمالها ، وقلعة صفد وبلادها ، ومناصفة صيدا وطرية وأعمالها وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل [2] »

وأمام هذا السخاء العجيب اشترك الصليبيون مع الصالح اسماعيل في الزحف على مصر مقابل وعد جديد منه باعطائهم جزءاً منها . وكان الرأي العام الاسلامي قد نقم على الصالح اسماعيل نقمة شديدة ، فما كاد جيشه يلتقي بجيش الملك الصالح قرب غزة حتى تخلى عنه من معه من القادة ، وساقت عساكر الشام الى عساكر مصر طائعة ، ومالوا جميعاً على الفرنج فهزموهم ، وأسروا منهم خلقاً لا يحصون [3] » .

---

١ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٣٤

٢ – المرجع السابق ج ٢ ص ١٠٣٧ ، انظر أيضاً : السلوك ج ١ ص ٣٠٣ ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٢

٣ - السلوك ج ١ ص ٣٠٥


ELLACOTT

وانسحبت فلول الافرنج الى عسقلان حيث عقدت صلحاً مع الملك الصالح ايوب ، ولم تلبث الحملة الفرنسية أن عادت الى بلادها في ايلول (سبتمبر) سنة ١٢٤٠ م ٦٣٨ هـ بعد أن استعادت للفرنجة القدس التي كان مجيئها الى الشرق السبب في فقدانها ، بالاضافة الى صفد وعسقلان وبعض الحصون .

ويقول لامونت في وصف هذه الفترة العجيبة من الحروب الصليبية ذات الأحداث السريعة المتلاحقة : « وكان المسلمون منهمكين انهاكاً شديداً بخلافاتهم الشخصية بحيث انصرفوا عن محاولة القيام بأي عمل موحد ضد اللاتين . حتى ان أفراد الطوائف العسكرية الكبيرة ، وهم ألدّ أعداء الاسلام ، نسوا المواثيق التي قطعوها على أنفسهم ، وحالفوا ، دون خجل ، المسلمين ضد النصارى ، وخاصة ضد الطوائف العسكرية الأخرى . فقد تحالف فرسان الداوية مع دمشق ضد فرسان الاسبتالية ومصر . وكانت المعارك التي وقعت بين طوائف الفرسان النصارى المتنافسة من أضرى المعارك التي حدثت في هذه الفترة [١] » .

وما كادت الحملة الفرنسية تغادر الشرق حتى قدمت الحملة الانكليزية الى عكا في ١١ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٢٤٠ م ٦٣٨ هـ يقودها ريشارد كورنول شقيق ملك انكلترة ، وقد اكتفى ريشارد بتقوية حصون عسقلان ، وبعقد اتفاقية جديدة مع الملك الصالح توطد دعائم السلام وتزيد من مكاسب الصليبيين بعض الشيء .

والواقع ان مكاسب الصليبيين كانت تزداد بفعل النزاع المستمر بين

---

١ — دراسات اسلامية ص ١٣٠ — ١٣١

امراء الاسره الأيوبية ، وقد بلغ من حدة هذا النزاع ونتائجه أن حاول كل من الملوك الايوبيين الثلاثة : الصالح ايوب ملك مصر ، وعمه الصالح اسماعيل ملك دمشق ، والناصر داود ملك الأردن ، محالفة الصليبيين ضد خصومه مقابل تعهده بأن تكون سيطرة الصليبيين على بيت المقدس تامة مطلقة ، بمعنى أن يستولي الصليبيون على الحرم الشريف بما فيه المسجد الأقصى وقبة الصخرة [1] .

وقد آثر الصليبيون محالفة الصالح اسماعيل والناصر داود ، لأن توطيد أواصر الصداقة مع ملكي دمشق والأردن كان أجدى عليها من محالفة ملك مصر ، لاسيما وان غزو مصر بالتعاون مع هذين الملكين يجدد أمامهم الأمل في احتلالها والاستيلاء على كنوزها وخيراتها ، مما دفع الملك الصالح أيوب الى الاستعانة بالخوارزمية ودعوتهم لمساندته في صد الهجوم الثلاثي ، فزحف عشرة آلاف منهم على بلاد الشام « وهم ينهبون ويقتلون ويسبون [2] » ، وارتكبوا من الفواحش ما ارتكبه التتار [3] ، واستولوا على طبرية ونابلس واحتلوا القدس في ١١ تموز (يوليه) سنة ١٢٤٤ م ٦٤٢ هـ

وقد استنجد فرنجة القدس بأمير انطاكية وطرابلس ، وبملك قبرص ، وبالصليبيين في عكا ، وبحلفائهم المسلمين في دمشق والأردن ، فلم ينجدهم أحد . وكان مسلك الخوارزمية في القدس وفي مطاردة الفرنجة الذين غادروها الى يافا ، يتناقض مع مسلك صلاح الدين وخلفائه الذين ورثوا

---

١ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٤٢ ، خطط الشام ج ٢ ص ١٠٣

٢ - السلوك ج ١ ص ٣١٦

٣ - خطط الشام ج ٢ ص ١٠٢

عنه شمائل النبل والمروءة والتسامح . ثم سار الخوارزمية الى عكا حيث التقى بجيش الملك الصالح أيوب في غزة ، واشتركوا معه في صد الجيش الشامي والجيش الصليبي اللذين كانا يقاتلان جنباً الى جنب وتحت أعلام واحدة ، الا ان الصالح أيوب وحلفاءه استطاعوا أن ينزلوا بخصومهم هزيمة ساحقة ، وأسر من الفرنج خلق من ملوكهم وكبرائهم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وخسروا عدداً كبيراً من فرسانهم وشجعانهم .

وكان من نتائج هذه المعركة ان انتزع الملك الصالح أيوب من الناصر داود القدس والخليل وبيت جبريل والأغوار ، ثم حاصر دمشق وفيها صاحبها الصالح اسماعيل وابرهيم بن شيركوه صاحب حمص . ولما ضاق صاحب دمشق بالحصار ذرعاً ، سيّر وزيره أمين الدولة الى العراق متشفعاً بالخليفة العباسي ليصلح بينه وبين أخيه ، فلم يجبه الخليفة الى ذلك . وما لبثت دمشق أن سقطت في يد الملك الصالح أيوب ، ولم ينفع الملوك والأمراء الموتورين منه نقمة الخوارزمية عليه ، وما قاموا به من أعمال ثأرية رهيبة حين منعهم من دخول الشام وأقطعهم بلاد الساحل ، في حين كانوا يعتقدون بأنه سيقاسمهم الغنائم ويشاطرهم الملك [1] . فقد استطاع بحزمه وثباته وبما لجأ اليه من اعمال الحيلة والتدبير ، أن يصدهم عن دمشق بعد حصار رهيب أكل الناس فيه لحوم الموتى ، وان يقهرهم بعد ذلك في معركة فاصلة وقعت بين بعلبك وحمص سنة ١٢٤٦ م ٦٤٤ هـ ، فانهزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة تشتت شملهم بعدها ، ومضت طائفة منهم الى التتار وصاروا معهم ، وانقطع منهم

---

١ – ذيل الروضتين ص ١٧٤ ، السلوك ج ١ ص ٣١٧ ، خطط الشام ج ٢ ص ١٠٤ .

جماعة وتفرقوا في الشام وخدموا به [1] »

وبينما كان الصالح أيوب يتابع انتصاراته في الشام والجزيرة ، كان جيشه المصري يتابع بقيادة الامير فخر الدين بن شيخ الشيوخ معاركه مع الفرنجة ، وقد أسفرت هذه المعارك عن استيلائه على قلعة طبرية في ١٧ حزيران (يونيه) سنة ١٢٤٧ م ٦٤٥ هـ وعن محاصرتـه عسقلان براً وبحراً واحتلالها في منتصف تشرين الأول (اكتوبر) ، وقد بادر الى تدميرها كي لا تتخذ من جديد قاعدة لمهاجمة مصر .

وهكذا استعادت المملكة الأيوبية بزعامة الملك الصالح أيوب وحدتها بكاملها تقريباً حتى حلب والجزيرة العليا [2] ، فلما زار القدس سنة ١٢٤٨ – ١٢٤٩ م ٦٤٦ – ٦٤٧ هـ ، أعاد تجديد حصونها وتقوية دفاعها ، وتوافد الملوك والأمراء اليهـــا لاعلان ولائهم له ، بينما تقلصت حـــدود الصليبيين الى يافا ، فكان لا بد من أن تقوم اوربة بمحـــاولة جديدة لانقاذ مستعمراتها في الشرق .

★

كانت اوربة التي استغاث بها الفرنجة في المستعمرات اللاتينية بالشرق في منتصف القرن الثالث عشر ، تختلف عن اوربة التي أعدت الحمـــلة الصليبية الأولى في أواخر القرن الحادي عشر . فالتعصب الديني كان في طريق الزوال ، وحرية الفكر كانت قد بدأت تنير مشاعلها في معاقل

---

١ – النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٢ – ٣٢٥ ، السلوك ج ١ ص ٣٢٢ – ٣٢٤ ، ذيل الروضتين ص ١٧٨ ، خطط الشام ج ٢ ص ١٠٦

٢ – تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢٣٩

الظلام ، وكان العلم ينصب أعلامه المظفرة واحداً بعد آخر على حصون الخرافة والطغيان

يقول بروكلمان : « وكانت فكرة الحرب في سبيل الأرض المقدسة قد انكمشت في تلك الفترة ، وعفّى عليها النسيان أو كاد [1] » .

وهكذا أعرض ملوك اوربة عن تلك الاستغاثة ، ولم يستجب لها سوى ملك واحد ، وفي ظروف وبواعث خاصة ، هو لويس ملك فرنسة (ريد افرنس [2]) الذي اشتهر بورعه وتقواه حتى لقب « الملك القديس » . وكان البابا انوسنت الرابع يقول عنه : « هذا أعز اولادي » ويسميه الناس « ابن البابا في الرب » وقد قيل فيه : « ان كل حياته كانت عبارة عن صلاة [3] » ، فقد أنشأته أمه الملكة بلانش ابنة الفونس التاسع ملك قشتالة وزوجة لويس الثامن نشأة دينية محضة حتى انها كانت تقول انه أهون على نفسها أن تشاهد مصرعه بعيني رأسها من أن يرتكب خطيئة تغضب الرب . فملكت عليه التعاليم الدينية نفسه وسيطرت على جوانحه ، وانعكس أثرها في حياته غلاماً ويافعاً وشاباً وملكاً [4] .

وقد أصيب لويس التاسع بعد أن تولى الملك ، بمرض شديد الوطأة أشرف فيه على الموت ، وانتابته غيبوبة فارق وعيه فيها ، فخيل لمن حوله انه قضى نحبه ، فأرادت احدى السيدات ان تسجيه قائلة انه

---

١ – المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٦.

٢ – كانت كلمة ملك (روا Roi) تلفظ بالفرنسية القديمة (روي Roy) ومن هنا كانت تسمية العرب للملك فرنسة : ري افرنس أو ريد افرنس .

٣ – تاريخ العرب لحتي وزميليه ج ٢ ص ٧٠٦.

٤ – الشرق العربي بين شقي الرحى ص ١٤

مات ، واعترضتها سيدة أخرى قائلة ان انفاسه مـــا تزال تتردد في صدره ، واذا به يستفيق من غيبوبته ، ويتماثل الى الشفاء . وفي احدى نوبات هذا المرض ، نذر الملك القديس على نفسه ، ان هو شفي من دائه ، القيام بصليبية جديدة قرباناً لربه وشكراً لنعمته .

وهكذا كانت الحملة الصليبية السابعة فرنسية محضة ، وكان على رأسها لويس التاسع وزوجته الشابة مرغريت دى بروفانس وأخواه روبير دى أرتوا وشارل دى أنجو وعدد من الامراء والفرسان ، واشتركت انكلترة فيها بفرقة رمزية صغيرة بقيـادة وليم طويـل السيف حاكم مقاطعـة سالسبوري .

والواقع ان بقايا الصليبيين في المشرق كان معظمهم من الفرنسيين أو المتحدرين من أصل فرنسي « حتى لقد وصف بعض المؤرخين الحركة الصليبية بأنها حركة توسع فرنسية في العصور الوسطى [1] » ، وقد جاءت الحملة الصليبية السابعة تؤكد ذلك ، وتحمل بالرغم من صفتهـا الدينية الظاهرة ، طابعاً استعمارياً محضاً . وعلى الرغم من تظاهر فردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية في الغرب ، بتأييد الحملة ، فقـد أرسل الى الملك الصالح أيوب وهو ابن صديقه القديم الملك الكامل ، ينبئه بتحركاتها وأهدافها [2] ، كما ان البندقيين عارضوا الحملة ولم يشتركوا فيها حفاظاً على مصالحهم التجارية في مصر ولاسيا في الاسكندرية [3] .

وقـد أبحر لويس التاسع من فرنسة في ٢٥ آب (اغسطس) سنـة

---

١ – الحركة الصليبية ج ٢ ص : ١٠٥

٢ – المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢١٩ الشرق العربي بين شقي الرحى حس ..

٣ – Hist. du Commerce, I. p. 409 - 412

١٢٤٨ م ٤ جمادى الأولى ٦٤٦ هـ ، وبعد أن قضى في قبرص فصل الشتاء ، واجتمع هناك بقادة الصليبيين في الشام ، متشاوراً معهم ، داعياً اياهم الى الاتحاد ونبذ الأحقاد ، اتجه باسطوله الى دمياط فوصلها في أوائل حزيران (يونيه) سنة ١٢٤٩ م ربيع الأول ٦٤٧ هـ ، وكان عدد وحداته البحرية نحو الف وثمانمائة قطعة [١] ، تحمل نحو خمسين الف مقاتل [٢] من مشاة وفرسان ، بكامل معداتهم وسلاحهم ومؤنهم وخيولهم ، وبلغ من كثرة السفن انها كست البحر حتى لم يعد يُرى سوى الساريات وهي تعلو وتهبط فوق سطح الماء [٣] .

وكان أول ما فعله الملك القديس حين بلغت سفنه مياه دمياط انه كتب الى الملك الصالح مهدداً متوعداً ، داعياً اياه الى الاستسلام ، وقد جاء في رسالته كما رواها المقريزي : « أما بعد فانه لم يخف عنك أني امين الامة العيسوية ، كما أني اقول انك أمين الأمة المحمدية ، واني غير خاف عنك ان اهل جزائر الاندلس يحملون الينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ، ونستأسر البنات والصبيان ، ونخلي منهم الديار ، وقد أبديت لك ما فيه الكفاية ، وبذلت لك النصح الى النهاية ، فلو حلفت لي بكل الايمان ، ودخلت على القسوس والرهبان ، وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان ، ما ردني ذلك عن الوصول اليك ، وقتالك في أعز البقاع عليك ، فان كانت البلاد لي ،

---

١ – اضطرت الرياح بعض هذه السفن للالتجاء الى شواطىء الشام فلم تصل الى الشاطىء المصري ثم لحق بعضها ببقية قطع الاسطول .

١ – يقدر بعض المؤرخين عدد افراد حملة لويس التاسع بثمانين الفاً (انظر قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص ٣٥) .

٣ – هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ص

فيا هدية حصلت في يدي ، وإن كانت البلاد لك والغلبة عليك ، فيدك العليا ممتدة اليّ ، وقد عرّفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي تملأ السهل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون اليك بأسياف القضاء [1] » .

وكان الملك الصالح كبير الهمة عالي الاطماع تحدثه نفسه بالاستيلاء على الدنيا كلها ، ويرى أبو المحاسن انه اعظم ملوك بني أيوب وأجلهم ، وأحسنهم رأياً وتدبيراً ومهابة وشجاعة وسؤدداً بعد السلطان صلاح الدين ، فساوره الغضب حين تلقى رسالة لويس التاسع وأجابه عليها ساخراً : « وصل كتابك ، وانت تهدد به بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، فنحن أرباب السيوف ، وما قتل منا فرد إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه . فلو رأت عيناك أيها المغرور حدّ سيوفنا ، وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، واخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل ، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولا بدّ ان تزلّ بك القدم ، في يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسيء بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون . فاذا قرأت كتابي هذا فكن فيه على أول سورة النحل : « أتى امر الله فلا تستعجلوه » وكن فيه على آخر سورة صاد . « ولتعلمن نبأه بعد حين » ونعود الى قوله تبارك تعالى وهو أصدق القائلين : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة باذن الله والله مع الصابرين » . والى قول الحكماء : « ان الباغي له مصرع » وبغيك مصرعك والى البلاء يقلبك ، والسلام [2] » .

---

١ و ٢ – السلوك ج ١ ص ٣٣٤ – ٣٣٥

وكان الملك الصالح لما علم باتجاه الفرنجة شطر دمشق ، مـــا يزال يعالج ثورات الأمراء في الشام ، ونزاع بعضهم مع بعض ، فأسرع بالعودة الى مصر بالرغم من اعتلال صحته ، وعسكر بجيشه عند اشموم طناح في شهر صفر سنة ٦٤٧ هـ ايار ١٢٤٩ م ، وهي احدى المدن المصرية القديمة وتقع على الشاطيء الشرقي للبحر الصغير الذي كان يسمى وقتذاك بحر أشموم نسبة الى هذه المدينة ، ليكون في مقابلة الفرنج ، وقد افـــاد من تحذير فردريك الثاني له ، فاحتاط لمواجهة الخطر ، وعزز دفاع دمياط التي كانت هدف الصليبيين في حملاتهم السابقة على مصر .

ولكن الصدام الأول اسفر عن هزيمة مروعة للمسلمين . فقد عهـــد الصالح ايوب الى قسم من جيشه برئاسة الأمـير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، بحماية الضفة الغربية للنيل المواجهة لدمياط ، وهي المنطقة التي اختارها لويس التاسع لانزال جيوشه ، فلم يستطع جيش الامـير فخر الدين منع الفرنجة من النزول ، ونشبت معركة عنيفة بين الفريقين ، تفوق الفرنجة فيها لكثرة عددهم ، وهرب فخر الدين بمن بقي سالماً من افراد الجيش الى الضفة الشرقية التي تقوم عليها دمياط ، ولكنه خشي الاحتماء بالمدينة وتابع هربه الى اشموم طناح .

وريع سكان دمياط وحاميتها حين شاهدوا هــذه الهزيمة ، وتراءت لهم صور المجازر الوحشية التي عاناها اهل المدينة ايام حملة جان دى برين فغادروا البلدة هاربين ، بعد ان اشعلوا النار في الاسواق حتى لا تقع بما فيها من الخيرات غنيمة في ايدي الافرنج ، وفاتهم كما فات افراد الجيش من قبل ان يحطموا الجسر المؤدي الى الضفة الغربية ، فغدت دمياط لقمة سائغة في ايدي الافرنج ، حتى إن هؤلاء لم يصـدقوا الامر ، وظنوا ان اخلاء المدينة وترك ابوابها مفتوحة على هذا الشكل مكيدة ، فتمهلوا حتى ظهر ان الناس قد فروا وتركوها ، فدخلوا المدينة بغير كلفة ولا


ELLACOTT

مؤنة حصار ، واستولوا على ما فيها من الالات الحربية والاسلحة العظيمة والعدد الكثيرة ، والاقوات والذخائر والاموال والامتعة وغير ذلك ، صفواً عفواً [1] ، وكان سقوط دمياط بهذه السرعة وهذه الصورة ، مصيبة لم يجر مثلها [2] .

يقول المقريزي · « وقد كانت دمياط في أيام الملك الكامل لما نازلها الفرنج اقل ذخائر وعدداً منها في هذه النوبة ، ومع ذلك لم يقدر الفرنج على اخذها الا بعد سنة ، وعندما فني اهلها بالوباء والجوع . وكان فيها هذه المرة ايضاً جماعة من شجعان بني كنانة فلم يغن ذلك شيئاً [3] ». والواقع ان الملك الصالح لم ينس إن هزيمة دمياط السابقة إنما كان سببها إنعدام الاقوات بعد طول الحصار ، فشحنها بالجند والأقوات والآلات العظيمة والذخائر الوافرة [4]

ويوجه المؤرخون اللوم الى الامير فخر الدين لانه لم يثبت في المعركة ، ولم ينتقل الى دمياط ليقاوم فيها ، ويقال انه كان يطمع في الملك وقد خشي ان يموت الملك الصالح وهو في المعركة ، فتخلى عنها وانتقل الى معسكر السلطان [5] ، ولكن تصرف فخر الدين بعد وفاة الملك الصالح ينفي ذلك . ويقول الاستاذ حسن حبشي : « لم يكن فخر الدين بالقائد الذي يستهان به ، وما كان فراره من دمياط الا عجيبة في تاريخه ، وهو الفارس القائد باعتراف الامبراطور فردريك الثاني صديقه الحميم [6] » .

---

١ – السلوك ج ١ ص ٣٣٦
٢ – النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٨
٣ – السلوك ج ١ ص ٣٣٥
٤ – قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص ٥٦
٥ – انظر الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٦١
٦ – الشرق العربي بين شقي الرحى ص ٦٥

والواقع ان صحة الملك الصالح كانت تسوء يوماً بعد يوم ، حتى انه لما وبخ مماليكه على تخاذلهم وقال لهم : « ما قدرتم تقضون ساعة بين يدي الفرنج » وأعدم نفراً من قادة المعركة ، تخوف المماليك من نواياه وارادوا الفتك به ، فقال لهم فخر الدين : « اصبروا عليه فهو على شفا ... فان مات فقد استرحتم وإلا فهو بين ايديكم [1] .. »

ولما اشتد المرض بالملك الصالح حُمل الى قلعة المنصورة التي بناها والده الملك الكامل على الجانب الايمن لفرع دمياط عند مفترق النيلين الى دمياط واشموم طناح ، وقد اطلق عليها هذا الاسم لما احرزه الكامل فيها من انتصار على الصليبيين كما رأينا في الفصل الخامس والعشرين . وكان الصالح على الرغم من مرضه يطلب الامداد ، ويعيد تنظيم الجيش ، ويعزز وسائل الدفاع ، بينما كان لويس التاسع ينتظر وصول اخيه الفونس دى بواتيه بالامداد التي طلبها كي يواصل زحفه في مصر ، وقد قضى في الانتظار خمسة أشهر انصرف خلالها الى العناية بدمياط وتحصينها ، وتحويلها الى مدينة فرنجية ، وإقامة شعائر المذهب الكاثوليكي فيها .

وفات الملك القديس ان الفترة التي قضاها في الانتظار ، قد اعطت خصومه وقتاً كافياً لتعزيز قواهم وتنظيم دفاعهم ، بحيث بدأ مركز الثقل يتحول الى جانبهم ، مما جعل نابوليون يقول بعد نيف وخمسة قرون : « ان جمود الجيش الفرنسي في دمياط كان غلطة من ابعد الاغلاط عاقبة في تاريخ الحروب » .

ولكن ثمة كارثة وقعت فجأة في معسكر المسلمين ، هي وفاة الملك الصالح ، أدت إلى ظهور امرأة على المسرح السياسي هي شجرة الدر .

---

١ - السلوك ج ١ ص ٣٣٦

الفصل الثامن والعشرون

شجرة الدر ومعركة المنصورة

يمتزج في سيرة شجرة الدر[١] الحب والبغض والنعيم والشقاء ، وتتلاقى أطياف العظمة والبطولة مع أشباح الحقد والغدر ..

وشجرة الدر جارية اشتراها الملك الصالح أيوب ، وكانت ترافقه في معتقله بالكرك يوم أسره الناصر داود وقد شاطرته آلام المحنة والاعتقال بشجاعة وصبر ، فما لبثت هذه الجارية أن برزت وغدت ملكة مرهوبة الجانب عظيمة الشأن .

لقد كانت جارية مغمورة لم يعرف المؤرخون لها نسباً ، بل لم يستطيعوا التأكيد بأنها تركية أو أرمنية أو رومية .. فهي واحـــدة من الوف الجواري والسميرات والحظيات ، وكلهن أعجميات كان يؤتى بهن الى بلاد العرب أسراً او شراء ، فيكنّ أشبه بالمتاع يتهاداه الناس ، ويعشن

---

١ – اختلف المؤرخون في اسم شجرة الدر فقد ورد لدى ابن واصل وابي الفدا وابن خلدون وغيرهم : شجر الدر ، وأورده الصفدي والمقريزي والسيوطي وغيرهم : شجرة الدر ، والراجح ان اسمها الصحيح هو «شجر الدر» وان « شجرة الدر » هي التسمة الشعبية الشائعة.

في الظل حتى ينجبن الأطفال ، فيظفرن حينئـذ بشيء من الاحترام ، وتسمى الواحدة منهن « أم ولد » .

هكذا يبدأ التاريخ القصة العجيبة التي تؤلفهـا سيرة شجرة الدر ! ويضيف التاريخ انها كانت ما تزال يوم دخلت مصر جارية للملك الصالح رغم انها ولدت ابنه خليل ، وان الملك الصالـح لم يكد يتولى العرش حتى تألق نجم جاريته ، فتبوأت في البلاط المكان الأسمى ، وغدت مصدر النهي والأمر ، ولاسيا بعد ان اقنعت زوجها الملك بأن يستكثر من المماليك ليستظهر بهم على خصومه من الأيوبيين

ونستطيـع ان نتبين من خلال هذه الرواية شيئـاً من ملامح شجرة الدر ، فنعرف انها كانت الى جانب ما تتمتع به من فتنة وعذوبة وجمال خلاب ، ذات شخصية قوية وثقافة واسعة وذكاء حاد ، وقـد أثرت شخصيتها في سيدها فقدر مواهبها وسداد رأيها ، وأشركها في امور دولته منذ حظي بها في حلب ، واتخذها رفيقة له تشاطره نعيم الحياة وبؤسها ، وتتقاسم معه أعباء الملك .

وفي وسعنا ان نمعن في الخيال ، فنعود الى ماضي شجرة الدر لنرى انها على الرغم من اصلها الاجنبي قد نشأت نشأة عربية خالصة ، وحرص التاجر الذي سباها او اشتراها على تخريجها في الفنون والآداب وتهذيبها بأخلاق البلاط ، حتى غدت واحدة من اولئك الجواري المبررات اللامعات اللواتي سيطرن على قصور المـلوك والأمراء في أواخر العصر العباسي ، وكنّ وقد اكتملن عقلاً وخلقاً وجمالاً ، كتلك التي أقبلت على علي بن الجهم في مجلس أحد اصدقائه فهمس صديقه في اذنه مداعباً : « يا أبا الحسن .. هذه الجنة التي كنتم توعدون !.. »

وكان الملك الصالح حين جلس على عرش مصر في الرابعة والثلاثين من



شجرة الدر كما تخيلها أحد الرسامين الغربيين

عمره ، وكانت شجرة الدر على ما توحي به سيرتها في حدود الخامسة والعشرين ، وكان يحبها حباً عظيماً وقد رأى من سطوع مواهبها ومـا اشتهرت به من عفة وفضيلة ، انها خليقة بأن تكون زوجة له ، فاعتقها وتزوجها ، فاكتسب نفوذها بذلك صفة شرعية ، وأنشأت تسهم بنصيب أوفر في شؤون الدولة واعمال البر .

وانقضت عشر سنوات من حكم الملك الصالح وهي تنعم معه برخاء عميم ، وسعادة وارفة الظلال ، وتشاطره مجده وقوته ورفعة شأنه ، وتوطد معه أركان مملكته المترامية .

ولما بلغت الحملة الصليبية السابعة المياه المصرية ، وارسل لويس التاسع الى الملك الصالح يبلغه انه جاء بعسكر بعدد الحصى ، ويحذره من المقاومة المقيمة ، وينصحه بالخضوع والتسليم ، كان الملك يعاني وطأة المرض ، فتولته الحيرة والاضطراب ، وجعل يقرأ الكتاب وعيناه مغرورقتان بالدمع ، إلا ان شجرة الدر وقفت الى جانبه تبث فيه روح العزيمـــة والأباء ، وتحضه على المقاومة المستميتة ، فتذرع بالشجاعة ، واجاب على كتاب لويس التاسع بكتاب أنشأه كاتبه قاضي القضاة الشاعر بهاء الدين زهير ، فرد كما رأينا في الفصل السابق على التهديد بمثله ، وحذر ملك الفرنجة من عاقبة البغي والعدوان .

وكذلك وقفت شجرة الدر الى جانب الملك الصالح خلال مرضـــه المقعد بعد سقوط دمياط وانتقاله الى المنصورة ، تسهر عليه ، وتقوي من عزيمته ، وتسهم معه في تحصين المدينـــة ، وحشد القوى ، حتى اشتدت عليه وطأة المرض فمات في ١٥ شعبان سنة ٦٤٧ هـ ٢٢ تشرين

الثاني (نوفمبر) ١٢٤٩ ، وأوصى بالعرش لولده الملك المعظم تورانشاه [١] نائبه في البلاد الشرقية ، وكان يومئذ في حصن كيفا بدياربكر [٢] ، فأرسلت شجرة الدر فارس الدين أقطاي كبير المماليك البحرية ليأتي به .

وكانت وفاة الملك الصالح في غمرة تلك المعمعة الهائلة ، خنجراً ماضياً يسدّد الى قلب مصر . فقد كان من المألوف في تلك الأيام ان يثير موت الملك اطماع القادة والأمراء ، فيتنافسوا على السلطان ، ويقتتلوا في سبيل الوصول اليه والاستئثار به . وكان نشوب مثل هذا الخلاف في ذلك الموقف العصيب ، خليقاً بأن يمزق وحدة الأمة والجيش ، ويطوّح بالبلاد ، ويفتح ابوابها للغزاة المعتدين .

ويجمع المؤرخون على ان القدر قد رحم مصر إذ وضع بمقدراتها في تلك الفترة الدقيقة من فترات الحرج في يد شجرة الدر ..

لقد كانت هذه المرأة القوية الحازمة تنظر الى مرض زوجها الملك بعين دامعة ونفس والهة جازعة ، اذ كان يشجيها موته ويمزق فؤادها ألماً ولوعة ، كما كانت تخشى عواقب هذه الكارثة التي تُفاجأ بها البلاد وهي في ظلمة محنتها واحتدام حربها مع العدو !

وما كاد السلطان يلفظ أنفاسه الأخيرة ، حتى كفكفت دمعها وحبست نواحها ، ونهضت من تحت نير الألم لتستدعي الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ وجمال الدين محسن رئيس الخصيان ، وهما كبيرا رجال الحاشية ،

---

١ — النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٤

٢ — كان المعظم غياث الدين تورانشاه ابن الصالح أيوب من زوجته بنت العالمة ، أما خليل ابن شجرة الدر فقد توفي في حداثة السن .

وتوصيها بكتمان وفاة الملك حتى يصل تورانشاه من حصن كيفا [١] ، اتقاء للفتنة . فعمل الرجلان باشارتها ، واخذ فخز الدين المواثيق على كل من وقف على وفاة الملك من رجال الحاشية والأطباء والعلماء بأن يكتموا الأمر

وغسل الجثمان سراً ، وأودع في تابوت ، ونقل من المنصورة ليلاً في سفينة صغيرة عبر النيل الى القلعة القائمة في جزيرة الروضة حيث كانت ثكنات المماليك ، بينما ظل الاطباء ملازمين لقصر السلطان كي يظن الناس انه مريض [٢] ، وظلت الخدمة السلطانية على حالتها في القصر المتواضع بالمنصورة ، وشجرة الدر تستقبل الأمراء ، وتبلغهم أوامر السلطان ، ويقال ان شجرة الدر هي التي كانت تقلد توقيعه [٣] .

وجمعت شجرة الدر امراء الجيش ورجال الدولة ، في اليوم التالي لوفاة السلطان ، وأبلغتهم مشيئته بأن يحلفوا له ولأبنه الملك المعظم تورانشاه من بعده وللأمير فخر الدين بقيادة الجيش وتدبير امور المملكة ، ففعلوا ما أمر به السلطان !..

ثم أرسلت الى الامير حسام الدين محمد نائب السلطان في القاهرة أمراً ممهوراً بتوقيعه ليقوم بتحليف أكابر الدولة ومقدمي الجند على ما تقدم ، فأطاع الامير حسام الدين أمر الملك ، وبدأ خطباء الجوامع يدعون لتورانشاه بعد الدعاء لأبيه

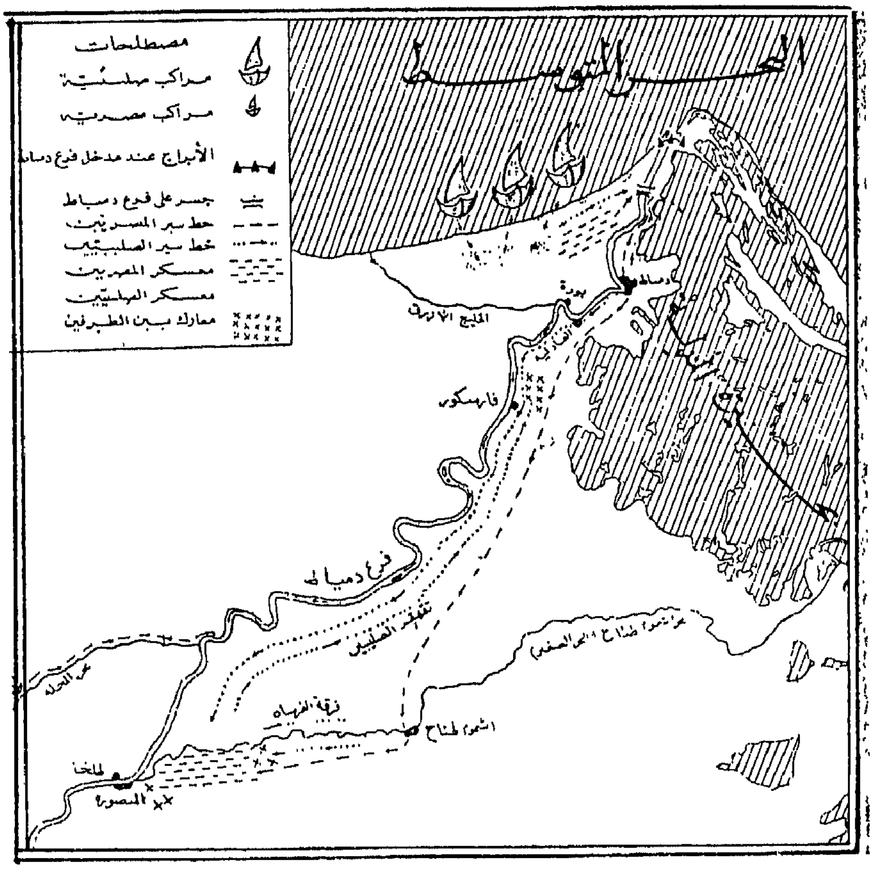
ويبدو ان بعض الجند قد تهامس بموت السلطان ، وان قادة الحملة

---

١ – السلوك ج ١ ص ٣٤٢ – ٣٤٣

٢ – هزيمة لويس التاسع ص ٣٠ ، المنصورة للدكتور هدارة ص ١٧٨

٣ – المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ١٢٧



معركة المنصورة

الصليبية قد عرفوا بهذا النبأ ، وأرادوا انتهاز الفرصة التي يتيحها لهم للقضاء على الجيش المصري قبل وصول تورانشاه [١].

واختلف قادة الحملة في الاتجاه الى الاسكندرية لسهولة احتلالها ولجعل مرفئها ملجأ لاسطولهم يمدهم بالمؤونة المستمرة ، أو الزحف الى القاهرة للاستيلاء عليها أولاً باعتبارها عاصمة المملكة ومتى سقطت استسلمت البلاد جميعاً . وكان القادة العسكريون وفي مقدمتهم بيير موكلير كونت بريتاني من أنصار الرأي الأول ، بينما كان الكونت دارتوا شقيق الملك من أنصار الرأي الثاني وقد أيده لويس التاسع فسار افراد الحملة « بفارسهم وراجلهم وشوانيهم في بحر النيل ونزلوا على فارسكور [٢] »

وكان موقف الأمير فخر الدين هذه المرة على نقيض موقفه السابق في دمياط ، ولعله أراد ان يكفر عنه ، فأخذ يستعد لمواجهة الفرنج ، ثم فاجأهم في معركة ضارية نشبت بين فارسكوز وشرمساح وقتل فيها الكثير من المصريين والفرنجة ومن أبرز هؤلاء رينو فيشيه رئيس فرسان الهيكل .

وعلى اثر هذه المعركة انتقل لويس التاسع بجيشه الى البرمون في مواجهة المنصورة ، فلم يبق بينه وبين معسكر المصريين سوى بحر أشموم طناح ، وبدأ كل فريق يستعد للمعركة المنتظرة ، بينما كان المتطوعون من العربان والفلاحين يتقاطرون الى ميدان المعركة من كل ناحية ، وقد عسكر على الشاطىء الغربي للنيل أولاد الناصر أمير الكرك ومعهم عدد من الجنود العرب هرعوا لمؤازرة المصريين .

---

١ — Michaud, IV, p. 154 - 155

٢ — الشرق العربي بين شقي الرحى ص ٦٤

وكان المسلمون مطمئنين الى مناعة المنصورة ، وصعوبة اجتياز النهر ، فكانوا يقومون بهجمات جانبية ومناوشات صغيرة تعتمد أكثر ما تعتمد على الجماعات غير النظامية ، فيختطفون الغزاة أحياء ويتصيدونهم بالنبال ، كما كانوا يمطرون الفرنسيين من معسكرهم بقذائف من النار الاغريقية [1] ، أنزلت الرعب في أفئدتهم ، فقد « كانت تلك النار تندفع نحو الأعداء على هيئة كرة كبيرة ، وذيولها من خلفها كحراب طويلة هائلة ، لها دوي مزعج كدوي الصاعقة المنقضة من السماء ، ولها صوت يهزم كالرعد القاصف وهي أشبه ما تكون بتنين هائل طائر في الجو . وكانت النار المنبعثة من هذه الكتلة الهائلة من اللهب تلقي في معسكر الفرنسيين ضوءاً متوهجاً يجعل الرؤية واضحة تماماً كما لو كان الوقت نهاراً [2] » .

واستمر ذلك شهرين كاملين ، فهال الأمر لويس التاسع ، وخشي ان يقوّض القلق والانتظار من عزيمة الجند وحماستهم للقتال ، وأيقن بأنه لن يستطيع التغلب على المسلمين الا اذا التحم معهم في معركة فاصلة ، وكان قد بذل جهده لبناء جسر على النهر لاجتيازه اليهم ، ولكن الفرنسيين لم يكادوا يمدون بضعة أمتار من الجسر حتى تساقط عليهم وابل من قذائف المصريين ردهم على اعقابهم ، فرأى الملك ان يبني برجين متحركين يزودهما بالقذائف والقاذفين لحماية العمال الذين يعملون في النهر ، ثم عاد الفرنج الى عملهم فكانوا كلما أتموا من جسرهم متراً هدم المصريون أمتاراً

١ – كانت النار اليونانية من أسلحة المسلمين الفعالة في الحروب الصليبية ، وهي تركب من النفط والكبريت والقار ، وتطلق على العدو فتحدث انفجاراً عظيماً وتنشر دخاناً كثيفاً وتنبثق منها نار شديدة هائلة ، وقد ظفر المسلمون بسرها من البيزنطيين ، ولبثت وقتاً طويلاً من الاسلحة السرية الفتاكة (انظر بحثاً مفصلا عن « النار اليونانية » في كتاب « مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام » لعنان) .

٢ – هزيمة لويس التاسع ص ٤٤

أمامه في شاطئهم المقابل ، فيتسع المجرى من جديد [1] . كما كانوا يحرقون الأبراج الخشبية بقذائفه النارية كلما أعاد الافرنج بناءها .

ثم اكتشف الفرنجة مخاضة قرب قرية سلمون يستطيعون العبور منها الى الضفة المقابلة ، فوضع لويس التاسع خطة جديدة للمعركة تتلخص في أن يعبر الكونت دارتوا بفرقة الفرسان مخاضة سلمون ، فاذا وصل الى الشاطىء الذي يعسكر فيه المصريون اشتبك معهم في قتـال موقت ليشغلهم عن مهاجمة الفرنسيين الذين يقيمون الجسر الى ان يتموه ، فاذا تم بناؤه عبر عليه الملك ببقية جيشه وانضم الى فرسان دارتوا وانقضوا جميعاً على جيش المسلمين [2] .

فلما بدأت طلائع الفرنجة تعبر المخاضة في فجر الخامس من ذي القعدة سنة ٦٤٧ هـ ٨ شباط (فبراير) ١٢٥٠ ، وتفاجىء جيش المسلمين وهم نيام أو بين اليقظة والنوم [3] ، من حيث لم يدر في خلدهم أو يكن في حسبانهم ، كان الأمير فخر الدين قائد الجيش في الحمام ، فهرع لملاقاتهم دهشاً مضطرباً ، واعتلى صهوة جواده دون ان يلبس درعه ، وانطلق خلفه باقي الجند والمماليك ، فما لبث حتى أخذته السيوف من كل جانب ، فقتل مثخناً بالجراح [4] وهو يستميت في الدفاع والمقاومة ، وتفرق رجاله وتشتت شملهم ، ولجأ اكثرهم الى داخل المنصورة يحتمون بأسوارها من سيوف الأعداء .

---

١ – قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص ٦١
٢ – المرجع السابق ص ٦٣
٣ – الشرق العربي بين شقي الرحى ص ٧٢
٤ – السلوك ج ١ ص ٣٤٥ ، المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ١٢٨

وملأت صدر الكونت دارتوا نشوة النصر وأحـــلام المجد ونوازع الغرور ، حين شاهد الجنود المصريين يلوذون بالمنصورة كالقطيع الشارد ، فرأى أن يتعقبهم ويقضي عليهم ، وخيل اليه ان المعركة لا تعدو حولة او جولتين ثم تستسلم المنصورة كما استسلمت دمياط من قبـل . فاندفع بفرسان الفرنجة الى قلب المنصورة ، ووصلت طلائع جنوده الى أبواب القصر السلطاني ، بالرغم من وصية الملك له بالاهتمام بحـماية الجسر وعدم التوغل في المدينة قبل أن يلحق به مع جنوده ، ونصيحة مقدم الداوية الأخ جيل الذي اتهمه دارتوا بالجبن فاضطر الى الاندفاع معه في المعركة وهو على يقين بأن العودة منها مستحيلة وانه انمـا يسير معه في طريق الهلاك [١]

وكانت شجرة الدر تتابع المعركة خطوة فخطوة ، فلمـا قتل قائد جيشها ، وأحاط العدو بقصرها ، لم تفقد ثباتها ورباطة جأشها ، بل وقفت تستحث الحرس السلطاني المؤلف من المماليك البحرية على الدفاع عن القصر ، وتهيب بهم الى رد الأعداء على اعقابهم .

وكان لغضبتها أثرهـا العظيم في نفوس الحرس ، فدارت على أبواب القصر رحى معركة طاحنة سرعان ما أصبحت ملحمة بشرية كان مقدراً لها أن تقرر مصير مصر أو مصير الحملة الصليبية السابعة ، وقد استمات كل من الفريقين للتغلب على الفريق الآخر ، وتصادمت الأمواج البشرية وكأنها أمواج المحيط صخباً وهديراً ، وتلاحمت الجياد ، وتناثرت الاشلاء ، واشتجرت السيوف والرماح ، وتشابكت العصي والسواطير .

---

١ – Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 461

وكان الأهالي يشاركون في هذه المعركة الرهيبة باقامة المتاريس في الشوارع ، والقاء القذائف والحجارة على الفرنسيين من الأسطحة والنوافذ ، والدفاع عن مدينتهم منزلاً فمنزلاً وشبراً فشبراً . يقول الدكتور جوزيف نسيم يوسف : « وكان مظهراً جميلا حقاً ذلك التضامن المتين بين أبناء مصر العظيمة ، من مسلمين وأقباط ، والواقع ان تضامن القبط مع اخوتهم في الكفاح انما يرجع الى شعورهم الدائم المتوارث بالوطنية وايمانهم ، واخلاصهم لبلادهم ، وولائهم لأولي الأمر فيها . ثم هم لم ينسوا الاضرار الجسيمة التي لحقتهم من الفرنجة أنفسهم الذين كانوا يغيرون على الديار المصرية من وقت لآخر ، ويعيثون فيها فساداً ، دون مراعاة لحرمة بيوت الله من مساجد وكنائس . وهم لم ينسوا أيضاً ان الصليبيين عندما استولوا على بيت المقدس في بداية حركتهم العدوانية ، منعوا القبط من زيارة الأراضي المقدسة والحج اليها ، فلم يدخلوها حتى استردها منهم صلاح الدين الأيوبي . وهم لم ينسوا كذلك انهم كانوا في نظر الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ضالين عن جادة الدين الحقيقي ، مما جعلهم مكروهين في الاوساط اللاتينية لأنهم على غير مذهبهم . كل هذا وذاك خلق بينهم وبين الغزاة هوة سحيقة وسداً منيعاً [1] »

واشتدت حماسة المماليك أمام غضبة الشعب ، ومشاركته الضارية في القتال ، فانقضوا على الفرنج بقيادة بيبرس البندقداري ، وحملوا عليهم حتى مزقوهم . وتحولت تلك الموقعة التاريخية الى نصر باهر للقوى المصرية وكارثة مروعة للصليبيين كان من ضحاياها روبرت كونت دارتوا وعدد كبير من القادة والفرسان ، مما جعل غروسه يقول في المنصورة انها

---

١ – هزيمة لويس التاسع ص ٥٦

كانت مقبرة الصليبيين [١] .

وقد عبر لويس التاسع الجسر الذي بناه في محاولة باسلة لانقاذ الموقف واستعادة المبادرة ، ولكن المماليك والعربان قابلوه بشجاعة عظيمه ، وقد أبدى الملك القديس ضروباً رائعة من البطولة والاقدام ، فاضطر المسلمون للانكفاء الى المنصورة تاركين خلفهم كثيراً من الغنائم [٢] . ورجع الفرنجة الى معسكرهم ، وعاد الفريقان الى الوضع الذي كانا عليه قبلاً ، كل منهما على شاطىء والبحر الصغير يفصل بينهما [٣] وكان لبطولة لويس التاسع الفضل في انقاذ الموقف وتحويل المعركة من نصر كامل للمصريين الى نصر متكافىء بينهم وبين الصليبيين [٤] .

وكان لموت دارتوا وفقدان ما يقرب من الف وخمسمائة من فرسان الصليبيين وشجعانهم دفعة واحدة ، اثر عميق فى نفوس الفرنجة فأصيبوا بما يشبه الذهول واليأس ، لولا النجدات التي تتلاحق أفواجها عليهم ، وظهور الملك لويس ومن معه بمظهر الواثقين من النصر ، المصريّين على مواصلة الكفاح ، لأن الفرصة لم تزل باقية ، فهزيمتهم في احدى المعارك ليس معناها انتهاء الحرب واليأس المقيم [٥] . وسرعان ما أعاد كل من الفريقين تنظيم جيشه وتعزيز دفاعه ، وقسم الملك لويس التاسع جيوشه الى احدى عشرة فرقة انتظمت عشر منها على الضفة الجنوبية لبحر اشموم في مواجهة العسكر المصري ، بينما ضربت الفرقة الحادية عشرة

---

١ – Hist. des Croisades. III, p. 465

٢ – النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٤

٣ – قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص ٦٥

٤ – Grousset : Hist. des Croisades. III, p. 468

٥ – اليوم الموعود ص ١٩٩

مضاربها على الضفة المقابلة . وكانت معركة المنصورة قد وقعت يوم الثلاثاء ، فتجدد القتال يوم الجمعة ، وانتهت المعركة الجديدة بهزيمة أخرى للفرنج وكان يقود جيش المسلمين بيبرس البندقداري . ويقول الدكتور جوزيف نسيم يوسف ان احدى فرق الفرنجة كانت بقيادة وليم طويل السيف الذي فقد احدى عينيه في معركة الثلاثاء ، ففقد في هذه المعركة عينه الثانية ، ثم سقط قتيلا متأثراً بجراحه ولم تقم لفرقته بعد ذلك قائمة [1] .

ولم تشأ شجرة الدر ان تعين بعد مقتل فخر الدين قائداً جديداً للجيش ، بل تولت القيادة بنفسها ، وطفقت تدير شؤون الجيش الى جانب ادارتها شؤون الملك ، منتظرة وصول تورانشاه لتعهد اليه بالمهام التي اضطلعت بها زهاء ثلاثة اشهر على أحسن وجه .

ووصل تورانشاه بعد موقعة المنصورة بعشرة ايام ، فأعلنت وفاة الملك الصالح للمرة الأولى ، وتسلم ولي العهد مقاليد الملك ، وكان في الخامسة والعشرين من عمره ، وفيه صلابة وصلف وكبرياء .

وكان عهد تورانشاه في الحكم قصيراً جداً ، لم يزد على خمسة أسابيع ، ولكنه شهد انتصاراً عظيماً احرزه المسلمون على الفرنجة ، ولم يسبق لهم أن احرزوا مثيلا له منذ انتصار حطين .

وكان أول ما فعله انه أمر بأن ينقل فوراً جانب من الاسطول الى بحر المحلة ليلج في النيل خلف معسكر الأعداء ، لمحاصرتهم وصد مراكبهم التي تحمل لهم المؤن من دمياط . وسرعان ما وضعت خطته موضع

---

١ - هزيمة لويس التاسع ص ٦٤

التنفيذ ، ففصلت أجزاء السفن الحربية ، ونقلت على ظهور الجمال الى بحر المحلة حيث أعيد بناؤها من جديد ، وأرست في النيـــل شمالي المنصورة [1] ، وبذلك قطع الطريق على السفن الصليبية ، وحيـل دون اتصال الفرنجة بقاعدتهم دمياط حيث المدد والزاد [2] . ثم أقبل الاسطول المصري من ناحية المنصورة ، فأحاطت سفن المسلمين بالمراكب الصليبية ، وأخذتها أخذاً وبيلاً ، وقُتل منها وأسر نحو الف جندي ، وغُنم سائر ما فيها مـــن الأزواد والأقوات [3] . ويقدر جوانفيل عدد السفن التي استولى عليهـــا المسلمون بثمانين سفينة [4] .

وهكذا انقطع المدد من دمياط عن الفرنج ، ووقع الغلاء عندهم ، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ، ولا يقدرون على الذهاب ، واستضرى المسلمون وطمعوا فيهم [5] . فأرسل الملك لويس الى السلطان يطلب الصلح ويعرض عليه أن يتنازل عن دمياط مقابل اعطائه بيت المقدس ،ولكن السلطان رفض هذا الطلب ، فعرض الملك القديس حينئذ اعطاءه بعض المدن الساحلية ، وكان جواب تورانشاه : « ان بيت المقدس وكل شبر من أرض العرب هي أرضنا لا نفرط فيهـا قط ، وأنتم في مكانكم الآن لا ينبغي ان تنساقوا وراء خيالاتكم واوهامكم ، بل يجب أن تفتحوا أعينكم جيداً على حقيقة الموقف الذي تعانونه الآن ، انكم مقضي عليكم ولا شك ، ولكني مع ذلك – رعاية للسلام وحقناً للدمـاء – أعرض عليكم الجلاء فوراً عن بلادنا بحيث تحملكم سفنكم الى بلادكم دون غيرها

---

١ – لؤلؤة المنصورة ص ٨٠
٢ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٧١ ، الشرق العربي بين شقي الرحى ص ٩١
٣ – السلوك ج ١ ص ٣٥٣
٤ – Hist , de Saint Louis, p. 160
٥ – المنصورة ص ٢٢٧

فاذا قبلتم فحسناً فعلتم ، واذا أبيتم فالسيف حكم بيننا وبينكم [١] ».

وانقطعت بذلك المفاوضات ، وتابعت القوى المصرية ملاحقة الصليبيين، وما برحت تنازلهم وتفتك بهم ، حتى تولاهم اليأس من مواصلة الحملة للاستيلاء على القاهرة كما كانوا يحلمون ، واجتاحت معسكرهم المجاعة ، وتفشى فيه الوباء ، وانتشرت البغضاء بين طوائف الجند ، وبات كل ما يطمعون فيه الانكفاء الى دمياط والامتناع فيها . وقد احرقوا خيامهم وعتادهم ، وبدأوا بالانسحاب في يأس غامر وذعر قاتل ، مساء الثاني من محرم سنة ٦٤٨ هـ ٥ نيسان (ابريل) ١٢٥٠ م ، والمسلمون يطاردونهم ويضيقون الخنادق على فلولهم الهاربة ، ويهاجمونهم من كل ناحية بسهامهم تارة وبالسيوف والرماح تارة أخرى ، حتى تبعثرت الحملة الصليبية السابعة رمماً وأشلاء ممزقة ، وكان الناجون من سهام المسلمين وسيوفهم ، يتساقطون على حنايا الطريق عناء ومرضاً وجوعاً .

ولكن ذلك كله لم يفقد لويس التاسع شجاعته ورباطة جأشه ،فتابع الانسحاب الكبير بحذاء الضفة الشرقية لفرع دمياط ، في غمرة المتاعب والأهوال ، حتى وصل الى فارسكور (فارس كور) فاذا بفلول جيشه المتبعة اليائسة المثخنة بالجراح ، تتعرض الى هجوم عام من قبل المسلمين. وكان المرض قد اشتد بالملك القديس ، فتولى القيادة أحد رجاله ولجأ هو الى قرية المنيا (منية عبدالله) ليستريح فيها وقد ران عليه الشعور بالخيبة والانكسار ، وأخذ يردد ان دماء اولئك الضحايا في عنقه ويسأل الله الرحمة والغفران !

---

١ - النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٣٦

وكان الفرنجة أضعف من ان يقاوموا ويصمدوا في وجه القوى المحيطة بهم ، فوقع الجيش الصليبي بأسره بين قتلى واسرى ، وقدر المؤرخون عدد القتلى منهم بثلاثين الفاً « وأما الأسرى فحدث ولا حرج [1] »

وكان لويس التاسع نفسه في عداد الأسرى ، فحمل الى المنصورة حيث اعتقل مع شقيقه كونت انجو وكونت بواتيه في دار كاتب الانشاء القاضي فخر الدين بن لقمان وعهد بحراستهم الى الطواشي صبيح المعظمي [2] .

وقد سرّ تورانشاه بهذا النصر العظيم ، وكتب الى نائبه بدمشق الامير جمال الدين بن يغمور كتاباً يحمل اليه هذه البشرى ، وقيل ان تورانشاه كتب هذا الكتاب بخطه وقد جاء فيه : « الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، وما النصر الا من عند الله ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، وأما بنعمة ربك فحدّث ، وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها . نبشر المجلس السامي الجمالي ، بل نبشر المسلمين كافةً ، بما منّ الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين ، فانه كان قد استفحل أمره واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد والأولاد ، فنودوا : لا تيأسوا من روح الله . ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة – عمّ الله على الاسلام بركتها – فتحنا الخزائن ، وبذلنا الأموال ، وفرّقنا السلاح ، وجمعنا العربان والمطوعة وخلقاً لا يعلمهم الا الله ، فجاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق . فلما كانت ليلة الاربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم ، وقصدوا دمياط هاربين ، وما زال السيف يعمل في ادبارهم عامة الليل ، وقد حلّ بهم الخزي والويل ، فلما أصبحنا يوم الأربعاء قتلنا منهم

١ – شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٤٠

٢ – السلوك ج ١ ص ٣٥٦

ثلاثين الفاً غير من ألقى نفسه في اللجج ، وأما الأسرى فحدث عـــن البحر ولا حرج . والتجأ الفرنسيس الى المنية ، وطلب الأمان فأمّناه ، وأخذناه وأكرمناه ، وتسلمنا دميـــاط بعون الله وقوته ، وجلاله وعظمته [١] »

وحاول تورانشاه الضغط على لويس التاسع للتخلي عن جميع الممتلكات الصليبية في الشام ، ولكنه كان يجيب دائماً ان لا سلطـان له على هذه الممتلكات وانها تابعة للامبراطور فردريك الثاني [٢] .

★

هذا ما كان في عهد تورانشاه ، أما ما كان منه فالبطش والبغي ، واللهو والسرف ، والتنكر لزوجة أبيه شجرة الدر التي صانت البلاد ، وحفظت الملك ، وأخذت العهد له تمهيداً لجلوسه على العرش .

وأرسل السلطان الى شجرة الدر يطالبهـا بتركة ابيه ويسألها أن ترد اليه مـا تحت يدها من جواهر ومال ، ويهددها بالقتـل ان هي تأخرت في اداء الحساب . فكتبت الى زعماء المماليك تشكو أمرهـــا اليهم وتطلب حمايتهم .

وقيـــل ان المماليك كانوا يشعرون بأن السلطان يضمر لهم الكيد والغدر [٣] ، وانه كان اذا سكر يصفّ الشموع أمامه ويأخذ السيف بيده

---

١ – المرجع السابق ج ١ ص ٣٥٦ - ٣٥٧

٢ – Hist, de Saint Louis: p, 184 186

٣ – شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٤٠



لويس التاسع في الاسر

ويضرب به تلك الشموع وهو يقول : « هكذا أفعل بالمماليك البحرية .. هكذا أفعل بفلان وفلان ! .. [1] » فلما بلغ مماليك أبيه ذلك اضمروا له السوء ، واتفقوا على قتله قبل أن يفتك بهم . وليس هناك ما يدل على ان شجرة الدر هي التي حرضتهم على ارتكاب هذه الجريمة ، وانها اشتركت معهم في تدبيرها ، على ان مجرد شكايتها اليهم واستنجادها بهم قد يُعدّ تحريضاً لهم [2] .

ومهما يكن من أمر فان المؤامرة قد دبرت ونفذت بسرعة في المعسكر السلطاني ، والظاهر ان الذي دبرها بصورة خاصة اثنان من زعماء المماليك البحرية هما بيبرس البندقداري وفارس الدين اقطاي [3] . وفي مساء يوم الاثنين ٢٧ محرم سنة ٦٤٨ هـ ١٢٥٠ م ، أي بعد هزيمة الفرنج بنحو ثلاثة اسابيع ، بينما كان السلطان يجلس الى السماط في خيمته وقد أحاط به الخلان والندماء ، انقض بيبرس البندقداري عليه ، وضربه بسيفه ضربة تلقاها السلطان براحته فشقتها الى الذراع ، ثم لحق به مع رجاله الى برج خشبي أراد أن يحتمي به ، وأحرقوا البرج فنزل منه وهو يستنجد دون أن ينجده أحد ، ويصرخ في المماليك : « ما أريد ملكاً . دعوني أرجع الى الحصن (كيفا) يا مسلمين ! ما فيكم من يصطنعني ويجيرني [4] » ، وتلقاه المماليك بالسيوف من كل ناحية وهو مستمر في ركضه ، حتى القى بنفسه في النيل وهم في أثره ، وأجهز عليه فارس الدين اقطاي بطعنة قاضية ، ثم حملت جثته الى الجسر وبقيت

---

١ بدائع الزهور ج ١ ص ٧٢
٢ – المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ١٩٠ ، الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٢٣٦ – ٢٣٧
٣ – تراجم اسلامية لعنان ص ٧٧
٤ – النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧١

هناك ثلاثة أيام في العراء لا يجرؤ أحد على دفنه حتى شفع فيه رسول الخليفة [1] .

وعلى اثر ذلك اجتمع زعماء المماليك وامراء الجيش ورجال الدولة ، واتفقوا على ان تكون شجرة الدر ملكة لمصر ، وأن تخرج التواقيع السلطانية باسمها ، وأخذت البيعة لهـا في اليوم العاشر من صفر سنة ٦٤٨ هـ ١٢٥٠ ، ونقش اسمها على النقود : « المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين [2] » وكان يخطب لها على منابر مصر بهـذا الدعاء : « واحفظ اللهم الجهة الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيـا والدين ، ذات الحجـاب الجميل والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب [3] »

وكانت أول امرأة تتبوأ العرش في مملكة اسلامية ، وقـد انتهت بتورانشاه دولة الأيوبيين في مصر ، وبدأت بشجرة الدر دولة المماليك.

ويقول محمد كرد علي : « لا جرم ان مقتـل الملك المعظم تورانشاه بيد بيبرس البندقداري والمماليك البحرية بمصر ، كان مبدأ زوال الدولة الأيوبية من مصر والشام ، فان الاختلاف بين آل هـذا البيت الذي تسربت الى أبنائه وأحفاده المطامع ، وكل منهم يريد أن يستأثر بالأمر دون أخيه أو عمه أو ابن عمه ، ثم اعتصام بعضهم بالصليبيين لينجدوهم على آلهم فيصفو لهم الملك ، دعا الى تفسخ أوصال المملكة ، وان كان

---

١ – ذيل الروضتين ص ١٨٥

٢ – المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ١٩٠ والمستعصمية نسبة الى الخليفة المستعصم ، والصالحية نسبة الى الصالح أيوب .

٣ – بدائع الزهور ج ١ ص ٧٣

اكثر أسرة صلاح الدين بن أيوب .أخيه ابي بكر (سيف الدين) على جانب من حسن التربية والعلم ، ولكن الاختلاف اذا سرت شرارته التهم الأخضر واليابس وهدم الاركان القوية فما بالك بها اذا كانت متضعضعة . فصارت المملكة بيد المماليك في الحقيقة ، وكان الذي انشأهم الملك الصالح أيوب أشبه بالمعتصم العباسي في اصطناعه مماليك الترك فأدخل بعمله الوهن على الدولة العباسية ، وهذا الصالح ادخل الوهن باصطناع المماليك حتى قضوا على الدولة الأيوبية [١] »

وكان أول ما عنيت به شجرة الدر بعد أن تولت الملك ، تصفية الموقف مع الفرنج واجلائهم عن الأراضي المصرية ، فندبت الامير حسام الدين محمد . نائب السلطنة السابق لمفاوضة الملك الأسير لويس التاسع . وكان ثمة جماعة من الزعماء يؤثرون الاحتفاظ به وعدم اطلاق سراحه ، ويرون في ذلك مصلحة كبيرة لمصر والاسلام ، ولكن المفاوضات انتهت بالاتفاق على الافراج عنه وعن باقي الامراء مقابل فدية قدرها ثمانمائة الف دينار [٢] وترك معدات القتال والاسلحة والذخائر والمؤن غنيمة للمصريين [٣].

وقد قوبل اعتلاء شجرة الدر عرش المملكة المصرية بكثير من الدهش والاستنكار . فنعى الخليفة العباسي على مصر أن تجلس على عرشها امرأة وأرسل الى بلاط مصر يقول : « ان كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسيّر اليكم رجالاً [٤] » وأبى الامير جمال الدين بن يغمور

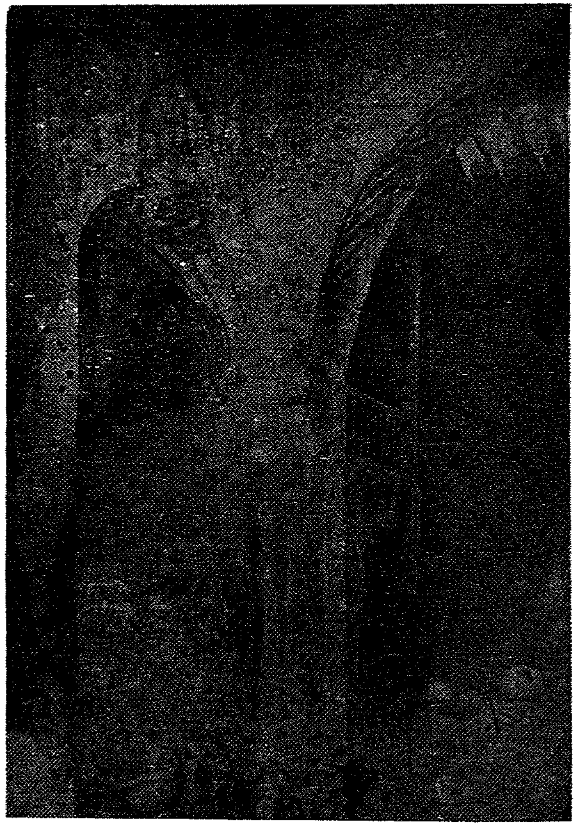
---

١ — خطط الشام ج ٢ ص ١٠٨

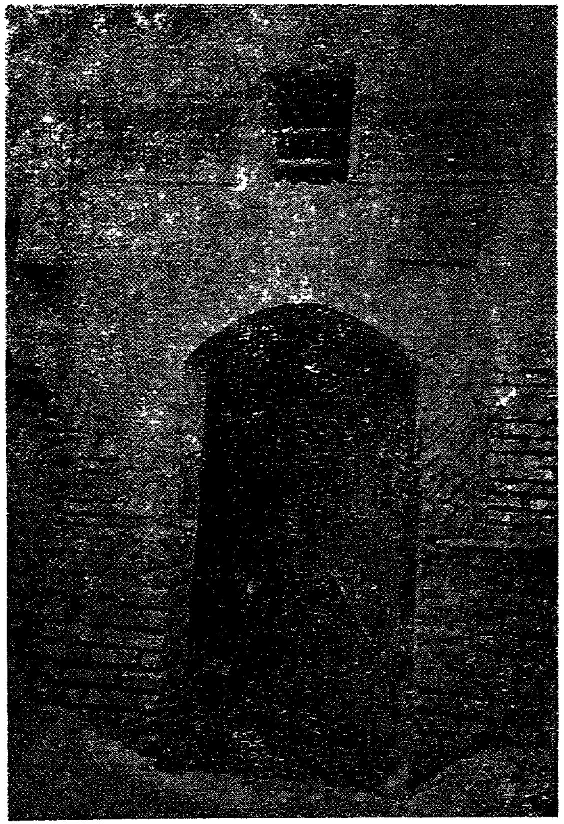
٢ — تراجم اسلامية ص ٨١

٣ — طلب لويس التاسع أن يثبت في الاتفاق حفظاً لكرامته ان المبلغ المتفق عليه هو فدية عن جنده ، وان تسليم دمياط فدية عنه ، لأن قيمة الملوك لا ينبغي ان تقدر بالمال .

٤ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٩



داخل دار بن لقمان حيث اقام لويس التاسع خلال أسره



واجهة دار ابن لقمان بالمنصورة حيث اسر لويس التاسع

نائب السلطنة في دمشق وكثير من الأمراء أن يقدموا الطاعة للملكة وأن يكونوا تحت سلطانها ، وأرسلوا الى صاحب حلب الملك الناصر بن يوسف حفيد صلاح الدين يطلبون اليه القدوم الى دمشق لتسلم المدينة فجاء اليها وتسلمها .

وجزعت شجرة الدر لهذه الأنباء ، وعزّ عليها ان تكون سبباً لتمزيق المملكة التي عملت كثيراً لدعم قوتها ووحدتها ، واعتقدت انها ان تزوجت الأمير عز الدين ايبك احد امراء جيشها [1] قوّت مركزها وصانت سمعتها . ولم تلبث ان حققت هذه الفكرة ، او هذه الرغبة ، واتخذت الأمير عز لدين زوجاً لها في ١٩ ربيع الثاني سنة ٦٤٨هـ ١٢٥٠ م .

ولكن ذلك لم يغيّر من نظرة الناس اليها ، ولم يخفف من حملتهم عليها . فعمدت حينئذ الى الحل الوحيد الذي بقي لها ، وتنازلت عن عرشها لزوجها الذي لقب بالمعز ، في آخر ربيع الثاني سنة ٦٤٨هـ ١٢٥٠م .

وقد دامت سلطنة شجرة الدر ثمانين يوماً ، وكان أبرز الاعمال التي قامت بها اجلاء الفرنج نهائياً عن الأراضي المصرية .

ولقد كانت تضحيتها جسيمة حقاً ، إذ خلعت نفسها عن العرش وأعطت زوجها التاج والصولجان ، لأنها كانت أول الطريق نحو النهاية المؤسفة التي اختتمت بها حياتها العظيمة .

---

١ — كان ايبك من مماليك الصالح ايوب المرابطين في جزيرة الروضة بالنيل ، ومن هنا عرف هو وزملاؤه بالمماليك البحرية نسبة الى « بحر » النيل ، تمييزاً لهم من المماليك البرجية الذين كانوا يقيمون في ابراج قلعة القاهرة .

لقد استيقظت في شجرة الدر ، وهي في تلك السن التي جاوزت الاربعين ، عاطفة الكبرياء على أقوى ما تعصف في نفس ملكة ، وعاطفة الغيرة على أعنف ما تجيش في صدر امرأة .. فما هي الا سنوات قليلة حتى أخذت تخاصم زوجها الملك المعز لأتفه الأسباب، ورانت على حبهما المطامع وغشيته أهواء السياسة والمنافسة ، حتى تحولت حياتهما الى جحيم لا يطاق .

وكان المعز يهاب شجرة الدر ، ويضيق بما لها من نفوذ وسطوة . وقيل ان منجماً انذره بأنه سيموت قتيلاً على يد امرأة ، فلم يشك حين اضطربت العلاقة بينهما في انها المرأة التي حذره المنجم منها ، فأراد ان يبطش بها قبل أن تبطش به .. وشعرت هي بما يدبر لها في الخفاء ، فارادت ان تسبقه الى هدفه ..

وخطب المعز بنت الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وكانت صبية رائعة الحسن ، لما بين لؤلؤ ودار الخلافة في بغداد من صلات ودية وثيقة ، وكتم الأمر عن شجرة الدر . ثم قبض ذات يوم على عدد من المماليك ، وساقهم الى القلعة لاعتقالهم في الجب . فلما وصلوا الى تحت النافذة التي تجلس فيها شجرة الدر ، انحنى كبيرهم احتراماً وقال لها بالتركية انه لا ذنب له ورفاقه سوى انهم عاتبوا السلطان لأنه خطب ابنة صاحب الموصل ، إذ لم يهن عليهم وهم خدمها الذين نشأوا في ظل نعمتها ان يتزوج من امرأة اخرى !..

فأشارت اليه شجرة الدر اشارة تعني انها فهمت ما يريد أن يقول .. وقال الرجل لأصحابه : ان كان المعز قد حبسنا فاننا قتلناه !.. »

والواقع ان هذه الكلمات قد قتلت الملك المعز .. اذ ما لبثت شجرة الدر أن ارسلت اليه تلاطفه وتصالحه وتدعوه لزيارتها ، فأمن لها ولبى دعوتها ، فاستقبلته مرحبة باسمة ، وقادته الى الحمام ليغتسل ،

ولكنه مـــا كاد يخلع ثيابه حتى انقض عليه غلمانها وخنقوه تنفيذاً لخطتها ..

ويقال ان المعز ، لما أحاط به الخدم وفي أيديهم السيوف ، استغاث بشجرة الدر ، فأدركتها رقة الأنثى حين سمعته يهتف باسمها ، فأشارت لهم ان يتركوه ، فأغلظ لها أحدهم في الجواب ، وقال : « ان تركناه حياً فهو لا يبقي عليك ولا علينا [1] . »

وهكذا قتل الملك المعز يوم الأربعاء في ١٥ ربيع الاول سنة ٦٥٥هـ ١٢٥٧ م ، على تلك الصورة المروعة ، بعد أن جلس على عرش مصر سبع سنين ، وكان قد أشرف على الستين من عمره .

وأرسلت شجرة الدر الى عدد من امراء المماليك تعرض عليهم الملك فرفضوه كلهم مخافة كيدها !.

ولما تنفس الصبح وذاع النبأ المروع ، ساد الذعر في القاهرة ، وتولى العرش الملك المنصور علي ابن الملك المعز وهو صبي لم يبلغ الحلم ، وقام على أمره الأمير سيف الدين قطز مملوك ابيه ، فمـــا لبث ان اعتقل شجرة الدر ، وسجنها في برج منيع . ثم أمر بغلمانها فصلبوا على باب القلعة ، وجيء بهـا الى ضرتها ام الملك المنصور التي كانت تطالب بدم الملك القتيل وكان المعز قد طلقها ارضاء لشجرة الدر ،فضربها جواريها بالقباقيب حتى ماتت،وألقينها من سور القلعة الى الخندق وليس عليها سوى سراويل وقميص ، فبقيت في الخندق أياماً .. ثم حملت في قفة ودفنت في تربة كانت قد اعدتها لنفسها بجوار بيت الخلفاء [2] .وقيل انها لما أيقنت بأن ضرتها تطلب الثأر منها،

---

١ - بدائع الزهور ج ١ ص ٧٥ ، شجرة الدر للعريان ص ١٤١

٢ - وفيات الأعيان ج ٤ ص ٦٤

وأن مماليكها لن يمنعوها ، كان أول ما فكرت فيه وخشيته أن تقع جوهرها وحليها وأسباب زينتها في يد ضرتها حين تموت ، فجمعتها كلها وسحقتها في هاون و ذرتها في الريح[1] ، ثم استسلمت لمصيرها المشؤوم

على هذه الصورة المفجعة الرهيبة قضت تلك المرأة التي حكمت مصر ثمانية عشر عاماً ، وجمعت في نفسها اشتات المتناقضات ، فامتزج في سيرتها الحب والبغض والنعيم والشقاء ، وتلاقت أطياف العظمة والبطولة مع أشباح الحقد والغدر !..

---

١ – شجرة الدر للعريان ص ١٤٤

الفصل التاسع والعشرون

الاعصار المغولي في الشرق

اطلق سراح الملك القديس في ٦ ايار سنة ١٢٥٠ م ٦٤٨ ه بعد أن دفع الفرنجة نصف الفدية المتفق عليها ، فانتقل الى دمياط حيث كانت تنتظره زوجه الملكة مرغريت . وكانت الملكة الشابة قد أظهرت إثر اعتقاله كثيراً من الجرأة والحكمة ورباطة الجأش [١] ، وصبرت على ضروب الحرمان التي فرضتها الأحداث ، وحافظت على دمياط حين أراد أبناء جنوة وبيزة التخلي عنها ، لاعتقادها بأنها ستكون أداة للمساومة على حرية زوجها ، واجتهدت في تحصيل المال لافتداء الملك وشقيقه . وكانت مرغريت حاملا فولدت طفلها بعد هزيمة المنصورة وأسر زوجها بعدة أيام ، وقد سمي الطفل يوحنا واشتهر باسم « يوحنا الحزين » لولادته في ذلك الظرف العصيب [٢] .

---

١ — النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٩

٢ — Grousset : Hist. des Croisedes, III, p. 491

ولم يطل مقام لويس التاسع في دمياط ، وانما بادر الى الانتقال منها الى عكا ، فاستقبله الصليبيون استقبالاً حافلاً ، واستعادوا به بعض معنوياتهم المنهارة بعد الهزيمة التي لحقت بهم في المنصورة وشارك فرنجة الشام فيها بخسارة عدد كبير من قادتهم وفرسانهم .

وكان من العسير على ملك فرنسة ان يعود الى بلاده ، بعد هزيمته وأسره مباشرة ، فاستجاب الى رجاء الصليبيين له في البقاء للاشراف على امورهم فترة من الزمن ، وقد امتدت هذه الفترة الى اربع سنوات كاملة .

وكان الأمراء الأيوبيون لذين يحكمون الأردن والشام ، قد ساءهم ما حدث في مصر ، وانتقال الحكم فيها الى أيدي المماليك ، تلك الطبقة العسكرية التي انشأها الملك الصالح أيوب ، فاستقل كل منهم بما تحت يده من البلاد ، واتفقوا بزعامة الناصر يوسف صاحب دمشق على غزو مصر للقضاء على حكم المماليك .

وأراد هؤلاء أن يسبغوا على حكمهم ستاراً من الشرعية ، بعدما تبين لهم من عطف الرأي العام على البيت الأيوبي ، وترديد العامة في الشوارع : « ما نبغي مملوكاً يتولى علينا بل نريد سلطاناً من آل أيوب [1] » ، فجاءوا بطفل صغير من ابناء هذا البيت يدعى الأشرف موسى ، ونصبوه سلطاناً على مصر ، وجعلوا من أنفسهم وصاة عليه ، وقرنوا اسمه الى اسم المعز ، فكانت المراسيم تصدر وعليها اسم الملكين ، وكان خطباء المساجد يدعون على المنابر لكليهما معاً . ولكن لم تمض فترة قصيرة حتى أقصاه المعز عن الناس وضيّق عليه ، ثم أزال اسمه من الخطبة ، وقبض عليه

---

١ – واإسلاماه لباكثير ص ١٣٩ .



الملكة مرغريت زوجة لويس التاسع

فسجن في القلعة ، والملك الصغير لا يدري لماذا أجلسوه على العرش ، ثم لماذا أودعوه السجن ، وهو لم يأت عملاً استحق به العرش في الأول ، ولم يقترف جرماً استحق به السجن في الآخر [1] .

ولم يكن العرب المصريون بمعزل عن هذه الحوادث فقد كانوا يؤمنون بانهم احق بعرش البلاد من الكرد والتركانية جميعاً ، فثار الأمير حصن الدين بن ثعلب شيخ أعراب ديروط ، وثار معه عشرات الالوف من العرب في الجنوب والشمال ، في محاولة جريئة لاستعادة الملك ، فبطش المماليك بهم ، ونصبت المشانق لامرائهم ، وألقي الأمير ابن ثعلب في جب من جباب القلعة [2] . ولعل هذه الانتفاضات هي التي جعلت الملك المعز يعلن ان مصر تابعة للمعتصم الخليفة العباسي ، ثم حفزت الظاهر بيبرس الى احياء الخلافة العباسية بعد سقوطها ، كما سنرى في الفصل المقبل .

وسرعان ما انتقل الخلاف بين الأيوبيين والمماليك الى ساحات القتال ، فجرت بين الفريقين معارك دامية أشهرها تلـــك المعركة التي وقعت على أبواب مصر بين الخشبى والعباسية ، وانتهت بهزيمة الأيوبيين . وقد حاول كل منهما ان يشرك لويس التاسع كحليف له في معاركــه مع خصمه ، ورأى هذا ان محالفة المماليك أجدى له ، فاشترط عليهـــم لاتمام ذلـــك التحالف اعادة جميع أسرى الصليبيين ، واعفاء الملك لويس من متأخر الفدية المستحقة عليه بموجب صلح دمياط . وقد وافق المماليك على جميع هذه المطالب ، فضلاً عن موافقتهم على تسليم بيت المقدس للصليبيين إن هم نصروهم على الشاميين [3] . وخرج جيش المصريين لقتال الناصر الأيوبي ،

---

١ – المرجع السابق ص ٢٥٢ .
٢ – شجرة الدر للعريان ص ١٢٣ .
٣ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٩١ .

وعلى رأسه المعز وسائر امراء المماليك .

ولكن الخليفة العباسي الذي كان يشعر بالخطر المغولي يتهدد عاصمته والبلاد الاسلامية عامة ، ما لبث أن ارسل الشيخ نجم الدين القادري لتسوية النزاع بين الأيوبيين والمماليك ، فأقنعهم جميعاً بتوفير القوى لمجابهة الأخطار الأجنبية ، سواء منها ما هو قادم من الغرب او زاحف من الشرق ، واتفق الفريقان سنة ٦٥١ هـ ١٢٥٣ م على أن يكون للمماليك الى نهر الأردن وللناصر ما وراء ذلك .

وهكذا أخفق لويس التاسع في استغلال النزاع بين الأيوبيين والمماليك ، الا انه لم يضع الوقت جزافاً ، وانما عمد الى تجديد الأسوار وتعزيز الحصون في المستعمرات الصليبية ، وقد استطاعت هذه التدابير ان تدعم مراكز الفرنجة في صد هجمات الأيوبيين المتعددة عليها بعد أن هادنوا المماليك .

وكان الخطر المغولي يتعاظم في الشرق ، فعمد لويس التاسع الى تجديد مفاوضات كان قد بدأها وهو في قبرص قبيل حملته على مصر ، مع خاقان المغول لمحالفته ضد المسلمين . فطلب منكو خاقان المغول من ملك فرنسة أن يعلن تبعيته له . ولما عاد رسول لويس التاسع من سفارته كان الملك القديس قد عاد الى بلاده في ٢٥ نيسان (ابريل) سنة ١٢٥٤ م ٦٥٢ هـ [١] ، وتخلى عن مشاريعه الخيالية في الشرق .

وقد قام البابا انوسنت الرابع ، والامبراطور البيزنطي ، وهيثوم ملك ارمينية ، بمساع مماثلة لدى خاقان المغول ، وأسفرت هذه المساعي

---

١ — Grousset : Hist. des Croisades. III. p. 524 . 525

عن تحالفهم الفعلي مـــع هيثوم ، بينما قام بينهم وبين الصليبيين حلف طبيعي ، بعد أن علم هؤلاء ان المغول يستعدون لاكتساح البلاد العربية والاسلامية .

والواقع ان خطر المغول كان يقترب من البلاد العربية بقيادة هولاكو شقيق منكوخان سيد النصف الغربي من امبراطورية المغول « الذي قوي أمره وظهر اسمه وفتح عدة قلاع في الشرق [1] » وهو الأمر الذي اضطر الأيوبيين والمماليك الى التهادن « أما الصليبيون فيبدو ان خطر المغول كان لا يهددهم ، بل على العكس فانهم صاروا ينظرون الى تهديد المغول للبلاد الاسلامية بعين الرضى والأمل ، لذلك استمر الصليبيون غارقين في خلافاتهم ببلاد الشام [2] ، وهي الخلافات التي تطورت أحياناً الى منازعات وحروب أهلية ، مما أنهك قواهم ومهد لسقوط المدن والمعاقل الصليبية واحدة بعد أخرى في أيدي المماليك في النصف الثاني من القرن الثالث عشر [3] » .

وكانت المسيحية قد انتشرت بين مغول فارس ، في حين انتشر الاسلام بين مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية في جنوب روسية وتركستان . وكانت أم هولاكو مسيحية نسطورية ، وكذلك كانت زوجته دوقوز خاتون . وكان منكوخان قد أوصى شقيقه هولاكو حين أمره بالزحف

---

١ – السلوك ج ١ ص ٣٩٩ .

٢ – انقسم المعسكر الصليبي في الشام الى جبهات متعددة متعادية ، فالبنادقة والبيازنة ضد الجنوية ، والبروفنسيون ضد القطاليون ، والداوية والتيتون ضد الاسبتارية ، وامراء يافـا وأرسوف ضد أمير صور ، وأمير انطاكية وطرابلس ضد صاحب جبيل (انظر الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٠٣ – ١١١١) .

٣ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٠٥ .

على غرب آسية بالمحافظة على تقاليد جنكيزخان وبالتقيد بآراء دوقوز خاتون . فعملت دائماً - كما يقول رشيد الدين الهمذاني - على مؤازرة المسيحيين « وفي عهدها قوي حال تلك الطائفة [1] » ويقول رينه غروسه ان هولاكو اراد أن يمثل دور حامي المسيحيين في الشرق ضد المسلمين [2].

وبعد أن وطد هولاكو دعائم دولته في فارس ، اتجه شطر العراق ، وكان على رأس الخلافة العباسية المستعصم بالله . وبدلاً من أن تستعد بغداد لمقاومة الفاتح ، هللت لبطشه بالباطنية في آلموت [3] ، وشغلت نفسها بالصراع المذهبي بين السنة الذين يتمتعون بتأييد الخليفة ، والشيعة الذين يناصرهم وزيره مؤيد الدين العلقمي ، وقد بلغ من حدة هذا الصراع ان العلقمي على ما روى بعض المؤرخين كان يصانع التتار ويكاتبهم ويطمعهم في ملك بغداد [4] .

ولما أرسل هولاكو رسله الى المستعصم يدعوه الى الاعتراف بسيادته ، أهان اهل بغداد اولئك الرسل ، وأجابه الخليفة ان اعتداءه على الخلافة هو اعتداء على المسلمين جميعاً « وانه من الشرق الى الغرب ، ومن الملوك الى الشحاذين ، ومن الشيوخ الى الشباب ، ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين ، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي [5] » .

ولكن ما كاد الفاتح يتجه بجنده شطر بغداد ، حتى تولى المستعصم

---

١ - جامع التواريخ ج ١ ص ٢٢٠ ، ٢٣٦ - ٢٣٧ .

٢ - Hist. des Croisades, III, P. 578

٣ - المغول في التاريخ ص ١٥٣ - ١٥٤ .

٤ - النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٨ .

٥ - جامع التواريخ ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

الذعر ، وكان « قليل المعرفة بتدبير الملك ، نازل الهمة مهملاً للأمور المهمة [1] » فأخذ يحاول ارضاء المغول بالأقوال والوعود ، ولما أخفقت محاولته بعث رسله الى زعماء المماليك والامارات الاسلامية كي يهبوا لنجدته ، فلم يستجب لدعوته أحد منهم . وزحف المغول على بغداد من كل الجهات ، وكان اقتحامهم لها مذبحة من أرهب مذابح التاريخ ، استمر الفاتحون يقتلون خلالها وينهبون سبعة ايام كاملة ، وقيل اربعين يوماً ، وعمدوا الى خزائن الكتب في المساجد والمعاهد والقصور فألقوها في دجلة حتى جعلوا منها جسراً مرت عليه خيولهم . وقيل ان ضحايا المغول في بغداد بلغوا ثمانمائة الف نسمة [2] ، وكان في طليعة هذه الضحايا الخليفة المستعصم وولداه وجميع العباسيين [3] .

يقول سيد أمير علي : « ويحتاج وصف تدمير تلك المدينة الى براعة مؤرخ مثل غيبون ، فالنساء والاطفال الذين خرجوا من بيوتهم يحملون المصاحف على أكفهم ويتضرعون الى الجنود كي يبقوا على حياتهم وُطئت أجسادهم بحوافر الخيل ، والنساء المدللات اللواتي لم تألفن رؤية الجماهير أجبرن على السير في الشوارع العامة وتعرضن لأبشع ضروب الأذى والاهانة أما الكنوز الفنية والأدبية التي جمعها الخلفاء المتعاقبون بكثير من المشقة والعناء ، مع بقايا المدنية الفارسية ، فقد دمرت تدميراً في خلال بضع ساعات ، وغرقت شوارع المدنة طوال ثلاثة ايام بالدماء واصطبغت مياه دجلة بالحمرة عدة أميال ، واستمرت اعمال التخريب والتقتيل ستة اسابيع ، فدمرت القصور والمساجد والضرائح إما بالنار

---

١ ـ النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٦٤ .
٢ ـ المرجع السابق ج ٧ ص ٥٠ .
٣ ـ جامع التواريخ ج ١ ص ٢٩٤ .



او بالمعاول بغية الحصول على قبابها الذهبية ، وأعمل السيف في رقاب المرضى في المستشفيات والطلاب والاساتذة في الكليات ، وفي الضرائح نبشت قبور الأولياء والائمة الصالحين ، وفي الجامع العلمية التهمت النيران تآليف كبار العلماء ، وألقيت الكتب طعمة للنيران او مياه دجلة ، وهكذا فقدت الانسانية تلك الكنوز التي تجمعت خلال خمسة قرون ، وفنيت زهرة الأمة فناء تاماً [١] » .

وكان لسقوط بغداد ومصرع العباسيين على ذلك الشكل الرهيب ، أثر بعيد في العالم الاسلامي ، فأنشأ الامراء السلجوقيون والأيوبيون الذين عقد الخليفة امله في المقاومة على مناصرتهم ومؤازرتهم ، يتوافدون الى بلاط هولاكو لاعلان ولائهم له مخافة ان يتعرضوا لذات المصير .

ولكن ذلك لم يمنع هولاكو من غزو بلاد الشام ، وقد اشترك في وضع خطة الغزو هيثوم الأول ملك رمينية الصغرى والد زوجة بوهيمند السادس امير انطاكية وطرابلس . وطلب هولاكو من حليفه الأرمني ان يلتقي به على رأس جيش عند الرها حتى يذهب معه الى بيت المقدس ، ويخلص الأراضي المقدسة من قبضة المسلمين ويسلمها للمسيحيين[٢].

واجتاحت جيوش المغول بلاد الشام حتى بلغت مدينة حلب فاحتلتها وأعملت فيها القتل والنهب ، وخربت قلعتها التي طالما صمدت في وجوه الفاتحين ، وبلغ عدد الأسرى فيها على ما قال المقريزي مائة الف من النساء والصبيان [٣] بيع معظمهم في اسواق الرقيق في ارمينية والامارات

---

١ ـ مختصر تاريخ العرب ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .

٢ ـ الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٢٣ نقلا عن Hayton: La Flor des Estoires d'Orient

٣ ـ السلوك ج ١ ص ٤٢٣ .

الصليبية [١] ، ولم يسلم من أهلها الا من التجأ الى دار شهاب الدين ابن عمرون ودار نجم الدين اخي مردكين ودار البازيار ودار علم الدين قيصر وخانقاه زين الدين الصوفي وكنيسة اليهود وذلك لفرمانات كانت بأيديهم [٢] » .

وسرعان ما تساقطت المدن الأخرى ، بعد هزيمة حاميتها او هرب قادتها او مبادرة اصحابها الى طلب الأمان . وقد فر الملك المنصور ابن المظفر صاحب حماة ، الى مصر بحريمه وأولاده ، وهرب الناصر الأيوبي صاحب دمشق الى غزة بغية الوصول الى مصر « وترك دمشق خالية وبها عامتها قد احاطت بالأسوار .. ولم يثبت الناس عند خروج الناصر ، ووقعت فيهم الجفلات حتى كأن القيامة قد قامت [٣] » .

واستسلمت دمشق دون قتال ، ولكن حامية القلعة رفضت الاستسلام ، وجاء لاحتلال القلعة القائد المغولي كتبغا وهو اشد اعوان هولاكو مراساً ، وصحبه في رحلته هذه بعض زعماء القوى الصليبية في الشرق الأدنى مثل هيثوم الأول ملك ارمينية الصغرى ، وبوهيمند السادس امير انطاكية [٤] . وقد صمدت القلعة اربعين يوماً قبل ان تستسلم للغزاة ، ولكن مقاومتها جرت الوبال على دمشق ، فعانى اهلها من انتقام المغول الوان الهول والعذاب .

وتابع الفاتحون زحفهم الرهيب « وأسعروا البلاد حرباً ، وملأوها

---

١ - hist. des Mongols, III. p. 319 , 320

٢ - خطط الشام ج ٢ ص ١١٢ .

٣ - السلوك ج ١ ص ٤٢٣ .

٤ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٢٧ .

قتلاً ونهباً [1] ، حتى بلغوا غزة والخليل ، وكان الناصر يوسف قد خشي الذهاب الى مصر فلاذ بالاردن ، فاعتقله المغول وأرسلوه الى هولاكو فعفا عنه ووعده بأن يعيد اليه دمشق ، وبقي معهم الى أن قتل [2] ، كما سنرى بعد قليل .

ويجب أن نشير هنا الى ان الصليبيين في الشام ، وعلى وجه التدقيق امراء المناطق الجنوبية ، رفضوا التعاون مع المغول ، والاشتراك معهم في غزو مصر ، بل ان بعضهم تعرض للمغول واعتدى على ممتلكاتهم مما اضطر هؤلاء الى مقابلتهم بالمثل ، وكان من جراء ذلك ان احتل المغول صيدا ونهبوها ودمروها . ويرجع المؤرخون ذلك الى عوامل عدة ، منها ان عطف المغول كان يقتصر على المسيحيين الشرقيين دون المسيحيين الغربيين ولاسيما بعد ان تزوج هولاكو ابنة العاهل البيزنطي ، وان اشتراك بوهيمند السادس في حملتهم لم يكن دافعه سوى مصاهرته لملك ارمينية ، وان كتبغا نائب هولاكو في الشام ، وهو مسيحي نسطوري ، طلب من بوهيمند السادس امير انطاكية اعادة البطريرك الارثوذكسي الذي كان البطريرك الكاثوليكي قد طرده من المدينة ، وان البندقيين وغيرهم من ابناء المدن الايطالية لم يطمئنوا لغزوات المغول التي عكرت صفو العلاقات التجارية بين الشرق والغرب ، يضاف الى ذلك كله ان اوربة التي بدأت تأخذ بأهداب الحضارة ما كان يمكن ان تنظر بارتياح الى الحملة البربرية الزاحفة من أعماق آسية وان ادعت حماية المسيحيين .

وكان المماليك في مصر قد شعروا بالخطر الجسيم الذي يتهددهم ،

---

١ - السلوك ج ١ ص ٤٢٦ .

٢ - النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٧ .

وكان على العرش الملك المنصور نور الدين علي ابن الملك المعز ايبك ، وهو فتى طائش لا يستطيع أن يواجه الموقف الرهيب الذي تتعرض له البلاد في أحلك ظلماته وأخطر نتائجه ، فلما تحقق الامير سيف الدين قطز نائب السلطنة وأتابك العساكر ذلك الخطر ، دعا الامراء والقضاة والعلماء الى مجلس عام ، فلما تكامل ذلك المجلس تقدم احد الحاضرين بسؤال في أمر هولاكو واستيلائه على بلاد الشام ، وان بيت المال خال من الأموال ، وقد وصل العدو ، وطمع في أخذ مصر ، والسلطان صغير السن ، وان الظرف العصيب الذي تمر به البلاد يقضي باقامة سلطان صغير السن ، وان الظرف العصيب الذي تمر به البلاد يقضي باقامة سلطان كبير يخشاه الناس ويدفع العدو ، كما ان بيت المال محتاج الى المساعدة بشيء من أموال الرعية لتجنيد الجند وتجهيزهم للسفر وتأمين ما يعينهم على ذلك ، فأجاب شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام : « اذا طرق العدو البلاد وجب على الناس ، وجاز للسلطان أن يأخذ من أموال التجار وأعيان البلد ما يستعين به على تجهيزه العسكر لدفع العدو لكن بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء من المال والسلاح والسروج الذهب والفضة والكبابيش الزركش وأسقاط السيوف الفضة وغير ذلك ، وان كلا من الجند يقتصر على فرسه ورمحه وسلاحه ، ويساوي في ذلك بقية العامة وقت القتال . وأما اخذ اموال التجار والرعية – مع وجود ما في بيت المال من السلاح والقماش – فلا يجوز ، لأنه من باب أخذ اموال الرعية بغير حق[1] » ثم اتفق الحاضرون على خلع الملك المنصور واسناد السلطنة الى سيف الدين قطز ، ولقب الملك المظفر ، وقد اعترض بعض الامراء على ذلك فاعتذر اليهم بقوله : « اني ما قصدت الا ان نجتمع

---

١ – بدائع الزهور ج ١ ص ٧٨ .

على قتال التتار ولا يتأتى ذلك بغير ملك ، فاذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم ، أقيموا في السلطنة من شئتم [١] » .

وقد بادر الملك المظفر سيف الدين قطز الى استنفار الناس الى الجهاد ثم عرض العساكر ، واستدعى عربان الشرقية والغربية ، فاجتمع من العساكر ما لا يحصى ، وشرع في جمع الأموال ، فأخذ على كل فرد من الناس ذكراً كان او انثى ديناراً واحداً ، وأخذ من اجرة الاملاك والأوقاف شهراً واحداً ، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلا ، وأخذ من التركة الأهلية الثلث من المال ، وأخذ على الغيطان والسواقي اجرة شهر ، فبلغ ما جمعه من الاموال ستمائة الف دينار ، فانفق على العسكر والعربان [٢]

وأرسل هولاكو الى الملك المظفر يدعوه الى طاعته في كتاب قال فيه على ما رواه القلقشندي والمقريزي : « من ملك الملوك شرقاً وغرباً القائد المعظم . باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء ، يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا الى هذا الاقليم ، يتنعمون بأنعامه ، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حلّ به غضبه . فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، واسلموا الينا أمركم ، قبل ان ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ . فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن

---

١ – السلوك ج ١ ص ٤١٧ – ٤١٨ .

٢ – بدائع الزهور ج ١ ص ٧٩ .



شكى . وقد سمعتم اننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب وعلينا الطلب ، فأيّ أرض تؤويكم ، وأي طريق تنجيكم ، وأي بلاد تحميكم ؟ فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص . فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يُسمع ... أسرعوا برد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها وترمي نحوكم شرارها ، فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً ، ولا كافياً ولا حرزاً ، وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خالية . فقد أنصفنا اذ راسلناكم ، وأيقظناكم إذ حذرناكم ، فما بقي لنا مقصد سواكم . والسلام علينا وعليكم ، وعلى من أطاع الهدى ، وخشي عواقب الردى ، وأطاع الملك الأعلى [1] » .

وأجاب الملك المظفر على تهديد هولاكو بأن قتل رسله وعلق رؤوسهم على باب زويلة احد ابواب القاهرة ، وكتب الى امراء الشام انه جاد في العزم على قتال المغول ، وقد أعدّ لهم جنوداً لا قبل لهم بها ، وهو مصمم على أن ينقذ بلاد الاسلام منهم ويطهرها من رجسهم ، ويحذرهم من أن يستسلم لهم أحد ، او يظاهرهم على المسلمين ، وان مَثَله ومَثَلهم ومَثَل المغول ، كمَثَل من اشتعلت النار في بيت جاره الأدنى ، فعليه ان يسعى لاطفائها ، وليس لجاره أن يقول له : « لا شأن لك بداري [2] » .

وكان الجيش المغولي الذي يعسكر في غزة بقيادة بيدرا أضعف من

---

١ – صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٣ ، السلوك ج ١ ص ٤٢٧ – ٤٢٨ .
٢ – ورا إسلاماه ص ١٨١ .

أن يقابل المماليك ويتغلب عليهم ، فأرسل بيدرا الى كتبغا في بعلبك يطلب منه ان يسرع لنجدته .

وبعض المؤرخين يأخذون على الصليبيين انهم لم ينتهزوا تلك الفرصة فيتعاونوا مع المغول في القضاء على المسلمين ، لاسيما وان كتبغا نائب هولاكو في الشام كان مسيحياً ، وقد أظهر من العطف على المسيحيين والرعاية ما لا سبيل الى نكرانه ، ولو قابلوا موادعته بالمثل وتحالفوا معه لوطدوا مراكزهم في الشام ، واتسعت رقعة ممتلكاتهم ، وشاركوا في فتح مصر ، ولكنهم لم يفعلوا من ذلك شيئاً . ويرى اولئك المؤرخون ان مسلك الصليبيين هذا انما دلّ على سوء تقدير للموقف ، وعدم تبصر بنتائجه [١] .

ومن المؤسف ان يكون رينه غروسه أحد هؤلاء المؤرخين ، وأن يسمي زحف المغول « الصليبية المغولية » ، وألا يكتم اعجابه بهيثوم الأول لأنه استطاع اقناع هولاكو بهذه الحملة ، وان يصف الفرنجة في عكا وصور بالغباوة لأنهم رفضوا الاشتراك فيها ، ثم يهلل لسقوط بغداد في قبضة الفاتح المغولي ، ويسمي ذلك ثأراً للمسيحية ، ويرى في هذا الفاتح منقذاً بعثه الله [٢] .

والواقع اننا نعتقد بأن موقف امراء المناطق الصليبية الجنوبية من المغول ، من انبل مواقفهم واكثرها تعقلاً ، وهو دليل على ان معايشتهم الطويلة للمسلمين جعلتهم يعتقدون بأن هؤلاء أقل خطراً عليهم وعلى

---

١ - انظر الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٢٨ - ١١٣٣ .

٢ - انظر رصيد التاريخ ج ٢ ص ١٣٩ - ١٤٦ .

المدنية من القبائل المغولية وان حمل بعض افرادها الهوية المسيحية وادّعى حماية المسيحيين . ولهذا فاننا نجدهم لا يترددون في السماح للمماليك بعبور أراضيهم حين استأذنوهم بذلك لمحاربة المغول . فمر الملك المظفر مع جيشه بعكا ، وحصل منها على ما يلزمه من الميرة والمؤونة ، وخرج وجوه المدينة لاستقباله « وأرادوا ان يسيّروا معه نجدة ، فشكرهم وخلع عليهم واستحلفهم ان لا يكونوا لا له ولا عليه [1] » ثم اتجه شطر الاردن ، ولما علم باقتراب كتبغا أخفى القسم الأكبر من جيشه في الغابة المحيطة بعين جالوت بين بيسان ونابلس ، وارسل مقدمة الجيش لملاقاة المغول بقيادة بيبرس .

وسار ركن الدين بيبرس البندقداري حتى لقي طلائع المغول ، فكتب الى السلطان يعلمه بذلك ، وأخذ يناوشهم ، فتارة يقدم عليهم وتارة يحجم عنهم ، وهو يبغي بذلك مشاغلتهم وعدم الاشتباك معهم في معركة فاصلة ، واستمر على ذلك حتى وافاه السلطان عند عين جالوت ، فنزل بعسكره في الغور [2] .

ووصل كتبغا شارب الدماء وحارق القرى وذابح الألوف من الأبرياء ، الى عين جالوت في ٣ أيلول (سبتمبر) سنة ١٢٦٠ م ٦٥٩ هـ ، وكأنه كما يقول رشيد الدين الهمذاني « بحر من اللهب [3] » ، فاضطرب جيش المماليك في اول الامر ، واذا بالسلطان يلقي بخوذته على الأرض ، ويصرخ بأعلى صوته : « واإسلاماه .. واإسلاماه [4] » ثم يحمل بنفسه على العدو ،

---

١ – السلوك ج ١ ص ٤٣٠ .
٢ – واإسلاماه ص ١٩٠ .
٣ – جامع التواريخ ج ١ ص ٣١٣ ،
٤ – السلوك ج ١ ص ٤٣١ .



ويندفع جنوده من ورائه وقد استثارت حماسته هممهم وشحذت عزائمهم

ووقف الملك المظفر في قلب الجيش ، وقام بيبرس البندقداري على الميسرة ، والأمير بهادر على الميمنة ، أما المغول فقد حملوا على القلب ليفتكوا بالسلطان ، فتراجع الملك المظفر قليلا ثم اندفع بكتائبه حاسر الرأس ، وانقضت معه الميسرة بقيادة بيبرس ، فاذا باعصار يواجه اعصاراً ، وموج يزحم موجاً ، وأحس كتبغا شارب الدماء انه يخوض معركة ضارية لا عهد له بمثلها ، ويواجه مقاومة جبارة لم يتعود أن يواجهها ، فاشتد في القتال ، وكان يضرب بسيفين وكلما عقر جواده استبدل به جواداً آخر .

وأراد الملك المظفر ان يصل الى كتبغا ليقتله بنفسه ، ولكن الأمير جمال الدين آقوش سبقه اليه فبطش به وسقط في الوقت نفسه صريعاً بضربة من سيفه [1] ، واختلت صفوف المغول اثر ذلك ، وأخذوا يتقهقرون ، وهزموا هزيمة ساحقة [2]

واندفع المنتصرون بقيادة بيبرس فاسترجعوا من المغول دمشق وحلب ، واستخلصوا بلاد الشام ، وانقذوا الشرق العربي من براثن الغزاة الذين كانوا يعتقدون بانهم زلزال الأرض ، لا يقف امامهم حصن منيع او جبل شامخ .

ومن أطرف ما قيل في انتصار المماليك على المغول قول الشاعر :

غلب التتار على البلاد فجاءهم   من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدد شملهم   ولكل شيء آفة من جنسه

---

١ - وآ إسلاماه ص ١٩٨ .
٢ - المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ٢٠٩ - ٢١٩ ، العبر ج ٥ ص ٥٤٤ .

ولما بلغ هولاكو وهو في بـلاد فارس هزيمة عسكره بعـين جالوت ومقتل نائبه كتبغا ومطاردة المغول في بلاد الشام والقضاء عليهم ، غضب من ذلك وأحضر الملك الناصر الايوبي وأخاه الملك الظاهر غازي وكانا في اسره ، وقال للناصر : « انت قلت ان عسكر الشام في طاعتك فغدرت بي وقتلت المغول » فقال الناصر : « لو كنت في الشام ما ضرب احد في وجه عسكرك بالسيف ، ومن يكون ببلاد توريز كيف يحكم على بلاد الشام ؟ » فأمر هولاكو بضرب عنقه ، فقال الناصر : « يا خَوَند [1] ، الصنيعة » فنهاه اخوه الظاهر عن التوسل اليه . ثم ضربت رقاب الناصر والظاهر والملك الصالح ابن صاحب حمص والجماعة الذين كانوا معهـم ، واستبقوا الملك العزيز بن الناصر لأنه كان صغيراً [2] .

وقد كان لانتصار المماليك على المغول في موقعة عين جالوت والمواقع التي تلتها ، اثر حاسم في تاريخ الشرق الأوسط ، إذ أوقف تلك الموجة البربرية التي كانت تهدد باكتساحه والسيطرة عليه . يقول الهمذاني : « وقد اراد هولاكو خان ان يرسل الجنود مرة ثانيـة الى الشام ومصر لينتقم لمقتل كتبغا ، ولكن لم تكن الظروف في ذلك الوقت تسمح بذلك ، بسبب وفاة منكوخان ، وبسبب الخلاف الذي ظهر بينه وبين اقاربه ، ولهذا عدل عن الفكرة [3] » .

وكانت هذه الانتصارات سبباً لظهور المماليك على مسرح الشرق الأدنى كقوة فاعلة ما لبثت ان بسطت سيطرتها على الامارات الايوبية في الشام وألحقتها بدولة المماليك في مصر ، ثم بدأت تنتزع المدن والقلاع الصليبية واحدة بعد اخرى حتى تم جلاء الفرنجة عن الشرق

---

١ – السيد
٢ – خطط الشام ج ٢ ص ١١٧
٣ – جامع التواريخ ج ١ ص ٣١٧

الفصل الثلاثون
المماليك والفرنج

ما كاد الملك المظفر يحتل دمشق بعد انتصاراته في عين جالوت فيستقبله أهلها مرحبين مهللين ، حتى شجر الخلاف بينه وبين قائد جيشه الامير ركن الدين بيبرس البندقداري الذي كان السلطان قد وعده بأن يقطعه مدينة حلب مكافأة له على بطولته في مطاردة المغول والقضاء عليهم ، ثم اخلف وعده له لشكه في حسن طويته وأعطاها لعلاء الدين ابن بدر الدين لؤلؤ ، وقد عاتبه بيبرس بقوله محتداً : « اذا كنت لا تنوي اعطائي نيابة حلب ، فلماذا وعدتني بها ؟ » فأجابه : « وعدتك بها حين رأيت في ذلك مصلحة المسلمين ، ومنعتك اياها حين خشيت من ذلك على كلمة المسلمين[1] » فاعترضه بيبرس مع رجاله وهو عائد الى مصر بينما كان منشغلا بالصيد بعيداً عن معسكره ، وقتله وهو في أوج انتصاره واستولى على ملكه ، وكان ذلك في ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ ١٢٥٩ م ، ولم يكن قد مضى عام واحد على تبوئه الملك .

---

١ - السلوك ج ١ ص ٤٣٦ - ٤٣٧ ، وآ إسلاماه ص ٢٠٩ ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ٢٦٩

ويقول سوبرنهايم ان الظافر بيبرس كان السبب بتوسيد ملك الشام الى قطز لما أبلى البلاء الحسن في موقعة عين جالوت ، فأقطع قطز الأمراء من بني أيوب الاقطاعات التي كانت لهم قبل غارات المغول ، ولكن بيبرس الذي كان يرجو أن توسد اليه حلب مكافأة على شجاعته لم ينل شيئاً فعزم على الانتقام لنفسه من هذا الظلم ، فقتل السلطان ونادى به زعماء الجند وغيرهم سلطاناً [١] .

ومن أعجب ما يرويه أبو المحاسن ان القاهرة كانت قد زينت احتفالاً بعودة الملك المظفر قطز ، فاستمرت الزينة ابتهاجاً باعتلاء بيبرس سدة الملك [١] ! وقد تلقب بيبرس بالملك الظاهر ويعتبر المؤسس الحقيقي لسلطة المماليك .

وقد بدأ الملك الظاهر عهده بتوطيد ملكه في مصر وسورية ، واستمالة الرعية بابطال ما أحدثه قطز من المكوس والضرائب ، والقضاء على حركات التمرد التي قام بها الأيوبيون ، والمحاولات الانتقامية التي قام بها المغول ، ثم اتجه بكليته الى الفرنج [٣] .

وكان بيبرس سياسياً بارعاً ، فأراد ان يعطي حكم المماليك صفة شرعية ، فعمد الى احياء الخلافة العباسية ، اذ جاء بأحمد ابي القاسم ابن الخليفة العباسي الظاهر وبايعه بالخلافة في ١٣ جمادي الاولى سنة ٦٥٩ هـ ١٢٦٠ م ، بعد ان اثبت نسبه أمام قاضي القضاة [٤] ، وتلقب

---

١ – خطط الشام ج ٢ ص ١٢٢
٢ – النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٠٢
٣ – السلوك ج ١ ص ٤٨٣
٤ – صبح الأعشى ج ٦ ص ٩ ، السلوك ج ١ ص ٤٤٩ – ٤٥٠

الخليفة الجديد بالمستنصر وضرب اسمه على النقود ودعي له على المنابر[1] ، وبعد أن تمت البيعة للمستنصر قلد الخليفة بيبرس منصب السلطان وأعطاه العقد والخلعة ، فعزز بذلك مركز المماليك في العالم الاسلامي وأظهرهم بمظهر الحماة للخلافة العباسية ، وتلافى بذلك اية محاولة قد يقوم بها أمير من الأيوبيين لاسترجاع ملكه[2]

وقد توجه بيبرس بعد شهور قليلة من مبايعة المستنصر بالخلافة ، الى المشرق برفقة الخليفة طمعاً في اعادة بغداد الى أملاك الخلافة ، ولكنه لم يرافقه الا الى دمشق فودعه فيها وعاد الى مصر ، وقبل أن يصل المستنصر بجيشه الصغير الى بغداد أغار عليه حاكم المغول ببغداد وهو في الصحراء فكان ذلك آخر العهد به ، وبلغ ما انفقه بيبرس على المستنصر وحاشيته على ما يقول المقريزي وابو الفدا ما يزيد على مليون دينار[3]

وما لبث الملك الظاهر ان استدعى اميراً عباسياً آخر هو ابو العباس أحمد بن علي بن ابي ابكر ابن الخليفة المسترشد فبايعه بالخلافة بحضور القضاة والامراء وارباب الدولة في سنة ٦٦١هـ ١٢٦٢ م ولقب بالخليفة الحاكم ، وبذلك اعيدت الخلافة العباسية ثانية الى مصر ، ولم يفكر بيبرس او الخليفة الجديد هذه المرة في الاستيلاء على بغداد[4] . وقد تعاقب بنو الخليفة الحاكم على كرسي الخلافة مدة قرنين ونصف القرن وليس لهم

---

١ – العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٥ ص ٣٨٢ - ٣٨٣ ، المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ٢٢٢ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٩ - ٦٢

٢ – تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢٤٢

٣ – السلوك ج ١ ص ٤٦٧ ، المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ٢١٥

٤ – الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ص ٧١

منها الا الاسم ، وقد قنعوا بنقش اسمائهم في السكة والخطبة لهم على منابر مصر وسورية [1] ، وان يطلق عليهم لقب « امير المؤمنين » !

وخشي الظاهر أن يعود هولاكو الى مهاجمة الشام ، وان يتم بينه وبين الصليبيين التحالف لذي رفضه هؤلاء في حملته الأولى ، فمد يده الى بركة خان زعيم مغول القفجاق الذين عرفوا باسم القبيلة الذهبية ، وأقام بينه وبين هذه القبيلة أوثق الصلات « ثم ان دائرة التحالف بين المماليك ومغول القفجاق لم تقف عند ذلك الحد ، بل سرعان ما انضم الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوغوس الى محور بيبرس – بركة ، فأصبح التحالف ثلاثياً ، مما مكن الظاهر بيبرس من القيام بمشاريعه الكبرى ضد الصليبيين وهو آمن [2] »

وقد رغب الصليبيون في عقد الصلح مع بيبرس الا انه عدّد لهم نقضهم للصلح غير مرة ، وقال لهم : « ردوا ما أخذتموه من البلاد وفكوا اسرى المسلمين جميعهم ، فاني لا أقبل غير ذلك [3] » ولم يكن التعصب دافع بيبرس على الرغم من تدينه وتقواه ، وفي ذلك يقول لامونت الذي يسميه أحد أبطال الاسلام العظام : « على ان بيبرس يستحق ان يتبوأ مكاناً علياً في التاريخ باعتباره مؤسس عظمة مصر المملوكية . وعلى الرغم من أن بيبرس كان مسلماً تقياً ، فانه لم يكن مدفوعاً بالدين اكثر ممن تقدمه من السلاطين ، ولم تكن حروبه ضد اللاتينيين الا خطوة محتمة فرضتها عليه سياسة التوسع المصرية ، ومما يدل

١ – تاريخ العرب لحتي وزميليه ج ٢ ص ٨٠٠
٢ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤٣
٣ – السلوك ج ١ ص ٤٨٥ – ٤٨٦

على ان الحروب التي خاضها لم تكن حروباً دينية ، أو جهاداً ، رغبته الملحة في كسب صداقة الملوك النصارى : شارل ملك انجو وصقلية ، وجيمس اوف اراغون ، وانونسو أمير قشتالة ، وميخائيل باليولوغوس. فقد سعى بيبرس أن يعقد مع هؤلاء جميعاً محالفات سياسية وتجارية [1] ،

وبدأ الصراع بين الفريقين في اوائل سنة ١٢٦٣ م ٦٦٢ هـ ، بغارات ومناوشات من الجانبين ، وكان النصر فيها سجلاً بينهما ، ثم انتقل بيبرس في أوائل سنة ١٢٦٥ م ٦٦٤ هـ الى الحرب الشاملة ، فزحف على رأس جيش كبير على عدد من الحصون والمدن الصليبية ، فتساقطت في يده قيسارية ويافا وارسوف ، وكان مانفرد ابن الامبراطور فردريك الثاني ووريثه فى صقلية والامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوغوس وبركة خان زعيم القبيلة الذهبية وشيخ جمهورية جنوة الايطالية ، يتابعون انتصاراته بعطف ويتبادلون معه الرسائل الودية [2] .

وتابع الظاهر بيبرس حربه الشاملة في سنة ١٢٦٦ م ٦٦٥ هـ ، فاستولى على صفد وهونين وتبنين والرملة في فلسطين وعلى القليعات وحلباء وعرقة في ساحل الشام . ثم أرسل الأمير قلاوون والملك المنصور الثاني الأيوبي الى ارمينية الصغرى فقاما بغارات انتقامية على عاصمتها ومدنها الكبرى ، بينما كان ملكها هيثوم الثالث يطلب في تبريز معونة المغول ، وقد عادا بأربعين الف من الأسرى وما لا يحصى من الغنائم . « والواقع ان مملكة ارمينية الصغرى لم تفق مطلقاً من تلك الكارثة ، وصار دورها سلبياً بعد ذلك في الأحداث الجارية على مسرح الشرق الادنى . أما الملك

---

١ – دراسات اسلامية ص ١٣٧

٢ – Grouset : Hist. des Croisades, III. p. 625

هيثوم ، فان الصدمة جعلته يترك العرش سنة ١٢٦٩ لابنه ليو الثالث [١] ،

وفي ايار (مايو) سنة ١٢٦٨ م ٣ رمضان سنة ٦٦٦ هـ أحرز بيبرس نصراً كبيراً أذ احتل انطاكية بعد حصار لم يطل اكثر من خمسة أيام [٢]، مع انها مدينة كبيرة قوية التحصين سبق ان عجز الاباطرة البيزنطيون أنفسهم عن أخذها من الصليبيين [٣] ، وقد كان سقوط انطاكية اعظم من مجرد كارثة حربية ، لانها من اولى الامارات التي اسسها الصليبيون في الشرق ، وقد ظلت منذ ذلك التاريخ بمثابة القلعة الكبرى للفرنجة في بلاد الشام [٤] . فلا عجب اذا وقع نبأ استيلاء بيبرس عليها وقع الصاعقة على رؤوسهم ، واسرعت بعض القوى الصليبية المجاورة الى الاستسلام والفرار بحياتها ، في حين لجأ البعض الآخر الى استرضاء السلطان بيبرس وكسب عفوه ووده [٥] .

وبعد انهيار ارمينية وحليفتها انطاكية ، لم يبق للمدن الصليبية القليلة المتناثرة على سواحل الشام وفلسطين من أمل في العون والمؤازرة الا في مملكة قبرص الصليبية ، بعد أن اعرضت اوربة عن أصوات الاستغاثة وطلبات النجدة ، بينما حالف العاهل البيزنطي ميخائيل باليولوغوس القساجقة في روسية والمماليك في مصر ضد شارل دانجو [٦]

---

١ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤٨

٢ – انظر تفصيل ذلك في السلوك ج ١ ص ٥٦٧ ، المختصر في تاريخ البشر ج ٤ ص ٤ - ٥ ، الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ص ٨٦ – ٨٧

٣ – الظاهر بيبرس للدكتور عاشور ص ٧١

٤ – المرجع السابق ص ٧٢

٥ – المرجع السابق ص ٧٣

٦ – الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ٢١٦

الذي اشترى لقب ملك القدس من ماري أميرة انطاكية [١] .

وقد توحدت مملكة قبرص الصليبية .ومملكة الصليبيين في الشام مرة أخرى تحت تاج واحد ، حين خلف هيو الثالث والده هيو الثاني ملك قبرص سنة ١٢٦٧ م ٦٦٥ هـ وورث عرش المملكة الصليبية في الشام سنة ١٢٦٩ م ٦٦٧ هـ فجعل هيو الثالث يوثق صلاته بامراء الصليبيين لتقوية الوحدة الداخلية ، في الوقت الذي كان يسعى في سبيل مدد خارجي ، ولم تستطع اوربة ان تحقق امانيه ، فالحملة التي ارسلها ملك أرغونة بقيادة ولديه غير الشرعيين كانت قليلة العدد ضئيلة الشأن . والحملة الصليبية الثامنة التي قادها لويس التاسع ملك فرنسة قد اتجهت الى تونس وهُزمت فيها كما هزمت حملته السابقة ، بل كانت هذه الحملة أكثر شؤماً عليه ، إذ شاهدت تونس مصرعه ومصرع سواد جيشه . والحملة الانكليزية التي جاءت الى عكا بقيادة الامير ادوار (الذي تولى فيما بعد عرش انكلترة باسم ادوار الاول) كان عددها لا يزيد على الف رجل وقد نشب الخلاف بينها وبين التجار المسيحيين ، ولا سيما البندقيين الذين كانوا يمدون المماليك بالمواد الأولية اللازمة لصناعة السفن ، ويبيعونهم الرقيق الأبيض لاستخدامهم في الجيش . والمساعدة المغولية التي وعد بها أبغا خان ابن هولاكو وخليفته الذي شغلته الحرب مع مغول تركستان، كانت صغيرة جداً ، وقد اقتصر افرادها على النهب والسلب في حوض العاصي ثم عادوا من حيث أتوا .

---

١ - كانت ماري أميرة انطاكية أحد المتخاصمين على عرش مملكة بيت المقدس ، ولكنها غلبت على أمرها سنة ١٢٦٨م ٦٦٧ هـ ، وقد قام شارل دانجو بالاستيلاء على عكا سنة ١٢٧٧ م ٦٧٦ هـ بالتعاون مع فرسان الداوية ضد هيو الثالث ملك قبرص الذي منحته المحكمة العليا عرش القدس .

ومع ذلك فقد كان الأمير ادوار وهو الثالث يضعان الخطط الحالة لاسترداد مملكة بيت المقدس ، واحتلال مصر ، والاستيلاء على القسطنطينية التي تحررت من نير الصليبيين [1] .

وكان الظاهر يتابع خلال ذلك حملته وتوسعه على حساب الفرنجة ، فانتقل بعد أن وطد اركان حكمه في انطاكية ، الى امارة طرابلس فاستولى على صافيتا وحصن عكار ، ثم حاصر حصن الاكراد المنيع وهو أهم معاقل الفرسان الصليبيين ، بل لعله أروع بناء حربي أبقته لنا العصور الوسطى [2] ، وهو يقع على قمة ترتفع سبعمائة وخمسين متراً عن سطح البحر ، على مسافة أربعين كيلو متراً من الساحل ، في الطرف الجنوبي لجبال العلويين ، وكان الفرسان الصليبيون يشرفون منه على الطرق الموصلة بين الموانىء على البحر المتوسط ، ووادي نهر العاصي والمدن القائمة على ضفافها وأهمها مدينة حمص ، وكانت كتائبهم تنطلق بلا انقطاع من ذلك الوكر المنيع ، فتجوب السهول والجبال ، وتغزو ضفتي نهر العاصي ، وتفرض الجزية والضرائب والرسوم ، وتعود الى بلادها محملة بالأسلاب والأموال . وكان الصليبيون يسمونه « حصن الفرسان » والعرب يسمونه « حصن السفح » فلما حلّ فيه جنود صلاح الدين عرف باسم « حصن الأكراد » نسبة الى اولئك الجنود وقائدهم العظيم [3]

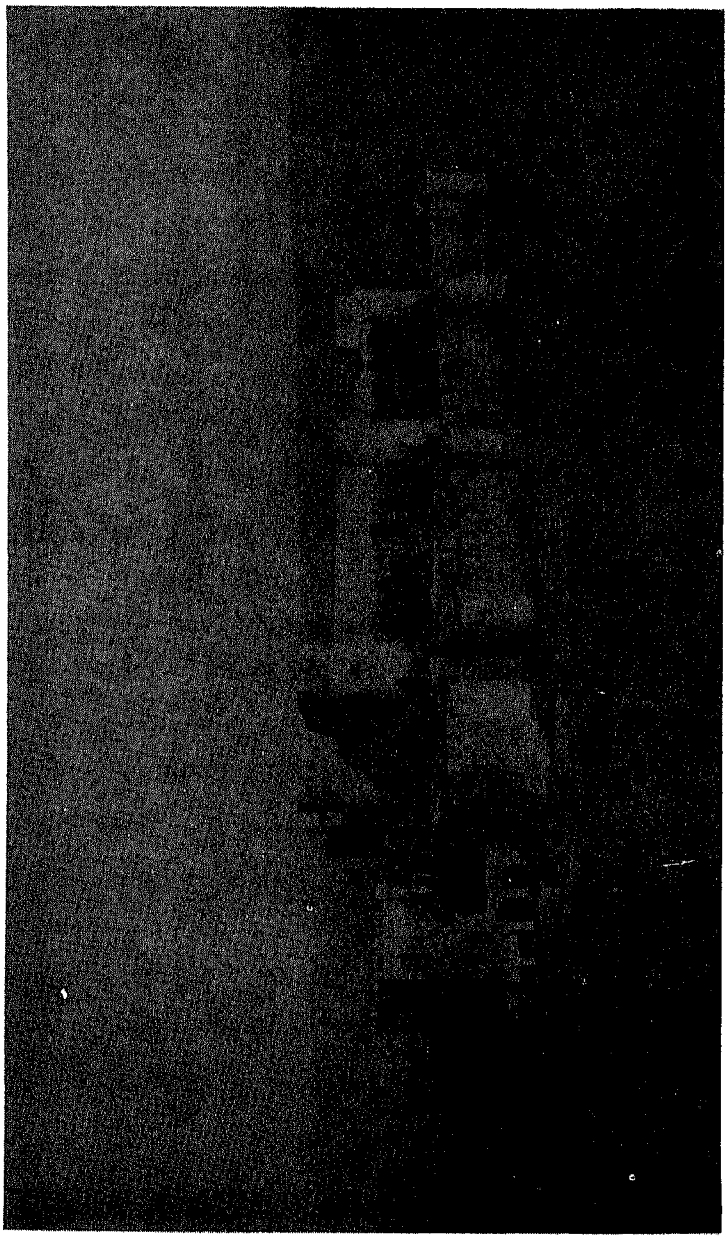
يقول الاستاذ حبيب جاماتي : « وكان دفاع الفرسان عن حصنهم رائعاً مجيداً ، ولم تقل مقاومتهم عن هجوم اعدائهم شدة وعناداً ، فقد

---

١ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩ ١١ نقلا عن :
"Seventeen Lectures on the Study of Med. and Modern History p. 205 - 206

٢ – تاريخ العرب لحتي وزميليه ج ٢ ص ٧٧٧

٣ – الجنة في ظلال السيوف ص ١٠٥

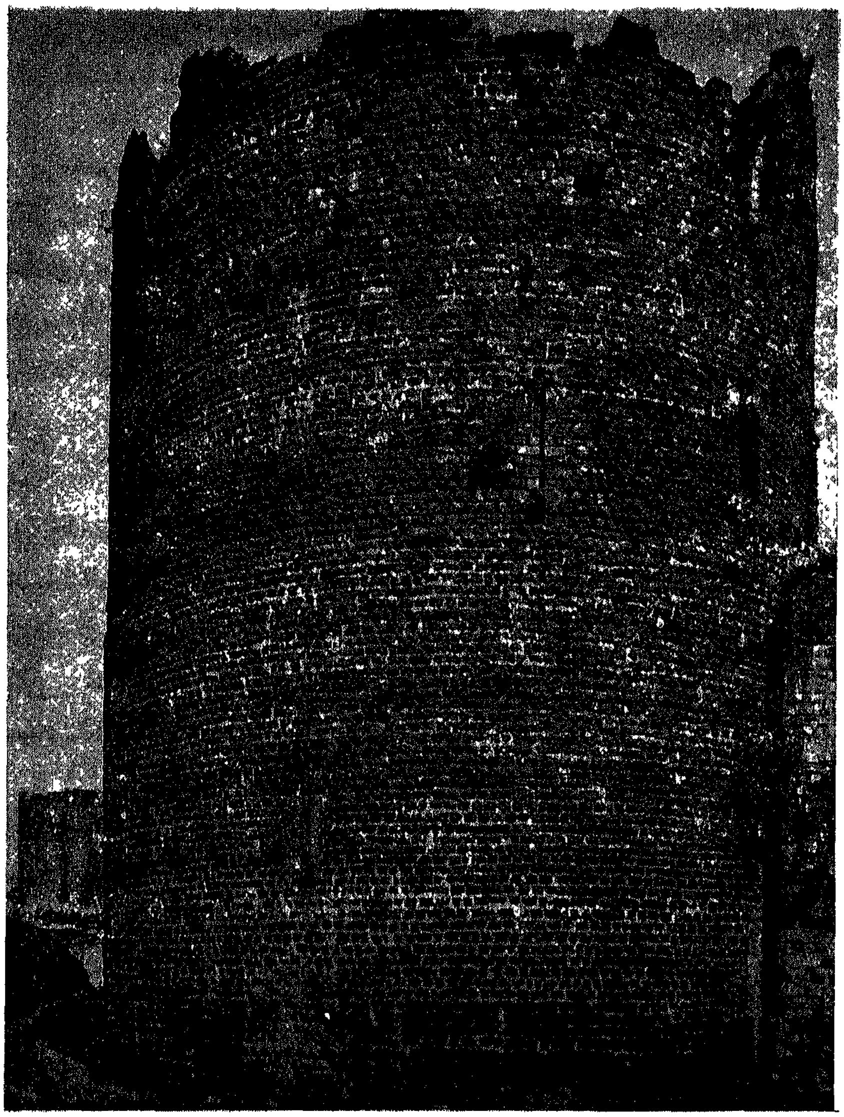


شهد سفح الجبل الأجرد ، خلال أيام وأسابيع متعاقبة ، أسوداً تنافح أسوداً ، وردد الصدى من واد الى واد قعقعة السلاح وصياح المتحاربين على نور الشمس وضوء القمر وفي الليالي القاتمة سواء بسواء . وتبارى الفريقان في ميدان القتال وحلبة البطولة ومضمار التضحية ، وراح النصر يبتسم يوماً لهذا ويوماً لذاك ، الى أن أدرك قائد الفرسان في النهاية ان الدائرة دائرة عليهم ان عاجلاً وان آجلاً ، وان مقاومتهم لن تنقذهم من الهلاك مهما تطل مدتها . فأراد أن يعلن باسم رجاله رغبته في وضع حد لذلك النضال المرير ، ويطلب وقف القتال والدخول في مفاوضة لوضع شروط التسليم ، ولكن معاونيه في القيادة لم يوافقوه على رأيه ، بل قرروا المضي في المقاومة حتى ينفد منهم الزاد والماء ، او يؤخذ منهم الحصن عنوة واقتداراً [1] »

الا ان بيبرس شدد الهجوم ، واقتحم بابين من ابواب المعقل ، واحتل جزءاً من الاسوار ، فاضطر الفرسان الى الموافقة على اقتراح قائدهم بالتسليم وطلب الأمان ، وفي ٨ نيسان (ابريل) سنة ١٢٧١ م ٦٦٩ هـ كف الفريقان عن القتال ، وتم الاتفاق على ان يخرج الفرسان من حصنهم معززين مكرمين ، وان يحتفظوا بأسلحتهم ودروعهم وخوذاتهم ، وان يأخذوا معهم ستين جواداً بعدتها الكاملة ، وان يحمل كل منهم الف قطعة من الذهب لا اكثر ، وان يحملوا عشرين من البغال والحمير مما يكفيهم من المؤونة والزاد لمدة شهر كامل ، وان تأخذ النساء ما يحلو لهن أخذه من الحلي والجوهرات . أما الذين كانوا في الحصن من اصدقاء أو حلفاء أو خدم أو أسرى من ابناء البلاد ، ايا كان مذهبهم ،

---

١ - المرجع السابق ص ١٠٦



أحد ابراج حصن الأكراد

فيترك لهم الخيار في مرافقة الفرسان في رحيلهم او البقاء في الحصن على أن يؤمنهم الغالبون على ارواحهم ، ويتعهدوا لهم بتوفير وسائل السفر لهم فيما بعد اذا رغبوا في ذلك[١] .

وانحدر الظاهر بيبرس بعد ذلك نحو الجنوب فاستولى على حصن القرين ، وأرسل اسطولاً لغزو قبرص ، فحطمت العاصفة سفنه ، فاستولى هيو الثالث عليها ، وأرسل الى بيبرس ينبئه ساخراً باستيلائه على تلك السفن ، فأجابه السلطان بسخرية مماثلة : « ... وقد كنت عرّفتنا ان الهواء كسر عدة من شوانينا .. ونحن الآن نبشره بفتح القرين ، وابن البشاره بتملك القرين من البشارة بما كفى الله ملكنا من المين . وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب ، الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب .. وما النصر بالهواء مليح ، انما النصر بالسيف هو المليح .. وان عدمت من بحرية المراكب آحاد ، فعندنا من بحرية المراكب الوف . وانتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول . فلئن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة فكم أخذنا لكم من قرية معمورة الخ[٢]... »

وخلال سني ٦٦٩ – ٦٧٢ هـ ١٢٧٠ ١٢٧٣م استولى بيبرس على حصون الاسماعيلية واحداً بعد آخر بقيادة الأمير عز الدين العديمي واشراف صارم الدين مبارك بن الرضى الذي قلده بلاد الدعوة الاسماعيلية على أن تكون مصياف وبلادها خاصة بالسلطان . يقول الدكتور محمد جمال الدين سرور : « وانتهى الأمر بأن تخلوا عن قلاعهم ، فأقطعهم بيبرس

---

١ – المرجع السابق ص ١٠٧
٢ – الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ص ٩٧ - ٩٨

في مقابل ذلك بعض الأراضي المصرية ليستوطنوها . فكان هذا القضاء على قوتهم التي شغلت الظاهر وجيشه ردحاً من الزمن . ومن العجيب في اخلاق بيبرس انه بعد إجلائهم عن مواطنهم الى الديار المصرية استخدمهم في قضاء أغراضه [1] .

ولما يئس هيو الثالث والأمير ادوار من تحقيق احلامهما ، بادرا في سنة ٦٦٧ هـ ١٢٦٨ م الى عقد الصلح مع الظاهر بيبرس لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة ايام . الا ان ادوار ما لبث أن اصيب بطعنة خنجر سددها اليه احد الاسماعيليين ، ولكن الطعنة لم تكن قاتلة فلزم ادوار فراشه بضعة أشهر ثم عاد الى بلاده في خريف سنة ١٢٧٢ م ٦٧١ هـ . أما هيو الثالث فقد يئس من معالجة أوضاع الصليبيين في بلاد الشام وتقوية مراكزهم فيها ، فعاد سنة ١٢٧٦ م ٦٧٥ هـ الى قبرص دون أن يعين نائباً عنه في عكا ، متخلياً بصورة نهائية عن مملكة بيت المقدس ، وكتب الى غريغوري العاشر يشرح الوضع السائد فيها ويبرر الموقف الذي اتخذه منها [2] . وقد ندم هيو الثالث على ذلك فيما بعد ، وحاول مرة ومرة استعادة ملكه في بيت المقدس ، فقوبل بمقاومة مسلحة من قبل أنصار شارل دانجو الذي اتخذ لنفسه لقب ملك بيت المقدس وأرسل نائباً عنه الى عكا ، بوصفه وريثاً للأمبراطور فردريك الثاني في صقلية .

وعلى اثر وفاة بوهيمند السادس أمير طرابلس في ايار (مايو) سنة ١٢٧٥ م ٦٧٤ هـ ، خلفه ابنه بوهيمند السابع ، وكان فتى قاصراً ، فاشتد النزاع بين مختلف الأمراء وذوي الشأن في طرابلس بسبب الوصاية

---

١ - المرجع السابق ص ١٠٠ .

٢ - Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 669 670

عليه ، وبلغ هذا النزاع حد الحرب الأهلية

ومثلما اضطربت الأوضاع الداخلية في المدن الصليبية ، اضطربت المملكة التي بناها الظاهر بيبرس إثر وفاته في ١٧ محرم سنة ٦٧٦ هـ ١٢٧٧ م وهو في الطريق من حلب الى دمشق ، بعد ان امتدت الى البحر الأسود شمالاً والمحيط الهندي جنوباً ، والفرات شرقاً وتونس غرباً ، وتنازع على الحكم ولداه السعيد بركة والعادل سلامش والأمير سنقر الأشقر والأمير قلاوون الألفي ، وقد استطاع قلاوون الذي تلقب باسم الملك المنصور أن يستأثر بالملك ، بعد أن هرب سنقر الى قلعة صهيون واستنجد بالمغول ، وبذلك أتيحت الفرصة لأبغا خان – الذي ما فتىء يكاتب الأمير ادوار ، ويبعث الرسل الى البابا ، لاقامة حلف مغولي صليبي دون جدوى – كي يهاجم بلاد الشام انتقاماً من المماليك .

الا ان غزوة المغول سنة ٦٧٩ هـ ١٢٨٠ م ، بالرغم من الفظائع التي أقدموا عليها ولا سيما في مدينة حلب التي أحرقوا فيها الجوامع والمدارس ودار السلطنة ودور الامراء[١] ، لم تكن على ما يبدو سوى مجرد حملة انتقامية ، لأنهم ما لبثوا ان تخلوا عن المناطق التي أحتلوها وعادوا الى الجزيرة .

وأدرك الملك المنصور انه في حاجة الى فترة من السلام يوطد فيها أركان ملكه ويقوي جيشه ويعزز دفاعه ، كما أراد ان يحول دون أية محاولة يقوم بها المغول للتحالف مع الصليبيين ، فعقد مع هؤلاء صلحاً لمدة عشر سنوات .

والواقع ان المغول ما لبثوا ان قاموا سنة ٦٨٠ هـ ١٢٨١ م بحملة

---

١ – النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٧٧

جديدة يؤازرهم فيها ليو الثالث ، وقدر المؤرخون عدد أفرادها بثمانين ألفاً . وقد بلغت هذه الحملة أسوار حمص ، ثم ارتدت مهزومة بعد معركة عنيفة قادها قلاوون بنفسه ، وانطلق المغول هاربين عبر الفرات ، بينما حاول ليو الثالث العودة الى بلاده فاعترضه الامير شجاع الدين السيناني في الطريق فقتله وأسر كل من معه .

وقد توفي ابغا خان في السنة التالية ، وقلب أخوه تكودار سياسته رأساً على عقب ، فأعلن اعتناقه الاسلام وتسمى باسم أحمد ، واتخذ لنفسه لقب سلطان ، وأرسل الى قلاوون يخبره بأنه مسلم وانه أمر ببناء المساجد والمدارس والأوقاف ، وأمر بتجهيز الحجاج ، وطلب منه التعاون والتهادن ، فرد السلطان عليه مهنئاً بالاسلام ، وداعياً اياه الى التحالف ضد العدو المشترك وهم الصليبيون . ولكن تكدار ما لبث ان قتل سنة ٦٨٣ هـ ١٢٨٤ م ، وحل محله ابن اخيه ارغون في حكم دولة مغول فارس ، واعلن وضع قواته لخدمة المسيحية ، واتفق مع ملك أرمينية على استرداد الأراضي المقدسة من المسلمين ، وأرسل اربع سفارات الى البابوية بين سنة ٦٨٤ هـ ١٢٨٥ م وسنة ٦٨٩ هـ ١٢٩٠ م ، يقترح فيها القيام بحملة مشتركة مع البابوية لمحاربة المماليك ، بحيث يغزو الفرنجة مصر ويغزو هو بلاد الشام ، ولكن ارغون خان لم يجد استجابة من الغرب ، سواء من البابا أم من الملوك [٢]

ويبدو ان المنصور قلاوون لم يعد ليأبه لحملات المغول المتوقعة ، وقرر اقتلاع تلك النبتة الغربية التي لا جذور لها في الأرض العربية ، وقد

---

١ – المختصر في تاريخ البشر ج ٤ ص ١٥ – ١٦ ، العبر ج ٥ ص ٥٤٥ – ٥٤٦ .
٢ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٦٨ – ١١٦٩

شاخت وتساقطت أوراقها ، فما لبث ان هاجم في ربيع سنة ٦٨٤ هـ ١٢٨٥ م حصن المرقب ، وهو من الحصون المشهورة بالمنعة والحصانة [١] ، واستولى عليه .

وفي سنة ٦٨٦ هـ ١٢٨٧ م نشبت الحرب في ايطاليـة بين جمهوريتي بيزة وجنوة ، ثم انتقلت الى بلاد الشام ، فأقبل اسطول جنوي لضرب معسكرات البيازنة [٢] وانتهز السلطان قلاوون هذه الفرصة فاستولى على اللاذقية .

وفي تلك السنة نفسها توفي بوهيمند السابع أمير طرابلس دون أن يخلف وريثاً للعرش ، فتألف مجلس بلدي لادارة شؤون الامارة ، الا ان اخته الاميرة لوسي ما لبثت ان وصلت الى عكا وطالبت بحقها في ملك أخيها . واستنجدت الأميرة بالاسبتارية ، بينما استنجد المجلس بجنـوة . ويقول أبو المحاسن ان بارتلميو (سيرتلمية) صاحب جبيل ورئيس المجلس « سأل من السلطان الملك المنصور المساعدة وأن يتقدم للأمـير بلبان الطباخي السلحدار وأن يساعده على تملك طرابلس ، على أن تكون مناصفة ، وبذل بذولاً كثيرة [٣] » .

وقد أنجد الجنوية مجلس طرابلس باسطولهم ، فوضع المجلس المدينـة تحت حمايتهـم ، وانتهزوا تلك الفرصـة فعززوا مراكزهم التجارية فيهـا وأضحت لهم شوارع وأسواق خاصة ، الا ان الاميرة لوسي مـا لبثت أن فاوضتهم واتفقت معهم على الاعتراف بحقوقهم في طرابلس مقابـــل

---

١ – النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢١

٢ – Hist. du Commerce du Levant, I, p. 354 - 355

٣ – النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢١ .



مدينة طرابلس عن لوحة قديمة

اعترافهم بها أميرة عليها ، وانهارت بذلك مطامع بارتلميو فعاد الى تحريض المنصور قلاوون على احتلال المدينة ، واشترك البنادقة والبيازنة ، منافسو الجنوية في هذا التحريض بارسال وفد الى مصر ينبه السلطان الى ان وجود الجنويين في طرابلس يهدد تجاره الاسكندرية ويتيح لهم السيطرة على البحر الابيض المتوسط .

ولم يكن قلاوون في حاجة الى كل هذا الاغراء ، كي يحاول الاستيلاء على طرابلس ، إذ كان يتحين الفرصة المؤاتية ليخطو هذه الخطوة ، فما ان شعر بالفوضى السائدة في المدينة ، حتى سار اليها في ربيع سنة ٦٨٨ ﻫ ١٢٨٩ م ورابط أمام أسوارها ، وقد أسرع الصليبيون الى تناسي أحقادهم والاتحاد في وجه الخطر المحدق بهم ، وأنجدت قبرص وعكا وجنوة المدينة المحاصرة بقوة من جندها وطائفة من سفنها ، وقد أدرك الجميع ان سقوط طرابلس معناه ضياع ما تبقى من ممتلكات الصليبيين على طول الساحل في المستقبل القريب ولكن الوقت كان قد فات ، وضيّع الفرنجة فرصة الاستعداد والتأهب للمعركة ، ومهما استجمعوا من قواهم في الساعات الأخيرة ، فانها لن تستطيع صد القوة الجبارة التي كان قلاوون قد حشدها حول طرابلس والتي بلغت أربعين الفاً من الفرسان ومائة الف من المشاة [١] ، فضلاً عما نصب حولها من دافعات القذائف ، ومن جاء بهم من الخبراء في بث الألغام وطلب منهم العمل ليلاً ونهاراً في تقويض الأسوار [٢] .

وقد أدرك الفرنجة في طرابلس النهاية المحتومة التي ستصير اليها ، فما

---

١ – السلوك ج ١ ص ٧٤٧

٢ – الجنة في ظلال السيوف ص ١٢٥

هي الا ثلاثة أسابيع مرت على الحصار حتى أخذ كل فريق منهم يسابق الفريق الآخر في جمع أمواله وتهريب بضائعه ، الا ان جيش قلاوون ما لبث ان احتل المدينة ، فدمر أسوارها ومنشآتها القديمة القائمة على شاطىء البحر ، وبنى طرابلس الجديدة بجوار النهر حول حصن سان جيل ، بعيداً عن شاطىء البحر ، اتقاءً لغزو الأساطيل الاوربية

ولما سقطت طرابلس في ١٤ ربيع الآخر سنة ٦٨٨ هـ ١٢٨٩ م « أقر السلطان بلدة جبيل مع صاحبها على مال أخذه منه ، وأخذ بيروت وجبلة وما حولها من الحصون[٢] » وبذلك اقتصرت المستعمرات الصليبية في بلاد الشام على مدن عكا وصيدا وصور وحصن عتليت[٣]

*

كانت نهاية البقية الباقية من الامارات الصليبية ، معروفة ومتوقعة من الجميع . فبعد أن تهاوت امارة الرها ، وامارة انطاكية ، وامارة طرابلس ، لم يبق من ذلك البناء الشامخ الذي بناه الاستعمار الغربي في الشرق ، سوى أنقاض مملكة بيت المقدس . وكانت هذه المملكة التي تحمل اسم عاصمة فقدتها منذ عهد بعيد ، تقتصر على ثلاث أو أربع مدن !

كانت النهاية معروفة ومتوقعة من الجميع ، ومع ذلك فان اوربة لم تتحرك لانقاذ الموقف ، وعبثاً كان هنري الثاني ملك قبرص يستغيث ، وكان قادة عكا يستنجدون ، وكان ارغو خان زعيم مغول فارس يدعو

---

١ – السلوك ج ١ ص ٧٤٨ ، المختصر في تاريخ البشر ج ٤ ص ٢٤

٢ – النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢١

٣ – Grousset : Hist. des Croisades. III, p. 745

البابوية الى مشاركته في حرب صليبية جديدة .. فان كل ذلك ظل دون جواب !

لقد تحركت اوربة يوم سقطت الرها ، وضجت يوم سقطت حطين ، وذعرت يوم سقطت القدس ، وتدفقت أمواجها البشرية خلال قرنين كاملين لانقاذ الأرض المقدسة ، وها هي البقية الباقية من الممتلكات الصليبية في بلاد الشام توشك ان تزول الى الأبد ، دون ان تتحرك اوربة ، او تضج ، او يتولاها الذعر ، او ترسل نجدة أو تلبي استغاثة ، لأن قيماً جديدة قد أشرقت في اوربة ، وهي تناضل - وقد يستمر نضالها قروناً عديدة - لاعلاء شأن العلم والحرية ، واقامة علاقات جديدة بين الناس والشعوب ، ليس الدين والعنصر واللون أساسها ومرتكزها .

ان المدن والحصون الصليبية كانت تتساقط منذ عشرات السنين في أيدي أبناء البلاد ، كما تتساقط أوراق شجرة زرعت في غير تربتها ، ثم ما لبثت تلك الشجرة الغريبة أن تداعت على نفسها وسقطت دفعة واحدة !

هكذا سقطت عكا في ربيع سنة ٦٩٠ هـ ١٢٩١ م ، كجذع شجرة وحيدة عارية في فلاة من الأرض ، لا أغصان لها تحميها من الرياح والعواصف ، ولا جذور تغذيها وتجدد مقاومتها .

وكانت الهدنة إذ ذاك قائمة بين السلطان قلاوون وهنري الثاني ، والأمن يسود العلاقات التجارية المنتظمة بين المدن الصليبية وبقية مدن الشام ، والفلاحون يعملون مطمئنين في كل مكان [1] ، واذا ببعض الايطاليين الأغرار القادمين حديثاً الى عكا ، دون ان يعرفوا حقيقة الأوضاع فيها ،

Grousset : Hist. des Croisades, III, P. 748 —

يعتدون على تجار المسلمين في المدينة ، ويغزون بعض المزارع الاسلامية في جوارها [1] ، ويجورون في ذلك الغزو والعدوان جوراً عظيماً أثار السلطان قلاوون ، ولم يهدىء من ثورته اعتذار حكام عكا وتهدهم بمعاقبة المعتدين [2] ، ولا سيما عندما طالبهم بتسليم المذنبين ليقتص منهم فرفضوا ذلك بحجة ان العدوان قام به صليبيون أغراب خارجون عن سلطة حكومة عكا ولذلك فان هذه الحكومة غير مسؤولة عن اعمالهم [3]

الا ان الموت فاجأ السلطان قلاوون في ٦ ذي القعدة سنة ٦٨٩ هـ ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٢٩٠ ، وهو يستعد لمهاجمة عكا ، وخلفه ابنه الأشرف خليل ، فما كاد يقضي على المحاولات الداخلية لانتزاع الحكم منه ، حتى اتجه الى عكا لتنفيذ ما أعدّه أبوه ، بعد ان ارسل الى القوات الاسلامية في بلاد الشام لموافاته الى هناك .

وتجمعت القوات الاسلامية أمام عكا في ربيع سنة ٦٩٠ هـ ١٢٩١ م وفرضت الحصار عليها ، وأخذت تضرب أسوارها بالمجانيق الكبار . وتنادى الفرنجة في الشام الى تناسي خلافاتهم والدفاع عن ملاذهم الأخير ، وأقبل هنري الثاني من قبرص مع قليل من الفرسان والمشاة وكثير من المؤن والامدادات ، ولكن سرعان ما ادرك قادة المعركة انهم يخوضون معركة خاسرة ، فأرسلوا الى الأشرف خليل يسألونه عن شروطه لعقد الصلح ، فأجاب انه يطلب منهم الاستسلام دون قيد او شرط ، ويعدهم بتأمين خروجهم جميعاً مع أموالهم من عكا دون ان يتعرض لهم احد ، ولكنه

---

١ – السلوك ج ١ ص ٧٥٣ – ٧٥٤
٢ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٧٨
٣ – المرجع السابق ج ٢ ص ١١٧٩

يسحب هذا الوعد اذا أبوا الا متابعة القتال

وأبى المفاوضون تسليم المدينة ومغادرتها آمنين ، فعادوا الى متابعة القتال ، الا ان اليأس كان قد دبّ بين صفوفهم ، فأخذ الكثيرون منهم يفرون عن طريق البحر ، وكان هنري الثـاني أحد الفارين [٢] . وتعاظم الذعر حين اقتحم المسلمون المدينة في ١٧ جمادى الآخرة سنة ٦٩٠ هـ ١٨ ايار (مايو) ١٢٩١ م فهرع الناس نحو السفن القليلة الباقية هاربين ، وأسقط في أيدي من لم يستطيعوا النجاة منهم ، بينما كان الداوية والاسبتارية يقاتلون ببسالة عظيمة ، وقد استمر القتال داخل المدينة عشرة أيام .

وكانت عكا من احسن المدائن في العمارة والبناء الفاخر ، فلما فتحها الملك الأشرف خليل وهدم سورها وقلعتها ، هرب أهل المدينة منهـا وصارت خراباً [٣] .

ومن يوم ١٧ جمادى الآخرة سنة ٦٩٠ هـ ١٨ ايار (مايـو) سنة ١٢٩١ وهو اليوم الأخير من ملحمة عكا ، حتى ١٩ رمضان — ١٤ آب (اغسطس) ، وهـو اليوم الذي استسلم فيه حصن عتليت ، استولى المسلمون على صور دون أية مقاومـة ، ودخـلوا صيدا بعـد أن فر الفرنجة منها فدمروا قلعتها لئلا يحتلها الصليبيون من البحر مرة أخرى ،

---

١ — Grousset ; Hist. des Croisades, III. p. 755

٢ — المرجع السابق ج ٣ ص ٧٥٨

٣ — بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٣



بعض رجال المماليك في سلاحهم الكامل



تطور الاسلحة واردية القتال في القرن الثالث عشر لدى الصليبيين

كما احتلوا حيفا ودمروا حصونها ، ثم احتلوا طرطوس وعتليت وهما آخر معقلين من معاقل الفرنجة . وكان علم الدين الشجاعي قائد الجيش قد وجه الى فرسان الهيكل المسيطرين على مدينة طرطوس انذاراً بالتسليم حقناً للدماء ، وخيّرهم بين ان يحكّموا السلاح بينهم وبينه ، أو أن ينسحبوا من المدينة ، ويخلوا أسوارها وحصونها ، ويرحلوا بطريق البحر الى حيث يشاؤون ، حاملاً كل منهم معه سلاحه وماله الخاص ، وجاءه الرد على انذاره قبل نهاية الموعد المحدد قائلاً :

« ان جمعية فرسان الهيكل تقبل الشروط التي ذكرها القائد علم الدين لتسليم مدينة طرطوس » .

وفي الوقت الذي فتحت فيه أبواب الأسوار وبدأت قوات المحاصرين تجتازها وتنتشر في الحارات والازقة متجهة الى الابراج والقلعة ، كانت السفن الخفيفة والزوارق الواسعة ، تخرج من المرفأ ناشرة قلاعها ، أو مدفوعة بقوة المجاذيف ، تحمل اسر الفرسان ورجالها ووجهتها جزيرة ارواد [1] القريبة من الساحل ، وتسلم الجيش الفاتح الاسوار والابراج والقلعة ومحتوياتها جميعاً ، ولم يلجأ أحد من الجانبين الى استخدام السلاح [2] .

وقد انطوت بذلك الصفحة الأخيرة من ملحمة الحروب الصليبية في

---

١ – استعاد المسلمون جزيرة ارواد سنة ٧٠٣ هـ ١٣٠٣ م ، وبذلك سقط المعقل الأخير من معاقل الفرنجة في الشرق .

٢ – الجنة في ظلال السيوف ص ١٣٦

بلاد الشام ، لتبدأ صفحة أو صفحات من قصة الصراع بين الشرق والغرب ، ولكن بشكل آخر وفي ظروف أخرى ، واذا كان من المؤرخين من يعتبر الحروب التي نشبت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، بين البلاد الاسلامية واوربة ، استمراراً للحركة الصليبية او امتداداً لها ، فليس هنا على كل حال مجال الحديث عنها .

الفصل الحادي والثلاثون

العلاقات الانسانية في الحروب الصليبية

يقدر المؤرخون عدد ضحايا الحروب الصليبية من الفريقين ، خلال ذينك القرنين العاصفين ، بخمسة ملايين من الأنفس [1] . وهو رقم غاية في الضخامة بالنسبة لذلك الزمان ، ولا يعدل بحال من الأحوال النتائج التي أدت اليها تلك المغامرة المجنونة التي لا مبرر لها .

يقول ستفنسن : « لقد رأى القائمون بالحملات الصليبية ان هذه الحروب لم تسفر عن نتائج ذات بال للصليبيين مع ما أفاضوا عليها من موارد لا تحصى من المال والرجال طوال السنوات الكثيرة التي استغرقتها، وقد آثر الساسة العمليون أن يستخدموا الموارد القومية لبلادهم لتحقيق أغراض أخرى . وقد عاد كثير من الصليبيين من أرض فلسطين وقد تملكهم اليقين بأن الذين نشبت الحرب من أجلهم ، وهم لاتينيو الشام ، لا يستحقون هذه التضحيات . هذا الى ان الحجاج المسيحيين كان في

---

١ – خطط الشام ج ٢ ص ١٢٨

استطاعتهم زيارة القبر المقدس وبيت لحم والناصرة ، وأن يتنقلوا بين هذه الأماكن المقدسة في حرية تامة ، مع انها كانت في حماية المسلمين وتساءلوا هل أراد الله تعالى حقاً أن تكون فلسطين من أملاك المسيحيين ، وأن الله قد خصهم بها ؟ وقد صارت الإجابة عن هذا السؤال موضع شك وحيرة وزادت على مدى الأيام غموضاً واستغلاقاً [1] »

لقد أحس معظمهم ان ما فعلوه لم يأمر به السيد المسيح ، رسول الحب والسلم والتسامح ، وان نشر عقيدتهم يجب ان يعتمد الاقناع لا الاكراه ، وان يرتكز على الوسائل السلمية وليس على اهراق الدماء وغرس البغضاء . ويمكن القول مع الدكتور فيليب حتي : « ان الروح الصليبي جرى ، بهذا التأثير ، في مجرى جديد ، هو استخدام المرسلين بدلاً من الجنود [2] » .

الا ان اكثرية الصليبيين كانت قد تحررت بفعل التعايش مع المسلمين ، من التعصب والتطرف والاندفاع المحموم ، فظهر أمثال الشاعر ريتوف (١٢٤٥ - ١٢٨٥) الذي كان يقول ان من الحماقة ان يخاطر انسان في حرب تتسم بالطابع الديني خارج بلاده ، ما دام في وسعه ان يتصل بالله في وطنه ويعيش في نعمة وسلام .

ولا ريب في ان الكثيرين من المسيحيين والمسلمين ، قد شعروا بأن تلك الحروب لم تكن في حقيقتها الا حروباً سياسية واقتصادية ، ومعارك تذكي نارها المطامع والأهواء ، والمصالح الذاتية ، وعوامل التوسع والتسلط ،

---

١ - تاريخ العالم لهامرتن ج ٥ ص ١٨٥

٢ - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ٢٦٣

والدفاع عن الذات ، وقد وصفت بانها حروب دينية لاستغلال مـا في الدافع الديني من إثارة عاطفية وكسب تأييد جماهير الشعب . وقد رأينا ان بعض امراء المسلمين حـالفوا الصليبيين وقاتلوا الى جانبهم ، وان بعض امراء الصليبيين وفرسانهم قد حالفوا المسلمين وقاتلوا تحت راياتهم ، ونضيف هنا انه كان ثمة جنود مرتزقة من مسلمي الاتراك يخدمون في جيوش الصليبيين ، كما كان هناك مرتزقه من رماة الارمن يشتركون مع المسلمين في محاربة الصليبيين . وهكذا نرى ان المسلمين والمسيحيين ، لم ينظروا الى المعركة على انها حرب دينية لا يصح ان يخوضوا غمارها الا في صف معين وتحت راية معينة .

والغريب أن تنتهي الحروب الصليبية الى نقيض مـا قصدت اليه او ادعت انها تقصده ، فقد بدأت بدعوى مناصرة الدولة البيزنطية للوقوف في وجه لزحف الاسلامي ، واذا بالصليبيين يحتلون سنة ١٢٠٤ هذه الدولة التي كانت خط الدفـــاع الأول الذي يحمي اوربة من كل غزو آسيوي ، ولا يغادرونها سنة ١٢٦١ الا بعد أن تقطعت أوصالهـــا ، وتضعضعت قواها ، وتمزقت أجزاء متناثرة ، ولم تعد قادرة على الصمود في وجه الاتراك العثمانيـــين عندما ظهروا على مسرح الشرق الأوسط ليلعبوا دورهم في التاريخ .

ولم تدرك الفرنجـــة الا بعد فوات الأوان ، ان اية دولة استعمارية يقيمها السيف على أرض ليست ارضها وفي وطن ليس وطنهـا وبـــين شعب غريب عنها ، لا بد ان تتداعى وتنهار ، مهما امتدّ بها الزمان ، وخيل اليها انها امتلكت اسباب البقاء والاستمرار . فقد قامت الامارات اللاتينية في المشرق لانقسام اهله بعضهم على بعض ، ولكنها كانت دولاً ينقصها التماسك والانسجام ووحدة الجنس واللغـة ، وتفتقر الى الجذور التاريخية والقومية ، وظلت في حاجة دائمة الى التماس المدد المتواصـــل

والعون المتجدد من اوربة كي تستطيع الثبات والبقاء . وعلى الرغم من تمزق بلاد المشرق فانها لم تستطع فتحها فتحاً كاملاً ، وظلت المدن الكبيرة مثل دمشق وحمص وحماة وحلب محتفظة باستقلالها ، رغم غزوات الفرنجة وهجماتهم المتكررة ، وما كادت هذه المدن تستعيد وحدتها السياسية حتى بدأت تلك الدويلات المصطنعة تسير في طريق الزوال .

وهكذا ساد السلام على الشاطىء الوادع الجميل الذي شهد أروع الحروب ، وتنازعت على رماله عشرات الشعوب ، لتتحقق ولو لفترة من من الزمن ، رسالة السيد المسيح الذي لم يأت ليشهر سيفاً بل ليزرع حباً وسلاماً .

ولكن من الخطأ الاعتقاد بأن حالة الحرب هي التي كانت سائدة بين الفريقين ، خلال ذينك القرنين الطويلين ، فان المشاعر الانسانية والصلات الاجتماعية والعلاقات التجارية كانت تفرض ذاتها ليس في فترات السلم وحدها بل في عهود الحرب ايضاً .

وقد حاولنا في هذا الكتاب ألا نغفل ذلك الوجه الآخر من وجوه الحروب الصليبية [١] ، فرأينا – كما يقول ستيفنسن – كيف ان الصلات الودية والعلاقات التجارية التي كانت قائمة بين كل من المسلمين والمسيحيين قبل استيطان اللاتين لشقة الشام الساحلية ، لم يكن يستطاع قطعها ، ولم تنقطع كلية بعد ان فتح الصليبيون جانباً من هذه البلاد [٢] . وقد تسامحت الحكومات اللاتينية مع المسلمين المقيمين في الاراضي التي تحكمها ،

---

١ – انظر الفصول الاول والرابع والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر والحادي والعشرين والثاني والعشرين من هذا الكتاب

٢ – تاريخ العالم لجون هامرتن ج ٥ ص ١٨٦

كما تسامحت الحكومات الاسلامية مع المسيحيين ، فكانوا يؤلفون حلقات اتصال وتواد وتعاطف بين الفريقين .

وكان الفريقان يضمان العلاقات التجارية والاقتصادية فوق كل اعتبار. يقول الدكتور حسن حبشي : « وكان يصرّح للتجـار باقامة الخانات في غير بلادهم ، لتنزل فيها قوافلهم . وينقسم الخان في العادة الى قسمين ، الطابق الاسفل وينزلون به رحالهم ، أمـــا الطابق العلوي فانه لاقامة التجار ذاتهم . ويحسن ارباب البلد معاملة التجار . ولم يكن للدين دخل في هذه المعاملة ، رغم ما قد يكون بين البلدين من الحرب ، الا ان ذلك لا يقف حائلا دون استمرار الحركة التجارية والتبـادل التجاري بينهما . وكان المألوف في هذا العصر أن يطلب التجار المسلمون حماية جماعة معينة في البلاد التي يدخلونها وتكون في حوزة الصليبيين فلا يمسهم أحد بسوء ، وهذا هو الشأن مع التجار المسلمين من أهل الموصل الذين كانوا يذهبون الى عكا فيطلبون ان يكونوا تحت حماية فرسان الداوية ، كما أن التجارة قللت من الحدة الدينية التي قد تكون بين الجماعتين ، إذ اعتاد القوم من صليبيين ومسلمين أن يعقدوا أسواقاً تجارية سنوية يفد اليها التجار دون نظر للفارق الجنسي [١] »

وسرعان ما التزم الجانبان بصورة ضمنية قيوداً تمنع اتلاف اشجار الفواكه وابادة المحصولات الزراعية ، وتقيدوا بها في اغلب الحالات بأمانة واخلاص، « ولم يلبث الصليبيون أن تعلموا مراعاة التقاليد القديمة التي تتحكم في نظم القتال في الشام بين الدويلات المختلفة ، والتقيد بها ، وهذه القيود

---

١ – نور الدين والصليبيون ص ١٥٠ نقلا عن G, T. p. 718

هي شبه ما تكون بقواعد القانون الدولي [1] ،

وقد تركز النشاط التجاري خـــلال القرن الثاني عشر في موانىء الشام ، وأسس التجار الاوربيون القادمون من ايطالية ومرسيليه واسبانية مراكز واحياء ثابتة في انطاكية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا أما في القرن الثالث عشر فقد أدى الغزو المغولي واغلاق الطريق التجارية المؤدية من الخليج العربي الى بغداد فدمشق [2] ، الى انتقال النشاط التجاري الى مصر ، وقد رحب سلاطين المماليك في مصر باولئك التجار الأجانب نظراً لما كانت تعود به تجارة الشرق عليهم من ارباح وافرة ، وكان أن عاش التجار الاوربيون في الاسكندرية ودمياط على هيئة جاليــات لكل جالية قنصل يشرف على شؤون افراد الجالية ومصالحهم الاقتصادية [1] ، وقد سمح للبنادقة فيما بعد بتأسيس سوق تجــارية في الاسكندرية كانت تسمى سوق الأيلك [3] . وفي سنة ١١٨٧ كانت توجد ثمان وثلاثون سفينة ايطالية تجارية راسية في ثغر الاسكندرية ، وفي سنة ١٢١٦ بلغ عدد الاوربيين المقيمين في هذا الثغر نفسه واغلبهم من الايطاليين ثلاثة الاف نسمة [4] .

ومن الحقائق البالغة الاهمية ان مدن الشام الساحلية التي يسيطر عليها الفرنجة ، ظلت تتخذ موانىء للمدن الداخليــة الاسلامية ، ويمكن ان نقدر مدى التجارة بين هذه المدن والموانىء الخاضعة للاحتلال الصليبي ، من رواية ابن جبير عن اثنين من تجار دمشق كانت لهما تجــارة ونفوذ

---

١ – تاريخ العالم لهامرتن ج ٥ ص ١٨٦
٢ – الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٦٣
٣ – صلاح الدين الايوبي للرمادي ص ٧٤
٤ – تاريخ العالم لهامرتن ج ٥ ص ١٧٩

في بلاد الافرنج ، فقد قـال : «وقيّض الله لهم (اسرى المغاربة) بدمشق رجلين من مياسر التجار وكبرائهم واغنيائهم المنغمسين في الثراء ، احدهما يعرف بنصر بن قوام ، والثاني بابي الدر ياقوت مولى العطّافي ، وتجارتهما كلها بهـذا الساحل الافرنجي ، ولا ذكر فيه لسواهما ، ولهما الأمناء من المقارصين ، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما ، وشأنهما في الغنى كبـير ، وقدرهما عند امراء المسلمين والافرنجيين خطير ، وقـد نصبهما الله عز وجل لافتكاك الاسرى المغربيين بأموالهما وأموال ذوي الوصايا ، لأنهما المقصودان بها لما قد اشتهر من امانتهما وثقتهما وبذلهما اموالهما في هذا السبيل [1] »

وتتردد القوافل التجارية بين البلدين ، فـلا يتعرض لهـا أحد من الفريقين الا في حالات استثنائية يستنكرها الجميع . يقول ابن جبير ، « ومن أعجب ما يُحدّث به في الدنيا ، أن قوافـل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج وسبيهم يدخـل الى بلاد المسلمين ، شاهدنا من ذلك عند خروجنا أمراً عجيباً [2] »

والعملة الذهبية التي سكتها الامـارات اللاتينية في الشام ، تدل دلالة واضحة على اتساع المعاملات المالية بين المسلمين والصليبيين ، وعلى ان هذه المعاملات قـد فرضت نفسها على الاعتبارات الأخرى . وكانت هذه العملة تسمى باليونانية واللاتينية بيزنتـا وبالعربية ديناراً . وكانت تنقش عليها كلمات عربية مشفوعة بالتـاريخ الهجري وفوقها اسم حاكم البلاد الاسلامية ، ومما هو أعجب من هذا وذاك انه نقشت عليها آيات

---

١ - رحلة ابن جبير ص ٢٨١
٢ - المرجع السابق ص ٢٧١

اسلامية ، واحياناً كان ينقش عليها رسم صليب صغير الحجم ، أو الحروف الأولى من اسم الامير اللاتيني ، للدلالة على صفتها الحقيقية ، ويكتفى في مسكوكات اخرى بذكر مكان صناعتها أو اسم دار الضرب التي سكتها للتدليل على مصدرها . وكان يُقصد بذلك ان يُقبل المسلمون من الامراء والتجار على تداولها ، مثلما كان الصليبيون يقبلون على تداول نظائرها من العملات الاسلامية [1] .

وكان الصليبيون يحسنون معاملة من عندهم من الموظفين المسلمين [2] . وقد سمحوا بقدر كبير من الحكم الذاتي المحلي للمقاطعات الريفية ، فشيخ القرية الاسلامية ظل مسلماً . وكان المسلمون الخاضعون لحكم الامارات اللاتينية في زمن صلاح الدين ينعمون برفق في المعاملة يضاهي ما يحظى به المسيحيون من حكام المسلمين . وكانوا يدفعون لحكام اللاتين ضريبة « الفرضة » ونصف ما تنتجه أرضهم من المحصول ، وضريبة اخرى على اشجار الفاكهة ، بينما كان المسيحيون معفيين من ضريبة الفرضة ولكن كان عليهم ان يدفعوا لرجال الدين ضريبة العشور [3] .

وواضح مما تقدم ان المسلمين كانوا يتمتعون في الامارات اللاتينية بحق تملك الأراضي ، في حين حرم ذلك على اليهود ، وفي ذلك يقول ستفنسن : « وكان في بعض المدن جاليات يهودية وفدت على الأخص من جنوبي فرنسة ، ففي النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي كان في بلدة صور ما لا يقل عن مائة اسرة يهودية تشتغل غالبيتها في

---

١ – تاريخ العالم لهامرتن ج ٥ ص ١٩١ ، صلاح الدين الايوبي للرمادي ص ١٧١
٢ – نور الدين والصليبيون ص ١٥٧
٣ – تاريخ العالم لهامرتن ج ٥ ص ١٨٦ – ١٨٧



عودة المحارب الصليبي
تمثال في كنيسة دير
الكرادلة بنانسي .

التجارة وفي صناعة الزجاج ، والراجح انه لم يكن في بيت المقدس في نفس هذه الفترة ، من امثال هذه الأسر ، ما يزيد على اربع ، لأن الجالية اليهودية في هذه المدينة كانت قد طردت منها في سنة ١٠٩٩ – أي بعد الاحتلال الصليبي – ولم يكن ليسمح لليهود في فلسطين بامتلاك الأرض ، في حين ابيح ذلك للمسلمين [١] .

وكان المواطنون المسلمون في الامارات اللاتينية يتمتعون بحريتهم في ممارسة شعائرهم الدينية ، ويطمئنون الى اموالهم وأرواحهم ، اذا هم اخلدوا الى السكينة وانصرفوا الى أعمالهم الزراعية والصناعية والتجارية [٢] وقد كان ذلك أحد العوامل التي ساعدت على تقريب الشقة بين الشعبين ، والعمل على زيادة أسباب التفاهم ، والاختلاط بل والامتزاج أيضاً ، وان موقف بعض رجال الدين الافرنج كغليوم اسقف صور ، ليدل على هذا التبدل الجميل [٣]

وقد بلغ من اطمئنان المواطنين المسلمين في الامارات الصليبية ، ما جعل ابن جبير يقول ان اولئك المواطنين قد أشربت الفتنة قلوبهم لأن حالهم كانت تفضل حال اخوانهم في بلاد المسلمين ، واليك ما قاله بنصه : « ورحلنا من تبنين . وطريقنا كله ضياع متصلة وعمائر منتظمة ، سكانها كلها مسلمون ، وهم مع الافرنج على حالة ترفيه ، نعوذ بالله من الفتنة ، وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ، ولا يعترضونهم في

---

١ – المرجع السابق ج ٥ ص ١٨٨

٢ – Rey ; Colonies Franques en Syrie, P. 106 107

٣ – تراث العرب ص ١٠٧

غير ذلك ، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً. ومساكنهم بأيديهم وجميع احوالهم متروكة لهم . وكل ما بأيدي الافرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل ، رساتيقهم كلها للمسلمين ، وهي القرى والضياع ، وقد أشربت الفتنة قلوبُ أكثرهم لما يبصرون عليه حال اخوانهم من اهل رساتيق المسلمين وعمالهم ، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين : أن يشتكي الصنف الاسلامي جور صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الافرنج ، ويأنس بعدله [١] »

لقد كان المسلمون والافرنج يختلطون بلا حرج ، ويتعاملون على أوسع نطاق . ولم يكن ذلك مقتصراً على المدنيين وحدهم ، فان المقاتلين منهم سرعان ما كانوا ينسون احقاد الحرب ، في فترات السلم ، او الهدنة ، ويختلط العسكران ، واذا بمن كانوا بالأمس أعداء يتراشقون بالنبال ويتطاعنون بالرماح والسيوف ، قد غدوا بين ليلة وصباح أصدقاء وأحباء تسود حياتهم المودة والتفاهم [٢] . وهل أروع من تلك الصورة التي رأيناها عند أسوار عكا ، صورة الجيشين وقد ترك افرادهما القتال ، واخذوا يتجاذبون الأحاديث ، ويتبادلون الطرائف والنوادر ، وربما غنى فريق ورقص فريق [٣] !

وقد تداخلت الحياة الاجتماعية الشرقية والغربية في بلاد الشام ، وأثرت

---

١ — رحلة ابن جبير ص ٢٧٤ - ٢٧٥

٢ — Grousset : Hist. des Croisades. III. p. 209 . 221

٣ — كتـاب الروضتين ج ٢ ص ١٠٣ ، مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٩٤ ، النوادر السلطانية ص ٩٢ ، Michaud, .II. p, 125

كل منهما في الأخرى وتأثرت بهـا [١] . يقول ابن جبير في وصف زيارته لمدينة بانياس وكانت قـد احتلها الافرنج ثم استعادها المسلمون وظـل الافرنج المدنيون يعملون فيها جنباً الى جنب مع السكان المسلمين : « ولها محرث واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للافرنج يسمى هونين، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ ، وعمالة تلك البطحاء بين الافرنج والمسلمين ، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة ، فهم يتشاطرون الغلة على استواء ، ومواشيهم مختلطة ، ولا حيف يجري بينهما فيها [٢] »

وكان المسلمون يشاركون في حفلات الافرنج ، وقد وصف ابن جبير حفلة عرس اقيمت في صور واستغرب مشاركة المسلمين فيها وعدم استنكارهم ما تجلى فيها من مظاهر الترف واللهو ، ولعل من المفيد اثبـات هذه الصورة المتعة هنا نظراً لأهميتها في اعطاء فكرة واضحة عن لون من الوان الحياة الاجتماعية السائدة يومذاك ، قال : « ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها ، زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها ، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساء ، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية، حتى خرجت تتهـادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال ، كأنهما من ذوي أرحامها ، وهي في أبهى زيّ ، وأفخر لبـاس ، تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفّت بشبكة ذهب منسوجة ، وعلى لبّتها مثل ذلك منتظم ، وهي رافلة في حليها وحللهـا ، تمشي فتراً في فتر مشي الحمامة أو سير الغمامة ، نعوذ بالله من فتنة المناظر ، وأمامها جلة رجالها من النصارى

---

١ – نور الدين والصليبيون ص ١٤٥

٢ – رحلة ابن جبير ص ٢٧٣

في أفخر ملابسهم البهية ، تسحب أذيالها خلفهم ، ووراءها اكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين في أنفس الملابس ويرفلن في أرفل الحلى ، والآلات اللهوية قد تقدمتهم ، والمسلمون وسائر النصارى من النظائر ، قد عادوا في طريقهم سماطين ، يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك[1] . »

وما استغربه ابن جبير من روح المودة والتسامح السائدة بين المسلمين والمسيحيين ، قد استغربه ايضاً الفرنجة الذين كانوا يصلون حديثاً الى سواحل الشام فيرون ان الفرنجة المقيمين هناك قد نبذوا التعصب وأخذوا يعاملون المسلمين بمودة وأخوة[2] .

★

لقد اعتاد المؤرخون أن يتحدثوا عن اثر الحروب الصليبية في النهضة الاوربية ، وهم يغالون في ذلك جاعلين من هذه الحروب مدرسة كان الشرق فيها هو المعلم والغرب هو التلميذ ، فقد جاء الغرب في رأيهم الى الشرق يعبّ من مناهله العذبة حتى ارتوى ، فعاد وقد تبدل جهلاً بعلم ، وتأخراً بتقدم ، وحياة قلقة بأخرى مشرقة ، فكانت تلك النهضة الاوربية الجبارة في مطلع القرون الحديثة . وقد ساعد على تكوين هذا الرأي ، ان ما ابدعته حركة النهضة الايطالية التي كانت طليعة النهضة للاوربية الحديثة ، انما ظهر مباشرة في أعقاب العصر الصليبي .

---

١ – المرجع السابق ص ٢٧٨

٢ – نور الدين والصليبيون ص ١٠٥–١٠٦ نقلاً عن Lamb : The Crusades, p. 262 ،
انظر ايضاً كتاب الاعتبار ص ١٣٤–١٣٥

والواقع ان تلك النهضة كانت ترتكز على دعائم من الرخاء المادي الذي ساد المدن الايطالية نتيجة لسيطرتها على التجارة بمنتجات فارس والهند والصين ، تارة عن طريق السواحل السورية وتارة عن طريق السواحل المصرية ، وهو رخاء باذخ ازدهر في ظله الانتاج الفني والانتاج العقلي .

ولا ريب في أن الحروب الصليبية ، والهجرات الجماعية التي رافقتها، واحتكاك القارتين وشعوبها المختلفة طوال قرنين كاملين ، قد أحدثت في الغرب هزة عنيفة حركت الاوساط الجامدة ، وايقظت الطبقات الغافلة، وأطلقت الافكار من قيودها المتوارثة ، وأعطت الانسان الغربي نظرة الى الكون والحياة اكثر تحرراً وتسامحاً وأقرب الى الروح العملية والنزعة التجريبية والبحث العلمي التي كانت جميعاً من أسس النهضة ومن عوامل ازدهارها .

وقد كان المشرق حرياً بأن تؤثر فيه تلك الحروب تأثيرها في الغرب، فتوقظه من سباته وتنطلق به في مجالات فكرية أرحب افقاً واغنى تجربة واكثر واقعية ، ولكن هذه الحروب فاجأته وهو يسير في طريق الانحلال ، وقد اوشكت الخلافتان العباسية والفاطمية على الانهيار ، وبدأ يدخل عصور الظلام من سيرته المشرقة وتاريخه العريق ، نتيجة لتمزيق شعوبه ، وتفتت قواه ، والصراع العنيف بين كل قبيلة وكل مدينة وكل أسرة حاكمة فيه ، وما عاناه من غارات السلاجقة والقرامطة والخوارزمية والمغول . وكان الأيوبيون قد خربوا بعض مدنه وحصونه ، فعمد المماليك الى تخريب المرافىء الباقية خشية عودة الافرنج ، فتعطلت الحياة التجارية فيه ، وفرضت عليه العزلة والانكماش . ثم جاء الاحتلال العثماني فقضى على البقية الباقية من روح التوثب والتفتح والابداع .

والذي نعتقده ان ما جرى من تبادل ثقافي بين الافرنج وبلاد الشام ، كان محدود المدى ، لأن الافرنج لم يختلطوا في الغالب الا بالفلاحين وعامة الناس ، ولأن الحركة العلمية في البلاد العربية كانت آخذة بالجمود ، كما ان النزاع المستمر قد حال دون التفاعل الحضاري الطليق . ولم تكن سورية في الواقع الجسر الوحيد بين الشرق والغرب، بل كان هناك جسران آخران هما صقلية واسبانية اللتان نعتقد بانهما كانتا ، باستقرارهما وازدهارهما واستتباب السلام فيهما ، اكثر فعالية وجدوى في اعطاء الغرب صورة اوضح عن الحضارة العربية السائدة يومذاك .

أما ما أخذه الصليبيون في بلاد الشام من المنتوجات الزراعية والصناعية ، والفنون الهندسية والحربية ، والوان الحياة الاجتماعية ، فقد أعطوا ولا ريب مثيلاً له في تلك الميادين نفسها أو في ميادين أخرى [1] .

ولكن الذي يستوقفنا اكثر من هذا كله ، ان الفرنجة الذين كانت تطول اقامتهم في بلاد الشام ، كانت مشاعرهم نحو المواطنين المسلمين تتطور مع الايام ، ثم ما يلبثون حتى يرتبطوا معهم بروابط المودة والأخوة والتسامح ويقيموا معهم أوثق الصلات وأمتن العلاقات [2] .

ان الذي يستوقفنا اكثر من هذا كله ، ذلك التعايش السلمي بين

---

١ – انظر : تراث الاسلام ص ٢١٧ ، ٢٣٠ ، العلاقات بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية ١٣١ – ٢١٧ ،
Rey ; Colonies Franques en Syrie, p. 189 250 , Heyd; Hist du commerce. P, 130 202

٢ – انظر : العلاقات بين العرب والافرنج ص ١٣٩ ، كتاب الاعتبار ص ١٣٤ ، نور الدين والصليبيون ص ١٥٦

المواطنين في دول متحاربة ، الذي كان يحمل فرسان الفرنجة وفرسان المسلمين يشعرون بأنهم أكثر نبلاً ومروءة عندما يلتقون في أيام السلم ليتسابقوا على ظهور الخيل ويتباروا في العاب الفروسية [1].

والتسامح الديني الذي شق طريقه وفرض نفسه في غمرة حروب وصفت بانها دينية ، بحيث نرى في كل مدينة اسلامية كنيسة يتعبد فيها المسيحون ، وفي كل مدينة مسيحية جامعاً يتعبد فيه المسلمون ، بل نرى في ضواحي عكا مسجداً بقي محرابه على حاله ووضع الافرنج في شرقيه محراباً لهم ، فالمسلم والمسيحي يجتمعان فيه ، يستقبل هذا مصلاّه وهذا مصلاّه [2]

والشعور الانساني الذي كان يدفع بصلاح الدين الأيوبي لأن يطلب من فرسان الاسبتارية الذين شهروا السيف في وجهه وقاتلوه بضراوة ، البقاء في بيت المقدس للعناية بالمرضى من الصليبيين [3] ، ويحمل فرسان الفرنجة على الوقوف باحترام أمام منزل الشيخ أبي الحسن بن قفل بدمياط حين علموا انه من مشايخ المسلمين وان الفقراء يلوذون به ، ثم يأمرون بعدم التعرض له [4] .

والصداقة التي نشأت بين المسلمين والفرنجة ، ابتداء من صداقة اسامة ابن منقذ وفرسان الداوية الذين كانوا يُخلون له مكاناً في معبدهم ليصلي فيه ، الى صداقة الملك العادل وريشارد قلب الأسد الذي حاول أن

---

١ – انظر تحفة الشرق والغرب لحتي في الكتاب الذهبي ص ١٤٤

٢ – رحلة ابن جبير ص ٢٧٦ ، تاريخ العالم لهامرتن ج ٥ ص ١٨٧

٣ – انظر ص ٣٤٢ من هذا الكتاب .

٤ – ذيل الروضتين ص ١١٧

يزف اليه أخته الأميرة جوانا ليكون زواجها جسراً يصل بين الشرق والغرب ، الى صداقة الملك الكامل وفردريك الثاني اللذين حوّلا الحرب الدامية الى مفاوضة سلمية ؛ وانتهاءً بصداقة الوف المواطنين المسلمين والافرنج الذين نجهل اسماءهم والذين لا نشك في انهم قد شعروا بعد ان تعارفوا وتآلفوا ، بأن البشر اخوة ايا كان وطنهم أو لونهم او مذهبهم .

ان الذي يستوقفنا أكثر من أي شيء آخر في تلك القرون الوسطى ، التي كانت تحكمها أعراف وأمزجة خاصة مغرقة في الرجعية والظلمة ، تلك العاطفة الكريمة الصافية التي كانت تدفع بعض المسلمين والفرنجة الى أن ينادي احدهم الآخر : « يا أخي [3] » ، وتجعل أميراً صليبياً يقول : « ان القتال بين المسلمين والافرنج انتحار أخوي [4] »

أجل ، أن الذي يهمنا اكثر من اي شيء آخر ، ولا سيا في تلك العصور المتعصبة المتخلفة ، هذه الاخوة الرائعة التي نشأت ، برغم الصراع العنيف والقتال الدامي ، بين المجتمع الاسلامي والمجتمع الصليبي !

مصادر الكتاب

١ – مصادر ومراجع عربية

ابن الأثير	الكامل في التاريخ
	أتابكة الموصل (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية)
أحمد البيلي (الدكتور)	حياة صلاح الدين الأيوبي
اسامة بن منقذ	كتاب الاعتبار
أسد رستم ، الدكتور)	الروم وصلاتهم بالعرب
ابن اياس	بدائع الزهور في وقائع الدهور
الجبرتي	المختار من تاريخ الجبرتي
ابن جبير	رحلة ابن جبير
جرجي زيدان	صلاح الدين ومكائد الحشاشين
	شجرة الدر
جمال الدين حماد	معارك الاسلام الكبرى
جمال الدين الرمادي (الدكتور)	صلاح الدين الأيوبي

جمال الدين الشيال (الدكتور)	مصر والشام بين دولتين
ابن الجوزي	مرآة الزمان (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية)
جوزيف سمعان	الفروسية العربية
جوزيف نسيم يوسف	هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل
الحافظ شمس الدين	دول الاسلام
حبيب جاماتي	الناصر صلاح الدين
	غبار المعارك
	الجنة في ظلال السيوف
حسن ابراهيم حسن (الدكتور)	تاريخ الدولة الفاطمية
	الفاطميون في مصر
حسن الباشا	الألقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق والآثار
حسن حبشي (الدكتور)	الحرب الصليبية الاولى
	نور الدين والصليبيون
	الشرق العربي بين شقي الرحى
حسين مؤنس (الدكتور)	صور من البطولة
ابن خلدون	العبر وديوان المبتدأ والخبر
ابن خلكان	وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان
خليل هنداوي	دمعة صلاح الدين
الذهبي	تاريخ الاسلام
رشيد الدين الهمذاني	جامع التواريخ
زكي النقاش (الدكتور)	العلاقات بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية

سعيد عاشور (الدكتور)	الحركة الصليبية
	الظاهر بيبرس
سلامة موسى	مقالات ممنوعة
أبو شامة	كتاب الروضتين في أخبار الدولتين
ابن شداد	النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (وفي ذيله منتخبات من كتاب التاريخ لتاج الدين شاهنشاه بن ايوب)
عارف تامر	سنان وصلاح الدين
	على أبواب آلموت
عبد العزيز سيد الأهل	أيام صلاح الدين
عبد المتعال الصعيدي	القضايا الكبرى في الاسلام
عبد المنعم ماجد (الدكتور)	الناصر صلاح الدين الايوبي
	نظم الفاطميين ورسومهم في مصر
	تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى
عبد اللطيف حمزه	صلاح الدين بطل حطين
	أدب الحروب الصليبية
عبد الله عنان	مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام
	تراجم إسلامية شرقية وأندلسية
ابن العبري	تاريخ مختصر الدول
عثمان الكعاك	الحضارة العربية في حوض البحر الابيض المتوسط
ابن العديم	منتخبات من تاريخ حلب (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية)
علي أحمد باكثير	سيرة شجاع
	وآ إسلاماه
علي الطنطاوي	قصص من التاريخ

العماد الاصفهاني	الفتح القسي في الفتح القدسي
ابن العماد الحنبلي	شذرات الذهب في أخبار من ذهب
أبو الفتوح التوانسي	من أبطالنا الذين صنعوا التاريخ
أبو الفدا	المختصر في تاريخ البشر
فيليب حتي وجرجي وجبور (الدكاترة	تاريخ العرب
فؤاد عبد المعطي الصياد	المغول في التاريخ
القلقشندي	صبح الاعشى في صناعة الانشا
ابن القلانسي	ذيل تاريخ دمشق
كامل حسين	الطائفة الاسماعيلية
أبو المحاسن	النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
محمد جمال الدين سرور (الدكتور)	الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره
محمد حسين	اسامة بن منقذ
أبو محمد الحسن النوبختي	فرق الشيعة
محمد رجب البيومي	مع الابطال
محمد سعيد العريان	شجرة الدر
محمد سعيد العريان والدكتور الشيال	قصة الكفاح بين العرب والاستعمار
محمد سيد كيلاني	الحروب الصليبية وأثرها في الادب العربي في مصر والشام
محمد عبد الغني حسن	صراع العرب خلال العصور
محمد فريد أبو حديد	صلاح الدين الايوبي البطل الذي انتصر على الغرب
	أمتنا العربية
محمد كرد علي	خطط الشام
محمد مصطفى هدارة (الدكتور)	المنصورة
محمد منير العصرة	لؤلؤة المنصورة

مخائيل عواد	المآصر في بلاد الروم والاسلام
مصطفى غالب	أعلام الاسماعيلية
مصطفى الوكيل (الدكتور)	صلاح الدين
مظفر سلطان	العماد الاصفهاني
المقريزي	السلوك لمعرفة دول الملوك
	المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
ابن ميسر	تاريخ مصر
ميشال لباد	تاريخ قلعة مصياف
	الاسماعيليون والدعوة بمصياف
نجيب الكيلاني	اليوم الموعود
نظير سعداوي (الدكتور)	التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الايوبي
	المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الايوبي
نقولا زيادة (الدكتور)	لمحات من تاريخ العرب
النويري	نهاية الارب في فنون الادب
ابن واصل	مفرج الكروب في أخبار بني أيوب
ياقوت	معجم الادباء
	معجم البلدان
يوسف الدبس (المطران)	تاريخ سورية

٢ - مراجع اجنبية مترجمة الى اللغة العربية

آمير علي (سيد)	مختصر تاريخ العرب ، ترجمة عفيف بعلبكي
باركر (ارنست)	الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني
بروكلمان (كارل)	تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة فارس وبعلبكي
بطرس غالي (واصف)	تقاليد الفروسية عند العرب ، ترجمة توما ونجار
بينز (نورمان)	الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة مؤنس وزايد
جب (هاملتون)	دراسات في حضارة الاسلام ، ترجمة الدكاترة عباس ونجم وزايد
جرونيباوم (جوستاف)	حضارة الاسلام ، ترجمة جاويد وعبادي
حتي (فيليب)	تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة الدكتور كمال يازجي
ديفيز (ادوين)	فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ،ترجمة زكي شنودة
رينتز ، جورج وزملاؤه	دراسات إسلامية ، ترجمة الدكتور انيس فريحة وزملاؤه
عطية (ادوار)	العرب ، ترجمة بقلي ونجا
غروسه (رينه)	رصيد التاريخ ، ترجمة خليل الباشا
كيرك (جورج)	موجز تاريخ لشرق الاوسط ،ترجمة عمر الاسكندري
لوبون (جوستاف)	حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر

مونروند (مكسيموس) تاريخ الحروب المقدسة في المشرق ، ترجمة البطريرك [illegible]يموس مظلوم

مير (فيليب فان نس) التاريخ ال[illegible]

هامرتن (جون) وزملاؤه تاريخ العالم ، ترجمة طائفة من الكتاب

الهمذاني (رشيد الدين) تاريخ المغول ، ترجمة نشأت والصياد

لاندو (روم) الاسلام والعرب ، ترجمة منير بعلبكي

٣ — مراجع أجنبية

Alphandery, P.	La Chrétienté et l'Idée de Croisade.
Brehier, L.	Vie et Mort de Byzance.
Brehier, L.	L'Eglise et l'Orient au moyen âge, Les Croisades.
Chalandon, F.	Hist. de la première Croisade.
Champdor, A.	Saladin, Le plus pur Héros de l'Islam.
Delarc	Les Normands en Italie.
D'Ohsson	Hist. des Mongols.
Encyclopédie de l'Islam.	
Grousset, R.	Hist. des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalème.

Guillard, M. S.	Grand Maitre des Assassins au temps de Saladin.
eyd, G.	Hist. du Commerce du Levaut au moyen âge.
Iorga, N.	Breve Hist. des Croisades et de leurs Fondation en Terre Sainte
Joinville, J.	Hist. de Saint Louis.
Lammens, H.	La Syrie, précis historique.
Lavisse, E.	Hist. de France.
Lavisse et Rambaud	Hist. General.
Marin	Hist. de Saladin.
Matthieu d'Edesse	Chronique; Continué par Gre-goire le Prêtre.
Michaud, J. F.	Hist. des Croisades.
Michei Le Syrien	Chronique Syriaque.
Paris, G.	La Légende de Saladin (Jour-nal des Savants, mai 1893)
Reçueil des Historiens	des Croisades, Publié par l'Accdémie des Inscriptions et Belles Lettres: — Documents Arméniens — Historiens Grecs — Historiens Occidentaux — Historiens Orientaux
Rey, E.	Les Colonies Françaises de Syrie au XII et XIII siècle.
Rey, E.	Hist. des Princes d'Antioches

Ribard , A .	La prodigieuse Histoire de l' Humanité .
Rousset , P .	Les origines et les caractêres de la premiere Croisade .
Schlumberger , G .	Renaud de Chatillon , Prince d'Antioche, Seigneur de la terre d'outre- Jourdanie .
Vasiliev , A .	Hist . de l'Empire Byzantin .

فهرس الاعلام

[استثنينا من هذا الفهرس الأعلام التاليـــة لورودها في كثير من الصفحات : القدس ، دمشق ، حلب ، عكا ، الصليبيون ، المسلمون ، الافرنج ، الاسبتارية (فرسان المستشفى) ، الداوية (فرسان الهيكل) ، صلاح الدين الايوبي ، نور الدين محمود .]

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(لا)

(ي)

الفهرس

الجزء الأول
قبل صلاح الدين

صفحة

الجزء الثاني

عهد صلاح الدين

صفحة

الجزء الثالث

خلفاء صلاح الدين

مؤلفات قدري قلعجي

سعد زغلول : رائد الكفاح الوطني في الشرق العربي ـ منشورات دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة .

ابرهيم لنكولن : محرر العبيد وموحد الولايات المتحدة الاميركية ـ دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة .

مدحت باشا : ابو الدستور العثماني ـ دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة .

روبسبيير : بطل الثورة الفرنسية ، دار العلم للملايين الطبعة الثالثة .

جمال الدين الافغاني : حكيم الشرق ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة .

شوبان : سيد الوطنية والحرية ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة .

صلاح الدين الايوبي : قصة الصراع بين الشرق والغرب في القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد ـ دار الكاتب العربي ، الطبعة الرابعة .

كرومويل : بطل الثورة الانكليزية ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة .

ابو ذر الغفاري : اول ثائر في الاسلام ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة

ديموستين : بطل اثينا ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة .

محمد عبده : بطل الثورة الفكرية في الاسلام ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة .

غاندي : ابو الهند ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة .

سون يات سن : بطل الثورة الصينية ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة

السابقون : دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة .

الحضارة العربية : دار الفجر الجديد ، القاهرة .

حرب الشعوب : منشورات مجلة الطريق .

الحياة القومية : منشورات مجلة الطريق .

اقوى من الموت : عن ايليا اهرنبورغ ، منشورات مجلة الطريق .

اساطير الامم : دار المكشوف .

في قصور الملوك : دار المكشوف .

الناس والآخرون : دار المكشوف .

مغامرات كازانوفا : دار المكشوف .

اعتراف الاجراس : دار النشر العربية .

الف ليلة وليلة : (مجلدان) ، دار النشر العربية .

قلوب معذبة : سلسلة اقرا ، دار المعارف ، **القاهرة** .

عبد الرحمن الكواكبي : المكتب التجاري

لومومبا : دار الكاتب العربي ودار العلم للملايين .

لينين : دار الكاتب العربي .

اكتشاف جزيرة العرب : عن جاكلين بيرين ، دار الكاتب العربي ، الطبعة الثانية .

اضواء على تاريخ الكويت : دار الكاتب العربي .

الكويت في موكب الحضارة : دار الكاتب العربي .

الخليج العربي : دار الكاتب العربي . الطبعة الثانية

وثائق النكسة : دار الكاتب العربي .

السندباد : دار الكاتب العربي .

فلسطين اولا : دار الكاتب العربي .

نحو مجتمع عربي متكامل : دار الكاتب العربي .

جيل الفداء : قصة الثورة الكبرى ونهضة العرب ، دار الكاتب العربي .

تشيكوسلوفاكيا وازمة الاشتراكية المعاصرة : دار الكاتب العربي .

تجربة عربي في الحزب الشيوعي : دار الكاتب العربي . الطبعة الثالثة

مناقشة اراء العلماء والقادة السوفيات في الامة والطابقة والوحدة والمقاومة وقضية فلسطين : دار الكاتب العربي .

موعد مع الكرامة : دار الكاتب العربي .

فيصل ومعركة الكرامة العربية : دار الكاتب العربي

الطبقة الجديدة : عن ميلوفان دجيلاس ، دار الكاتب العربي . الطبعة الثانية

مع توفيق الحكيم من عودة الروح الى عودة الوعي : دار الكاتب العربي .

النظام السياسي والاقتصادي في دولة الكويت : دار الكاتب العربي

التاريخ السعودي الميسر :

١ ـ مسيرة الايمان (١ ـ ١٠)

٢ ـ موعد مع الشجاعة (١ ـ ١٠) .

٣ ـ فيصل والبعث الجديد (١ ـ ١٠) .

اسرار العالم : ٢٠ جزءا .

. . . الكتاب سجل تاريخي حافل وضع باسلوب قصصي شيق . . . وهو إن اعتمد الاسلوب السلس الا انه مستوف كل شروط الكتاب العلمي.

ان «صلاح الدين الأيوبي» اكثر من كتاب تاريخ . انه ادب التاريخ. مؤلف موضوعي روعيت فيه الحقيقة والشروط العلمية الى ابعد حد. وانت تقرأه وكأنك تقلب مسلسلا من سير البطولة وحكايات التاريخ . . . اسلوب القلعجي يشدك الى الكتاب فلا تفلته من يدك قبل ان تأتي على نهايته.

أميلي نصر الله

وإني لأشهد اني على كثرة ما قرأت - من مصادر عربية وغربية - عن سيرة هذا البطل الذي ملأت حياته الدنيا وشغلت الناس، لم انتفع ولم أستمتع، كما انتفعت واستمتعت بهذه السيرة التي عرضها الأديب قدري قلعجي في كتابه الضخم، المانع الجامع، والتي كان فيها المؤلف مؤرخاً بأمانته، ومحللا بعقله، وناقدا بنصفته، ومصوراً بريشته - ووطنيا بقلبه وعاطفته.

خليل هنداوي

. . . تعاودني وأنا اتصفح كتاب «صلاح الدين الأيوبي»، هذا السفر القيم، كلمات نعيمة التي وجهها الى مؤلفه الاستاذ قدري قلعجي منذ ثمانية عشر عاما، من الواجب أن يقوم في الشرق من يجلو له وجوه ابطاله . . . وما عرفت من كتابنا من هم أجدر منك بمثل تلك المهمة . .

ففي كتاب «صلاح الدين الأيوبي» تثبت ملامح عملاقين: بطل ومؤرخ!

وما أحوجنا الى بطل يكتب سيرته مؤرخ عالم، وما أشد حاجتنا الى الاسترشاد بدراسة التاريخ، والتاريخ عند قدري قلعجي يعيش على الحقيقة الموضوعية، ويستند الى وقائع مادية، وبكتابه هذا وضع قدري قلعجي فاصلا بيّناً بين الاسطورة والتاريخ. فباسم شبابنا العربي التواق الى المعرفة الموضوعية له كل شكر.

حسن حمية

وكان أخر ما اتحفني به كتابه الضخم صلاح الدين الأيوبي الذي طالعته بشغف على حساب حرماني من النوم. صور قدري قلعجي البطل العربي الانسان، فاذا به مرآة تنعكس فيها صورة كل انسان انسان، سواء احمل سيفاً ام قلماً. بقوة الروح هذه تعرفنا عن كثب على صلاح الدين انساناً يدمع وانسانا يشفق وانسانا يصفح وانسانا يحب، واكتشفنا بمؤرخه الحديث انسانا آخر جديرا بكل تقدير ومحبة.

روبير أبيلا

كل ذلك اسلوب يمازجه القصص، روائي على شعر، تاريخي على ري، هادىء، رزين، صاف، سلس، حتى ان أي قارىء يتعلق بالكتاب ويشفق من ان ينهي قراءة هذه الصفحات القيمة، في جهد يخيل لك ان المؤلف أرسله أرسالا وكأنه لا يعاني التأليف الا بمقدار ما يرى فيه صورة لهاجسه النفسي الباحث عن حقيقة انسانية هي وحدها الخالدة الباقية. جهد معنت مضن، لكنه لعبة أطفال عند من كان لهم معرفة المؤلف وعمق وعيه وشموخ أدبه.

خليل الخوري